

جامعة الجزائر -2- أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

إمارة أرمينيا الصغرى بين السلاجقة والصليبيين
463-623هـ / 1071-1226م

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الوسيط

إشراف الأستاذة الدكتورة :

لطيفة بشاري

إعداد الطالب :

محمد زرقوق

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الجامعة الأصلية	الصفة
أ. د أحمد شريفي	جامعة الجزائر -2-	رئيساً
أ. د لطيفة بشاري	جامعة الجزائر -2-	مقررة
أ. د بشار قويدر	جامعة الجزائر -2-	عضواً
أ. د عبد العزيز بوكنة	جامعة الجزائر -2-	عضواً
د. فاطمة بوعمامة	المدرسة العليا للأستاذة	عضوة
د. نور الدين موهوبي	جامعة المدية	عضواً

السنة الجامعية 1438-1439 هـ / 2017-2018 م

جامعة الجزائر -2- أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

إمارة أرمينيا الصغرى بين السلاجقة والصليبيين

463-623هـ / 1071-1226م

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الوسيط

إشراف الأستاذة الدكتورة :

لطيفة بشاري

إعداد الطالب :

محمد زرقوق

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الجامعة الأصلية	الصفة
أ. د أحمد شريفي	جامعة الجزائر -2-	رئيساً
أ. د لطيفة بشاري	جامعة الجزائر -2-	مقررة
أ. د بشار قويدر	جامعة الجزائر -2-	عضواً
أ. د عبد العزيز بوكنة	جامعة الجزائر -2-	عضواً
د. فاطمة بوعمامة	المدرسة العليا للأساتذة	عضوة
د. نور الدين موهوبي	جامعة المدية	عضواً

السنة الجامعية 1438-1439 هـ / 2017-2018 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بَنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6)

صدق الله العظيم

سورة الروم، الآيات 1-6

الإهداء

إلى زوجتي التي تقاسمني حملو الحياة ومرها

و طامنا وفنت ورائتي

وشجعني وفنت العسرة والملة.

إلى أولادي الذين اختلست منهم وفنا للإبحار هذا البحث

محمد أمين، وعبد الحفيظ، وخولة، ويزيد

كلمة شكر وعرفان

أحمد الله تعالى وأشكره على آفٍ وفقي لإفخار هذا البحث، وأعاني على إتمامه وأهمني
قوة الصبر والمتابعة على فصل مثافه ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (سورة هود، الآية 88).
أفخر بعظيم شكري، ودافر امتناني، وتقدير العظيم، للأساتذة المتفرقة للأساتذة
الركنورة للعبقة بفاري، التي فملت عناء الإشراف على هذا البحث طيلة فمس سنوات، وشجعني
كثيرا على مواصلة، وساهمت في إخراجي إلى حيز الوجود. وأخلصت لي النصيحة، ومنعني من
وفتها التيسر، التي، الكثير، المتابعة مع المادة العلمية، وتصحيح الخطأ، وإكمال النقص. ولم يخل
على طخمة بنصائحها وتوجيهاتها، والتجارب مع الموضوع، واستقبالها لي، ونزلة الصعاب،
والرو على الاتصالات الهاتفية، في كل وقت. وإنه لم وداعي فخري واعتزلي بأفكوكا إسما
مسطرا على خلاص سالي.

وللا أنسى فضل أساتذتي الجليلة، الأساتذة الركنورة أحمد فريفي، الذي كاف له أثر كبير في
اختياري هذا التخصص، ولطالما شجعتني على مواصلة البحث، وبث روح الحماسة والنفة في
نفسي. لقد كاف بمنابة أخني الأكبر.

كما أشكر، وأخص بالذكر العتيب، الأساتذة الفاضلين : الأساتذة الركنورة محمد بن عميرة
الذي علمني أجريبات المنهج العلمي، والأساتذة الركنورة بفار فومرو الذي افنخر بأفكوكا فتلمرت على
بره، وفملت من منبعه أحمداش التاريخ الإسلامي.

أشكر زميلي محمد بوشروب، أساتذة الأدب العربي، على ما فرمه لي من مساعدة لإفخار هذا
البحث. ورفيقي في السفر الركنورة أحمد جلايلي، الذي زدوني بكثير من المراجع، وظل درائي حتى
إتمام البحث.

وللا بفوني آفٍ أوجه شكري إلى الأساتذة الركنورة جوكا كلوو فمينيه من جامعة السربوكا
بباريس، والركنورة جيلار وديفا من جامعة منتيليه، وجورج كبور فزيافا الباحث والعائم بنؤده
المكنية اليبز فقيمة في باريس، وكل من فرم لي بر المساعدة من قريب أو من بعيد.

وللا أستطيع آفٍ أجازيهم على معرفهم، ولكن أوجو العلي القدر بكل أسمائه الطمني، آفٍ
عزله لهم التواب في الدنيا والآخرة، وآفٍ بنفع بعلمهم وفضلهم، وآفٍ جعل عملهم هذا فخر اليبس
للا بنفع فيه مال ولا بنؤفا. آمين.

المحتويات

مقدمة 11

34..... الفصل الأول

بلاد الأرمن قبل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي

1- الإطار الجغرافي لبلاد الأرمن 36

أ - أرمينيا الكبرى 36

ب - أرمينيا الصغرى 39

2- تطور قيليقيا قبل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي 51

أ - قيليقيا قبل الفتح الإسلامي 51

ب - الفتوحات الإسلامية في قيليقيا 53

ج - عودة البيزنطيين إلى قيليقيا 62

د - التوسع البيزنطي في أرمينيا الكبرى 76

90..... الفصل الثاني

فتوحات السلاجقة واندلاع معركة مانازكرد

1- تعريف السلاجقة 93

أ - أصل السلاجقة 93

ب - خروج السلاجقة من تركستان 97

2- علاقة السلاجقة بالقوى الإسلامية في المشرق 102

أ - علاقة السلاجقة بالخلافة العباسية 102

ب - علاقة السلاجقة بالدولة الفاطمية 105

3- التوسع السلجوقي في أرمينيا الكبرى 109

أ - فتوحات طغرل بك 112

ب - فتوحات ألب أرسلان 118

4- معركة مانازكرد سنة 463هـ/1071م وأثرها على الأرمن 125

أ - استعدادات الإمبراطور رومانوس الرابع 129

ب - استعدادات السلطان ألب أرسلان 133

ج - اندلاع المعركة وانعكاساتها 135

د - عوامل انهزام البيزنطيين 140

هـ - انعكاسات معركة مانازكرد على الأرمن 143

146..... الفصل الثالث

الأرمن بين معركة منازكرد والحملة الصليبية الأولى

- 1- تأسيس سلطنة سلاجقة الروم في نيقية (474هـ/1081م) 150
أ - العوامل المساعدة على قيام السلطنة 152
ب - دور سليمان بن قتلمش في تأسيس السلطنة 154
ج - دور قلج أرسلان بن سليمان في بعث السلطنة 158
- 2- الهجرة الأرمنية 160
أ - سياسة الأرمنة في قيليقيا 160
ب - موقف البيزنطيين من الأرمن في قيليقيا 165
- 3 - تأسيس أول دولة أرمنية في قيليقيا (465-483هـ/1072-1090م) 167
أ - فيلاريت براخامبوس 167
ب - تمرد فيلاريت على الامبراطورية البيزنطية 169
ج - فيلاريت المدجن 177
د - فيلاريت بين بني عقيل وسلاجقة الروم 178
هـ - فيلاريت في مواجهة ملكشاه 183
و - فلاريت في المصادر الأرمنية والسريانية 187
- 4 - تأسيس إمارة بني روبين في قيليقيا 190
أ - بروز آل روبين وآل هيثوم 190
ب - روبين الأول (Roubên I) (1080-1095) 192

196..... الفصل الرابع

بدايات التعاون الأرمني الصليبي

- 1- جذور الحروب الصليبية 201
أ- حروب البيزنطيين ضد الفرس 201
ب- حروب البيزنطيين ضد المسلمين 203
ج- دخول السلاجقة إلى الشام 207
د- الدعوة إلى الحرب الصليبية 211
- 2- دور الأرمن في الدعوة للحرب الصليبية 214
أ- سفارة الجليلي جريجور الثاني فيكياسر 216
ب- جريجور الثاني في القسطنطينية 219

- ج - جريجور الثاني في روما 220
- د- جريجور الثاني في القاهرة..... 226

3- الصليبيون في آسيا الصغرى 232

- أ- نيقية أول امتحان للصليبيين 235
- ب- اتصال الصليبيين بالأرمن 243

4- في الطريق إلى أنطاكية 247

- أ - الأرمن في طرسوس 248
- ب - الأرمن في أذنة 250
- ج - الأرمن في المصيصة 251
- د - الأرمن في مرعش 252

256..... الفصل الخامس

من التعاون إلى المواجهة

1- ثوروس في مدينة الرها 261

- أ - ثوروس يستتجد ببلدوين 262
- ب - بلدوين ينقلب على ثوروس 265
- ج - سياسة بلدوين تجاه الأرمن في الرها 273

2- دور الأرمن في سقوط مدينة أنطاكية 276

- أ - تقديم المؤن والمساعدة للصليبيين 278
- ب - خيانة فيروز الأرمني للمسلمين 282
- ج - اجهاز الأرمن على ياغي سيان 285

3- كوغ فاسيل (Kogh Vasil) في كيسوم (Kaisoun) 287

- أ - علاقة كوغ فاسيل بالصليبيين 291
- ب - سياسة تانكرد تجاه الأرمن 296
- ج - سياسة بلدوين دو بور تجاه الأرمن 299
- د - سقوط إمارة كوغ فاسيل 303

4- جبريل في ملطية 307

- أ - ملطية في مواجهة الدانشمند 308
- ب - سقوط إمارة ملطية 315

314..... الفصل السادس

ثبات آل روبين في قيليقيا

1 - قسطنطين الأول بن روبين (488-494هـ/1095-1100م) 320

أ - توسيع حدود الإمارة 320

ب - مساعدة قسطنطين للصليبيين 324

2 - ثوروس الأول بن قسطنطين (494/524هـ/1100-1129م) 327

أ - علاقته بالسلاجقة 329

ب - دور ثوروس الأول في الحرب الأهلية بين السلاجقة 334

ج - علاقته بالصليبيين 338

3 - ليون الأول (524-532هـ/1129-1137م) 347

أ - الحرب بين ليون الأول والصليبيين 348

ب - قضاء الامبراطور يوحنا كومنين على إمارة أرمينيا الصغرى (1137م) 357

4 - ثوروس الثاني بن ليون الأول (539-563هـ/1145-1168) 367

أ - إحياء الإمارة 368

ب - الحرب بالوكالة 377

ج - التحالف الأرميني الصليبي ضد نور الدين زنكي 383

د - الامبراطور مانويل كومنين في قيليقيا 386

هـ - ثوروس في معركة حارم 390

و- مشروع مستوطنة أرمينية في فلسطين 392

5 - مليح بن ليون الأول (566-569هـ/1170-1174م) 393

أ - التحالف مع نور الدين محمود زنكي 394

ب - محاربة مليح الصليبيين والبننطيين 400

401..... الفصل السابع

من إمارة إلى مملكة

1 - روبين الثالث بن ستيفان (570-583هـ/1175-1187م) 409

أ - هجوم صلاح الدين الأيوبي على أرمينيا الصغرى 410

ب - الحرب بين أرمينيا الصغرى وإمارة أنطاكية 412

2 - ليون الثاني (583-616هـ/1187-1219م) 414

أ - بين صلاح الدين الأيوبي وليون الثاني 415

ب - ليون الثاني والحملة الصليبية الثالثة (585هـ/1189م) 418

422	ج - التوسع على حساب المسلمين
424	د - السعي للحصول على التاج الملكي
431	3 - ملامح التحولات الدينية والثقافية في أرمينيا الصغرى
432	أ - الكنيسة الأرمنية بين التسامح الاسلامي والتعصب المذهبي المسيحي
442	ب - علاقة الكنيسة الأرمنية بالكنيسة الكاثوليكية
448	ج - المؤثرات الاجتماعية والثقافية
454	خاتمة
459	الملاحق
460	الوثائق
479	السلطين والأمراء
482	الخرائط
488	الصور
492	قائمة المصادر والمراجع
520	فهرس الأعلام
527	فهرس الأماكن والبلدان
536	الملخص

أهم الاختصارات

Crus. Enc.	The Crusades An Encyclopedia
ds.	dans
éd.	Edition
Enc. Isl.	The Encyclopaedia of Islam
fasc.	Fascicule
H.P. Arm.	Histoire du Peuple Arménien
R.E. Arm.	Revue des Etudes Arméniennes
R.E. Byz.	Revue des Etudes Byzantines.
R.H.C.D. Arm.	Recueil des Historiens des Croisades Documents Arméniens
R.O. Chr.	Revue de l'Orient Chrétien
S.B.S.	Studies in Byzantine Sigillography

مفرد

إن الباحث الذي يريد دراسة تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، أو الحروب الصليبية في المشرق الاسلامي، خاصة الحملة الصليبية الأولى، يجد نفسه ملزماً بالتعرض إلى تاريخ أرمينيا الصغرى، تلك الدولة التي نشأت في إقليم الثغور أو الدروب -على حد تعبير الجغرافيين والمؤرخين المسلمين- الواقع في الركن الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى، بين جبال طوروس والبحر المتوسط. وهو الاقليم الذي يعرف في المصادر اللاتينية والاعريقية باسم قيليقيا. لقد هرع إليه عدد كبير من الأرمن عقب معركة مانازكرد في سنة 463هـ/1071م. وأسسوا فيه أول دولة أرمنية جديدة في المنفى. ورغم أنها لم تكن إمبراطورية شاسعة مترامية الأطراف، ولم تكن تملك جيشاً عرمرماً يثير الرعب في العالم، فإنها استطاعت الصمود مدة ثلاثة قرون وسط عواصف سياسية وعسكرية هوجاء مدمرة، وتيارات حضارية متناقضة، وظلت طيلة وجودها، تشكل شوكة في حلق الإمارات والدول الإسلامية المعاصرة لها.

واشتهر الأرمن عبر تاريخهم الطويل بالقدرة على التكيف والتأقلم مع المتغيرات الإقليمية والدولية، بل وتوظيفها للحفاظ على وجودهم وسط الامبراطوريات التي تحيط بهم، مما مكّنهم من الاحتفاظ بهويتهم، وعدم الانصهار في القوميات والحضارات التي خضعت لها بلادهم. ويعود ذلك أساساً إلى فطنة ودهاء ملوكهم وأمرائهم، الذين كانوا يعملون وفق المبدأ القائل "لا يوجد أصدقاء دائمون، ولا أعداء دائمون، ولكن توجد مصالح دائمة". ولذلك تأرجحت علاقة أرمينيا الصغرى بكل القوى المجاورة لها، إسلامية ومسيحية، بين الصفاء والعداء، وفقاً لمقتضيات الظروف والأحوال السياسية والعسكرية.

وتتضح معالم هذه السياسة أكثر خلال فترة الحروب الصليبية، أو ما يسمى بـ "الحج المسلح" نحو البلاد المقدسة. إذ غدت أراضي إمارة أرمينيا الصغرى معبراً رئيساً، للجيوش الصليبية التي خرجت من أوروبا الغربية بهدف الغزو، وإقامة مستوطنات مسيحية صليبية في بلاد الشام، مستفيدة من الصراع المذهبي الذي قسم العالم الإسلامي إلى معسكرين متناحرين، أحدهما سني بقيادة الخلافة العباسية والآخر شيعي بقيادة الدولة الفاطمية. فضلاً عن داء التشتت والانقسام الذي ضرب المسلمين مشرقاً ومغرباً. ولم يقتصر دور الأرمن في الحروب الصليبية على تقديم المساعدات والمرشدين للفرنجية أثناء عبورهم دروب جبال طوروس، بل كانوا سباقين في الدعوة إلى هذه الحرب قبل انعقاد مؤتمر كليرمونت. حيث توجه رئيس الكنيسة الأرمنية جريجور الثاني

Catholicos Grigor II (1065-1105م))، على رأس سفارة بيزنطية إلى روما، والتقى فيها برئيس الكنيسة الكاثوليكية، البابا جريجوار السابع (Grégoire VII (1073-1085))، وتحدث معه عن الأوضاع في أرمينيا، وفي الامبراطورية البيزنطية بعد معركة مناكرد، وأن الزحف الاسلامي الذي يقوده الأتراك السلاجقة قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من القسطنطينية، البوابة الشرقية لقارة أوروبا. ولذلك اعتبر المؤرخ الفرنسي روني جروسسيه (René Grousset)، أن انهزام الامبراطورية البيزنطية في معركة مناكرد سنة 463هـ/1071م، تسبب في اندلاع الحروب الصليبية، حيث قال : "L'année 1071 appelle 1095".

وابتهج الأرمن بحلول الصليبيين في آسيا الصغرى. فقدموا لهم كل ما يحتاجونه من مؤونة واستشارة. ورأوا فيهم شعاع الأمل الذي يومض بين دياجير الخوف من التهديد التركي، باعتبارهم خصما من خصوم البيزنطيين والمسلمين على حد سواء. وبعد أن استقر الفرنجة في بلاد الشام، وأسسوا فيها إماراتهم الصليبية، اكتشف الأرمن الوجه الحقيقي للصليبيين، الذين أرادوا التوسع على حساب الإمارات الأرمينية الصغيرة في إقليم الفرات وقيليقيا، وتأكد لهم عمليا أنهم لم يأتوا إلى الشرق لإنقاذ المسيحيين من اضطهاد السلاجقة والمسلمين لهم، بل جاؤوا لتحقيق مصالح وأطماع شخصية. وأنهم غير مستعدين للتعاون من أجل مصلحة العالم المسيحي. ولا يتورعون عن اغتنام أية فرصة لضم أراضٍ جديدة وإلحاقها بإماراتهم، ولو على حساب المسيحيين الشرقيين الذين هم في نظر الصليبيين هراطقة. وأدرك الأرمن بعد فوات الأوان، أنهم وقعوا بين شقي الرحى. ورغم الخلافات والنزاعات التي وقعت بينهم وبين الصليبيين، فقد واصلوا دعمهم للإمارات الصليبية؛ لأنهم أحسوا بوحدة المصير ووحدة الأخطار التي تتهددهم جميعا، وأدركوا أن بقاء إمارتهم في أعالي جبال طوروس، منوط باستمرار الوجود الصليبي في بلاد الشام.

وقد أثار هذ الموضوع اهتماماتي البحثية، واستهواني كثيرا، لما كنت بصدد تحضير مذكرة الماجستير، التي كان موضوعها "مملكة أرمينيا الصغرى بين المغول والمماليك"، بإشراف الأستاذة الدكتورة لطيفة بشاري، الأمر الذي جعلني أتعرض له بهذا البحث الذي يتناول صفحة من صفحات تاريخ أرمينيا الصغرى، في لحظة حرجة من تاريخ الأمة الإسلامية. وهي حقبة الحروب الصليبية التي امتدت على مدى القرنين السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. وقد حاولت، تسليط الضوء على أهم نقاط التقاطع في الصراع بين الأرمن والسلاجقة والصليبيين، لفهم الدور الذي قاموا به في علاقتهم بالمسلمين، خلال مرحلة حساسة من التاريخ الاسلامي. وليس من

اهتمامات هذا البحث دراسة أوضاع كل الشعوب التي جاورت إمارة أرمينيا الصغرى، كالسلاجقة العظام، والأرأتقة، والبيزنطيين، والأيوبيين، إلا بما يتصل بالموضوع. ولذلك أجملت الأحداث أحيانا، وفصلتها أحيانا أخرى، حسب متطلبات الموضوع، وتوقفت عند أبرز الأحداث التي صنعت تاريخ أرمينيا الصغرى.

وقد جاء هذا البحث بعنوان : "إمارة أرمينيا الصغرى بين السلاجقة والصليبيين (463-623هـ/1071-1226م)"، وقد اخترت سنة 463هـ/1071م، بداية له؛ لأنها تعتبر من السنوات المفصلية في تاريخ العصور الوسطى، ففيها وقعت معركة منازكرد الشهيرة، بين السلاجقة والبيزنطيين على أرض أرمينيا، ونتج عنها عدة تحولات إقليمية ودولية، فضلا عن نزوح الأرمن بأعداد هائلة من موطنهم الأصلي نحو كبادوكيا وقيليقيا، وهناك أسسواوطنا بديلا لهم. أما سنة 623هـ/1226م، التي توقف عندها البحث، فهي تمثل نهاية سلالة آل روبين وبداية سلالة آل هيثوم في تولي شؤون مملكة أرمينيا الصغرى، حيث توفي الملك ليون الأول في سنة 616هـ/1219م، ولم يكن له ابن يرثه، فانتقل التاج في سنة 623هـ/1226م، إلى الملك هيثوم الأول الذي غير معالم السياسة الخارجية لمملكة أرمينيا الصغرى، بإحلال التحالف مع المغول محل التحالف مع الصليبيين.

إشكالية البحث

يحاول البحث الحصول على إجابات لأسئلة ذات صلة بدور إمارة أرمينيا اللافت للانتباه، في بعض الحملات الصليبية، ومن بينها :

- لماذا نشأت إمارة أرمينيا الصغرى في إقليم قيليقيا بالذات ؟ ولسيادة من كان يخضع هذا الإقليم قبل أن تطأه أقدام الأرمن ؟
- هل بدأ نزوح الأرمن نحو قيليقيا قبل معركة منازكرد أم بعدها ؟ وهل كان التهديد السلجوقي لآسيا الصغرى سببا ساهم في هجرة الأرمن إلى قيليقيا ؟ وهل كان لهذا الاقليم من الأهمية عند الحكام المسلمين والأباطرة البيزنطيين، ما جعله محل صراع بينهم ؟
- كيف نجح الأرمن في تأسيس هذه الإمارة ؟ وما هي الظروف التي ساعدتهم على ذلك ؟ وكيف تعامل السلاجقة معها ؟ وخاصة سلاجقة الروم ؟

- ما سر ارتباط تاريخ أرمينيا الصغرى بالصليبيين ؟ هل كان ذلك لدوافع دينية أم لدوافع سياسية ؟ وهل كان السلاجقة فعلا يثيرون الرعب في قلوب المسيحيين إلى درجة الدعوة إلى حملة صليبية ؟
- كيف تطورت العلاقة الأرمينية الصليبية خلال القرن الثاني عشر الميلادي ؟ هل كانت كلها وداً و صفاءً أم تخللتها نزاعات وحروب ؟ ألم يكن للخلاف المذهبي أثر على تلك العلاقات ؟
- ما هو موقع الكنيسة الأرمينية من تلك الأحداث ؟ هل تأثرت بتلك الوقائع أم أثرت فيها ؟
- هل كانت أوضاع الأرمن أفضل في ظل الحكم الصليبي أم خلال العصور الإسلامية ؟
- ما هو أثر تلك الأحداث في الحجاج الأرميني التركي الذي يجري اليوم ؟

أسباب اختيار الموضوع :

أما عن أسباب اختياري لهذا الموضوع فتعود لثلاثة عوامل هي :

الأول : توجيهات أستاذي الفاضل، الأستاذ الدكتور أحمد شريف الذي ترك بصماته واضحة على توجهاتنا في الدراسات العليا، حينما لفت انتباهنا بأسلوبه الشيق في السنة الأولى ماجستير، إلى مجموعة من المواضيع كانت حكرًا على المستشرقين والجامعات الأوروبية، ومجهولة وغير مطروقة في الجامعات الجزائرية، وهي تتعلق بتاريخ قارة آسيا وعلاقتها بالعالم الإسلامي. وفي الواقع لم أكن أميل إلى الدراسات الآسيوية، ولم أكن أملك من المعلومات ما يؤهلني لإنجاز بحوث في تاريخ شعوب آسيا، بل كنت شغوفًا بتاريخ صدر الإسلام، وبتاريخ المغرب الإسلامي. غير أن تشجيعات الأستاذ على خوض غمار هذه التجربة العلمية التي تعد من الدراسات النادرة في الوطن العربي، جعلتني أقبل عليها وأتحمس لها، بل وأجد متعة في سبر أغوارها رغم صعوبتها، جزاه الله عني خيرًا.

الثاني : تشجيعات الأستاذة الدكتورة لطيفة بشاري زوجة بن عميرة، التي شرفتني بإشرافها على هذا الموضوع، إذ بمجرد أن اقترحته عليها، وضحت لي بعض زواياه الغامضة، وكان رأيها أن استمر في هذا البحث، ونبهتني منذ بداية العمل أنه موضوع شائك، وصعب، ولا بد من التحلي

بالصبر. كما شجعتني على ضرورة القيام برحلات علمية إلى تركيا وفرنسا لجمع المادة العلمية. ولا أنسى ما قدمته لي من دعم طيلة خمس سنوات هي عمر هذه الدراسة. جزاها الله تعالى عني خير الجزاء.

الثالث : ندرة الدراسات العربية الأكاديمية المتخصصة في تاريخ أرمينيا الصغرى، وما كتب في الوطن العربي حديثا يتعلق بتاريخ أرمينيا الكبرى فقط، مجرد كتيبات قليلة تعد على أصابع اليدين، بعضها يفتقد إلى الصفة العلمية. أما عن تاريخ أرمينيا الصغرى، فتكاد الدراسات تكون فيه منعقدة باستثناء دراستين ستعرض لهما لاحقا.

وعلى العكس من ذلك فقد تصدى للكتابة في هذا الموضوع عدد من المؤرخين والباحثين بلغات مختلفة، أكثرهم كتبوا باللغة الفرنسية، مما أدى إلى تبلور مدرسة فرنسية تربعت على عرش هذه الدراسات، فبرز فيها يوسف لورانت (Joseph Laurent)، ورونيه جروسيه (René Grousset)، وإدوار ديلورييه (Edouard Dulaurier)، وجون كلود شينييه (Cheynet Jean-Claude)، وجيرار ديديان (Dédéyan Gérard)، وكلود موتافيان (Claude Mutafian)، وباسدرماجيان H. (Pasdermadjian) وآخرون كثيرون. ونظرا لاهتمام الباحثين الفرنسيين بالدراسات الأرمنية التي أصبحت عندهم تخصصا قائما بذاته يسمونه Arménologie، فقد أصدروا حولية متخصصة باسم "Revue des études Arméniennes" صدر العدد الأول منها في باريس سنة 1920م، وأتبعوها بحولية أخرى تهتم بالقضايا المعاصرة فقط عنوانها : "Etudes Arméniennes contemporaines" صدر أول عدد منها في سنة 2013م، في باريس دائما.

وإذا كان هؤلاء يعتبرون رواد ما يسمى بالدراسات الأرمنية (Arménologie)، فإن كتاباتهم تعبر عن وجهة نظر واحدة، لأنهم اعتمدوا على مصادر أرمينية وأخرى قريبة منها، دون الرجوع إلى مختلف الأصول الأخرى، وخاصة العربية منها. وهذا لا يعني أننا ننكر جهود أولئك العلماء والباحثين، أو أننا نغبط حقهم كمؤرخين، فهم الذين وضعوا اللبنة الأولى في تاريخ الأرمن، ولا يستطيع أي باحث الاستغناء عما وصلوا إليه من نتائج. وتكاد المكتبة العربية تخلو من هذه الدراسات المتخصصة بأقلام عربية أو جزائرية، تجمع بين مصادر ومراجع متنوعة، وبأسلوب علمي وأكاديمي.

ولجمع المادة العلمية من أصولها، والاطلاع على أحدث ما صدر من مؤلفات ومقالات في الموضوع، قمت بعدة رحلات علمية، إل كل من تركيا وفرنسا وتونس، بعضها بتمويل من جامعة خميس مليانة، وبعضها بإمكانياتي الخاصة. حيث قمت بزيارتين علميتين إلى تركيا، زرت فيها مركز البحوث الإسلامية (ISAM)، والمؤسسة الفرنسية للدراسات الأناضولية (I.F.E.A.) بإسطنبول، وعثرت فيهما على بعض الكتب العامة وعلى بعض المقالات، باللغات العربية والانجليزية والفرنسية، وكان عدم إتقاني للغة التركية واللغة الأرمنية سببا في عدم استفادتي من كثير من الكتب المتوفرة في هذين المركزين. ولما حاولت الاتصال ببعض الفعاليات الأرمنية هناك، نصحتني بعض الأساتذة الأتراك بعدم المغامرة. ثم قمت برحلتين إلى باريس، زرت فيها مكتبة نوبار للدراسات الأرمنية، والمكتبة البيزنطية، ومكتبة سانت بارب، ومكتبة الكنيسة الأرمنية الرسولية، والمكتبة الوطنية، وبعض المكتبات الجامعية، فضلا عن المكتبات الأرمنية الخاصة. ووجدت هناك كما هائلا من أمهات المصادر والمراجع الحديثة، فكرست وقتي لتلخيص بعضها، وتصوير كثير منها. كما مكنتني هذه الزيارات من عقد لقاءات واتصالات مع بعض الأساتذة المتخصصين في الموضوع، أذكر منهم جان كلود شينيه (Jean-Claude Cheynet) وجيرار ديديان (Gérard Dédéyan).

واقتضت طبيعة الموضوع أن أقسم البحث إلى سبعة فصول فضلا عن المقدمة والخاتمة.

جاء الفصل الأول بعنوان : "بلاد الأرمن قبل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي"، وهو فصل تمهيدي أردت من خلاله تحديد الإطار الجغرافي للبحث، دون الإلتزام بالإطار الزمني المحدد في العنوان. فتعرضت فيه للفتوحات الإسلامية في إقليم قيليقيا (الثغور)، واهتمام الخلافة الإسلامية به. وقد أردت أن أثبت من خلال هذا الفصل، أسبقية المسلمين في امتلاك هذا الإقليم، قبل أن يؤسس فيه الأرمن دولتهم، ولذلك غلب عليه الطابع السردى للأحداث. فبعد أن اقتطع المسلمون هذا الإقليم من الامبراطورية البيزنطية، وألحقوه بالخلافة الأموية، ثم بالخلافة العباسية، لم يكن للأرمن أي وجود سياسي في قيليقيا. ذلك لأنني لاحظت أن الدراسات الأرمنية الحديثة، تريد إثبات الوجود السياسي للأرمن في آسيا الصغرى عموما، وفي قيليقيا تحديدا قبل أن تطفأ أقدام الأتراك أراضي آسيا الصغرى. وإن كان لا يمكن التكرار لهذه الحقيقة، فإنه لا ينبغي جهل حقيقة أخرى، وهي أن إقليم قيليقيا دخل في حوزة المسلمين، وبات جزءا من دار الإسلام منذ القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، يومها كان الأرمن يعيشون على أطراف القوقاز في ما يسمى بأرمينيا الكبرى. ومهما كانت

السلطة السياسية التي حكمته، أموية أو عباسية أو حمدانية، أم سلجوقية فجميعها تنتمي إلى العالم الاسلامي.

وكان عنوان الفصل الثاني : "فتوحات السلاجقة واندلاع معركة مناظر"، تعرضت فيه لبروز السلاجقة على الساحة السياسية واعتناقهم الاسلام على المذهب الحنفي، ثم تحالفهم مع الخلافة العباسية وحمائهم لها من المد الشيعي، وتوسعهم في آسيا الصغرى، إلى غاية اندلاع معركة مناظر في سنة 463هـ/1071م. وبينت فيه أن سلاجقة فارس كانوا يعملون على توحيد العالم الاسلامي سياسيا ومذهبيا بالقضاء على الفاطميين الذين وصفهم المؤرخ الفرنسي روني جروسي بأنهم "بيزنطيو الاسلام" (Byzantins de l'Islam)، ومع ما لهذا الوصف من مبالغة، فإنه يحمل جزءا من الحقيقة، لأن الفاطميين الشيعة برعوا في استخدام الألاعيب الدبلوماسية والمكر السياسي لضرب السلاجقة. وبينت فيه أيضا أنه إذا كان من الواضح أن معركة مناظر قد أدت إلى نزوح أعداد كبيرة من الأرمن نحو إقليمي الجزيرة وقيليقيا، وبداية التفكير في طلب المساعدة من الغرب الأوربي المسيحي، فإنها قد ساهمت من جهة أخرى في إنقاذ الدولة الفاطمية من السقوط.

وأما الفصل الثالث فقد كان عنوانه : "الأرمن بين معركة مناظر والحملة الصليبية الأولى"، تناولت فيه تأسيس سلطنة سلاجقة الروم في نيقية، وفي نفس الوقت تأسيس أول وأكبر دولة أرمنية في المنفى بقيليقيا، لأن الشائع عند كثير من المؤرخين، أن إمارة آل روبين في قيليقيا هي أول إمارة أرمنية، بينما تثبت الأحداث التاريخية أن فيلاريت براخامبوس هو أول أرمني ثار على السلطة البيزنطية في إقليم قيليقيا. وأسس فيه دولة جمعت أرمن الشتات، أو ما يسمونه اليوم بالدياسبورا (diaspora)، استمرت إلى غاية وفاته في سنة 483هـ/1090م. والملاحظ أن هذه الدولة، ظلت تتأرجح في علاقاتها الخارجية بين ولائها للإمبراطورية البيزنطية واعترافها بالتبعية للسلاجقة، حفاظا على وجودها وسط قوى متضاربة. ولكنها لم تستطع الصمود أمام توسع السلاجقة في إقليمي الجزيرة وقيليقيا، مما أدى إلى اندثارها وزوالها قبل وصول حشود الحملة الصليبية الأولى إلى آسيا الصغرى.

وتعرضت في الفصل الرابع الذي جاء بعنوان : "بدايات التعاون الأرمني الصليبي"، إلى الحملة الصليبية الأولى، ودور الأرمن في الدعوة لها، والمساهمة فيها، وناقشت فيه مدى صحة التهمة الموجهة للسلاجقة، بأنهم اضطهدوا (حجاج) بيت المقدس، ومنعواهم من التردد على بقاعهم المقدسة في فلسطين. ثم تعرضت إلى انهزام سلاجقة الروم، أمام جيوش الصليبيين الذين اندفعوا كالسيل الجارف

في آسيا الصغرى، واتصلهم بالأرمن الذين رحبوا بهم سواء في قيليقيا أو في كبادوكيا ثم في منطقة الفرات التي وصلوا إليها في خريف سنة 490هـ/1097م. وخلال هذه المرحلة تميزت العلاقات الأرمنية الصليبية بالتعاون التام، والتحالف المطلق ضد السلاجقة المسلمين لطردهم من المدن والحصون التي كانت تحت سيطرتهم.

وفي الفصل الخامس الذي عنوانه : "من التعاون إلى المواجهة"، رأيت من الضروري التطرق إلى الإمارات الأرمنية الصغيرة التي نشأت عقب اندثار دولة فيلاريت. وفي هذا الفصل يظهر الوجه الحقيقي للصليبيين، ليس في علاقتهم بالمسلمين فحسب، بل حتى في علاقتهم بالأرمن، الذين تعلقوا بأهداب الفرنجة، وبعد فوات الأوان اكتشفوا بأن حكم الأتراك أهون عليهم من حكم الإفرنج حسب تعبير مؤرخهم المشهور متى الرهاوي.

ويلي ذلك، الفصل السادس وعنوانه : "ثبات آل روبين في قيليقيا"، بحثت فيه تطور إمارة أرمينيا الصغرى في قيليقيا، بعد زوال كل الإمارات الأرمنية الصغيرة، متتبعا سير أحداثها حسب تسلسل أمرائها من قسطنطين الأول إلى روبين الثالث، وعلاقتهم بالصليبيين وبالسلاجقة معرجا على أهم الأحداث التي تقاطعوا فيها مع البيزنطيين، والزنكيين، والأيوبيين. وقد بذلت جهدا في تقديم تلك الأحداث رغم تشابكها، وتعقدها، وغموض البعض منها، وندرة المعلومات في المصادر، واختلافها أحيانا في تحديد إطارها الزمني. وبينت في هذا الفصل هشاشة هذه الإمارة وضعفها، وعدم قدرتها على الصمود أمام أي عاصفة قادمة من جهة المسلمين أو الصليبيين أو البيزنطيين، غير أنها تمكنت من الثبات والاستمرار، لأن جميع الدول المحيطة بها، كانت تفضل بقاء هذه الإمارة لتكون دولة حاجزة بينها وبين أعدائها. وتتضح معالم هذه السياسة أكثر في علاقة نور الدين زنكي محمود بالأمير مليح الأرميني.

أما الفصل السابع والأخير فقد كان عنوانه : "من إمارة إلى مملكة"، تناولت فيه المرحلة الأخيرة من عهد الإمارة. وهي الحقبة التي حكمها الأمير ليون الثاني، الذي اغتنم فرصة الحملة الصليبية الثالثة، وحاجة الغرب الأوربي إلى حليف دائم في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، بعد سقوط مملكة بيت المقدس. فتحصل على التاج وجعل من إمارة أرمينيا الصغرى مملكة قائمة باعتراف أكبر القوى الروحية والزمنية المسيحية في عصره، وفي عهده تعاظم دور هذه المملكة في المنطقة. ولم أتعرض لتفاصيل كثيرة تتعلق بالأحداث التي شهدتها أرمينيا الصغرى بعد تتويج ليون الثاني، لأن

البحث يتعلق بالمرحلة التي كانت فيها أرمينيا الصغرى إمارة، وليس بعدما تحولت إلى مملكة. كما أن الدكتورة فاطمة بوعمامة، تعرضت في مذكرتها لكل التفاصيل المتعلقة بهذه المرحلة الجديدة من عمر مملكة أرمينيا الصغرى. ورأيت أنه من الواجب إنهاء هذا البحث بإعطاء لمحة عن علاقة الكنيسة الأرمنية بكل من الكنيسة البيزنطية والكنيسة الكاثوليكية الصليبية، وبينت فيه أن التسامح الديني الذي حظي به الأرمن في ظل الحكم الإسلامي لا نظير له في العهد البيزنطي أو الصليبي. ثم قدمت لمحة عن أهم المؤثرات الاجتماعية والثقافية التي دخلت على المجتمع الأرميني خلال الحروب الصليبية.

أما الخاتمة فقد تضمنت أهم الاستنتاجات التي توصلت إليها في هذا البحث.

هذا ولم يشن عزمنا أو يفت من عضدنا ما لاقينا من صعوبات أثناء جمع المادة العلمية، خاصة وأن المصادر العربية على كثرتها وتعددتها لم تسعفنا، ولم نجد فيها ما يشفي غليلنا عن أرمينيا الصغرى، سوى شذرات قليلة متناثرة هنا وهناك، وهي غير كافية لإمطة اللثام عما اكتنف بعض جوانب العلاقات بين الأرمن والسلاجقة والصليبيين من غموض. فضلا عن أن معظمها قد التزم الصمت المطبق حيال كثير من الأحداث، مما دفعني إلى البحث عن مصادر أخرى لسد الثغرات. لذا كان اعتمادي على المصادر الأرمينية كبيرا، ولست مبالغا إذا قلت : انها غطت مساحة كبيرة من المادة العلمية المعتمدة في هذا البحث. ولكن مشكلة اللغة الأرمينية حالت دون استفادتي من هذه المصادر بلغتها الأم، ولا يوجد في الجزائر مراكز لتعليمها. فاعتمدت على المصادر المترجمة إلى اللغة الفرنسية. كما أن المكتبات الجزائرية، مع نظامها البيروقراطي، فهي لا تتوفر على أحدث الدراسات فيما يتعلق بتاريخ أرمينيا الصغرى.

وأرجو في الأخير أن أكون قد وفقت في إضافة بحث جديد للمكتبة العربية بقلم جزائري، أو على الأقل ساهمت في إكمال النقص الذي تعاني منه المكتبة العربية، وحسبي في ذلك محاولة الاجتهاد. هذا و لا يفوتني أن أجدد شكري وامتناني للأستاذة الدكتورة بشاري لطيفة، المشرفة على الرسالة، داعيا المولى عز وجل أن يدخر لها هذا العمل، ليوم تنقطع فيه الأعمال. كما أتقدم بالشكر الجزيل لجميع أعضاء لجنة المناقشة على صبرهم وقبولهم قراءة، ومناقشة هذا البحث، الذي مهما بذلت فيه من جهد، يبقى في حاجة إلى ملاحظاتهم، وتوجيهاتهم لتصحيح المعلومات، وتصويب الآراء، وسد النقص الذي اعتراه.

عرض وتحليل لأهم مصادر البحث

المصادر الأرمنية

تطلب موضوع البحث في تاريخ إمارة أرمينيا الصغرى العودة إلى كثير من المصادر الأرمنية، هذا بالإضافة إلى بعض المصادر اللاتينية والسريانية والعربية، سعياً لاستخلاص الحقيقة التاريخية من بين خطوطها المتشابكة، وتم الاعتماد على المصادر الأرمنية في المقام الأول، فهي التي أسهبت في تدوين تاريخ أرمينيا الصغرى، وأمدت البحث بفيض غزير من المعلومات، على عكس المصادر الأخرى. فضلاً عن أن كاتبها كانوا من شهود العيان، أو نقلوا عن شهود عيان، الذين أمدوهم بالمعلومات التي دونوها. ويجب التعامل مع المصادر الأرمنية بحذر، فهي تسمي المسلمين كفاراً، أو أبناء سارة (Sarrasin)، أو داجيج (Dadjig)، وتسمي الأتراك فرساً، وأحياناً تستخدم ألفاظاً نابية في وصف المسلمين أو البيزنطيين. وأول هذه المصادر ما ألفه :

متى الرهاوي (Matthieu d'Edesse) : تحتل حوليته صدارة المصادر الأرمنية، التي كتبت خلال القرن الثاني عشر الميلادي باعتباره معاصراً وشاهد عيان على كثير من الأحداث التي كتب عنها. ولا توجد إلا معلومات قليلة حول حياته، لا تكفي لرسم صورة واضحة عن الحياة الاجتماعية والسيرة العلمية والعملية لهذا المؤرخ. ينحدر متى الرهاوي من أصول أرمنية، ويقال إنه من مواليد أرمينيا، ويشار أحياناً إلى أنه من مواليد الرها التي ينتسب إليها، وقد شغل منصب رئاسة أحد الأديرة في الرها. ويبقى تاريخ ميلاده ووفاته يكتنفهما الغموض، وتذكر بعض المراجع أن تاريخ وفاته كان في عام 531هـ/1136م، وهي السنة التي يختم فيها متى الرهاوي حوليته، وهناك رأي آخر يحدد تاريخ وفاته بعام 539هـ/1144م، وهي السنة التي سقطت فيها مدينة الرها في يد عماد الدين زنكي. ويؤكد مؤرخون آخرون أنه توفي في سنة 543هـ/1150م. ويبدو أنه عجز عن الاستمرار في الكتابة بعد سنة 531هـ/1136م، لأنه أصبح طاعناً في السن، فأكمل تلميذه جريجوري الراهب الكتابة حتى سنة 556هـ/1163م.

وقد ألف الرهاوي، كتابه المعروف باسم "تاريخ متى الرهاوي"، بطريقة الحوليات، بدءاً بسنة 352هـ/963م إلى 531هـ/1136م واستغرق مدة خمسة عشر عاماً، وبعد الانتهاء ذهب إلى مدينة كيسوم. ويفهم من كتابه أنه زار كنيسة القيامة بمدينة القدس في سنة 490هـ/1097م، حيث

يذكر أنه لاحظ وجود ثلاثة أسهم ثبتت في السقف، ولا تزال حتى وقته. واعتمدت في انجاز هذا البحث على النسخة التي ترجمها إدوار ديلورييه من اللغة الأرمنية إلى اللغة الفرنسية، ونشرها كاملة في سنة 1858م. وعلى النسخة العربية التي ترجمها لأول مرة الرويضي محمود محمد و مصطفى عبد الرحيم، من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، ونشرت في سنة 2012م.

كتب الرهاوي بأسلوب تظهر فيه الروح الوطنية الأرمنية والنزعة الدينية، وكثيرا ما يندفع بحماسة السياسي والديني، ولا يتورع عن استعمال صفات قبيحة لوصف أعدائه من المسلمين والبيزنطيين والصليبيين وحتى من الأرمن الذين كانوا على مذهب الكنيسة البيزنطية، نظرا لعداوته المتأصلة والصريحة لكل ما هو بيزنطي. بينما يميل إلى تمجيد قادة من أبناء جلدته، ويجعلهم في رتبة الصالحين والأولياء، ويتغنى بأعمالهم وبطولاتهم إلى درجة المبالغة، والتعصب، ولذلك ينبغي التعامل معه بحذر شديد.

وترجع أهمية ما كتبه متى الرهاوي إلى أنه كان رئيسا لأحد الأديرة في الرها بعد أن استولى عليها الصليبيون من الأرمن، وقد مكنه هذا المنصب من الاتصال بالحكام المسلمين والأرمن والصليبيين. ولذلك يعد كتابه مصدرا أساسيا لدراسة تطور إمارات أرمينيا الصغرى منذ عهد فيلاريت (1072-1090م) إلى عهد الأمير ليون الأول بن قسطنطين (1129-1137)، وعلاقاتهم بالصليبيين والمسلمين والبيزنطيين. فقد غطى جوانب عديدة من موضوعاتها كشاهد عيان على كثير من الأحداث التي جرت في الرها وأنطاكية، والجزيرة. ونقل بعض معلوماته عن المناطق البعيدة التي كتب عنها، عن شهود عيان عاشوا أو كانوا في تلك المناطق، أو اعتمد على رسائل كان يتم تبادلها بين قادة الفرنج والأرمن. ومثل غيره من المؤرخين فقد كان يهادن الحكام المعاصرين له، خاصة الصليبيين، ولم يتجرأ على كتابة شيء يمس جرائمهم، أو التعبير عن شيء من أفعالهم إذ يقول: "لقد أردنا حصر جرائمهم غير أننا لم نتجرأ على فعل ذلك لأننا كنا تحت سلطتهم".

جريجوار الراهب (Grégoire le prêtre) : جاء كتابه مكملا لتاريخ متى الرهاوي، ولا تمدنا المصادر بمعلومات وافية عنه سوى أنه كان تلميذا لمتى الرهاوي، وأنه شغل منصب أسقف مدينة كيسوم لمدة تزيد عن نصف قرن، مما جعله على اتصال بالحكام الصليبيين، والبيزنطيين، والسلاجقة المسلمين، لأن هذه المدينة كانت جزءا من إمارة الرها وتحت الحكم الصليبي، ثم آلت إلى الزنكيين بعد سقوطها. وكانت تجاور الأملاك البيزنطية بعد أن تنازلت زوجة جوسلين الأول عن

بعض حصونها وقلاعها للإمبراطور مانويل كومنين، وقد توفر للمؤرخ فرصة سانحة لرؤية الأحداث التاريخية التي جرت حول مدينة كيسوم. ومن الأحداث التي عاصرها ودونها في تكملته لتاريخ متى الرهاوي، حملة الامبراطور يوحنا كومنين (1118-1143م) على قيليقيا والشام في سنة 531هـ/1137م والتي أدت إلى القبض على الأمير ليون الأول، وأخذه أسيرا إلى القسطنطينية، ثم حملة مانويل كومنين (1143-1180م)، على أرمينيا الصغرى، وحروب الأمير ثوروس الثاني (1145-1168م) ضد البيزنطيين، في سنة 553هـ/1158م، والتحالف البيزنطي الأرميني ضد نور الدين زنكي، وانضمام بعض الأمراء الأرمن إلى جانب الامبراطورية البيزنطية في حروبها ضد ثوروس.

ولا يخفي جريجوار إعجابه الشديد بالأمير ثوروس الثاني، الذي أظهره في صورة الأبطال الأسطوريين، وكان يكره مانويل كومنين لأنه عقد صلحا مع نور الدين زنكي، وعبر عن خيبة أمل الأرمن من جراء هذا الصلح، ولشدة كرهه للبيزنطيين ذكر أن المسلمين أشرف منهم لأنهم لم يخدعوا الأرمن ثم يتناقض مع هذا الموقف في أحداث أخرى؛ لأنه كان يكتب كل واقعة على حدة وقيمها منفصلة عما سبقها من أحداث. توقف جريجوار عن سرد الأحداث في سنة 556هـ/1163م.

صموئيل دآني (Samuel d'Ani) : لقب بـ صموئيل أنتسي (Anetsi)، نسبة إلى مدينة آني، عاصمة أرمينيا الكبرى في عهد أسرة الملوك البجراطين (Bagratides)، قبل إلحاقها بالامبراطورية البيزنطية في سنة 437هـ/1045م، وربما يعود السبب في هذه النسبة إلى ميلاده بمدينة آني، أو لأنه كان أسقفا في كاتدرائية هذه المدينة، وهو يعتبر أحد أشهر كتاب عصره، وأبرز أعلام الأدب الأرميني. لا يعرف تاريخ ميلاده ولا تاريخ وفاته بشكل دقيق، ولكن بعض المراجع ترجح أنه توفي في سنة 1185م. كتب حولية مفصلة بدأها من الخليقة وأنهاها بعام 626 من التاريخ الأرميني، (573هـ/1177م)، والجدير بالذكر أن مؤرخا مجهولا أكمل الأحداث إلى سنة 741هـ/1340م. وقد ترجم يوحنا زهرب (Jean Zohrab) الكتاب إلى اللغة اللاتينية، وهو أحد رهبان مجمع المختاريست (congrégation des Mèkhitharistes) بالبندقية في سنة 1818م. ثم ترجم الدكتور فايز نجيب اسكندر جزءا منه، ونشره في منشورات مركز الدراسات الأرمينية، التابع لكلية الآداب بجامعة القاهرة في سنة 2009م.

وقام ديلورييه (Dulaurier) بنشر جزء من الكتاب في الجزء الأول من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية -وثائق أرمنية- (R.H.C.D. Arm)، ابتداءً بأحداث سنة 1097م، إلى غاية سنة 1340م. وبغض النظر عما جاء في كتابه حول تاريخ أرمنيا الكبرى، فقد تحدث صموئيل عن وصول الحملة الصليبية الأولى إلى القسطنطينية، وعن الأمير الأرمني قسطنطين بن روبين الذي تعاون معهم ويصفه بأنه تميز بالحكمة، والوداعة، وعلو المكانة. ويظهر حقه على البيزنطيين، حينما يذكر بأن هذا الأمير أخذ بثأر الملك البجراطي جاجيك الثاني (1042-1073م). الذي اغتاله البيزنطيون في قيليقيا، ويقدم معلومات أخرى مقتضبة ومختصرة جدا عن بقية أمراء أرمنيا الصغرى. كما وردت في حويلته معلومات هامة عن بعض رجال الدين الأرمن الذين تولوا رئاسة الكنيسة الأرمنية.

وكغيره من المؤرخين الأرمن، فهو يتحامل على الامبراطورية البيزنطية، ويعتبرها السبب في ما حل بالأرمن من كوارث. فحين تحدث عن الامبراطور ألكسيس كومنين (1081-1118) نعتة بـ "ابن الشيطان" وشكك في مسيحيته هو ووالدته، ونسب إليه أفعالا لم ترد عند غيره. ويعود السبب في هذا التحامل الشديد، إلى أن الامبراطورية البيزنطية كانت تعمل دائما على فرض مذهبها الديني، قسرا وقهرا على الأرمن الذين تعتبرهم هراطقة. وعلى العموم فإن الاستفادة من هذا المصدر كان أقل من المصدرين السابقين.

سمباد (Le connétable Sempad) : ولد سمباد في سنة 605هـ/1208م، في أسرة تنعم بالثراء والسلطة، أبوه هو البارون قسطنطين من آل هيثوم، وقد كان وصيا على ابنة الملك ليون الأول بعد وفاته في سنة 616هـ/1219م، وأخوه الأصغر هو الملك هيثوم الأول (1226-1269م) الذي تولى عرش مملكة أرمنيا الصغرى في سنة 623هـ/1226م. وتولى سمباد قيادة الجيش الأرمني، وقد احتفظ بمنصبه إلى غاية وفاته في سنة 675هـ/1276م. وبحكم منصبه هذا فقد تمكن من الاطلاع على وثائق متوفرة في القصر الملكي، والاستماع إلى شهادات من بعض الذين كلفوا بمهام رسمية، أو شاركوا في بعض الأحداث.

كتب حولية بدأها بسنة 341هـ/952 إلى سنة 673هـ/1274م، اعتمد فيما أورده عن النصف الأول من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، على ما كتبه متى الرهاوي، وجريجوار الراهب، وأضاف إليها بعض المعلومات يحتمل أنه اطلع عليها من الوثائق التي توفرت له في القصر

الملكي. واعتمد على نفسه بعد أحداث عام 546هـ/1151م، حتى سنة 675هـ/1276، والجدير بالذكر أن حوليته لا تقف عند هذه السنة، بل أضاف إليها مؤرخ مجهول الأحداث التالية حتى عام 736هـ/1335م.

وقد اكتشف بروسيه (Brosset)، المخطوطة لأول مرة في سنة 1848م، في إتشميادزين بأرمينيا، وترجم ديلوريه أجزاءً منها ونشرها في الجزء الأول من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية - وثائق أرمينية- (R.H.C.D. Arm)، ابتداءً بأحداث سنة 485هـ/1092م، إلى غاية سنة 736هـ/1335م. ثم ترجمها المؤرخ الفرنسي المختص في تاريخ أرمينيا، جيرار ديديان ونشرها كاملة مع تعليقات وإضافات وافية في سنة 1980م.

وقد جاءت حولية سمباد أكثر وضوحاً وترتيباً من التكملة التي أضافها جريجوار الراهب إلى تاريخ متى الرهاوي. وإن كانت حولية سمباد قد كتبت بعد الإطار الزمني المحدد لهذا البحث، فإنها أفادتني كثيراً فيما يتعلق بالنزاع بين الأمير ثوروس الثاني، وأخيه مليح (1170-1187) الذي تحالف مع نور الدين زنكي (1146-1174م)، والنزاع بين الأمير روين الثالث (1175-1187)، وبوهيموند الثالث (1163-1201) أمير أنطاكية، ثم تتويج ليون الثاني (1187-1219) ملكاً على أرمينيا الصغرى في سنة 594هـ/1198م. أما بقية الأحداث فهي تتعلق بعلاقة أرمينيا الصغرى بكل من المغول والمماليك.

المصادر اللاتينية

كما اعتمد البحث على بعض المصادر اللاتينية منها :

وليم الصوري (Guillaume de Tyre) : وتعد مؤلفاته من أهم المصادر اللاتينية التي غطت فترة طويلة من البحث، وكان عظيم الفائدة بالنسبة للمعلومات التي أفادنا بها. ولد وليم الصوري في مدينة بيت المقدس حوالي سنة 524هـ/1130م، ولجأ في مرحلة مبكرة من حياته إلى السلك الكنسي، ثم أصبح في حوالي سنة 556هـ/1161م، أحد رجال الدين التابعين لمطران مدينة صور. ثم سافر إلى أوروبا طلباً للعلم، فدرس اللاهوت، والفلسفة، والرياضيات، والقانون، وغيرها من العلوم. وعاد في خريف عام 558هـ/1163م، إلى الشرق واقتصر عمله على أداء بعض الواجبات الدينية في كنيسة صور. ومنذ عام 562هـ/1176م، بدأ وليم في الارتباط بالملك عموري الأول

(1162-1174م) الذي طلب منه تسجيل تاريخ عهده، خاصة وأن الصراع كان على أشده بين نور الدين محمود زنكي والصليبيين حول السيطرة على مصر. وبما أنه حاز ثقة الملك، فقد أصبح يرسله على رأس السفارات والوفود إلى بيزنطة وروما. وترقى في المناصب إلى أن أصبح رئيس أساقفة كنيسة صور. وبذلك أتيحت له فرصة لمعرفة بواطن الأمور في الإمارات الصليبية والامبراطورية البيزنطية، وقد ساعده على ذلك إتقانه لبعض اللغات كالعربية، والفرنسية، واليونانية، والفارسية، والعبرية، فضلا عن لغته الأصلية وهي اللاتينية. وتاريخ وفاته غير معروف بدقة، وحدث ذلك بين سنة 580هـ/1184م وقبل معركة حطين في سنة 583هـ/1187م.

يتألف كتابه من أربعة أجزاء، وهو بعنوان : "تاريخ الأعمال التي أنجزت في بلاد ما وراء البحر" (Historia rerum in partibus transmarinis gestarum) وقد ترجمه إلى العربية حسن حبشي بعنوان : "الحروب الصليبية" ونشره في سنة 1991م، كما قام سهيل زكار بترجمة بعض أجزائه ونشرها في الجزء السابع من موسوعته الضخمة التي سماها "الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية".

وإن كان وليم الصوري قد كتب عن الحروب الصليبية وأولى اهتماما خاصا لمملكة بيت المقدس، فإن كتابه تضمن معلومات تاريخية في غاية الأهمية عن أحوال إمارات الأرمن وعلاقتهم بالصليبيين، وما حدث بين الطرفين من نزاعات وتحالفات ويظهر ذلك واضحا في ثنايا البحث. كحلمتي الامبراطورية البيزنطية على قيليقيا، وعلاقة الأمير مليح بالصليبيين. ويبدو وليم الصوري من خلال حديثه عن الأرمن أنه لا يعطي للإمارات الأرمنية أهمية كبيرة، ولا يضع حكامها في مرتبة الأمراء الصليبيين، لأنه مثل بقية رجال الدين الغربيين الذين يعتبرون أتباع الكنيسة الأرمنية وغيرهم من اليعاقبة أو المنافزة عموما، في جملة الهراطقة.

ومن المصادر اللاتينية التي أفادت بعض الجوانب من البحث، نذكر :

فوشيه الشارترى (Foucher de Charter) : وكتابه "الاستيطان الصليبي في فلسطين تاريخ الحملة إلى بيت المقدس 1095-1127م"، (Historia Hierosolymitana. Gesta Francorum Hierusalem expugnantium ab an Domini 1095 usque ad an. 1127). ولد فوشيه في مدينة شارتر الفرنسية، ثم أصبح كاهنا لهذه المدينة، وحضر مجمع كليرمونت، وذهب مع الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق. وبعد عبور الجيش الصليبي آسيا الصغرى، التقى ببلدوين الأول

الذي انشق عن الجيش الرئيسي وزحف شرقاً عبر الفرات وأسس إمارة الرها الصليبية. وظل فوشيه ملازماً لبلدوين حتى انتقل إلى بيت المقدس بعد وفاة أخيه جودفري وتولى حكمها، ولذلك يعتبر هذا الكتاب تأريخاً لأعمال بلدوين الأول في إمارة الرها، وفي مملكة بيت المقدس. ترجمه إلى العربية قاسم عبده قاسم، ونشره في سنة 2001. واستفدت منه في الفصلين الرابع والخامس.

ألبرت دي إكس (Albert d'Aix) : عنوان كتابه : "تاريخ الأعمال والملاحم في ما وراء البحار" (Histoire des faits et gestes dans les régions d'outre-mer)، وكان ألبرت كاهناً وأميناً لخزانة مدينة إكس لا شابيل الألمانية، ولم يذهب ألبرت إلى الشرق مطلقاً، لكنه اعتمد في كتابه على روايات شهود عيان، وكان معظمهم من الفرسان والجنود الذين لهم دراية كبيرة بالأمور العسكرية، كما أنه اطلع على بعض المراسلات والمراسيم المتعلقة بالحملة الصليبية الأولى. وقد ترجم محمد حمدان أحمد الكتاب من اللغة الألمانية إلى العربية، محتفظاً بالاسم الألماني للمؤلف "ألبرت فون آخن"، بعنوان : "تاريخ الحملة الصليبية الأولى ومملكة بيت المقدس" ونشره في سنة 2016م. ورغم أنه يحمل معلومات هامة عن أحداث الحملة الصليبية الأولى فإنه لا يتضمن معلومات كثيرة عن الإمارات الأرمنية.

المصادر السريانية

واقترضى البحث، الاعتماد على بعض المصادر السريانية أيضاً، نذكر منها :

ميخائيل السرياني (Michel le Syrien) : وهو أهم المصادر السريانية على الإطلاق. ولد ميخائيل حوالي سنة 516هـ/1122م، وكان أبوه أحد رجال الدين في ملطية، بدأ حياته المهنية في دير مار برسوما (Mar Barsauma)، ثم تدرج في المناصب الدينية حتى أصبح رئيساً للدير، ثم بطريرك السريان في مدينة أنطاكية بين 561-596هـ/1166-1199م، وهي سنة وفاته. ألف ميخائيل في الدين والقانون والتاريخ، وكان أحد أبرز رجال الدين في عصره.

كتب ميخائيل السرياني حوليته حوالي عام 592هـ/1196م، وتنتهي الأحداث التي أوردتها في عام 591هـ/1195م. اعتمدت على النسخة الفرنسية التي ترجمها شابو (J.-B. Chabot) ونشرها في أربعة أجزاء بين عامي 1899 و 1910م.

أرخ ميخائيل الأحداث التي تعرض لها على طريقة السنوات، ولذلك نجده يتحدث عن حادثة ما، دون أن يوفيه حقها، ثم يعود إليها مرة أخرى في الفصول اللاحقة، ليسرد من جديد بعض وقائعها. يضاف إلى ذلك أنه أدخل على مادته التاريخية كثيرا من الأساطير الدينية وغير الدينية، ولذلك يجد الباحث مشقة في استخلاص المادة التاريخية. ونجده أحيانا يتهمكم بالمعتقدات الدينية للأرمن، وينتقد تصرفات بعض قادتهم. ويتحامل في كتابه على البيزنطيين شأنه في ذلك شأن اليعاقبة، والمنافزة، مما يجعله متعصبا لمذهبه. ورغم ذلك، فإن ما كتبه ميخائيل يتضمن مادة تاريخية هامة عن الإمارات الأرمنية، منها تاريخ الأرمن في قيليقيا وعلاقتهم بالامبراطورية البيزنطية، وتحالف الامبراطورية تارة مع السلاجقة وتارة أخرى مع الصليبيين ضد الأرمن، وأحيانا انفرد بذكر أحداث لم ترد في المصادر الأخرى مثل وقوع بوهيموند أسيرا في يد أحمد الدانشمند بسبب وشاية بعض الأمراء الأرمن في أرمينيا الصغرى، وأحداث أخرى وردت في صفحات هذا البحث، ناقشت بعضها.

ومن المصادر السريانية أيضا ما كتبه ابن العبري (1226-1286م) في كتبه الثلاثة المترجمة إلى اللغة العربية وهي : "تاريخ مختصر الدول"، و"تاريخ الزمان"، و "مخطوطة تاريخ الأزمنة"، غير أن استفادتي كانت أكبر من كتاب "تاريخ الزمان" الذي اعتمد فيه كثيرا على ميخائيل السرياني، أما الكتابين الآخرين فهما يفيدان أكثر لمن يبحث في تاريخ المغول وانسياهم في العالم الاسلامي، وتاريخ الممالك وعلاقتهم بالإمارات الصليبية.

المصادر العربية

رغم أن المصادر العربية لا تتضمن معلومات غزيرة عن إمارة أرمينيا الصغرى، غير أنها تتحدث عن أمراء الأرمن أثناء حديثها عن الصليبيين أو البيزنطيين، ومنها :

ابن القلانسي : هو ابو يعلى حمزة بن أسد التميمي، المشهور بالقلانسي، ولد في دمشق حوالي سنة 465هـ/1073م، وبها نشأ، وتقلد فيها مناصب إدارية، حيث عمل في ديوان الرسائل بدمشق، وتولى رئاسة المدينة مرتين. ويعتبر ابن القلانسي أقدم مؤرخ عربي تناول الحروب الصليبية وذلك في مؤلفه المشهور بـ "ذيل تاريخ دمشق". يؤرخ فيه من عام 363 إلى 555هـ/974-1160م، أي نفس العام الذي توفي فيه. وقد اعتمد عليه من جاء بعده من المؤرخين مثل ابن الجوزي، وابن الأثير، وأبو شامة.

ويظهر من خلال عنوان الكتاب أنه ذيل لتاريخ ابن عساكر المعروف بـ "تاريخ دمشق"، وما هو بذلك، لأن ابن القلانسي متقدم عليه، والواقع أنه ذيل لتاريخ يحمل نفس العنوان ألفه هلال الصابي، وقد ضاع هذا المؤلف إلا قطعة عثر عليها المستشرق الانكليزي آمدوز، فألحقها بكتاب آخر للصابي عنوانه : "تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء". فابن القلانسي أخذ من تاريخ هلال الصابي ما يختص بدمشق، وزاد عليه ذيلا سماه "ذيل تاريخ دمشق"، ضمنه تاريخ دمشق وغيرها.

روى ابن القلانسي في كتابه أحداث بلاد ما بين الرافدين، وتاريخ سوريا، ودمشق، وتناول فيه أحداث الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية، وذلك حتى أوائل العهد الذي دخل فيه نور الدين إلى دمشق. يكتب ابن القلانسي بموضوعية، وبأسلوب مزخرف، كما أن معاصرته للحوادث التي كتب عنها وإطلاعه على بعض الوثائق بحكم منصبه، جعلت من كتابه مصدرا أساسيا حول الأحداث التي كتب عنها. لا توجد فيه فصول أو فقرات خاصة عن الإمارات الأرمينية، ولكنه تعرض لكثير من تاريخ الأرمن في قيليقيا والجزيرة في معرض حديثه عن الصليبيين أو السلاجقة، وتُظهر هوامش البحث مدى الاستفادة من هذا المصدر.

ابن الأثير : هو عز الدين أبو الحسن علي بن محمد، ولد في جزيرة ابن عمر على ضفاف دجلة بالعراق عام 556هـ/1160م، ثم انتقل به والده مع أخويه إلى الموصل في سنة 579هـ، وأقاموا بها إقامة دائمة. تلقى علومه في بغداد والموصل، والشام، ولما عاد من رحلته العلمية استقر في الموصل بالعراق، وكتب فيها معظم كتبه، إلى غاية وفاته بها عام 630هـ/1234م. كان والده موظفا عند ملوك الموصل منذ عهد عماد الدين زنكي، كما كانت أسرته على جانب من الثراء. كان عز الدين أوسط أخويه مجد الدين، وضياء الدين، اللذان خدما الزنكيين وتوليا عدة مناصب سامية، ولم يرد في كتب ابن الأثير ما يفيد أنه دخل في خدمة ملوك الموصل، وتخصص في التاريخ، ونبغ فيه فألف عدة كتب.

ومن أهم كتبه التي اعتمدت عليها، كتاب "الكامل في التاريخ"، الطبعة الرابعة لدار الكتاب العربي، الصادرة سنة 1983م، الذي يعتبر أهم المصادر العربية وأعظمها فائدة بالنسبة للبحث. وكتاب "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)"، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، طبعة دار الكتب الحديثة، الصادرة سنة 1963م، وهو الكتاب الذي ألفه عن دولة آل زنكي التي عاصرها ويطلق عليها ابن الأثير "الدولة الأتابكية" نسبة إلى لقب "اتابك".

ويتميز كتابه "الكامل في التاريخ" بشمولية الرؤية، وإحاطته بكامل العالم الاسلامي بدءاً من بلاد ما وراء النهر وحتى بلاد المغرب وإسبانيا. وإذا كان ابن الأثير ناقلاً في كثير مما كتب إلا أنه سجل أحداث زمانه، وهو عصر الحروب الصليبية كشاهد عيان. ويأخذ عليه معظم المؤرخين أنه يتعاطف مع العائلة الزنكية العراقية، ويتحامل بأسلوب غير مباشر على صلاح الدين الأيوبي، رغم إشاداته ببطولاته.

وإذا كان مثنى الرهاوي، ووليم الصوري، وميخائيل السرياني قد حظوا بقدر غير قليل من الاهتمام باعتبارهم من أهم المصادر الأرمنية واللاتينية والسريانية، عن تاريخ إمارة أرمينيا الصغرى، وعلاقتها بكل من السلاجقة والصليبيين، فإن ابن الأثير يستحق نفس القدر من العناية، بل يفوقهم في الأهمية لأنه لا يكتفي بذكر أحداث جافة مجردة من شخصية الكاتب، بل نجده يذكر الأسباب ويعلل وقوع بعض الأحداث، ويعلق عليها أحياناً، ويبدى رأياً في البعض منها.

وقد اعتمدت كثيراً على الجزأين الثامن والتاسع، ولا يتعرض الكتاب فيهما بشكل مفصل لتاريخ أرمينيا الصغرى، أو للأمراء الأرمن، ولكنه يفصل الأحداث التي وقعت بين الأرمن والصليبيين أو بين الأرمن والمسلمين، مما جعله مفيداً للبحث، في كثير من فصوله. وكان يعتمد في كثير من رواياته على شهود عيان من النصارى الذين عاشوا في قيليقيا أو من زوارها، فأتناء حديثه عن وفاة الملك ليون الأول والخلاف الذي حدث بين الأرمن حول زواج ابنته بفيليب الكاثوليكي، يقول: "حدثني بهذا رجل من عقلاء النصارى ممن دخل تلك البلاد وعرف حالها وسألت غيره فعرف البعض وأنكر البعض".

ابن العديم : هو صاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله ... بن أبي جرادة، وقد ولد في مدينة حلب سنة 588هـ/1192م، وسط أسرة من أبرز أسر حلب، حيث كانت تنعم بأملاك واسعة، وبرز كثير من أفرادها في السياسة والعلم، والقضاء، والإدارة، والتجارة، وظلت محتفظة بمكانتها حتى حل الدمار بحلب على أيدي جيوش هولاكو في سنة 658هـ/1260م. نهل ابن العديم من معارف عصره الدينية والدنيوية، وكان كثيراً ما يشد الرحال طلباً للعلم، فزار دمشق أكثر من مرة، كما زار بيت المقدس، والعراق، والحجاز. ولما بلغ سن الشباب أخذ يشارك في الحياة السياسية والعلمية لمدينة حلب، فقد كان يحضر مجالس بعض ملوكها، وأرسل على رأس عدة وفود وسفارات إلى ملوك الدول المجاورة في بلاد الشام والجزيرة وآسيا الصغرى، وإلى سلاطين القاهرة،

وخلفاء بغداد، وظل نجمه يصعد في سماء السياسة في حلب حتى وصل إلى مرتبة الوزير، وبعد اجتياح المغول لشمال الشام، عرض عليه هولاكو منصب قاضي حلب، فرفض، وذهب إلى القاهرة، حيث أمضى بقية حياته. وقد وافته المنية سنة 660هـ/1262م.

ولم تشغله السياسة والحياة العامة عن العمل الفكري والتأليف، حيث كانت تفتح له خزائن كتب كل بلد زارها وتوضع تحت تصرفه، فنهل منها ما لم ينهله سواه، وأودع كل ذلك في كتبه. ومن أشهر مؤلفاته التي اعتمدت عليها في انجاز هذا البحث، "بغية الطلب في تاريخ حلب"، وبشكل أكبر كتابه "زبدة الحلب في تاريخ حلب"، الذي يصل فيه إلى سنة 641هـ/1243م. ويبدو من العنوان أنه يؤرخ فيه لمدينة مولده ونشاطه العلمي السياسي، ولكنه كان يربط جميع الأحداث التي عاصرها في حلب، أو التي قرأ عنها، أو التي رويت له بغيرها من الأحداث التي جرت في الأقاليم المجاورة، خاصة ما يتعلق بالحروب الصليبية. وفي هذا الإطار يورد ابن العديم بعض المعلومات المتعلقة بأمرأ أرمينيا الصغرى وعلاقتهم بكل من السلاجقة والصليبيين.

وبالإضافة إلى هذا فقد عدت إلى مصادر عربية أخرى، بعضها يرجع إلى القرنين الثامن والتاسع الهجريين/الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، والتي استعنت بها لتأصيل بعض الأحداث أو لتوضيح بعض الأفكار، مثل "التعريف بالمصطلح الشريف" لابن فضل الله العمري، و"دول الاسلام" للذهبي، و"البداية والنهاية" لابن كثير، و"كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر" لابن خلدون وغيرها.

المراجع الحديثة

وقبل عرض أهم المراجع الحديثة التي اعتمدت عليها في البحث، لابد من الإشارة إلى دراستين أكاديميتين كان لهما السبق في خوض غمار هذا الموضوع في الوطن العربي وهما :

الأولى : "مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى (1250-1375م/648-776هـ)"، للأستاذ الدكتور فايز نجيب اسكندر، رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه بجامعة الاسكندرية، في سنة 1980، وما زالت لم تنشر لحد الآن. وهي أول دراسة أكاديمية في الوطن العربي في هذا الموضوع. تتكون الرسالة من ستة فصول، فضلاً عن المقدمة والخاتمة، وكما يدل عنوانها فقد ركزت على الصراع بين المماليك ومملكة أرمينيا الصغرى. والجدير بالذكر أن الدكتور فايز نجيب اسكندر لا زال يتابع الموضوع من خلال مقالاته ومشاركته في المؤتمرات،

والملتقيات ببحوث ومدخلات عن تاريخ أرمينيا. ورغم أن هذه الرسالة بعيدة في إطارها الزمني عن الذي حددته لبحثي، فقد استفدت من فصلها التمهيدي الذي تطرق إلى ظروف تأسيس مملكة أرمينيا الصغرى، كما استفدت من قائمة المصادر المتخصصة في الموضوع.

الثانية : "العلاقات الخارجية لمملكة أرمينيا الصغرى منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي حتى سنة 1375م"، للدكتورة فاطمة بوعمامة، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، بجامعة الجزائر في سنة 1994، غير منشورة لحد الآن. وهو أول بحث علمي من نوعه في هذا الموضوع بالجزائر، حازت به فاطمة بوعمامة قصب السبق. تتكون الرسالة من فصل تمهيدي وبابين، الأول عنوانه علاقة أرمينيا الصغرى بالمسيحيين، يتكون من ثلاثة فصول. وعنوان الباب الثاني : العلاقات الأرمينية بالعالم الإسلامي، ويتكون من ثلاثة فصول أيضا. وقد ركزت الدكتورة بوعمامة في رسالتها على الأحداث التي شهدتها مملكة أرمينيا الصغرى في عهد الملك ليون الأول، بكل تفاصيلها. ثم تعرضت إلى تحالف المملكة مع المغول في عهد هيثوم الأول، وصراعها مع المماليك إلى غاية سقوطها في سنة 1375م. ونقطة التقاطع الوحيدة بين رسالتها وهذا البحث، هو عهد الملك ليون الأول، ولذلك تجنبت إعادة تقديم الأحداث بتفاصيلها خلال المدة التي حكمها، واكتفيت بالإحالة إليها في الهوامش. ولكنني استفدت منها كثيرا مما ورد في فصلها التمهيدي، أكثر من فصولها اللاحقة، كما أفادتني في التعريف بالمصادر والمراجع الأساسية التي تخدم الموضوع.

وسأكتفي في المراجع الحديثة بتعريف خمسة مراجع أساسية أفادتني كثيرا، هي :

Cahen Claude : La Syrie du nord à l'époque des Croisades et la principauté franque d'Antioche.

هذا الكتاب الصادر سنة 1940م، والمتكون من خمسة أقسام، هو دراسة أكاديمية ممتازة، للعالم الفرنسي **كلود كاهن (1909-1991)**، حيث درّس فيه أحداث الحملة الصليبية الأولى والحملات التي تلتها، والزحف المغولي على شمال الشام، إلى غاية سقوط إمارة أنطاكية الصليبية على يد المماليك في سنة 1268م. وتعرض فيه إلى الإمارات الأرمينية التي نشأت في قيليقيا ومنطقة الفرات، وعلاقات الصليبيين بهم، وكذا علاقتهم بالأمراء المسلمين المعاصرين لتلك الأحداث.

Grousset René : Histoire des croisades

روني جروسي (1885-1952)، المؤرخ الفرنسي المتخصص في تاريخ آسيا وأرمينيا والحروب الصليبية، كتابه هذا يتكون من ثلاثة أجزاء وصدر عدة مرات في طبعات مختلفة، اعتمدت على طبعة حديثة صادرة في سنة 1991، من نوع كتب الجيب (livre de poche). وكما هو واضح من العنوان فالكتاب يتعلق بتاريخ الحروب الصليبية، وهو من أهم المراجع في هذا الموضوع. استفدت منه في بعض الآراء والأحكام التي أبدتها بشأن الحكام الأرمن أو الصليبيين.

Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs Musulmans et Croises, étude sur les pouvoirs arméniens dans le Proche-Orient Méditerranéen (1068-1150).

جيرار ديديان مؤرخ فرنسي من أصول أرمنية، من مواليد 1942، هو أستاذ التعليم العالي في تاريخ العصور الوسطى بجامعة مونتبلييه 3 (Montpellier III) (حاليا متقاعد)، وهو من أبرز المتخصصين في الدراسات الأرمنية في وقتنا المعاصر، وقد نشر عشرات الدراسات، والمقالات حول تاريخ أرمينيا الصغرى في العصر الوسيط. كتابه هذا كان في الأصل أطروحة دكتوراه، ثم نشره سنة 2003، بعد تغيير عنوانه، وهو يتكون من جزأين، تعرض فيهما إلى هجرة الأرمن من أرمينيا الكبرى إلى كبادوكيا ثم إلى قيليقيا، وموقف الامبراطورية البيزنطية منهم، وطبيعة العلاقة التي كانت قائمة بين الأمراء الأرمن ونظرائهم من حكام الامبراطورية البيزنطية، والسلطنات الإسلامية، والإمارات الصليبية، معتمدا في ذلك على مصادر أرمنية، كثير منها غير مترجم، وبعضها ما زال مخطوطا. وهو يكتب عن الأحداث بإطناب شديد، حيث يترك الحادثة الرئيسة التي يكتب عنها، ويلجأ إلى ذكر تفاصيل كثيرة تتعلق بأحداث أخرى ثانوية، ثم يعود للحادثة الأولى مرة أخرى.

ويبدو من كتاباته، أنه يعتبر قيليقيا جزءا من أرمينيا التاريخية، التي تعتبر وطنيا قوميا لجميع الأرمن. فهو يركز فيها على استقلالية الأرمن في أرمينيا الصغرى عن جميع الدول المعاصرة لهم. ومهما كانت آراؤه، فلا يمكن لأي باحث في تاريخ أرمينيا الصغرى في العصر الوسيط، أن يستغني عما كتبه جيرار ديديان.

Mutafian Claude : La Cilicie au carrefour des empires.

Mutafian Claude : L'Arménie du Levant.

كلود موتافيان هو الآخر مؤرخ فرنسي من أصول أرمنية، من مواليد 1942م، وهو في الأصل أستاذ التعليم العالي في الرياضيات بجامعة باريس 8، وأستاذ التعليم العالي في التاريخ الوسيط أيضا، بجامعة السربون باريس 1، متخصص في الدراسات الأرمنية. ألف ونشر في الرياضيات وله عدة مقالات وكتب في تاريخ أرمينيا الكبرى والصغرى.

الكتاب الأول يتكون من جزأين، تعرض فيه إلى تاريخ أرمينيا الصغرى عبر العصور وصولا إلى عصر الحروب الصليبية. وبما أن المدة الزمنية التي عالجها كانت طويلة جاءت المعلومات مختصرة جدا، خاصة وأن الجزء الثاني خصصه للخرائط والجداول والصور كملاحق للكتاب الأصلي.

أما الكتاب الثاني وهو الأهم بالنسبة لموضوع البحث، فهو في الأصل أطروحة دكتوراه، ثم نشره في جزأين في سنة 2012م، بعد تعديل عنوانه، تعرض في الجزء الأول إلى العلاقات الدبلوماسية ومراسلات أمراء وملوك أرمينيا الصغرى، مع نظرائهم من الملوك والأمراء في الدول الأخرى، بما في ذلك المراسلات التي تمت بين رجال الدين الأرمن، ورؤساء الكنائس الأخرى. أما الجزء الثاني فهو عبارة عن مجموعة من الملاحق يضم خرائط وأشكال بيانية وجداول وصور.

والجدير بالذكر أن كلود موتافيان يكتب بأسلوب تغلب عليه الروح الوطنية، فهو شبيه في ذلك بالمؤرخ متى الرهاوي، وكأنه يكتب من أجل إحياء أجداد الأرمن في قيليقيا، وإثبات وجودهم كدولة وليس كشعب تابع للإمبراطوريات والدول المجاورة. ولا ترقى كتاباته إلى مستوى ما كتبه جيران ديديان حول أرمينيا الصغرى.

وتعود أهمية ما كتبه الأرمن حديثا، أنهم اعتمدوا على مصادر أرمنية بعضها لم يترجم، وبعضها مازال مخطوطا، وعلى مصادر لاتينية غير مترجمة، ونادرا ما يعودون إلى المصادر العربية. ولذلك وجدتهم يريدون معرفة ما كتب عن أرمينيا الصغرى في المصادر العربية، خاصة غير المترجمة إلى اللغات الحية.

ويضاف إلى المصادر وبعض المراجع التي أشرنا إليها سالفًا، عدد آخر من المصادر الأرمنية والعربية واللاتينية واليونانية، التي حصلنا منها على فوائد جمة يبدو أثرها جليا في ثنايا البحث. فضلا عن المراجع والمقالات المتخصصة والموسوعات التي استفدت منها في عرض العديد من الأحداث والآراء، التي وردت في صفحات البحث، سواء كانت باللغة العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية.

الفصل الأول

بلاد الأرمن قبل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي

1- الإطار الجغرافي لبلاد الأرمن

أ - أرمينيا الكبرى

ب - أرمينيا الصغرى

2- تطور قيليقيا قبل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي

أ - قيليقيا قبل الفتح الإسلامي

ب - الفتوحات الإسلامية في قيليقيا

ج - عودة البيزنطيين إلى قيليقيا

د - التوسع البيزنطي في أرمينيا الكبرى

قبل التطرق إلى علاقة الأرمن بالصليبيين، ومساهماتهم في تأسيس الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وكل التفاصيل المتعلقة بتلك الأحداث. لابد من تحديد الإطار الجغرافي لبلاد الأرمن، لأنه من العوامل التي تساعد على فهم الأحداث، وهو من أقلها عرضة للتغيير. ثم توضيح الفرق بين أرمينيا الكبرى التي تعتبر موطنهم الأصلي، وأرمينيا الصغرى، التي نشأت في إقليم قيليقيا في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

ويتعرض هذا الفصل أيضا، إلى الصراعات السياسية، والعسكرية بين الامبراطوريات الكبرى التي تنافست على هذا الإقليم، ويركز على انتقاله إلى حوزة المسلمين منذ القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، بعد اقتطاعه من الامبراطورية البيزنطية. كما يتطرق إلى حرب الثغور التي نشبت بين الدولة البيزنطية والخلافة العباسية في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، حيث استعاد البيزنطيون قوتهم ونشاطهم العسكري، في عهد الأسرة المقدونية، بينما بدأت الدولة العباسية عصرا جديدا من الضعف والانحلال، ولم تعد قادرة على الصمود أمام البيزنطيين وحماية مدن الثغور من هجماتهم، فخرج إقليم قيليقيا من دار الإسلام، ودخل إلى حظيرة المسيحية. ولما ذقت الدولة البيزنطية طعم الانتصار على المسلمين، شرعت تتوسع على حساب الأرمن في أرمينيا الكبرى، منتقمة منهم بسبب موقفهم، ومذهبهم المخالف لمذهب الكنيسة البيزنطية، واستخدمت مع ملوكهم وأمراءهم كل أساليب الترغيب والترهيب ليتنازلوا لها عن بلادهم.

وطيلة القرون الأربعة الأولى من التاريخ الهجري (القرن السابع إلى العاشر الميلاديين)، لم يكن للأرمن في قيليقيا أية سلطة سياسية، فبعضهم كان خاضعا للخلافة العباسية، وبعضهم الآخر كان خاضعا للإمبراطورية البيزنطية، ومع أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، أخذت الأوضاع تتبدل مما أدى إلى تغيير الخريطة السياسية لآسيا الصغرى برمتها.

1- الإطار الجغرافي لبلاد الأرمن

أ- أرمينيا الكبرى

قسم الأرمن بلادهم قديماً إلى أرمينيا الكبرى (Mez-Haik)، وأرمينيا الصغرى (Pokr-Haik).¹ فأرمينيا الكبرى تشكل إقليمًا رئيساً في منطقة القوقاز الجبلية الشاسعة الواقعة في غرب آسيا. وهي تمتد من الضفة اليسرى لنهر الفرات في الغرب، إلى ملتقى نهر كور (le Koura) والرس (l'Arak's) في الشرق غير بعيدة عن بحر قزوين، ومن نهر دجلة وجزيرة ابن عمر جنوباً إلى مدينة تفليس على ضفة نهر كور في الشمال.² وتذكر بعض المصادر الأرمينية أن حدودها الغربية امتدت إلى السواحل الشرقية للبحر المتوسط.³ أما فلكياً فهي تقع بين خطي طول ثمان وثلاثين درجة، وثمان وأربعين درجة شرقاً، وبين دائرتي عرض سبع وثلاثين درجة، وواحد وأربعين درجة شمالاً. وتقدر مساحتها بحوالي 619 840 كلم².⁴ ومن المدن التي اشتهرت في هذا الإقليم، ديبيل، وخلاط، وأرزن، وآني، وقارص، ومنازكرد⁵ ... ويعتبر الأرمن هذه البلاد أرض آبائهم وأجدادهم،⁶ فهم يقولون : "أرمينيا الكبرى هي تلك البلاد التي سكنها يافث بن نوح".⁷ وكانوا يسمونها قديماً

¹ Canard M. : **Arminiya**, in : Enc. Isl., E. J. Brill, Leiden, 1986. t. I, p. 642.

² بوعمامة فاطمة : "العلاقات الخارجية لمملكة أرمينيا الصغرى منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي حتى سنة 1375م"، رسالة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ العصور الوسطى، إشراف إبراهيم فحار، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1993-1994. ص 21؛

Laurent Joseph : L'Arménie entre Byzance et l'Islam depuis la conquête arabe jusqu'en 886, Fontemoing et C^{ie}, Paris, 1919. p. 299; Canard M. : op. cit., p. 634.

³ خوريناتسي موسيس : تاريخ الأرمن من البداية حتى نهاية القرن الخامس الميلادي، نقله عن الأرمينية نزار خليلي، إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 1999. ص 34؛ خانجي انطون : مختصر تواريخ الأرمن، دير الآباء الفرنسيسكان، أورشليم، 1868. ص 11.

⁴ Hewsen Robert H. : Géographie physique, ds. : H. P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008. p. 32.

⁵ أنظر الملحق العاشر، ص 483.

⁶ الدبس يوسف : تاريخ الشعوب الشرقية في الدين والسياسة والاجتماع، دار نظير عبود (بدون مكان)، 2000. ج 1، ص 130.

⁷ خانجي انطون : مرجع سابق، ص 8.

هاستان (Hayastan) أي بلاد هايك (Hayk)¹. أنجب هايك العديد من الأولاد والأحفاد، منهم حفيده الخامس الذي يدعى "آرام"²، وقد خاض حروباً عديدة من أجل توسيع بلاده في كل

¹ عرفت بأسماء أخرى منها، أرمستان، وكارستان، وسموختي، ونيري. ويؤكد الأرمن الأوائل أنهم من نسل يافث بن نوح (عليه السلام)، وأن أحد أحفاد يافث وهو هايك الذي عاش حوالي سنة 2350 ق. م. سكن البلاد الواقعة عند سفوح جبال آارات بعدما انتصر على البابليين. ويروي المؤرخ الأرمني موسيس خوريناتسي (410-493م) الذي يلقب بـ"هيرودوت الأرمن"، أن : "هايكن جد الأمة الأرمنية، الذي كان ابناً لتوركوم بن تيراس بن حام بن نوح، وهذه الأمة هي من ذريته التي سكنت تلك البلاد، وبدأوا يتكاثرون فيها ويعمرونها"، وعنه نقل غالبية مؤرخي الأرمن. بينما يروي أنطون خانجي وهو مؤرخ أرميني أن : "هايكسوس بن طوركوميروس بن كاميروس بن يافث بن نوح"، فهل كان هايك حفيداً لحام أم ليافث ؟ وتعتبر هذه الرواية ضرباً من ضروب الأساطير من الوجهة العلمية، ولكنها دخلت في صميم المعتقدات والتقاليد الأرمنية. وحتى المصادر العربية تذكر أن الأرمن هم من نسل يافث بن نوح. وكل هذا يعتمد على ما يزعمه الأرمن أن سفينة سيدنا نوح (عليه السلام)، رست على جبل آارات الذي يقع في أرمينيا، وأنهم يملكون بين ظهرانيهم شظية من السفينة في أحد أديرتهم في بلدة أشميادزين، التي تقع الآن في جمهورية أرمينيا. ويستندون في هذا على نصوص وردت في التوراة العبرانية في الآية الرابعة من سفر التكوين الأصحاح الثامن : "واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراط". وجاء في التوراة السامرية : "واستقرت السفينة في الشهر السابع في سبعة عشر يوماً من الشهر على جبال سرنديب". وأراط هي جبال تقع في أرمينيا الكبرى، أما سرنديب فهي جزيرة سري لنكا (Sri Lanka) (سيلان سابقاً)، الواقعة في المحيط الهندي، جنوب الهند. وهنا نلاحظ التناقض بين التوراة العبرانية والتوراة السامرية، في تحديد الموقع الذي رست به السفينة. ولكن أصدق كتاب وهو القرآن الكريم يخبرنا أن السفينة استقرت بالجودي، قال تعالى في سورة هود، الآية 44 : "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَحِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ". والجودي عرفته المصادر العربية بما في ذلك كتب التفسير أنه جبل بأرض الموصل يطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة، وفي قمته مسجد نوح. والبحث عن سفينة سيدنا نوح على جبل آارات لا يزال جارياً إلى الآن، لإثبات صدق التوراة، ولم يتم العثور على أي دليل على ماورد في سفر التكوين. وبناء على ذلك فإن استقرار السفينة في جبال آارات بأرمينيا ادعاء لا أساس له من الصحة، ولا يسمح المجال هنا لمناقشته. (انظر : خوريناتسي موسيس : مصدر سابق، ص 45؛ المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، 1906. ص 374؛ الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله) : معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2008. ج 4، ص 88؛ التوراة السامرية، ترجمها إلى العربية، أبو الحسن إسحق الصوري، نشرها وعرف بها د. أحمد حجازي السقا، دار الأنصار، القاهرة، 1978. ص 44، 350-351؛ لسترنج كي : بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوريكس عواد، مؤسسة الرسالة، ط 2، بيروت، 1985. ص 123؛ خانجي انطون، مرجع سابق، ص 22-26؛ المدور عثمان، الأرمن عبر التاريخ، منشورات دار نوبل، ط 2، دمشق، (د ت). ص 98؛ الدبس يوسف : مرجع سابق، ج 1، ص 102-106؛ عبد الحكيم منصور : طوفان نوح عليه السلام في القرآن الكريم والأساطير القديمة، دار الكتاب العربي، دمشق، 2012. ص 107-131).

² هو "آرام الملك بن هارمايوس بن كيغام بن أماسيوس بن ارمايوس بن أرماناك بن هايكسوس". (انظر : خانجي : مرجع سابق، ص 9).

الإتجاهات.¹ وأكسبته تلك الحروب سمعة، ومكنته من بسط نفوذه على منطقة شاسعة، مما جعل الأمم المجاورة تطلق اسم أرمينيا المشتق من آرام على كل تلك البلاد، "وما زالت تحمل ذلك الاسم حتى الآن تخليداً لذكراه وأعماله البطولية".² وحتى المصادر العربية تذكر أنها : "سميت أرمينية بأرميني بن لنطى وهو ابن يونان بن يافث".³

وفي نظر الأرمن، لا تمثل جمهورية أرمينيا الحالية (29 800 كلم²) وإقليم كراباخ (4 400 كلم²) اللذين استقر فيهما الأرمن بشكل دائم إلا بقايا وطن مفقود، وتشكل المنطقتان حوالي العشر مما يعتبره الأرمن وطنهم القومي والتاريخي الذي عاش فيه أجدادهم،⁴ وهو الآن مقسم سياسياً بين سوريا والعراق وإيران وتركيا وجمهوريات القوقاز الثلاثة، أرمينيا وجورجيا وأذربيجان.⁵

والواقع أن الأرمن، خلال تاريخهم الطويل، لم يكونوا متحدين تحت سلطة سياسية واحدة، ولم تكن لهم دولة قائمة بذاتها كحقيقة تاريخية إلا لفترة محدودة؛ لأن بلادهم، كانت دائماً ضحية صراع بين جيرانها الأقوياء الذين أدركوا أهمية موقعها الاستراتيجي بين الشرق والغرب. ولم يكن من مصلحة القوى الكبرى آنذاك، قيام مملكة أرمينية قوية، فعملوا على تشجيع أمراء الإقطاع على تأسيس كيانات سياسية صغيرة منفصلة عن بعضها البعض، وإحكام قبضتهم عليها، كانوا يناصرون أميراً في وقت ما، ويمنحونه استقلالاً ذاتياً، ويناصرون أميراً آخر في وقت لاحق، واتخذ كل أمير منهم لقب ملك، ولكنه ظل لقباً خالياً من المعنى الحقيقي. ويعبر المؤرخ يوسف لورانت (J. Laurent) المتخصص في الدراسات الأرمينية عن هذا الوضع بقوله : "لم يتمكن الأرمن أبداً من توحيد جميع قواهم والقيام بعمل مشترك. وقد كان الاستقلال الذاتي الذي عاشوا في ظله، هبة من جيرانهم

¹ خوريناتسي موسيس : مصدر سابق، ص 45.

² المصدر السابق، ص 49.

³ ابن الفقيه (أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الهمداني (ت نحو 340 هـ)) : كتاب البلدان، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، 1996. ص 583؛ الحموي : مصدر سابق، ج 1، ص 133.

⁴ انظر الملحق العاشر ص 483.

⁵ Mouradian Claire : L'Arménie, Presse Universitaire de France, 9^{eme} ed. Paris, 2009. p. 25.

الأقوياء، وليس بإرادتهم الخاصة؛ لأنهم لم يتوفروا على ما يكفي من وعي سياسي وشعور قومي ليؤسسوا دولة قوية متحدة ومستقلة".¹

ب - أرمينيا الصغرى

وإذا كان المؤرخون الأرمن قد وضعوا تحديدا جغرافيا عاما لأرمينيا الكبرى، وثابتا منذ العصر القديم إلى اليوم، فإن الأمر يختلف بالنسبة لأرمينيا الصغرى؛ لأن هذا الاسم الذي أطلق على البلاد الأرمينية الواقعة غرب الفرات كان مدلوله يتغير على مر العصور. ولا بد من الإشارة إلى أن المصادر اليونانية، واللاتينية هي أكثر ذكرا من المصادر الأرمينية لمنطقة تقع إلى الغرب من أرمينيا الكبرى يسمونها أرمينيا الصغرى، ويمكن تحديدها عموما بالإقليم الواقع في شمال غربي الفرات، ويعرف هذا الإقليم باسم كبادوكيا (Cappadoce).² ويفهم من النصوص التاريخية أن هذه التسمية أطلقت على المناطق التي توسع فيها الأرمن، واستوطنوها خلال عصور مختلفة، ثم ضموها إلى مملكتهم في القرن الأول قبل الميلاد.³

وهكذا أطلق اسم أرمينيا الصغرى (Pokr Hayk) أول الأمر⁴ على المنطقة المحصورة بين المجرى الأعلى لنهري هاليس (Hallys)،⁵ والفرات (l'Euphrate). وبداية من القرن السابع الميلادي توسع مدلول هذا الاسم نحو الجنوب فأصبح يشمل كل المنطقة الجبلية المحصورة بين ملطية (Mélitène)⁶

¹ Laurent J. : op. cit., p. 3.

² كبادوكيا : كان العرب يسمونها بلاد القباذق، وهي إقليم واسع في بلاد الروم، ينتهي عند جبال طوروس وأذنة والمصيصة، وفيها حصون كثيرة، ومن مدنها قونية. (أنظر : الحموي : مصدر سابق، ج 7، ص 16؛ لسترنج كي : مرجع سابق، ص 171).

³ خوريناتسي موسيس : مصدر سابق، ص 45؛ خانجي أنطون : مرجع سابق، ص 8؛

Chaumont Marie-Louise et Traina Giusto : Les Arméniens entre l'Iran et le monde gréco-romain (V^e siècle av. J.-C. vers 300 ap. J.C.), ds. H. P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008. pp. 104, 119-127.

⁴ انظر الملحق العاشر، ص 483.

⁵ هو نهر قزل ارماق (Kızılırmak) (النهر الأحمر) في تركيا.

⁶ مَلَطِيَّة (Mélitène) : (والعامة تنطقها مَلَطِيَّة)، تقع في بلاد الروم قرب نهر الفرات، وتناخم الشام، وهي من أهم مدن كبادوكيا القديمة، أعاد بناءها أبو جعفر المنصور بعد أن خربها الروم، وتقع الآن تقع في تركيا شرق الأناضول ويسمونها =

وقيصرية كبادوكيا¹ (Césarée de Cappadoce)، ثم أطلق على المنحدرات الجنوبية لجلال طوروس وسهل قيليقيا وعلى إمارة أرمينيا التي تأسست في هذه الربوع خلال القرن الحادي عشر الميلادي². وتطورت إلى مملكة في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي³.

أما المصادر العربية فإنها تقدم تحديداً آخر لأرمينيا الصغرى، حيث يذكر اليعقوبي الذي عاش خلال القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي وزار أرمينيا وأطال المقام فيها، أن تفليس⁴ من مدن أرمينيا دون أن يحدد أرمينيا الصغرى أو الكبرى⁵ والإدريسي الذي عاش خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، لا يحدد موقع ولا حدود أرمينيا الصغرى ولكنه يذكر أن مدينة مَيَّافَرَقِينَ⁶ هي من مدن أرمينيا الصغرى⁷. والمعروف أن هذه المدينة تقع في إقليم الجزيرة⁸ أي شرق الفرات وليس غربه. بينما ذكرت المصادر غير العربية أن أرمينيا الصغرى تقع غرب الفرات. أما ياقوت الحموي، الذي عاش، في أواخر القرن السادس وبداية السابع الهجريين/أواخر الثاني عشر وبداية الثالث عشر الميلاديين، فيذكر أن

= (Malatya)، (أنظر : ابن الفقيه : مصدر سابق، ص 163؛ الحموي : مصدر سابق، ج 8، ص 315-316؛ الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصرية، بيروت، 2010. ج 6، ص 3211).

¹ قيصرية كبادوكيا : وتكتب أيضاً قيسارية، تقع في بلاد الروم، وكانت من أهم مدن السلاجقة، وتسمى قيصرية كبادوكيا تمييزاً لها عن مدينة قيصرية الواقعة على ساحل البحر المتوسط في فلسطين. تقع حالياً جنوبي تركيا، وتسمى (Kayseri). (أنظر : الحموي: مصدر سابق، ج 7، ص 107؛ لسترنج كي : مرجع سابق، ص 171، 178).

² Laurent J., op. cit., pp. 300-301.

³ Mutaftian Claude : L'Arménie du Levant, Les Belles Lettres, Paris, 2012. t. I, p. 410.

⁴ تفليس : فتحها حبيب بن مسلمة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهي عند الحموي آخر مدينة في بلاد الإسلام (لا إسلام وراءها)، وتسمى حالياً تبليسي (Tbilisi) وهي عاصمة جمهورية جورجيا (كرجستان آنذاك). (أنظر : الحموي : مصدر سابق، ج 2، ص 448؛ لسترنج كي : مرجع سابق، ص 216).

⁵ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت سنة 284 هـ) : البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة ودار الكتب العلمية، بيروت، (د ت). ص 5-6، 207-208.

⁶ مَيَّافَرَقِينَ : هي من المدن القديمة في ديار بكر بالجزيرة، وذكر الجغرافيون المسلمون أنها تشتهر بكنائسها وأبوابها الثمانية، وهي الآن مدينة صغيرة في تركيا تسمى سيلوان (Silvan). (أنظر : المقدسي : مصدر سابق، ص 140؛ لسترنج كي، مرجع سابق، ص 143-144).

⁷ الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (ت 559 هـ/1166 م)) : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002. مج 2، ص 814.

⁸ الجزيرة : "هي المنطقة التي تقع بين دجلة والفرات، وتنقسم إلى ثلاث مناطق هي : ديار بعة، وديار مضر، وديار بكر" (الحموي، مصدر سابق، ج 3، ص 54؛ الحارثي عبد الله بن ناصر بن سليمان : الأوضاع الحضارية في إقليم الجزيرة الفراتية في القرنين السادس والسابع للهجرة/الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2007. ص 29-30).

أرمينيا الصغرى "هي تفليس ونواحيها"¹ أي أنها تقع إلى الشرق من أرمينيا الكبرى وليس إلى الغرب. وعبد الرحمن بن خلدون حينما يتحدث عن أرمينيا الكبرى يقول بلاد أرمينية، وحينما يتحدث عن أرمينيا الصغرى يقول بلاد الأرمن، دون أن يذكرها بالاسم.² ويبدو جليا أن أرمينيا الصغرى في المصادر العربية، ليست نفسها في المصادر اليونانية واللاتينية والأرمينية. لأن المسلمين أطلقوا على هذا الإقليم اسم "الغور"، و "العواصم". فأين تقع أرمينيا الصغرى؟ وما هي حدودها؟

تقع إمارة أرمينيا الصغرى في الجهة الجنوبية الشرقية من آسيا الصغرى. وتكاد أن تشكل الجبال التي تحيط بها حدودا طبيعية لها. حيث تحدها جبال طوروس (Taurus)³ من الشمال والغرب، وجبال الأمانوس (Amanus)⁴ من الشرق، ويحدها البحر المتوسط من الجنوب.⁵ أما فلكيا فهي تقع بين خطي طول ست وثلاثين، وثمان وثلاثين درجة شرقا، وبين دائرتي عرض أربع وثلاثين وتسع وثلاثين درجة شمالا.⁶ وكانت هذه الحدود تتقلص أحيانا وتمتد أحيانا أخرى، حسب الظروف التاريخية. وبلغت مساحتها حوالي أربعين ألف كلم² بطول مائة كلم من الشرق إلى الغرب وبعرض أربع مائة كلم من الشمال إلى الجنوب.⁷

¹ الحموي : مصدر سابق، ج 1، ص 133.

² ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 1406م)) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، 1983. ج 1، ص 116-117، 128-129.

³ جبال طوروس : سلسلة جبلية، تقع جنوب تركيا، تمتد موازية لساحل البحر المتوسط، ووردت عند الجغرافيين المسلمين باسم "جبال السلسلة". (انظر : ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ت 280 هـ/893م)) : المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1889. ص 174؛ ابن خلدون : مصدر سابق، ج 1، ص 116-117، 129.

⁴ جبال الأمانوس : هي شعبة من جبال طوروس، ووردت في المصادر العربية باسم جبل اللكام، وهي تفصل بين بلاد الشام وسهل قيليقيا. وقال عنه المقدسي إنه أعمر جبال الشام وأكبرها، كثير الثمار وهو بيد الأرمن ويشرف على أنطاكية. (انظر المقدسي : مصدر سابق، ص 188-189؛ الإدريسي : مصدر سابق، ص 353؛ الحموي : مصدر سابق، ج 7، ص 181؛ ابن خرداذبه : مصدر سابق، ص 172-173؛ ابن خلدون : مصدر سابق، ج 1، ص 106-107، 116-117).

⁵ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 22؛

Alishan Léonce : Sissouan ou l'Armino-Cilicie description géographique et historique, traduit par George Bayan, Pères Mekhitaristes, Venise, 1899. pp. 1-2; Mouradian Claire : op. cit., p. 25.

⁶ Langlois Victor : Voyage dans la Cilicie et dans les montagnes de Taurus, Librairie de Benjamin Duprat, Paris, 1861. p. 5.

⁷ المدور عثمان، مرجع سابق، ص 223.

وهي بهذا الموقع تحتل جزءا من هضبة الأناضول، وتكون جسرا يربط بين آسيا وأوروبا، وغير بعيدة عن إفريقيا، وعن بلاد الرافدين، وعن بلاد الشام. فهي همزة وصل بين عالم الشرق وعالم الغرب. وقد أتاح ذلك لأرمينيا الصغرى، إقامة علاقات مع العديد من الشعوب والدول، عكس أرمينيا الكبرى التي تميزت بطابعها المحافظ والانعزالي.¹ كما كان هذا الإقليم مغربا للغزاة، فخضع لعدة قوى سياسية وعسكرية عبر العصور، وهذا ما يفسر تعدد، وتنوع الشعوب التي سكنته من إغريق، ورومان، وسريان، وعرب، وأكراد، وأرمن، وأتراك، وفرنجية واختلطت ببعضها البعض.²

وقد أطلق اليونانيون قديما على هذا الإقليم اسم كيليكيا (Κιλικία).³ أما الرومان فقد سموه سيليسيا (Cilicia)، وظل معروفا بهذا الاسم طوال العصر القديم، ولمدة طويلة من العصر الوسيط، إلى أن وفد عليه الأرمن، خلال القرن العاشر الميلادي،⁴ فأصبح يعرف باسم "أرمينيا الصغرى"،⁵ أو "أرمينيا الجديدة"⁶ عند كثير من الكتاب الأرمن، تمييزا له عن موطنهم الأصلي المعروف بأرمينيا الكبرى.

¹ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 113.

² Kiourtzian Georges : En attendant les Seldjouks : une inscription des remparts d'Alanya en Asie mineure de 1199, : R.E. Byz., t. 70, année 2012, De Boccard, Paris, 2012. p. 248.

³ يبدو أن اسم "كيليكيا" مشتق من كلمة يونانية قديمة تعني الجاموس أو الثور، لأن هذا الحيوان كان يتواجد بكثرة في هذه المنطقة خلال العصور القديمة، وتوجد آراء أخرى لتفسير هذه التسمية. (انظر :

Langlois Victor : op. cit., p. 4; Alishan Léonce : op. cit., p. 32.)

⁴ Langlois Victor : loc. cit.

⁵ يطلق المؤرخون الأرمن القدامى اسم قيليقيا للدلالة على هذه المنطقة ونادرا ما يطلقون عليها اسم أرمينيا الصغرى، وهو الاسم الشائع والأكثر استعمالا عند المؤرخين الغربيين. ويطرح المؤرخون الأرمن حاليا إشكالية التسمية الرسمية للدولة التي أسسها الأرمن في قيليقيا، حيث يطلق عليها البعض اسم أرمينيا الجديدة، وهي تسمية غير واردة في المصادر، ويسمونها آخرون بقيليقيا الأرمينية، ومملكة قيليقيا الأرمينية، أو دولة أرمينيا في قيليقيا، أو المملكة الأرمينية في قيليقيا، والتسمية الأكثر استعمالا هي أرمينيا الصغرى، رغم أن هذه التسميات لم ترد في المصادر المعاصرة للأحداث. ووردت في المصادر العربية باسم بلاد سيس، أو بلاد ابن لاون. ويقترح بعض المختصين في تاريخ أرمينيا، اسم مملكة أرمينيا. (انظر :

Dulaurier Edouard : Introduction, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} ed., Paris. 1969. t. I, p. II; Thierry Nicole : L'éclosion artistique des XIII^e et XIV^e siècles, ds. : H.P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008. p. 368; Mutaftian Claude, op. cit., pp. 410-413.

⁶ De Morgan Jacques : Histoire du peuple arménien, depuis les temps les plus reculés de ses annales jusqu'à nos jours, Berger-Levrault, Libraires-Éditeurs, Paris, 1919. p. 30.

أما العرب فقد اشتهر عندهم هذا الإقليم باسم "الدَّرب"، وكان لهم به صلات -قبل ظهور الإسلام- بحكم رحلاتهم التجارية نحو الشام. وما يؤكد ذلك قصة الشاعر الجاهلي امرؤ القيس الذي عبر الدرب متوجها إلى القسطنطينية¹. وقال صاحب معجم البلدان بأن "الدرب هو الطريق الذي يسلك"، كما ذكر عدة مواقع عُرفت هي الأخرى بهذا الاسم، ولكنه يقول: "إذا أطلقت لفظ الدرب أردت به ما بين طرسوس وبلاد الروم لأنه مضيق كالدرج وإياه عنى امرؤ القيس"². ويعني بذلك إذا ذكر الدرب وحده دون أن يكون مقرونا باسم مكان يحدده، فالمقصود به ما بين طرسوس (Tarse)³ وبلاد الروم. وجاء في الصحاح: "والدرب معروف وأصله المضيق في الجبل"⁴.

والدروب التي تتخلل جبال طوروس كثيرة⁵ سلك المسلمون، أثناء فتوحاتهم لبلاد الروم، اثنين منها، هما درب الحدث⁶ الواقع في الشمال الشرقي من أرمينيا الصغرى، وهو يمتد من مَرَعَش

¹ ذهب امرؤ القيس إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور يوستنيانوس الأول (Justinien 1^{er}) (527-565)، يطلب منه المعونة لاسترداد ملك أبيه، وقد خلد رحلته في قصيدة طويلة وصف فيها الطريق التي سلكها وذكر المدن والقرى التي مر بها. ومما جاء فيها:

بكى صاحبي لما رأى الدَّربَ دونه وأيقن أننا لاحقان بَقَيْصَرَا
فقلْتُ له لا تبكْ عَيْنُكَ إِنَّمَا نحاول مُلُكَا أو نموت فَنُعْذِرَا

(أنظر: الأصبهاني (أبو الفرج): كتاب الأغاني، مطبعة التقدم، (د م)، (د ت). ج 8، ص 70؛ ديوان امرؤ القيس، اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطفى، دار المعرفة، بيروت، ط 2، 2004. ص 96).

² الحموي: مصدر سابق، ج 4، ص 295؛ الإدريسي: مصدر سابق، ص 810.

³ طرسوس: مدينة قديمة من بلاد الثغور الشامية، وهي تشرف على المدخل الجنوبي للدرب، ومنها كان ينطلق المسلمون في محاولاتهم لفتح القسطنطينية في العهد الأموي. وبها يوجد قبر الخليفة العباسي المأمون، وكانت تعتبر من أهم مدن الثغور الإسلامية حتى سقطت في يد البيزنطيين سنة 354 هـ / 965م. وتقع جنوب تركيا محتفظة باسمها القديم (Tarsus). (أنظر: الطرسوسي (أبو عمرو عثمان بن عبد الله)، سير الثغور، تقدم ودراسة شاكر مصطفى، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1998. ص 34؛ لسترنج كي: مرجع سابق، ص 164-169).

⁴ الجوهري (إسماعيل بن حماد (ت 396هـ))، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط 2، بيروت، 1979. ج 1، ص 125.

⁵ حول هذه الدروب واستعمال البيزنطيين لها. (أنظر:

Ramsay W. M.: The Historical geography of Asia Minor, John Murray, London, 1890. t. IV, pp. 349-356).

⁶ الحَدَث: هي أداتا (Adata) عند الروم، فتحها المسلمون في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وقد وصفها المعاصرون بأنها قلعة حصينة من الثغور ويقال لها الحمراء لأن تربتها جميعا حمراء. وقد جدد الخليفة المهدي عمارتها سنة 162 هـ، كما اهتم بها هارون الرشيد وأسكنها =

(Marasch)¹ إلى أْبْلُسْتَيْن (Arabissus)² والثاني من طَرُسُوس إلى القسطنطينية.³ ويقال عن القوم الذين دخلوا أرض العدو من بلاد الروم أنهم أدربوا.⁴

ولما وصل المسلمون بفتوحاتهم إلى هذا الإقليم خلال القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، وأصبحت بلادهم متاخمة لبلاد الروم، أطلقوا عليه اسم الثغور.⁵ و"كل موضع قريب من أرض العدو يسمى ثغرا ... وهذا الاسم يشمل بلادا كثيرة ومنها البلاد المعروفة اليوم ببلاد ابن لاون"،⁶ ويفهم

= ألفي مقاتل من جنده، وكانت محل شد وجذب بين المسلمين والروم، إلى أن استولى عليها سيف الدولة الحمداني نهائيا سنة 343 هـ، فخلدها المتنبّي في قصيدة مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

إلى أن يقول :

هل الحدث الحمراء تعرف لوها وتعلم أي الساقين الغمام

ثم انتقلت القلعة إلى أيدي السلاجقة سنة 545 هـ / 1150 م. ويعرف درب الحدث عند الجغرافيين العرب بدرب السلامة. (أنظر : الحموي : مصدر سابق، ج 3، ص 124-125؛ لسترنج كي : مرجع سابق، ص 154-155).¹ مرعش : تعرف حاليا باسم قهرمان مرعش (Kahramanmaraş) ، في جنوب تركيا. قال عنها الحموي أنها مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم، حصنها مروان بن محمد آخر خليفة أموي، وتطورت كثيرا في عهد هارون الرشيد. استولى عليها الصليبيون سنة 490 هـ / 1097 م ثم صارت مدينة ذات شأن في أرمينيا الصغرى. (أنظر الحموي : مصدر سابق، ج 8، ص 249؛ لسترنج كي : مرجع سابق، ص 161).

² أْبْلُسْتَيْن : وردت أيضا باسم البستان، ووردت في المراجع الأجنبية باسم Ablastha و Albistan و El Boustan، وهي من مدن أرمينيا الصغرى، وتقع حاليا في جنوب تركيا. وكانت محل صراع بين سلاجقة الروم، والأرمن. (أنظر : الحموي : مصدر سابق، ج 1، ص 70؛ Dulaurier Edouard : op. cit., p. XLV, note n°1).³ لسترنج كي : مرجع سابق، ص 165-166.

⁴ الجوهري : مرجع سابق، ص 125.

⁵ رغم ظهور مصطلح الثغور في العهد الاسلامي، فقد بقي لفظ الدروب مستعملا بشكل واسع، ومن أمثلة ذلك ما جاء في قصيدة للمتنبّي يمدح فيها أبا فراس الحمداني بعد عبوره للدرب وانتصاره على الروم سنة 345 هـ :

وعلى الدروب وفي الرجوع غضاضة والسير ممتنع من الامكان

والطرق ضيقة المسالك بالقننا والكفر مجتمع على الايمان

⁶ الحموي : مصدر سابق، ج 3، ص 12. الثغور مفردا ثغر وقد عرفها ابن منظور بقوله : «وهو ما يلي دار الحرب، أو موضع المخافة من فوج البلدان، أو الموضع الذي يكون فاصلا بين بلاد المسلمين والكفار، وهو موضع المخافة من أطراف البلاد». أما صاحب كتاب الخراج، فقد قسم الثغور إلى ثلاثة أقسام، وفصل فيها قائلا : «الثغور منها برية تلقاها بلاد العدو، وتقاربه من جهة البر، ومنها بحرية تلقاه وتواجهه من جهة البحر، ومنها ما يجتمع فيه الأمران». (أنظر : ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711 هـ))، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (دت)، مج 4، ص 103؛ قدامة بن جعفر (أبو الفرج بن قدامة بن زياد (ت 328 هـ)) الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1981، ص 185).

من كلام ياقوت الحموي أن الثغور هي أرمينيا الصغرى، لأن ابن لاون هنا تحريف لاسم ليون وهو أحد ملوك أرمينيا الصغرى، أو كما يسميها البعض أرمينيا القليقية. وقد ألحق المسلمون هذا الإقليم بأرض الشام، فمنه ما يعرف باسم ثغور الشام ومنه ما يعرف باسم ثغور الجزيرة وكلاهما من الشام.¹ وقد أسهب الجغرافيون المسلمون كثيرا في ذكر تفاصيل المدن والطرق والمسافات الواقعة في هذا الإقليم، وجعلوا المدن الواقعة فيه حدا بين بلادهم وبلاد الروم، "وهي ملطية، والحدث، ومرعش، والهارونية، والكنيسة، وعين زربي، والمصيصة، وأذنة وطرسوس"². وقد أولى المسلمون هذه الثغور في العهد الأموي عناية خاصة، لأنها تحتل موقعا استراتيجيا على أبواب الإمبراطورية البيزنطية، التي ظلت تشكل خطرا على الدولة الإسلامية منذ نشأتها واتساعها، لما تتميز به من نظام سياسي مستقر وحضارة عريقة، خلافا عن بقية الدول الأخرى المجاورة لدولة المسلمين،³ التي لم تشكل خطرا دائما على حدود المسلمين. كما أقام البيزنطيون على أطراف إمبراطوريتهم نظاما دفاعيا محكما يتمثل في سلسلة من القلاع والحصون تقيم فيها فرق عسكرية مجهزة بشكل دائم، مهمتها الحفاظ على الحدود إلى حين وصول الإمدادات العسكرية. وقد عرف هذا النظام بنظام البنود أو الثيمات البيزنطي.⁴

¹ يوضح الإصطخري هذه المسألة بقوله : «قد جمعت الثغور إلى الشام ... وذلك أن كل ما وراء الفرات من الشام، وإنما سمي من ملطية إلى مرعش ثغور الجزيرة لأن أهل الجزيرة بها يرابطون وبها يغزون لا لأنها من الجزيرة ... وبين ثغور الشام و ثغور الجزيرة جبل اللكام وهو الفاصل بين الثغرين». (أنظر : الاصطخري (ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي (ت 346 هـ/957م)) : مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1927. ص 55-56).

² المصدر السابق، ص 55.

³ عاشور سعيد عبد الفتاح، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربية، بيروت، 1977. ص 226.

⁴ الثيما (Thema) : كلمة يونانية تعني مجموعة من الجيش تقيم في الإقليم على الحدود مسؤوليتها توفير الحماية ومسك الأرض والمراقبة وهذه المجموعة أو الفرقة العسكرية لها حاكم عسكري له سلطات مدنية ومالية وقضائية ويعاونه مجموعة كبيرة من الموظفين المدنيين والعسكريين وله آليات ونظام خاص في العمل. (أنظر : قدامة بن جعفر : مصدر سابق، ص 189-192؛ المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 354 هـ)) : التنبيه والاشراف، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1981. ص 166-175؛ دياب صابر محمد : المسلمون وجهادهم ضد الروم في أرمينية والثغور الجزيرة والشامية خلال القرن الرابع الهجري، مكتبة السلام العالمية، (دم)، 1984. ص 11-20؛ كنعان عاصم اسماعيل : نظام حماية الحدود في العصر الأموي، مجلة الفتح، مج 4، ع 32، جامعة ديالى، العراق، 2008. ص 2.

وفي العهد العباسي اشتهر الإقليم باسم "العواصم"، وهو "اسم الناحية وليس موضعاً بعينه".¹ وكان الخليفة هارون الرشيد (170-193 هـ/786-809م) قد أعاد تنظيم الإدارة العسكرية في إقليم الثغور واهتم بعمارها فبنى الهارونية،² وأضاف إلى ثغور المصيصة وطرسوس، سلسلة من الحصون الداخلية بنيت أكثرها في جبال الأمانوس. وهي عبارة عن خط ثانٍ للدفاع عن الثغور، وجعل من منبج ودلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين... قواعد عسكرية خلفية لمدن الثغور وسماها "العواصم". وسميت كذلك لأنها تحمي الثغور وتعصمها من الأعداء، وتقدمها بالجند والمؤونة في أوقات النفير. كما أن المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم من البيزنطيين إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر.³

وخلال القرن السابع الهجري/الحادي عشر الميلادي، استولى الأرمن على معظم المدن والحصون الواقعة في الإقليم، والتفوا حول زعمائهم وقادتهم، وأسسوا إمارات استطاعت أن تبقى صامدة أمام ضربات السلاجقة والبيزنطيين، وباتوا يشكلون أغلبية في المنطقة. وما لبثت هذه الإمارات أن اتحدت فيما بينها، ثم تطورت إلى مملكة مع نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وأصبحت أمراً واقعاً معترفاً به. وأمام هذا التحول الديمغرافي والسياسي اعترف المسلمون بالأمر الواقع، وغاب مصطلح الثغور من أدبياتهم، وأصبحوا يسمون هذا الإقليم "بلاد الأرمن"، وتارة "مملكة الأرمن"، أو "مملكة قيليقيا" وتارة ثانية "بلاد سيس" نسبة إلى مدينة سيس عاصمة المملكة، أو "إقليم الدروب"، ولُقّب أميرها باسم "صاحب بلاد الدروب"، وتارة أخرى يسمونها "بلاد ابن لاون"، أو "ابن ليفون".

¹ الإصطخري : مصدر سابق، ص 62.

² الإدريسي : مصدر سابق، ص 653.

³ قدامة بن جعفر : مصدر سابق، ص 186؛ الحموي : مصدر سابق، ج 6 ص 360؛ دياب صابر محمد : مرجع سابق، ص 21-28؛ العميد طاهر مظفر : تخصينات الدولة العباسية المواجهة للبيزنطيين في عهد الرشيد، مجلة المؤرخ العربي، ع 44، السنة 16، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1991. ص 266-267؛ الطائي سناء عبد الله عزيز : اقتصاديات الثغور في القرنين الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، مج 9، ع 3، جامعة الموصل، العراق، 2010. ص 501-502.

نسبة إلى الملك ليون الأول (1187-1219م) وهو أول ملك أرمني مُتَّوَجَّح¹. أما ابن الشحنة فقد أضاف إلى الأسماء السابقة اسماً جديداً وهو "بلاد الجوف"² والجَوْفُ هو السهل المنخفض³. ويبدو أن سهل قيليقيا الذي تحاصره الجبال من ثلاث جهات، ولا يمكن الوصول إليه إلا عبر الدروب والممرات الضيقة، يظهر للناظر إليه من القمم العالية، أرضاً منخفضة عما جاورها من الأراضي. وهذا الإقليم المعروف بقيليقيا يتكون طبيعياً من جزئين هما :

قيليقيا الجبلية : وكانت تسمى قديماً "قيليقيا تراخيا" (Cilicie Trachée) أو قيليقيا الوعرة. وهي تتكون من سلسلة جبلية طويلة، حديثة التكوين، تتجه نحو الشرق اتجاهها شمالاً شرقياً. ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام رئيسية : الأولى، جبال طوروس في الغرب والشمال، الثانية، جبال طوروس الداخلية أو الخلفية (Anti-taurus) في الشمال الشرقي، يزيد ارتفاعها عن 3 000 م، وهي التي كانت تفصل بين بلاد المسلمين وبلاد الروم. الثالثة، جبال الأمانوس في الجنوب الشرقي والتي تعرف عند الجغرافيين المسلمين بجبل اللكام، وهي تفصل بين قيليقيا وسوريا، ويصل إرتفاعها إلى 2 260 م. وتحتزن جبال طوروس معادن مختلفة، كما تكسوها غابات كثيفة ذات أشجار متنوعة⁴.

¹ الإدريسي : مصدر سابق، ص 646؛ الحموي : مصدر سابق، ج 3، ص 12؛ القلقشندي (أبو العباس أحمد ت) 821هـ/1418م)) : صبح الأعشى، دار الكتب السلطانية، القاهرة، 1915. ج8، ص 29؛ اسكندر فايز نجيب : تجارة مملكة أرمينية الصغرى مع المدن الإيطالية وسلطنة المماليك البحرية (1198-1375م/595-776هـ)، بحث مقدم في : الندوة العلمية الدولية عن الاقتصاد بين العرب والأرمن، 29 مارس 2010، منشورات مركز الدراسات الأرمينية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2010. ص 117.

² ابن الشحنة (أبو الفضل محمد ت) 890 هـ/1485م) : الدُرُّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العربي، دمشق، 1984. ص 220.

³ ابن منظور : مرجع سابق، مج 9، ص 34، 36.

⁴ ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى ت 749 هـ) : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971. ج 1، ص 149-150؛ رزقانة إبراهيم : الجغرافية الإقليمية للعالم الإسلامي القسم الثاني العالم الإسلامي غير العربي 1 تركيا، دار النهضة العربية، القاهرة، (دت)، ص 6-7؛

Langlois Victor : op. cit., pp. 6-7, 172-173; Alishan L. : op. cit., p. p. 3-21; Mutaftian Claude : La Cilicie au carrefour des empires, Société d'édition «Les belles lettres», Paris, 1988. pp. 4-5.

قيليقيا السهلية : عرفت قديما بعدة أسماء، منها (Cilicie champêtre)، و(Cilicie pédiade) أو قيليقيا المنخفضة وتعرف حاليا في تركيا باسم سهل أذنة أو (Çukurova). وهي تتكون من سهل رسوبي خصب يقع في جنوب شرق قيليقيا، ويتراوح طوله من الشرق إلى الغرب بين 50 إلى 60 كلم،¹ ويبلغ عرضه من الشمال إلى الجنوب حوالي 20 كلم. تجري في أراضي أرمينيا الصغرى عشرات الأنهار التي تتدفق من الجبال المحيطة بها وتخترق سهل قيليقيا لتنتهي في البحر، وهي تتفاوت في أهميتها وأطولها... وأهمها ثلاثة أنهار،² أولها وأكبرها نهر جيحان، هذه تسمية أطلقها عليه البلدانون العرب، بينما يسميه الأرمن "جهان" (Tchahan) لأنهم يجعلون الحاء هاء، وحاليا يسمى (Ceyhan çay) ويعرف عند الغربيين بنهر بيرامس (Pyramus). يقع شرق أرمينيا الصغرى، ويمر إلى الشمال من مدينة المصيصة³ (Mopsueste). ويأتي بعده نهر سَيحَان ويسميه الغربيون نهر ساروس (Sarus). ويعرف حاليا باسم (Seyhan çay). يمر بمدينة أذنة.⁴ ويأتي بعدهما نهر كودنس (Cydnus)، وقد سماه المسلمون نهر البرَدَان أو بَرْدَى، وذكر ابن الفقيه أنه كان يسمى أيضا نهر الغضبان ويسمى حاليا نهر طرسوس (Tarsus çay)، وهو يمر وسط مدينة طرسوس. كل هذه الأنهار تنبع من أعالي جبال طوروس وتصب في البحر المتوسط.⁵

¹ Langlois Victor : op. cit. p. 6; Alishan Léonce : op. cit., p. 15; Mutfian Claude : La Cilicie, p. 5.

² أنظر الملحق الرابع عشر، ص 487.

³ المصيصة : مدينة من بناء الروم تقع على ضفتي نهر جيحان، وهي من أشهر مدن ثغور الشام، وقرية من مدينة طرسوس. فتحها المسلمون في العهد الأموي، واهتموا كثيرا بعمارها. وقد رابط بها الصالحون أعواما عديدة. استولى عليها البيزنطيون سنة 964م وحصنها الصليبيون أثناء مرورهم بقيليقيا. وفي عهد ياقوت الحموي كانت خاضعة لحكم ملوك أرمينيا الصغرى. وتقع حاليا قرب مدينة أذنة جنوبي تركيا وتسمى ياكابينار (Yakapinar). (أنظر : الحموي : مصدر سابق، ج 8، ص 278؛ لسترنج : مرجع سابق، ص 162-163؛

Texier Charles : Asie mineure description géographique, historique et archéologique, Firmin Didot frères fils et Cie Editeurs, Paris, 1862. p. 730.)

⁴ أذنة : وتكتب أحيانا أضنة (Adana)، تقع جنوب تركيا غير بعيدة عن البحر المتوسط. وهي من مدن الثغور التي اهتم بها الخلفاء ترميما وتحصينا، وحدد الجغرافيون المسلمون موقعها بالقرب من المصيصة على الضفة الغربية لنهر سيحان. وهي مدينة عامرة، وحصينة، وتحيط بها أراضي خصبة، وينسب إليها جماعة من أهل العلم، فتحها السلاجقة قبيل معركة منازكرد سنة 1071م. (أنظر : الحموي : مصدر سابق، ج 1، ص 112؛ لسترنج كي : مرجع سابق، ص 163).

⁵ ابن الفقيه : مصدر سابق، ص 165؛ لسترنج كي : مرجع سابق، ص 165؛

Alishan Léonce : op. cit., pp. 12-15; Mutfian Claude : La Cilicie, pp. 6-8.

وينتمي إقليم أرمينيا الصغرى إلى مناخ البحر المتوسط، الذي يتميز بشتائه الدافئ والممطر وصيفه الحار والجاف، مع وجود فوارق في درجات الحرارة بين سهل قيليقيا ومرتفعات طوروس التي تغطيها الثلوج خلال فصل الشتاء.¹

ويلاحظ بشكل عام أن المظاهر الجغرافية في أرمينيا الصغرى شبيهة إلى حد بعيد بنظيرتها في أرمينيا الكبرى، حيث الجبال المرتفعة، التي تكسوها الثلوج، والسهول الواسعة، التي تجري فيها الأنهار.² وشكلت هذه السلاسل الجبلية حصنا منيعا في وجه الغزاة. ولكنها تعتبر حاجزا طبيعيا يزيد من صعوبة الاتصال والتنقل. مما جعل الأرمن يشعرون أنهم في بيئتهم الطبيعية التي نشؤوا فيها. وربما طبعتهم تلك المظاهر الطبيعية بطابع خاص، فجعلتهم أقوياء جسديا شديدي البأس في حروبهم؛ وهي الصفة الغالبة على طبيعة سكان الجبال. فكان لها تأثيرها الواضح في ميول الأمراء الأرمن إلى الانفصالية والفردية.³ وقد أثر ذلك على علاقاتهم بالبيزنطيين، والسلاجقة، والصليبيين، وكل القوى المجاورة لهم، إبان الفترة الزمنية موضوع الدراسة، حيث أصبحوا ضعفاء أمام خصومهم، وتطلعوا إلى القوى الخارجية الكبرى، يبحثون عن حماية سياسية ودعم عسكري.

وقد حاول علماء السلالات البشرية إمطة اللثام عن أصول الشعب الأرمني، معتمدين في ذلك على أبحاث مخبرية، وروايات تاريخية وأوصاف فيزيولوجية. وسلكت هذه الدراسات اتجاهين :

الأول : يعتمد على الروايات التاريخية التي أوردها المؤرخ الأرمني موسىس خوريناتسي، والتي تثبت أن الأرمن من الشعوب الآسيوية، وأنهم بقوا في هذه القارة ولم يغادروها إلى أوربا. وخلاصة هذه النظرية، أن هايك (Haïk) "أبو الأرمن" وهو أحد أحفاد سيدنا نوح عليه السلام، تمرد على بيل (Bel) ملك البابليين عقب دمار برج بابل، فخرج بعشيرته واتجه شمالا نحو اقليم آرات، وهناك

¹ Alishan Léonce : op. cit., pp. 24-26.; Langlois Victor : op. cit., pp. 8-10.

² حول التضاريس والمناخ والأنهار في أرمينيا الكبرى، (أنظر : Hewsén Robert H. : op. cit., pp. 31-40).

³ إميل بول : تاريخ أرمينيا، ترجمة شكري علاوي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (دت). ص 6؛ العبد الغني عبد الرحمن محمد : أرمينية وعلاقتها السياسية بكل من البيزنطيين والمسلمين 457-33م/1064-653هـ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، 1989. ص 21.

جرت معركة بينهما انتهت بقتل بيل. ثم قام هايك ببناء قرية عرفت باسمه، وما لبث أن تكاثر أبناء هايك وأحفاده وعشيرته في الإقليم.¹

الثاني : يصنف أصحاب هذا الاتجاه الأرمن بين الشعوب الهندو أوروبية،² معتمدين على الروايات التاريخية التي تذكر أن الأرمن كانوا في السابق يعيشون في البلقان، وأن أصلهم يعود إلى القبائل الفريجية³ التي سكنت منطقة تراقيا (Thrace) أو تساليا (Thessalie)⁴ وغادرت البلقان حوالي 2000 ق م متوجهة إلى آسيا الصغرى.⁵ وهذا التصنيف هو الراجح عند المؤرخين الأرمن المحدثين، ودعاة هذه النظرية يريدون أن يثبتوا بما لا يدع مجالاً للشك أن الأرمن من أصول أوروبية استوطنوا هضبة الأناضول.

وقد صنف علماء السلالات البشرية الأرمن ضمن المجموعة القوقازية الألبية، وهم يتميزون بخصائص فيزيولوجية منها : القامة المتوسطة القرية إلى القصر، واللون الأسمر المائل إلى الأبيض

¹ خوريناتسي : مصدر سابق، ص 38-49؛ انطون خانجي : مرجع سابق، ص 22-32؛ المدور عثمان : مرجع سابق، ص 98-101؛ إميل بول : مرجع سابق، ص 6-8؛

Kherumian R. : Les Arméniens race -origines ethno-raciales, Vigot frères éditeurs, Paris, 1941. p. 76; Mouradian Claire : op. cit., pp. 8-11.

² الشعوب الهندو أوروبية : اسم يطلق على مجموعة من الشعوب تربط بينها مجموعة من اللغات المشتركة. استوطنت هذه الشعوب آسيا الوسطى، وجنوب روسيا، وأوربا الوسطى. وقسمها بعض الباحثين إلى شعوب هندو أوروبية غربية وهندو أوروبية شرقية، وهي تنتمي كلها على الأرجح إلى أصل مشترك، وتكلمت لغة مشتركة تفرعت فيما بعد إلى لهجات متعددة. (انظر :

Moure Michel : Dictionnaire encyclopédique d'histoire, Bordas, Paris, 1996. pp. 2806-2807; Tariel Michel : Chronique des civilisations anciennes, Les Editions du Panthéon, Paris, 1997. t.I, pp. 62-63.)

³ القبائل الفريجية : يعتقد أنها من الشعوب الهندو أوروبية التي استوطنت منطقة الأناضول في آسيا الصغرى قادمة إليها من البلقان، ويحتمل أن يكونوا من التراقيين وربما كانوا يعرفون في السابق باسم (Les Briges)، وصنفهم المصريون مع مجموعة شعوب البحر. (انظر : Moure Michel : op. cit., p. 4328.)

⁴ يقع إقليم تراقيا جنوب شرقي أوربا ويشمل شمال شرق اليونان وجنوبي بلغاريا، والقسم الأوربي من تركيا. أما إقليم تساليا فهو يقع في شمال شرق اليونان. (انظر : الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ج 2، ص 946، 967.)

⁵ المدور عثمان : مرجع سابق، ص 102-110؛

Kherumian R. : op. cit., p. 73; Thorossian H. : Histoire de L'Arménie et du peuple Arménien, (s. éd.), Paris, 1957. pp. 20-26; Burney Charles : Avant les Arméniens les Ourartéens guerriers et bâtisseurs, ds. : H. P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008. pp. 93-96.

والشعر الأسود الفاحم الغزير المجدد¹. كما يتميزون من الناحية النفسية بالطبع الهادئ وتحمّل المشاق، ويكاد ينفرد كل واحد منهم برأي، ولذلك يصعب توجيههم أو ترؤسهم². ويعرف عنهم أنهم رجال أعمال أذكاء، وأنهم حرفيون من الطراز الأول، وحيثما حلوا فإنهم ينجحون في تكوين ثروات طائلة. وقد تحدث عنهم أحد الكتاب بعد أن عاش بينهم بضع سنوات قائلاً: "الأرمن مهما اختلفت أجناسهم وتباينت أقطارهم أمة نشيطة جدية عاملة... وهي ثابتة في مقاصدها قوية الإرادة في منازعتها تمارس من صعاب الأمور ما يعجز عنه غيرها من أمم الشرق لا تعتمد إلا على نفسها ولا يعوقها عائق في سبيل غاية تطلبها"³.

2- تطور قيليقيا قبل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي

أ - قيليقيا قبل الفتح الإسلامي

وحتى يكتمل هذا الإطار الجغرافي لإقليم قيليقيا، لا بد من تقديم عرض تاريخي سريع حوله قبل تأسيس إمارة أرمينيا الصغرى إلى بداية الربع الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي. ويبدو من خلال الأحداث التاريخية التي عاشها هذا الإقليم أنه كان ضحية موقعه المتميز؛ حيث كان محل أطماع القوى الكبرى المجاورة له. فخضع أولاً للآشوريين حوالي سنة 1000 ق. م. وبعدهم استولى عليه البابليون، ثم حكمه الفرس، حيث جعل منه دارا الأول (521-486 ق. م.) مرزبانة أي مقاطعة، وفرض على سكانه جزية سنوية. وبقي الأمر كذلك إلى أن تمكن الإسكندر المقدوني سنة 333 ق. م. أثناء عبوره إقليم قيليقيا، من دحر الجنود الفرس، وأخذ منهم مدينة طرسوس التي حاولوا حرقها، وتخريبها، انتقاماً من سكانها، الذين وقفوا مع اليونانيين وأمدوهم بالمال، والرجال، والسلاح، والسفن. ثم تقدم إلى مدينة إيسوس (Issus) الواقعة على الحدود الشرقية لقيليقيا، وجرت هناك معركة مصيرية بينه وبين دارا الثالث (336-330 ق. م.) انتهت بانتصار الإسكندر

¹ Hews Robert H. : Les hommes, ds. : H. P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008. p. 46; Kherumian R. : op. cit., pp. 19-38.

² المدور عثمان : مرجع سابق، ص 111؛ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 23.

³ الغزي (كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى) : نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية، حلب، 1926. ج 3، ص 428.

المقدوني. وبعد موته انتقلت قيليقيا إلى السلوقيين، حيث أسس أحد قادة الإسكندر وهو سلوقس الأول (280-355 ق. م.) المعروف باسم نيكاتور (Nicator Séleucus) مملكة السلوقيين في سوريا وبابل وهم الذين بنوا عدة مدن في قيليقيا منها سلوقية¹، وأنطاكية. ثم استولى عليها بطالمة مصر سنة 245 ق. م. وخضعت لسلطتهم حتى سنة 233 ق. م. حيث استعادها السلوقيون من جديد في عهد سلوقس أنطوخوس الكبير والذي جلب إليها مستوطنين يهود². وابتداء من سنة 69 ق. م. حكمها لبعض الوقت أحد ملوك أرمينيا الكبرى وهو ديكران الكبير (Tigrane le Grand) (55-94 ق. م.)، الذي أسس إمبراطورية واسعة امتدت من بحر قزوين إلى البحر المتوسط، ويبدو أنه كان محل إعجاب وتقدير كبيرين من طرف الأرمن³.

ثم دخلت الإمبراطورية الرومانية ميدان المنافسة والصراع، حيث تمكنت من الاستيلاء على إقليم قيليقيا سنة 64 ق. م. وجعلت منه مقاطعة رومانية بعد الانتصارات التي حققها بومبيوس (48-106 ق. م.) (Pompée le Grand) الذي خلد اسمه ببناء مدينة بومبيوبوليس (Pompéiopolis)⁴ في قيليقيا⁵.

وبعد النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي عاد الفرس من جديد لمنافسة الروم، في الاحتلال والتوسع، حيث قام أحد ملوكهم وهو شابور الأول (241-272م)، باكتساح قيليقيا سنة 260 م، وخرب كثيرا من مدنها. ووقع في أسره الإمبراطور الروماني فالريان (Valérien)

¹ سلوقية : مدينة قديمة تبعد حوالي 15 كلم عن الساحل الشرقي البحر المتوسط، تقع على ضفتي نهر كاليكادانوس (نهر السلف قديما)، بناها سلوقس الأول (ح 300 ق م) لتكون ميناء أنطاكية، استولى عليها البطالمة، ثم اتخذها الرومان قاعدة لأسطولهم، بلغها المسلمون خلال فتوحاتهم في القرن الأول الهجري. كانت محل صراع بين البيزنطيين والأرمن تارة وبين الصليبيين والأرمن تارة أخرى، تضم المدينة آثارا قديمة متنوعة. (انظر : الحموي : مصدر سابق، ج 5، ص 63؛

Alishan Léonce : op. cit., pp. 328-336.; Texier Charles op. cit., pp. 724-726).

² Alishan Léonce : op. cit., pp. 33-34.

³ خوريناتسي : مصدر سابق، ص 65؛ المدور : مرجع سابق، ص 149.

⁴ بومبيوبوليس : هي مدينة مزيتلي (Mezitli) حاليا في تركيا وتبعد ب 11 كلم إلى الغرب من مدينة مرسين (Mersin). (انظر : Texier Charles op. cit., p. 726).

⁵ Alishan Léonce : op. cit., p. 34.

(253-260م)) عند الرُّها (Edesse)¹، وساق أمامه كثيراً من سكانها عبيداً إلى مملكته. وبقيت الحرب سجّالا بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية التي أعقبتها الإمبراطورية البيزنطية، وبقيت كل قوة من هاتين القوتين تقف بالمرصاد للأخرى، إلى أن تولى عرش القسطنطينية، الإمبراطور هرقل (Héraclius) (610-641م) الذي نزل بنفسه في الإسكندرون سنة 622م وبدد الجيش الفارسي في سهول قيليقيا، وبعودته من بلاد الفرس منتصرا سنة 625م، قضى على آخر ما تبقى من هذا الجيش قرب جسر أذنة، وبذلك تمكن من استعادة سوريا وفلسطين ومصر من الفرس.²

ب - الفتوحات الإسلامية في قيليقيا

ومع بداية القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، ظهر منافس جديد وقفت أمامه الإمبراطورية البيزنطية شبه مشلولة. حيث انشقت الصحراء في شبه الجزيرة العربية على فرسان تدفقوا حمما، انهارت أمامهم جيوش الروم والفرس؛ إذ بعد انتشار الإسلام في شبه الجزيرة العربية، خرج المسلمون يحملون الرسالة العالمية، يفتحون الأقاليم والبلدان المجاورة، وقد كان للمعارك التي خاضوها ضد البيزنطيين من جهة، وضد الفرس من جهة أخرى، تأثيرها البالغ على مستقبل قيليقيا. وسرعان ما رأى هرقل أن الجهد الذي حققه بدأ يتحطم أمام عينيه، بخروج تلك المناطق عن سلطته الواحدة بعد الأخرى.

ولما شعر هرقل بخطر المسلمين وأن قواتهم تتقدم بسرعة في بلاد الشام، وأدرك أن القوات المحلية القليلة العدد لا تستطيع مواجهة الموقف، "كاتب كل من يحمل الصليب"³ وعباً "جموعاً كبيرة من الروم، وأهل الشام، وأهل الجزيرة، وأهل أرمينية، فجمع زهاء مائتي ألف... وعزم على محاربة

¹ الرها : تقع جنوب شرقي تركيا وتسمى حالياً (Şanlıurfa)، وهي من المدن القديمة في آسيا الصغرى، اشتهرت كمركز للمسيحية في القرن الثالث الميلادي، وبكثرة أديرتها، واحتفظت بمركزها الديني المسيحي خلال العصر البيزنطي، والإسلامي، فتحها المسلمون صلحا، وأغلب سكانها نصارى، استولى عليها الصليبيون سنة 1097م، ثم استعادها المسلمون في عهد عماد الدين زنكي سنة 1144م. (أنظر : الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ج 3، ص 1659).

² Alishan Léonce : op. cit., p. 37; Langlois Victor : op. cit., pp. 50-56.

³ الواقدي (أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد (ت 207 هـ)) : فتوح الشام، دار صادر، ط2، بيروت، 2010. ج 1، ص 134.

المسلمين".¹ وكان للأرمن دور كبير في المعارك التي خاضها هرقل ضد المسلمين، حيث "جمع من الأرمن ما لا يجمعه أحد من أهالي الملك هرقل"² وربما كان عددهم يشكل نصف جيش الروم.³ وتولى القائد الأرمني باهان قيادة جيوش بيزنطة، وكان يعرف عند البيزنطيين بشدة بلائه. وتذكر مصادر أرمنية معاصرة للأحداث، أن الأرمن شاركوا في معركة القادسية سنة 15 هـ/636م، بكتيبتين تعدادهما أربعة آلاف أرمني، بقيادة موشيل ماميكونيان (Musel Mamikonien)، والأمير جريجوار (Grégoire).⁴

رغم ضخامة الجيش الذي جمعه هرقل، حقق المسلمون انتصارا باهرا على البيزنطيين، في اليرموك سنة 15 هـ/636م، وكادوا أن يبيدوا الجيش البيزنطي بأكمله. وكان هرقل في أنطاكية يراقب ما ستسفر عنه المعركة. ولما وصلته أخبار اليرموك وما وقع لجيشه، ولم يكن يملك احتياطا يستبدل به الرجال الذين خسروهم، أدرك بأن الاستمرار في الحرب، ضرب من ضروب الانتحار، فأراد الحفاظ على ما تبقى من جيشه وقرر الانسحاب نحو الأناضول. ثم خرج هاربا موليا الأدبار قاصدا القسطنطينية، ولما جاوز الدرب قال قولته المشهورة: "عليك يا سورية السلام، ونعم البلد هذا للعدو"⁵، وكل ما صنعه هرقل في الشام، وفي قيليقيا ضاع بعد ذلك اليوم.⁶ وبعد أن قوض المسلمون أركان الدولة الفارسية،⁷ تفرغوا للدولة البيزنطية، فسقطت في يدهم دمشق والقدس وأنطاكية وفلسطين، وبدأوا يشقون طريقهم للتوغل في قلب الإمبراطورية البيزنطية، ويدقون أبواب قيليقيا.

¹ البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت 271 هـ)): فتوح البلدان، حققه عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، 1987. ص 184.

² الواقدي: مصدر سابق، ج 1، ص 134.

³ ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل (ت 774 هـ)): البداية والنهاية، دار الغد الجديد، القاهرة، 2007. ج 7، ص 88؛ بروكلمان كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس و منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1981. ص 95.

⁴ Sébèos (L'Evêque): Histoire d'Héraclius, Traduit en français par Frédéric Macler, Paris, 1904. p. 99.

⁵ الواقدي: مصدر سابق، ج 2، ص 276؛ البلاذري: مصدر سابق، ص 186.

⁶ شنييه جان-كلود: تاريخ بيزنطة، ترجمة جورج زيناقي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2008. ص 56.

⁷ في معركتي القادسية سنة 15 هـ / 636 م ونهاوند سنة 19 هـ / 640 م.

إن انهزام هرقل الذي يعتبر واحداً من أكبر الأباطرة في تاريخ الدولة البيزنطية،¹ مع ما تميزت به هذه الإمبراطورية من نظام سياسي عريق وضخامة جيشها وحضارتها، دفع المؤرخين إلى طرح العديد من التساؤلات حول سر السرعة الفائقة التي جعلت المسلمين يتفوقون على البيزنطيين ويحققون انتصارات باهرة على حسابهم.

وربما توجد بعض التبريرات في السياسة الدينية التي كان يطبقها الأباطرة تجاه أتباعهم من المخالفين لهم في المذهب.² حيث تذكر بعض المصادر التاريخية الأرمنية "أن أهل فلسطين، طلبوا من المسلمين الإسراع لمساعدتهم وتخليصهم من الاضطهاد الديني"³ من قبل الروم، وأنه عقب تحرير أراضيهم، سيحكمان البلاد معا"⁴. أما الأرمن فعلى الرغم من أنهم جُندوا في الجيش البيزنطي وشاركوا في بعض معاركه، يبدو أنهم كانوا مكرهين على ذلك، "وكانوا حاقدين على الدولة البيزنطية وغير راغبين في القتال"⁵.

¹ شينيه جان-كلود : مرجع سابق، ص 57.

² Bréhier Louis : L'Eglise et l'Orient au moyen âge. Les croisades, J. Cabalda, éditeur, 4^{ème} éd., Paris 1921. p. 18.

³ عارضت الكنائس الشرقية في مصر وبلاد الشام وفلسطين، قرارات مجمع خلقدونية الذي انعقد سنة 451 م، وأكد فيه الآباء المجتمعون أن للمسيح طبيعتين : بشرية وإلهية (Diophysisme). أما المذهب الذي كان سائداً في الشام هو أن للمسيح طبيعة واحدة (Monophysisme)، وقد عملت كنيسة القسطنطينية على فرض مذهب الطبيعتين بكل الطرق. وكان العرب الغساسنة الذين يحرسون الحدود السورية للإمبراطورية البيزنطية قد شجعوا أنصار الطبيعة الواحدة، فأقام هؤلاء كنيسة موازية وذلك تحت تأثير راهب اسمه يعقوب البرادعي، وأقاموا بالتالي كنيسة منافسة في سوريا سميت يعقوبية باسم مؤسسها. ومنعت السلطات البيزنطية الأساقفة اليعاقبة من دخول المدن فلجأ هؤلاء إلى الأديرة. ونشب صراع قوي بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة اليعقوبية. والكنيسة الأرمنية تقوم على عقيدة الطبيعة الواحدة للمسيح. (أنظر : عاشور سعيد عبد الفتاح : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1976. ص 51-52؛ خمّاش نجدة : الشام في صدر الاسلام من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية دراسة للأوضاع الاجتماعية والإدارية، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1987. ص 70-71، 134-136؛ كاميللو بيركا وآخرون : الجامع المسكونية، نقله إلى العربية السيد بولس عطا الله، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005. ص 37-43؛ شينيه جان-كلود : مرجع سابق، ص 48-49).

⁴ Ghémond Léonce : Histoire des guerres et des conquêtes des Arabes en Arménie, traduit en français par Garabed V. Chahnazarian, Paris, 1856. p. 8.

⁵ بروكلمان كارل : مرجع سابق، ص 95. غير راغبين في القتال بسبب محاولة بيزنطة فرض مذهب الطبيعتين على الأرمن المنبثق عن قرارات مجمع خلقدونية.

وكذلك قال أهل حمص للمسلمين : "لولايتكم وعدلكم أحبُّ إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولنندفعنَّ جند هرقل عن المدينة مع عاملكم، ونهض اليهود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى، واليهود، وقالوا إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه".¹

وإذا ظهر للبعض أنه من الخطأ القول أن اليعاقبة² في سوريا، والأقباط أتباع مذهب الطبيعة الواحدة في مصر، قد شجعوا الفتوحات الإسلامية، فإن مما لا شك فيه أن الحقد الذي يكنه هؤلاء للخلقدونيين³ قد أحدث شللاً في المقاومة ضد المسلمين،⁴ بل وحمل قسماً كبيراً من نصارى الشام على الترحيب بالفاحين الجدد.⁵ ونتيجة للتنافر الذي حدث بين المسيحيين بسبب محاولة بيزنطة فرض مذهب الطبيعتين على جميع أتباعها، حدث خلاف جعل اليعاقبة والأقباط يعتقدون أن القياصرة قد عاقبهم الله لأنهم أساءوا معاملتهم، في حين أن الخلقدونيين (أنصار مجمع خلقدونية)

¹ البلاذري : مصدر سابق، ص 187.

² اليعاقبة (Les Jacobites) : هي فرقة مسيحية تنسب إلى يعقوب البرادعي، وقد عاش أتباعها في مصر والنوبة والحبشة، وكانت لهم اتصالات بالمسلمين وجرت بينهم مناظرات دينية. يدور مذهبهم على القول بأن المسيح هو الله والإنسان اتحدا في طبيعة واحدة هي المسيح، وأكثر اليعاقبة يقولون إن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين، إحداهما إلهية، والأخرى إنسانية، ولكنهما تركبتا كما تركبت النفس والبدن. (أنظر : الشهرستاني (ابو الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت 548هـ)) : الملل والنحل، دار الفكر، بيروت، 2008. ص 182-184؛ عطية عزيز سوريا : تاريخ المسيحية الشرقية، ترجمة إسحاق عبيد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005. ص 220-224؛ الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ج 7، ص 3648).

³ الخلقدونيون (Les Chalcédoniens) : يعرفون عند المسلمين باسم الملكانيين، وهم الذين تبنا قرارات مجمع خلقدونية وعددها ثمانية وعشرون قانوناً، أهمها اثنان، الأول : قانون الإيمان الذي يعتبر أن الطبيعتين الإلهية والإنسانية للمسيح متميزتان بالرغم من أنهما متحدتان على نحو لا يقبل الفصل، فالمسيح إنسان حقيقي وإله حقيقي في الوقت نفسه، أي وحدة الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية في شخص المسيح، ويعرف بمذهب الطبيعتين. وهو المذهب الذي تبنته الدولة البيزنطية رسمياً وعملت على فرضه على جميع أتباعها المسيحيين. والثاني : القانون الذي رفع كنيسة القسطنطينية إلى المقام الثاني بعد كنيسة روما، على حساب كنيسة الاسكندرية وأنطاكية، وبذلك يكون بطريرك القسطنطينية الرئيس الأواحد للكنيسة الشرقية. (أنظر : الشهرستاني : مصدر سابق، ص 179؛ عطية عزيز سوريا : مرجع سابق، ص 71-76؛ الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ج 3، ص 1450؛

Valognes Jean-Pierre : Vie et mort des chrétiens d'Orient des origines à nos jours, Fayard, Paris, 1999. p. 284-335.)

⁴ Bréhier louis : op. cit., pp. 18-19.

⁵ رستم أسد : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، دار المكشوف، بيروت، 1955. ج 1، ص 247.

كانوا يقولون إن الأقاليم الشرقية وقعت ضحية الغزو لأن سكانها كانوا من الهراطقة (أصحاب البدع).¹ ويبدو أن البيزنطيين نظروا للإسلام على أنه مذهب شبيه بمذهب آريوس،² واعتقدوا أنه لا يختلف عن المذهب المونوفيزي المنتشر في مصر والشام.³

ومن سخرية القدر أن هرقل عمل -دون قصد- لصالح المسلمين، لأن الضربة القاضية التي وجهها للساسانيين، أدت إلى انهيار الجيش الفارسي، وهذا ما سهّل عملية توسع الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام؛⁴ إذ بعد أربع سنوات من انتصاره على الفرس، عرف المسلمون كيف يستغلون الفرصة التاريخية التي قدمتها لهم الحرب بين الروم والفرس، التي أضعفت كثيرا الامبراطوريتين، ولم يجد الفاتحون المسلمون عناء كبيرا في دحر جيوش الإمبراطورية الفارسية، وإزاحت تلك الدولة من طريقهم، ثم اخترقت أفواجهم الأولى حدود سوريا.

وبما أن الفتوحات قد وصلت إلى أطراف الشام، وأصبح المسلمون على تخوم الإمبراطورية البيزنطية، فمن الطبيعي أن يهتم المسلمون بإقليم قيليقيا لموقعه الاستراتيجي على أبواب دولة الروم.⁵

¹ شينيه جان-كلود : مرجع سابق، ص 60.

² آريوس : مثقف وقسيس بالاسكندرية، أراد أن يمتنع ويعقل العقائد المسيحية. فقال بأن المنطق يحتم وجود الأب قبل الابن، ولما كان المسيح الابن مخلوق للإله الأب فهو دونه ولا يمكن بأي حال أن يعادل الابن الإله الأب في المستوى والقدرة. وبعبارة أخرى فإن المسيح مخلوق لا إله بالمعنى المطلق لهذه الكلمة، وإلا فإن المسيحيين يصبحون متهمين بعدم التوحيد وعبادة إلهين. واشتد الجدل بينه وبين أتباع إثناسيوس الذي كان يقول بأن فكرة الثالوث المقدس تحتم بأن يكون الإبن مساويا للإله الأب تماما في كل شيء بحكم أنهما من عنصر واحد بعينه، هذا وإن كانا شخصين متميزين. ثم انعقد في نيقية سنة 325م أول مجمع مسكوني عالمي في تاريخ الكنيسة، فأدان آريوس ونفي إلى اليربا وأحرقت كتبه وحرم تداولها واضطهد أتباعه ... (انظر : عاشور سعيد عبد الفتاح : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 39-42؛ رستم أسد : مرجع سابق، ج 1، ص 56؛ ويلتر ج. : الهراطقة في المسيحية تاريخ البدع الدينية المسيحية، تعريب جمال سالم، التنوير، بيروت، 2010. ص 76-77؛ كاميلو بيريكا وآخرون : مرجع سابق، ص 11).

³ ربيع حسنين محمد : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1983. ص 65؛ رستم أسد : مرجع سابق، ج 1، ص 239.

⁴ Bréhier louis : op. cit., p. 19.

⁵ عاشور سعيد عبد الفتاح، بحوث ودراسات، ص 226.

"فينبغي أن يكون المسلمون لصنوف أعدائهم أشد حذرا منهم للروم"،¹ وعليه يجب أولا تأمين هذه الثغور بنشر الدعوة الإسلامية، ثم تقطيع هذا الحزام الوافي للإمبراطورية البيزنطية ومن ثمة فتح الطريق للتوغل في قلب الإمبراطورية ومهاجمة القسطنطينية مستقبلا.

لقد حاول المسلمون التسلل إلى بلاد الروم، في عهد الخليفين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان (رضي الله عنهما)، فأدربوا عبر بغراس ودرب الحدث ووصل خالد بن الوليد إلى مرعش، عند سفوح جبال طوروس،² ولكنهم وجدوا الدروب فارغة من السكان باستثناء بعض المسيحيين في جبل اللكام³ يعرفون بالجراجمة.⁴ ثم اندلعت الحرب بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنهما) فأنقذت البيزنطيين لبعض الوقت، لأنها أوقفت انطلاقا المسلمين وفتوحاتهم لسنوات عديدة، ويبدو أن البيزنطيين لم يستطيعوا استعادة ما فتحه المسلمون في الشام وذلك بسبب المشاكل التي خلقتها العناصر السلافية⁵ المختلفة وهجماتها المتكررة على حدود الامبراطورية.⁶

¹ قدامة بن جعفر : مصدر سابق، ص 185.

² انظر موقع هذه المدن في الملحق الثالث عشر، ص 486.

³ البلاذري : مصدر سابق، ص 223-224، 265.

⁴ الجراجمة : مجموعة من النصارى ينتسبون إلى مدينة جرجومة الواقعة في جبل اللكام، وهم الذين عرفوا فيما بعد باسم الموارنة، وكانوا يستقيمون للدولة المسلمين مرة ويخرجون عن طاعتهم أخرى، فيكاتبون الروم ويدلوهم على عورات المسلمين، وقد استعملهم الخلفاء أحيانا كعيون لهم على الروم. (أنظر : البلاذري : مصدر سابق، ص 217-223؛ خماش نجدة : مرجع سابق، ص 136-137).

⁵ العناصر السلافية : ويسمون أيضا الصقالبة، وهي شعوب تسكن بين جبال الأورال والبحر الأدرياتي في أوربا الشرقية والوسطى، ويقسمون عادة إلى ثلاثة أقسام كبرى : صقالبة الغرب ويشملون البولنديين، والتشيكيين، والسلوفاكيين، والوند، وصقالبة الشرق وهم الروس والأوكرانيون، والروس البيض، وصقالبة الجنوب ويضمون الصربيين والكرواتييين والسلوفينييين والمقدونييين والبلغاريين. وكانت هذه الشعوب الرابضة على حدود الامبراطورية الرومانية، أولى ضحايا قبائل الهون في أوائل العصور الوسطى، وتعرضت لكثير من المتاعب مما عرض كثيرين منهم للاستعباد، حتى اشتقت كلمة عبد في كثير من اللغات الأوربية (Slave)، من اسم السلاف. وحاولوا التسلل إلى داخل أراضي الامبراطورية البيزنطية وغزوا القسطنطينية. (أنظر : عاشور سعيد عبد الفتاح : تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص 57؛ شينيه جان كلود : مرجع سابق، ص 51؛ الموسوعة العربية الميسرة : مرجع سابق، ج 4، ص 2097).

⁶ Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance, Editions Albin Michel, Paris, 1969. p. 62.

وبعد أن تولى الخلافة معاوية بن أبي سفيان سنة 41 هـ/661م، انتقلت عاصمة الدولة الأموية إلى دمشق وكانت قريبة من الحدود البيزنطية، فأصبح الغرب وجهة الدولة الإسلامية.¹ وكان معاوية مهتما بضم إقليم قيليقيا، ففتح جبهة حربية برية أطلق عليها اسم "حرب الثغور"، ووضع لها نظاما خاصا عرف بنظام الصوائف والشواقي، حيث يقوم المسلمون بغزوة في الصيف تسمى الصائفة، وأخرى في الشتاء وتسمى الشتاتية. سمحت للمسلمون الوصول إلى أقدام جبال طوروس. واستمر هذا النظام طيلة العهد الأموي، وقام الخلفاء الأمويون بترميم كثير من الحصون والقلاع، وإعادة بناء المدن التي خربها البيزنطيون أثناء انسحابهم،² وبنوا أخرى جديدة، منها مرعش، والحدث، وطرندة، والمصيصة، وملطية، وحصن الرض، وحصن المثقب، وحصن قطر غاش ... وشكلت القلاع خطا هجوميا طويلا يمتد من ملطية على الفرات الأعلى إلى طرسوس بالقرب من الساحل الشرقي للبحر المتوسط.³ كما قام بعض الخلفاء بإسكان عدد من المسلمين في تلك الحصون والمدن، انتخبوهم من ذوي البأس والشدة، وأقطعوهم الأراضي، وبنوا لهم المساجد بهدف المراقبة الحدود كي لا تؤخذ من أهلها على حين غفلة.⁴

ويبدو أن سياسة الترغيب التي سلكها الخلفاء مع المسلمين ليستقرروا في الثغور، لم تؤت أكلها، مما شجع البيزنطيين على محاولة استعادة هذا الإقليم، فكانوا يشنون الغارات من حين لآخر وتحولت الحرب بينهم وبين المسلمين إلى هجومات هدفها التخريب والتدمير، أصبحت مع مرور الوقت حرب استنزاف. وبقي هذا الإقليم يتأرجح بين الخصمين وهما بين كرّ وفرّ، وفي الأخير خسره البيزنطيون، ودخل في حظيرة الخلافة الإسلامية. وثبتت الحدود بين الطرفين لقرون عدة على جبال

¹ أبو زيد علا عبد العزيز : الدولة الأموية دولة الفتوحات 41-132هـ/661-750م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996. ص 15.

² الحيارى مصطفى علي : حياة الناس في مدن الثغور، مجلة دراسات تاريخية، مجلة دراسات تاريخية، ع 4، جامعة دمشق، أفريل 1981م. ص 85.

³ انظر الملحق الثالث عشر، ص 486.

⁴ البلاذري : مصدر سابق، ص 223-227، 265، ؛ كنعان عاصم اسماعيل : مرجع سابق : ص 6-7؛ خمّاش نجدة : مرجع سابق، ص 372-374.

طوروس، التي كانت خالية تقريبا من السكان ولكن المسلمين كانوا يتسللون عبر دروبها إلى كبادوكيا، فيجدون البيزنطيين لهم بالمرصاد.¹

وبعد انتقال الخلافة إلى العباسيين، ورث هؤلاء عن الأمويين النزاع مع البيزنطيين، وهو نزاع لا يمكن تفاديه لوجود حدود مشتركة طويلة بين الدولتين، وأكثرها أهمية إقليم قيليقيا. وبما أن العباسيين اتخذوا من بغداد عاصمة لهم، فقد تغيرت مواقع الدفاع والهجوم بين البيزنطيين والمسلمين، حيث ركز العباسيون أكثر على الثغور الجزرية. ولذلك يقال إن الثغور الشامية أموية والثغور الجزرية عباسية.² ومعنى ذلك أن الخلافة الأموية جعلت من ثغور الجزيرة خطا دفاعيا يقي المسلمين من هجمات البيزنطيين، وجعلت من ثغور الشام خطا هجوميا للتوغل في بلاد الروم،³ والعكس نجده عند العباسيين حيث جعلوا من ثغور الشام خطا دفاعيا ومن ثغور الجزيرة خطا هجوميا. وتفسير ذلك يعود إلى موقع عاصمتي الدولتين فمدينة دمشق هي أقرب إلى الثغور الشامية، بينما مدينة بغداد الواقعة في العراق هي أقرب إلى الثغور الجزرية.

وقد "تتبع بنو العباس مدن الثغور وحُصُونُهَا فَعَمَّرُوهَا وحصنوها وغزوا غزوات مذكورة"⁴ واستمرت في عهدهم حملات الصوائف والشواقي. ولكنهم اهتموا أيضا بتعمير هذا الإقليم بالسكان فجلبوا إليه الصناع ليشغلوا في مدنه ومنحوا للجنود المزارع والضياع،⁵ ما جعل عدد السكان يرتفع عما كان عليه في العهد الأموي.

وخصص العباسيون لهذا الإقليم نفقات خاصة في ميزانية الخلافة، وعينوا له موظفين وعمالا يسهرون على شؤونه. فقد أورد قدامة بن جعفر بعد أن عرّف الثغور الشامية، أن "ارتفاعها نحو المائة

¹ البلاذري : مصدر سابق، ص 266-267.

² الطائي سناء عبد العزيز : مرجع سابق، ص 500-501.

³ أبو زيد علا عبد العزيز : مرجع سابق، ص 21.

⁴ ابن العديم (الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت 660هـ)) : بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1988. ج 1، ص 47.

⁵ البلاذري : مصدر سابق، ص 223؛ Laurent J. : op. cit., p. 244.

ألف دينار، ينفق في مصالحها وسائر وجوه شأنها، وهي المراقب، والحرس، والفواثير، والركاضة، والموكلين بالدروب، والمخايض، والحصون، وغير ذلك مما جانسه من الأمور والأحوال، ويحتاج إلى شحنتها من الجند والصعاليك. وراتب مغازيها الصوائف، والشواتي".¹

ومما يدل على اهتمام العباسيين بأمر الثغور وعدم التنازل عنها لصالح البيزنطيين أن بعض الخلفاء كانوا يخرجون بأنفسهم على رأس الجيش ويتوغلون في بلاد الروم، ومنهم المهدي (158-169هـ/775-785م)، الذي خرج بنفسه مع ابنه هارون إلى الحدث سنة 163هـ/780م، والخليفة الرشيد الذي تعددت غزواته لبلاد الروم ففتح هرقله سنة 190هـ/806م، وهو الذي أضاف خطا ثانيا من القلاع والحصون يقع إلى الجنوب من الخط الأول سماه "العواصم"، وبنى مدنا ورمم أخرى منها الهارونية، ومنبج، وتيزين، وفايا، وعين زربي، وكان الهدف منها أن يجد المسلمون إذا انصرفوا من غزوهم، وخرجوا من الثغر، مدنا وحصونا يعتصمون بها فتمنعهم من العدو.² و الخليفة المأمون عبد الله بن الرشيد الذي دخل مدينة طرسوس فاتحا فأدركته منيته هناك، ودفن بها.³ والخليفة المعتصم بالله الذي فتح عمورية⁴ سنة 223هـ/838م، وبنى حصن طبارجي، وحصن الحسينية وحصن بني المؤمن، وحصن ابن رحوان وكلها بالقرب من زبطرة.⁵

كل هذه الأعمال تبين أن إقليم الثغور أو قيليقيا كان جزءا من أراضي الخلافة الإسلامية، وقد اهتم الخلفاء بأمره، وسكنه المسلمون وعمروه قرونا عديدة، وبنوا فيه مساجدهم "وجعلوا من مدنه مراكز زاهرة لحضارتهم وثقافتهم".⁶

¹ قدامة : مصدر سابق، ص 186.

² البلاذري : مصدر سابق، ص 180، 233-234.

³ الحموي : مصدر سابق، مج 3، ج 6، ص 256.

⁴ عمورية (Amorium) : من مدن الروم الواقعة في الجهة الغربية من آسيا الصغرى، فتحها المعتصم بالله سنة 223هـ/838م، وكانت محل تنافس بين السلاجقة والبيزنطيين، ولم يبق منها حاليا إلا الآثار. (أنظر : الحموي : مصدر سابق، مج 3، ج 6، ص 355؛ Texier Charles op. cit., pp. 471-473.)

⁵ قدامة : مصدر سابق، ص 186؛ ابن العديم : مصدر سابق، ج 1، ص 47، 589.

⁶ عاشور سعيد عبد الفتاح : بحوث ودراسات، ص 227.

وبعد هذا العرض السريع لتاريخ إقليم قيليقيا وكيفية انتقاله إلى أيدي المسلمين، نتساءل عن رد فعل الدولة البيزنطية ونظرتها لحدودها مع المسلمين، وإلى أي مدى تقبلت وجود المسلمين على حدودها الشرقية ؟ لأن الإجابة عن هذا السؤال ستوضح إلى حد كبير بروز الروح الصليبية عند البيزنطيين قبل وصول الفرنجة إلى آسيا الصغرى.

ج - عودة البيزنطيين إلى قيليقيا

وإذا كانت الفتوحات الإسلامية قد توقفت عند الثغور الشامية ولم يستطع المسلمون تجاوز جبال طوروس، واكتفوا آنذاك بضم إقليم قيليقيا وفصله عن الإمبراطورية البيزنطية، فمما لا شك فيه أن المسلمين كانوا يهدفون إلى فتح القسطنطينية، والقضاء على دولة الروم، مثلما أزالوا دولة الفرس سابقا، ولم تكن الدولة البيزنطية جاهلة لنوايا وأهداف المسلمين، ولم تكن نواياها ومشاعرها أكثر صفاء للمسلمين ودولتهم.

وإذا كان الروم قد عجزوا عن الدفاع عن أراضيهم خلال القرن السابع الميلادي، فلا يمكن أن ينسوا، وأن يغفروا للمسلمين، وهم يرونهم يقتطعون من الإمبراطورية أثمن ولاياتها في الشرق، وهي الشام، وشمال العراق، ومصر.¹ فإنهم كانوا يتطلعون إلى اليوم الذي يثأرون فيه لأنفسهم، وينتقمون من المسلمين، ويستعيدون أراضيهم، ولذلك كانوا دائما يستغلون لحظات ضعف المسلمين، لينقضوا على أطراف بلادهم. وأقرب الأراضي إلى عاصمتهم، وأهمها من حيث المواصلات والموقع هي تلك التي تقع في إقليم قيليقيا.

ومع بداية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، أخذت أوضاع قيليقيا تتغير، وتخرج من أيدي المسلمين. إذ توقفت جيوشهم عن مهاجمة الأراضي البيزنطية، وخفت روح الجهاد كثيرا خارج مناطق الحدود، وبلغت الدولة الإسلامية حالة من الضعف والانحلال لا تحسد عليها، "وضعف أمر الخلافة، وانحل، وفي تلك المدة تفرقت الممالك، ولم يبق بيد الخليفة غير بغداد..."²، هذه العبارة التي كتبها

¹ عاشور سعيد عبد الفتاح : بحوث ودراسات، ص 227.

² ابن الساعي (علي بن أنجب البغدادي (ت 674هـ)) : مختصر أخبار الخلفاء، المطبعة الأميرية، بولاق، 1309هـ. ص 80.

المؤرخ ابن الساعي عن الخليفة الراضي بالله محمد بن المقتدر (322-329هـ/934-940م)، تدل على أن الخلافة العباسية كانت تعيش أوضاعاً حرجية داخلية وخارجية، ولم تعد قادرة على أن تحافظ على رقعتها الشاسعة. حيث تدهورت صورة الخليفة وسلطته، وأصبح ألعوبة في يد الجيش والوزراء، فانفرط عقد الخلافة وظهرت دويلات وإمارات مستقلة في الأطراف. ففي فارس قامت دولة بني بويه، وفي مصر قامت الدولة الإخشيدية سنة 322هـ، كما أعلن الفاطميون خلافتهم في بلاد المغرب سنة 296هـ/910م، وعاث القرامطة فساداً، واستبد الديلمة¹ بشمال خراسان، وسيطر البريديون² على واسط والبصرة، وقام الحمدانيون في الموصل وديار ربيعة وجزء كبير من العراق.³ ولم تجد الإمبراطورية البيزنطية أمامها جبهة إسلامية موحدة، بل دويلات مستقلة، وفيسفساء من الإمارات على الجزيرة وشمال الشام لم تكن لها القدرة على مواجهة البيزنطيين.⁴ بل وتناصب بعضها بعضاً العداء، وتحالف آخرون مع المسيحيين.⁵ في هذه الظروف اعتقد الروم أن ساعة الانتقام قد حانت، وأيام المسلمين في قيليقيا أصبحت معدودة.

ومن بين النتائج المباشرة لضعف الخلافة العباسية، إهمال الخلفاء تدعيم الثغور التي كانت حصوناً أمامية لدار الإسلام، "وبجوارها من السلاطين والبوادي والقروم والملوك من قد أشغله يومه عن غده، وحرامه وحطامه عما أوجب الله تعالى والسياسة والرياسة عليه".⁶ ولما توقف دعم الحكومة

¹ الديلمة : نسبة إلى إقليم الديلم الواقع جنوبي بحر قزوين، وكان تحت حكم فرع من بني بويه على المذهب الشيعي، (أنظر : لسترنج كي : مرجع سابق، ص 207).

² البريديون : هو لقب لثلاثة أخوة كان أبوهم صاحب البريد في البصرة. شكلوا خطراً على الدولة في فترة اضمحلال الخلافة العباسية، أيام المقتدر وخلفائه، ورأس هذه الأسرة هو أبو عبد الله البريدي (ت 332هـ/943م)، حاربهم ابن رائق "أمير الأمراء" دون جدوى. حاربوا معز الدولة البويهية فطردهم من البصرة. (أنظر : الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ج 2، ص 703).

³ دياب صابر محمد : مرجع سابق، ص 42.

⁴ ابن فرج لطفی : "الأسرى في العلاقات العباسية-البيزنطية من قيام الدولة العباسية إلى واقعة ملازكرد (132هـ/750م-463هـ/1071م)"، مذكرة لنيل شهادة الكفاءة في البحث العلمي، المرحلة الثالثة، إشراف د. محمد الطاهر المنصوري، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، السنة الجامعية 1992-1993. ص 116.

⁵ Bréhier : Vie et mort de Byzance, p. 163.

⁶ ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت 367هـ/977م)) : صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979. ص 165.

المركزية لتلك الثغور لم تجد أمامها إلا إمكاناتها المحلية المحدودة، ولم تكن قادرة على الاستمرار بهذا الشكل لفترة طويلة. فقد كانت صغيرة وموقعها مكشوف، لهذا لم يكن بوسعها الصمود لوقت طويل دون دعم عسكري ومالي كبيرين من جانب الحكومة المركزية ببغداد، فكان سقوطها أمام البيزنطيين مسألة وقت.¹ ويشير ابن العديم إلى حالة الضعف التي وصلت إليها الثغور بقوله : «وما زال مشحونا بالراجل والراكب إلى أن قصرت الهمم وولي من تعدى وظلم، واشتغلوا باللذات وتعاطوا الأمور المنكرات، فضعف أمر الثغور واحتل ووهى عقد نظامها وانحل».²

وقد توافق ضعف الخلافة العباسية وأفول نجمها مع نهضة كبيرة في الإمبراطورية البيزنطية.³ "وكان ذلك في الوقت الذي استولت على العرش في القسطنطينية أسرة من أقوى الأسر في تاريخ هذه الدولة، هي الأسرة المقدونية⁴ التي نفخت في الدولة روحا جديدة بفضل ما وفرته من استقرار داخلي وقيادة راشدة".⁵ ومع قدوم هذه الأسرة بدأت بيزنطة تشهد تحولات عسكرية وسياسية ستكون مقلقة

¹ العبد الغني عبد الرحمن محمد : مرجع سابق، ص 130؛ الحيارى مصطفى علي : مرجع سابق، ص 86.

² ابن العديم : مصدر سابق، ج 1، ص 589. ويصور لنا القاضي أبو عمرو عثمان الطرسوسي، الذي كان شاهد عيان على تدهور أوضاع الثغور بقوله : "نفذت سوابق أفضيته في عالم من بريته أسكنهم حيناً من الدهر ثغراً بأطراف الشام نوه به وبهم في معالم الإسلام متعهم فيه مدة من المدد وأعزه وأعزهم إلى غاية من الأمد ظاهرين على أعدائهم مظفرين في قلوب إخوانهم المسلمين معظمين مبجلين ضاقت بهم أرض الروم ... زيادة على مائتي سنة حتى نبغ من نففور بن فاردس بن الفُقَّاس ... فغزاهم عاما بعد عام ... وحلول الداء الذي لا دواء له والعلة التي لا يرجى برؤها وهو نبو السلاطين حينئذ عن نصرتهم وتناقلهم عن إجابة مستصرحهم وتخلفهم حين داهمهم ما دهمهم عن معونتهم" (الطرسوسي : مصدر سابق، ص 27-28).

³ Aslan Kévork : L'Arménie et les Arméniens depuis les origines jusqu'à nos jours, Librairie Weiss, Constantinople, 1914. p. 61-62.

⁴ الأسرة المقدونية : حكمت الامبراطورية البيزنطية من 867 إلى 1056م، وتنسب إلى باسيل الأول، الذي ولد في مقدونيا من أب أرمني وأم سلافية. بلغت الامبراطورية في هذه الفترة ذروة مجدها، ووصلت إلى أقصى اتساع لها منذ الفتوحات الإسلامية، كما ازداد النشاط التجاري الذي عاد بفوائد كثيرة على القسطنطينية. (انظر : رنسيما ستيفن : الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010. ص 52-56؛

Treadgold Warren : A History of the Byzantine state and society, Stanford university press, Stanford California, 1997. pp. 490-491.)

⁵ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2010. ج 1، ص 52.

للمسلمين، ولعل التخلص من بعض الخلافات الدينية هو الذي مهد لهذه النهضة.¹ وبعد ان اختل التوازن بين القوى المتصارعة لصالح الإمبراطورية البيزنطية، غيرت هذه الأخيرة سياستها من الدفاع إلى الهجوم، فبعد ثلاثة قرون عاشتها بيزنطة ملتزمة جانب الدفاع عن ممتلكاتها إذا بها تفاجئ العالم بعد صحوها، بظهورها قوة حربية مهاجمة تهدد جيранها، وتهاجم وتستولي على أراضي وتبسط نفوذها عليها.² وهكذا ضعفت شوكة المسلمين، وأدى ذلك إلى أن بدأت الدولة البيزنطية تقف موقفا حازما منهم.³ وكان إقليم قيليقيا من بين الأقاليم التي عملت بيزنطة على انتزاعه من دار الاسلام، وإعادته إلى حظيرة المسيحية من جديد.

وقام باسيل الأول (Basile I) (253-273هـ/867-886)، أول أباطرة الأسرة المقدونية بهجوم منظم يهدف الى احتلال الدروب التي تتخلل جبال طوروس، ومحاولة دحر المسلمين نحو الشرق.⁴ ونجح فيما بعد القائد البيزنطي يوحنا كوركواز (Jean Courcouas)⁵ في القيام بحملات متتالية، كان الهدف منها الدخول إلى قيليقيا والجزيرة، وحقق انتصارات متلاحقة ضد المسلمين وأجبرهم على التراجع إلى ما وراء حدودهم.⁶ ويروي ابن الأثير ضمن حوادث سنة 322هـ/933م قائلا : "سار الدمستق⁷ قرقاش في خمسين ألفا من الروم فنازل ملطية وحصرها مدة طويلة هلك أكثر أهلها بالجوع ... وفتحها بالأمان ... وملكوا سميساط وخربوا الأعمال وأكثروا

¹ ابن فرج لطفی : مرجع سابق، ص 86.

² السيد محمود : تاريخ الدولة البيزنطية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 2007. ص 128.

³ السرجاني راغب : قصة الحروب الصليبية من البداية إلى عهد عماد الدين زنكي، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ط 2، القاهرة، 2009. ص 17.

⁴ Brehier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 127.

⁵ يسميه ابن الأثير الدمستق قرقاش

⁶ Brehier Louis : op. cit., p. 164-165.

⁷ الدمستق هو تعريب لكلمة domestique، وهي رتبة عسكرية تمنح لمن كان يقود جيوش الشرق، أي بلاد الروم الواقعة شرقي خليج القسطنطينية، وكان كل من يتولاها يلقب بالدمستق. (أنظر : ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت 630 هـ)) : الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، ط 4، بيروت، 1983. ج 7، ص 38؛ ص 166 من هذا البحث).

القتل وفعلوا الأفاعيل الشنيعة وصار أكثر البلاد في أيديهم".¹ ولقد كان سقوط ملطية على حد تعبير ابن حوقل "أول مصيبة دخلت على الاسلام من جهة الثغور، ثم انثالت المصائب على الناس في ثغورهم وأنفسهم وأموالهم وأسعارهم وأبشارهم وسلاطينهم".² وفي سنة 331هـ/ 942م، استولى البيزنطيون على ميفارقين، وديار بكر، ودارا، ونسيب، وحاصروا الرها، وأنهى هذا القائد حملته، بالاستيلاء على مرعش سنة 338هـ/ 949م.³ ثم تولى قيادة الجيش البيزنطي ليون فوقاس (Léon Phocas)، فاستولى على طرسوس عاصمة إقليم قيليقيا. ويبدو أن الأعمال العسكرية ضد الثغور كانت سريعة وجد عنيفة.⁴ وبحلول سنة 348هـ/ 959م كانت الجيوش البيزنطية قد سيطرت على العديد من المدن الواقعة في الثغور شمالي الشام.

ولكن البيزنطيين لم يسترجعوا كل إقليم قيليقيا، ويعود السبب إلى ظهور مقاومة شرسة نظمها الأمراء الحمدانيون الذين كانوا يقيمون في الموصل، والجزيرة، وحلب. وقد وقع على عاتقهم عبء الدفاع عن الثغور الإسلامية ومقاومة الخطر البيزنطي.⁵ واشتهر من بينهم سيف الدولة الحمداني (303-356هـ/ 915-965م)⁶ الذي أحيا في المسلمين روح الجهاد ضد الروم. وتأججت في عهده العداوة مع البيزنطيين، إلى درجة أن البعض عد عصره بما قبل تاريخ الحروب الصليبية، إذ ارتفع

¹ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 6، ص 243.

² ابن حوقل : مصدر سابق، ص 166.

³ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 52؛ Brehier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 166-167.

⁴ ابن فرج لطفی : مرجع سابق، ص 113.

⁵ محل طالب صبار : العلاقات السياسية للقبائل العربية في بلاد الشام والجزيرة الفراتية مع البيزنطيين في القرنين الرابع والخامس

الهجريين، مجلة آداب الفراهيدي، مج 11، ع 9554-2074، جامعة تكريت، كلية الآداب، العراق، 2012. ص 301.

⁶ سيف الدولة الحمداني : هو علي بن عبد الله بن حمدان الملقب بسيف الدولة، اشتهر بشجاعته وحروبه ضد البيزنطيين، وقد تمكن من الاستيلاء على حصون ومدن عديدة، وامتد سلطانه إلى إقليم قيليقيا بما فيه من مدن هامة مثل أذنة، وطرسوس، والمصيصة وغيرها. أسس إمارة خاصة به في حلب وحمص، وكان يتصرف في عمله وحروبه وخصوصياته كملك مستقل، واصطنع لنفسه جميع مراسم الملك وألقابه. وإلى جانب نشاطه السياسي والعسكري، فقد كان أدبيا وشاعرا؛ لذلك زخر بلاطه بأرباب الأدب والفن، واقرن اسمه باسم الشاعر أبي الطيب المتنبي، الذي اختصه بقصائد بلغت الذروة في البلاغة والقوة. (حول إمارة بني حمدان وأمرائهم وقصائد المتنبي، أنظر : دروزة محمد عزة : العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي من القرن الثالث إلى الثلث الأول من القرن الرابع الهجري، منشورات المكتبة العصرية، ط 2، صيدا، 1981. مج 1، ج 1، ص 21-70).

نسق الغزوات في عهده¹ وقام بهجمات عنيفة مكنته من التوغل داخل بلاد الروم، واستطاع أن يحقق بعض الانتصارات التي جعلت مهمة البيزنطيين التوسعية، وغزو أرض الإسلام صعبة إلى حد ما.² ولولا الإمارة الحمدانية لكانت عملية استعادة البيزنطيين للمدن والقلاع، أسرع وأبعد.

ولم تكن تلك الحروب سوى بداية لحرب شاملة عزمت الدولة البيزنطية القيام بها انتقاماً من المسلمين لما حل بها على أيديهم طوال القرون الثلاثة السابقة؛³ خاصة بعد أن لاحظت في عملياتها العسكرية الهجومية الفارطة هشاشة النظام الدفاعي الذي صارت عليه الثغور.⁴ ولم تعتمد بيزنطة على آلتها العسكرية فقط، بل بذلت جهوداً دبلوماسية ناجحة، لقطع الطريق أمام أي محاولة لتوحيد الجبهة الإسلامية ضدها، مستغلة في ذلك ضعف المسلمين وانقسامهم، حيث أرسلت القسطنطينية سنتي 336هـ/947م و 338هـ/949م، سفارتين إلى الخليفة عبد الرحمن الثالث في قرطبة، توجت بعقد معاهدة صداقة ضمنت للإمبراطورية البيزنطية حياد الخليفة، وإقامة علاقات هامة بين الطرفين.⁵

وفي الوقت الذي نجح فيه القائد البيزنطي نففور فوقاس (Nicéphore Phocas) في تحقيق انتصار على المسلمين في جزيرة كريت سنة 350هـ/961م، كان أخوه القائد ليون فوكاس قد ألحق هزيمة شنيعة بسيف الدولة الحمداني الذي كان عائداً من بلاد الروم، بعد أن نصب له الجيش البيزنطي كميناً في الدرب الذي سلكه، "فظهر الروم عليه، واستردوا ما كان معه من الغنائم، وأخذوا أثقاله، ووضعوا السيف في أصحابه، فأتوا عليهم قتلاً وأسراً وتخلص هو في ثلاثمائة رجل بعد جهد ومشقة".⁶ وأرادت الدولة البيزنطية استغلال هذه الفرصة التي سنحت لها بعد هزيمة الحمدانيين لتستأنف هجومها في الشرق. فبعد إقامة قصيرة أمضاها نففور فوقاس في القسطنطينية، أرسل إلى آسيا بهدف احتلال إقليم قيليقيا حيث الممرات التي تؤدي إلى طرسوس والمصيصة وأنطاكية، التي

¹ ابن فرج لطفی : مرجع سابق، ص 90.

² دروزة محمد عزة : مرجع سابق، مج 1، ج 1، ص 43.

³ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 53.

⁴ ابن فرج لطفی : مرجع سابق، ص 113.

⁵ Brehier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 181.

⁶ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 6، ص 358.

تعتبر بوابة سوريا.¹ ولم يجد صعوبة كبيرة في الاستيلاء على عين زربي سنة 351هـ/962م.² ويروي ابن مسكويه وهو معاصر للأحداث، بأن نقفور فوقاس ندم على إعطاء الأمان لأهلها، فتغير سلوك البيزنطيين مع المسلمين باللجوء إلى الغدر بعد فتح الحصون بالأمان،³ "فقتلوا عالماً من الرجال والنساء والصبيان والأطفال ... وبقي الدمستق مقيماً في بلدان الإسلام أحد وعشرون يوماً وفتح حول عين زربي أربعة وخمسين حصناً منها بالسيف ومنها بالأمان".⁴ وبالغ في التخريب والانتقام حتى أنه أمر بتهدم الجامع، وتكسير المنبر، وتدمير أسوار المدينة ومنازلها، وقطع خمسين ألف نخلة.⁵ ولما أدركه الصوم وعيد الفصح غادر عين زربي متوجهاً إلى قيصرية، تاركاً الجيش البيزنطي يواصل مهمته. فاستولى على سيس، ودلوك، ورعبان، ومرعش، وطرسوس. ولم يكن سيف الدولة يتوفر على قوة عسكرية كافية ليمنع الجيش البيزنطي من عبور دروب جبل اللكام (الأمانوس). ولما فرغ نقفور من صومه، عاد ليقود جيشه من جديد، فاستولى على عين تاب،⁶ ومنبج. ولم يترك القائد البيزنطي لخصومه فرصة للاستعداد، فزحف بغتة على حلب، عاصمة سيف الدولة الحمداني، واستولى عليها في أواخر سنة 351هـ/962م. وعندما عجز هذا القائد عن الاستيلاء على قلعة حلب، اكتفى بتدمير

¹ ابن فرج لطفی : مرجع سابق، ص 115؛ Brehier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 183-184.

² ابن العبري (غرغوريوس أبو الفرج جمال الدين الملطي (ت 685هـ/1286م)) : تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت، (د ت). ص 168.

³ ابن فرج لطفی : مرجع سابق، ص 114. "دخل نقفور فوقاس (الدمستق) مدينة عين زربي في المحرم من سنة 351هـ/962م، فاستأمنه أهلها، فأمنهم وأمر بأن يدخلوا كلهم المسجد ومن بقي في منزله قتل، فصاروا إلى المسجد كلهم ثم قال : لا يبقين أحد من أهلها اليوم إلا ذهب حيث شاء، ومن تأخر قتل. فازدحموا في خروجهم من المسجد فمات كثير منهم، وخرجوا على وجوههم لا يدرون أين يذهبون، فمات في الطرقات منهم خلق كثير". (انظر : ابن كثير : مصدر سابق، مج 6، ج 11، ص 60).

⁴ ابن مسكويه (ابو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (ت 421هـ)) : تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003. ج 5، ص 332-333.

⁵ المصدر السابق، ج 5، ص 333.

⁶ عين تاب : قلعة حصينة على جبل، بين حلب وأنطاكية، وكانت تعرف بدلوك. احتلها الصليبيون خلال الحملة الصليبية الأولى، إلى أن أخذها منهم السلطان السلجوقي عز الدين بن مسعود، ثم آلت إلى نور الدين محمود زنكي في سنة 550هـ، ثم استعملها الماليك في مصر كمرصد لما يأتي من الأمور الطارئة من بلاد الروم، وبلاد الأرمن. (انظر : ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم (ت 684هـ/1285م)) : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، حققه يحي زكرياء عباده، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1991. ج 1 ن ق 2، ص 110-113).

المدينة وأحرق المساجد، ثم قفل راجعا إلى قيليقيا.¹ "وسى من البلد من المسلمين والمسلمات بضعة عشر ألف صبي وصبية وأخذ من خزائن سيف الدولة وأمتعة التجار ما لا يحصى ولا يوصف كثرة فلما لم يبق معه شيء يحمل عليه أحرق الباقي بالنار".²

وبعد أن تُوج نقفور فوقاس امبراطورا في القسطنطينية سنة 352هـ/963م، رجع إلى قيليقيا مرة أخرى، لأن الحرب لم تنته بينه وبين الحمدانيين، حيث عاد سيف الدولة إلى حلب وأعاد بناء مدينة عين زربي،³ وبعد أن تمكن من تنظيم قواته، بدأ غاراته على الأراضي البيزنطية عن طريق ثلاثة دروب مختلفة.⁴

ثم أرسل نقفور فوقاس أحد قادته العسكريين وهو يوحنا تزيمنسكس (Jean Tzimiskès)⁵، فاخترق قيليقيا، "وأقام ببلاد الإسلام خمسة عشر يوما". وحاصر المصيصة سنة 353هـ/964م. ثم اضطر للانسحاب بسبب الوباء الذي أصاب جنوده، ونقص المؤن، وارتفاع الأسعار في قيليقيا والشام. ولكنه أحرق ضياع ومزارع المصيصة، وأذنة، وطرسوس، لأن أهلها أسرعوا لمساعدة أهل المصيصة. وتوعدهم قائلا : "يا أهل المصيصة، إني منصرف عنكم لا لعجز عنكم وعن فتح مدينتكم، ولكن لضيق العلوقة، وأنا عائد إليكم بعد هذا الوقت، فمن أراد منكم الانتقال إلى بلد آخر قبل رجوعي فلينتقل ومن وجدته بعد عودتي قتلته".⁶ ويستنتج من الأحداث السابقة، أن المسلمين حتى هذا التاريخ، مازالوا يعتبرون اقليم قيليقيا جزءا من دار الإسلام ولا يريدون التفريط فيه، كما أن الروم مصرّون على افتكاكه من المسلمين.

¹ ابن كثير : مصدر سابق، مج 6، ج 11، ص 60؛ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 53؛ ابن العبري:

مصدر سابق، ص 169؛ Brehier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 184.

² ابن مسكويه : مصدر سابق، ج 5، ص 334.

³ ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597 هـ)) : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992. ج 14، ص 139.

⁴ محل طالب صبار : مرجع سابق، ص 307؛ Brehier Louis : op. cit., p. 194.

⁵ ورد ذكره في المصادر العربية باسم "حنا الشمشيق"، وأحيانا "يوحنا الشُمُشقيق"، وفي بعض المصادر "ابن الشمشقيق"، وورد في حولية متى الرهاوي المترجمة إلى الفرنسية باسم (Zimiscès (Tchēmēschguig). (انظر : ابن الأثير : مصدر سابق، ج 7، ص 11).

⁶ ابن مسكويه : مصدر سابق، ج 5، ص 337؛ ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 14، ص 155.

استأنف البيزنطيون حملاتهم على دار الإسلام في ربيع 354هـ/964م. وقرر الإمبراطور نقفور فوقاس أن يقود بنفسه حملة على قيليقيا، وعين قائدا أرمنيا لخدمته¹، واتخذ من مدينة قيصرية كبادوكيا، قاعدة كبرى للتسليح والتموين.² وهدفه من ذلك أن يكون قريبا من بلاد الإسلام، وأن لا يجد صعوبة في إمداد الجيش، كما حدث في الحملة السابقة. وكان المسلمون في الثغور يعيشون أسوأ أيامهم بسبب ارتفاع الأسعار والأوبئة، فأرسل أهل المصيصة وطرسوس إلى نقفور يقولون : "إن أهل هذه البلاد قد ضعفوا جدا وأنه لا ناصر لهم ولا دافع له عنها وأنه لم تبق أقوات وأنه قد آل الأمر بأهل طرسوس إلى أكل الكلاب والميتة وإنه يخرج منها في كل يوم ثلاثمائة جنازة"، فأجابهم الإمبراطور : "مثلكم مثل الحية في الشتاء إذا لحقها البرد وذبلت وضعفت حتى يُقَدَّر من رآها أنها قد ماتت فإن أخذها إنسان وأحسن إليها وأدفاها انتعشت ولدغته وأنتم إنما بجعتم بالطاعة لما ضعفت وإن تركتكم حتى تستقيم أحوالكم تأذيت بكم. وأخذ الكتاب الذي أورده فأحرقه على رأسه (أي الرسول) فاحترقت لحيته وقال : امض إليهم وعرفهم أنه ليس عندي إلا السيف".³ وبعد أن جاوز أبواب قيليقيا، اتجه إلى عين زربي⁴ وأذنة، فاستولى عليهما بجد السيف، إضافة إلى 20 حصنا للمسلمين. ثم أمضى الشتاء في كبادوكيا، واستأنف حملته سنة 354هـ/965م، حيث أرسل أخاه ليون فوقاس لمحاورة طرسوس. واتجه هو لمهاجمة المصيصة، التي دخلها "عنوة بالسيف ووضع السيف في أهلها، فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم رفع السيف وأمر أن يساق من بقي في المدينة من الرجال والنساء والصبيان إلى بلد الروم وكانوا نحو مائتي ألف إنسان".⁵ ثم هب لمساعدة أخيه قرب مدينة طرسوس، حصن المسلمين وقلعتهم في قيليقيا، وصمام الأمان لبلاد الشام. وبعد مقاومة ضعيفة من أهلها، الذين فقدوا الأمل في مدد يصلهم من سيف الدولة بسبب انشغاله في اخماد ثورة قام بها أحد

¹ ابن كثير : مصدر سابق، ج 11، ص 65.

² Brehier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 195.

³ ابن مسكويه : مصدر سابق، ج 5، ص 341.

⁴ عين زربي (Anazarba) : مدينة قديمة تقع في قيليقيا جنوب تركيا، اهتم بها هارون الرشيد وحصنها، ثم استولى عليها البيزنطيون، وانتقلت فيما بعد إلى الصليبيين وخربوها، ثم أصبحت جزءا من إمارة أرمنيا الصغرى وهي غير بعيدة عن مدينة سيس، العاصمة الأرمنية. (أنظر : لسترنج كي : مرجع سابق، ص 161؛ Texier Charles : op. cit., pp 580-583.)

⁵ ابن مسكويه : مصدر سابق، ج 5، ص 341.

غلمانهم، كما يؤسوا من الحصول على مساعدة من الإخشيديين في مصر أو من البويهيين في بغداد،¹ "فأذعن أهلها بالطاعة وطلبوا الأمان فأجابهم إليه ... وأمرهم بالانتقال عنها".²

وبعد ان استسلمت طرسوس، آخر قلعة للإسلام في قيليقيا، جردها نقفور فوقاس من طابعها الإسلامي، فعين عليها حاكما بيزنطيا ومعه خمسة آلاف جندي بيزنطي، واتخذ من المسجد الجامع اصطبلًا لدوابه، ونقل ما كان فيه من قناديل لبلده وأحرق المنبر، وطرده سكانها المسلمين إلى أنطاكية، ومن بقي فيها تنصر، وجلب إليها مستوطنين أرمن حلوا محل المسلمين.³

ولم يجد البيزنطيون في هذه الحملة أدنى رد فعل من طرف سيف الدولة الحمداني، الذي رأى بعينه خط الدفاع عن دار الإسلام يتهاوى، والقلاع الممتدة فوق جبال طوروس تسقط كأوراق الخريف الواحدة تلو الأخرى في يد البيزنطيين، وأمام عجزه عن مواصلة الحرب، رأى ضرورة مهادنة الامبراطور نقفور فوقاس، فتقررت الهدنة لمدة أربع سنوات، مع تبادل الأسرى.⁴ والحقيقة أن سيف الدولة كان يعيش آخر أيامه، حيث توفي في حلب بتاريخ 24 صفر 356هـ/8 فيفري 965م، بعد حياة حافلة بالجهاد، وقد بلغت غزواته ضد البيزنطيين أربعين غزوة.⁵ ولكنه لم يفلح في استرداد ما ضاع من أراضي إسلامية، وأخفق في وقف المد البيزنطي نحو الشرق. وكان هناك عدم تكافؤ واضح في القوى العسكرية جعل مصير الثغور وأهلها تحت رحمة الدولة البيزنطية.⁶ فقد كان من غير الممكن أن تتمكن إمارة مثل الإمارة الحمدانية ذات الإمكانيات المحدودة بشريا واقتصاديا، أن تحقق الكثير

¹ محل طالب صبار : مرجع سابق، ص 309.

² ابن الأثير : مصدر سابق، ج 7، ص 14.

³ ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 14، ص 162.

⁴ Brehier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 195.

⁵ قال المتنبي واصفا كثرة غزوات سيف الدولة وأثرها في حماية دار الاسلام :

أنت طول الحياة للروم غاز	فمتى الوعد أن يكون القفول
قعد الناس كلهم عن مساعيك	وقامت بما القنا والنصول
ما الذي عنده تدور المنايا	كالذي عنده تدور الشمول

دروزة محمد عزة : مرجع سابق، مج 1، ج 1، ص 43، 57؛ محل طالب صبار : مرجع سابق، ص 310.

⁶ ابن فرج لطفی : مرجع سابق، ص 112.

لأن الخصم الذي كان عليها أن تتصدى له يمثل امبراطورية متعددة الموارد البشرية والمادية، وأقصى ما استطاعت أن تحققه إغارات سيف الدولة هو تأخير سقوط إقليم قيليقيا في أيدي البيزنطيين.

وباستسلام طرسوس، خرجت قيليقيا من دار الإسلام، وأصبحت أرضاً بيزنطية، بعدما كانت قاعدة إسلامية للعمليات البرية والبحرية ضد الإمبراطورية البيزنطية لمدة ثلاثة قرون، وجعل منها نقفور فوقاس ثيما (Thème) جديداً عاصمته طرسوس. وبذلك أزال العقبة التي كانت تمنعه من احتلال الشرق، ومن قيليقيا سيتمدد النفوذ البيزنطي نحو سوريا والعراق.¹ ورغم أن هذه الحملة ليست الأولى ولا الأخيرة من بين التي قادها نقفور فوقاس² بنفسه، ولكنها كانت أشدها ضراوة على المسلمين من الحملات السابقة. مما دفع ابن الأثير إلى القول: "كان هذا الملعون من أغلظ الملوك قلباً وأشدّهم كفراً وأقواهم بأساً وأحدهم شوكة وأكثرهم قتلاً وقتالاً للمسلمين في زمانه استحوذ في أيامه لعنه الله على كثير من السواحل وأكثرها انتزعها من أيدي المسلمين قسراً. واستمرت في يده قهراً وأضيفت إلى مملكة الروم قدراً".³

وإذا كانت الوثيقة التي عثر عليها المستشرق غوستاف شلومبرغر (Schlumberger Gustave) في المكتبة الامبريالية بفينا حقيقية، فإن الانتصارات التي حققها نقفور فوقاس، جعلته يحلم باحتلال العالم الإسلامي كله. حيث قام الإمبراطور بإرسال إنذار شديد اللهجة إلى الخليفة العباسي المطيع لله (334-363هـ/946-974م)، يهدده ويتوعده بأن الجيوش البيزنطية لن تتوقف عند قيليقيا، بل ستواصل زحفها، وسوف تستولي على بلاد العراق والشام

¹ Brehier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 195.

² يقول عنه ابن كثير أنه ملك الأرمن واسمه الدمستق، وهذا خطأ، لأن ملك الأرمن آنذاك هو آشوط الثالث الملقب بالرحيم من البجاردة، ولا نعرف سبب الخطأ الذي وقع فيه ابن كثير، رغم أنه نقل عن ابن الأثير الذي ذكر صراحة أن نقفور ملك الروم، وأضاف أنه لم يكن نصراني الأصل وإنما هو من ولد رجل مسلم من أهل طرسوس —يعرف بابن الفقاس— تنصر وكان ابنه هذا شهماً شجاعاً حسن التدبير لما يتولاه. (انظر: ابن الأثير مصدر سابق، ج 7، ص 38؛ ابن كثير: مصدر سابق، ج 11، ص 70-71؛ المدور عثمان: مرجع سابق، ص 216).

³ ابن الأثير: مصدر سابق، ج 7، ص 24.

ومصر، وسيهدم الكعبة وينشر المسيحية في الشرق والغرب،¹ ونصح الخليفة أن يعود إلى جوف شبه الجزيرة العربية ويترك تلك البلاد لأصحابها القدامى من البيزنطيين.²

وفي خريف 358هـ/968م، عاد نقفور فوقاس إلى الشرق، و"دخل ملك الروم الشام ولم يمنعه أحد ولا قاتله، فسار في البلاد إلى طرابلس وأحرق بلدها...".³ ثم توج انتصاراته على المسلمين سنة 359هـ/969م، بالسيطرة على مدينة أنطاكية⁴ "وملكوا [الروم] البلد، وأخرجوا المشائخ

¹ يتحدث شلومبرغر عن قصيدة كتبها نقفور إلى الخليفة العباسي المطيع لله، ولم يضعها ضمن الملاحق والصور التي أوردها في كتابه. وقد أورد ابن كثير في كتابه البداية والنهاية القصيدة كاملة، وذكر أن القصيدة نظمها للإمبراطور بعض كتابه ممن كان قد خذله الله وأذله، وتعرض فيها لسب الإسلام والمسلمين ... وجاء في مطلع القصيدة :

من الملك الطهر المسيحي مالك إلى خلف الأملاك من آل هاشم
ومما جاء فيها :

ثغورك لم يبق فيها - لو هنكم	وضعفكم - إلا رسوم المعالم
سألقي جيوشاً نحو بغداد سائراً	إلى باب طاق حيث دار القمام
وأخرج منها نحو مكة مسرعاً	أجر جيوشا كالليالي السواجم
فأملكها دهرأ عزيزاً مسلماً	أقيم بها للحق كرسي عالم
وأحوي نحدأ كلها وتهاهما	وسراً واتهام مذحج وقحاطم

ولم يرد على القصيدة أحد من ذلك العصر، إما لأنها لم تشتهر، وإما لأن صاحبها أقل من أن يردوا خطابه، ثم انتحى للجواب عنها بعد ذلك أبو محمد بن حزم الظاهري، بقصيدة طويلة جاء في مطلعها :

من المحتمي بالله رب العوالم ودين رسول الله من آل هاشم
ومما جاء فيها :

سنفتح قسطنطينية وذواتها	ونجعلكم فوق النور القعاشم
ونفتح أرض الصين والهند عنوة	بجيش لأرض الترك والخزر حاطم
مواعيد للرحمن فينا صحيحة	وليس كآمال العقول السواقم
ونملك أقصى أرضكم وبلادكم	ونلزمكم ذل الحر أو الغارم
إلى أن ترى الإسلام قد عم حكمه	جميع الأراضي بالجيوش الصوام

ولإطلاع على القصيدتين كاملتين، (أنظر : ابن كثير مصدر سابق، ج 11، ص 71-78).

² Schlumberger Gustave : Un empereur byzantin au dixième siècle Nicéphore Phocas, Librairie de Firmin-Didot et Cie, Paris, 1890. pp. 426-430.

³ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 7، ص 34.

⁴ أنطاكية (Antioche) : تقع جنوب تركيا على نهر العاصي، وتعتبر من أهم المدن التاريخية نظراً للدور الذي قامت به عبر العصور، حيث كانت من أهم المراكز التجارية في العالم، ولها ميناء عند مصب نهر العاصي يسمى السويدية. ويعتبرها المسيحيون "مهده"

والعجائز والأطفال من البلد، وقالوا لهم : امضوا حيث شئتم، وأخذوا الشباب من النساء والغلمان والصبيان. فحملوهم على وجه السي، وكانوا أكثر من عشرين ألفا. وكان نقفور ملك الروم قد عثى وقهر بلادا كثيرة من بلاد الإسلام، وعظمت هيئته".¹ وباحتلال انطاكية بلغ البيزنطيون قمة حركتهم التوسعية، نظرا لمكانة هذه المدينة في تاريخ المسيحية، ومن أهمية دينية وسياسية وتجارية للإمبراطورية البيزنطية، ما جعل قلوب المسيحيين تبتهل بالدعاء لنقفور فوقاس.

وبعد أن "فتحت الروم الثغور والدروب"،² وخرج إقليم قيليقيا من أيدي المسلمين في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، اتخذ البيزنطيون قاعدة هامة لهجوماتهم العسكرية ضد المسلمين.³ ولما اعتلى يوحنا تزمسكس (Jean Tzimiskès) (359-365هـ/969-976م)) عرش الإمبراطورية البيزنطية، واصل محاربة المسلمين، وكان مثل سلفه نقفور فوقاس رجلا عسكريا، ويمثل عهده ذروة الاتجاه التوسعي شرقا.⁴ حيث قاد بنفسه ثلاث حملات عسكرية ضد المسلمين، الأولى والثانية ضد إقليم الجزيرة، سنتي 362-364هـ/972-974م، والثالثة ضد الشام سنة 365هـ/975م.⁵ ويوضح الخطاب الذي أرسله إلى حليفه، آشوط الثالث (952-977م)، ملك أرمينيا أن هدفه النهائي هو انتزاع القدس من أيدي المسلمين،⁶ "وكانت رغبتنا تحرير قبر المسيح من (دنس) المسلمين"⁷، وكتب متحدثا عن المقاومة التي وجدها في

=المسيحية"، وعاصمة للكنائس المسيحية الشرقية. وقد فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب صلحا، ثم خضعت للإمبراطورية البيزنطية، ثم للسلاجقة. ثم استولى عليها الصليبيون سنة 1098م، بمساعدة من الأرمن وأصبحت إقطاعا في مملكة بيت المقدس اللاتينية. (أنظر : الحموي : مصدر سابق، ج 1، ص 213-216؛ الموسوعة العربية الميسرة : مرجع سابق، ج 1، ص 481).

¹ ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 14، ص 201.

² العظيمي (محمد بن علي الحلبي (ت 556هـ)) : تاريخ حلب، حققه وقدم له إبراهيم زعرور، (د ن)، دمشق، 1984. ص 313.

³ Treadgold Warren : op. cit., p. 502, 505.

⁴ العبد الغني عبد الرحمن محمد : مرجع سابق، ص 196.

⁵ متى الرهاوي : تاريخ متى الرهاوي الإفرنج (الصليبيون) - المسلمون - الأرمن، ترجمة وتعليق محمود محمد الرويضي وعبد الرحيم مصطفى، دار اليازوري، عمان، 2012. ص 35-50.

⁶ أنظر نص الخطاب كاملا في الملحق الأول، ص 461-464.

⁷ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 54.

قيسارية¹ حيث فشل في تحقيق مشروعه : "ولو أن هؤلاء الملعونين الأفارقة² الذين بنوا فيها مساكنهم، لم يلجأوا إلى القلاع الساحلية، لكننا ذهبنا مسلحين بنصرة الرب إلى المدينة المقدسة القدس ولاستطعنا الصلاة في تلك الأماكن المقدسة".³

ولا يسع المجال لتتبع حركة التوسع البيزنطي في الشام والجزيرة، لأن الموضوع مرتبط بقليلها. وصفوة القول أن إقليم الثغور أو قيليقيا قد خرج من أيدي المسلمين في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، ولم يمت نقفور فوقاس سنة 359هـ/969م، إلا بعد أن دخلت مدن الثغور الشامية، والجزرية، البرية، والبحرية تحت حكم الروم البيزنطيين. ولا يمكن تفسير الانتصارات التي أحرزها البيزنطيون في القرن العاشر الميلادي، إلا على ضوء الانقسامات التي كان يعيشها المسلمون، وهي التي أمدت أباطرة بيزنطة فرصا مناسبة لتحقيق أطماعهم.

وإذا كان البيزنطيون قد نجحوا في استعادة سيطرتهم على قيليقيا ومدن أخرى كانت بحوزة المسلمين. فإن هذا يدل دلالة قاطعة على أن هذا الإقليم، كان محل صراع بين المسلمين والبيزنطيين، ولم يكن للأرمن فيه يومذاك أي وجود سياسي، بل إن الامبراطورية البيزنطية هي التي جلبت أعدادا كبيرة منهم إلى قيليقيا. وربما تساءل بعض الباحثين عن كيفية نجاحهم في تأسيس إمارة لهم في هذا الإقليم وهو تحت السيادة البيزنطية، هل انتزعوه منهم عنوة ؟ أو منح لهم لظروف سياسية وعسكرية معينة ؟ وأين كان الأرمن قبل مجيئهم إلى قيليقيا ؟

ان الإجابة عن هذه الأسئلة ستوضح إلى حد كبير نوع العلاقات التي كانت تربط الأرمن بالبيزنطيين من جهة والأرمن بالمسلمين من جهة أخرى. لذلك، لابد من التعرض إلى أوضاع إقليم

¹ قيسارية (Césarée) : تقع مدينة قيسارية في فلسطين على ساحل البحر المتوسط، إلى الجنوب من مدينة حيفا، وتبعد عنها حوالي 37 كلم، وجاء في معجم البلدان : "كانت قديما من أمهات المدن واسعة الرقعة طيبة البقعة كثيرة الخير والأهل، وأما الآن فليست كذلك، وهي بالقرى أشبه منها بالمدن". (الحموي : مصدر سابق، ج 7، ص 107).

² يعني بها المصريين الذين كان يحكمهم المعز لدين الله الفاطمي (319-365هـ/931-975م). (انظر : الموسوعة العربية الميسرة، ج 6، ص 3170؛ Dulaurier Edouard : ds. : R.H.C.D. Arm., p. 13, note n°4).

³ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 54-55.

أرمينيا الكبرى وهو الموطن الأول للأرمن، والأحداث التي مر بها في أواخر القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر الميلادي. ويتطلب كذلك الغوص في الأحداث والظروف التاريخية التي مرت بها منطقة آسيا الصغرى، منذ توسع الإمبراطورية البيزنطية في شرق الأناضول إلى غاية بروز السلاجقة على مسرح الأحداث.

د - التوسع البيزنطي في أرمينيا الكبرى

كان من الطبيعي أن يهتم البيزنطيون منذ وصولهم إلى إقليم قيليقيا، بمد نفوذهم أكثر نحو الشرق، خاصة بعد أن دانت لهم مدنا كثيرة في الشام. وأصبحت أقاليم الجزيرة، وديار بكر، وأرمينيا الكبرى، مكشوفة أمامهم. ولم يكن التوسع هذه المرة على حساب المسلمين فحسب بل كان على حساب الأرمن أيضا. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن، ما دوافع بيزنطة للتوسع في أرمينيا الكبرى؟ وكيف كان الموقف الأرميني من التمدد البيزنطي باتجاه الشرق؟

لقد ظلت أرمينيا الكبرى عبر تاريخها الطويل تشكل إقليما جغرافيا متميزا، لذلك لم تكن هذه المرة الأولى التي تتعرض فيها إلى تهديد خارجي. ويذكر اليعقوبي أنها بلد "يحيط بها الأعداء"،¹ فقد كانت دائما محاطة بجيران أقوياء، طمعوا في الاستيلاء على أراضيها، وكانت محل منافسة بين الشرق والغرب، وميدانا للصراع بين الرومان والبارثيين قديما، ومن بعدهم البيزنطيين والفرس، ثم فتحها المسلمون في القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، ومنحوها استقلالاً ذاتياً، وجعلوا منها دولة حاضرة بينهم وبين البيزنطيين وخالية من الجيوش الإسلامية. كما نجحوا في جعلها صديقة وغير محايدة.² وقد كان الصراع بين جيرانها الأقوياء منذ القدم شؤماً عليها، لأنها كانت في معظم الأحيان ضحية لهذا الصراع.³ وبحكم موقعها، وجدت أرمينيا نفسها تقوم بدور الدولة الحاضرة بين كيانات سياسيين كبيرين، وهذا الوضع لم يختره الأرمن لأنفسهم، وإنما حتمه عليهم موقع بلادهم، وتضاريسها، التي

¹ اليعقوبي : مصدر سابق، ص 20.

² كيغي ولتر : بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ترجمة نقولا زيادة، قذممس للنشر والتوزيع، ط2، دمشق، 2003، ص 263، 310.

³ حول الصراع بين القوى الكبرى على أراضي أرمينيا، أنظر :

Chaumont Marie-Louise : op. cit., pp. 101-155.; Mouradian Claire : op. cit., pp. 10-25.

جعلت من سكان أرمينيا شعبا يسكن سهولا وجبالا متفرقة ويجد صعوبة بالغة في التنقل فيما بينها، وأمة لها لغتها الخاصة ومذهبها الديني المستقل، فهي تعيش وسط كيانيين سياسيين كبيرين وترفض الذوبان فيهما.¹ ويبين هذا العرض الوجيز أن الظروف الطبيعية والجغرافية لأرمينيا قد ساهمت كثيرا في رسم أقدار الشعب الأرمني.

وبعد الانتصارات المتتالية التي حققها قادة الأسرة المقدونية على حساب المسلمين، واستيلائهم على ثغور دار الإسلام، وهجماتهم المتكررة على الجزيرة وشمال الشام، في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وبالتحديد خلال عهود نففور فوقاس، ويوحنا تريمسكس، وباسيل الثاني، كل ذلك أدى إلى انهيار فكرة بقاء أرمينيا دولة حاضرة بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية. وفي نظر أباطرة بيزنطة، فقد تلاشى الخطر الإسلامي القادم من الشرق الذي كان يهدد إمبراطوريتهم، بضعف الخلافة الإسلامية، وانكماش حركة الجهاد، وتراجع المقاومة الحمدانية. ولم تعد بيزنطة في حاجة إلى تلك الدولة الحاضرة التي تمتص عنف الغارات الإسلامية، وتدرأ عنها أخطارها. وبعبارة أخرى فإن مهمة أرمينيا الكبرى قد انتهت بعد أن اختل التوازن بين الإمبراطورية البيزنطية والخلافة العباسية. ومال ميزان القوة لصالح البيزنطيين، الذين انتهزوا الفرصة، وتخلوا عن سياسة الدفاع وتبنوا سياسة الهجوم. "وهكذا فإن ظروف أرمينيا الطبيعية والسكانية حكمت عليها أن تجني ثمار سياسة حكام جيرانها الذين كانوا دائما وأبدا في عداء تقليدي معا".²

ويبدو أن الأرمن لم يرحبوا بذلك الغزو، رغم ما كان يربط بينهم وبين البيزنطيين من صلات وعلاقات، ولم ينظروا بعين الارتياح للإمبراطورية البيزنطية وهي تقترب من حدودهم من كل جانب، خاصة وأنهم حاولوا دائما الاحتفاظ بعلاقات متوازنة مع جيرانهم العباسيين والبيزنطيين، وهو السبيل الوحيد لتأكيد استقلالهم ما أمكن.

¹ العبد الغني عبد الرحمن محمد : مرجع سابق، ص 186؛

Pasdermadjian H. : Histoire de l'Arménie depuis les origines jusqu'au traité de Lausanne, Librairie orientale H. Samuelian, 2^e éd. Paris, 1964. pp. 14-15.

² المرجع السابق، ص 185.

ويحتفظ الأرمن بذكريات سيئة من علاقتهم بالبيزنطيين، لأن الامبراطورية البيزنطية كانت دولة مركزية متعددة الموارد، وتحاول أن تكون وريثة الامبراطورية الرومانية بكل امتدادها الجغرافي، وقد حرصت على إقامة حكم مباشر لها على الأراضي الأرمنية الخاضعة لنفوذها. كما اتسمت تلك العلاقات بكثير من الخلاف وبقليل من الاتفاق، وبحقد متبادل بين الطرفين، ومن الأقوال الأرمنية المأثورة : "البيزنطيون أسوأ الأسياد، يتسمون بسوء النية، ويسيطر على عقولهم الجنون بسبب حقدهم على كل الأرثوذكس".¹ وذلك مرده إلى أن أرمينيا كانت ترفض رفضا باتا تلك المركزية، وخاصة إذا ما مست مذهبها العقائدي، فإذا كانت المسيحية تجمع بينهما فإن الخلاف المذهبي فرقهما وزاد من اتساع الهوة بينهما، وعمل على تعميق الشك والكراهية والنفور. حيث اندلع جدال بين البيزنطيين والأرمن حول تفسير بعض المسائل الدينية. وقد حرصت بيزنطة من جهتها على محاولة فرض مذهبها الديني على الأرمن بحد السيف،² وإرغامهم على ترك مذهبهم المونوفيزي، الذي يختلف عن المذهب الرسمي للدولة البيزنطية الناتج عن قرارات مجمع خلقدونية المسكوني الذي انعقد سنة 451م.³

¹ Michel le Syrien : Chronique de Michel le Syrien, traduite par J.-B Chabot, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1901. t. II, P. 482.

² Catholikos Jean : Histoire d'Arménie, traduit par M. J. Saint-Martin, Imprimerie royale, Paris, 1861. p. 75.

³ يدور جوهر الخلاف بين المسيحيين، حول تفسير درجة اتحاد الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية في شخص المسيح. ولا تعترف الكنيسة الأرمنية إلا بالمجامع الدينية الثلاث الأولى : مجمع نيقية (Nicée) المنعقد سنة 325م، الذي أقر بتأليه المسيح ومساواته التامة مع الله، واتخذ قرارا بتكفير آريوس وكل من يقول إن المسيح إنسان، ومجمع القسطنطينية (Constantinople) المنعقد = سنة 381م، الذي أقر ألوهية الروح القدس، ومساواته التامة مع الأب، ومجمع أفسس (Éphèse) المنعقد سنة 431م، الذي أدان نسطور، لأنه فصل بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية للسيد المسيح. أما مجمع خلقدونية (Chalcédoine) المنعقد سنة 451م، فقد أقر بأن للمسيح طبيعتين إلهية وإنسانية وهما متميزتان بالرغم من أنهما متحدتان على نحو لا يقبل الفصل. فالمسيح إنسان حقيقي وإله حقيقي في الوقت نفسه، وهذا ما يسمى اصطلاحا بمذهب الطبيعة الثنائية (Diophysisme). لقد رفض الأرمن قرارات خلقدونية، وعقد الأساقفة الأرمن مجمعا دينيا في دوين (Dwin) سنة 555م، وأعلنوا رسميا اعتناقهم لمذهب الطبيعة الواحدة (Monophysisme)، الذي يقول : "أن يسوع المسيح إله كامل وإنسان كامل، والألوهية والبشرية باتحادهما المجرّد عن الاختلاط، كونتا طبيعة واحدة في المسيح". ومنذ ذلك الحين يمكن القول، أن الكنيسة الأرمنية قد ولدت. وأدى تمسك الأرمن بهذه العقيدة واعتناقهم لها إلى تدهور علاقتهم بالامبراطورية البيزنطية بعد ذلك، وتطور الأمر إلى انفصال ديني نهائي بينهما. ورفضُ الأرمن لقرارات مجمع خلقدونية مرجعه خوفهم من ضياع شخصيتهم الدينية والسياسية في ظل الحكم البيزنطي، ذلك الخوف الذي أدى بهم إلى اتخاذ جانب المسلمين فيما بعد. (أنظر : المدور عثمان : مرجع سابق، ص 282-283؛ عطية عزيز سوريال : مرجع سابق، ص 403-405؛

Mouradian :op. cit., pp. 17-18; Augé Isabelle :Byzantins, Arméniens et Francs au temps de la croisade, Geuthner, 2007. pp. 19-20; Mahé Jean-Pierre : Affirmation de l'Arménie chrétienne (vers 301-590), ds. : H. P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008. pp. 197-202.

ووجدت أرمينيا في تمسكها بمذهبها المخالف لمذهب كنيسة القسطنطينية شخصيتها السياسية المستقلة، وكانت حريصة أشد الحرص على ألا تذوب في كيان سياسي آخر.¹

أما المسلمون فقد أدركوا منذ فتحهم لأرمينيا خلال القرن الأول الهجري،² أن صعوبة تضاريس بلاد الأرمن، وطبيعة سكانها المقاتلين الأشداء، وبُعدها عن مركز الخلافة، سواء أكانت دمشق أو بغداد، فضلا عن نظامها الاقطاعي العتيد، جعل من الصعب عليهم أن يسيطروا عليها سيطرة كاملة، أو أن يضموها بالكامل إليهم، كما فعلوا مع المناطق الأخرى التي فتحوها؛ لهذا أعطى المسلمون للأرمن استقلالا ذاتيا، مما جعلهم يرضون بعض الرضى عن بسط نفوذهم على بلادهم، والخضوع لهم. ومهد لهذا الوفاق المتبادل بين الطرفين سماحة الإسلام وعدم فرض المسلمين دينهم عليهم بالقوة.³ فقد تركت لهم الخلافة الإسلامية حرية التصرف في شؤونهم، ومنحتهم حكما ذاتيا مقابل جزية سنوية.⁴ ولهذا كانوا أحسن حالا في ظل السيادة الإسلامية منهم في ظل السيادة البيزنطية أو الفارسية.⁵

¹ العبد الغني عبد الرحمن محمد : مرجع سابق، ص 45.

² زرقوق محمد : "مملكة أرمينيا الصغرى بين المغول والمماليك (623-776هـ/1226-1375م)"، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف أ. د. بشاري لطيفة، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، 2011-2012. ص 32-39.

³ العبد الغني عبد الرحمن محمد : مرجع سابق، ص 45؛ Pasdermajian H. : op. cit., p. 127.

⁴ تعود بدايات هذا الحكم الذاتي إلى سنة 33هـ/653م، حين تمكن والي الشام آنذاك وهو معاوية بن أبي سفيان من إبرام اتفاقية مع الأرمن بعد أن ترك لهم حرية مناقشة بنودها في اجتماع عام موسع. فاكشف الأرمن في اتفاقية معاوية سماحة الإسلام، لذا وافق الجميع على إبرام اتفاقية السلام مع المسلمين، والتخلص من السيادة البيزنطية. ولما أصبحت أرمينيا ولاية تابعة للخلافة الإسلامية، كان الخليفة يقوم بتعيين ولائها وعمالها، إلى جانب حكام من الأرمن أنفسهم. منهم جيرجوار ماميكونيان، الذي عينه معاوية بن أبي سفيان سنة 41هـ/661م، حاكما على أرمينيا، ومنهم أشوط البجراطي (Ashot le Bagratide) الذي نصبه الخليفة المتوكل أميرا لأمرأ أرمينيا سنة 247هـ/861م، ثم منحه الخليفة المعتمد لقب ملك سنة 273هـ/886م. (أنظر : البلاذري : مصدر سابق، ص 287-297؛ المدور عثمان : مرجع سابق، ص 206-208؛ اسكندر فايز نجيب : الفتوحات الإسلامية لأرمينية، (د. ن.)، (د. م.)، 1983. ص 53؛ Sébès : op. cit., p. 99; Laurent J. : op. cit., p. 2.

⁵ Mouradian Claire : op. cit., p. 24.

ويعترف المؤرخ الفرنسي روني جروسسي (René Grousset)، بأن الشروط التي فرضها الخلفاء المسلمون على الأرمن أكثر حرية من الشروط المفروضة عليهم من أطراف أخرى.¹ وهكذا عاشت أرمينيا عصرها الذهبي تحت حكم المسلمين.² لكن هذا لا يعني أن أرمينيا استسلمت نهائياً للمسلمين، بل كانت الثورات تندلع من حين لآخر في وجه الولاة الذين أساءوا التصرف وحاولوا فرض هيمنتهم، أو بالغوا في فرض الضرائب.³

ولما كانت أرمينيا تقع بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، فمن الطبيعي أن تنعكس عليها آثار اضمحلال الخلافة العباسية، ونمو قوة الإمبراطورية البيزنطية، التي دخلت عصراً جديداً ذاقت فيه حلاوة الانتصارات المتتالية على جيرانها من المسلمين وغيرهم، ووصلت حدودها إلى آفاق بعيدة، ولم يعد التوسع على حساب المسلمين يكفي الطموح البيزنطي، فتصورت الإدارة البيزنطية أنه لا نهاية لانتصاراتها في الشرق، ومن ثمة تطلعت إلى بسط نفوذها على ممتلكات جيرانها من المسيحيين أيضاً.⁴ فتبنت سياسة جديدة تجاه الأرمن وهي سياسة الضم والاحتواء.⁵

وكان إقليم الطارون (Taron)⁶ أول الأقاليم الأرمينية الذي طمعت فيه بيزنطة وأرادت ضمه إلى ممتلكاتها، لتجعل منه في المستقبل مركز انطلاق للتوسع واكتساب مزيد من النفوذ على حساب الأرمن. وقد نجحت في بداية الأمر في قطع العلاقة بين أمرائه والخلافة الإسلامية، ثم احتفظت بالإقليم تحت نفوذها. وأخذ النفوذ البيزنطي يتزايد فيه يوماً بعد يوم، حتى تنازل أمراء الطارون سنة

¹ Grousset René : Histoire de l'Arménie des origines à 1071, Payot, Paris, 1984. p. 301.

² Mouradian Claire : op. cit., p. 24.

³ العبد الغني عبد الرحمن محمد : مرجع سابق، ص 66، 85، 183؛ Pasdermajian H. : op. cit., p. 128.

⁴ المرجع السابق، ص 192-193.

⁵ Laurent J. : op. cit. pp. 3-4; Pasdermajian H. : op. cit., p. 165.

⁶ إقليم الطارون من الأقاليم الخصبية ويقع في وادي اراتساني (Aratsani) غرب بحير فان، وكان في الأصل من أملاك أسرة ماميكونيان، ولقرب هذا الإقليم من الحدود البيزنطية اهتمت به الامبراطورية اهتماماً كبيراً، خاصة وأنه كان المفتاح إلى قلب أرمينيا كما كان الطريق السهل للإنسياح نحو الأراضي الإسلامية المجاورة لأرمينيا. (أنظر : قسطنطين بورفيروجنيتوس : إدارة الإمبراطورية البيزنطية، عرض وتحليل وتعليق محمود سعيد عمران، دار النهضة العربية، بيروت، 1980. ص 151-160؛ العبد الغني عبد الرحمن محمد : مرجع سابق، ص 194، هامش رقم 45).

358هـ/968م، عن ممتلكاتهم للإمبراطورية البيزنطية مقابل حصولهم على لقب بطريق،¹ وبعض الامتيازات، وضِعة خصبة في آسيا الصغرى يعيشون فيها.²

وبعد إقليم الطارون، بدأ النفوذ البيزنطي يتمدد نحو باقي الأقاليم الأرمنية شيئاً فشيئاً.³ وفي عهد الإمبراطور باسيل الثاني (366-416 Basile II) بلغت الإمبراطورية البيزنطية ذروة قوتها ومجدها.⁴ ورغم أنه ركز كل جهوده لتحطيم بلغاريا، فإنه لم يهمل الجبهات الأخرى بإرسال حملات عسكرية أو بحضوره شخصياً فيها.⁵ ولم تكن مسألة إلحاق أرمينيا بحضرة الإمبراطورية من أولويات سياسته، ولكن ظروف طرأت في منطقة القوقاز، جعلته يلتفت إليها ويعمل على ضمها إلى بلاده. حيث توفي ملك أرمينيا القوي، آشوط الثالث (952-977م).⁶ وهو الذي

¹ بطريق : هي الصيغة المعربة للكلمة اللاتينية باتريكيوس (Patricius) وقد أنشأ هذه الرتبة الإمبراطور قسطنطين (306-337م). وهي رتبة لا تتصل بأي وظيفة، وكانت تمنح لمن يؤدي للدولة خدمات جليلة، وقد جرى الاصطلاح على أنها تدل على القائد عند البيزنطيين، يقابله لقب رئيس عند العرب المسلمين، جمعه : بطارقة. (أنظر : يحيى الأنطاكي (يحيى بن سعيد ت) 458هـ/1067م)) : تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيا، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس (لبنان)، 1990. ص 163، هامش رقم 2؛ الخطيب مصطفى عبد الكريم : معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996. ص 81.

² قسطنطين بورفيريوجنيتوس : مصدر سابق، ص 153-160. تم ضم إقليم الطارون إلى الإمبراطورية في عهد الإمبراطور نففور فوقاس، وكان الهدف من ذلك، محاصرة الحمدانيين من جهة الشرق، وليكون مصدر تهديد للغور الإسلامية، وأن يكون لبيزنطة قدم في قلب أرمينيا. (انظر : العبد الغني عبد الرحمن محمد : مرجع سابق، ص 195).

³ زرقوق محمد : مرجع سابق، ص 38.

⁴ Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 204.

⁵ Ibid., p. 216.

⁶ آشوط الثالث، أو آشوت البحراني (Ashot le Bagratide)، وهو ثالث الملوك في السلالة البجراطية الذين اتخذوا من مدينة آني (Ani) عاصمة لهم. وبلغت أرمينيا الكبرى في عهد الملك آشوط الثالث درجة عالية من القوة والإزدهار. ولهذا لم يكن الأرمن مستعدين للتنازل عن شبر من أرضهم للإمبراطورية البيزنطية. ولما تحرك الإمبراطور تزيمسكس للقيام بحملته الكبرى ضد الشام سنة 365هـ/975م، واقتربت جيوشه من حدود أرمينيا ثارت مخاوف الأرمن، واعتقدوا أن الإمبراطور يريد احتلال بلادهم، خاصة وأن العهد بضم إقليم الطارون لا يزال قريباً. فالتف الأمراء الأرمن كلهم حول آشوط الثالث، وحشدوا جيشاً قوامه 80 000 مقاتل. واستعدوا لكل الاحتمالات لمواجهة خطر الفناء. وعندما بلغته أنباء استعدادات الأرمن وحشودهم الملتفة حول ملكهم، أرسل الإمبراطور البيزنطي سفارة إلى الملك الأرميني آشوط الثالث يؤكد فيها على الصداقة بينهما، وأنه ما خرج ليقا تل الأرمن ولكنه متوجه لمحاربة المسلمين واسترجاع الأراضي المقدسة من بين أيديهم، فاطمأنوا، وتحول التخوف إلى تحالف تكتيكي، حيث أمده الأرمن بعشرة آلاف جندي يشاركون الإمبراطور في حملته ضد الشام. وتدل هذه الحادثة على أن العلاقات بين البيزنطيين =

كان يملك جيشاً قوياً، ودانت له بالولاء معظم الأسر الإقطاعية الأرمنية. وكان حريصاً على إبعاد النفوذ البيزنطي عن بلاده، وقد نعمت أرمينيا في عهده بالهدوء والاستقرار.¹ وكذلك كان الأمر في عهد ولديه الملك سمباد الثاني (Sembat II) (367-379هـ/977-989م)، وجاجيك الأول (Gagik I) (380-409هـ/990-1018م)، ولم تتعرض إلى أي تهديد خارجي، خاصة في عهد هذا الأخير.²

ويعود السبب المباشر الذي دفع الإمبراطور باسيل الثاني إلى الإشراف بنفسه على حملتين عسكريتين في منطقة القوقاز، سنتي 412 و 413 هـ/1021 و 1022م، هو العصيان الذي أظهره جورج الأول ملك جيورجيا (Giorgi I) (405-418هـ/1014-127م)³ حيث رفض طلب الإمبراطور برد الممتلكات البيزنطية التي كان قد استولى عليها خلال انشغال البيزنطيين بحربهم ضد البلغار.⁴ ولم يكن جورج الأول قادراً على مواجهة قوات الإمبراطورية البيزنطية، فانهزم سنة 1021م، وولى هارباً نحو أبخازيا (Abkhazie) وتبعه باسيل الثاني، الذي قام بحرق كل مدن جيورجيا التي صادفها في طريقه، وتوقف عند مدينة تفليس (Tiflis) التي لم يصلها

= والأرمن، يشوبها الشك والحذر وعدم الثقة. وإذا اطمأن الأرمن للبيزنطيين في هذه الحملة، فإن الحملات القادمة ستكون طوفانا بيزنطياً لا يهدأ إلا عندما تستقر سفينة الإمبراطور على آراءات. (انظر : مني الزهاوي : مصدر سابق، ص 43-50؛

Martin-Hisard Bernadette : Domination arabe et libertés arméniennes (VII^e-IX^e siècle), ds. : H. P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008. p. 251; Mouradian Claire : op. cit., p. 23.)

¹ Asolik Etienne (de Tarôn) : Histoire universelle, traduite de l'arménien et annotée par Frédéric Macler, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1917. t. III, p. 39.

² Arisdaguès de Lasdiverd : Histoire d'Arménie, traduite par Evariste Prud'homme, Benjamin Duprat, Paris, 1863. pp. 13-14; Asolik Etienne : op. cit. p. 138.

³ وردت في المصادر العربية باسم مملكة جُرجان وهو اسم البلد، ومملكة الكُرُج وهو الاسم الذي أطلق على سكان هذه المملكة، (أنظر : الحموي : مصدر سابق، مج 2، ج 3، ص 42، مج 4، ج 7، ص 126؛

Schlumberger Gustave: L'épopée byzantine à la fin du dixième siècle, seconde partie, Basile II le tueur des bulgares, Hachette & C^{ie}, Paris, 1900. t. II, p. 159.)

⁴ حول أصل هذه الممتلكات، (أنظر : يحي الأنطاكي مصدر سابق، ص 380؛ Schlumberger Gustave : op. cit., t. II, pp. 469-470.)

أي إمبراطور قبله منذ هرقل، ثم أمضى فصل الشتاء في مدينة طرابيزون¹ (Trébizonde).²

وعلى الرغم من أن حملة باسيل الثاني لم تكن موجهة ضد الأرمن، فإن يوحنا سمباد (Jean Sempad) ملك البجراطين (Les Bagratides)³ الملقب بسمباد الثالث (409-434هـ/1018-1042م)، اتصل بالإمبراطور باسيل الثاني في طرابيزون، وأعلن تبعيته للإمبراطورية البيزنطية، ووقع على وثيقة سلمها للإمبراطور. تنازل فيها عن مملكته (مملكة آني) للإمبراطورية بعد وفاته، وكان في السابق حليفا لجورج الأول ملك جيورجيا.⁴ وكانت تلك الوثيقة، أول مسمار يدق في نعش مملكة الأرمن، لأن هذا التنازل هو الأول في سلسلة من تنازلات متلاحقة ستؤدي في النهاية إلى إلحاق أرمينيا الكبرى بالإمبراطورية البيزنطية.

وبعد يوحنا سمباد، جاء دور يوحنا سنحاريب (Jean Sénékhérin) ملك الفاسبوراكان (Vaspourakan)⁵ الذي كان عاجزا عن الدفاع عن بلاده ضد الطلائع الأولى للأتراك السلاجقة، فتخلى عنها للإمبراطور باسيل الثاني سنة 412هـ/1021م. "وسلم إليه حصونه وقلاع، وانضافت

¹ يحي الأنطاكي : مصدر سابق، ص 380-381؛ العظمي : مصدر سابق، ص 325؛

Arisdaguès de Lasdiverd : op. cit., pp. 21-26; Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 224.

² طرابيزون : حاليا هي مدينة (Trabzon) في شمال شرق تركيا على ساحل البحر الأسود. كانت تمثل مركزا تجاريا هاما نظرا لموقعها ونوعية السلع والبضائع التي تمر بها. وكانت هذه التجارة بيد الأرمن، وكان يقيم فيها كثير من التجار المسلمين. ونظرا لأهمية المدينة فقد كان البحر الأسود يعرف ببحر طرابيزون. وبعد أن احتل الصليبيون القسطنطينية، أسس فيها ألكسيوس (1204-1222م)، إمبراطورية طرابيزون (1204-1461). (أنظر : لسترنج كي : مرجع سابق، ص 168؛ الموسوعة العربية الميسرة : مرجع سابق، ج4، ص 2155؛ Texier Charles : op. cit., pp 594-597).

³ البجراطيون من أصول يهودية ويعود نسبهم للملك داود، وتوالى على حكم هذه الأسرة الملكية عشرة ملوك حكموا فترة تصل إلى 160 سنة. ومع ذلك ظلت فروع هذه الأسرة تحكم في جيورجيا وإيبيريا وفي مناطق أخرى. (أنظر : دياب صابر محمد : أرمينية من الفتح الإسلامي إلى مستهل القرن الخامس الهجري، دار النهضة العربية، القاهرة، 1978. ص 10-11؛ العبد الغني عبد الرحمن محمد : مرجع سابق، ص 213، هامش رقم 113).

⁴ Arisdaguès de Lasdiverd : op. cit., pp. 27-28; Bréhier Louis : loc. cit.

⁵ الفاسبوراكان : هي أوسع مقاطعة في أرمينيا الكبرى، وكانت تتمركز حول بحيرة فان، وتعرف عند الأرمن باسم بلاد الأرزرونيين (pays des Ardzrouni). واتخذ ملوكها من مدينة فان عاصمة لهم خلال فترة من تاريخ هذه المملكة. (أنظر :

Arisdaguès de Lasdiverd : op. cit., pp. 31-32, note n° 4.)

جميعها إلى مملكة الروم وعددها نيّف وأربعون حصنا وقلعة"،¹ مقابل حصوله على لقب ماجستروس (Magistros)² ومدينة سيواس (Sébastè)³ والأراضي المحيطة بها في كبادوكيا،⁴ وإضافة إلى أفراد عائلته فقد رحل معه حوالي أربعة عشر ألفا أرمنيا.⁵ ثم قام الامبراطور بتحويل إقليم فاسبوراكان المتنازل عنه إلى ثيم عسكري عرف بثيم فاسبوراكانيا (Vaspourakania).⁶ أما جورج الأول، فبعد أن أدرك بأن حليفه الأرمني قد تخلى عنه، ووصلته أخبار استعداد الإمبراطور ليهاجمه عن طريق البحر، أعلن خضوعه، وتخلّى لصالح الإمبراطورية البيزنطية عن الأملاك المتنازع عنها.⁷ وهكذا كاد أن يدخل الشرق كله تحت (رحمة) الإمبراطور باسيل الثاني، الذي أظهر لأعدائه، وأتباعه الجيورجيين والأرمن أن المسافة الطويلة التي تفصلهم عن مركز الإمبراطورية لا تجعلهم في منأى عن العقاب. والسؤال الذي يطرح هنا، ما الدوافع والأسباب التي جعلت ملوك أرمنيا يعلنون خضوعهم وتبعيةهم للإمبراطورية البيزنطية دون حرب رغم أن الحملة التي قادها باسيل الثاني لم تكن تعنيهم؟

يبدو أن أوضاع أرمنيا الداخلية والخارجية، هي التي كانت وراء سياسة التنازل والاستسلام التي سلكها ملوك الأرمن. وتتمثل تلك الأوضاع في ما يلي :

¹ يحي الأنطاكي : مصدر سابق، ص 382.

² ماجستروس (Magister officiorum) : ظهر هذا اللقب منذ القرن الثامن الميلادي كلقب شرقي ثم اختفى إلا أنه عاد للظهور في عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث، وتشكل الشخصيات التي تحمل هذا اللقب طبقة ودرجة في المجتمع البيزنطي، وكان يمنح لكبار قادة الجيش، وخاصة قائد سلاح الفرسان والمشاة. (أنظر : العبد الغني عبد الرحمن محمد : مرجع سابق، ص 206، هامش رقم 88؛ Arisdaguès de Lasdiverd : op. cit., p. 10, note n° 3.)

³ سيواس : تقع وسط تركيا، وهي قليلة الشأن في أحداث العصور الوسطى. انظر : (لسترنج كي : مرجع سابق، ص 180).

⁴ يحي الأنطاكي : مصدر سابق، ص 382؛ Arisdaguès de Lasdiverd : op. cit., pp. 31-32; Etienne : op. cit. p. 165; Schlumberger Gustave : L'épopée byzantine, t. II, pp. 500-511.

⁵ Arisdaguès de Lasdiverd : op. cit., p. 32, note n° 4; Cheynet Jean-Claude : De Tziliapert à Sébastè, ds. S.B.S., vol. 9, Walter de Gruyter, Berlin, 2006. p. 220.

⁶ العبد الغني عبد الرحمن محمد : مرجع سابق، ص 206-207.

⁷ Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 224.

1. كانت أرمينيا تعاني من تدهور أحوالها الداخلية بسبب الفتن والحروب الأهلية التي اندلعت بين أبناء الأسرة الحاكمة، خاصة بعد وفاة جاجيك الأول البجراطي سنة 409هـ/1018م، حيث اندلعت الحرب بين ولديه يوحنا سمباد وأشوط الرابع.¹
 2. في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، كانت أرمينيا مقسمة إلى أربع ممالك شبه مستقلة عن بعضها البعض، ويحارب بعضها الآخر، وهي مملكة آني (Ani)، ومملكة قارص (Kars)، ومملكة لوري (Lori)، ومملكة فاسبوراكان (Vaspourakan).²
 3. الخوف من الإمبراطور باسيل الثاني الذي أرعب البلغار بقسوته، حتى لقب بسفاح البلغار، خاصة وأن يوحنا سمباد قام بمساعدة الملك الجيورجي، جورج الأول، أثناء تمرده على الإمبراطور البيزنطي.³
 4. أراد ممثل الخلافة الإسلامية في أذربيجان، إحكام سيطرته على الأرمن، مما جعلهم يهرعون إلى بيزنطة طالبين العون.⁴
 5. لاح في الأفق خطر الجماعات التركية التي بدأت تقترب من الحدود الشرقية لأرمينيا الكبرى، وهاجمت إقليم الفاسبوراكان سنة 412هـ/1021م، فتخوف الأرمن منهم. وأمام هذا التهديد الخارجي الجديد، ألقت أرمينيا بنفسها بين أحضان الإمبراطورية البيزنطية، واعتقد ملوكها أن الإمبراطورية ستتولى حماية بلادهم من الأتراك السلاجقة.⁵ فكانوا مثل المستجير بالنار من الرمضاء.
- ولكن لم يُقدّر للإمبراطور باسيل الثاني أن ينعم طويلاً بما حصل عليه من تنازلات، ولم يمتد به العمر ليستولي على ما تبقى من أراضي وممتلكات جيرانه الأرمن، إذ توفي سنة 416هـ/1025م.

¹ حول الصراع الذي اندلع بين الأمراء الأرمن، (انظر : 6-9 pp. Michel le Syrien : op. cit.,)

² إميل بول : مرجع سابق، ص 27؛ Garsoïan Nina : Le royaume du nord, ds. H. P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008. pp. 270-274.

³ Arisdaguès de Lasdiverd : op. cit., p. 27.

⁴ العبد الغني عبد الرحمن محمد : مرجع سابق، ص 175.

⁵ Schlumberger Gustave : L'épopée byzantine, t. II, p. 501.

وورث عرشه أخوه قسطنطين الثامن (1025-1028)،¹ الذي لم يكن يتطلع لضم أقاليم أرمينيا. فقام بتسليم الوثيقة التي تنازل بموجبها الملك الأرمني يوحنا سمباد عن ممتلكاته إلى أحد القساوسة الأرمن وهو القس سرياك (Cyriaque)، ليعيدها إلى ملك أرمينيا. ولكن هذا القسيس أخفى الوثيقة، ثم باعها للإمبراطور ميخائيل الرابع (426-433هـ/1034-1041م) بمبلغ ضخم.² فأحيت تلك الوثيقة روح التوسع في الشرق عند أباطرة بيزنطة. وأصبحوا يطالبون بحقهم الشرعي في وراثة مملكة آني الأرمينية. وما زاد من حظوظ بيزنطة في الحصول على تلك الممتلكات هو وفاة يوحنا سمباد سنة 432هـ/1040م، دون أن يترك وراءه وريثا. وخلفه شقيقه آشوط الرابع، ولكنه توفي بعد فترة قصيرة، فانتقل التاج إلى ابنه جاجيك الثاني بن آشوط الرابع (434-437هـ/1042-1045م). وهو شاب صغير لا يتجاوز عمره الخمسة عشر عاما. واندلعت الاضطرابات بين الأرمن بسبب اعتراف بعضهم بملكهم الشاب ورفض آخرين له. وقد وجدت بيزنطة في تلك الفتن فرصة ذهبية للمطالبة بضم أرمينيا إلى الكيان الامبراطوري بموجب وثيقة التنازل السابقة.³ وكان موقف النبلاء الأرمن هو الرفض القاطع للمطالب البيزنطية، ما جعل بيزنطة تنظم عدة حملات عسكرية على آني لضمها عنوة، ولكنها باءت بالفشل.

ولما اعتلى عرش القسطنطينية الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس (Constantin IX Monomaque) (443-447هـ/1042-1045م)، وجد أرمينيا غارقة في صراعاتها الداخلية، والخطر السلجوقي يزداد على حدودها، فصمم على ضم مملكة آني، ولجأ إلى الدبلوماسية والحيلة بعد أن عجزت القوة العسكرية. فوجه دعوة إلى جاجيك الثاني لزيارة القسطنطينية بهدف التفاوض وعقد معاهدة صلح بينهما.⁴ وبعد تردد كبير وافق الملك الأرمني، وبمجرد وصوله إلى العاصمة البيزنطية وجد نفسه أمام اختيارين أحلاهما مر. الأول : هو التنازل عن مملكته لبيزنطة عملا بما جاء في وثيقة التنازل، مقابل منحه أقاليم في تراب الإمبراطورية البيزنطية، والاختيار الثاني : النفي

¹ العبد الغني عبد الرحمن محمد : مرجع سابق، ص 207.

² Arisdaugès de Lasdiverd : op. cit., p. 60.

³ Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 238.

⁴ إميل بول : مرجع سابق، ص 29.

إلى جزيرة مغمورة في البوسفور.¹ ويبدو أنه سجن في العاصمة بعض الوقت. ثم تمكن الإمبراطور من استمالة بعض النبلاء ورجال الدين الذين سلموا له مفاتيح مدينة آني مع خطاب جاء فيه : "وهبناك آني، والشرق كله"،² ولما أدرك الملك الأرمني أنه تعرض لخيانة اضطر إلى التنازل عن مدينة آني وتوابعها إلى الإمبراطور البيزنطي، سنة 437هـ/1045م، وحصل جاجيك الثاني مقابل ذلك، على بعض المدن وأراضي واسعة في كبادوكيا.³ وبذلك سقطت أقوى، وأكبر مملكة أرمينية، وهي مملكة البجراطين في أيدي البيزنطيين، وتحولت إلى مقاطعة بيزنطية.⁴ لذلك اعتبر المؤرخ ارستاكيس (Arisdaguès) رسالة التنازل سبب خراب أرمينيا.⁵ وتتنازل آخر ملوك البجراطين عن ممتلكاته لبيزنطة، وبسقوط مدينة آني (Ani)⁶ في أيدي البيزنطيين تكون الإمبراطورية البيزنطية قد أنهت توسعها على حساب الممالك الأرمينية الرئيسية، وبذلك بلغت أقصى حدود لها في الشرق، ولكن ليس لأمد بعيد.

بعد آني، جاء دور مملكة قارص (Kars)،⁷ التي كان يحكمها جاجيك بن عباس بن أشوط الرابع، الذي حاول استعمال الدبلوماسية ليقبى بلاده من ضربات السلاجقة، ولكنه أدرك بأن سقوط بلاده في أيديهم هو مسألة وقت فقط، فتنازل عنها لبيزنطة سنة 457هـ/1064م، وفي المقابل

¹ De Morgan Jacques : op. cit., p. 151.

² Matthieu d'Edesse : Chronique de Matthieu d'Edesse (962-1136), Traduit par Edouard Dulaurier, A. Durand Libraire, Paris, 1858. p. 77.

³ Arisdaguès : op. cit., pp. 60-70; Matthieu d'Edesse : op. cit. pp. 76-79; De Morgan Jacques : op. cit., pp. 151-152; Aslan Kévork : op. cit., p. 69; Throssian H. op. cit., pp. 93-94.

⁴ Pasdermadjian H. : op. cit., p. 164.

⁵ Arisdaguès de Lasdiverd : op. cit., p. 27.

⁶ آني : من أهم المدن الأرمينية القديمة، تعرف بمدينة الألف كنيسة وكنيسة، وكانت عاصمة لمملكة البجراطين الأرمن، ثم استولى عليها البيزنطيون سنة 1045م، وفتحها السلاجقة سنة 1064م. تعرضت لزلزال عنيف في القرن 14م، فدمر كثيرا من معالمها، وهي الآن تضم آثارا وأطلالا عديدة. تقع حاليا على الحدود الشرقية لتركيا بالقرب من جمهورية أرمينيا. (أنظر : الموسوعة العربية الميسرة، ج 1، ص 461).

⁷ وتكتب أيضا قرص، وكارص، مدينة أرمينية من نواحي تفليس، بينهما يومان، وهي الآن تقع شرق تركيا غير بعيدة عن حدود جمهورية أرمينيا. فتحها السلاجقة سنة 1064م. تنازلت عنها الدولة العثمانية لروسيا سنة 1878، واستعادتها تركيا سنة 1921، بمقتضى معاهدة أبرمت بين الاتحاد السوفياتي والحكومة التركية، ولا تزال تحتفظ بقلعتها التي تعود للقرن 16م. (أنظر : الحموي : مصدر سابق، مج 4، ج 7؛ الموسوعة العربية الميسرة، ج 5، ص 2523).

منحه الإمبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر دوكاس (Constantin X) Doukas (1059-1067)، عدة مدن وأراضي شاسعة في كبادوكيا الشرقية.¹ وحاولت بيزنطة بعد أن ضمت إليها أرمينيا، أن تجبر الشعب الأرمني على اعتناق مذهب الطبيعيين، والتخلي عن مذهب الطبيعة الواحدة، مستغلة تشنتهم، وضعفهم، وعدم وجود سلطة سياسية وطنية تتولى أمرهم.² وبذل بطريك القسطنطينية ميخائيل كربولاريوس (Michel Kérourarios)، جهودا مضنية، واستخدام كل الوسائل لابتلاع كنائس الأقاليم الأرمنية التي كانت لها تقاليد وعادات متباينة مع الكنيسة البيزنطية.³ بل إن الأسر الملكية الأرمنية سرعان ما خف صوتها في كبادوكيا، بفعل الضربات المتتالية التي تلقوها من البيزنطيين، وبذلك فإن أرمينيا الجديدة التي نشأت في كبادوكيا، قضى عليها البيزنطيون ببضع سنوات أو أشهر، قبل اكتساح السلاجقة لهذا الإقليم.⁴ والسؤال الذي يطرح بجدّة في هذا المقام، ما هدف الامبراطورية البيزنطية من هذه التوسعات في الأقاليم الشرقية؟ وهل ستمكن من حماية إقليم أرمينيا من هجمات السلاجقة المتتالية؟ وهل ستوفر للأرمن الأمن والاستقرار في أراضيهم؟

مما لا شك فيه أن بيزنطة تريد بسط نفوذها من جديد على المناطق التي فقدتها خلال القرون الماضية، وباستعادتها لأرمينيا فهي تستعيد أغنى أقاليم الامبراطورية، ودعامة اقتصادية، ومركزا تجاريا نشيطا، ظل خارج سيطرتها مدة ثلاثة قرون كاملة. كما كانت تهدف من وراء هذه الحركة التوسعية إلى محاصرة الخلافة العباسية، فبعد أن حاصرتها من جهة الغرب باستيلائها على إقليم قيليقيا، تريد الآن الالتفاف عليها من جهة الشرق والشمال، وربما كان الهدف البعيد من وراء هذا التمدد، هو الوصول إلى بغداد مستقبلا.

ويبدو أن الامبراطورية البيزنطية لم تر في أراضي وأقاليم أرمينيا إلا مصدرا ضخما لثروات متنوعة، وطريقا تجاريا هاما يربط الشرق بالغرب ويدر على الخزينة مداخيل لا حصر لها، ولم تدرك

¹ Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 125-126; Grousset René : L'Empire du Levant histoire de la question d'Orient, Payot, Paris, 1949. p. 162.

² زرقوق محمد : مرجع سابق، ص 39؛ Grousset René : op. cit., p. 162.

³ Schlumberger : L'Epopée byzantine, t. III, pp. 738-741; Aslan Kévork : op. cit., pp. 66-67.

⁴ Grousset René : Histoire de l'Arménie, p. 635.

بأنها أضافت لنفسها عبئا جديدا. ولم تر بعين الحقيقة تحركات القبائل التركية، وخروجها من مواطنها الأصلية وتسربها إلى غربي آسيا. وأخطأت في تقدير حجم خطر السلاجقة الذي كان يزحف باتجاه الغرب ويهدد أرمينيا الكبرى. لذلك فإن معظم المؤرخين الأرمن والغربيين يُحمّلونها مسؤولية سقوط أرمينيا الكبرى -فيما بعد- بين أيدي السلاجقة، الذين وجدوا الطريق سهلا وممهدا لرفع راية الإسلام في جوف آسيا الصغرى، فواصلوا زحفهم مكتسحين في طريقهم كل المدن البيزنطية.

يتبين مما سبق أن إقليمي أرمينيا وقيليقيا كانا محل تنافس وصراع بين المسلمين والبيزنطيين، ومن الحقائق التاريخية التي يمكن استنتاجها من هذا الفصل، نذكر :

أولا : يعتبر الأرمن من الشعوب العريقة في منطقة القوقاز وآسيا الصغرى، وقد حافظوا على هويتهم، ولم ينصهروا في الامبراطوريات، والحضارات التي تغلبت عليهم على مر العصور.

ثانيا : يعتبر إقليم قيليقيا من الأراضي التي فتحها المسلمون في القرن الأول الهجري، وأصبح جزءا من دار الإسلام، وبموجب ذلك أصبح للمسلمين فيه حقوق ولا ينبغي لهم التفريط فيه، ولم يكن آنذاك للأرمن وجود سياسي في هذا الإقليم.

ثالثا : محاولة فرض مذهب الطبعيتين من طرف الإمبراطورية البيزنطية، جعلت الأرمن يرتمون في أحضان الخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية، وفي ظل الدولة الإسلامية، تمتع الأرمن بالحرية الدينية وترك المسلمون لهم حرية ممارسة شعائهم وطقوسهم.

رابعا : بزوال مملكة آني، وضم إقليم أرمينيا إلى الامبراطورية البيزنطية، فقد الأرمن الكيان السياسي الذي يمثلهم ، ولم يكونوا مطمئنين إلى الامبراطورية البيزنطية بسبب موقفها من مذهبهم.

خامسا : ساءت علاقة الأرمن بالإمبراطورية البيزنطية ليس بسبب احتلالها لأراضيهم فحسب، ولكن لأنها كانت مصرة على فرض مذهبها على الكنيسة الأرمنية، وكانت تعتبر أتباع مذهب الطبيعة الواحدة كفارا، والكنيسة الأرمنية تبادل الخلقدونيين نفس الاتهام، مما أدى إلى نفور الأرمن من البيزنطيين. وبذلك سهّلت بيزنطة عملية تسلل السلاجقة إلى آسيا الصغرى.

الفصل الثاني

فتوحات السلاجقة واندلاع معركة منازکرد

1) تعريف السلاجقة

أ - أصل السلاجقة

ب - خروج السلاجقة من تركستان

2) علاقة السلاجقة بالقوى الإسلامية في المشرق

أ - علاقة السلاجقة بالخلافة العباسية

ب - علاقة السلاجقة بالدولة الفاطمية

3) توسع السلاجقة في أرمينيا الكبرى

أ - فتوحات طغرل بك

ب - فتوحات ألب أرسلان

4) معركة منازکرد سنة 463هـ/1071م وأثرها على الأرمن

أ - استعدادات رومانوس الرابع

ب - استعدادات ألب أرسلان

ج - اندلاع المعركة

د - عوامل انهزام البيزنطيين

هـ - انعكاساتها على الأرمن

ما أن أطل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، حتى برزت قوة إسلامية جديدة أخذت على عاتقها مواجهة الامبراطورية البيزنطية، واستئناف حركة الفتوحات الإسلامية التي توقفت منذ زوال الخلافة الأموية. تتمثل تلك القوة الجديدة في القبائل التركية التي اعتنقت الإسلام، وخرجت تعمل على نشره خارج إقليمها الجغرافي.

يتناول هذا الفصل دور السلاجقة في فتوحات آسيا الصغرى. ويتعرض في البداية إلى أصلهم، وموطنهم الأول، والظروف التي دفعتهم إلى النزوح بعيدا عن أرض الآباء والأجداد، واعتناقهم الإسلام، ثم تحالفهم مع الخلافة العباسية وحمايتها من المد الشيعة الذي كان يهددها في العراق وفي بلاد الشام.

ومن أهم وأجل الأعمال التي قام بها الأتراك السلاجقة بعد اعتناق الإسلام، ولم تسبقهم في ذلك أي دولة من دول المسلمين السابقة، هو نشر الإسلام في بلاد الروم، أو ما يعرف اصطلاحا بآسيا الصغرى. لقد أثمرت محاولاتهم المتكررة، وغزوهم لبلاد الروم باستمرار منذ عهد طغرل بك، عن انهزام الامبراطورية البيزنطية شر هزيمة في معركة مناظر كرد عام 463هـ/1071م، أمام القوات التي كان يقودها السلطان ألب أرسلان. وأدت هذه النتيجة إلى عدة تحولات سياسية وعسكرية واجتماعية غيرت مجرى الأحداث جذريا، مما جعل بعض المؤرخين يعتبرونها معركة اليرموك الثانية.

ومن أبرز الانعكاسات التي سيتعرض لها هذا الفصل والفصول اللاحقة، نزوح الأرمن بأعداد كبيرة من موطنهم الأصلي في أرمينيا الكبرى، إلى إقليم الفرات، وجبال طوروس، وكبادوكيا، وقيليقيا، بحثا عن وطن بديل. وكان لابد من التعرض لهذه الأحداث حتى نستطلع كيف تمكن الأرمن من الوصول إلى جنوب شرقي الأناضول، قبل وصول حشود الحملة الصليبية الأولى إلى آسيا الصغرى. فما هي أهم التحولات التي أحدثتها معركة مناظر كرد إقليميا ودوليا ؟ فهل كانت هجرة الأرمن من أرمينيا الكبرى هروبا من ضغوط السلاجقة ؟ أم كانت إرادية ؟

1- تعريف السلاجقة

أ - أصل السلاجقة

يعود أصل السلاجقة إلى القبائل التركية المعروفة بالأوغوز، وفي اللغة العربية "الغز" (Ghouzz).¹ وهي من أهم القبائل التركية² وأشهرها. وموطنهم الأصلي هو آسيا الوسطى المعروف باسم تركستان،³ وهو عبارة عن صحراء واسعة، وسهوب تبدأ من حدود الصين شرقا وتنتهي عند سواحل بحر الخزر⁴ (بحر قزوين) غربا.⁵ ويبدو أن اسم "الغز" قد أطلق على اتحاد مجموعة من القبائل التركية،⁶ التي كونت دولة بدوية كبرى في منغوليا خلال القرن السادس الميلادي. ولما آلت للسقوط

¹ ورد هذا الاسم بألفاظ مختلفة منها الأوغوز أو الأوكوز (les Oghouzes)، وعند البيزنطيين أوز وأوزوا (Ouzes et Ouzoi)، وهم أنفسهم الذين يعرفون باسم التركمان (Turkmènes, ou Turcomans)، ولكن المصادر العربية ذكرتها باسم الغز (Ghouzz). (انظر : ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 22؛ ابن العديم : مصدر سابق، ص 1348، 1354؛

Grousset René : L'Empire des steppes Attila, Gengis-Khan, Tamerlan, Payot, 4^{ème} ed., Paris, 1965. p. 203.

² القبائل التركية : يقدرهم الكاشغري بعشرين قبيلة، "وكل قبيلة منها بطون لا يحصيهم إلا الله"، وتعرف القبائل بأسمائها الخاصة، مثل : هون، أوار، تابغاج، قرغيز، قارلوق، ياغما، جيغل، اوغوز، توركيش، أويغور، خزر، بلغار، بجنك، قبحاق، كوك تورك، ... الخ، وتشترك كلها في اللغة التركية. وكان اسم الدولة التركية يطلق على القبيلة التي تظهر تفوقا عسكريا وسياسيا من هذه القبائل. أما تسمية الترك فقد أطلقت على جميع القبائل التي تتكلم التركية في عهد قبيلة الكوك تورك (552-745م). (انظر : الكاشغري (محمود بن الحسين بن محمد) : ديوان لغات الترك، دار الخلافة العلية، (د م)، 1333 هـ. ج 1، ص 27؛ أوزطونا يلماز : المدخل إلى التاريخ التركي، ترجمة أرشد الهرمزي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2005. ص 14، 76، 100.)

³ تركستان : كلمة مركبة من كلمتين (ترك)، وستان لا حقة بها في اللغة الفارسية، وتفيد المكان أو البلاد، وتنقسم إلى قسمين تركستان الغربية أو الروسية والتي كانت تعرف ببلاد ما وراء النهر، وأهم مدنها بخارى وسمرقند وتركستان الشرقية أو الصينية التي تعرف حاليا باسم سنكيانج، وهي أقدم موطن للقبائل التركية. (انظر : بارتولد فاسيلي فلاديميروفيتش : تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1981. ص 145؛ Barthold W. : Turkistan, in : **Enc. Isl.**, Brill, Leiden, 2000. t. X, p. 680; Grousset René : op. cit., pp. 17- 20.)

⁴ هو بحر قزوين حاليا.

⁵ أبو النصر محمد عبد العظيم : السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001. ص 32؛ أوزطونا يلماز : مرجع سابق، ص 241.

⁶ ينقسم الأوغوز إلى أربعة وعشرين فرعا وينقسم كل فرع بدوره إلى شعب، ويسمى الإثنا عشر فرعا منهم (بوزوق) والإثنا عشر الأخرى (أوج أوق). وتنسب هذه الفروع إلى أبناء أوغوز خان الستة : كون، آي، يلدز، كوك، داغ، دينيز. وكانوا يعيشون قبل القرن السابع الميلادي، على ضفاف نهر ينيسي الواقع على خط الحدود بين روسيا وجنوب ووسط منغوليا. ولكل من الأبناء =

على أيدي الصينيين،¹ فقد الغز قوتهم الاتحادية، ووجدوا أنفسهم أقل شأنًا سياسيًا من المجموعات التركية الأخرى. فتحركوا خلال القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي غربًا، عبر سهول سيبيريا نحو بحر الآرال، وإلى حوض الفولغا، وجنوبي روسيا، وعجزوا عن تحقيق الوحدة السياسية، فنشبت بينهم الحروب، وقامت بعض بطون قبائلهم بهجرات وفتوحات إلى جهات بعيدة، فنزل بعضها قرب ضفاف نهر جيحون،² وبعضها في طبرستان،³ وجرجان.⁴ وبذلك استقروا على حدود دار الإسلام.⁵ وكان الغز آنذاك يتكونون من تسع قبائل، ولكل قبيلة أمير سماه المسلمون "دهقان".⁶

وإلى منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، لم يكن الإسلام قد انتشر بشكل واسع بين الأتراك، ماعدا بعض المجهودات الفردية التي قام بها (رجال) الصوفية والتجار المسلمون،⁷ ويعود

=الستة أربعة أبناء وقد تفرع من هؤلاء القبائل المختلفة وأصبح عدد فروع الأوغوز أربعة وعشرون فرعًا. وجميع أترك تركيا الحالية ينتمون إلى الأوغوز. (انظر : بارتولد فاسيلي فلاديميروفيتش : تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد سعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996. ص 119؛ أوزطونا يلماز : مرجع سابق، ص 241، 251-253.)

¹ بارتولد فاسيلي فلاديميروفيتش : مرجع سابق، ص 119؛ العربي السيد الباز : المغول، دار النهضة العربية، بيروت، 1981. ص 30؛ Seydi Süleyman : Esquisse de 2000 ans d'histoire de la Turquie, Editions du ministère de la culture et du tourisme de la république de Turquie, Ankara, 2010. p. 22.

² جيحون : عرف قديماً باسم أوكسس (Oxus)، وحاليا يعرف باسم نهر آموداريا، ينبع من جبال بامير في آسيا الوسطى ويصب في الساحل الجنوبي لبحر آرال. (انظر : الموسوعة العربية الميسرة، ج 1، ص 442).

³ طبرستان : هو إقليم يمتد على الساحل الجنوبي لبحر قزوين، ويقع حالياً شمال إيران، وطبر في لغة تلك البلاد معناها الجبل، فطبرستان تعني بلاد الجبل، وهذا نظراً للجبال العالية التي تشكل هذا الإقليم، وهي تتمثل في سلسلة ألبرز. ويعرف الإقليم أيضاً باسم مازندران، ومن مدنه آمل، وسارية. (أنظر : لسترنج كي : مرجع سابق، ص 409).

⁴ جرجان : هو اسم إقليم يمتد جنوب شرقي بحر قزوين. يتميز بكثرة أنهاره وسهوله. وهو ينسب إلى عاصمته جرجان، الواقعة حالياً في إيران. أنظر : (لسترنج كي : مرجع سابق، ص 417).

⁵ شبارو عصام محمد : السلاطين في المشرق العربي، دار النهضة العربية، بيروت، 1994. ص 17-18؛ طقوش محمد سهيل : تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، دار النفائس، بيروت، 2002. ص 16؛ الصلابي علي محمد : دولة السلاجقة، دار المعرفة، ط 2، بيروت، 2008. ص 21؛ أبو النصر محمد عبد العظيم : مرجع سابق، ص 33؛ أوزطونا يلماز : مرجع سابق، ص 244؛ Seydi Süleyman : op. cit., p. 22.

⁶ أبو النصر محمد عبد العظيم : مرجع سابق، ص 33. الدهقان والدهقان، لفظ فارسي معرب، تعني التاجر، وتعني أيضاً القوي على التصرف مع حدة، واصطلاحاً يقصد به، رئيس القبيلة أو القرية، وسلطته تشبه سلطة شيخ القبيلة، على أن يكون مسؤولاً أمام الدولة، ويحمل الخراج إليها. (انظر : ابن منظور : مرجع سابق، مج 13، ص 163-164).

⁷ بارتولد فاسيلي فلاديميروفيتش : تاريخ الترك، ص 87.

الفضل الكبير لانتشار الإسلام بين القبائل التركية إلى الدولة السامانية،¹ التي فتحت أواسط آسيا في القرنين الثالث والرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين. وبعد اعتناق عدد كبير من الأتراك الإسلام، تأسست أول إمارة تركية إسلامية في عام 349هـ/960م، وهي دولة القراخانيين.² وخلال نفس القرن أسلم الغز المقيمون عند مصب نهر سيحون.³

وينتمي السلاجقة إلى "قِنْق" وهي إحدى بطون الغز.⁴ وجددهم يدعى سلجوق بن دُقاق. وكانت حياتهم قائمة على الغزو والتنقل بحثا عن المرعى والكلاء، حيث "كانوا يصيفون في بلاد البُلغار⁵ ويشتون في تركستان، وينهبون ما طرقوه، وكان من مقدميهم رجل يقال له دُقاق"⁶

¹ الدولة السامانية : تنتسب إلى مؤسسها نصر بن سامان، وهو من أصول فارسية. وقامت هذه الدولة فيما وراء النهر، بين سنتي 204-395هـ/819-1004م. ثم امتد نفوذها إلى فارس، وأفغانستان، وقزوين. واتخذ السامانيون مدن سمرقند، وفرغانة، وهراة، وبخارى حواضر لهم. وجاهدوا الأتراك الوثنيين في أواسط آسيا، ونشروا الإسلام بينهم. وكانت علاقتهم بالخلافة العباسية علاقة ولاء وتأيد إلى أن سقطت على يد الغزنويين والقراخانيين. (أنظر : طقوش : مرجع سابق، ص 17، هامش رقم 1؛ الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ج 4، ص 1780؛

Sayyid Ayman F. : Samanids, in. : **Enc. Isl.**, E. J. Brill, Leiden, 1995. t. VIII, pp. 1025-1031).
² القراخانيون (226-609هـ/840-1212م) : سلالة تركية يرجح أنها من قبيلة القارلوق أو الأوغوز، حكمت بلاد ما وراء النهر. وكان نفوذهم يقتصر على تركستان الشرقية فقط. ثم توسعوا نحو الغرب فورثوا السامانيين، واتخذوا من بخارى عاصمة لهم، من مدنها بلاساغون وكاشغر. وكان صاتوق بوغرا خان أول حاكم تركي اعتنق الإسلام، واتخذ لنفسه اسم عبد الكريم. ثم عمل على نشر الإسلام بين أتباعه. ويعتبرون أنفسهم أتباعا للخليفة العباسي، وقبول أمره فرضا من فروض الدين. قام القراخانيون بنشر الإسلام بين القبائل التركية، وبفضلهم أسلم قسم كبير من الأتراك وازدهرت في عهدهم العلوم والفنون والآداب. (أنظر : اوزطونا يلماز : مرجع سابق، ص 159-178؛

Grousset René : *L'Empire des steppes*, pp. 200-203, Seydi Süleyman : op. cit., pp. 33-35.)
³ نهر سيحون : عرف قديما باسم جكزرتس (Jaxartes)، وحاليا يعرف باسم نهر سرداريا، ينبع من مرتفعات تيان شان بكيرغزستان في آسيا الوسطى، ويصب في بحر آرال. (أنظر : الموسوعة العربية الميسرة، ج 4، ص 1828).

⁴ الكاشغري : مصدر سابق، ج 1، ص 56.
⁵ بلاد البلغار : دولة قوية بشرق روسيا الأوربية بمحاذاة نهر الفولجا الأوسط (القرن 8-13م). (أنظر : الحموي : مصدر سابق، ج 2، ص 382؛ الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ج 2، ص 758).

⁶ المقرئزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي (ت 845 هـ)) : السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997. ج 1، ص 136.

(Douqâq)،¹ الذي كان في خدمة "بيغو" وهو أحد ملوك الترك.² وقرر هذا الملك القيام بغارة على الأراضي الإسلامية المتاخمة لبلاده. فامتنع دقاق عن التنفيذ ونهاه عن ذلك، وطال النقاش بينهما، فأغلظ ملك الترك الكلام، وتملك قائد الجيش الغضب. ولكن هذا النزاع ما لبث أن سُوي باسترضاء دقاق الذي استمر في خدمة الملك حتى وفاته سنة 291هـ/903م.³ وربما كان هو أول من اعتنق الإسلام بين أبناء قبيلته، ما دفعه إلى الغيرة على المسلمين، و الضغط على بيغو ليضع حدا لغاراته على أراضي الدولة الإسلامية، لأن الرجل "كان شهما ذا رأي وتدير. وكان مقدم الأتراك الغز، ومرجعهم إليه، لا يخالفون له قولاً ولا يتعدون أمراً".⁴

رُزق دقاق بإبنه سلجوق (Seldjouq)، فأنشأه تنشئة عسكرية، وخلفه في رئاسة القبيلة، فأطاعه أفرادها وانقادوا له. ولما اشتد عوده برزت عليه علامات الفطنة والنباهة. واشتهر بالفروسية والشجاعة. فقربه الملك بيغو، وفوض إليه إمارة الجيش، ومنحه لقب سوباشي، أي قائد الجيش، كما أباح له حضور مجالسه الخاصة.⁵ وكان الملك عقيماً، فخشيت زوجته أن يستغل سلجوق هذا الوضع فيقتل الملك ويستولي على العرش، "فقالت يوماً لزوجها الملك عقيم و لا يحتمل المشاركة و لا يصفو لك مشرب الملك إلا بقتل سلجوق و لا يسفر صباح دولتك إلا بأن تذيبه كأس الحمام فإنه عن

¹ ورد في بعض المصادر باسم يقاق وفي مصادر أخرى باسم تقاق، أو توقاق وكان يلقب بسبب بسالته بـ "تموريالغ" (Timouryaligh) أي صاحب السهم الحديدي، أو صاحب القوس الحديدية. (أنظر : ابن العربي (أبو الفرج جمال الدين) : تاريخ الزمان، نقله إلى العربية الأب إسحق أرملة، دار المشرق، ط 2، بيروت، 2005. ص 87؛

Grousset René : L'Empire des steppes, p. 204.

² يعرف ابن العربي بيغو أنه خاقان الخزر، والمعروف أن الخزر من الأقوام التركية التي أسست إمبراطورية على ضفاف بحر قزوين، ودامت من 468م إلى 965م، وقد اعتنق الخزر الذين كانوا يديون بالشامانية الإسلام ثم اليهودية كأديان رسمية. وحتى القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، كانت قبائل الغز تابعة لإمبراطورية الخزر (أنظر : ابن العربي : تاريخ الزمان، ص 87؛ بارتولد فاسيلي فلاديميروفيتش : تاريخ الترك، ص 77؛ أوزطونا يلماز : مرجع سابق، ص 211-216؛ أبو النصر محمد عبد العظيم : مرجع سابق، ص 32).

³ الحسيني (صدر الدين أبو الحسن علي ناصر بن علي (ت بعد 622هـ/1125م)) : أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق محمد إقبال، نشریات كلية فنحجاب، لاهور، 1933. ص 1-2.

⁴ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 22.

⁵ الحسيني : مصدر سابق، ص 2؛ أوزطونا يلماز : مرجع سابق، ص 255.

قريب يزعجك عن دار ملكك ويسعى في هلكك، وذلك بمراى من الأمير سلجوق وبمسمع".¹ ولما سمع سلجوق هذا الحوار أدرك أنه أصبح غير مرحب به في القصر، وأن النعمة ستقلب نقمة عليه عاجلا أو آجلا. فقرر مغادرة تركستان إلى حيث الأمان، لأن كيد النساء عظيم.

ب - خروج السلاجقة من تركستان

غادر سلجوق تركستان سنة 375هـ/985م مع قبيلته، ومعه ألف فارس، وألف بعير، وخمسون ألف رأس من الماشية.² "وتوجه مع خيله وجنده تلقاء ديار الإسلام".³ ودخل بلاد ما وراء النهر (Transoxiane)،⁴ حيث كان النزاع قائما فيها بين الدولة السامانية، والدولة الغزنوية،⁵ والدولة القرخانية. وكانت تلك الأوضاع السياسية ملائمة لدخول سلجوق وأتباعه المعتزك السياسي.⁶ لأن السامانيين وجدوا صعوبة في استرجاع بعض أراضيهم التي استولى عليها القرخانيون،⁷ مما جعلهم يستنجدون بسلجوق بن دقاق وأتباعه، فاستجاب لهم. وشارك في الحرب حليفا للسامانيين،⁸ الذين

¹ الحسيني : مصدر سابق، ص 2.

² أبو النصر محمد عبد العظيم : مرجع سابق، ص 39؛ ويذكر أوزطونا يلماز بأنه رحل مع مائة فارس و ألف وخمسمائة جمل وخمسون ألف رأس من الماشية، ولا يمكن أن يكون عدد الفرسان مائة فقط، لأن سلجوق خاض فيما بعد حروبا تحتاج إلى عدد كبير من الفرسان. (أنظر : أوزطونا يلماز : مرجع سابق، ص 255).

³ الحسيني : مصدر سابق، ص 2.

⁴ ما وراء النهر : أطلق المسلمون هذا الاسم على البلاد الواقعة شمال نهر جيحون (آموداريا حاليا)، وكذلك سموها الهيتل. (أنظر: لسترنج كي : مرجع سابق، ص 476).

⁵ الدولة الغزنوية (352-582هـ/963-1186م) : هي دولة إسلامية تركية، أسسها ألب تكين في أفغانستان. واستمدت اسمها من غزنة المدينة التي تأسست فيها. واكتسبت مكانة إقليمية في شمال الهند، وهي من أهم الدول التركية الإسلامية الأولى. امتد نفوذها من أفغانستان والبنجاب بالهند، إلى بلاد ما وراء النهر، وخراسان. وساهمت في نشر الإسلام بتلك المناطق. من أشهر حكامها أبو منصور سبكتكين، ومحمود الغزنوي، وابنه مسعود. (أنظر : تركماني أسامة أحمد : جولة سريعة في تاريخ الأتراك والتركماني ما قبل الإسلام وما بعده، دار الإرشاد للنشر، سوريا، 2007. ص 109؛ أوزطونا يلماز : مرجع سابق، ص 186؛

Seydi Süleyman : op. cit., pp. 35-37.

⁶ عودات أحمد عبد الله : التسلط السلجوقي على الخلافة العباسية وموقف الخلفاء من ذلك (429-590هـ/1037-

1193م)، في مجلة الجمعية التاريخية السعودية، ع 9، السنة الخامسة، الجمعية التاريخية السعودية، الرياض، 1424هـ/2004م. ص 52.

⁷ Grousset : L'empire des steppes, p. 204.

⁸ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 22.

سمحوا له ولقبيلته بالمرور عبر بلادهم، والاستقرار عند ضفاف نهر سيحون، واتخذوا من جند¹ قاعدة لهم.² وبحكم إقامة السلاجقة بين المسلمين واحتكاكهم بهم سلماً وحرباً، اعتنقوا الاسلام على المذهب السني الحنفي³ وتعصبوا له،⁴ مما كان له أكبر الأثر في الصراع بين معسكري السنة والشيعة آنذاك. كما كان بداية تحول ثقافي واجتماعي كبير، ليس على مستوى الأتراك فحسب بل على مستوى العالم الاسلامي كله، وفتحوا بذلك الحقبة التركية من تاريخ الإسلام التي دامت أكثر من ثمانية قرون.⁵

ولم يكتف سلجوق بالتحالف مع السامانيين وحراسة حدودهم، بل اتخذ من مدينة جند قاعدة لانطلاق هجماته ضد الأتراك الوثنيين.⁶ كما شارك مع حلفائه في حروبهم إلى أن سقطت دولتهم في أواخر القرن الرابع الهجري/بداية الحادي عشر الميلادي، وتقاسم ممتلكاتها، القراخانيون الذين أصبحوا سادة بلاد ما وراء النهر، والغزنويون الذين أصبحوا سادة خراسان.⁷ ويبدو أن العلاقات بين الحاكم الجديد لمدينة جند، وأولاد سلجوق⁸ كانت جد متوترة،⁹ ما دفعهم إلى الانسحاب نحو الجنوب، مستغلين الفوضى العامة التي سادت المنطقة بعد انهيار الدولة السامانية،

¹ جند : من مدن تركستان، قرية من نهر سيحون (حاليا سرداريا)، كانت قاعدة للسلاجقة ثم خضعت للمغول. (أنظر : الحموي : مصدر سابق، مج 2، ج 3، ص 80).

² طقوش محمد سهيل : مرجع سابق، ص 19.

³ ابن العبري : مصدر سابق، ص 87؛ عودات أحمد عبد الله : مرجع سابق، ص 53. يذكر ميخائيل السرياني عوامل أخرى، أدت بالسلاجقة إلى اعتناق الإسلام. (أنظر : Michel le Syrien : op. cit., t. III, p. 156.)

⁴ ماهر سعاد : أثر الماوردي في الفن السلجوقي، المؤرخ العربي، العدد العاشر، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، (د. ت.). ص 43.

⁵ الشنقيطي محمد بن المختار : أثر الحروب الصليبية على العلاقات السنية الشيعية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2016. ص 47.

⁶ الحسيني : مصدر سابق، ص 2؛ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 22.

⁷ Grousset René : L' Empire des steppes, p. 204.

⁸ توفي سلجوق في جند سنة 1000م، ودفن بها، وله ثلاثة أولاد : ميكايل وموسى وارسلان المدعو إسرائيل، وتضيف بعض الروايات ابناً رابعاً هو يونس. واستنتج بعض المؤرخين من هذه الأسماء أن سلجوق كان على اليهودية قبل اعتناقه الإسلام. (أنظر :

الحسيني : مصدر سابق، ص 2؛ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 22؛ أوزطونا يلماز : مرجع سابق، ص 255 ; Grousset René : loc. cit.

⁹ بارتولد فاسيلي فلاديميروفتش : تاريخ الترك، ص 87.

ليستقروا بالقرب من بخارى في قلب بلاد ما وراء النهر.¹ وعندما اشتدت شوكتهم شرعوا يعملون على توسيع ممتلكاتهم، وأصبحوا يشكلون قوة أثارت مخاوف محمود بن سبكتكين الغزنوي² الذي قرر مواجهتهم وتشتيت شملهم. ولجأ إلى الحيلة والخديعة، حيث تمكن من إلقاء القبض على زعيمهم إسرائيل بن سلجوق،³ وأودعه السجن في قلعة كالنجر في بلاد الهند حتى تُؤيَّ هناك، ثم نكَّل ببعض أتباعه⁴. وخلف ميكائيل أخاه إسرائيل في زعامة السلاجقة، وأخذ يستعد للأخذ بثأره، وفي سنة 418هـ/1027م، جمع شتات قومه وعبر بهم نهر جيحون واستقروا في خراسان، التي وجدوا فيها حرية الحركة والانتشار. ثم راحوا يقومون بأعمال الشغب ومضايقة الناس والإغارة على المدن والقرى المجاورة، مما دفع محمود الغزنوي إلى الخروج بنفسه على رأس جيش كبير لمقاتلتهم، فانتصر عليهم وقتل منهم أربعة آلاف فارس وأسر عددا كبيرا.⁵ وبعد وفاته في سنة 421هـ/1030م، خلفه ابنه مسعود،⁶ ويبدو أن ميكائيل بن سلجوق توفي في نفس السنة أيضا، فخلفه في قيادة السلاجقة، ابنه

¹ بارتولد فاسيلي فلاديميروفيتش : تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص 393.

² محمود بن سبكتكين الغزنوي (387-421هـ/971-1030م) : فاتح أفغانستان. ولد بغزنة، جده ألب تكين القائد التركي في جيش ملوك السامانيين في خراسان وما وراء النهر. تولى الحكم بعد وفاة أبيه سبكتكين سنة 998. اعترف به الخليفة العباسي، وتلقب بالسلطان، فتح بخارى وورث الدولة السامانية، وامتدت سلطته إلى أفغانستان وتركستان وخراسان وطبرستان وسجستان. وانتصر على حكام الهند في البنجاب. انتقل الحكم بعد وفاته إلى ابنه مسعود. (أنظر : الموسوعة العربية الميسرة : مرجع سابق، ج 5، ص 2331).

³ إسرائيل بن سلجوق : هو أكبر أبناء سلجوق وأكثرهم علما، وأرجحهم عقلا، اعتلى عرش الإمارة سنة 990م، وحكم خمسة وثلاثين عاما حتى عام 1025، حيث اعتقله السلطان محمود بن سبكتكين الذي خشي من تزايد عدد الأتراك السلاجقة في مملكته، وتعاضم نفوذ إسرائيل بن سلجوق، فدبر له مكيدة؛ إذ قبضه وسجنه حتى توفي سنة 1032م، فنهض إخوته وأهله وطالبوا بالثأر له، فاستولوا على ملك الغزنويين. (أنظر : الراوندي (محمد بن علي بن سليمان (ت بعد 603هـ)) : راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، نقله إلى العربية، إبراهيم أمين الشواربي وآخرون، دار القلم، القاهرة، 1960. ص 145-163؛ أوزطونا يلماز : مرجع سابق، ص 258).

⁴ الأصفهاني (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت 597هـ/1201م)) : تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار ابن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، شركة طبع الكتب العربية، القاهرة، 1900. ص 5؛ الحسيني : مصدر سابق، ص 3.

⁵ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص 180؛ طقوش محمد سهيل : مرجع سابق، ص 24.

⁶ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص 181؛ قمعون عاشوري : العلاقات العسكرية بين الدولتين السلجوقية والبيزنطية (429-794هـ/1038-1391م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، إشراف أ د محمد الأمين بلغيث، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية، 2008-2009. ص 3.

طغرل بك¹ (Toghroul-beg)،² الذي كان يتميز بشجاعة نادرة مع تدين ملحوظ، وذكاء حاد،³ تلك المميزات التي جعلت منه المؤسس الحقيقي لدولة السلاجقة.

وخلال عشر سنوات، لم يحقق السلاجقة انتصاراً ساحقاً على أعدائهم الغزنويين، وظلت الحرب بينهم سجالات، بين كر وفر وهزيمة وظفر،⁴ حتى ابتسم لهم الحظ في معركة داندانقان (Dandanaqan)⁵ سنة 431هـ/1040م،⁶ التي حققوا فيها انتصاراً حاسماً. لذا تُعدُّ من المعارك الكبرى الفاصلة في التاريخ الإسلامي، لأنها أدت إلى قيام سلطنة إسلامية جديدة.⁷ ومنذ هذا التاريخ اكتسب الأتراك السلاجقة الريادة في العالم الإسلامي، وغدوا قادة للمجتمع المسلم، ومدافعين عن حوزة الإسلام.⁸

وكان لقيام الدولة السلجوقية أثر كبير في تاريخ المشرق الإسلامي وغربي آسيا بشكل خاص، بل إن تأثيرها تعدى العالم الإسلامي، وامتد إلى العالم المسيحي. ذلك لأنها ساهمت في توجيه الأحداث السياسية في المشرق الإسلامي بشكل بارز، لما قامت به من جهود لنشر الإسلام، وتوسيع

¹ الحسيني : مصدر سابق، ص 4.

² طغرل بك : ركن الدين محمد بن ميكائيل، سلطان سلجوقي (1037-1063) الفرع الإيراني أو السلاجقة العظام. أخضع ملوك جرجان وطبرستان وغزا خوارزم، وآسيا الصغرى، ثم دخل بغداد سنة 1055م وخطب باسمه. أما اللفظ فهو تصغير كلمة دوغراول التركية ومعناها القصاب، وهو مشتق من فعل دوغرامق أي أن يذبح، وبك لقب تركي أطلق على كل ذي نفوذ، كقادة وحدات الجيش على اختلاف رتبهم، كما لقب به أي نبيل للفرقة بينه وبين العامة. (أنظر : طقوش محمد سهيل : مرجع سابق، ص 25، هامش 1؛ الموسوعة العربية الميسرة، المرجع السابق، ج2، ص 740؛ ج 4، ص 2163).

³ أبو النصر محمد عبد العظيم : مرجع سابق، ص 53.

⁴ حول تفاصيل المعارك والحروب التي جرت بين الغزنويين والسلاجقة، (أنظر : الأصفهاني : مصدر سابق، ص 6-9؛ الحسيني : مصدر سابق، ص 4-12؛ ابن الأثير : مصدر سابق، ج8، ص 22-26؛ أبو النصر محمد : مرجع سابق، ص 45-52).

⁵ داندانقان : بلدة من نواحي مرو في إقليم خراسان سابقا (تقع حاليا في تركمانستان)، زارها الحموي وقال عنها هي خراب لم يبق منها إلا رباط، ومنارة، وحيطان قائمة، وآثار حسنة تدل أنها كانت مدينة غطتها الرمال، خربها الأتراك الغز. (أنظر : الحموي: مصدر سابق، مج 2، ج 4، ص 317).

⁶ حول معركة داندانقان، (أنظر : البيهقي (ابو الفضل محمد بن حسين (ت 470هـ/1077م)) : تاريخ البيهقي، ترجمه إلى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1956. ص 663-697).

⁷ طقوش : مرجع سابق، ص 29؛ قمعون عاشوري : مرجع سابق، ص 8.

⁸ الشنقيطي محمد بن المختار : مرجع سابق، ص 35.

رقة الدولة الإسلامية على حساب العالم النصراني، وتركت بصماتها واضحة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب خلال العصور الوسطى.

فتحت معركة داندانقان أمام السلاجقة أبواب التوسع، وواصل طغرل بك انتصاراته، فتمكن من ضم جرجان وطبرستان سنة 434هـ/1042م، ثم مدينة الري¹ إلى سلطته، واتخذها عاصمة له.² وفي سنة 440هـ/1048م، وصلت جماعات وفيرة العدد منهم إلى حدود الإمبراطورية البيزنطية، واتخذت حربهم طابع الجهاد الديني، كما استولوا على أصفهان³ في عام 442هـ/1050م، وبعد أربعة أعوام ضموا إليهم إقليم أذربيجان.⁴ ثم سار طغرل بك سنة 446هـ/1054م، إلى أرمينيا وحاصر مدينة مناظر (Mantzikert).⁵ وقام بعدة غزوات في الأناضول، ووصل إلى أرزن الروم.⁶ وبحلول فصل الشتاء عاد إلى أذربيجان.⁷ وتعتبر هذه الحملات المبكرة من المحاولات الأولى للسلاجقة لاكتشاف أرمينيا وبلاد الروم.

¹ الري (Ray) : مدينة قديمة تقع حاليا قرب طهران في إيران، وهي ثاني مدينة عباسية بعد بغداد، وكان يقال لها الحمدية، نسبة إلى محمد، وهو المهدي الخليفة العباسي الذي نزلها في خلافة أبيه المنصور، وبنى أكثر مدينة الري، وبها ولد ابنه هارون الرشيد. اتخذها البويهيون عاصمة لهم، ثم استولى عليها السلاجقة. (أنظر : لسترنج كي : مرجع سابق، ص 249-251).

² الراوندي : مصدر سابق، ص 168؛ ابن العربي : تاريخ مختصر الدول، ص 184؛ شبارو عصام : مرجع سابق، ص 21.

³ أصفهان : وتكتب أصفهان وأسباهان، تقع حاليا في إيران، فتحها المسلمون سنة 18هـ، وتوالى على حكمها السامانيون، والبويهيون، والغزنويون، والسلاجقة، والمغول، واتخذها الصفويون عاصمة لهم، تشتهر بمعالمها التاريخية والأثرية. (أنظر : الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ج 1، ص 318).

⁴ طقوش : مرجع سابق، ص 31؛ أبو النصر محمد عبد العظيم : مرجع سابق، ص 56-58؛

Grousset : L' empire des steppes, p. 202.

⁵ مناظر (Manazkert) : وردت بعدة صيغ منها ملازكرد، ومنازجزد، ومنزكرت، وملاسكرد، وأهلها يقولون مانتزكرد (Mantzikert)، مدينة مشهورة في أرمينيا الكبرى، تقع بين خلاط وبلاد الروم، وكانت من أقوى الحصون البيزنطية في الأناضول، إضافة إلى كونها مركزا تجاريا هاما. تقع حاليا في تركيا وتعرف باسم Malazgirt شهدت المدينة إحدى أهم المعارك في التاريخ الإسلامي والمعروفة بمعركة مناظر بين السلطان السلجوقي ألب أرسلان والإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجين عام 463هـ/1071م، انتهت بانتصار السلاجقة، وأسر الإمبراطور البيزنطي، وانتشار الإسلام في آسيا الصغرى (تركيا حاليا)، وتراجع البيزنطيين غربا بعيدا عن بلاد الشام، وإقليم الثغور. (انظر : الحموي : مصدر سابق، ج 8، ص 323؛ لسترنج كي : مرجع سابق، ص 148).

⁶ أرزن الروم : هي ارزروم، سماها العرب أرزن الروم أو أرض روم، وقد عرفها الأرمن باسم كرن Karin، والروم باسم Théodosiopolis تميزت بحصنها المنيع وبكثرة كنائسها، فتحها المسلمون خلال القرن الأول الهجري، ثم خربها قسطنطين الخامس فأعاد المسلمون بناءها، واستولى عليها البيزنطيون في القرن 10م، ثم دخلها السلاجقة في القرن 11م. تقع حاليا في شمال شرق تركيا وتعرف باسم Erzurum. (أنظر : لسترنج كي : مرجع سابق، ص 144، 149-150).

⁷ ابن الأثير مصدر سابق، ج 8، ص 67؛ ابن العربي : مصدر سابق، ص 98؛ Seydi Süleyman : op. cit., p. 40.

2- علاقة السلاجقة بالقوى الإسلامية في المشرق

أ - علاقة السلاجقة بالخلافة العباسية

وفي هذه الظروف كانت الخلافة العباسية في عهد الخليفة القائم بأمر الله (422-467هـ/1031-1075م)، تعيش أتعس أيامها، بسبب تسلط البويهيين الشيعة عليها، وسيطرة البساسيري¹ على بغداد وما جاورها، فغدت المدينة مسرحا للشغب والمنازعات المذهبية والأسرية، وانعدم فيها الأمن، كما أن النفوذ الفاطمي أخذ يتسلل إلى العراق، "وأدَّت الرافضة بحجٍّ على خير العمل، وضعف أمر القائم بأمر الله"². وأدرك الخليفة العباسي أن الدولة البويهية عاجزة عن ضبط الأمور في العراق، ورأى بأن مصلحته تفرض عليه الاتصال بالسلاجقة لأنهم يمثلون القوة الغالبة،³ وهم على المذهب السني، وقد أعلنوا احترامهم وولاءهم للخلافة،⁴

¹ البساسيري : هو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري التركي، وقيل أبو منصور البساسيري مقدم الأتراك ببغداد، وهو ينتسب إلى بساسير، وقيل بسا، بلدة من بلاد فارس. كان البساسيري في بداية حياته مولى لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي، ثم تقلبت به الأحوال حتى ملكه الأمير البويهي بهاء الدولة فيروز (388-403هـ/998-1012م)، حيث بدأ حياته كعبد عسكري في خدمة البويهيين، وتدرجت به المناصب حتى أصبح من كبار قادة الجند بمدينة بغداد، فعظم شأنه، وقويت شوكته، فتهيبه أمراء العرب والعجم، فجنى الأموال، وخرب الضياع. وكان مقدما عند الخليفة القائم بأمر الله، لا يقطع أمرا دونه، ثم طغا وتمرد وخرج على الخليفة، فكتب الفاطميون، وعمل على قلب نظام الحكم في بغداد لصالح الدولة الفاطمية، ونجح في الاستيلاء على بغداد، وإقامة الخطبة بها للمستنصر الفاطمي لمدة عام، وعزم على ترحيل الخليفة إلى مصر وأرغم الخليفة القائم بأمر الله العباسي على كتابة كتاب يعترف فيه بعدم أحقية بني العباس في الخلافة الإسلامية مع وجود بني فاطمة الزهراء عليها السلام، وأرسل الكتاب إلى المستنصر في مصر وظل محفوظا لدى الفاطميين إلى أن أعاده صلاح الدين إلى العباسيين فور استيلائه على مقاليد الحكم في مصر بعد ذلك بنحو مائة عام، وبقيت فنتته قائمة في بغداد إلى أن قضى عليه طغرل بك سنة 451هـ/1059م. (أنظر : الحسيني : مصدر سابق، ص 18؛ ابن العربي : تاريخ مختصر الدول، ص 184؛ أبو النصر محمد عبد العظيم : مرجع سابق، ص 62، هامش رقم 2).

² الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ)) : دول الإسلام، حققه حسن إسماعيل مروة، دار صادر، بيروت، 1999. ج 1، ص 386.

³ طقوش : مرجع سابق، ص 33؛ السرجاني راغب : مرجع سابق، ص 29؛ قمعون عاشوري : مرجع سابق، ص 14.

⁴ سبق وأن كتب السلاجقة سنة 432هـ/1042م، رسالة إلى الخليفة العباسي يلتمسون فيها عطفه ويعترفون بحالهم، قائلين له : "إننا معشر آل سلجوق قوم أطعنا دائما الحضرة النبوية المقدسة، وأحييناها من صميم قلوبنا، ولقد اجتهدنا دائما في غزو الكفار، وإعلان الجهاد ... ونحن نرجو أن نكون في هذا الأمر قد نفعنا وفقا لتعاليم الدين ولأمر أمير المؤمنين". "وأرسل طغرل بك رسولا إلى الخليفة يبالغ في إظهار الطاعة والعبودية ... وتوالت الرسائل والمخاطبات بين الطرفين في عدة مناسبات، والحقيقة أن السلاجقة كانوا يسعون للحصول على الاعتراف الشرعي بدولتهم. (انظر : الراوندي : مصدر سابق، ص 166؛ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 71؛ أبو النصر محمد عبد العظيم : مرجع سابق، ص 54-55؛ عودات أحمد عبد الله : مرجع سابق، ص 55-57، 64-69).

فاستغاث بهم.¹ وانتهر طغرل بك هذه الفرصة، وسار بجيوشه إلى بغداد التي دخلها في عام 447هـ/1055م،² فأصدر الخليفة أوامره إلى الأئمة بالخطبة لطغرل بك بجوامع بغداد.³ ثم استقبله استقبال الفاتحين سنة 449هـ/1058م، قائلا له : "إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك حامد لفعلك مستأنس بقربك وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده ورد عليك مراعاة عبادته..." وخاطبه الخليفة "بملك المشرق والمغرب..."⁴. وبذلك نال اعتراف الخليفة به سلطانا على جميع المناطق التي تحت يده.⁵ ونال السلاجقة الشرعية التي كانوا يطمحون إليها، كما حصلوا أيضا على الزعامة السياسية والدينية، واحتفظ الخليفة بالزعامة الروحية.⁶ ولذلك يعتبر طغرل بك هو المؤسس الحقيقي لدولة السلاجقة في إيران، والعراق، واستطاع خلفاؤه أن يقيموا على هذا الأساس بناء شامخا ومجدا عظيما، أخذ يمتد حتى وصل غربا إلى بلاد الروم والبحر المتوسط، وشرقا إلى تخوم الهند والصين.⁷

¹ الحسيني : مصدر سابق، ص 18.

² الذهبي : مصدر سابق، ج 1، ص 384.

³ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 71.

⁴ نفسه.

⁵ بعد أن تمدد السلاجقة في خراسان وإيران وكرمان والعراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى، انقسموا إلى خمسة بيوت حكم، كل بيت ناحية من النواحي. فحكم السلاجقة العظام خراسان والري والجلال والعراق والجزيرة وفارس والأهواز، وحكم سلاجقة كرمان منطقة كرمان، وكان هناك سلاجقة العراق بعد انفصالهم عن السلاجقة العظام، وسلاجقة الشام، وسلاجقة الروم. (انظر : طقوش : مرجع سابق، ص 33؛ شبارو عصام محمد : مرجع سابق، ص 22).

⁶ محمد عمر يحيى : الفتح والتوسع السلجوقي في آسيا الصغرى في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، مجلة جامعة الملك عبد العزيز : الآداب والعلوم الإنسانية، مج 14، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، 2006م/1427هـ. ص 43.

⁷ ماهر سعاد : مرجع سابق، ص 44. ذكر عبد الرحمن بن خلدون في بداية حديثه عن دولة المماليك، أن الأتراك يبدأونهم المفعمة بروح البطولة، وروحهم العسكرية، أنقذوا العالم الاسلامي من الصليبيين أولا، ومن المغول فيما بعد، ويعتبر أن اختراق الأتراك لقلب العالم الإسلامي، وهيمتهم السياسية والعسكرية على زمام الأمر فيه، عناية إلهية، ولطفا ربانيا، جاء في وقته لصيانة وحفظ الملة الاسلامية، ومسح الغبار الذي اعتلى وجه الدولة الاسلامية، بعد أن أفسدتها الحضارة، فهو يقول : "فكان من لطف الله سبحانه أن تدارك الإيمان بإحياء رmqه وتلافي شمل المسلمين بالديار المصرية بحفظ نظامه، وحماية سياجه بأن بعث لهم من هذه الطائفة التركية وقبائلها العزيزة المتوافرة أمراء حامية وأنصارا متوافية..." (انظر : ابن خلدون : مصدر سابق، ج 10، ص 802).

ودعم السلاجقة سلطتهم السياسية برابطة اجتماعية قوية مع الخلافة العباسية، فتقدم السلطان طغرل بك لخطبة ابنة الخليفة القائم بأمر الله، وهو أمر غير مسبوق.¹ إذ لم يتقدم أمير أعجمي لمصاهرة البيت العباسي من قبل، فانزعج الخليفة لهذا الطلب وامتنع في البداية، ولكن عوامل الضعف والخوف جعلته يوافق مضطراً على هذه المصاهرة،² وتم الزواج سنة 455هـ/1063م.³ وكانت هذه المصاهرة صفقة تهدف إلى تحقيق مآرب سياسية بحتة،⁴ تجعلها بعيدة عن أن تكون زواجا خالصا، لأن طغرل بك كان عقيما، بالإضافة إلى عمره الذي قارب السبعين عاما، كما أنه وقت الزواج كان عليلا، فلم ينعم السلطان بعروسه الهاشمية، ولم يترك ولدا وراءه يخلفه في السلطنة.⁵

وقد ترتب عن هذا التقارب العباسي-السلجوقي، أن بدا التيار السني جارفا في العالم الإسلامي، على يد الأتراك السلاجقة،⁶ الذين أنقذوا الخلافة العباسية بعد أن أوشكت على الانهيار أمام النفوذ البويعي الشيعي في إيران والعراق، والنفوذ الفاطمي في مصر والشام.⁷ وبما أنهم أصبحوا حماة للدولة العباسية، فقد وجدوا أنفسهم يخوضون صراعا عسكريا، وفكريا ضد الدولة الفاطمية التي كان نشاطها موجها لتحقيق هدف واحد هو الإطاحة بالخلافة العباسية.⁸

ب - علاقة السلاجقة بالدولة الفاطمية

وبعد أن أمسك السلاجقة بزمام الأمور في بغداد، ورثوا عن العباسيين الصراع المذهبي الذي كان بينهم وبين الفاطميين، واتخذ ذلك الصراع طابع الحرب الباردة. فاستغلت الدولة الفاطمية ضعف الخليفة في بغداد وعملت على تصدير مذهبها إلى العراق والشام وإفريقية، ولكن الخلافة

¹ محمد عمر يحيى : مرجع سابق، ص 46.

² ابن العبري : مصدر سابق، ص 105؛ أبو النصر محمد عبد العظيم : مرجع سابق، ص 76-77.

³ ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 16، ص 65، 75؛ الحسيني : مصدر سابق، ص 21؛ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 94.

⁴ هي ليست أول مصاهرة بين البيت العباسي والبيت السلجوقي، حيث سبق وأن تزوج الخليفة القائم بأمر الله بخديجة بنت أخي السلطان طغرل بك سنة 448 هـ (انظر : ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 16، ص 4).

⁵ أبو النصر محمد عبد العظيم : مرجع سابق، ص 77.

⁶ سيد أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر : تفسير جديد، الدار المصرية اللبنانية، ط 2، القاهرة، 2000. ص 195.

⁷ الصلابي علي محمد : مرجع سابق، ص 53.

⁸ سيد أيمن فؤاد : مرجع سابق، ص 185.

العباسية تصدت لها بالتحالف مع الأتراك السلاجقة، الذين أخذوا على عاتقهم مواجهة المد الشيعي في العالم الاسلامي.

والحقيقة أن الدولة الفاطمية كانت تعمل على تقويض أركان الخلافة العباسية بمختلف الوسائل، فلجأ حاكمها الظاهر¹ إلى محاصرتها عن طريق تحسين علاقته مع البيزنطيين، فأبرم معهم هدنة في سنة 418هـ/1027م، نصت على تموين الإمبراطورية البيزنطية لمصر بكميات معتبرة من القمح، وإقامة الخطبة له بجامع القسطنطينية مقابل أن يعيد فتح كنيسة القيامة في بيت المقدس، وترميمها، وأن يسمح للنصارى بفتح جميع كنائسهم.² ثم وقّعت اتفاقية أخرى بين الجانبين في سنة 427هـ/1036م، لمدة عشر سنوات،³ وفي 439هـ/1047م، «تجددت الهدنة بين صاحب مصر وبين الروم وحمل كل واحد منهما لصاحبه هدية عظيمة».⁴ وكان الهدف من تجديدها، تأمين جانب البيزنطيين حتى يتفرغ الفاطميون لمواجهة الدولة العباسية في المشرق،⁵ والمعز بن باديس الصنهاجي في المغرب، الذي شق عصا الطاعة على الفاطميين في افريقية «وأرسل رسولا إلى بغداد ليقيم الدعوة العباسية».⁶ وكان البيزنطيون من جهتهم يريدون التفرغ للسلاجقة الذين زادوا من حملاتهم على الأقاليم الشرقية، ولما عجزوا عن مواجهتهم عسكريا، جنحوا للسلم سنة 441هـ/1050م.⁷

¹ الظاهر (411-427هـ/1021-1036م) : هو أبو هاشم علي، الملقب بالظاهر لإعزاز دين الله، ابن الحاكم بن العزيز بن المعز ابن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله، كانت ولايته بعد وفاة أبيه في سنة 411هـ/1021م، وله من العمر ست عشرة سنة، وقد كان على عكسه والده، بعيدا عن الاشتغال بشؤون الدولة، وانشغل بئرّه وهو حيث أكثر من الخروج للنزهة، كما كان محبا لسماع الغناء، مما جعله ينقض الإجراءات التي اتخذها والده. فترخص في شرب الخمر، واذن للنصارى واليهود الذين تظاهروا بالاسلام في خلافة والده بالارتداد إلى دينهم رغم مخالفة ذلك للشرعية الاسلامية. اشتهر بسياسة التقارب مع الدولة البيزنطية. (انظر : المقرئزي (تقي الدين أحمد بن علي) : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق د. محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1971. ج 2، ص 124-183؛ سيد أيمن فؤاد : مرجع سابق، ص 183).

² المقرئزي : اتعاظ الحنفا، ج 2، ص 176؛ سيد أيمن فؤاد : مرجع سابق، ص 186.

³ المصدر السابق، ج 2، ص 182.

⁴ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 46.

⁵ سيد أيمن فؤاد : مرجع سابق، ص 186.

⁶ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 55؛ المقرئزي : اتعاظ الحنفا، ج 2، ص 214.

⁷ ابن الأثير : المصدر السابق، ج 8، ص 52.

أما العباسيون فقد كانوا يبحثون عن فرصة لفرض حصار على الدولة العبيدية، تمهيداً للقضاء عليها. فاستعانوا بالسلاجقة الذين تمكنوا من بسط نفوذهم على بيت المقدس في سنة 463هـ/1071م، وبعد أربع سنوات ضموا إليهم مدينة دمشق، ثم تطلعوا إلى مصر. فبفضلهم عاد النفوذ السني إلى الشام، ووضعوا حداً لأحلام الفاطميين وطموحاتهم، وقلصوا مساحة دولتهم، وأجهضوا مشروعهم الرامي إلى الإطاحة بالخلافة العباسية. ومنذ ذلك الوقت باتت الدولة الفاطمية مثل غيرها من الدول والأسرات الحاكمة آنذاك، تواجه التهديد المتنامي لقوة الأتراك السلاجقة الذين أخذوا في التقدم السريع من الشرق،¹ لحماية العالم الإسلامي من "الصحوة البيزنطية"، وحماية أهل السنة من كيد الشيعة.

ولم يعتمد السلاجقة في حربهم ضد الفاطميين على المواجهة العسكرية فحسب، بل واجهوهم سياسياً وفكرياً أيضاً. فبعد أن أمسكوا بزمام الأمور في بغداد، تعقبوا دعاة الإسماعيلية² الذين قاموا بنشر الدعوة الفاطمية في بلاد فارس، كما قاموا بإقصاء الموظفين المتشيعين للمذهب الإسماعيلي الذين كانوا يشرفون على دواوين الحكومة والوظائف الدينية.³

ولما أدرك الوزير نظام الملك⁴ الخطر الذي يتهدد الخلافة العباسية من زيادة النشاط الدعوي لطوائف الشيعة في كسب أعداد كبيرة من عامة الناس، لجأ إلى محاربتهم فكرياً وتربوياً عن طريق

¹ الذهبي : مصدر سابق، ج 1، ص 403؛ سيد أيمى فؤاد : مرجع سابق، ص 189.

² فرقة من الشيعة الباطنية تنسب إلى إسماعيل الابن الأكبر للإمام جعفر الصادق سادس أئمة الإمامية والذي جعلوا له الإمامة بعد وفاة أبيه. وقامت هذه الفرقة الشيعية المتطرفة بدور خطير في تاريخ الحركة الصليبية، عن طريق الاغتيالات والإستيلاء على القلاع والأماكن الحصينة، والتحالف مع الصليبيين ... (انظر : الصلابي : مرجع سابق، ص 110-130؛ الشنقيطي محمد بن المختار : مرجع سابق، ص 187-234).

³ الصلابي : مرجع سابق، ص 73.

⁴ نظام الملك الطوسي : هو قوام الدين أبو علي الحسين بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي، وهو من أعظم الرجال الذين تولوا الوزارة في عهد السلاجقة قاطبة، بل وأعظم وزراء الشرق في عصره. كان وزيراً لألب أرسلان، وابنه ملكشاه، وإضافة إلى نشاطه السياسي والإداري، كان محباً للعلم والأدب راعياً لهما، وإليه تنسب المدارس النظامية، حيث جذب إليها كبار العلماء وأجرى لهم الرواتب، وترك كتاب "سياسة نامه" (سير الملوك)، وهو يضم عصارة أفكاره، وتجاربه في أواخر حياته، وقد حذر فيه السلاطين السلاجقة من مخاطر الوقوع في حبال الإسماعيليين، أو السماح لهم باختراق بنية الدولة. فقد كان لنظام الملك اختياراته المذهبية والكلامية ضمن الدائرة السنية الواسعة. فانحاز غالباً للأشاعرة والشافعية ضد الحنابلة وأهل الأثر، لكنه سعى إلى تدعيم الفكر السني بشكل عام، وصاغ من ذلك سياسة متماسكة وفعالة. ولم يغفر الإسماعيليون لنظام الملك ذلك موقفه منهم، فكان أول ضحايا الاغتيالات السياسية التي نفذها فدائيوهم في سنة 485هـ/1092م. (انظر : أبو النصر محمد عبد العظيم : مرجع سابق، ص 21؛ الصلابي : مرجع سابق، ص 134-143؛

Hillenbrand R. : *Seldjukids*, in : **Enc. Isl.**, E. J. Brill, Leiden, 1995. t. VIII, pp. 936-964).

تأسيس عدد من دور الثقافة والتعليم في أماكن متعددة من ديار الإسلام، وكان نظام الملك مدفوعاً بدافع التنافس مع جامعات ومدارس الدولة الفاطمية في مصر، خصوصاً مؤسسة الأزهر في القاهرة.¹ ومن أشهر ما أنجزه هذا الوزير السلجوقي، المؤسسات التي عرفت بالمدارس النظامية التي بدأها في عام 459هـ-1066م،² وقد كان الهدف منها، تخريج العديد من المؤهلين الذين يتولون الوظائف العامة المختلفة، وإدارة الشؤون الإدارية والثقافية والدينية في الدولة الإسلامية، ممن تشربوا مبادئ الإسلام الصافية واتضحت أمامهم أهمية مؤسسة الخلافة وخطورتها وضرورة الوقوف بحزم للدفاع عنها، والتصدي لحركات التشيع التي ظهرت بأساليب وأسماء مختلفة. فضلاً عن نشر المذهب السني ومناهضة المذهب الشيعي، ونشر الوعي والثقافة الإسلامية الصحيحة لتحسين الفرد ضد الأفكار التي تدعو إليها فرق الشيعة.³

ومن العوامل التي ساعدت السلاجقة على محاربة أفكار الشيعة، وجعلتهم يتولون حركة الإحياء السني، أن مذهب المعتزلة الذي ازدهر في عصر الخليفة العباسي المأمون، والذي تطور في العصر العباسي الثاني، قد أخذ في الضعف في نهاية القرن الرابع الهجري، بفضل أئمة الدين، وعلى رأسهم أبو الحسن الأشعري⁴ الذي حمل على آراء المعتزلة وحاربهم حرباً شعواء ووافق أهل السنة في كثير مما ذهبوا إليه.⁵ وللاترك مسؤولية كبيرة في هذا التحول؛ لأن طبيعة عامتهم لا تقبل الجدل الكلامي، ولا كثرة المذاهب الدينية. فالأترك في جميع عصورهم قل من اعتنق منهم مذهباً في الأصول غير مذهب أهل السنة وفي الفروع غير مذهب أبي حنيفة، وقل ما حدث بين علمائهم خصومة في

¹ الشنقيطي محمد بن المختار : مرجع سابق، ص 68، 101.

² الصلابي : مرجع سابق، ص 130؛ سيد أيمن فؤاد : مرجع سابق، ص 196.

³ البسام هيفاء عبد الله العلي : "الوزير السلجوقي نظام الملك"، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، إشراف د. حسام الدين السامرائي، الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز، السنة الجامعية 1979-1980. ص 144؛ ماهر سعاد : مرجع سابق، ص 50.

⁴ أنظر آراء المعتزلة والأشعرية في : الشهرستاني : مصدر سابق، ص 33-62، 75-83؛ أحمد أمين : ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، ط 10، بيروت، (د. ت.). ج 3، 21-207؛ أحمد أمين : ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، ط 5، بيروت، 1969. ج 1، ص 39-42، 221-222.

⁵ ماهر سعاد : مرجع سابق، ص 47؛ سيد أيمن فؤاد : مرجع سابق، ص 195.

المذاهب.¹ وأمام النجاح الذي حققته تلك المدارس، لجأ الشيعة إلى العنف، فكان الوزير نظام الملك هدفا لهم، حيث تم اغتياله على يد الاسماعيلية سنة 485هـ/1092م.

ويظهر جليا من الأحداث السابقة، أن العالم الإسلامي كان يمر بفترة حرجة عندما اعتنق السلاجقة الإسلام، ليس بسبب ضعف الخلافة العباسية فحسب، بل لنهضة الإمبراطورية البيزنطية في عهد الأسرة المقدونية التي تمكن قادتها من دحر المسلمين إلى ما وراء الثغور، واقتطاع أجزاء كبيرة من أطراف الجزيرة والشام. وبظهور السلاجقة على مسرح الأحداث، وحصولهم على الشرعية من بغداد، انتهى العهد الذي كانت فيه بيزنطة وحليفاتها الدولة الفاطمية يجدان على حدودهما دولة إسلامية ضعيفة، تعاني من الانقسام المذهبي والسياسي، بل وجدت أمامهما قوة إسلامية جديدة جارفة، استطاعت تجديد شباب الدولة الإسلامية وحمايتها من الأخطار التي كانت تحيط بها، وأهمها الخطر البيزنطي الذي كان يترص بها في هذه الفترة، وتلقت منها الإمبراطورية أول ضربة خطيرة.² وقد كان أحفاد سلجوق أشد دفاعا عن الإسلام وعن أهل السنة من العباسيين أنفسهم، كما كانوا حماة غيورين على المذهب الحنفي،³ ولم يكتفوا بإعلاء كلمة الدين داخل حدود البلاد الإسلامية، بل كان عليهم أن يوسعوا حدود ديار الإسلام، وخاصة في غرب آسيا، حيث كان عليهم أن يخوضوا حربا ضروسا ضد المسيحيين الأرمن والبيزنطيين في الأناضول.

3- التوسع السلجوقي في أرمينيا الكبرى

إذا كان البيزنطيون قد استعادوا بعض الأراضي من المسلمين، مستغلين في ذلك ضعف الخلافة العباسية، والانقسام السياسي والمذهبي، فإن ما فقدته الإمبراطورية البيزنطية من أقاليم على أيدي السلاجقة منذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي لن تستطيع استعادتها. وبدخول السلاجقة إلى

¹ أحمد أمين : ظهر الإسلام، ج 1، ص 41.

² محمد عمر يحيى : مرجع سابق، ص 43؛ قمعون عاشوري : مرجع سابق، ص 19؛

Diehl Charles : Byzance grandeur et décadence, Ernest Flammarion éditeur, Paris 1920. p. 237.

³ بارتولد فاسيلي فلاديميروفيتش : تاريخ الترك، ص 127.

العراق، أصبحوا يقيمون على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، فتطلعوا إلى انتزاع أرمينيا منها، ثم التوغل إلى أعماق آسيا الصغرى، مدفوعين بمجموعة من الأسباب،¹ منها :

1 - سبب ديني، يتمثل في رغبة السلاجقة في نشر الإسلام بين جيرانهم النصارى، من الأرمن والبيزنطيين، ومواصلة فريضة الجهاد والفتح، التي قام بها المسلمون سابقا، وهذا ما أعطى حروبهم طابعا مقدسا، وزاد من مهابتهم في أعين المسلمين جميعا.² والحقيقة أن ما قام به السلاجقة في بلاد الروم ما هو إلا حلقة جديدة من حلقات الفتوحات الإسلامية التي توقفت منذ نهاية العهد الأموي، فجدها الأتراك السلاجقة، الذين أحيوا روح الجهاد والحماس، وأعادوا للمسلمين انتصاراتهم وتفوقهم على أعدائهم.

2 - سبب اقتصادي، ويتمثل في البحث عن أراضٍ جديدة تكفي الأعداد الكبيرة من قبائل التركمان³ التي هاجرت من مواطنها الأصلية في تركستان، واستقرت في إيران والعراق، بعد تأسيس السلطنة السلجوقية. وكان هؤلاء التركمان من أشد العناصر خطورة على أمن الدولة ونظامها، لأنهم دأبوا على التمرد والثورة، وبما أنهم قدموا بأعداد كبيرة، فلا بد من إيجاد أراضٍ تأويهم، وتؤمن لهم موارد الغذاء حتى لا يجتاحوا الأراضي الإسلامية.⁴ وجاء على لسان إبراهيم ينال،⁵ مخاطبا إياهم :

¹ طقوش : مرجع سابق، ص 35.

² Cahen Claude : Orient et Occident au temps des croisades, Aubier Montaigne, Paris, 1983. p. 22

³ التركمان : أو القبائل التركمانية، إسم لازم تاريخيا لمجموعتين شهيرتين من القبائل التركية هما قبائل الغز، وكذلك القارلوق، وكلمة تركمان مجهولة الأصل والمنشأ، ويقال أنها ذات أصل فارسي، ويكاد ينحصر مفهوم هذه الكلمة على مجموعات الأتراك الذين لا يزالون يعيشون في تشكيلات بدوية أو ريفية، وعادة لم يكونوا خاضعين لأي سلطة سياسية. (أنظر : تركماني أسامة أحمد : مرجع سابق، ص 62-63؛

Kellner-Heinkele Barbara : Turkman, in. **Enc. Isl.**, Brill, Leiden, 2000. t. X, pp.682-685.)

⁴ عطا زبيدة : الترك في العصور الوسطى بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون، دار الفكر العربي، (د. م)، (د. ت)، ص 45؛ Michel le Syrien : op. cit. t. III, p. 155.

⁵ هو أخ السلطان طغرل بك غير الشقيق، وقد ولي على خراسان الغربية (1040-1049)، ثم على أذربيجان (1049-1059) وقد نازع طغرل بك على العرش إلا أنه قتل مع ابني أخيه الملك أحمد والملك محمد في ري (23 جوان 1059). (أنظر : أوزطونا يلماز : مرجع سابق، ص 260).

"بلا دي تضيق عن مقامكم والقيام بما تحتاجون إليه، والرأي أن تمضوا إلى غزو الروم وتجاهدوا في سبيل الله وتغنموا وأنا سائر على أترككم ومساعد لكم على أمركم"¹.

3 - سبب سياسي، وهو إعادة أرمينيا إلى حظيرة المسلمين بعد أن تنازل آخر ملك أرميني، وهو جاجيك الثاني (Gagik II)² عن أملاكه للبيزنطيين، الذين دخلوا العاصمة آني سنة 437هـ/1045م. ولأن أرمينيا كانت جزءاً من دار الإسلام، واكتسب فيها المسلمون حقوقاً، وكان لملوكها علاقات مع الخلافة الإسلامية، فلا ينبغي التفريط فيها، ولا بد من فك الطوق البيزنطي الذي اشتد حول المسلمين³ بعد أن حل السلاجقة محل العباسيين في الذود عن دار الإسلام.

وتعود المحاولات الأولى لتوغل السلاجقة في إقليم أرمينيا إلى العقد الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، حيث قام الأمير السلجوقي جغري بك (Çağrı Bey)⁴ بعدة حملات على أرمينيا الكبرى، وتمكن من الانتصار على جيش يوحنا سنحاريب ملك الفاسبوراكان وهزم جيش سمباد الثالث ملك البجراطين، ثم دخل منطقة أيبيريا (Iberia)،⁵ فانسحبت القوات الأيبيرية من أمامه، مما شجعه على التوغل أكثر فأكثر في الجهات الشمالية الشرقية من آسيا الصغرى، ثم قفل راجعاً إلى بلاد ما وراء النهر، ولم يستقر في المناطق التي دخلها. وقد أبدى رماة السهام الأتراك مهارة كبيرة في

¹ ابن الأثير : المصدر السابق، ج 8، ص 48.

² جاجيك الثاني : ملك أرمينيا بين 1041-1045م، ينتمي إلى الأسرة البجراطية، ألقى عليه القبض من طرف البيزنطيين ثم سجن وأعدم شنقاً في سنة 1073م، فكان آخر ملوك البجراطين. (انظر : Garsoïn Nina : Le royaume du Nord, ds. : H. P. Arm., p. 266-270).

³ طقوش : مرجع سابق، ص 37.

⁴ جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق هو أخ السلطان طغرل بك، وهو لفظ تركي معناه اللامع أو المتألق، وتوفي سنة 1059م. (انظر : أبو النصر محمد عبد العظيم : مرجع سابق، ص 45).

⁵ أيبيريا : تقع شمال أرمينيا يحدها من الغرب البحر الأسود ومن الشرق بحر قزوين، وتشكل جزءاً من جورجيا الحالية جهة الشرق. وأطلق هذا الاسم على جورجيا كلها في عصر ما قبل الميلاد نسبة إلى اللغة التي تكلم بها السكان وهب اللغة الأيبيرية القوقازية التي ما تزال أصولها غير معروفة، وهي تسمى ذات أصل يوناني. (انظر : اللهبي فتحي سالم : مملكة جورجيا في العصور الوسطى، دار غيداء، عمان، 2015، ص 28).

استخدام سلاحهم، وإليهم يعود الفضل في تحقيق هذا الانتصار على الأرمن.¹ "وهي المرة الأولى التي يرى فيها الأرمن فرسان الأتراك، بهيئتهم الغريبة، مسلحين بالأقواس، وشعرهم يتدلى على أكتافهم مثل النساء..."²

ويبدو أن هذه الحملات التي سبقت تأسيس السلطنة السلجوقية، كان هدفها الاستكشاف والاستطلاع تمهيدا للقيام بحملة عسكرية واسعة، أو بحثا عن أراضٍ جديدة تصلح لانتقال السلاجقة إليها. وقد شجعتهم هذه الحملات الناجحة، على تنظيم حملات أخرى على أرمينيا، فتيقن ملوك الأرمن أنهم أمام قوة لا قبل لهم بها. فتنزلوا عن أملاكهم للإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني،³ آمليين أن تتولى الدولة البيزنطية الدفاع عنها ضد السلاجقة.⁴

ورغم ضم أرمينيا إلى الإمبراطورية البيزنطية سنة 437هـ/1045م، فإن ذلك لم يمنع السلاجقة من مواصلة هجماتهم على إقليم فاسبوراكان، حيث قام الأمير قتلмыш (Koutoulmisch)⁵ بتنظيم حملة حوالي سنة 438هـ/1046م، ولم يجد صعوبة في الانتصار على الحاكم البيزنطي، ما دفعه إلى القول: "إن هذه البلاد يحكمها النساء".⁶ ولما عاد إلى السلطان طغرل بك صور له إقليم

¹ إبراهيم نعيمة محمد : آسيا الصغرى والحروب الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2014. ص 22؛ Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 40-41; Laurent J. : Byzance et les Turcs Seldjoudides dans l'Asie occidentale jusqu'en 1081, Berger-Levrault éditeurs, Paris, 1914. pp. 21-22.

² Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 41.

³ أنظر ما قبل : ص 80-88.

⁴ Laurent J. : op. cit., p. 21.

⁵ قتلмыш بن إسرائيل بن سلجوق : هو ابن عم طغرل بك، انشق على حكم السلطان طغرل بك في أواخر عهده، ونزح إلى المنطقة الجبلية الواقعة جنوبي بحر قزوين ومعه بعض التركمان، ولم يلبث قتلмыш أن أعلن الثورة على الب أرسلان بعد أن خلف طغرل بك، لكن الب أرسلان تغلب عليه وقتله سنة 456هـ/1063م. واختار أبناء قتلмыш -ومع كل منهم عصبية من التركمان- أن يحتضروا ببال آسيا الصغرى وفيافيها، وقد ظهر من هؤلاء الأبناء سليمان بن قتلмыш الذي أخذ يعمل على التوسع في آسيا الصغرى، فبسط نفوذ السلاجقة على ثلاثة أرباعها تقريبا. (أنظر : ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 98؛ ابن خلدون : مصدر سابق، ج 6، ص 972؛ شبارو عصام محمد : مرجع سابق، ص 29).

⁶ Cedrenus : Historiarum Compendium, p. 571. نقلا عن : إبراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 34-35؛ Arisdaguès de Lasdiverd : op. cit., pp. 72-78.

فاسبوراكان مثل جنات الخلد، بما يحتويه من أراض غنية وخصبة، خاصة وأن الدفاع العسكري شبه منعدم.¹

وأخطر الحملات السلجوقية على إقليم أرمينيا، كانت في عهد الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس، حيث بدأ التهديد الفعلي الذي انتهى بفتح السلاجقة القسم الأكبر من آسيا الصغرى،² وأضحت القوة المتنامية للسلاجقة مصدر قلق للبيزنطيين.³

أ - فتوحات طغرل بك

اشتد الضغط السلجوقي أكثر على إقليم أرمينيا فيما بين 439 و 441هـ/1047 و 1049م، حيث أرسل طغرل بك أحد قادته وهو الأمير حسن على رأس جيش عدته عشرون ألف فارس لفتح آسيا الصغرى، ولكنه انهزم وقتل في الكمين الذي نصبه له البيزنطيون.⁴ وفي سنة 440هـ/1049م، أرسل أخاه إبراهيم ينال على رأس عدد كبير من الغز لفتح بلاد الروم، "فوصلوا إلى منازل كرد وأرزن الروم، وقاليقلا وبلغوا طرابزون وتلك النواحي كلها... إلى أن بقي بينه وبين القسطنطينية مسيرة خمسة عشر يوما"،⁵ وأثناء عبوره أراضي أرمينيا، اتجه إلى مدينة أرزن (Ardzen) فحاصرها مدة، "ثم تسلل جنوده إلى داخلها، وحصدوا كل شيء اعترض طريقهم كرجال الحصاد الذين يحصدون حقولهم، لدرجة أن أرزن أصبحت صحراء خاوية".⁶ فتحالف حكام تلك الجهات من البيزنطيين، بما فيهم الأمير الجيورجي لياريت أوربيليان (Liparit Orbélian)، وتصدوا لهم بكل ما يملكون من قوة، وكانت الحرب بينهم سجالا، وكان الظفر في آخر الأمر للسلاجقة، الذين غنموا كثيرا، وأسروا الأمير

¹ Grousset René : Histoire de l'Arménie, p. 586.

² طقوش : مرجع سابق، ص 38؛ السرجاني راغب : مرجع سابق، ص 29؛ زرقوق محمد : مرجع سابق، ص 43.

³ الربيعي عبد الله بن عبد الرحمن : موقف الامبراطورية البيزنطية من قادة الحملات الصليبية، مجلة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، ع 36، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، الرياض، شوال 1422 هـ. ص 430.

⁴ قمعون عاشوري : مرجع سابق، ص 22.

⁵ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 48.

⁶ اسكندر فايز نجيب : أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة (1000-1071م/392-463هـ) في مصنف أريستاكيس اللستيفري، المطبعة العصرية، الاسكندرية، 1983. ص 88.

ليباريت نفسه.¹ هذا فضلا عن بعض الحملات التي كانت تقوم بها العصابات وبعض القبائل التركية المستقلة عن سلطة طغرل بك.²

في ظل هذه الظروف التي كان السلاجقة يتسللون فيها إلى أرمينيا، واجهت الإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس، عدة تحديات داخلية وخارجية، منها حملة روسية على مدينة القسطنطينية، وثورتين عسكريتين قام بهما بعض قادة الجيش البيزنطي، واختراق البشناق (Petchenègues)³ حدود الإمبراطورية من جهة نهر الدانوب، وهجمات النورمان في إيطاليا، والشقاق مع البابوية.⁴ وتعتبر ثورة القائد ليو تورنيكيوس (Léon Tornikios)⁵ التي اندلعت خلال شهر سبتمبر 1047م، بأدرينوبل (Adrinople)⁶ من أخطر حركات التمرد التي هددت عرش الإمبراطور. حيث أعلن هذا القائد الثورة ضد الإمبراطور قسطنطين مونوماخوس،

¹ العظيمي : مصدر سابق، ص 338؛ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 48؛

Arisdaguès de Lasdiverd : op. cit., p. 79; Grousset René : Histoire de l'Arménie, pp. 587-590; Laurent J. : Byzance et les Turcs Seldjoudides, p. 22.

² Cahen Claude : La campagne de Mantzikert d'après les sources Musulmanes, Byzantion, t. IX, fascicule 2, Bruxelles, 1934. p. 621.

³ البشناق : ورد هذا المصطلح بعدة صيغ منها البجناك أو البجناك، وهم قبائل تركية ينتسبون إلى زمرة الأوغوز، وقدر عددهم بالملايين. خرجوا من موطنهم في وسط آسيا حوالي منتصف القرن الثاني الميلادي، فرحلوا إلى شمال شرق بحيرة آرال، ثم إلى السواحل الشمالية الشرقية من بحر قزوين، ثم إلى سواحل نهر إيتيل، ثم انتقلوا إلى ضفاف نهر الدون. وقد خضعوا مدة طويلة للخرز، ثم أسسوا سنة 950م اتحادا قويا يضم عدة قبائل تركية، وأسسوا دولتهم العظمى في أوروبا الشرقية بين نهر أورال وجبال كريات، هاجموا الجيش الروسي وهزموه سنة 972م، وظلوا يشكلون خطرا قائما على حدود الإمبراطورية البيزنطية. (انظر : قسطنطين بروفيروجنيتوس: مصدر سابق، ص 136-139؛ أوزطونا يلماز : مرجع سابق، ص 226-229).

⁴ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 89; Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 243.

⁵ ليون تورنيكيوس : هو قائد الفرقة المقدونية في الجيش البيزنطي، وتعود أصوله إلى الأسرة الملكية البجراية الأرمينية. اكتسب شعبية واسعة وسط العسكريين والمدنيين في مقر إقامته بأدرينوبل. عينه قسطنطين مونوماخوس قائدا للفرقة العسكرية البيزنطية في جيورجيا، لإبعاده عن القسطنطينية، بعد أن ساورته شكوك حول علاقته بأخته (Euprepia) ... ثم عزله وعامله باحتقار. قاد الثورة ضد الإمبراطور بسبب مواقفه ضد العسكريين. وهاجم القسطنطينية وكاد أن يستولي عليها، فأرسل الإمبراطور إلى حاكم أرمينيا يطلب قوات عسكرية للدفاع عن العاصمة. (انظر :

Schlumberger Gustave : L'épopée byzantine, t. III, pp. 498-528.)

⁶ أدرينوبل : هي مدينة أدرنة (Edirne) حاليا، تقع في أقصى غرب تركيا على الحدود مع اليونان، أسسها الإمبراطور هادريان حوالي 125م، تتميز بموقعها الاستراتيجي وبتحصيناتها القوية، دخلها الأتراك سنة 1361م، وكانت مقر سلاطينهم حتى فتح القسطنطينية سنة 1453م. (انظر : الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ج 1، ص 195).

وحاصر القسطنطينية مع أتباعه، فاضطر الإمبراطور إلى سحب معظم قواته العسكرية المربطة على الحدود الشرقية لمواجهة خصمه.¹

أمام هذه التحديات والأخطار، لجأ قسطنطين مونوماخوس إلى الطرق الدبلوماسية للتخفيف من الضغوط التي تتعرض لها الإمبراطورية، فأرسل سفارة إلى القاهرة سنة 439هـ/1047م، لإعادة الروح إلى العلاقات بين بلاده والدولة الفاطمية في مصر،² مدركاً بأن العلاقات بين السلاجقة والفاطميين يشوبها التوتر والعداء.³ وأرسل سفارتين إلى السلطان طغرل بك، طلب منه في الأولى توقيف الغزوات وإبرام الصلح، فأجابه إلى ذلك سنة 441هـ/1050م، وطلب في الثانية إطلاق سراح ليباريت، مقابل فدية، فوافق سلطان السلاجقة، وأطلق سراحه دون مقابل. فعظم ذلك عند ملك الروم، ورد على هذه المجاملة بإصلاح مسجد القسطنطينية، وإقامة الصلاة فيه، والدعاء للخليفة العباسي ولطغرل بك.⁴

وإذا كان قسطنطين التاسع يريد بهذا الصلح ربح الوقت، وتحميد الحرب في الجبهة الشرقية من أجل التفرغ للجبهة الغربية، فإن طغرل بك كان يريد من وراء هذه الخطوة تحقيق ثلاثة أهداف هي :

الأول : التفرغ لتنظيم شؤون دولته الفتية، ومواجهة العصيان الذي أعلنه أخوه إبراهيم ينال.⁵

¹ Schlumberger : L'épopée byzantine, t. III, p. 500; Bréhier : Vie et mort de Byzance, p. 245.

² ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 46.

³ تعود جذور علاقات الود والصداقة بين الدولة الفاطمية في مصر والدولة البيزنطية، إلى عهد العزيز بالله الفاطمي، وتوترت في بعض الأوقات إلا أنها عادت ودية مرة أخرى في عهد قسطنطين مونوماخوس، ومما يدل على ذلك تلك الرسالة التي بعث بها الإمبراطور إلى المستنصر بالله الفاطمي يطلب منه فيها قيام تحالف بين الدولتين البيزنطية والفاطمية ضد السلاجقة، وأيضاً موافقته على إرسال الغلال والأقوات إلى مصر لمساعدتها في مواجهة المجاعة التي حلت بها في ذلك الوقت. (أنظر : العظيمي : مصدر سابق، ص 332؛ العبد الغني عبد الرحمن محمد : مرجع سابق، ص 221؛ إبراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 41؛ Bréhier Louis : op. cit., p. 246; Bréhier Louis : L'église et l'orient, pp. 38-39).

⁴ العظيمي : مصدر سابق، ص 339؛ ابن الأثير : مصدر سابق، ص ج 8، ص 52؛

Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 248.

⁵ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 51-52. في سنة 450هـ/1058م، خرج إبراهيم ينال على أخيه غير الشقيق طغرل بك، وراسل البساسيري، وأظهر الطاعة للفاطميين، والدعاء لهم في مناطق نفوذه، في همدان وبلاد الجبل وسنجار والموصل وهي المناطق التي كان طغرل بك قد نصبه أميراً عليها سنة 449هـ/1057م. (أنظر : أبو النصر محمد : مرجع سابق، ص 71).

الثاني : إلتقاط الأنفاس بعد سلسلة طويلة من العمليات العسكرية، والاستعداد للمعارك

القادمة.¹

الثالث : تحقيق كسب سياسي بإقامة علاقة مع الامبراطور تمكنه من إبعاد الفاطميين الذين لهم علاقات متينة مع البيزنطيين.²

ويرى بعض المستشرقين أن هذا الصلح يدل على أن طغرل بك ومستشاريه، كانوا يؤمنون بفكرة وجود امبراطوريتين، الأولى مسيحية والثانية إسلامية، ولم يكن هدفهم تدمير الامبراطورية المسيحية والقضاء عليها، بل يريدون منها أن تعترف بسلطة الخليفة العباسي، وتعلن تبعيتها له، حيث يعتبر السلطان طغرل بك نفسه منقذا وحاميا للخلافة العباسية.³ وإن تحقق ذلك، ستجد الدولة الفاطمية نفسها معزولة دوليا.

وبعد توقيع الصلح بفترة قصيرة، أرسل طغرل بك سنة 443هـ/1051م، مبعوثا إلى قسطنطين مونوماخوس، يسأله الإذن لجيشه بالمرور عبر أراضي الدولة البيزنطية في الشام متوجها إلى مصر، ولكن الإمبراطور رفض طلبه، محتجا بالصدقة التي بينه وبين الفاطميين، وقام بأكثر من ذلك حيث بعث لهم تفاصيل الرسالة السلجوقية.⁴

وربما كان الإمبراطور البيزنطي يريد من وراء هذا التصرف تأجيج الحرب بين معسكري السنة والشيعية، وليحمي بلاده من غارات السلاجقة المتكررة، من جهة، ويتفرغ للجبهة الداخلية والأوربية من جهة أخرى.

ولم يكن طغرل بك أقل دهاء من قسطنطين مونوماخوس، فعلى الرغم من الصلح المبرم بينهما، غض الطرف عن العناصر السلجوقية المغامرة الذين اشتدت اغاراتهم على إقليم قارص بأرمينيا سنة

¹ ابراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 40.

² ابن فرج لطفی : مرجع سابق، ص 141-142.

³ Cahen Claude : La campagne de Mantzikert, p. 622.

⁴ المقرئزي : اتعاظ الخنفا، ج 2، ص 214؛ ابراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 40-41.

444هـ/1052م، مما دفع الإمبراطور إلى إرسال مبعوث إلى طغرل بك للاحتجاج على هذه

الأعمال، فرد عليه السلطان بـ "أن هذه الهجمات تقوم بها عناصر متمردة لا تخضع لسيطرته".¹

ثم خرج طغرل بك بنفسه على رأس حملة كبيرة سنة 446هـ/1055م، مستغلا وفاة الإمبراطور قسطنطين مونوماخوس، لاستئناف الغزوات في إقليم أرمينيا. وقد ذكر المؤرخ أريستاكيس اللسفرتي تفاصيل مثيرة تتعلق بسير هذه الحملة والمدن التي مر بها.² وقال عنها ابن الأثير : "وأثر السلطان طغرل بك في غزو الروم آثارا عظيمة ونال منهم من النهب والقتل والأمر شيئا كثيرا وبلغ في غزوته هذه إلى أرزن الروم وعاد إلى أذربيجان".³ ولكنه لم يستطع فتح مدينة منازل كرد التي تعتبر أهم وأقوى قلعة بيزنطية في هذه الجهات من أرمينيا،⁴ واضطر إلى الانسحاب بعد ثلاثين يوما من الحصار،⁵ بسبب صمود "الأرمن أمام كل هجمات السلاجقة سواء ليلا أم نهارا".⁶ وعاد طغرل بك إلى أذربيجان، مما يدل على أن السلاجقة فشلوا في تأمين قاعدة ثابتة لهم، في الربوع الأرمينية.

وما زاد من ضعف الإمبراطورية البيزنطية أمام السلاجقة، اندلاع ثورة بقيادة إسحاق كومنين

(Isaac Comnène)⁷ ضد الإمبراطور ميخائيل السادس (Michael VI) (1056-1057)؛⁸

¹ ابراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 40-41.

² Arisdaguès de Lasdiverd : op. cit., pp. 90-101.

³ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 67.

⁴ Grousset René : Histoire de l'Arménie, p. 597.

⁵ Arisdaguès de Lasdiverd : op. cit., p. 98.

⁶ اسكندر فايز نجيب : أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة، ص 93.

⁷ إسحاق كومنين : ولد سنة 1007م، في قرية بضواحي أديانوبل، وعن طريقه وصلت أسرة كومنين إلى عرش الإمبراطورية. برز نجم أبيه مانويل في عهد باسيل الثاني خلال دفاعه عن مدينة نيقية ضد بارداس سكليروس (Bardas Skléros)، ثم تمكن من الحصول على ممتلكات شاسعة في آسيا الصغرى، فأصبح وابناه إسحاق ويوحنا ممثلين بارزين للأرستقراطية العسكرية، ويعتبر انتصاره في هذه الثورة انتصارا للأرستقراطية العسكرية، كما أعاد للجيش مكانته في الدولة. (انظر : ابراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 43، هامش 3؛ Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance, pp. 256-258)

⁸ ميخائيل السادس : تولى عرش الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة الإمبراطورة ثيودورا (Theodora)، وكان متقدما في السن ضعيف الإرادة، فعجز عن إدارة شؤون الدولة البيزنطية، واستغل السلاجقة هذه الفرصة وكثفوا هجماتهم على آسيا الصغرى حتى وصلوا إلى البحر الأسود، مما أثار سخط الأرستقراطية العسكرية وقاموا بالثورة ضده. (انظر : ابراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 42، هامش 4؛ Bréhier Louis : op. cit., pp. 256-257).

إذ تم سحب معظم القوات العسكرية المدافعة عن أرمينيا، ووضعت في القسطنطينية لمساندة إسحاق كومنين في ثورته.¹ وبذلك أصبحت الحدود الشرقية مكشوفة، ودون حماية مما جعل أرمينيا والمناطق المجاورة لها فريسة سهلة، ومغرية للسلاجقة. ولم تقتصر الهجمات في السنوات الموالية على إقليم أرمينيا، بل توغل السلاجقة في عمق الأراضي البيزنطية، فوصلوا إلى كبادوكيا وملطية وسيواس.² "وأصبحوا أكثر قوة في أراضي الإمبراطورية الرومانية".³

ب - فتوحات ألب أرسلان

توفي طغرل بك سنة 455هـ/1063م، دون عقب يحكم من بعده، فانتقل العرش إلى ابن أخيه ألب أرسلان⁴ (Alp Arslan (1063-1072))، ولم تتأثر تلك الهجمات بوفاة طغرل بك، بل دخلت في عهد خليفته، وابن أخيه ألب أرسلان مرحلة جديدة، حيث أصبحت تستهدف البقاء والسيطرة على الأراضي البيزنطية، ومحاولة الاستقرار في الربوع الأرمينية.⁵

وقبل أن ينطلق في حملته الكبرى، عمل ألب أرسلان على تصفية الأجواء الداخلية، فتخلص من المنافسين له على العرش من أبناء عمومته وإخوته.⁶ وبسط سلطانه على أرجاء الدولة السلجوقية،

¹ Arisdaguès : op. cit., pp. 111, 118-119; Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 103-104; Laurent J. Byzance et les Turcs Seldjucides, p. 33; Bréhier L. : Vie et mort de Byzance, pp. 259-260.
² Arisdaguès de Lasdiverd : op. cit., pp. 116-123; Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 111-120; Grousset René : Histoire de l'Arménie, pp. 605-609.

³ Michel le Syrien : op. cit., t. III, p. 160.

⁴ ألب أرسلان (455-465هـ/1063-1072م) : ألب في اللغة التركية معناها البطل أو الباسل، وأرسلان معناها الأسد، أي الأسد الباسل، وقد اتخذ كثير من الأمراء السلاجقة لقب ألب. هو ابن جغري بك داود بن سلجوق (ابن أخ طغرل بك)، بسط حدود دولته شرقا وغربا، فتح أرمينيا وبلاد الكرج، وأخضع حلب. خاض حربا طويلة ضد البيزنطيين حتى انهزموا أمامه في معركة منازل كرد، ووقع الإمبراطور أسيرا، ثم اتجه إلى بلاد ما وراء النهر وهناك اغتاله قائد حصن كان قد وقع في الأسر. تميز ألب أرسلان بقدرته الحربية الفائقة وقدرته الإدارية، وترك لابنه ملكشاه حكومة حسنة الإدارة ممتازة التنظيم. (أنظر : الراوندي : مصدر سابق، ص 185؛ أبو النصر محمد عبد العظيم، : مرجع سابق، ص 78، هامش رقم 1؛ الموسوعة العربية الميسرة : ج 1، ص 365؛

Cahen Claude : Alp Arslan, in : **Enc. Isl.**, E. J. Brill, Leiden, 1986. t. I, pp. 420-421.)
⁵ السرجاني راغب : مرجع سابق، ص 29.

⁶ كان لطغرل بك أخ أكبر وهو جغري بك داود، ولكنه توفي مبكرا سنة 451هـ/1059م، فتزوج طغرل بك بأرملة أخيه، وكان لها ابن من جغري بك هو سليمان، واستطاعت بحسن دهائها، أن تؤثر في طغرل بك، وتجعله يختار ابنها سليمان وليا لعهدده على الرغم من صغر سنه الذي لم يتجاوز الرابعة ببضعة أشهر. وبعد وفاة طغرل بك نفذ وزيره -أبو النصر الكندري- وصيته، بأن =

يسانده في ذلك وزيره نظام الملك الطوسي. ولكنه كان في حاجة إلى اكتساب الشرعية والتفويض من الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وكان يدرك بأن الخليفة وافق على مضض زواج ابنته بطغرل بك، فبادر بإرجاعها إلى بغداد، وفرح الخليفة بذلك، ورحب برسل السلطان السلجوقي.¹ وأمر بالدعاء له في الخطبة ومنحه لقب "السلطان المعظم عضد الدولة وتاج الملة أبا شجاع ألب أرسلان محمد بن داود".² كما وثق علاقاته بكل من الدولتين الغزنوية والخانية عن طريق المصاهرة، فزوج ابنه أرسلان بابنة السلطان إبراهيم الغزنوي، كما زوج ابنه الأكبر ملكشاه بابنة طمغاج خان ملك الخانيين.³ وفي سنة 464هـ/1071م، وثق علاقته أكثر بالخلافة العباسية، حينما تزوج ولي العهد (المقتدي) بابنة ألب أرسلان.⁴

وبعد أن تخلص ألب أرسلان من خصومه، وخلّص له عرش السلاجقة، وأمنَ ظهره، التفت إلى الجبهة الخارجية ببال هادئ، قصد بسط نفوذ السلاجقة على مساحات أوسع ونشر الإسلام في الممالك النصرانية المجاورة، كبلاد الأرمن والروم، وأضفى على حروبه صبغة الجهاد في سبيل الله،⁵

= يكون سليمان سلطانا على السلاجقة، وأجلس سليمان على العرش السلجوقي في مدينة الري، متجاهلا أخاه الأكبر ألب أرسلان، وانتهت هذه المشكلة بحسم ألب أرسلان لها بسيفه، فأصبح هو سلطانا على السلاجقة، وأخوه سليمان وليا للعهد. ثم برزت مشكلة جديدة وهي التنافس على عرش الوزارة السلجوقية بين عميد الدين الكندري وزير طغرل بك، ونظام الملك الطوسي وزير ألب أرسلان، وانتهى هذا الصراع بقتل الكندري. وفي سنة 456هـ/1064م، أعلن شهاب الدولة قتلش بن إسرائيل ابن عم جغري بك، أنه أحق بالسلطنة من ألب أرسلان، فاستولى على الري وأعلن نفسه سلطانا، فجهز ألب أرسلان جيشا وسار معه وزيره نظام الملك الطوسي، وانتهت المعارك بمقتل قتلش، واستعاد ألب أرسلان الري. ثم تمرد عليه أخوه قاورد بن جغري بك داود، واستولى على شيراز، واعتصم بقلعة اصطخر، فسار إليه ألب أرسلان وهزمه ثم أمنه وأخذ منه القلعة. ثم فوجئ بفتنة أخرى قادها عمه بيغو، أكبر السلاجقة سنا، ووالي هراة الذي عز عليه أن يكون تابعا لابن أخيه، فسار إليه ألب أرسلان وقتله حتى انتصر عليه انتصارا حاسما سنة 457هـ/1065م، وتعهد بيغو بعد انهزامه بطاعة ألب أرسلان. (انظر : الراوندي : مصدر سابق، ص 185-196؛ الحسيني : مصدر سابق، ص 23-34؛ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 97-98؛ أبو النصر محمد عبد العظيم : مرجع سابق، ص 77-81).

¹ ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 16، ص 86؛ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 98.

² ابن الجوزي : المصدر السابق، ج 16، ص 87.

³ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 100؛ طقوش : مرجع سابق، ص 41؛ أبو النصر محمد : مرجع سابق، ص 83.

⁴ المصدر السابق، ج 8، ص 111؛ أبو النصر محمد عبد العظيم : مرجع سابق، ص 83.

⁵ المرجع السابق، ص 81، 83.

واصل ألب أرسلان حملات عمّه السابقة، "قاسى فيها من الحروب واختلاف الأمور ما لم يقاسه غيره"¹ ودخلت سياسة السلاجقة في عهده تجاه الدولة البيزنطية منعطفًا جديدًا، حيث أصبحت تستهدف الاستيلاء على أراضي تلك الدولة وامتلاكها، بدلا من الاكتفاء بإغارات خاطفة ومحدودة ثم العودة إلى الديار.² وقد وضع السلطان ألب أرسلان نصب عينيه تحقيق هدفين : الأول، هو توجيه ضربة ساحقة للدولة البيزنطية التي استمرت خلال عدة قرون شوكة في خاصرة المسلمين تعيق تقدمهم نحو الغرب.³ والثاني، طرد الفاطميين من بلاد الشام ومصر، وخوفا من احتمال قيام تحالف ضده بين البيزنطيين والفاطميين، حرص على أن يحمي نفسه من بيزنطة بفتح أرمينيا والاستقرار في ربوعها، قبل أن يمضي في تحقيق الهدف الثاني وهو مهاجمة الفاطميين.⁴ وفي نظر بعض المؤرخين أن الأراضي البيزنطية لم تكن إلا معبرا نحو مصر، لأن السلطان لم يكن يفكر في إعلان الحرب ضد الامبراطورية البيزنطية، بل الحرب كانت ضد مصر.⁵

خرج ألب أرسلان على رأس جيش كبير، فتوجه إلى بلاد الكُرج،⁶ لأن أهلها كانوا يكثرون من الغارة على أذربيجان وأصبحوا مصدر قلق لسكان المنطقة.⁷ ففتح فيها عدة مدن وحصون.⁸ ونال عساكر الإسلام من الغنائم ما لا يدخل في الحصر والعد ... وكتب السلطان إلى ملك الكرج أنه لا

¹ المقرئزي : السلوك، ج 1، ص 142.

² عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 73؛ Texier Charles, op. cit., p. 518.

³ قمعون عاشوري : مرجع سابق، ص 81.

⁴ الصلابي : مرجع سابق، ص 81؛ قمعون عاشوري : مرجع سابق، ص 31.

⁵ Cahen Claude : La campagne de Mantzikert, p. 623.

⁶ بلاد الكرج : وتسمى أيضا "كرجستان" نسبة إلى الكرج الذين يسكنونها، وهي جورجيا حاليا، وتقع في الجزء الشمالي الغربي من آسيا في منطقة القوقاز عند الحد الفاصل بين غرب آسيا وشرق أوروبا، وتشمل السفوح الجنوبية الغربية لجلال القوقاز. وتطل على البحر الأسود من الجهة الغربية، وعاصمتها تفليس. وبعد الفتح الإسلامي للمنطقة اعتبرت أحد أقسام أرمينيا الكبرى، واتجهت نحو الاستقلال في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي. (انظر : الحموي ياقوت : مصدر سابق، ج 7، ص 126؛ لسترنج كي : مرجع سابق، ص 216؛ اللهبي فتحي سالم : مرجع سابق، ص 26).

⁷ طقوش : مرجع سابق، ص 41.

⁸ ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 16، ص 88؛ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 99؛

Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 118-122; Grousset René : Histoire de l'Arménie, pp. 610-612.

بد لك من التدين بدين الإسلام أو قبول الجزية فقبل الجزية".¹ وفي صيف 456هـ/1064م، توجه ألب أرسلان بجيشه "مثل سحابة سوداء"² إلى مدينة آني الأرمنية، وهي "مدينة حصينة شديدة الامتناع".³ وحط رحاله تحت أسوارها، والتف حولها من كل الجهات مثل الثعبان.⁴ ورغم هجماته الشرسة، صمدت المدينة، وأبت الاستسلام، وتسرب اليأس إلى قلب ألب أرسلان، فأراد الانسحاب. ثم وردت الأخبار أن الفرقة دبت بين الأرمن، وعمت فيها الفوضى والانقسام بينهم، وسيطر الرعب على قلوبهم، فتشجع السلطان على مواصلة الحصار،⁵ "وصبر السلطان وعساكره على شدة القتال وما اشتغلوا بأمر الأكل والشرب والنوم".⁶ ثم نجح السلاجقة في إحداث فتحة في أسوارها، "فتسللوا إلى داخلها كأمواج البحر شاهرين سيوفهم في أيديهم، فلم يفلت منهم أحد".⁷ والراجح أن تاريخ سقوط آني في أيدي المسلمين كان يوم الاثنين 29 شعبان 456هـ/16 أوت 1064م.⁸ وانتشرت بشائر النصر بهذا الفتح في بلاد المسلمين، "وقرئ كتاب الفتح ببغداد في دار الخلافة، فبرز خط الخليفة بالثناء على ألب أرسلان، والدعاء له".⁹ ثم بنى السلطان فيها مسجداً، وعين عليها حاكماً،¹⁰ كما ترك فيها حامية عسكرية كبيرة. وفي ذلك إشارة إلى بداية الاستقرار السلجوقي في الأراضي الأرمنية.¹¹

¹ الحسيني : مصدر سابق، ص 38.

² Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 122.

³ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 100.

⁴ Matthieu d'Edesse : loc. cit.

⁵ ابن العبري : مصدر سابق، ص 106؛ Grousset : L'Empire du Levant, p. 161.

⁶ الحسيني : مصدر سابق، ص 40.

⁷ اسكندر فايز نجيب : أرمنية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة، ص 108؛

Arisdaguès de Lasdiverd : op. cit., pp. 139-141; Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 122-125.

⁸ Grousset René : Histoire de l'Arménie, p. 615.

⁹ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 100.

¹⁰ الحسيني : مصدر سابق، ص 40؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج 8، ص 100.

¹¹ طقوش : مرجع سابق، ص 41.

وتبالغ المصادر الأرمنية، والمراجع الحديثة في رواية هذه الحوادث، حيث تذكر، أن السلطان السلجوقي أمر بتدمير الكنائس والقصور، وقتل الآلاف من السكان، وترك المدينة وراءه رمادا، ووصفوا الأتراك الفاتحين بأنهم متعطشون للدماء، وذكروا أنهم كانوا يحملون ثلاثة سكاكين حادة، واحد في كل يد والثالث بين أسنانهم. وحصدوا سكان مدينة آني مثل عشب أخضر في الحقول، وامتألت الطرقات بالدماء... وانتزع المسلمون الصليب الكبير الذي كان يعلو الكاتدرائية، وجعلوا منه عتبة في أحد أبواب مساجدهم.¹

والحقيقة أن هذه الصورة المشوهة عن المسلمين عموما والأتراك خصوصا، هي من صنع الكنيسة التي كانت تسيطر على الأفكار والأقدار خلال العصور الوسطى، وانفرد رجال الدين من قساوسة، ورهبان، من خلال ما كتبوه، بتشكيل الرؤى والصور عن الإسلام والمسلمين قبل عصر النهضة في أوروبا، واعتبروا انهزام البيزنطيين أمام المسلمين غضبا إلهيا لعدم تمسك المسيحيين بدينهم. وقام المؤرخون بتغذية خيال الأوروبيين بكم كبير من الروايات المشوهة والباطلة عن الإسلام، وقدموه لهم على أنه عقيدة ابتدعها محمد، ووصفوه بالكذب، ودين التفسخ والانحلال الخلقي، والشهوات، والعنف والدموية... وتركت هذه الرؤية آثارا ضخمة على تطور فهم أوروبا للإسلام، وخلفت سيكولوجية شعبية عامة كارهة للإسلام والمسلمين، وتراه عدوا لدودا يجب محاربته.² وهذه الصورة تتداولها الآن الكتابات التاريخية المتعلقة بالفتوحات الإسلامية في آسيا الصغرى، ومنها كتب المؤرخ لورانت، وجروسي الذي يصور السلاجقة غزاة جياعا يبحثون عن أراض خصبة وموارد اقتصادية فقط، وترسخت هذه الصورة في العقل الباطن عند الفرد الأوروبي، وفي الوعي الاجتماعي لدى الأوروبيين، وفي تصوراتهم الاجتماعية، وولدت نقمة لدى بعض الشعوب الأوروبية، وإحساسا بالنفور مُخزنا في اللاوعي من الأتراك، والدولة العثمانية سابقا، ومن تركيا حاليا.³

¹ Arisdaguès de Lasdiverd : op. cit., pp. 140-141; Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 124-125; Grousset René : Histoire de l'Arménie, p. 614.

² عوض محمد مؤنس : تاريخ الصليبيات الصراع العالمي في العصور الوسطى، دار العالم العربي، القاهرة، 2012. ص 69.

³ والدليل على ذلك مسألة تركيا التي تريد الانضمام للاتحاد الأوروبي، فيُشهر في وجهها سيف الماضي العسكري، وأحيانا الإمبراطورية العثمانية التي فتحت آسيا الوسطى والقوقاز والبلقان وشرق أوروبا ووسطها، وأحيانا أخرى قضية الأرمن، وهذا يعني =

بعد مدينة آني، طلب ألب أرسلان من جاجيك-عباس (Gagik-Abas)، ملك مدينة قارص (Kars)، أن يقدم له فروض الطاعة والولاء. وتزعم المصادر الأرمنية أن الملك الأرمني لجأ إلى الحيلة للتخلص من السلاجقة،¹ ثم سلم المدينة إلى الإمبراطور البيزنطي، قسطنطين العاشر، الذي منحه -مثل الملوك الأرمن السابقين- إقطاعاً في مرتفعات طوروس بقليلقيا، فكان نواة تأسيس مملكة أرمينيا الصغرى فيما بعد.² وبعد أن استلم البيزنطيون مدينة قارص، لم يجد السلاجقة صعوبة في الاستيلاء عليها واقتطاعها من الإمبراطورية البيزنطية في نفس السنة، أي سنة 456هـ/1064م.³

باستيلاء السلاجقة على آني ثم قارص، وهما العاصمتان القديمتان لأرمينيا، والمركزان الأساسيان لقوة البيزنطيين ونفوذهم في الأقاليم الشمالية الشرقية من آسيا الصغرى، تحقق لألب أرسلان هدفه الأول المتمثل في انتزاع أرمينيا من الإمبراطورية البيزنطية، وغدا الطريق مفتوحاً على مصراعيه أمام

= أن تركيا التي كانت عدواً لأوربا لا تستطيع أن تصبح صديقاً وحليفاً إما بسبب ذلك الماضي بالذات، أو لأن أوربا مسيحية والأتراك في أكثرهم مسلمون. (حول هذا الموضوع أنظر كتاب، سودرن ريتشارد : صورة الإسلام في أوربا في القرون الوسطى، ترجمة رضوان السيد، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2006. ص 7، 12، 51 وما بعدها). اطلعت في شهر ديسمبر 2015، بالمكتبة الوطنية التونسية على كتاب صدر حديثاً، واشترك في تأليفه أربعة مؤرخين فرنسيين، وهو يتعلق بتاريخ العصور الوسطى في المشرق، ورغم حداثة، فهو يعتبر -في إطار السياق العام للكتاب- فتوحات المسلمين ثم السلاجقة في آسيا الصغرى استمراراً لحملات البرابرة ضد الإمبراطورية البيزنطية. انظر :

Alain Ducellier, (et autres) : Le Moyen Âge en Orient : Byzance et l'Islam : Des Barbares aux Ottomans, Hachette, Paris, 2006.

¹ يروي متى الرهاوي قصة غريبة في كيفية التخلص من السلاجقة، حيث يقول : بما أن ملك قارص كان رجلاً حذراً، وفطناً، فكر في وسيلة للخروج من المأزق. فلبس ثوباً أسود وتظاهر بالحزن، وجلس على وسادة بنفس اللون. ولما رآه مبعوث السلطان بهذا الثوب، سأله عن السبب. فأجابه جاجيك : "أنا حزين على صديقي طغرل بك". هذا الجواب كان مفاجئاً للمبعوث الذي روى للسلطان ما شاهده وسمعه. وفرح السلطان كثيراً بسلوك جاجيك، ثم سار على رأس جيشه، لزيارته في قارص. وبإدله التحية والصدقة وتبادلاً الهدايا. وعلق المؤرخ الفرنسي جروسي على هذه الحادثة، وقال عنها أنها تمثيلية أداها جاجيك-عباس. ثم يعلق مستهزئاً : "في الحقيقة كان جاجيك-عباس محققاً في حزنه على طغرل بك، لأنه أنقذه في السابق. حيث تمرد إبراهيم اينال على أخيه طغرل بك سنة 1054-1055، وفر نحو بلاد الأرمن، وهاجم مدينة قارص وحاصر قلعتها، وكاد أن يستولي عليها، وفي هذه الأثناء وصل طغرل بك الذي كان يلاحق إبراهيم ينال، فهرب هذا الأخير تاركاً القلعة لأهلها. ولذلك يستطيع جاجيك-عباس عرفاً وشرعاً، أن يحزن على السلطان الراحل، وأن يظهر مشاعر الحزن والأسى أمام ألب أرسلان" ! (أنظر :

Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 125-126; Grousset René : Histoire de l'Arménie, p. 615).

Bréhier Louis : L'Eglise et l'Orient, p. 50.

Matthieu d'Edesse : loc. cit.; Grousset René. : op. cit., pp. 615-616.

السلاجقة إلى داخل الأناضول.¹ ومن قلب أرمينيا، راحوا يجتاحون القرى والضياع، في إقليم كبادوكيا ففتحوا قيصرية (Césarée) سنة 460هـ/1067م،² وفي السنة الموالية بلغوا قونية³ في عمق الأناضول. وبعد أن سقطت العديد من المدن في أيدي السلاجقة، عَبَرَ الكثير من الأرمن البحر الأسود، واتجهوا نحو القرم (Crimée)⁴ ومولدافيا (Moldovie)⁵ وبولونيا⁶. ويعلّق "متى الرهاوي" على هذه الأحداث قائلاً: "تلاشى كل أمل في النجاة، وانحنت جباهنا خاضعة لقبائل (الكفار) القادمين من الخارج"،⁷ هذا قدر أرمينيا الكبرى التي أصبحت كهشيم تذروه الرياح. كل ذلك والإمبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر دوقاس (Constantin X Doukas) (1059-1067)⁸ جامد لا يتحرك، ولا يحاول إنقاذ البناء الكبير الذي شيده أسلافه من الأسرة المقدونية في القرن العاشر.⁹

¹ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 73؛ ابراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 40-41.

² Laurent J. : Byzance et les Turcs, pp. 24-25; Grousset René : Histoire de l'Arménie, p. 623.

³ قونية : مدينة وسط تركيا، عرفت عند الرومان باسم ايكوزيوم، بلغت أزهى مجدها بعد أن أصبحت قاعدة سلاطين سلاجقة الروم بآسيا الصغرى. (الموسوعة العربية الميسرة، المرجع السابق، ج 5، ص 2605).

⁴ شبه جزيرة تقع في البحر الأسود.

⁵ اسم إقليم في أوربا الشرقية، يكوّن حالياً جمهورية رومانيا وجمهورية مولدافيا. (الموسوعة العربية الميسرة، المرجع السابق، ج 6، ص 3290).

⁶ Mouradian : op. cit., p. 25.

⁷ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 126.

⁸ تولى قسطنطين العاشر دوقاس عرش الامبراطورية سنة 1059م، وأبدى اهتماما كبيرا بشؤون الادارة المالية للدولة، ولم تشغله أمور الجيش والشؤون العسكرية إلا قليلا. ولأنه ينتمي إلى البيروقراطيين أو مجموعة الموظفين، فقد كان إداريا من الطراز الأول، ولم تغير من طبيعته الادارية التهديدات التي تعرضت لها الامبراطورية من جانب البشناق والغز من الشمال والسلاجقة الأتراك من الشرق. وكانت الدولة البيزنطية في حاجة إلى قائد عسكري قدير لا إلى إداري خبير لمواجهة الأخطار المحيطة بها فتكونت جبهة معارضة قوية ضده. اعتُبر عهده رد فعل الادارة المدنية ضد العنصر العسكري الذي كان له تأثير كبير منذ الامبراطور اسحق كومنين، أو كرد فعل للعاصمة ضد المقاطعات والأقاليم. (انظر : ربيع حسنين محمد : مرجع سابق، ص 170؛

Vasiliev A. A. : Histoire de l'empire byzantin, traduit du russe par P. Brodin et A. Bourguina, Editions A. Picard, Paris, 1932. t. I, p. 464.)

⁹ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 73؛ Laurent J. : op. cit., p. 47.

أمام هذه الأوضاع تحركت "المعارضة" في القسطنطينية،¹ ولم يعجبها الأسلوب الذي تدار به دوايب الدولة، وازدادت الحاجة إلى شخصية عسكرية تقود الإمبراطورية، وهذا ما أدى إلى تنويع رومانوس الرابع ديوجين امبراطورا (Romain IV Diogène) (461-464هـ/1068-1071)،²

حاول الامبراطور الجديد إنقاذ البلاد من الأخطار المحدقة بها، فقام بعدة إصلاحات، أهمها إعادة تنظيم الجيش البيزنطي الذي أصبحت فرقه الأساسية تتكون من جند مرتزقة من النورمان الايطاليين، والروس، والبلغار، والأرمن، والتركماني الآسيويين، فضلا عن الفرقة الغربية.³ وبهذا الجيش غير المتجانس شرع رومانوس ديوجين في تنفيذ أولى واجباته، وهي أن يسرع لإيقاف التدهور في الجبهة الشرقية، لاستعادة الأناضول، ومدنه من أيدي السلاجقة. فهل سينجح الامبراطور رومانوس الرابع ديوجين في مهمته ؟

¹ هذه المعارضة هي مظهر من مظاهر الصراع بين البيروقراطيين في العاصمة، والعسكريين في الأقاليم، وقد ظهر هذا الصراع في فترة حرجية من تاريخ الإمبراطورية؛ إذ بعد وفاة باسيل الثاني بقليل (سنة 1025م) تولى بعده أباطرة ضعاف عملوا على تحويل دفة الأمور إلى البيروقراطيين وإزالة الشكل العسكري من الإدارة البيزنطية، بعض الأباطرة كانوا كبار السن، وبعضهم مرضى وآخرون مجانين، الأمر الذي أدى إلى سحق العسكريين وقيامهم بالثورة، فتحركت جيوش الأقاليم لمساندتهم واستغل السلاجقة هذه الظروف وهاجموا آسيا الصغرى، كما أن هؤلاء الأباطرة البيروقراطيين أهملوا الجيش، وامتنعوا عن دفع مرتبات الجنود، وإمداد قواته بما تحتاج إليه من مؤن وإمدادات، وقاموا بتسريح عدد كبير من جنوده الأمر الذي أضعف الجيش وساعد على تزايد حدة الهجوم السلجوقي. (انظر : ابراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 48؛ ربيع حسنين محمد : مرجع سابق، ص 170؛

Laurent J. : Byzance et les Turcs Seldjoudides, pp. 45-50.)

² رومانوس الرابع ديوجين : من الأرستقراطية العسكرية، وكان حاكما عسكريا لإقليم صوفيا البلغاري، ويمتلك أراضي واسعة في كبادوكيا. ووصفته المصادر بأنه كان قائدا عسكريا بارعا، وطموحا. أثبت وجوده في الحرب ضد البشناق في البلقان، وأكسبه ذلك شهرة واسعة في الوسط العسكري. تزوج بالإمبراطورة ايدوكيا (Eudoxie Makrembolitissa)، أرملة قسطنطين العاشر دوقاس بعد وفاته سنة 1067م. ويعود سبب اختيار رومانوس الرابع امبراطورا بعد أن آل العرش البيزنطي إلى ايدوكيا، إلى مقاومة وردع الخطر السلجوقي الذي أخذ يمزق الإمبراطورية. (أنظر : عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 73؛ العبد الغني عبد الرحمن محمد : مرجع سابق، ص 224؛

Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 159-160; Laurent J. : op. cit., p. 58; Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance, p 263).

³ عاشور سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية، ج 1، ص 73؛ Bréhier Louis : op. cit., p 268.

4- معركة منازل كرد سنة 463هـ/1071م وأثرها على الأرمن

رغم الانتصارات العديدة التي حققها السلاجقة على البيزنطيين في إقليم أرمينيا قبل سنة 1071م فإنهم لم يحاولوا الاستقرار فيها، لأنها كانت لا تزال مكانا غير آمن لإقامتهم بها، وذلك بسبب وجود عدد كبير من القلاع والحصون التي لم تسقط بعد في أيديهم، فضلا عن وجود بعض القوات البيزنطية في آسيا الصغرى.¹ ومباشرة بعد جلوسه على عرش الامبراطورية، شعر الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجين (461-464هـ/1068-1071م)، بقوة السلاجقة بعد أن مزقوا أوصال الامبراطورية، واستولوا على الجزء الأكبر من إقليم أرمينيا، وقد حوّلوا الأناضول إلى أراضٍ إسلامية. ومما لاشك فيه أنها ستصبح موطنا للسلاجقة، وسيواصلون زحفهم إلى غاية بيزنطة نفسها؛ أي أن سلامة بيزنطة تتوقف على استرداد أرمينيا،² وهو الأمر الذي جعل الإمبراطور يقود عدة حملات في شرق الأناضول لاستعادة ما استولى عليه أعداؤه.

غزا رومانوس سنة 462هـ/1068م، إمارة حلب، وسلك طريق سيواس-قونية-قيصرية ثم مرعش على الحدود بين سوريا وقيليقيا، فاستولى على أرتاح،³ الواقعة شرقي أنطاكية، وترك فيها حامية، ثم استولى على منبج⁴ الواقعة على الضفة الغربية لنهر الفرات، وهزم محمود بن صالح المرداسي، وبني كلاب، وابن حسان الطائي.⁵ وأتلف الضياع والقرى ما بين منبج وبلاد الروم، ونشر الرعب في حلب. وتابع حملته العسكرية، فوصل إلى منازل كرد في غرب أرمينيا، وأطراف خراسان، ثم رجع إلى

¹ ابراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 48؛

Laurent J. : Byzance et les Turcs Seldjoudides, p. 26; Grousset : L'Empire du Levant, p. 164.

² طقوش : مرجع سابق، ص 42.

³ أرتاح (Artah) : هو اسم حصن منيع كان من العواصم من أعمال حلب. (انظر : الحموي : مصدر سابق، ج 1، ص 118).

⁴ منبج (Menbidj) : هي هيرابوليس (Hierapolis) قديما، وكانت موضعا ذا شأن في القرون الوسطى وخاصة خلال فترة الحروب الصليبية، وهي حاليا من أعمال حلب في سوريا. (انظر : لسترنج كي : مرجع سابق، ص 139).

⁵ المرداسيون عشيرة عربية أقامت إمارة وراثية في حلب بين سنتي 451 و 472هـ. وبنو كلاب، هم عرب أطراف حلب والروم وكان لهم غزوات وغارات عظيمة على الروم، وعن الإمارة الطائية، (أنظر : دروزة محمد عزة : مرجع سابق، ج 1، ص 71-84، 124).

القسطنطينية بسبب نفاذ المؤونة وشدة الجوع.¹ وقد كان جموع السلاجقة في هذه الأثناء حريصين على عدم الاصطدام بالجيش الامبراطوري، وكثيرا ما كانوا يتخلون عن أثقالهم، وما كسبته أيديهم من غنائم، ومكاسب؛² ولذلك لم يصادف رومانوس الرابع في حملته هذه مقاومة تذكر من طرف السلاجقة.

ويبدو أن هذه الحملة قد حدثت من تحركات السلاجقة مؤقتا، ولكنها لم تتمكن من توقيف حملاتهم في الأناضول على المدى البعيد؛ إذ بمجرد عودة رومانوس إلى القسطنطينية، خرجت جموعهم تواصل ضغطها على أراضي الامبراطورية في آسيا الصغرى، وصارت مسالكها مألوفة لهم. وعاد رومانوس الرابع من جديد في السنة الموالية يقود جيشه لإخراج السلاجقة من المناطق التي استقروا فيها حول كبادوكيا، وقيصرية، ثم توغل في غرب أرمينيا، وترك قسما من جيشه بالقرب من ملطية بقيادة فيلاريت الأرميني (Philaritos)، بهدف اعتراض طريق الجماعات التركية، ولكن هؤلاء استطاعوا التغلب عليه، وأصبحت المدينة تحت سلطتهم، وتمكنت جماعات تركية أخرى من التوغل في آسيا الصغرى، فبلغت قونية (Iconium)، وعجز الامبراطور نفسه عن توقيفهم، فعاد إلى القسطنطينية عبر قيليقيا.³ وبعد سنة 462هـ/1069م، اتخذت الحرب بين السلاجقة والبيزنطيين منحى جديدا، واكتسبت طابعا رسميا أكثر من الحروب السابقة، لسببين :

الأول : إعلان القائد أرسياغي (Arisiaghi)⁴، وهو صهر ألب أرسلان، العصيان، والتمرد على السلطان، وخوفا من العقاب والمتابعة، فر بفرقة العسكرية نحو إقليم أرمينيا، وشرع في احتلال بعض الحصون والقلاع، فجهز رومانوس الرابع جيشا لمحاربته، وأسند قيادته لمانويل كومنين

¹ ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة (ت 555هـ)) : ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908. ص 98؛ ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 16، ص 116؛ العظمي : مصدر سابق، ص 347؛ ابن الأثير مصدر سابق، ج 8، ص 107؛

طقوش : مرجع سابق، ص 43؛ 44. Grousset René : Histoire de l'Arménie, p. 623.

² عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 74؛

Laurent J. : Byzance et les Turcs, p. 26; Grousset René : L'Empire du Levant, p. 165.

³ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 74؛ طقوش : مرجع سابق، ص 44؛ Grousset R. : loc. cit.

⁴ ورد أيضا باسم Khroudj، وباسم Guedridj.

(Manuel Comnène)، ولكنه انهزم شر هزيمة، وسقط أسيرا في يد السلاجقة قرب مدينة سيواس (Sébastè) سنة 463هـ/1070م، وتلقى أرسياغي مساعدة من طرف بعض الأمراء الأرمن في سيواس.¹ ولكن كومنين الأسير أقنع أرسياغي أنه إذا أطلق سراحه، سيساعده في الحصول على إمدادات من الامبراطور ضد السلطان ألب أرسلان، وذهب معه لمقابلة رومانوس الرابع، الذي أحسن وفادته، ووعد به بالمدد.

فأرسل ألب أرسلان قائدا آخر لملاحقته، وهو الأفشين الذي طلب من الامبراطور البيزنطي أن يسلم له أرسياغي، وأمام رفض الامبراطور، قام الأفشين بحملة انتقامية في اقليم كبادوكيا، وتأخر في العودة، فخشي السلطان أن يكون البيزنطيون قد قضوا عليه. واعتبر السلطان ألب أرسلان، أن حماية الامبراطور للقائد السلجوقي المتمرد إهانة، وشتيمة له، فأعلن الجهاد ضد الروم.²

وسار السلطان بجيشه إلى أرمينيا، فاستولى على مناظر كرد شمال بحيرة وان سنة 463هـ/1070م، وهي آخر ما تبقى لبيزنطة من أرمينيا، ثم استولى على أرجيش (Ardjech)، واسترد ملطية من البيزنطيين، ثم توجه إلى الرها وحاصرها أياما، دون أن يتمكن من فتحها.³ ومن جهته، واصل الأفشين حملته، فاكسح مدينة قيصرية، ثم هاجم مدينة قونية، وبلغ مدينة عمورية في أقصى غرب آسيا الصغرى. وعلى حد تعبير ابن العبري، فإن السلاجقة بلغوا البحر الذي يلامس أسوار القسطنطينية.⁴ وحسب الروايات الأرمينية فإن السلطان السلجوقي دمر الكنائس والقصور وقتل الآلاف من السكان.⁵

¹ Cahen : La campagne de Mantzikert, p. 626; Grousset : Histoire de l'Arménie, p. 625.

² Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 162, 414, note n°. CI-1; Grousset R. : op. cit., p. 624.

³ الأصفهاني : مصدر سابق، ص 36؛ ابن العبري : مصدر سابق، ص 109؛

Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 163; Laurent J. : Des Grecs aux Croisés. Étude sur l'histoire d'Édesse entre 1071 et 1098, ds. : **Byzantion**, t. I, publié par, Paul Graindor et Henri Grégoire, Paris, 1924. p. 370-375; Grousset René : loc. cit.

⁴ ابن العبري : مصدر سابق، ص 109؛ ابراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 47؛

Laurent J. : Byzance et les Turcs Seldjoudides, p. 25.

⁵ يبدو أن هذه الروايات المبالغ فيها من طرف المصادر الأرمينية كان الهدف منها إثارة الروح الصليبية عند المسيحيين، سواء في الشرق أو الغرب المسيحي. فأول من كتب عن هذه الأحداث هو أريستاكيس اللستيفري (Arisdaguès de Lasdiverd)، =

الثاني : كان ألب أرسلان في تلك الأثناء، يعدُّ حملة ضد الفاطميين لإخراجهم من الشام، وتوحيد المشرق الإسلامي تحت زعامة الدولة السلجوقية، وهو هدفه الثاني في خطته الحربية. فتوجه إلى حلب وهي غير بعيدة عن حدود بلاد الروم، وكانت تحت حكم محمود بن صالح بن مرداس، الذي كان من أتباع الدولة الفاطمية، فضرب عليها حصاراً، إلى أن أعلن أميرها تبعيته للسلاجقة، وأقام الخطبة للخليفة العباسي، وللسلطان السلجوقي،¹ ثم أرسل أحد قادته وهو أئسنز إلى جنوب الشام، فانتزع من الفاطميين الرملة وبيت المقدس، وتوقف عند عسقلان.² والواقع أنه كان من الصعب على السلطان السلجوقي من الناحية العسكرية والسياسية، أن يتجاوز محور الرها إلى جنوب بلاد الشام ثم مصر دون تقدير الموقف البيزنطي من جهة، ومواقف أمراء الجزيرة وبلاد الشام من جهة أخرى، إذ أن أي اضطراب في العلاقة مع هذه الأطراف من شأنه أن يهدد بقطع خط الرجعة على جيشه الذي سيكون بعيداً على قواعده الخلفية.³ وكان السلطان يجهل مصير قائده الأفشين، الذي يريد أن يكون إلى جانبه في تحضير الحملة ضد مصر.⁴

أ - استعدادات الإمبراطور رومانوس الرابع

أمام هذه الظروف قرر رومانوس الرابع ديوجين القيام بحملة جديدة لاستعادة أرمينيا من السلاجقة، وطُردهم من كبادوكيا، مستغلاً توغل ألب أرسلان في بلاد الشام، وابتعاده عن موطنه وعن أرمينيا. وأرادها أن تكون معركة فاصلة تختلف عمّا سبقها من حملات ومعارك، فخرج من

= الذي تُرجم كتابه إلى اللغة الفرنسية، وهو إلى جانب كونه أحد علماء اللاهوت الأرمن، فهو أديب أيضاً. لذلك يغلب على كتابه الصبغة الدينية والأسلوب الأدبي الذي يركز على التشويق، وهدفه من ذلك ليس إظهار الحقائق التاريخية فقط، بل رسم لوحة مفزعة تشمئز وتقشع لها الأبدان، وإحداث تأثير على مشاعر القارئ. واعتمد معظم المؤرخين الذين عاصروا فترة الحروب الصليبية مثل ميخائيل السرياني، ومتى الرهاوي على كتابات أريستاكيس، بهدف بث الشعور الديني، وإيجاد المبررات للحرب ضد السلاجقة خصوصاً والمسلمين عموماً.

¹ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 7، ص 243؛ ج 8، ص 108-109؛ دروزة محمد عزة : مرجع سابق، ص 81-82؛
Alain Ducelier : op. cit., p. 217.

² ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 98-99؛ شبارو عصام محمد : مرجع سابق، ص 25.

³ الصلابي : مرجع سابق، ص 81.

⁴ Cahen : La campagne de Mantzikert, p. 627.

القسطنطينية في ربيع 463هـ/1071م، على رأس نخبة من فرقه العسكرية، وأدوات حصار، وأسلحة كثيرة، وحشد جيشا ضخما، معظم جنوده مرتزقة، من الروس، والالان، والكُرَج، والنورمان، ومن الأتراك غير المسلمين الخزر، والكومان،¹ والغز، والبشناق، إضافة إلى الأرمن والبيزنطيين، وبالغت المصادر العربية في تقدير عدد المقاتلين البيزنطيين حيث قدرتهم بـ مائتي ألف جندي،² ولم يكن من بينهم جميعا غير فئة قليلة من الجنود المحترفين.

وقبل انطلاق الحملة العسكرية، جرى نقاش حول الخطة التي ينبغي تنفيذها، فكان فريق من القادة العسكريين، منهم نقفور بُريان (Nicéphore Bryenne)، ويوسف تُراخانيوتس (Joseph Trakhaniotès)، يريدون من الامبراطور انتظار السلاجقة داخل حدود الامبراطورية، وذلك باللجوء إلى القلاع والحصون، فيتحصن بها الجيش البيزنطي، ثم تطبيق سياسة الأرض المحروقة في المناطق المجاورة، لحرمان السلاجقة من كل تموين. وكان هدفهم من هذه الخطة الدفاع عن أراضي الامبراطورية التي لم يصلها السلاجقة بعد، والتخلي عن الأقاليم الشرقية التي أغلب سكانها من الأرمن. والفريق الآخر من القادة العسكريين، وفيهم بعض الأرمن، كانوا يفضلون أن تكون المعركة خارج حدود الامبراطورية، بهدف تدمير السلاجقة والقضاء عليهم قبل دخولهم إلى الأراضي

¹ الكومان (Comans) : قبائل تركية الأصل تعرف في التاريخ الإسلامي باسم القبحاق، وكانت تربطهم بعض الصلات بالسلاجقة، وكانوا وسطاء في العلاقات التجارية للإمبراطورية البيزنطية مع الروس والخزر، وسكان البلاد المجاورة. (أنظر : تركماني أسامة أحمد : مرجع سابق، ص 48).

² هذا العدد الذي رجحه كثير من المؤرخين لا يخلو من المبالغة، وقد تضاربت المصادر العربية في ذكر عدد الجنود الذين جمعهم الامبراطور، ابن الأثير ذكر مائتي ألف، وابن الجوزي، والحسيني، والأصفهاني ذكروا ثلاثمائة ألف، وابن العديم وابن القلانسي، والراوندي، ذكروا ستمائة ألف، أما المصادر الأرمنية فلم تذكر عددا محددا، حيث قال أريستاكيس للسفرقي إن الامبراطور حشد كتائب لا حصر لها، ومتى الرهاوي قال مبالغا أن جنود الامبراطور كانوا أكثر عددا من حبات الرمل في البحر. ويبدو أن أعداد الوحدات العسكرية البيزنطية كانت من الأسرار التي يحتفظ بها القادة حتى لا يستطيع الأعداء تقدير حجم الجيش، وحسب الدراسات المتخصصة فقد بلغ عدد القوات النظامية البيزنطية في القرن التاسع حوالي مائة وعشرين ألفاً، وفي القرن العاشر حوالي مائة وأربعين ألف مقاتل، وترجح أحدث الدراسات في هذا الموضوع أن حجم القوات البيزنطية في معركة منا زكرد بلغ ستين ألف جندي. (أنظر : عمران محمود سعيد : الامبراطورية البيزنطية وحضارتها، دار النهضة العربية، بيروت، 2002. ص 246؛ Diehl Charles. op. cit., p. 42; Cheynet J.C. : *Mantzikert un désastre militaire, Byzantion*, t. L, fascicule 2, organe de la Société belge d'Etudes byzantines, Bruxelles, 1980. p. 426).

البيزنطية، وبذلك يتسنى للإمبراطور الاحتفاظ بكل الأقاليم التي ألحقها باسيل الثاني، وقسطنطين التاسع مونوماخس بالامبراطورية البيزنطية.¹

وبعد تردد، قرر الامبراطور رومانوس الرابع أن تكون المعركة الفاصلة على أرض أرمينيا، وأن يفاجئ السلطان ألب أرسلان حول بحير فان. ووضع خطة تهدف في المرحلة الأولى، استعادة منازل كرد من السلاجقة، وفي المرحلة الثانية تحرير أرمينيا وطرد السلاجقة منها، ثم محاصرة ألب أرسلان من الشمال والشرق قبل أن يعود من الشام في الجنوب.² وبهذه الخطة سيحقق رومانوس الرابع هدفين، الأول خارجي، وهو يتمثل في تخلص الامبراطورية البيزنطية من الضغط السلجوقي المتواصل عليها، والحفاظ على حدود الامبراطورية بما فيها الأراضي الأرمنية. والثاني داخلي، حيث سيثبت لخصومه في الداخل أن سياسته العسكرية ناجحة، وسيكون أقوى منهم، ما يعطيه فرصة للتخلص منهم وعزلهم عن مناصبهم السامية التي يشغلونها.³

ولما بلغ مدينة سيواس تلقى زيارة من أميرين أرمينيين، وهما آتوم (Atom)، وأبو سهل (Abousahl)، ولكن سكان المدينة من البيزنطيين اعترضوا على الزيارة قائلين للإمبراطور: "بعد سقوط مدينتنا في يد أرسياغي كان الأرمن أكثر حقدا علينا من الأتراك أنفسهم". واتهموها بعدم محاربة الأتراك،⁴ فطردهما رومانوس الرابع من مجلسه. ثم أقسم أنه بعد عودته من حربه ضد السلاجقة، سيقضي على معتقدات الأرمن، وأصدر أمرا لجنوده بالاستيلاء على كل ممتلكاتهم في سيواس، ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بقتل عدد منهم. ويذكر ميخائيل السرياني في حويلته، أنه لما دخل مدينة قارص، وهو في طريقه إلى منازل كرد، أحرق كنيسة الأرمن، وتوعدهم باجتثاثهم، أو يحولهم إلى مذهب وعقيدته، بعد أن يحقق انتصارا على الأتراك.⁵ وأمام هذا الوضع دعا عليه الرهبان وسألوا الرب أن لا

¹ Cheynet : Mantzikert un désastre militaire, p. 417.

² العظيمي : مصدر سابق، ص 347؛ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 109؛ طقوش : مرجع سابق، ص 45؛ Grousset René : Histoire de l'Arménie, p. 625.

³ Cheynet : op. cit., pp. 417-418.

⁴ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 166; Cheynet Jean-Claude : De Tziliapert à Sébastè, p. 221.

⁵ Michel Le Syrien : Extrait de la chronique de Michel le Syrien, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} ed., Paris. 1969. p. 323.

ينصره وأن لا يعود من هذه الحرب أبدا.¹ وربما هذا ما جعل المصادر الأرمنية والسريانية المعاصرة للأحداث تصف رومانوس الرابع بالخطرة والتكبر وكان يعتقد أن ملوك الأرض جميعا لا يمكنهم قهر جيوشه.²

وبينما كان الامبراطور في طريقه إلى منازل كرد، والسلطان ألب أرسلان في بلاد الشام،³ تبادل الطرفان السفراء والرسل من أجل التوصل إلى اتفاق وعقد هدنة، ووصل سفير الامبراطور إلى ألب أرسلان وهو في مدينة حلب يتهياً لمغادرة الشام عن طريق الفرات. فاعتقد أن السلطان في حالة حرجة ويريد الفرار.⁴ ورفع ليون دياباتينوس (Leon Diabaténos)، -وهو السفير الذي بعثه الامبراطور رومانوس إلى ألب أرسلان- تقريراً إلى الامبراطور البيزنطي أخبره أن السلطان السلجوقي علم بأخبار الحملة البيزنطية، فانتابه الرعب بسبب هذا الحشد الهائل من الجند، لذا ترك مقره ولاذ بالفرار إلى بغداد.⁵ وانتشرت الفوضى في صفوف جيشه نتيجة تمرد بعض جنده.⁶ فصدق رومانوس ما ورد في هذا التقرير، ما جعله يصمم على الحرب، وفشلت المفاوضات. ولما وصل إلى مدينة أرزن، شرع الامبراطور في تقسيم جيشه، فأرسل جزءاً منه لمهاجمة مدينة خلط (Khelath) يقودهم النورماندي روسل بايلول (Roussel de Bailleul)، ثم دعمه بثلاثين ألف جندي يقودهم الكرجي يوسف تراخانيوتس (Joseph Trakhaniotès)، وأرسل اثنا عشر ألف جندي إلى جيورجيا بحثاً عن المؤن. ومن دون شك أنه أرسل بعض القوات نحو جهات أخرى، ولم يبق معه إلا

¹ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 167.

² ابن العبري : مصدر سابق، ص 110؛ Arisdaguès de Lasdiverd : op. cit., pp. 140-141.

³ انظر خط سيرهما في : الملحق الحادي عشر، ص 484.

⁴ المصدر السابق، ص 109؛ طقوش : مرجع سابق، ص 45. Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 168.

⁵ محمد عمر يحيى : مرجع سابق، ص 50.

⁶ كان قسم من جيش السلاجقة في العراق يعمل من قبل في جيش طغرل بك، قد تقاعس عن الالتحاق بألب أرسلان لمحاصرة حلب، بسبب تأخر أرفاقهم، فاضطر السلطان إلى حصار المدينة بشرذمة من جنده بلغت أربعة آلاف مقاتل فقط، فاحتل بذلك نظام جيشه، ما دفعه إلى تغيير خطته العسكرية والسياسية، لأنه بهذا العدد لا يمكنه مواجهة الجيش البيزنطي الجرار، فجنح إلى السلم وعاد إلى الشرق عن طريق الفرات شبه هارب. ومن دون شك أن هذا الأمر لم يكن خافياً على أعين الامبراطور البيزنطي. (أنظر : طقوش : مرجع سابق، ص 46-47).

حوالي ستين ألف مقاتل من بين مائة ألف جنّدهم في بداية الحملة، وكان هذا أكبر جيش حشدته الامبراطورية البيزنطية خلال القرن الحادي عشر الميلادي.¹ وإذا كان التفوق العددي واضحاً، فإن هذا الجيش كان ينقصه التفوق النوعي،² كما ارتكب رومانوس خطأ فادحاً حينما قسم جيشه إلى قسمين.³

ولم يجد رومانوس الرابع صعوبة كبيرة في استعادة حصن منا زكرد، وانتزاعه من السلاجقة، معتمداً في ذلك على الأرمن الذين كانوا يشكلون جزءاً هاماً من المشاة، فأغراهم بالوعود، وكان يعلق عليهم آمالاً كبيرة في المعركة ضد ألب أرسلان، لأنه كان يثق فيهم كثيراً.⁴ وبإجماع المؤرخين فإن تقسيم الجيش البيزنطي بهذا الشكل هو أكبر خطأ عسكري ارتكبه رومانوس الرابع، ما يدفع الباحث إلى التساؤل عن دوافع قيام الامبراطور بتقسيم قواته بهذا الشكل الغريب، خاصة وأنه اشتهر بكفاءته العسكرية في حروبه السابقة ؟ وبالعودة إلى التقرير الذي وصله من سفيره الذي أرسله إلى ألب أرسلان في الشام، يبدو أن الامبراطور قد تيقن مسبقاً بأن النصر سيكون حليفه، واغتر بما حشدته من جند وعتاد، واعتقد بأن الانتصار تصنعه القوة العسكرية وحدها.

ب - استعدادات السلطان ألب أرسلان

أما ألب أرسلان فقد خرج من الشام ومعه حوالي أربعة آلاف جندي.⁵ وتوجه نحو الشمال الشرقي عائداً إلى بلاده يبحث عن المدد، وسلك طريق الرها ثم الموصل، حيث جاءه قاضي منا زكرد وبعض الفارين من المدينة يسألونه النجدة.⁶ واتضح له بأن عدد جنوده أقل بكثير من عدد جنود رومانوس الرابع، ولذلك كان حريصاً على تجنب الاصطدام بالجيش البيزنطي، مطبقاً خطة تقوم على

¹ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 168; Grousset René : Histoire de l'Arménie, p. 627; Cheynet : Mantzikert un désastre militaire, p. 426.

² Cahen Claude : La campagne de Mantzikert, p. 625.

³ قمعون عاشوري : مرجع سابق، ص 93.

⁴ Cahen Claude : op. cit., p. 634; Cheynet : op. cit., p. 416-417, 424.

⁵ ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 16، ص 123.

⁶ الفارقي (أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق (ت بعد 577هـ/1181م)) : تاريخ الفارقي، حققه بدوي عبد اللطيف، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1959. ص 189؛

Grousset René : op. cit., p. 627.

جذب الامبراطور داخل البلاد، حيث كان السلطان يرسل بعض فرسانه إلى المعسكر البيزنطي وبمجرد وصولهم إليه يعودون على أعقابهم كأنهم يلوذون بالفرار.¹ ولما وصل إلى خُوي (Khoi)،² في أذربيجان، "لم يتمكن من جمع العساكر لبعدها وقرب العدو"³، وأقصى ما استطاع أن يجمعه من الجيش هو خمسة عشر ألف مقاتل،⁴ من أكراد المنطقة،⁵ ثم سار بهم نحو الغرب سالكا طريق الساحل الجنوبي لبحيرة وان (Van)، وأرسل مقدمة جيشه نحو مدينة خلط، يقودهم صُنداق التركي (Soundaq)، فاستردها من البيزنطيين وهرب منها يوسف تراخانيوتس متوجها إلى ملطية.⁶

بعد استعادة خلط، سار ألب أرسلان مسرعا بجيشه نحو منازكرد، وكان رومانوس الرابع في نفس الوقت يسير من منازكرد باتجاه خلط، وكان السلطان على علم باقتراب البيزنطيين، غير أن الامبراطور تناسى هنا مبادئ الحرب البيزنطية بإرسال الكشافة، فكان يعتقد بأن الجيش السلجوقي ما زال بعيدا، ما أدى إلى اصطدام مقدمة جيشه بجموع جيش السلاجقة، فوقع بعض القادة في الأسر، وجُرح نقفور بُريان (Nicéphore Bryenne)، وهو قائد كل فرق الغرب،⁷ ويحمل رتبة لواء في الجيش البيزنطي، وقتل نقيبان أرمنيان وهما خَطَاب (Khatap)، وفاسيلاك (Vasilak)، إضافة إلى آخرين وعدد كبير من الجنود، وما تبقى منهم تراجعوا وانضموا إلى جموع القوات التي يقودها

¹ سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية، ج 1، ص 75؛ محمد عمر يحيى : مرجع سابق، ص 51.

² خُوي : بلد مشهور من أعمال أذربيجان، حصن كثير الخير والفواكه وهي تقع حاليا في إيران. (انظر : الحموي، مصدر سابق، ج 3، ص 262).

³ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 109.

⁴ الأصفهاني : مصدر سابق، ص 37؛ الحسيني : مصدر سابق، ص 47؛ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 109. لا يوجد اتفاق بين المصادر حول عدد أفراد الجيش السلجوقي، فقد قدره ابن القلانسي بأربعمئة ألف جندي، وابن الجوزي بعشرين ألف جندي، وابن العديم بثلاثة عشر ألف جندي.

⁵ Cahen Claude : La campagne de Mantzikert, p. 627.

⁶ الأصفهاني : مصدر سابق، ص 37؛

Grousset René : Histoire de l'Arménie, p. 627; Cheynet : Mantzikert un désastre militaire, p. 423.

⁷ Cheynet Jean-Claude : op. cit., p. 417.

رومانوس الرابع.¹ وبهذا الانتصار الجزئي للسلاجقة انتقل الخوف إلى معسكر البيزنطيين، وبدأت الهزيمة تتسرب إلى صفوفهم.

وهكذا وجد رومانوس نفسه وجها لوجه أمام الجيش السلجوقي في جنوبي منازكرد، وتحديدًا بين منازكرد وخلاط في مكان يعرف بالرهوة،² "وبين العسكرين فرسخ، وبين مجرى التوحيد والتثليث برزخ"،³ وقبل مباشرة القتال حاول ألب أرسلان استغلال انتصاره الجزئي ليتفاوض مع الامبراطور، فأرسل إليه مبعوثه ابن الملبان⁴ يقترح عليه عقد هدنة مع انسحاب الجيشين، وأن يحتفظ كل منهما بالأراضي التي يسيطر عليها.⁵ "فطن انما راسله عن خور فأبى واستكبر، ونبا وتعسر، وأجاب بأني سوف أجيب عن هذا الرأي بالري"⁶ وهذا دليل على أن رومانوس الرابع كان يريد غزو بلاد السلاجقة في خراسان، وأذربيجان حتى يصل إلى قلب دولتهم بالري، وأدرك ألب أرسلان عندئذ، أن الدولة السلجوقية الناشئة قد أصبحت مهددة، وإذا تمكن هذا الحشد البيزنطي من القضاء عليها، فإن الدور القادم سيكون على دولة الخلافة الإسلامية.

وبعد أن تعثرت المفاوضات بين الطرفين ورفض الإمبراطور الهدنة قائلاً : "لا هدنة إلا بالري"،⁷ يقصد احتلال عاصمة السلاجقة، "انزعج من ذلك السلطان، فقال له إمامه، وفقهه، أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي أنك تقاتل عن دين الله، وأنا أرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح فالحقهم يوم الجمعة في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر يدعون للمجاهدين

¹ محمد عمر يحيى : مرجع سابق، ص 51؛

Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 169; Grousset René : Histoire de l'Arménie, p. 627.

² الرهوة : هي صحراء قرب خلاط، وليس الزهوة كما ورد في بعض المراجع. (أنظر : الحموي : مصدر سابق، ج 4، ص 452).

³ الأصفهاني : مصدر سابق، ص 39.

⁴ الفارقي : مصدر سابق، ص 189؛ Cahen Claude : La campagne de Mantzikert, p. 631.

⁵ ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 16، ص 124.

⁶ الأصفهاني : مصدر سابق، ص 39.

⁷ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 109.

بالنصر على الكافرين والدعاء مقرون بالإجابة".¹ ثم حرض ألب أرسلان جنوده على الإستماتة في الدفاع عن دين الله حفاظا على دولة المسلمين.²

ج - اندلاع المعركة وانعكاساتها

قسم ألب أرسلان جيشه إلى أربع فرق معتمدا على حرب الكمائن،³ أما رومانوس الرابع فقد تكفل بقيادة القلب (وسط الجيش)، وكلف اندرونيك دوкас (Andronic)، وهو ابن أخ الامبراطور الراحل، بقيادة المؤخرة كفرقة احتياطية، ووضع الغز في الميمنة يقودهم آليات الكبادوكي (Aliette)، ووضع البشناق في الميسرة يقودهم نقفور بريان (Nicéphore Bryenne).⁴ واندلعت المعركة وقت الظهيرة يوم الجمعة 28 ذي القعدة 463هـ/26 أوت 1071م،⁵ وطبق السلاجقة خطة عسكرية اعتمدت على تنظيم الكمائن، حيث كانوا يتظاهرون بأنهم ينسحبون من ميدان المعركة فيلاحقهم البيزنطيون، وفجأة يخرج الجنود السلاجقة من مكانهم وراء البيزنطيين، فيقع هؤلاء في الفخ.⁶

وحسب المصادر الأرمنية والسريانية فإن جزءا من الجنود المرتزقة الأتراك انحازوا أثناء القتال إلى السلاجقة بعد أن تغلبت عليهم رابطة الدم، ولأنهم لم يتقاضوا أجورهم المتأخرة.⁷ وكان الأرمن أول

¹ الحسيني : مصدر سابق، ص 49.

² ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 16، ص 125؛ طقوش : مرجع سابق، ص 48.

³ الأصفهاني : مصدر سابق، ص 40.

⁴ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 169; Grousset René : Histoire de l'Arménie, p. 628.

⁵ أجمعت المصادر العربية على أن المعركة كانت يوم الجمعة، ولكنها تضاربت في تحديد التاريخ بشكل دقيق، فالحسيني يذكر أن المعركة كانت يوم 17 ذي القعدة 463هـ، وهو يوافق يوم الاثنين 15 أوت 1071، وابن الجوزي يذكر تاريخ 27 ذي القعدة 463هـ، وهو يوافق يوم الخميس 25 أوت 1071، أما ابن العديم فيذكر تاريخ 7 ذي القعدة الموافق ليوم الجمعة 5 أوت = وهو تاريخ بعيد عما هو مرجح، أما أريستاكيس اللستيفري ومتي الرهاوي، وميخائيل السرياني، فلم يذكروا تاريخا محددا. ولكن المؤرخين الأرمن المحدثين، يذكرون تاريخ 19 أوت 1071 الموافق ليوم الجمعة 21 ذي القعدة، وبعضهم يذكر تاريخ 26 أوت 1071م. (أنظر : Seydi, op. cit., p. 41.; Grousset René : loc. cit.)

⁶ الأصفهاني : مصدر سابق، ص 40.

⁷ محمد عمر يحيى : مرجع سابق، ص 51؛

Arisdaguès : op. cit., p. 144; Matthieu d'Edesse : loc. cit.; Grousset René : loc. cit.; Cahen : La campagne de Mantzikert, p. 633.

مجموعة فرت من ساحة المعركة وأداروا ظهورهم للجيش البيزنطي¹ بسبب موقف الامبراطور منهم، ومن كنيستهم. وربما تفاوضوا سرا مع السلاجقة، انتقاما من البيزنطيين.² ومما عجل من هزيمة الجيش البيزنطي، انسحاب بعض القادة العسكريين من ساحة القتال عندما أدركوا بأن المعركة خاسرة. وتخلوا عن رومانوس في تلك اللحظة الحرجة، منهم نففور بريان، و روسل بايلول، وميخائيل دو كاس. ثم أشاعوا خبر موته فانتشر كالنار في الهشيم.³ وبذلك اضطرب الجيش البيزنطي، وانهارت معنوياته، "فانهزم الروم وقتل منهم مالا يحصى حتى امتلأت الأرض ببحث القتلى".⁴ وتذكر المصادر أن رومانوس الرابع أظهر شجاعة خارقة، وقاتل ببسالة، حتى خر فرسه قتيلا تحت أقدامه، ووقع أسيرا بين يدي ألب أرسلان.⁵ "ولم يجر في الإسلام منذ ظهر مثل هذا الظفر، ولا أسر للروم متملك قبل هذا في الإسلام".⁶

وتسهب المصادر في ذكر المعاملة الحسنة التي تلقاها رومانوس من ألب أرسلان، والحوار الذي دار بينهما، واتفقا على أن يحتفظ السلاجقة بشكل نهائي بالجزء الأكبر من إقليم أرمينيا، بما فيها آني، وكارس، والفاسبوركان، ومنازكرد، وتحتفظ بيزنطة بحدودها الغربية عند مدينة أرزن.⁷ ولتمتين العلاقة بين العاهلين، اتفقا على تزويج ابنة الامبراطور بالإبن البكر للسلطان،⁸ ثم أطلق سراحه مقابل فدية قُدِّرت بمليون ونصف قطعة ذهبية، وجزية سنوية بلغت ثلاثمائة وستون ألف قطعة ذهبية، تدفعها الامبراطورية البيزنطية للدولة السلجوقية.⁹

¹ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 169; Cahen Claude : La campagne de Mantzikert, p. 635.

² العبد الغني عبد الرحمن محمد : الأرمن في الحرب الصليبية (1097-1099)، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع 03، المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر، ديسمبر 2008. ص 105.

³ طقوش : مرجع سابق، ص 49؛ محمد عمر يحي : مرجع سابق، ص 51؛ قمعون عاشوري : مرجع سابق، ص 103؛ Laurent J. : Des Grecs aux Croisés, p. 381; Grousset : Histoire de l'Arménie, p. 628; Cheynet : Mantzikert un désastre militaire, p. 427.

⁴ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 110.

⁵ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص 185.

⁶ ابن العليم : مصدر سابق، ج 4، ص 1977.

⁷ طقوش : مرجع سابق، ص 50؛ Vasiliev : op. cit., t. I, p. 469; Grousset : loc. cit.,

⁸ Cahen : La campagne de Mantzikert, p. 638.

⁹ الأصفهاني : مصدر سابق، ص 40؛ الحسيني : مصدر سابق، ص 52؛ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 110؛ Arisdaguès de Lasdiverd : op. cit., p. 145; Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 169, Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 269.

ولم تكذ تصل أخبار هذه الهزيمة إلى القسطنطينية، حتى أعلن ميخائيل السابع دوقاس ((Michel VII Doukas (1071-1078)) امبراطورا، ويبدو أن رومانوس كان حريصا على تطبيق الاتفاق الذي تم بينه وبين ألب أرسلان، ولكنه راح ضحية غدر أتباعه،¹ ووجد نفسه معزولا، ما دفعه إلى التمرد، فقبضَ عليه في قيليقيا، ثم سُملت عيناه قبل أن يتم إيصاله إلى العاصمة "فظل ديوجنيس يضرب رأسه في الجدار حتى لفظ روحه".² وبعد هذه الأحداث عاشت الامبراطورية فترة عشر سنوات من الانقلابات والثورات، ما ساعد السلاجقة على التوغل أكثر في أقاليم الامبراطورية، والاستقرار بشكل نهائي في الأناضول.³

كل الكتابات التاريخية الغربية والإسلامية، تعتبر هذه المعركة أكبر كارثة حلت بالامبراطورية البيزنطية، وقال عنها أحد المؤرخين إنها ساعة موت الامبراطورية البيزنطية،⁴ التي انهارت في منطقة آسيا الصغرى، واصبحت عاجزة عن حماية البوابة الشرقية لأوربا، مما أقلق النصارى في الغرب.⁵ وعلى سبيل المقارنة، إذا كانت معركة اليرموك قد فتحت أبواب الشام أمام المسلمين، فإن معركة منا زكرد فتحت أبواب آسيا الصغرى أمام القبائل التركية المسلمة، وقررت مصيرها إلى الأبد، وتعتبر بداية زوال السيادة البيزنطية على آسيا الصغرى. وما زاد من وقع "الكارثة" أن النورمان استولوا في نفس السنة على مدينة باري (Bari) الإيطالية، وكان سقوط هذه المدينة دليلا على نهاية السيادة البيزنطية في جنوب إيطاليا.⁶ والحقيقة أنها ليست المرة الأولى التي ينهزم فيها البيزنطيون أمام المسلمين، ولكن هذه المرة "لم يعد هناك جيش بيزنطي بعد 1071م"،⁷ وكل ما تبقى منه بات يحارب بعضه بعضا.⁸ أما

¹ اسكندر فايز نجيب : أرمنية، ص 115.

² ابن العبري : مصدر سابق، ص 112-113.

³ Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 269; Seydi : op. cit., p. 42.

⁴ الربيعي عبد الله بن عبد الرحمن: مرجع سابق، ص 437.

⁵ السرجاني راغب : مرجع سابق، ص 30.

⁶ ربيع حسنين محمد : مرجع سابق، ص 194.

⁷ Vasiliev : op. cit., t. I, p. 469.

⁸ Bréhier Louis : loc. cit.

أرمينيا "فقد فقدتها الإمبراطورية البيزنطية إلى الأبد".¹ وهي التي كانت معنا لا ينضب ؛ لأنها كثيرا ما أمدت تلك الدولة بالأسرات الحاكمة، وبعدد لا حصر له من أمهر الرجال في شؤون الحرب والسياسة، وبعد أن استقر فيها السلاجقة وانتزعوها من الامبراطورية البيزنطية، أصبحت القسطنطينية بمثابة رأس مفصول عن جسده.² واكتسح الأتراك بعد هذه المعركة، في أفواج متتابعة، منطقة واسعة امتدت من آسيا الوسطى إلى البلقان.³ وضخوا دما جديدا يسري في عروق الأناضول، فهي بداية عصر جديد في آسيا الصغرى والمناطق المجاورة لها.

وتدل معركة منا زكرد أن السلاجقة امتلكوا زمام المبادرة في الشرق الأدنى، ولم تعد انتصاراتهم تقتصر على جيرائهم المسلمين فقط، بل امتدت إلى الروم الذين يعتبرون أعداء تقليديين للمسلمين منذ القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي. وإذا كان المسلمون قد ابتهجوا لهذا الفتح المبين، وانتشرت رنة فرح عارمة في أنحاء العالم الاسلامي، فإن غيرهم اعتبر هذه المعركة انهزاما للمسيحية أمام الإسلام، وهو مبرر كاف ليحل اللاتين محل البيزنطيين على رأس الصليب. وكتب المؤرخ الفرنسي جروسي بحماسة قائلا : "ان 1071 أدت إلى 1095م" (1071 appelle 1095)⁴ فهو يبرر بصراحة بداية الحروب الصليبية، والحقيقة التي غفل عنها جروسي هي أن سنة 1071م مهدت لسنة 1453م.

هذا على الصعيد الخارجي، أما على الصعيد الداخلي فقد أحدثت معركة منا زكرد نتائج عميقة على عدة مستويات. فعلى المستوى السياسي، فتحت المعركة أبواب الحرب الأهلية داخل الامبراطورية البيزنطية استمرت عشر سنوات. وعلى المستوى الاقتصادي كلفت الامبراطورية ثمنا فادحا بسبب ما حدث لمعسكر الامبراطور من نهب لثروته، والغدية التي دفعها للسلطان أرهقت ميزانية الامبراطورية. وعلى المستوى النفسي فإن وقوع الامبراطور البيزنطي أسيرا في أيدي المسلمين لأول مرة، كان رمزا لتفوق الخلافة الاسلامية على الامبراطورية المسيحية.⁵

¹ طقوش : المرجع السابق، ص 50.

² ربيع حسنين محمد : مرجع سابق، ص 190؛ Pasdermajian H. : op. cit., p. 186.

³ Mouradian : op. cit., p. 25.

⁴ Grousset : L'Empire du Levant, p. 167.

⁵ Cheynet : Mantzikert un désastre militaire, p. 433.

والجدير بالذكر، أن هذه المعركة أنقذت الدولة الفاطمية من التصفية على أيدي السلاجقة قبل الحروب الصليبية برع قرن؛ لأن السلطان ألب أرسلان كان قد خرج قبيل المعركة في حملة عسكرية لاجتثاث الوجود الفاطمي في الشام ومصر، غير أن خبر خروج الامبراطور رومانوس الرابع واتجاهه نحو أرمينيا ثم بلاد فارس التي يسيطر عليها السلاجقة، بدل فوراً أولويات السلطان السلجوقي عسكرياً وسياسياً بسبب الغزو البيزنطي لأرضه، فتأخر بذلك سقوط مصر الفاطمية الشيعية، بيد السنة الأتراك مائة عام كاملة.¹

د - عوامل انهزام البيزنطيين

لقد كافح أباطرة بيزنطة زمناً طويلاً من أجل ضم إقليم أرمينيا إلى أراضي الإمبراطورية، ولكنهم وجدوا أنفسهم عاجزين عن حمايته من هجمات السلاجقة المتتالية؛ الأمر الذي يثير تساؤلات عديدة، فكيف تعجز الدولة البيزنطية العريقة مع ما تتوفر عليه من موارد اقتصادية، وتنظيمات عسكرية، وتحصينات قوية، وتجربة طويلة في رد الأعداء وإخماد الثورات، أمام مجموعة من الأتراك، قَدِموا من جوف آسيا منذ ربع قرن تقريباً، وهم لا يتوفرون على نفس الإمكانيات التي تتوفر عليها دولة بحجم الإمبراطورية البيزنطية ؟

يرى المؤرخ الفرنسي جون كلود شينييه (Jean-Claude Cheynet)، أن معركة منا زكرد، تكشف عن عدة أزمات سياسية واجتماعية داخل الإمبراطورية، أكثر مما تمثل فشل السياسة الخارجية للإمبراطور رومانوس الرابع في مواجهة السلاجقة، وأن ما حدث يوم 26 أوت 1071م، -وهو يوم المعركة- هو ذروة تلك الأزمات الداخلية التي عصفت بالإمبراطورية البيزنطية. ويبدو أن الضعف بدأ يدب في أوصال الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة باسيل الثاني سنة 1025؛ إذ لم يتول عرش الإمبراطورية بعده -باستثناء إسحاق كومنين- إلا شخصيات مريضة وقاصرة عن فهم وإدراك خطورة التحولات التي شهدتها الدولة على حدودها الشرقية، وعاجزة عن وضع استراتيجية تضمن لها تفوقها

¹ الشنقيطي محمد بن المختار : مرجع سابق، ص 120-121.

العسكري.¹ من بينها، قسطنطين التاسع مونوماخس (Constantin Monomaque IX) (1042-1055))، الذي طبق سياسة، هيأت للسلاجقة الظروف المناسبة، فبعد أن ضم مملكة آني إلى حظيرة الإمبراطورية، قام بحل المليشيات الأرمنية القوية التي بلغ تعدادها حوالي خمسين ألف جندي، وكانت تقوم بمهمة الدفاع عن الحدود، واستبدل الخدمة العسكرية للرعايا في أقاليم الحدود، بفرض مبالغ نقدية يدفعونها حلت محل ضريبة الدم. وقد تزامن ذلك مع بداية زحف السلاجقة على أرمينيا. وبضربة واحدة قضى على القوة التي كانت تحمي بيزنطة من أعدائها، وتخلّى عن سياسة التجنيد التي كان يطبقها الأباطرة سابقا، واستعان بمرتزقة للدفاع عن المناطق الحدودية ضد غزوات الترك. لكن لم يكن هؤلاء المرتزقة يحاربون دفاعا عن وطنهم ولا نساءهم ولا أبنائهم، كما كانت تقوم بذلك الفرق الأرمنية سابقا.²

وبعد أن تخلت الامبراطورية عن سياسة التجنيد، وفتحت الباب للجنود القادمين من قبائل وشعوب مختلفة، أصبح الجيش يحوي خليطا عجيبا من قوميات متنافرة، يفتقر إلى التدريب وصعب الإنقياد. ومن العسير أن يحدث انسجام ووافق بين الجيش البيزنطي المحترف، وجموع المرتزقة، وكان ذلك سببا رئيسا في عدم التثام وحدته في معركة منا زكرد.³ والمعروف أن ولاء الجند المرتزقة لا يتعدى رواتبهم النقدية. وليس لهؤلاء الجند شعور قومي تجاه الوطن أو تجاه الامبراطور، وهم لا يتورعون عن نهب سكان الأقاليم أو تجريدتهم من مقاطعاتهم إن تأخرت رواتبهم.⁴ وعموما فإن انعدام الوفاق بين أرباب الإدارة، وأرباب السيوف بعد الأسيرة المقدونية، كان من أهم العوامل التي أدت إلى انهيار الامبراطورية البيزنطية، وسقوطها صاغرة ذليلة أمام السلاجقة.

¹ Laurent J. : Byzance et les Turcs Seldjoudes, pp. 45-46; Cheynet : Mantzikert, p. 412.

² عطا زبيدة : مرجع سابق، ص ص 46-47؛ ربيع حسنين محمد : مرجع سابق، ص 170؛

Grousset : Histoire de l'Arménie, p. 586; Schlumberger Gustave : L'épopée byzantine, t. III, pp. 501-502; Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 248.

³ محمد عمر يحيى : مرجع سابق، ص 51. Cheynet Claude : op. cit., p. 416.

⁴ ربيع حسنين محمد : مرجع سابق، ص 171.

ولكي تضمن بيزنطة لنفسها أمنا دائما في ربوع أرمينيا، عمدت إلى إبعاد النبلاء الأرمن وذلك بمنحهم إقطاعات وأراضي شاسعة في أقاليم شتى من أنحاء الامبراطورية، خوفا من أن يكونوا سببا في تفجير الثورات، أو قيادة حركات تمرد، ضد السلطة البيزنطية.¹ وقد دفعت بيزنطة ثمن ذلك غاليا فيما بعد؛² لأن سياسة الإلحاق التي طبقتها الامبراطورية في إقليم أرمينيا أدت إلى إلغاء دور الدولة الحاجزة الذي كانت تقوم به أرمينيا. وحينما تعرضت هذه الأخيرة لهجوم السلاجقة، وجدت الامبراطورية البيزنطية نفسها عرضة لهجماتهم.³

بهذه السياسة، جُرِّدَت أرمينيا من السلاح. وحين وصلها الأتراك وجدوها دون دفاع، كما وجدوا مجتمعا يفتقر للتنظيم، وللزعماء والقادة. وباختصار فإن سياسة بيزنطة سهلت عليهم، عملية الاستيلاء على أرمينيا وقضت على نفسها أيضا.⁴ والعبارة التي كتبها المؤرخ أريستاكيس اللسفرتي تدل على أن أرمينيا أصبحت مجردة من كل حماية حيث قال : "انقض الأعداء كالذئاب الجائعة التي تلتهم بلا رحمة القطيع الذي بلا راع يحرسه".⁵

ولم يكن الأمر أحسن حالا من الناحية الاجتماعية، لأن الأرمن كانوا جد مستائين من السياسة الإدارية والدينية للسلطة المركزية التي اعتمدت على القوة لفرض مذهبها الديني عليهم، مما جعلهم ينفرون من البيزنطيين.⁶ وفي الطريق نحو منازكرد، تعرضوا للتهديد، والوعيد من الامبراطور رومانوس الرابع. فكيف سيقف هؤلاء معه في حربه ضد السلاجقة ؟ والمثل العربي، "على أهلها جنت براقش" خير من يصف علاقة بيزنطة بأرمينيا.

¹ Augé Isabelle : op. cit., p. 25.

² Jean-Pierre Alem : L'Arménie, Presses Universitaires de France, Paris, 1959. p. 32.

³ Vasiliev A. A. : op. cit., t. I, p. 467.

⁴ Grousset René : Histoire de l'Arménie, p. 586.

⁵ Arisdaguès de Lasdiverd : op. cit., p. 72.

⁶ ربيع حسنين محمد : مرجع سابق، ص 175-176؛

Vasiliev : op. cit., t. I, p. 417; Grousset René : L'Empire du Levant, p. 159.

وإذا كان الأرمن قد صمدوا طويلاً أمام المسلمين، ودافعوا عن استقلالهم وبرعوا في استخدام الأساليب الدبلوماسية لمواجهة الضغط الإسلامي، ها هي الامبراطورية البيزنطية التي أخذت على عاتقها الدفاع عن أرمينيا، تنهار أمام الأتراك المسلمين بالضربة القاضية. إن هؤلاء البيزنطيين الذين أسأوا الدفاع عن الأرمن، بل واضطروهم إلى الهجرة من بلادهم بأعداد هائلة، ها هم اليوم يتخلون عنهم أمام أول ضربة تلقوها. وبالعودة إلى ما كتبه متى الرهاوي في القرن الثاني عشر، يبرز مدى كره الأرمن للبيزنطيين وتحملهم مسؤولية اجتياح السلاجقة لأرمينيا، فهو يقول : "لا أحد يستطيع أن يروي بالتفصيل ما حل بالأمة الأرمنية من كوارث وما قاسته على يد الأتراك من محن وآلام وأحزان وما ذرفته من دموع. في وقت فقدت فيه مملكتنا أسيادها الشرعيين على أيدي مدافعين مزيفين، إنهم البيزنطيون المتخثثون الذين تصدوا للدفاع عنا وهم عاجزون، ومخطئون، إنها الدولة البيزنطية الخسيسة التي شتتت الشباب الأكثر شجاعة في أرمينيا بعد أن انتزعتهم من ذويهم، لقد دمرت عرشنا القومي، وأسقطت ذلك الجدار الواقى الذي بناه جيشنا الباسل ومحاربينا الشجعان. هؤلاء البيزنطيون يشبهون قسا جبانا يهرب بمجرد رؤيته لذئب، لا يهدأ لهم بال إلا إذا أسقطوا جدار أرمينيا".¹

ويتحامل المؤرخ جروسي على الإمبراطورية البيزنطية، ويحملها مسؤولية سقوط أرمينيا في أيدي السلاجقة. ويوجه سهامه إلى الإمبراطور باسيل الثاني (Basile II) (976-1025)، الذي ساءت في عهده العلاقة كثيراً بين الأرمن وبيزنطة؛ لأنه بذل كل ما في وسعه من أجل إعادة أرمينيا إلى بيت الطاعة. وفي نظره، فإن باسيل الثاني، كان عليه أن يواصل حملاته في الجزيرة وسوريا ضد الإسلام، وهو ما كان منتظرا منذ مدة لاستعادة القدس، وانتزاعها من أيدي المسلمين، لا أن يوجه أنظاره وحرابه نحو أرمينيا. وبعد أن فقدت أرمينيا حريتها لفائدة بيزنطة، عجزت هذه الأخيرة عن حمايتها فعلاً من الأتراك.²

وكعادته يبرر المؤرخ جروسي، فشل بيزنطة في الدفاع عن المدن الأرمينية وعجزها عن توفير الحماية، بالصراع المذهبي والجدال الذي كان قائماً بين الكنيسة الأرمينية، والكنيسة البيزنطية حول

¹ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 113.

² Grousset : L'Empire du Levant, pp. 148-149.

طبيعة المسيح.¹ بينما ستثبت الأحداث القادمة أن الإمبراطورية العجوز، قد وصلت إلى المرحلة الأخيرة من عمرها، أمام قوة فتية تفيض حيوية راغبة في الحياة، مندفعة مثل شلال متدفق، بثت في العالم الاسلامي روحا جديدة، أدت إلى تغيير موازين القوى في الشرق الأدنى.

وبما أن موضوع البحث يتعلق بأرمينيا وليس ببيزنطة، فإن السؤال الذي يفرض نفسه هنا، ماهي انعكاسات معركة مناظر كرد على الأرمن ؟

هـ - انعكاسات معركة مناظر كرد على الأرمن

رغم المشاجرة التي حدثت، قبيل المعركة بقليل، بين الامبراطور رومانوس الرابع والأمراء الأرمن في سيواس، الذين اتهمهم سكان المدينة بالتعاون مع الأتراك ضد البيزنطيين، ورغم تهديدات الإمبراطور باستئصال الكنيسة الأرمنية وجميع أتباعها بعد عودته من المعركة، كُلف ضباط أرمن، بمسؤوليات مهمة في الجيش البيزنطي الذي واجه ألب أرسلان في مناظر كرد، من بينهم خَطَّاب (Khatap)، وفاسيلاك (Vasilak)، اللذان لقيا حتفهما في المعركة، وتورنيكيوس كوترتزاس (Tornikios Kotertzès)، الذي فر من ساحة القتال وعاد إلى القسطنطينية.² ويرى المؤرخ جيرار ديدبيان، أن هؤلاء القادة الأرمن أرادوا الدفاع عن حدود وطنهم، من داخل الجيش البيزنطي، وهي الاستراتيجية التي تبناها رومانوس الرابع لطرد السلاجقة من الأقاليم الشرقية للإمبراطورية البيزنطية.³ والواقع أن مشاركة هؤلاء الأرمن لا تزيد عن كونهم مرتزقة مثل غيرهم من الكرج، والروس، والفرنجة، والأتراك، لأن مصلحتهم الوطنية آنذاك كانت تقتضي التحالف مع السلاجقة بدلا من الانخراط في الجيش البيزنطي.

¹ Grousset : L'Empire du Levant, pp. 162-163.

² Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 168-169.

³ Dédéyan Gérard : Les Arméniens sur la frontière sud-orientale de Byzance, fin IXe - fin XIe siècles, : **La Frontière. Séminaire de recherche**, volume 21, n° 1, Maison de l'Orient Méditerranéen, Lyon, 1993. p. 83.

لقد أنهت معركة مانازكرد أرمينيا التاريخية،¹ وأثرت تأثيراً بالغاً على أوضاع الأرمن في آسيا الصغرى، فبعد أن فقد الجيش البيزنطي قدرته على الدفاع عن الحدود الشرقية للإمبراطورية، ولم يعد يقف أمام زحف السلاجقة أي مانع، انساب هؤلاء إلى جوف آسيا الصغرى واستقروا في أراضيها، ثم شرعوا يعملون على إزالة المعالم البيزنطية. وبدأت صورة الحياة تتغير فيها وتتخذ الطابع الإسلامي.² أمام هذه الأوضاع الجديدة بدأ الأرمن في الهجرة جماعات وأفراد، نحو كبادوكيا، ومرتفعات طوروس، حيث استقر هناك بعض النبلاء وبعض الأسر الأرمنية التي سبق لها وأن هاجرت إلى تلك المناطق.³

ولكنهم وجدوا أنفسهم غير مرحب بهم من طرف البيزنطيين في كبادوكيا، وتعرضوا لمعاملة قاسية، حيث كان يقيم فيها بعض ملوك أرمينيا السابقين، وبعض من أمرائها، ونبلائها، منهم جاجيك الثاني آخر ملوك آني، وقريبه جاجيك عباس ملك قارص سابقاً، والأميرين آتوم، وأبو سهل من أسرة الأرزونيين (Ardzrouniennes) التي حكمت إقليم الفاسبوركان. واتخذ الأرمن من كبادوكيا وطناً جديداً لهم.⁴ ولكن البيزنطيين لم يكونوا ينظرون إليهم بعين الارتياح، واستعملوا كل الوسائل لإجبارهم على اعتناق مذهب الكنيسة البيزنطية الخلقدوني، وأبدوا لهم العداوة والبغضاء، ولم يتوانوا في إيذائهم وإذلالهم حتى أن لوقا رئيس أساقفة مدينة قيصرية أطلق على كلبه اسم "أرمن".⁵ ولما علم جاجيك الثاني بذلك، دبر له مكيدة وقتله مع كلبه. غير أن البيزنطيين انتقموا له بالقبض عليه أثناء مروره بالقرب من قلعة جُسَسْطَرُون⁶ (Kyzistra). ولما علم الأمراء الأرمن المقيمون في كبادوكيا ما وقع لملكهم السابق، جاؤوا لنجدة وتحريره، وضربوا حصاراً على القلعة، فقام البيزنطيون

¹ Payaslian Simon : The History of Armenia from the origins to the present, Palgrave Macmillan, New York, 2007. p. 75.

² طقوش : مرجع سابق، ص 51.

³ Laurent J. : Des Grecs aux, p. 381; Dédéyan : Les Arméniens sur la frontière, pp. 67-83; Mouradian : op. cit., p. 25.

⁴ Grousset : Histoire de l'Arménie, p. 630.

⁵ حانجي انطون : مرجع سابق، ص 211؛

Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 152-154; Grousset René : L'Empire du Levant, p. 175.

⁶ جسسطرون : قلعة مشهورة في القباذق (كبادوكيا) تقع في جبل عليه قلاع كثيرة، سمته العرب ذا القلاع ثم حُرِفَ الاسم إلى ذي الكلاع. (انظر : ابن خردادبه، مصدر سابق، ص 108؛ Dulaurier : op. cit., p. 98).

بقتل الملك خنقا ثم علقوا جثته في أعلى القلعة حوالي سنة 1073م.¹ وبعدها بأيام قليلة قُتل الأمراء الأرمن الآخرون، بأمر من البيزنطيين في عهد الامبراطور ميخائيل السابع. لذلك أظهر متى الرهاوي ارتياحا لما حلَّ بالبيزنطيين في منازل كرد، ومدح سلطان السلاجقة لما تحقق للأرمن من راحة بال في عهده.²

وبعد أن قتل البيزنطيون آخر ملك أرمني، ومع توسع السلاجقة في إقليم كبادوكيا، غادر كثير من الأرمن هذا الاقليم، بحثا عن مأوى جديد، فاتجهوا نحو المدن الواقعة في جبال طوروس وسهل قيليقيا، نحو مرعش، وطرشوس، ودولوك (Doulouk)، والرها. ولم يقتصر الأمر على نزوح بشري من مدينة إلى أخرى بحثا عن الثروة أو المجد، ولكنهم نظموا أنفسهم هذه المرة وبرز من بينهم بعض القادة والأمراء الذين أعادوا تشكيل مؤسساتهم الدينية والسياسية وأقاموها بطريقة جديدة، وهو ما ستم دراسته في الفصول اللاحقة من هذا البحث.

ومن النتائج التي يمكن استخلاصها من هذا الفصل :

أولا : ظهر السلاجقة في المشرق الإسلامي في وقت كانت الخلافة العباسية في حاجة إلى قوة إسلامية جديدة تحميها من المتسلطين عليها في الداخل، ومن المتربصين بها في الخارج. وبعد معركة منازل كرد، استعاد المسلمون اقليم أرمينيا، ولم تعد بيزنطة قادرة على مواجهة المسلمين.

ثانيا : فقد الأرمن استقلالهم، قبل سقوط مدينة آني في أيدي الأتراك السلاجقة، ومن ثمة فإن هجرتهم من أرمينيا الكبرى إلى كبادوكيا، لم يكن سببها السلاجقة، بل الإمبراطورية البيزنطية التي تمددت على حساب أراضيهم، ثم لجأت إلى سياسة الترغيب والترهيب في تعاملها مع الأرمن، وفتحت لهم أبواب الهجرة على مصراعيها.

¹ Schlumberger Gustave : L'épopée byzantine, t. III, p. 490. يشكك جون كلود شينيه في هذه الحادثة،

ويقول بأن المصادر البيزنطية لم تشر إليها إطلاقا، ولا يمكن لها أن تتجاهل رئيس أساقفة قيصرية. (انظر :

Cheyne Jean-Claude : Les Arméniens de l'Empire en Orient de Constantin X à Alexis Comnène (1059-1081), ds. L'Arménie et Byzance histoire et culture, Publications de la Sorbonne, Paris, 1996. p. 68.

² Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 172.

ثالثا : تحمست الامبراطورية البيزنطية كثيرا لضم إقليم أرمينيا إلى أراضيها، وكانت لا تنظر إلا للثروة التي تجنيها من هذا الإقليم، ولم تقدر جيدا الأعباء والمسؤوليات المترتبة عن هذه السياسة، ثم وجدت نفسها عاجزة عن الدفاع عنه أمام السلاجقة.

رابعا : أحدثت معركة منا زكرد تحولات سياسية واجتماعية عميقة في آسيا الصغرى، أبرزها استقرار الأتراك بشكل دائم ونهائي في آسيا الصغرى، ونزوح عدد كبير من الأرمن نحو إقليم قيليقيا.

خامسا : تمثل معركة منا زكرد نقطة تحول في تاريخ العلاقات الدولية، فقد أدت إلى بروز قوى سياسية جديدة، وفقدت الامبراطورية البيزنطية مكانتها الدولية، أمام تعاظم نفوذ البابوية، وبداية تدخل اللاتين في شؤون الشرق.

الفصل الثالث

الأرمن بين معركة منازكرد والحملة الصليبية الأولى

(1) تأسيس سلطنة سلاجقة الروم في نيقية (474هـ/1081م)

أ - العوامل المساعدة على قيام السلطنة

ب - دور سليمان بن قتلمش في تأسيس السلطنة

ج - دور قلج أرسلان بن سليمان في بعث السلطنة

(2) الهجرة الأرمنية

أ - سياسة الأرمنة في قيليقيا

ب - موقف البيزنطيين من الأرمن في قيليقيا

(3) تأسيس أول دولة أرمنية في قيليقيا (465-485هـ/1072-1090م)

أ - فيلاريت براخامبوس

ب - تمرد فيلاريت على الامبراطورية البيزنطية

ج - فيلاريت المدجن

د - فيلاريت بين بني عقيل وسلاجقة الروم

هـ - فيلاريت في مواجهة ملكشاه

و - فيلاريت في المصادر الأرمنية والسريانية

(4) تأسيس إمارة بني روبين في قيليقيا

أ - بروز آل روبين وآل هيثوم

ب - روبين الأول (Roubên I) (1080-1095)

يتطرق الفصل الثالث من هذا البحث إلى موضوعين رئيسيين، الأول : هو استمرار تدفق السلاجقة على الأناضول بعد معركة منازكرد، وتأسيس سلطنة سلاجقة الروم في قونية في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، على يد سليمان بن قتلмыш، جد الأتراك في آسيا الصغرى. وظلت تلك الدولة قائمة رغم الخطوب والمحن التي توالى عليها، حيث اخترق الصليبيون أراضيها من الغرب، وجاس المغول خلال الديار من الشرق، وظلت متشبثة بالأقاليم التي فتحتها مدة ما يقارب ثلاثة قرون. ولا يعني هذا البحث دراسة تاريخ أسرة سلاجقة الروم بكل أحداثها وتفصيلها، ولا الحروب والنزاعات التي نشبت بينهم وبين البيزنطيين، والصليبيين، إلا بما يتصل بالموضوع. وسنحاول أن نسلط الضوء على طبيعة العلاقات التي كانت بين هذه السلطنة، وإمارة أرمينيا الصغرى، التي نشأت في نفس الفترة وفي إقليم غير بعيد عن أنظار سلاطين سلاجقة الروم.

والموضوع الثاني : هو انتقال الأرمن من موطنهم في أرمينيا الكبرى، والتفافهم حول بعض قادتهم، وزعمائهم، ونجاحهم في انتزاع بعض القلاع، والأراضي من الامبراطورية البيزنطية، وإعادة بعث مؤسساتهم الدينية والسياسية في أرض المهجر بقليقيا. والغريب في الأمر أن هذه الإمارة الناشئة، وُلدت وسط محيط يناصبها العداء، فالسلاجقة يواصلون انتشارهم في آسيا الصغرى. كما كانت الإمارات الإسلامية في الشام تنظر بعين الريبة لهذه الإمارة المسيحية التي نشأت بينهم، والامبراطورية البيزنطية تعتبر إقليم قيليقيا امتدادا طبيعيا لها، وكل سلطة فيه يجب أن تخضع لطاعتها، ورغم هذه التحديات والصعاب، فقد تمكن الأرمن من الاحتفاظ بوجودهم، وتوازهم وسط محيط يهددهم بالفناء. فأين يكمن السر في ذلك ياترى ؟ ومن هم الرواد الأوائل الذين استوطنوا قيليقيا ؟ وكيف كانت علاقاتهم بالقوى المجاورة لهم ؟ ولماذا اختاروا هذا الاقليم دون غيره ليكون وطنهم ؟

1- تأسيس سلطنة سلاجقة الروم في نيقية (474هـ/1081م)

أزاحت معركة منازكرد خطر البيزنطيين عن طرق توسع السلاجقة في آسيا الصغرى. فانصرف السلطان ألب أرسلان بعد ذلك لإخماد الفتنة التي نشبت في بلاد ما وراء النهر، حيث عبر نهر جيحون في أوائل سنة 465هـ/1072م، لمحاربة المتمردين من أصحابه القراخانيين الذين ساءت العلاقات بينه وبينهم بعد وفاة ملكهم طمعاج خان¹ سنة 460هـ/1067م. ويعود سبب تدهورها إلى محاولة شمس الدين نصر - بن طمعاج خان ووريثه - الانفصال عن السلاجقة،² ما دفع السلطان إلى تنظيم حملة عسكرية ضده. وبعد أن تمكن من فتح بعض المدن واستعادتها، لقي حتفه على يد قائد إحدى القلاع المتمردة بتاريخ 11 ربيع الأول سنة 465هـ/24 نوفمبر 1072م،³ ودفن في مدينة مرو بجوار أبيه، وعمه طغرل بك.⁴

"لما جرح ألب أرسلان أوصى بالسلطنة لابنه ملكشاه وكان معه"،⁵ وكان مدبراً مهياً لهذا الأمر. وكان قد شارك مع أبيه في كثير من حروبه. وبعد انتهاء مراسيم الدفن والعزاء، عاد ملكشاه (Melikshah) (1072-1092)، مع جيشه إلى خراسان واتخذ من نيسابور⁶ ثم أصفهان

¹ طمعاج خان : هو أبو المظفر عماد الدولة إبراهيم طفقاج خان بن نصر وهو أحد ملوك الخانية فيما وراء النهر، تولى السلطة ما بين سنتي 440 و 460هـ، وهو والد زوجة ملكشاه، الابن الأكبر للسلطان ألب أرسلان. (انظر : ابن العبري : مصدر سابق، ص 207، هامش رقم 2).

² يذكر ابن العبري أسباباً أخرى لهذه الفتنة. (انظر : ابن العبري : مصدر سابق، ص 113).

³ الراوندي : مصدر سابق، ص 190-192؛ الحسيني : مصدر سابق، ص 53-54؛ Seydi : op. cit., p. 42.

⁴ الحسيني : مصدر سابق، ص 55.

⁵ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 113.

⁶ نيسابور : مدينة تقع حالياً شرقي إيران، وتلفظ في اللغة الفارسية نيشابور، وهي كلمة مركبة من نيو شاه بور ومعناها «شيء أو عمل أو موضع سابور الطيب». وسميت بذلك نسبة إلى الملك سابور الثاني الساساني الذي جدد بناءها في المائة الرابعة للميلاد. ومؤسسها الأول هو سابور بن أردشير بن بابكان في القرن الثالث. وعرفت عند الجغرافيين العرب بعدة أسماء، منها : أبرشهر، وإيرانشهر. واشتهرت عند العامة باسم نساور. ووصفها الحموي قائلاً : "هي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة معدن الفضلاء ومنبع العلماء لم أر فيما طوّفت من البلاد مدينة كانت مثلها". وكانت من أهم المراكز الثقافية في العصر السلجوقي. (انظر : الحموي : مصدر سابق، ج 8، ص 422-424؛ لسترنج كي، مرجع سابق، ص 424-428).

عاصمة للملكه، ومن نظام الملك الطوسي وزيراً له.¹ ثَبَّتَ السلطان السلجوقي الجديد دعائم الدولة السلجوقية وقد "ملك السلطان ملكشاه من البلاد ما لم يجتمع لأحد من الملوك ممن تقدمه و لا ممن تأخر"² حيث بلغت الدولة في عهده رقعة شاسعة امتدت من حدود الصين شرقاً إلى بحر مرمرة غرباً.³ وإذا كان فضل امتداد حدود دولته شرقاً يعود له، فإن امتدادها غرباً هو ثمرة من ثمار جهود أحد أقاربه وهو سليمان بن قتلمش⁴ الذي يعتبر فاتح الأناضول ومؤسس سلطنة سلاجقة الروم⁵ في آسيا الصغرى؛ لأن السلطان ملكشاه لم تطأ قدماه أرض الأناضول، ولكنه عهد إليه بمواصلة فتح بلاد الروم لصالح القبائل التركية، ويتولى حكمها مع الاعتراف بسيادة ملكشاه عليها.⁶ وكانت الظروف مواتية للتوغل أكثر في جوف آسيا الصغرى، وقد ساعد سليمان بن قتلمش في تحقيق هدفه، ونجاحه في مهمته الحالة الديمغرافية والسياسية التي أمست عليها آسيا الصغرى بعد معركة منازكرد.

¹ الراوندي : مصدر سابق، ص 206؛ ابو النصر محمد عبد العظيم : مرجع سابق، ص 90.

² الحسيني : مصدر سابق، ص 71.

³ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 77.

⁴ سليمان بن قتلمش : ابن عمه السلطان ملكشاه وزعيم سلاجقة الروم بآسيا الصغرى. استطاع السيطرة على قونية وأقصر، وأعمالها بآسيا الصغرى، اتصف بالشجاعة والاقدام ومواصلة الجهاد ضد الروم البيزنطيين، فتح عدة بلدان وكان آخرها أنطاكية سنة 478هـ، وحاول الاستيلاء على حلب من شرف الدولة مسلم بن قريش ولكنه لم يستطع فقد تصدى له تاج الدولة تتش صاحب دمشق، وأرتق بن أكسب صاحب بيت المقدس من قبل ملكشاه، ووقع صريعاً في معركة دارت بين الطرفين سنة 479هـ/1086م بالقرب من حلب. (انظر : ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 136؛ طقوش : مرجع سابق، ص 53).

⁵ أطلق المؤرخون اسم سلطنة سلاجقة الروم، على البلاد التي فتحها هؤلاء وحكموها وهي آسيا الصغرى؛ لأن العرب أطلقوا اسم الروم على البيزنطيين الذين كانوا يحكمون تلك البلاد، فسميت باسمهم أي بلاد الروم، ولما حل السلاجقة محل الروم في آسيا الصغرى أطلق عليهم المؤرخون المسلمون اسم سلاجقة الروم، مثلما أطلقوا على فروع السلاجقة الآخرين اسم البلاد التي استقروا فيها مثل سلاجقة الشام وسلاجقة العراق. (أنظر : لسترنج كي، مرجع سابق، ص 159).

⁶ الحسيني : مصدر سابق، ص 72؛ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 137؛ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 77؛ طقوش : مرجع سابق، ص 54؛

Leiser G. : Sulayman b. Kutulmish, in : **Enc. Isl.**, Brill, Leiden, 1997. t. IX, p. 825-826; Cahen : La campagne de Mantzikert, p. 641.

أ - العوامل المساعدة على قيام السلطنة

من الناحية الديمغرافية، هاجر عدد كبير من الروم والأرمن الذين كانوا يسكنون المناطق الشمالية والشرقية في آسيا الصغرى، وتركوا أراضيهم وممتلكاتهم شاغرة. فوجد السلاجقة الطريق سالكة أمامهم للاستقرار في الضياع الخربة التي هجرها أصحابها.¹ ويعلق المؤرخ يوسف لورانت قائلاً : "وفيما بين سنتي 1071 و 1081م، أمست السهول والمنخفضات الممتدة من قيصرية و سيواس إلى نيقية وسارديس² شبه فارغة، وتحولت أراضيها إلى مضارب لخيام الأتراك ومراع لخيولهم وأغنامهم، شبيهة بالصحراء التي خرجوا منها"،³ ويؤيده المستشرق الفرنسي روني جروسي قائلاً : "لقد تحولت فريجيا وكبادوكيا -وما زالت إلى اليوم- إلى تركستان جديدة، حتى غدت وكأنها قطعة من مراعي القرغيز".⁴ وقام سليمان من جهته بتحرير كل الأقنان، والعبيد الذين كانوا يزرعون الأراضي ويعملون في ممتلكات البيزنطيين، مقابل ضريبة يدفعونها لخزينة السلطنة، واكتسب بذلك ولائهم.⁵

تتضح هنا الرسالة التي يريد هذان المؤرخان تمريرها، وهي أن السلاجقة المسلمين دمروا الحضارة البيزنطية المسيحية، وعملوا على تزييف آسيا الصغرى وحولوها إلى خراب. والحقيقة أن المصادر العربية لم تذكر أن السلاجقة أجبروا السكان على الرحيل، أو أكرهوهم على اعتناق الاسلام، أو قاموا بتهجير المسيحيين قسرياً بعيداً عن من مواطنهم الأصلية، كما فعلت الامبراطورية البيزنطية سابقاً. وكل ما في الأمر أن الروم والأرمن وجدوا أنفسهم بدون حماية سياسية أو عسكرية بعد انهيار الجيش البيزنطي في معركة منازكرد، وأصيبوا برعب شديد لأن الأتراك اشتهروا بجبروتهم وسرعة انتشارهم، "ورؤّع الترك البيزنطيين على أنهم متبررون لا على أنهم مسلمون"،⁶ فخرج السكان هائمين يبحثون

¹ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 77؛ Grousset : L'Empire du Levant, p. 173.

² سارديس (Sardes) : مدينة قديمة كانت عاصمة مملكة ليديا في غرب آسيا الصغرى، احتلها الفرس ثم الرومان، وكانت أحد المراكز المبكرة للمسيحية. هدمها تيمورلنك. (أنظر : الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ج 4، ص 1770).

³ Laurent J. : Byzance et les Turcs Seldjoudides, p. 109.

⁴ Grousset : loc. cit.

⁵ Ibid.

⁶ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية، السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، 1997. ج 1، ص 132.

عن مأوى بعيدا عن طرق السلاجقة. ويلخص ابن العبري هذه الحالة في قوله : "وضعت دولة الروم يومئذ ؛ إذ كان الأتراك يغزون بلادها في كل مكان".¹ وفي ملح البصر وجد الروم أنفسهم أقلية أمام جحافل السلاجقة الأتراك، مع ما ترتب عن ذلك من تحولات دينية وثقافية ولغوية.

ومن الناحية السياسية، يبدو أن البيزنطيين لم يُقدِّروا خطورة الكارثة التي حلت بهم في منازكرد، فقد شهدت الدولة البيزنطية حرباً أهلية زادت الطين بلة، وحفل التاريخ البيزنطي آنذاك بحركات التآمر والتمرد، ولم يتورع أطراف النزاع من أباطرة، وقادة جيش عن طلب النجدة والمساعدة من السلاجقة، والتحالف معهم، فاستدعواهم إلى قلب الأناضول، وكلفوهم بحراسة العديد من المدن، فكان هذا مكسبا للسلاجقة.² لقد كانت تلك الحركات التمردية دليلا على ضعف السلطة المركزية بالقسطنطينية وعجزها، وأدرك السلاجقة ذلك، وكانت فرصتهم للتدخل في الشؤون الداخلية لأطراف النزاع،³ مما شجعهم على اجتياح مدن آسيا الصغرى وقراها بمساعدة البيزنطيين أنفسهم الذين كانوا في حرب ضد بعضهم بعضا. مما يسر لهم التوغل إلى الأقاليم الغربية في آسيا الصغرى.⁴

ومن بين أهم حركات التمرد التي استغلها السلاجقة للوصول إلى قلب بلاد الروم، الحركة التي قام بها القائد البيزنطي نففور بوتانياتس (Nicéphore Botaniatès) (1078-1081) قائد ثيم الأناطوليك، ضد الإمبراطور ميخائيل السابع. حيث كان سليمان بن قتلمش في بداية الأمر حليفا

¹ ابن العبري : مصدر سابق، ص 117.

² استنجد الإمبراطور المنهزم رومانوس الرابع بالسلاجقة ليساعده في صد قوات الإمبراطور ميخائيل السابع الذي استولى على العرش بعد معركة منازكرد، وحذا حذوه معظم الأباطرة الذين تولوا السلطة في القسطنطينية. فتحالف الإمبراطور ميخائيل السابع (Michel VII Doukas) (1071-1078م)، مع السلاجقة، للقضاء على تمرد روسل بايول (Roussel de Bailleul)، الذي كان يطمح إلى تأسيس إمارة نورمانية مستقلة في الأناضول. حيث أرسل إلى الأمير السلجوقي أرتوق (Artoukh) كثيرا من الأموال والهدايا، ووعدته بأنه إذا نجح في القبض على روسل، وسلمه إليه سيكون من حق السلاجقة البقاء في كل ما يفتحونه من أراضي، كان قد استولى عليها روسل من قبل. ثم تحالف القائد البيزنطي الكسيوس كومنين مع الأمير توتاك (Toutakh) ضد روسل دائما. (أنظر : طقوش : مرجع سابق، ص 54-57؛ إبراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 52-66؛ الربيعي عبد الله بن عبد الرحمن: مرجع سابق، ص 435-437؛ قمعون عاشوري : مرجع سابق، ص 119-123؛

Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance, pp. 269-276).

³ Cheynet Jean-Claude : Les Arméniens de l'Empire en Orient, p. 71.

⁴ طقوش : مرجع سابق، ص 54؛ Bréhier Louis : op. cit., p. 271.

للإمبراطور، ولكنه لما لاحظ تفوق بوتانياتس ورجحان كفته، تخلص من حليفه السابق، ووقف إلى جانب القائد المتمرد، فذهب إليه في مدينة نيقية (Nicée)¹، مع غيره من الأتراك، وأظهروا له مظاهر الطاعة والولاء. فاستقبلهم بوتانياتس بحفاوة، وأكرمهم، وسمح لهم بنصب خيامهم خارج نيقية² كحاميات تعمل على خدمته. وسلم لهم كل المدن التي استسلمت له وهو في طريقه إلى القسطنطينية مثل خلقدونية وبيلاي وكريسوبوليس ونيقوميديا، بهدف حراستها. وبذلك دخل سليمان بن قنلمش مدينة نيقية على يد بوتانياتس لأول مرة. وكان السلاجقة في الظاهر يعملون في خدمته بينما في الحقيقة كانوا يعملون لتحقيق أهدافهم.³ ولما نجحت حركة التمرد وتم تنويع بوتانياتس إمبراطورا باسم نففور الثالث بتاريخ 8 رمضان 470هـ/24 مارس 1078م، عاد ذلك عليهم بكثير من المكاسب، حيث لم يعد بمقدور البيزنطيين طردهم أو الاقتراب من الأماكن التي استقروا فيها، حول البحر الأسود، وبحر مرمرة.⁴

ب - دور سليمان بن قنلمش في تأسيس السلطنة

وفي سنة 472هـ/1079م، أعلن القائد نففور ميليسينوس (Nicéphore Mélissène) الثورة ضد بوتانياتس، حيث عاد من منفاه في جزيرة كوس الواقعة شمال شرق جزيرة رودس في البحر المتوسط. وطلب من سليمان إمداده بقوات عسكرية تساعده في الاستيلاء على القسطنطينية، مقابل حصوله على نصف كل مدينة وإقليم يستولي عليه من نففور الثالث.⁵ وبناء على هذا الاتفاق، أضاف السلاجقة إلى أملاكهم جالاتيا (Galatia)،⁶ وفريجيا

¹ نيقية : مدينة قديمة تقع شمال غربي آسيا الصغرى، اسمها اليوم إزنيق (Iznik) في تركيا. انعقد فيها مجمعان مسكونيان. (انظر : الموسوعة العربية الميسرة، المرجع السابق، ج 7، ص 3450).

² أنظر موقع نيقية في : الملحق الثاني عشر، ص 485.

³ إبراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 61-62؛ Laurent J. : Byzance et les Turcs Seldjoudides, p. 98.

⁴ نفسه.

⁵ طقوش : مرجع سابق، ص 56؛ Laurent J. : loc. cit.; Bréhier Louis. : Vie et mort de Byzance, p. 278.

⁶ جالاتيا : منطقة هامة تقع في شمالي آسيا الصغرى، تمتد من جبال بافالاجونيا شمالا حتى بحيرة الملح جنوبا، ومن نهر سنجاريوس إلى الهاليس. (انظر : إبراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 65، هامش رقم 3).

(Phrygia).¹ ولما فشلت حركة التمرد التي قادها ميليسينوس، وطُلب من السلاجقة مغادرة المدن والأقاليم التي دخلوها، رفض سليمان تسليمها للبيزنطيين.² وفشلت الحملة التي أرسلها نقفور الثالث في طردهم من مدينة نيقية.³ وهكذا ضمنوا لأنفسهم مدنا وأقاليم وسط آسيا الصغرى وغربها. ثم راح سليمان يوسع دائرة نفوذه، وما إن حلت سنة 473هـ/1080م، حتى أصبح يسيطر على معظم أراضي آسيا الصغرى.⁴ واعترفت به الجماعات التركية سلطانا على نيقية.⁵

وعندما صفت الامبراطورية البيزنطية مشاكلها الداخلية، بنجاح ألكسيس كومنين⁶ (Alexis Comnène) (474-531هـ/1081-1118م))، في إزاحة نقفور الثالث، وتوجيه امبراطورا بتاريخ 19 شوال 473هـ/1 أفريل 1081م،⁷ رفض سليمان بن قتلمش الاعتراف بأي حق للإمبراطورية البيزنطية في المدن والأراضي التي فتحها أتباعه.⁸ واتخذ في سنة 474هـ/1081م،

¹ فريجيا : إقليم قديم يقع وسط آسيا الصغرى، يشمل جزءا من الهضبة الوسطى والشق الغربي، وتكمن أهميته في مرور العديد من الطرق الهامة به. (أنظر : الموسوعة العربية الميسرة : مرجع سابق، ج 5، ص 2402).

² باذياب نورة عبد الله : "قونية عاصمة سلطنة سلاجقة الروم دراسة تاريخية وحضارية"، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي، إشراف أ. د. أحمد السيد دراج، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، 1994. ص 24.

³ العظيمي : مصدر سابق، ص 349؛ ابراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 66.

⁴ باذياب نورة عبد الله : مرجع سابق، ص 24.

⁵ Laurent J. : Byzance et les Turcs Seldjoudides, p. 98.

⁶ ألكسيس كومنين : ورد اسمه في المصادر العربية بصيغ مختلفة منها : ألكس، والكرانكس، والكرزاكس. يعتبر مؤسس أسرة كومنين التي حكمت الامبراطورية البيزنطية مايزيد عن قرن، وصفه المؤرخون أنه كان رجلا ذكيا حاضرا ذهن قوي الإرادة وقائدا عظيما، ودبلوماسيا ماهرا، وظهر في فترة عصيبة من تاريخ الامبراطورية. وقد تمكن من التغلب على بعض المشاكل كما حقق استقرارا نسبيا في الداخل وصد بعض الأخطار الخارجية التي تعرضت لها الامبراطورية، فهو عندهم رجل الساعة. (انظر : ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 199؛ العظيمي : مصدر سابق، ص 368-369؛ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 280؛ Comnène Anne : Alexiade (règne de l'empereur Alexis I Comnène 1081-1118), traduit par Bernard Leib, Les Belles Lettres, Paris, 1937. t. I, pp. 9-11; Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 281.

⁷ Bréhier Louis : op. cit., p. 276.

⁸ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 79؛ قمعون عاشوري : مرجع سابق، ص 133؛

Laurent J. : loc. cit.

مدينة نيقية مقرا له ولحكومته، وغدت عاصمة لسلطنة سلاجقة الروم،¹ حتى سنة 490هـ/1097م، تاريخ استعادة البيزنطيين لها.² ان اختياره لهذه المدينة دون سائر المدن البيزنطية الأخرى لتكون عاصمة مملكه، يعود إلى أهميتها الجغرافية والتاريخية، فهي تعد من أجل المدن عند المسيحيين، كما أنها تقع في مفترق الطرق الرابطة بين بيت المقدس والقسطنطينية التي لا تبعد عنها إلا بحوالي مائة كلم، مما يجعلها قاعدة مناسبة للسيطرة على آسيا الصغرى وبلاد الشام معا.³

ورغم أن ألكسيس كومنين، استعان سابقا بالسلاجقة ضد بوتانياتس،⁴ إلا أنه شعر بخطرهم المتزايد لما تربع على العرش الامبراطوري، خاصة لما أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من القسطنطينية. ولذلك قام بشن بعض الحملات العسكرية لطردهم وإبعادهم عن مضيق البسفور. لكن مجهوداته باءت بالفشل، وذلك بسبب انشغال الامبراطورية بالتهديد النورماني لسواحل إيطاليا، وتعاضم خطر البشناق، فوجد نفسه مضطرا إلى الجنوح للسلم، فأبرم معاهدة صلح مع سليمان بن قتلмыш في سنة 473هـ/1081م، وقد نصت على مساعدة السلاجقة للإمبراطور أثناء قتاله النورمان، وأن يكون نهر دراكو (Draco)⁵ حدا فاصلا بين الحدود البيزنطية والسلجوقية.⁶ وتعتبر هذه المعاهدة اعترافا بحقهم في الأراضي والمدن التي فتحوها، واعترافا ضمينا بقيام سلطنة سلاجقة الروم في نيقية، وبسلطة سليمان على القبائل التركية.

استغل سليمان هذا الصلح لتوسيع دائرة نفوذه ورقعة سلطنته، فاتجه نحو قيليقيا ليستعيد مدن الثغور من البيزنطيين، فافتتح طرسوس والمصيصة في سنة 475هـ/1082م. وفي السنة الموالية فتح مدينة عين زربي، ولم يكتف بذلك، بل أراد أن يقضي نهائيا على نفوذ البيزنطيين في بلاد الشام،

¹ Comnène Anne : op. cit., t. I, p.136.

² باذياب نورة عبد الله : مرجع سابق، ص 31؛ Mutfian Claude : L'Arménie du Levant, t. I, p. 51.

³ طقوش : مرجع سابق، ص 57.

⁴ Laurent J. : Byzance et les Turcs Seldjoudes, p. 91.

⁵ نهر دراكو : نهر صغير يصب في بحر مرمرة، يقع حاليا في تركيا ويسمى كيرك غيتشيد (Kirk ghetchid) ينبع من الجبال التي تفصل بحيرة نيقية عن البحر (أنظر : Texier Charles : op. cit., p 69).

⁶ ابراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 68؛ Comnène Anne : op. cit., t. I, pp.137-138.

فاستغل الحالة الحرجة التي تمر بها دولتهم، وانتزع منهم في سنة 477هـ/1084م، أنطاكية وبعض أعمالها وضياعها دون مقاومة تذكر،¹ "ولما ملك سليمان أنطاكية أرسل إلى السلطان ملكشاه يبيشره بذلك وينسب هذا الفتح إليه لأنه من أهله ومن يتولى طاعته، فأظهر ملكشاه البشارة به وهناه الناس"،² وتدل هذه المراسلة على أن سلاجقة الروم آنذاك، لم يقطعوا صلاتهم بالسلاجقة العظام في خراسان. والجدير بالذكر أن سليمان بن قتلмыш انتزع أنطاكية من الأرمن وليس من البيزنطيين، حيث كان يحكمها فيلاريت الأرمني الذي استغل فترة الاضطراب والفوضى التي عاشتها الدولة البيزنطية بين سنتي 463هـ/1071 و 473هـ/1081م، ليستولي على بعض القلاع والمدن البيزنطية. وكان الأرمن وقتئذ، قد استوطنوا تلك المدن والتفوا حول بعض زعمائهم وقادتهم، وبدأوا ينظمون أنفسهم بعيدا عن السلطة البيزنطية.

ويبدو أن البيزنطيين رغم عراقتهم وخبرتهم بالحروب، كانوا أقل دهاء من السلاجقة، لأن نظرهم للأتراك المسلمين لم تتغير عن نظرهم للأتراك المرتزقة الوثنيين، فقاموا باستدعاء السلاجقة إلى قلب آسيا الصغرى واعتمدوا عليهم في حراسة العديد من مدنها، ولم يكونوا قد دخلوها من قبل، "ولكن السلاجقة لم يكتفوا بحراسة تلك المدن وإنما قاموا بالاستيلاء عليها".³

لم يُقدّر لسليمان بن قتلмыш أن ينعم طويلا بما حصل عليه من انتصارات، ولم يمتد به العمر ليفتح ما تبقى من بلاد الروم؛ إذ دب النزاع بينه وبين صاحب دمشق تُتُش بن ألب أرسلان أخ السلطان ملكشاه، حول الممتلكات الخاصة بكل منهما في شمال الشام. فسار سليمان إلى حلب مطالبا بما بعد فتحه أنطاكية، مما أدى إلى اندلاع حرب ضروس بينهما، لقي فيها سليمان مصرعه سنة 479هـ/1086م،⁴ بعد أن نجح في وضع النواة الأولى للدولة الإسلامية في قلب آسيا الصغرى،

¹ باذياب نورة عبد الله : مرجع سابق، ص 24-25.

² ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 136.

³ ابراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 50.

⁴ ابن الأثير : مصدر سابق، ص 140؛ Comnène Anne : op. cit., t. II, p.65.

متخذاً من نيقية مركزاً رئيساً لدولته الناشئة.¹ وبوفاته فقد السلاجقة رجلاً قوياً كان قادراً على توحيد الجماعات التركية في آسيا الصغرى.² وستزداد حاجتهم إلى مثل ذلك الرجل بعد أن عصفت بهم رياح الحروب الصليبية، ودارت عليهم الدوائر.

ج - دور قلع أرسلان بن سليمان في بعث السلطنة

وبعدها قديم السلطان ملكشاه إلى حلب فانتزعها من أخيه، وضبط أمور السلاجقة في الشام وبلاد الروم، وأرسل سفارة إلى الإمبراطور ألكسيس كومنين للتحالف معه،³ ثم عاد إلى الشرق. وليضمن عدم تدخل أبناء سليمان في شؤون الشام، أخذ معه قلع أرسلان⁴ بن سليمان بن قتلмыш، رهينة، وكان آنذاك في الحادية عشر من عمره، وظل في فارس تحت رقابة السلطان مباشرة، وبعد وفاة ملكشاه سنة 485هـ/1092م، تولى عرش السلاجقة العظام في إصفهان ابنه بركياروق (487-498هـ/1094-1104م)، فأطلق سراح قلع أرسلان، وسمح له بالعودة إلى نيقية واستعادة ممتلكات أبيه. فاستقبله الأتراك بحفاوة بالغة. وبعد أن كان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى بدون سلطة موحدة؛ بسبب شغور العرش، قامت سلطنتهم من جديد في سنة 485هـ/1092م.⁵

حاول قلع أرسلان أن ينهض بشؤون الحكم، وينفخ الروح في الدولة التي تركها له والده، ولكنه وجد جبهة داخلية ضعيفة مزقتها الحروب والصراعات بين أبناء سلجوق وأحفاده.⁶ وجبهة خارجية

¹ أبو سعيد حامد غنيم : الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، 2007. ج 1، ص 69.

² طقوش : مرجع سابق، ص 69؛ السرجاني راغب : مرجع سابق، ص 31.

³ Comnène Anne : op. cit., t. II, p.65-66.

⁴ قلع أرسلان الأول (485-500 هـ / 1092-1107م)، حارب الصليبيين وفتح ملطية سنة 1106م، ومات غرقاً. (أنظر : الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ج 5، ص 2579).

⁵ طقوش : مرجع سابق، ص 72؛ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 142، باذياب نورة عبد الله : مرجع سابق، ص 26.

⁶ تعود بذور الصراع إلى ما بعد وفاة طغرل بك، حيث تولى عرش السلاجقة ابن أخيه ألب أرسلان -أب ملكشاه-، ورأى قتلмыш بن إسرائيل -أب سليمان- وهو ابن عم طغرل بك، أنه أحق بالملك من ألب أرسلان، فأعلن التمرد في إقليم الجبال الواقع جنوب بحر قزوين، وهاجم الري ونهب قراها، فأرسل إليه ألب أرسلان يحذره من شق عصا الطاعة ويدعوه إلى الكف عن العصيان، فرفض قتلмыш ذلك، وتصاعد التنافس بين الزعيمين السلجوقيين من أجل السيطرة على مدينة الري. واشتبكا في حرب ساخنة أسفرت عن قتل قتلмыш سنة 456هـ. ما جعل العلاقات بين هذين الفرعين السلجوقيين متوترة على مر السنين. إضافة =

تتربص به الدوائر، حيث انتعشت الامبراطورية البيزنطية بعد أن اعتلى عرشها ألكسيس كومنين الذي حاول أن يبعث الحياة من جديد في أوصالها، وكان يتحين الفرص لطرد الأتراك واستعادة أملاك بيزنطة في آسيا الصغرى. ثم لاح في الأفق خطر جديد، يتمثل في قدوم رجال الحملة الصليبية الأولى. وفي ظل هذه الأوضاع ضاعفت نيقية من أيدي قلج أرسلان،¹ فاتجه إلى قونية واتخذها مركزاً لتجمعاته وعاصمة جديدة للسلاجقة في بلاد الروم سنة 490هـ/1097م.²

وفي الوقت الذي كان فيه السلاجقة يعملون على تثبيت أقدامهم في الأجزاء الشمالية والشرقية من الأناضول، كان الأرمن بدورهم يعملون على إعادة إحياء دولتهم في إقليم الدروب بين مرتفعات طوروس وسهول قيليقيا. ونجحوا في تأسيس إمارة ما لبثت أن أصبحت مملكة، استمرت إلى غاية سنة 776هـ/1375م. واكتسبت هذه الإمارة أهمية بالغة في تاريخ الحروب الصليبية، نظراً للدور الذي قامت به لتسهيل مهمة الصليبيين في عبور منطقة آسيا الصغرى، وتأسيس إمارات صليبية في شمال الشام، ثم الاستيلاء على بيت المقدس.

= إلى هذا الصراع، برز في الأناضول بعد معركة منازلكرد بعض الأمراء الأتراك، منهم أحمد دانشمند في سيواس بكبادوكيا، وزاحاس في إزمير، ومنكوكجك في أرزنجان وقد كانوا يعملون لحسابهم الخاص، فأسسوا دويلات صغيرة مستقلة عن الدولة السلجوقية لم تعترف بسلطة سليمان بن قتلмыш، وأثناء غياب قلج أرسلان عن آسيا الصغرى، برز أبو القاسم نائب سليمان في نيقية عند ذهابه للحرب في الشام، فطمحت نفسه إلى أبعد من إدارة شؤون دولة سليمان بن قتلмыш، حيث أعلن نفسه سلطاناً على دولته وأراد أن يحل محل آل قتلмыш. (انظر : الاصفهاني : مصدر سابق، ص 27؛ الحسيني : مصدر سابق : ص 30-31؛ طقوش : مرجع سابق، ص 57-59؛ باذياب نورة عبد الله : مرجع سابق، ص 23. أبو سعيد حامد غنيم : مرجع سابق، ص 69؛ Comnène Anne : op. cit., t. II, p.64-65.)

¹ سبط بن الجوزي (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزواغلي (ت 654هـ)) : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق ودراسة مسفر بن سالم بن عريج الغامدي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1987. ص ج 1، ص 300.

² باذياب نورة عبد الله : مرجع سابق، ص 31.

2- الهجرة الأرمنية

1- سياسة الأرمنة في قيليقيا

ليست المرة الأولى التي يغادر فيها الأرمن وطنهم الأم للاستقرار في الجهات الوسطى والغربية من آسيا الصغرى، حيث يعود تاريخ وجودهم في إقليم كبادوكيا وقيليقيا إلى عهد الإمبراطور الأرمني ديكران الثاني المعروف بديكران الكبير (Tigrane II ou Tigrane le Grand) (55-94 ق م)، الذي وصل بجيشه سنة 84 ق م إلى أنطاكية، وقيليقيا،¹ ثم توسع في هذين الإقليمين وضمهما إلى بلاده، فاستوطنهما عدد من الموظفين، والتجار، والعسكريين الأرمن.² وفي العهد الروماني، حين قام الإمبراطور دقلديانوس (284-305 م) (Dioclétien)، بوضع تقسيم إداري جديد لأقاليم الإمبراطورية، أطلق اسم "أرمينيا الصغرى" على أحد الأقاليم الجديدة المنبثق عن مقاطعة كبادوكيا حول سيواس وملطية.³ وهذا يدل على تزايد عدد الأرمن في الجهات الغربية للفرات.

وفي القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، فتح المسلمون مناطق واسعة من هذا الإقليم، وبدأوا يتوغلون في كبادوكيا، فأسس البيزنطيون خطا عسكريا دفاعيا جديدا يمتد من نهر هاليس في الغرب إلى أرزن وطرابيزون في الشرق، وأطلقوا عليه اسم بند الأرمينياك (Thème des Arméniaques)، واستمد اسمه من الأرمن الذين كانوا يسكنون تلك الجهات، وكان على رأسه القائد الأرمني مليح (Mleh).⁴ وتشير بعض المصادر العربية إلى وجود الأرمن في إقليم الثغور خلال العهدين الأموي والعباسي،⁵ ولكنهم كانوا أقلية، ولم تكن لهم سلطة سياسية خاصة بهم، حيث كان أغلبهم تابعين للإمبراطورية البيزنطية، والقليل منهم يعيش في المدن الخاضعة للخلافة الأموية أو العباسية.

¹ Dédéyan Gérard : Reconquête territoriale et immigration arménienne dans l'aire cilicienne sous les empereurs macédoniens (de 867-1028), ds. : Migrations et diasporas méditerranéennes (X^e-XXI^e siècles), Actes du colloque de Conques (octobre 1999), Publications de la Sorbonne, Paris, 2002. p. 11.

² المدور عثمان : مرجع سابق، ص 222.

³ Mutfian Claude : La Cilicie, t. I, p. 361; Dédéyan Gérard : op. cit., p. 12.

⁴ Laurent J. : Byzance et les Turcs, pp. 68-69; Mutfian Claude : op. cit., t. I, p. 362.

⁵ البلاذري : مصدر سابق، ص 261-262؛ قدامة : مصدر سابق، ص 187؛ المقدسي : مصدر سابق : ص 188-189.

وبعد أن انتزع البيزنطيون في عهد الأسرة المقدونية إقليم قيليقيا¹ من المسلمين، هاجر إليه عدد كبير من المسيحيين وخاصة الأرمن.² ومما يدل على أن عدد الجالية الأرمنية فيه كان مرتفعاً في نهاية القرن الرابع الهجري/العاشرا لميلادي، أنهم تمكنوا من المساهمة في تعيين أسقف لمدينة طرسوس، وآخر لمدينة انطاكية.³

وفي النصف الأول من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، تنازل ملوك أرمينيا الكبرى عن ممتلكاتهم للإمبراطورية البيزنطية التي منحتهم ضياعاً وأراضٍ شاسعة في كبادوكيا،⁴ فهاجر عدد كبير من الأرمن إلى ذلك الإقليم في شرق آسيا الصغرى، وأغدقت عليهم الدولة البيزنطية الألقاب والضياع.⁵ وقد أدت تلك السياسة إلى تأسيس جاليات ومستوطنات أرمينية في كبادوكيا، وقيليقيا، وعلى حد تعبير المؤرخ جيرار ديديان (Gérard Dédéyan)، فقد أدى عددهم المتزايد إلى أرمنة كبادوكيا.⁶ ولكن توسع الأتراك السلاجقة واستقراهم في ذلك الإقليم، جعل أولئك الأرمن يبحثون عن مأوى جديد، فاتجهوا نحو جبال قيليقيا في جنوب شرقي آسيا الصغرى، كما تركزوا في الجهات المحيطة بملطية والرها وأنطاكية.⁷

ومهما كانت هجرة هؤلاء الرواد من الأرمن فستظل بسيطة مقارنة بهجرتهم التي اشتدت بعد معركة منازكرد التي قلبت الأوضاع الديمغرافية والحضارية في منطقة الأناضول رأساً على عقب؛⁸ إذ اندفع السلاجقة الأتراك يتوسعون في الأقاليم الواقعة شرقي آسيا الصغرى، وقد ترتب عن هذا التمدد

¹ انظر الفصل الأول، ص 64-75.

² Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 187, 198.

³ المدور عثمان : مرجع سابق، ص 222-223.

⁴ Laurent J. Byzance et les Turcs, p. 69; Dédéyan G. : Les Arméniens sur la frontière, p. 81.

⁵ Cheynet Jean-Claude : Les Arméniens dans l'armée byzantine au Xe siècle, ds. : Travaux et mémoires 18 Mélanges Jean-Pierre Mahé, Association des Amis du Centre d'Histoire et Civilisation de Byzance, Paris, 2014. pp. 177-178.

⁶ Dédéyan Gérard : op. cit., p. 74.

⁷ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 83.

⁸ Augé Isabelle : op. cit., p. 53.

السلجوقي أن غادر كثير من الأرمن موطنهم الأصلي في أرمينيا الكبرى، وهاجر آخرون من كبادوكيا، يبحثون عن مأوى جديد وعن وطن بديل في الأقاليم الواقعة غرب الفرات وشمال بلاد الشام.¹ ونظرا للأعداد الهائلة لهؤلاء النازحين، فقد شبههم متى الرهاوي بالجراد.² واختار كثير منهم الاستقرار في جبال طوروس، والأمانوس، وسهول قيليقيا الواقعة في الركن الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى، فضلا عن شمال بلاد الشام.³ واستقر عدد منهم في مصر.⁴ وهي الهجرة الوحيدة التي أدت إلى بعث الدولة الأرمنية،⁵ ومنحت الأرمن فرصة تاريخية نادرة للقيام بدور كبير في الأحداث التي عرفتها منطقة آسيا الصغرى، منذ أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.⁶ فلماذا اختاروا بأعداد غفيرة إقليم قيليقيا بالذات ؟

بالعودة إلى تاريخ إقليم قيليقيا، يمكن استنباط بعض الظروف والعوامل التي توضح أسباب توجه الأرمن إلى هذه الناحية بالذات من آسيا الصغرى :

العامل الأول : وجود جاليات أرمينية سابقة، يعود تاريخ استقرارها هناك إلى القرن العاشر الميلادي، فبعد ما تمكنت الامبراطورية البيزنطية في عهد الأسرة المقدونية من استعادة إقليم قيليقيا، وانتزاعه من أيدي الخلافة العباسية، هجره معظم من كان فيه من المسلمين،⁷ بسبب سياسة الطرد والتهجير التي طبقتها الامبراطورية البيزنطية، لإفراغه من العرب، وتعميره بالعناصر المسيحية. ولتحقيق هدفها اعتمدت بيزنطة على الأرمن، لأنهم يتميزون بالحيوية، وتحمل المشاق، وإتقانهم لعدة حرف،

¹ الرويضي محمود و الطاونة محمد سالم : دور الأرمن في تأسيس إمارتي الرها وأنطاكية الصليبيتين (490-491هـ/1097-1098م)، حوليات آداب عين شمس، مج 30، جويلية-سبتمبر 2003. ص 176.

² Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 182.

³ عاشور سعيد عبد الفتاح : بحوث ودراسات، ص 228-229.

⁴ Cahen Claude : La Syrie du nord à l'époque des Croisades et la principauté franque d'Antioche, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1940. p. 185.

⁵ Dédéyan Gérard : Les origines de l'état arménien de Cilicie, Actes du XXIXe Congrès international des Orientalistes, ds. : Orient chrétien, L'Asiathèque, 1975. p. 30; Mutfian Claude : L'Arménie du Levant, t. I, p. 53.

⁶ Cahen Claude : op. cit., p. 184.

⁷ عاشور سعيد عبد الفتاح : بحوث ودراسات، ص 228؛ Dédéyan G : Les Arméniens sur la frontière, p. 73.

وسرعة تكيفهم مع الأوضاع الجديدة.¹ وبعد سنة 463هـ/1071م تزايد عدد الوافدين منهم، وتكاثرت المستوطنات الأرمنية، وفي طرفة عين تكونت "أرمينيا جديدة".² وتحول الأرمن الذين يشكلون أقلية داخل الامبراطورية البيزنطية إلى أغلبية في إقليم قيليقيا.³

العامل الثاني : المنطقة محصنة طبيعياً بسلسلة من الجبال العالية، منها مرتفعات طوروس والأمانوس، يعجز الغزاة عن اختراقها لصعوبة دروبها، "لم يكن من السهل الوصول إليها، بينما كان من اليسير الدفاع عنها".⁴ وقد ساعدت هذه الطبيعة الجبلية قادة الأرمن على الاستقلال عن الامبراطورية البيزنطية، بل والتمرد عليها في كثير من الأحيان، واهتم النازحون الجدد بإقامة الأبراج والحصون، حيث بلغ عدد القلاع التي أصبحت تحت أيديهم، خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، حوالي 72 قلعة،⁵ ولجأوا بأعداد كبيرة نحو المدن الواقعة في الجهات الداخلية لجبال طوروس أو سهل قيليقيا، مثل مرعش (Marach)، وطرسوس (Tarse)، ودلوك (Delouk)،⁶ والرّها (Edesse).

العامل الثالث : الموقع الاستراتيجي للمنطقة، فهي تتحكم في الطريق من آسيا إلى بلاد الشام، وتطل على البحر المتوسط من الجنوب. وتضم عدة قلاع وبلدات منها أدنة (Adana) والمصيصة (Mamistra)، وعين زربي (Anazarbe) .. وقد عرفت هذه المنطقة بالشعور الشامية.⁷

¹ ظهر سنة 1855 -أي أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر- مشروع لتشجيع الأرمن على الهجرة نحو الجزائر، والاستقرار فيها ويذكر المشروع أن الأرمن هم الشعب الوحيد في العالم الذي يمكنه أن يتكيف بسهولة مع أوضاع الجزائر، على عكس الجاليات الأخرى، خاصة وأن بلادهم مقسمة بين روسيا وتركيا وإيران. دعا إليه أحد الجغرافيين الفرنسيين، ونشر حوله كتابا وعديد المقالات، وتحملت للمشروع بعض الجمعيات الخيرية الأرمنية، مثل جمعية المخيتاريين في البندقية (Congrégation Mekhitariste de Venise)، ولكن الأرمن الفرنسيين رفضوه ووجهوا له عديد الانتقادات. (أنظر : V. A. Barbié Du Bocage : De l'introduction des Arméniens catholiques en Algérie, librairie d'Amyot éditeur, Paris, 1855).

² Grousset René : Histoire de l'Arménie, p. 489, 522.

³ Augé Isabelle : op. cit., p. 18.

⁴ رنسيما ستيفن : مرجع سابق، ج 1، ص 279.

⁵ Michel Le Syrien : op. cit., t. I, p. 405.

⁶ دلوك : "بلدة من نواحي حلب بالعواصم". (أنظر : الحموي، مصدر سابق، ج 6، ص 256).

⁷ أنظر الفصل الأول، ص 43-46.

العامل الرابع : عدم سيطرة السلاجقة على قيليقيا، سيطرة حقيقية كاملة ودائمة لصعوبة بيئتها الجبلية من جهة، ولأنهم في توسعهم إلى قلب آسيا الصغرى لم يسلكوا طريق الجنوب، بل اتجهوا اتجاهها أفقياً من الشرق إلى الغرب، عبر أرمينيا وكبادوكيا وفريجيا، ومن ثمة لم تقع قيليقيا، على طريقهم الرئيسي.¹ ولم يتجهوا في أول الأمر إلى الأقاليم الجنوبية في آسيا الصغرى، مما أدى إلى عزل تلك المنطقة عن بقية أقاليم الامبراطورية البيزنطية.²

العامل الخامس : كان إقليم قيليقيا ملجأ لعدد من الأمراء، والقادة الأرمن الذين أفلتوا بصعوبة من فكي الكماشة البيزنطية السلجوقية، ونجحوا في تأسيس إمارات أرمينية صغيرة، سيكون لها دور كبير في مستقبل الشعب الأرمني.³

ومن بين أولئك القادة الذين برزوا في قيليقيا : خاتشاتور (Khatchatour (Խաչատուր)، (معناه هبة الصليب) وهو من عائلة أرمينية عريقة، وشغل عدة مناصب في الإدارة البيزنطية، حيث عينه الامبراطور رومانوس الرابع، في أوائل سنة 462هـ/أواخر 1069م، حاكماً (Duc) على مدينة أنطاكية.⁴ وبعد منازكرد، أصبح يتصرف كسيد مستقل في منطقة أنطاكية وقيليقيا، التي أمست ملاذاً لأعداد كبيرة من الأرمن. كما استقبل الامبراطور رومانوس ديوجين بعد إطلاق سراحه، وتعرضه لانقلاب. فساعدته خاتشاتور كثيراً لاستعادة العرش المفقود، ورفع لواء العصيان والتمرد ضد الامبراطور ميخائيل السابع، لكنه انهزم في إحدى المعارك سنة 464هـ/1072م، وانتهى به الأمر أسيراً في القسطنطينية،⁵ وهو يمثل صورة عن القادة الأرمن الذين ظهروا في قيليقيا بعد منازكرد.

¹ عاشور : بحوث ودراسات، ص 232.

² عاشور سعيد عبد الفتاح : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1976. ص 53.

³ عمران محمود سعيد : السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل الأول (1143-1180م)، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2010. ص 58.

⁴ Laurent J. : Byzance et les Turcs Seldjoudes, p. 41.

⁵ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs Musulmans et Croisés, étude sur les pouvoirs arméniens dans le Proche-Orient méditerranéen (1068-1150), Fondation Calouste Gulbenkian, Lisbonne, 2003.t. I, pp. 39-40.

ب - موقف البيزنطيين من الأرمن في قيليقيا

وإذا كانت الدولة البيزنطية قد يئست، وعجزت عن استرداد الأقاليم التي فتحها السلاجقة واستقروا فيها بعد أن تغلبوا عليها، وقهروها في معركة منازكرد، فكيف كانت تنظر إلى التفاف الأرمن حول بعض أمرائهم وقادتهم الفارين من الإدارة، أو من الجيش البيزنطي، واستيلائهم على بعض المدن والقلاع البيزنطية؟ ألم تعتبرهم أعداء مثلهم مثل السلاجقة؟ خاصة وأن الخلاف المذهبي بين الكنيستين البيزنطية والأرمينية قد كرس عداً تقليدياً بينهما منذ فترة طويلة؟

لقد أدت الأحداث التاريخية التي عاشتها آسيا الصغرى عقب معركة منازكرد إلى عزل إقليم قيليقيا عن القسطنطينية، ومما لاشك فيه أن أباطرة بيزنطة كانوا ينظرون بعين الريبة إلى حركة الإحياء الأرمينية التي برزت في هذا الإقليم، خاصة وأن بعض الأمراء الأرمن كانوا من المعارضين للإمبراطور ميخائيل السابع، بل ومنهم من استقبل الإمبراطور المنهزم رومانوس الرابع. وكانوا يدركون بأن بعض الأمراء وقادة الجيش البيزنطي من الأرمن الذين استقروا في بعض القلاع والمدن، قد أصبحوا يتصرفون مستقلين عن الإمبراطورية التي أصبحت مشغولة وعاجزة عن اتخاذ أي إجراء ضدهم.

وإذا كان الأباطرة قد غضوا الطرف عن حركة الأرمن في قيليقيا، فإنهم كانوا يدركون أنهم يشكلون عنصراً قوياً على أطراف دولتهم، فحاولوا أن يستفيدوا منهم، وفكروا -طوعاً أو كرهاً- في اتخاذهم درعاً واقيةً ووسيلةً وأداةً للدفاع عن الحدود الشرقية للإمبراطورية.¹ ومهما يكن مذهبهم وموقفهم السابق في التاريخ من الدولة البيزنطية، فيكفي كونهم مسيحيون يؤمنون بالمسيح ورسالته؛ لأن الخطر الذي يهدد كيان الدولة البيزنطية كان نابعاً من ناحية الشرق -بصفة أساسية- من السلاجقة بالذات، وهم مسلمون.²

¹ عاشور سعيد عبد الفتاح : تاريخ العلاقات، ص 54؛ عاشور سعيد عبد الفتاح : بحوث ودراسات، ص 229؛

Iorga N. : Brève histoire de la petite Arménie, Librairie universitaire J. Gamber, Paris, 1930. p. 15; Treatgold Warren : op. cit., p. 607.

² عاشور سعيد عبد الفتاح : بحوث ودراسات، ص 230.

وقد قام بعض الأباطرة البيزنطيين بتنصيب أمراء أرمن عملاء لهم،¹ يدينون لهم بالولاء والخضوع، وربما اقتصر عملهم على التجسس وجمع المعلومات لصالح الأباطرة، الذين يعتمدون عليهم في حراسة حدود الامبراطورية في هذا الركن من ترابها، وأخذ نفوذ هؤلاء الأمراء يشتد ويتوسع، ما أدى إلى تأسيس إمارات مستقلة عن سيادة الامبراطورية البيزنطية. ومن بين هؤلاء برزت شخصية فيلاريت براخاموس (Philarète Brakhamios) الذي فتح صفحة جديدة في تاريخ أرمينيا،² حيث كان لمدة ثماني عشر سنة (465-483هـ/1072-1090)، على رأس إمارة أرمينية لامست حدودها جبال طوروس وشمال سوريا وغرب الفرات. فمن هو فيلاريت ؟ وكيف أصبح حاكما في قيليقيا ؟ وما دوره في تاريخ أرمينيا الصغرى ؟

3 - تأسيس أول دولة أرمينية في قيليقيا (465-483هـ/1072-1090م)

أ - فيلاريت براخاموس

ينتمي فيلاريت³ إلى أسرة أرمينية ضاربة في القدم، خدم كثير من أفرادها الإمبراطورية البيزنطية مدة تزيد عن قرن،⁴ خاصة خلال عهد الأسرة المقدونية التي استعادت مبادرة الهجوم على دار الاسلام خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. وكان لبعض أفراد أسرة براخاموس دور في انتزاع البيزنطيين مدينة أنطاكية من أيدي المسلمين سنة 359هـ/969م.⁵

¹ ابن العبري : مصدر سابق، ص 135.

² Grousset : Histoire de l'Arménie, p. 636; Mutfian Claude : L'Arménie du Levant, t. I, p. 55.

³ يسميه البيزنطيون فيلاريتوس براخاموس، وورد في المصادر السريانية باسم فيلاردوس (Philardus)، وفي المصادر العربية باسم الفلادروس، أما اللقب براخاموس فهو تحريف روماني لاسمه الأرميني فاهرام (Vahram). وقد ورد اسم فاهرام في قصيدة لأبي فراس الحمداني :

و سلّ آل " بهرام " وآل " بلنطس " و سلّ آل " منوال " المحاجة الغلبا

ما يدل أن لهذه الأسرة دورا كبيرا في الحرب التي دارت بين الحمدانيين والبيزنطيين. (أنظر :

Laurent J. : Byzance et les Turcs Seldjucides, p. 81; Grousset : L'Empire du Levant, p. 177.)

⁴ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs Musulmans t. I, p. 18.

⁵ حول دور أفراد أسرة فاهرام في الامبراطورية البيزنطية. (أنظر : Dédéyan Gérard : op. cit., t. I, pp. 6-17)

يعتبر فيلاريت أشهر أفراد آل براخامبوس، لأنه ظهر في ظرف زمني كان الأرمن في أمس الحاجة إلى وطن يجمع شملهم، وإلى قائد يوحد صفوفهم. ورغم ذلك فقد أثار المؤرخون جدلاً كبيراً حول هذه الشخصية، فمنهم من يعتبره قد فتح صفحة جديدة في تاريخ أرمينيا،¹ ومغامراً جسوراً.² ويعتبر عند آخرين باعث الدولة الأرمنية ومؤسسها الأول في المهجر.³ في حين يرى بعضهم أن فيلاريت لا ينتمي إلى الأمة الأرمنية إلا بأجداده فقط؛ لأنه تخلى عن مذهب الطبيعة الواحدة، وقلد البيزنطيين في عاداتهم، وتكلم لغتهم، واعتنق مذهب الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية، فكان ذلك خطيئة كبيرة لا تغفر، حتى سمي عندهم بالمولود الأول لإبليس.⁴ وفي نظرهم رغم كونه مسيحياً فقد كان فاقداً للإيمان.⁵ وعند السريان لا يعدو فيلاريت أن يكون رئيس عصابة امتهنت النهب والصوصية.⁶ فأين الحقيقة من كل هذا؟

تلقي فيلاريت أثناء طفولته تعليماً دينياً على يد عمه في دير أرميني يقع قرب حصن منصور،⁷ ليجد نفسه يتصرف كراهب،⁸ ويبدو أن حياة الرهبنة القاسية، ونظامها الصارم لم تنل إعجابه، فغادر الدير،⁹ ولا تذكر المصادر وجهته، ولكنه لمع كقائد متألق في صفوف القوات البيزنطية.

¹ Grousset : Histoire de l'Arménie, p. 489, 636.

² Grousset : L'Empire du levant, p. 177.

³ Dédéyan Gérard : Les origines de l'état arménien de Cilicie, p. 35; Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs Musulmans, t. I, p. 73.

⁴ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 173.

⁵ Ibid.

⁶ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 173.

⁷ حصن منصور : هو اليوم مدينة أديمان تقع جنوب شرق تركيا، كان الروم يسميه برها (Perrhe)، وقد نسب إلى بانيه منصور القيسي، وهو من قادة الجند في خلافة مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية، ثم أحكم بناءه هارون الرشيد وشحنه بالرجال في أيام أبيه المهدي. وقال ابن حوقل انه قد أصاب هذه المدينة ما أصاب غيرها من الثغور من نهب وتخريب على أيدي بني حمدان والروم. (انظر : المصدر السابق، ص 166؛ لسترنج كي : مرجع سابق، ص 155).

⁸ Matthieu d'Edesse : loc. cit.

⁹ Dédéyan Gérard : op. cit., t. I, pp. 6-17.

انخرط فيلاريت مبكرا في الجيش البيزنطي وأصبح ضابطا، حيث تولى فيما بين سنتي 442هـ/1050م و452هـ/1060م قيادة فرقة من المشاة، متكونة من ألف جندي (Taxiarque).¹ وفي عهد الامبراطور قسطنطين العاشر دوقاس، أصبح ضابطا في قيادة كتيبة من الجند المحترفين (Tagma) بكبادوكيا، وربما هي المناسبة التي مكنته من التعرف على رومانوس الرابع ديوجين -قبل أن يصبح امبراطورا- والذي كانت له أملاك واسعة هناك.² وفي سنة 461هـ/1068م، أصبح نائبا للامبراطور (duc-Katépano) في ملطية ومرعش، وقائدا لحاميتهم العسكرية، ولكنه فشل في التصدي للسلاجقة في مدينة عمورية وضواحيها.³

وأثناء الحملة البيزنطية الثانية التي قام بها الامبراطور رومانوس الرابع على مدينة خلط في ربيع سنة 462هـ/1069م، كلف فيلاريت بقيادة الجزء الأكبر من الجيش،⁴ ولكونه خلقدونيا فقد كسب ثقة الامبراطور، فعينه في منصب استراتيجوس (Stratège)،⁵ أو ربما رئيسا لفرق حرس القصر (Domestique des Scholes)⁶ وهي أعلى رتبة عسكرية. و عهد إليه بحماية الحدود الشرقية من هجمات السلاجقة،⁷ وبذلك بلغ فيلاريت ذروة مجده في الجيش البيزنطي.

¹ Cheynet Jean-Claude et Vannier Jean-François : Etudes prosopographiques, Publications de la Sorbonne, Paris, 1986. p. 66.

² Ibid., p. 67.

³ Cheynet Jean-Claude : Les Arméniens de l'Empire en Orient, p. 70; Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs Musulmans, t. I, pp. 19-23.

⁴ Cheynet Jean-Claude : Etudes prosopographiques. p. 67.

⁵ الاستراتيجوس : هو قائد ألوية الثغور أو الثيم (thèmes)، أي قائد الناحية العسكرية وفي نفس الوقت هو رئيس الحكومة المدنية في الاقليم الذي تقع فيه تلك الألوية، وهو يتبع الامبراطور مباشرة، ويتحمل كامل مسؤولياته أمام الامبراطور في حفظ الأمن والنظام في إقليمه (أنظر : رنسيما ستيفن : الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3، القاهرة، 2010. ص 144؛

Bréhier L. : Les institutions de l'empire byzantin, Editions Albin Michel, Paris, 1949. p. 360.)

⁶ الدُستق : كان في البداية ضابطا لحرس القصر، وازدادت أهمية هذا المنصب في القرن العاشر، حيث أصبح الدُستق هو القائد العام للجيش كله، واختلفت مكانته ومسؤولياته باختلاف الظروف، وفي بعض الأوقات كان هناك قائد لقيادة جيوش الشرق والثاني لقيادة جيوش الغرب. (أنظر : رنسيما ستيفن : الحضارة البيزنطية، ص 145-146؛ Bréhier : op. cit., p. 367.

⁷ Treadgold Warren : op. cit., p. 602; Dédéyan Gérard : Les Arméniens sur la frontière, p. 84.

ولما كان الامبراطور في طريقه لمحاصرة مدينة خللاط، وصلت إلى مسامعه أخبار عن مجموعة من التركمان قاموا بمهاجمة مدينة قونية، وعادوا منها محملين بالغنائم. فغير خطته واتجه إلى مدينة سيواس. وطلب من فيلاريت أن يقطع عليهم طريق العودة. ولكنه عجز عن تحقيق النصر، لأن الأتراك كعادتهم في حروبهم الخاطفة فسحوا له الطريق ثم التفوا حوله وهزموه.¹ كما أن عددا كبيرا من قواته بقي متمركزا في ملطية، ولم يستطع التحكم فيهم، إذ بمجرد أن علموا باقتراب الأتراك السلاجقة فروا من مواقعهم، فاهتزت ثقة الامبراطور في قائده الأرميني، وخاب أمله فيه، مما أدى به إلى الاعتماد -في حملته المقبلة- على قائد آخر وهو مانويل كومنين (Manuel Comnène).²

ب - تمرد فيلاريت على الامبراطورية البيزنطية

تسكت المصادر عن نشاط فيلاريت فيما بين سنتي 462هـ/1069 و 463هـ/1071م، ولم يرد اسمه مع القادة الذين شاركوا مع رومانوس الرابع في معركة منازكرد، وهذا لا يعني أنه كان معزولا أو غائبا.³ ويبدو أنه لم يغادر منطقة قيليقيا وشمال سوريا، ولعله بقي في ملطية أو مرعش، أو أنطاكية،⁴ لكنه لم يكن متفرجا على الأحداث التي تجري حوله. إذ سرعان ما برز في جبال طوروس مع جموع الأرمن الذين وقفوا مع الامبراطور المنهزم في محنته، ورفض الاعتراف بالامبراطور ميخائيل السابع دوقاس، ورفع راية العصيان ضده. واستغل فترة الفوضى والحرب الأهلية التي حلت بالدولة البيزنطية بعد سنة 463هـ/1071م، وشرع يعمل لحسابه الخاص، مستقلا عن السلطة المركزية في القسطنطينية، واستولى على أهم قلاع ومدن قيليقيا الواقعة في المرتفعات، التي لجأ إليها الأرمن بأعداد كثيفة.⁵ فعمل على تحصينها وتأمين دروبها ومسالكها، وأصبح من الصعب أن يصل إليها أعداؤه.

¹ عمران محمود سعيد : مرجع سابق، ص 244؛ Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 268.

² Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs Musulmans, t. I, p. 26.

³ Cheynet Jean-Claude : Etudes prosopographiques, p. 68.

⁴ Cheynet Jean-Claude : La perte de l'Asie Mineure au X^{ie} siècle a-t-elle laissé des traces dans l'anthroponymie familiale ?, ds. S.B.S., vol. 12, Walter de Gruyter, Berlin, 2016. p. 3.

⁵ Bréhier Louis : op. cit., p. 272.

وبذلك ساهم في توفير ملجأ آمن لأتباعه.¹ وفي الوقت الذي كانت فيه قوة السلاجقة تتعاضد في آسيا الصغرى، نجح فيلاريت في وضع أول لبنة لتأسيس سلطة أرمنية مستقلة عن الامبراطورية البيزنطية.

بدأ نشاط هذا القائد من قرية شيرباز (Shîrbaz) الواقعة قرب مدينة مرعش،² واجتمع زهاء خمسين رجلا من رجال الحرب الأرمن واصطلحوا على دخول البلاد وسلبها، ولما وصلوا إلى مرعش صادفهم فتى أرمني اسمه فيلردس اطلعوا على دهائه وبطشه وشجاعته في الغزو والقتل فولوه هدايتهم ونصبوه زعيما عليهم، وما عثم ان استفحل امرهم ونشموا يسلبون أمكنة حصينة ببلاد قيليقية،³ مستغلا تجربته ومعرفته السابقة للإقليم، وأخذت قوته تتضاعف مع الوقت، خاصة بعد أن التحق به حوالي ثمانية آلاف من الفرنجة المرتزقة الذين جندهم رومانوس الرابع في صفوف جيشه سابقا. وبعد منازكرد بقليل، فشل قائدهم روسل بايول في حركته التمردية ضد ميخائيل السابع، فوجد هؤلاء المرتزقة أنفسهم أمام مصير مجهول، بدون قائد وبدون رواتب، فانضموا إليه.⁴ والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام، لماذا عارض فيلاريت الامبراطور ميخائيل السابع؟ وما مصلحته في ذلك؟ هل كان قائدا قوميا انفصاليا يحمل مشروعا سياسيا؟ أم كان مجرد مغامر يبحث عن المال والمكانة؟

يبدو أن الامبراطور ميخائيل السابع لم يحتفظ بفيلاريت كقائد للجيش البيزنطي في قيليقيا، واستغنى عن خدماته، ولم يمنحه حكم أي مدينة من المدن التي كانت تحت سلطته سابقا. فوجد نفسه مبعدا عن السلطة وهو الذي ذاق نعيمها وحلاوتها، وتردد على قصورها، فلم يبق أمامه إلا التمرد ضد السلطة القائمة كسبيل لرد الاعتبار. ولما اتصل بالامبراطور نففور الثالث بوتانياتس (1078-1081م)، الذي نجح في حركته التمردية سنة 471هـ/1078م، برر له موقفه من الامبراطور السابق بقوله أنه عامله باحتقار وبطريقة لا تليق بمقامه، وتجاهله، وأن الامبراطور كان أسير

¹ Laurent J. : *Byzance et Antioche sous le curopalate Philarète, R.E. Arm.*, t. IX fasc. 1, Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1929. pp. 61-62.

² Michel Le Syrien, op. cit., t. III, p. 173.

³ ابن العبري : مصدر سابق، ص 117-118.

⁴ Laurent J. : op. cit., p. 62; Grousset : *L'Empire du Levant*, p. 177.

حاشيته ومستشاريه.¹ ويقصد بذلك الوزير نيكيفوريزاس (Niképhoritzès)،² الذي احتكر تجارة القمح، ورفع سعره إلى درجة حدوث مجاعة،³ وأظهر صرامة في مسألة جباية الضرائب، كما أنه أرسل السلاجقة لمحاربة روسل بايول، الذي كان هو الآخر معارضا للإمبراطور ميخائيل السابع، وربما كان فيلاريت متعاطفا معه. هذه الإجراءات مست مصالحة، ولذلك حينما اندلعت الحرب الأهلية بين ميخائيل السابع دوقاس ورومانوس الرابع ديوجين، وقف فيلاريت مع هذا الأخير،⁴ فأصبح من المتمردين في عين السلطة البيزنطية، وهذا ما جعل متى الرهاوي يقول عنه أنه لم يكن محبوبا ولا مقربا من البيزنطيين.⁵

وفي الوقت الذي كان فيه السلاجقة يتوسعون في شمال وشرق آسيا الصغرى، تعرض فيلاريت للتهميش من طرف حكومة القسطنطينية، وبقي مدة ست سنوات (1072-1078) من المغضوب عليهم، وفقد منصبه وكل امتيازاته. ولكنه لم ينقطع عن النشاط العسكري، فاستغل عجز الحكومة البيزنطية، وانشغالها بمشاكلها الداخلية والخارجية، وراح يعمل لحسابه الخاص معتمدا على عصابته ومليشياته.

شرع فيلاريت مع عصابته في عمليات السلب والغزو، وكان يركز على الأديرة والكنائس السريانية بحثا عن المال.⁶ ثم أخذ يستعيد المدن والقلاع البيزنطية التي كانت تحت سلطته في عهد الامبراطور رومانوس الرابع.⁷ فانتزع مدينة مرعش من البيزنطيين سنة 465هـ/1072م، واتخذها مركزا لعملياته، ومأوى لجماعته، وغدت مقر حكمه. ولهذه المدينة أهمية خاصة، فهي تقع على سفوح

¹ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs Musulmans, t. I, p. 47.

² نيكيفوريزاس : هو قائد الجيش البيزنطي سابقا في مدينة أنطاكية في عهد الامبراطور قسطنطين دوقاس، وفقد منصبه ومكانته في عهد رومانوس الرابع، وأصبح الرجل القوي في القصر الامبراطوري والوزير المقرب في عهد ميخائيل السابع. (أنظر : Dédéyan Gérard : loc. cit.).

³ Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 270.

⁴ Dédéyan Gérard : op. cit., t. I, p. 48.

⁵ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 173.

⁶ Dédéyan Gérard : op. cit., t. I, p. 20.

⁷ Laurent J. : Byzance et Antioche, op. cit., p. 62.

جبال طوروس الداخلية، وتحتل موقعا استراتيجيا، وهي أهم ممر عبر الدروب بين آسيا الصغرى في الشمال، وشمال سوريا في الجنوب، وبين قيليقيا في الغرب، ومنطقة الفرات في الشرق، وهو يعرف المدينة جيدا بحكم نشأته في قرية شيرباز القريبة منها. كما كان أسلافه يقيمون بها ولهم فيها عدة ممتلكات، وكانت تحت سلطته لما كان حاكما على ملطية وقائدا عاما للجيش البيزنطي في وقت سابق.¹

ومن مدينة مرعش شرع يتوسع في أعالي نهر جيحان (Pyramus)، فاستولى على قلعة رعبان (Raban)²، وأبُلُسْتَيْن³ (Ablastha) الواقعتين على ضفتي النهر. وطرد منهما الموظفين البيزنطيين. ودافع عنهما ضد الأتراك.⁴ وفي عام 466هـ/1073م، رفض تورنيك بن موشل (Thornik fils de Mouchel)⁵ تقديم فروض الطاعة والولاء له،⁶ فرماه بمرتقة نورمان، لكنهم انهزموا أمامه وقُتل قائدهم رعبو (Raimbaud). فحرّض فيلاريت الأتراك ضده، فقتلوه قرب شيمشاط، وبعثوا له رأسه. فأرسل نصفه إلى أمير ميافارقين نظام الدولة نصر (1062-1080).⁷ ثم استولى على ملطية في سنة 467هـ/1074م، وانتزعها من نقفور ميليسينوس (Nicéphore Mélissène) البيزنطي،⁸ وعين عليها قائدا أرمينيا آخر هو ثوروس بن هيثوم

¹ Laurent J. : Byzance et les Turcs Seldjoudes, p. 84.

² رَعْبَان : "مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة في العواصم وهي قلعة تحت جبل". (الحموي، مصدر سابق، ج 4، ص 408).

³ أبُلُسْتَيْن : وقد عُرفت بالبستان (Albistan ou Albostan) وهي أبُلُسْتَا البيزنطية (Ablastina)، وهي مدينة مشهورة بالثغور الرومية. (لسترنج، المرجع السابق، ص 178).

⁴ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs Musulmans, t. I, p. 77-80.

⁵ تورنيك بن موشل : هو أمير أرميني كان يحكم إقليم ساسون (Sassoun) الذي يقع شمال شرق ميافارقين، غرب بيتليس، في جنوب غرب الطارون. (انظر : 1. note n° 1, Grousset : L'Empire du levant, p. 178).

⁶ Adontz N. : Notes Arméno-Byzantines, ds. : **Byzantion**, t. IX, fasc. 1, Bruxelles, 1934. p. 378.

⁷ Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 173-176; Laurent J. : op. cit., pp. 63-64; Grousset : loc. cit.

⁸ Grousset : op. cit., p. 179.

(Thoros fils de Héthoum). ثم تداول عليها القادة الأرمن منهم حازب (Hareb)، وبلاتيانوس (Balatianos) وأخيرا جبرائيل (Gabriel).¹

وخلال أربع سنوات تضاعفت ممتلكاته التي انتزعها من البيزنطيين والأتراك.² وحاول الامبراطور ميخائيل السابع أن يضع حدا لنشاطه، فكلف في سنة 467هـ/1074م، قائدي الكتيبتين البيزنطيتين في كل من أنطاكية وملطية بمحاربته، ولكنهما فشلا في مهمتهما.³ وعندما تعاظمت قوته واتضحت أهميته، دخل في تبعيته بعض زعماء الأرمن⁴ المجاورين وخاصة في قيليقيا.⁵ ولم يتوان عن محاربة الذين رفضوا الانقياد له.

ومع نهاية سنة 469هـ/1076م، خضعت لسلطته منطقة واسعة تمتد من رومانوبوليس (Romanopolis) وخرتبرت (Kharpert) في أعالي الفرات إلى المصيصة وعين زربي وطرسوس في قيليقيا مروراً بملطية وكركر (Gargar) والبستان، ورعبان وكيسون (Kéçoun) ومرعش.⁶ وتتميز المدن والقرى التي احتلها بحصانة طبيعية، لأنها تقع في المرتفعات، وأعالي الجبال، وكانت أساس قوته.⁷ وإضافة إلى هذا الحصن الطبيعي فإنه قام ببناء نقاط مراقبة، وعدة حصون على كل المسالك والدروب المؤدية إليها، فجعلها صعبة المنال.⁸ واستطاع أن يكون لنفسه جيشاً كبيراً من المرتزقة، بلغ

¹ Michel Le Syrien, op. cit., t. III, pp. 173-174.

² Laurent J. : Byzance et Antioche, p. 62.

³ Laurent J. : op. cit., p. 61.

⁴ أنظر قائمة وأسماء هؤلاء الزعماء الأرمن الذين كانوا في طاعة فيلاريت في :

Laurent J. : Byzance et les Turcs Seldjoudides, pp. 85-86.

⁵ عاشور سعيد : بحوث ودراسات، ص 230، Cheynet : Les Arméniens de l'Empire en Orient, p. 71.

⁶ انظر حدود هذه الدولة في : الملحق الثالث عشر، ص 486.

⁷ Laurent J. : op. cit., p. 84; Grousset : L'Empire du Levant, pp. 177-179.

⁸ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs Musulmans, t. I, p. 128.

عدد قواته بين عشرين وثلاثين ألف جندي،¹ وكانت عناصر هذا الجيش خليطاً من الأرمن، والبيزنطيين، والفرنج، والفرس، والأتراك،² جمع بينهم حب الثروة والمغامرة.³

وفي سنة 470هـ/1077م، أرسل فيلاريت أحد ضباطه وهو باسيل بن أبوخاب (Basile fils d'Aboukhab)، للاستيلاء على الرها من البيزنطيين، فحاصرها ستة أشهر، واصطدم بمقاومة شرسة من حاكمها البيزنطي ليون تفادانوس (Léon Tavadanos)، ولكن الأهالي الذين كان أغلبيتهم من الأرمن، ثاروا عليه وقتلوه، ثم سلموا المدينة لباسيل، ومن المحتمل أن تكون ثورتهم بتحريض من فيلاريت. وبعد موت باسيل في سنة 476هـ/1083م، تولى المدينة أرمني آخر يسمى سمباط (Sembat). وكان من أتباع الكنيسة الأرمنية، ومحبوباً من طرف الأهالي، ولذلك أثنى عليه متى الرهاوي كثيراً.⁴ وأصبحت الرها في عهده ملجأ لكثير من الأرمن النازحين من أرمينيا الكبرى. ولكن بعد ستة أشهر انقلب عليه بعض منافسيه. فتدخل فيلاريت، واستدعى الطرفين المتنازعين إلى مرعش، وعاقبهما معاً.⁵ وألحق المدينة مباشرة بأملاكه بتاريخ 9 جمادى الأولى 476هـ/ 23 سبتمبر 1083م.⁶ ويبدو أنه انتقم من بعض الأمراء، والأعيان، من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، حيث سمل أعين بعضهم وسجن الآخرين، فنبذ السكان واستاء منه مئى الرهاوي.⁷ وقد كان لهذا الموقف الذي اتخذته من سكان الرها انعكاسات سلبية على سلطته في المدينة مستقبلاً.

تطلع فيلاريت سنة 471هـ/1078م، إلى شمال سوريا، ليمد سلطته إلى مدينة أنطاكية العريقة والتي كان ثلث سكانها أرمن. وقد كانت معزولة عن الامبراطورية البيزنطية، ولم يبق لها إلا البحر

¹ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 173; Laurent J. : Byzance et les Turcs Seldjoudes, p. 83; Grousset : L'Empire du Levant, p. 178.

² ابن العبري : مصدر سابق، ص 118؛ الجنزوري عليه عبد السميع : إمارة الرها الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2001. ص 46.

³ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs Musulmans, t. I, p. 277.

⁴ الجنزوري عليه عبد السميع : المرجع السابق، ص 46؛ Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 180-181.

⁵ Dédéyan Gérard : op. cit., t. I, p. 99.

⁶ Laurent J. : Des Grecs, p. 398; Grousset : op. cit., p. 179; Dédéyan : loc. cit.

⁷ Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 180-181; Grousset : op. cit., p. 187.

للاتصال بالقسطنطينية، لأن الأتراك انتشروا فوق كل الأراضي الممتدة من أبواب أنطاكية إلى خلقدونية في آسيا الصغرى.¹ وتكاد تكون المدينة الوحيدة التي لا زالت تحت الحكم البيزنطي، وسط محيط اسلامي.

استغل فيلاريت خروج حاكم المدينة البيزنطي اسحق كومنين (Isaac Comnène)، حيث استدعاه الامبراطور البيزنطي الجديد نقفور بوتانياتس، وطلب منه أن يسحب معه من أنطاكية كل ما يستطيع من الفرق العسكرية، فأصبحت الظروف مناسبة ليحقق فيلاريت تطلعاته وأهدافه، خاصة بعد أن ترك اسحق في مكانه فاساك باهلؤوني (Vaçac Bahlavouni) نائبا عنه في المدينة. وهو من عائلة أرمنية عريقة ولكن هذا النائب تعرض لخدعة من طرف بعض الرماة البيزنطيين الذين اغتالوه بطريقة بشعة في أحد شوارع أنطاكية. ثم اندلعت اضطرابات وأحداث بين أهل المدينة من الأرمن وغيرهم من العناصر الأخرى راح ضحيتها عدد كبير من السكان.² وأمام تطور الأحداث خشي أعيان المدينة -ومعظمهم من الأرمن- أن يستولي السلاجقة المسلمون عليها، فطلبوا من فيلاريت أن يتولى أمرها،³ بهدف إعادة الأمن، وحمايتها من السلاجقة. وبهذه الطريقة أصبح فيلاريت سيدا على أنطاكية.⁴ وأول ما بدأ به بعد أن أمست المدينة تحت سلطته، هو الانتقام من الذين قتلوا الأمير الأرمني، وكانوا سببا في اندلاع الاضطرابات، فأخرجهم إلى قرية مجاورة وقتلهم جميعا.⁵

وباستلامه أنطاكية، أمسى فيلاريت يحكم منطقة تمتد من البحر المتوسط غربا إلى نهر الفرات شرقا، ومن شمال سوريا جنوبا إلى حدود كبادوكيا شمالا،⁶ وشملت أملاكه قيليقيا وطوروس وجزءاً من سوريا.⁷ فكانت هذه المدن والأراضي الملجأ الوحيد للأرمن، الذين رأوا فيه منقذا لهم من التمدد

¹ Laurent J. : Byzance et Antioche, p. 63.

² Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 178-179; Laurent J. : op. cit., pp. 65-67.

³ عاشور سعيد عبد الفتاح : بحوث ودراسات، ص 230-231.

⁴ Comnène Anne : op. cit., t. II, p.64.

⁵ Matthieu d'Edesse : loc. cit.

⁶ أنظر الملحق الثالث عشر، ص 486.

⁷ عمران محمود سعيد : السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ص 59؛ Laurent J. : Byzance et les Turcs, p. 84.

السلجوقي¹. وهكذا، فبين كارثة منازكرد ومجيئ الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق، نجح فيلاريت في إقامة أسس أرمينيا جديدة.

ولكنه وجد نفسه بين فكي كماشة، لأن المنطقة التي أصبحت تحت سلطته تقع بين جارين قويين. من الشرق والشمال جاورت أملاكه الأتراك السلاجقة، وهم يتطلعون للتوسع في قيليقيا. ومن الغرب الامبراطورية البيزنطية التي تعتبره مغتصبا لأملكها وأنه يحكمها من غير وجه حق. وعلى هذا الأساس ستكون أرمينيا الصغرى، لفترة محل صراع بين القوى الإسلامية والقوى المسيحية، إلى غاية سقوطها سنة 776هـ/1375م.

ومن محاسن الصدف، أنه في نفس السنة التي تولى فيها فيلاريت مدينة أنطاكية، فقد غرعه ميخائيل السابع عرش الامبراطورية البيزنطية، ونجح نقفور بوتانياتس في حركته التمردية، وأضحى إمبراطورا في القسطنطينية باسم نقفور الثالث. وأدرك هذا الامبراطور الجديد عجزه عن تأمين حدود دولته في الشرق، وعدم قدرته على استعادة الأراضي التي فقدتها في آسيا الصغرى. وأحس بضرورة بقاء قيليقيا قلعة للمسيحية، صامدة وسط فتوحات السلاجقة المسلمين لتعيق انتشارهم، وتقدمهم في بلاد الشام، ورأى في فيلاريت رجل بيزنطة في المنطقة، وهو الكفيل بحمايتها من أي غزو خارجي.

ج - فيلاريت المدجن

فتح الامبراطور نقفور الثالث صفحة جديدة في علاقة الامبراطورية البيزنطية بفيلاريت، حيث انتهج سياسة حكيمة استهدفت تدعيم العلاقات الطيبة مع ذلك الزعيم الأرمني، وسار معه على مبدأ "عفا الله عما سلف"، فأبقاه حاكما على البلاد التي استولى عليها ومنحه لقب قريلاط (Curopalate)². وانقلبت سلطته من لاشرعية إلى شرعية. وأظهر فيلاريت من جهته اعتدالا

¹ Grousset : L'Empire du Levant, pp. 178, 180.

² قريلاط (Curopalate) : لقب روماني قدم، اشتق من cura palatii، أي إدارة مباني القصر، وأخذ هذا اللقب أهميته في عهد جوستينيان، كان القريلاط يقوم بمهمة قائد حرس القصر، ويعمل تحت قيادة رئيس الحرس. ثم أصبح يمنحه الامبراطور تكريما لبعض أقربائه، ثم أصبح القريلاط "مارشال القصر"، مسؤول عن أمن الأمير، ثم أصبح لقباً شرفيا، ويكلف صاحبه بوظيفة حقيقية ذات أهمية كبيرة. (أنظر : Bréhier Louis : Les institutions de l'empire byzantin, pp. 37-39, 98)

وحكمة، فأعلن ولاءه وخضوعه للإمبراطور؛ وبذلك أصبح تابعا للإمبراطورية البيزنطية، وباسمها يحكم المناطق التي استولى عليها. ثم قام بزيارة إلى القسطنطينية "ورحب به اليونان وجادوا عليه بالذهب والسلاح ورقوه إلى رتبة سبسطس".¹ ولكي يتفرغ الامبراطور ألكسيس كومنين للرد على هجوم النورمان، درج على نفس السياسة التي سلكها سلفه.² والواقع أن فيلاريت لم يعترف إلا بسيادة اسمية للإمبراطورية لأنه كان مستقلا عنها من الناحية العملية.³

وإذا كان أباطرة بيزنطة قد غضوا الطرف عن فيلاريت، ومنحوه -مختارين أو مجبرين- الشرعية على البلاد التي احتلها، فإن المسلمين من سلاجقة وعرب، كانوا ينظرون بعين الريبة لهذا الكيان الذي نشأ في إقليم الثغور والعواصم على حدود دولتهم، لأنه انتزع منهم بعض الأراضي، ووقف في وجه تقدمهم نحو الشام. كما أن لهم في هذا الإقليم حقوقاً بحكم خضوعه للخلافة الإسلامية في وقت سابق. ولذلك كان فيلاريت حذرا في علاقته بهم، وهو يدرك بأنه لا يملك القوة لمواجهةهم، وفي حالة اندلاع حرب بينه وبين الإمارات الإسلامية فإن سلطته تصبح في مهب الريح، ولذلك اتبع سياسة التعايش السلمي أو المهادنة والترضية مع السلاطين والأمراء المسلمين.

د - فيلاريت بين بني عقيل وسلاجقة الروم

تعرض فيلاريت لضغط شديد من مسلم بن قريش (434-478هـ/1042-1085م) أمير بني عقيل،⁴ الذي استولى على حلب سنة 472هـ/1079م، من صاحبها سابق المرداسي، ولا مست

¹ ابن العبري : مصدر سابق، ص 118.

² Comnène Anne : op. cit., t. II, p. 64.

³ عاشور سعيد عبد الفتاح : مرجع سابق، ص 231؛ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 114؛

Bréhier Louis : Vie et mort, pp. 275-276.

⁴ أسرة عربية حكمت الموصل، كانت في خدمة الحمدانيين، ثم تمكن أحد أمرائها وهو الأمير حسام الدولة المقلد من السيطرة على الموصل سنة 996م، وامتد نفوذها على جزء كبير من الجزيرة في شمال العراق، وعلى حلب في شمال سوريا، وكانت مساحة هذه الإمارة تعادل تقريبا ممتلكات فيلاريت في قيليقية، واستمرت إلى غاية 1096م، حيث قضى عليهم السلاجقة. اشتهر من أمرائها المقلد بن المسيب، وابنه بدران، ثم قريش بن بدران، ثم مسلم بن قريش (شرف الدولة أبو المكارم)، الذي يعتبر من كبار بني عقيل، وفي عهده بلغت الإمارة قمة سلطتها. كان حليفا للسلاجقة في عهد ألب أرسلان وابنه ملكشاه، ثم انقلب عليهم وتحالف مع =

إمارته ممتلكات الأرمن في قيليقيا، وأراد مسلم توسيع إمارته نحو الغرب، فانتزع من الأرمن سميساط،¹ وسار إلى أنطاكية في 2 محرم 475هـ/12 جوان 1082م. التقى هناك بفيلاريت الذي وجد نفسه أمام قوة لا قبل له بها، ورأى أن من مصلحته مهادنة بني عقيل، والإقرار بالتبعية لهم. فمنحوه الأمان، وتعهدوا له بحمايته من الأتراك السلاجقة، على أن يلتزم بدفع جزية سنوية تجسيدا لتلك التبعية، ويقوم بترميم وإصلاح مسجد مدينة الرها، ويضرب السكة باسمهم.² وأخطأ مسلم بن قريش حين اعتقد أن في استطاعته مقاومة السلاجقة والحد من نفوذهم، إن هم أرادوا التمدد في شمال سوريا أو قيليقيا، فهو كمن يناطح الصخر.

ويبدو أن هذا التقارب بين مسلم بن قريش العقيلي وفيلاريت، قد أزعج سليمان بن قتلمش، الذي كان يريد أن يقضي على نفوذ البيزنطيين في قيليقيا وشمال الشام، باستغلال حالة الضعف التي تمر بها الدولة البيزنطية، فشرع سنة 475هـ/1082م، في استعادة إقليم الثغور من البيزنطيين. منتزعا من فيلاريت مدينة طرسوس والمصيصة وعين زربي ومدنا أخرى في قيليقيا،³ وسبى خاله مدينة ملطية.⁴ وتطلع إلى ضم أنطاكية إلى ممتلكاته. وجاءته الفرصة التي لم يكن ينتظرها، فلم يسمح لنفسه بتضييعها. حيث اتصل به أعيان الأرمن في أنطاكية، ومن بينهم الشحنة،⁵ وابن فيلاريت، يدعوانه

= الفاطميين، قتل سنة 487هـ/1085م، في معركة مع سليمان بن قتلمش أثناء فتح مدينة أنطاكية من طرف السلاجقة. خلفه اخوه ابراهيم الذي قضى عليه تتش بن ألب أرسلان سنة 1093م، وبموته انقرضت سلالة بني عقيل. (انظر :

Bosworth C.E. : *Ukaylids*, in : *Enc. Isl.*, Brill, Leiden, 2000. vol. X, pp. 786-787; Sobernheim M. : *Muslim B. Kuraysh*, in : *Enc. Isl.*, E. J. Brill, Leiden, 1993. vol. VII, pp. 692-693.)

¹ ابن العبري : مصدر سابق، ص 118.

² عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 85-86؛

Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 173; Laurent J. : *Byzance et Antioche*, p. 68; Dédéyan Gérard : *Les Arméniens entre Grecs Musulmans*, t. I, pp. 335-337.

³ Michel Le Syrien, op. cit., t. III, p. 179.

⁴ ابن العبري : مصدر سابق، ص 118.

⁵ الشحنة : ورد هذا المصطلح كثيرا في المصادر العربية، والمقصود به هو مندوب السلطان أو الملك أو الأمير، في حكم بلد من البلاد أو ضبط أمورها، أثناء غيابه، وعند اللغويين أن العامة يقصدون بالشحنة إنه الأمير غلط، ويقولون شحنة الكورة من فيهم الكفاية لضبطها من أولياء السلطان. (انظر : ابن منظور، مرجع سابق، ج 13، ص 234).

للقدوم ليتسلم منهم المدينة.¹ فبالأمس استنجد البيزنطيون بالأتراك، واليوم هاهم الأرمن يولون وجوههم شطر السلاجقة. ولا بد من التساؤل هنا عن الظروف والأسباب التي جعلت سكان أنطاكية ينقلبون على فيلاريت، ويقلبون له ظهر الجحش، وهم الذين استنجدوا به في سنة 471هـ/1078م، والآن يرسلون إلى سليمان بن قتلش يعرضون عليه تسلّم مدينتهم؟ ألم يشتهر الأتراك بسفك الدماء وتخريب البيوت؟ ولماذا اختاروا سليمان بالذات وليس مسلم بن قريش الذي تقع إمارته بجوار مدينتهم؟ وأين كان فيلاريت لما وقعت هذه الإتصالات؟

يرى المؤرخ الفرنسي الأرميني الأصل، جيرار ديديان أن سليمان بن قتلش كان أقرب إلى الأرمن في ثقافتهم وحضارتهم، من السلاجقة العظام، "وقد كان سكان أنطاكية يفضلون سليمان الذي احتك بالبيزنطيين على ملكشاه الذي كان يميل إليه فيلاريت".² وبعبارة أخرى إن إقامة سليمان في بلاد الروم التي فتحها، واستوطنها مع أتباعه قد هذبت سلوكه، وأكسبته طباعا هي أقرب إلى طباع البيزنطيين والأرمن. والواقع أنه اشتهر بأخلاقه الإسلامية السامية المتمثلة في السماحة والعدالة والمساواة التي عامل بها شعوب البلدان التي فتحها.³ فقام بتحرير الكثير من الألقان الذين كانوا يعملون في ضياع كبار الملاك البيزنطيين، وهم الذين قاسوا الكثير من ألوان الظلم والاستعباد، واستطاع بهذه الخطوة، أن يكسب ولاء، وود تلك الفئة.⁴ كما سمح للموظفين المسيحيين بممارسة أعمالهم بحرية تامة. وكان يرمي من وراء ذلك الاستفادة من خبراتهم وجهودهم في بناء دولته الفتية.⁵ والأهم من ذلك كله، أن المسلمين ومنهم السلاجقة، تركوا للأرمن حرية الاعتقاد والعبادة، وممارسة طقوسهم الدينية حسب مذهبهم دون إكراه، وهو الشيء الذي افتقدوه تحت سلطة البيزنطيين، وحتى في عهد فيلاريت الذي كان أرمينيا في أصوله، وبيزنطيا في عقيدته المخالفة للكنيسة الأرمنية.

¹ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 136.

² Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs Musulmans, t. I, p. 340.

³ باذياب نورة عبد الله : مرجع سابق، ص 27.

⁴ Grousset : L'Empire du Levant, p. 173.

⁵ باذياب نورة عبد الله : مرجع سابق، ص 27.

وكان شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قريش، قد فرض على فيلاريت في أنطاكية سنة 475هـ/1082م، جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف دينار.¹ ومن دون شك فإن هذا المبلغ سينتزع من الأهالي الذين أثقلت الضرائب كاهلهم، مما جعلهم ينفرون من مسلم بن قريش، الذي منح الأمان لفيلاريت وتعهده له بحماية أراضيه من السلاجقة، فهو -نظريا- يعتبر حليفا له. كما أن إمارة بني عقيل تبدو صغيرة، وضعيفة أمام سلطنة الأتراك، فهي غير قادرة على توفير الحماية لهم من توسعات السلاجقة. فهذه العوامل مجتمعة جعلت أرمن أنطاكية لا يلتفتون إلى أمير بني عقيل، ويتوجهون إلى سليمان بن قتلمش.

ويبدو من المصادر الأرمنية والسريانية التي لا تذكر فيلاريت إلا بالسوء، انه أساء السيرة في كل المناطق التي كانت تحت سلطته. ومما قام به مع أهل أنطاكية بعد أن خضعت له، فَرَضَهُ ضرائب باهظة عليهم لدفع مرتبات الجيش، كما تتفق المصادر العربية والسريانية على وصف عهده بأنه تميز بالاستبداد والطغيان، حيث جاء فيها : "واسترسل في الظلم والعتو حتى قبض على زعماء انطاكية واغتصب أموالهم ووزعها على عساكره، فأبغضه الأنطاكيون بغضا شديدا"،² "وكان الفردوس مسيئا إلى أهلها وإلى جنده أيضا حتى أنه حبس ابنه".³ وبسبب هذه السياسة اهتزت سلطته في أنطاكية، فثار عليه سكان المدينة، لكنه قمع ثورتهم بالقوة، وندم الأهالي على تسليم مدينتهم له، وتطلعوا إلى اليوم الذي يتخلصون فيه من بطشه.⁴ وكان ابنه من الناقمين عليه، وهو الذي تولى عملية الاتصال بسليمان بن قتلمش لتسليم المدينة له،⁵ مستغلا فرصة غياب والده عنها، حيث خرج إلى الرها مع مجموعة من جنوده، لتسوية بعض القضايا هناك.⁶

¹ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs Musulmans, t. I, p. 337.

² ابن العبري : مصدر سابق، ص 118.

³ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 136.

⁴ ابن الشحنة : مصدر سابق، ص 211.

⁵ ربما كان ابن فيلاريت في السجن، وتمكن من الفرار بعد خروج أبيه من المدينة أو أطلق سراحه من طرف المعارضين لفيلاريت.

(أنظر : Cheynet Jean-Claude : Etudes prosopographiques, p. 73.)

⁶ طقوش : مرجع سابق، ص 64-65.

أسرع سليمان إلى أنطاكية مستغلا فرصة غياب فيلاريت، ووجود فئة عريضة من السكان تعارض سلطته. فسار إليها ليلا وكنتم خبره، حتى عسكر أمام أسوارها، "دون أن يراه أحد، ووجد المدينة بدون دفاع وبدون حامية".¹ وفي 1 شعبان 477هـ/2 ديسمبر 1084م دخل أنطاكية دون صعوبة تذكر "ونادى بالأمان في المدينة وحرّم على الأتراك الضرب بالسيف ودخول أي بيت من بيوت المسيحيين ومصاهرة بناتهم على الإطلاق، وفرض عليهم أن يبيعوا كل ما غنموه من الأنطاكيين في أنطاكية عينها وبشمن بخس... فاستراح الأنطاكيون وتمتعوا بالطمأنينة أكثر من أيام فيلردس النصراني بالاسم".² وحتى لا يثير شكوك السلطان ضده، أرسل سليمان بن قتلمش البشري إلى ملكشاه، ونسب هذا الفتح إليه وأنه يتولى طاعته، ففرح ملكشاه، وهنأه الناس على هذا الفتح.³ ولكسب مودة أمير بني عقيل "أهدى إلى شرف الدولة من الغنيمة هدية حسنة".⁴ وواصل سليمان عمله "ففتح الحصون المجاورة لها، بعضها عن طوع وبعضها عن استدراج".⁵ ومما لاشك فيه أن كثيرا من تلك الحصون كانت من ممتلكات فيلاريت.

وإذا كان ملكشاه قد سرّه هذا الفتح، فإن مسلم بن قريش قد أصيب بالفزع لأنه وجد أمامه جارا قويا، يختلف عن الآخرين، فضلا عن عجزه على حماية ممتلكات فيلاريت كما تعهد له سابقا. فكتب إلى سليمان يدعي أنه أحق منه بمدينة أنطاكية، وطلب منه دفع الجزية التي كان يؤديها له فيلاريت، ويخوفه معصية السلطان الذي منحه الشرعية، وأقره على ممتلكاته.⁶ ولكنه لم يكن يدرك أن

¹ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 187.

² ابن العبري : مصدر سابق، ص 118.

³ العظيمي : مصدر سابق، ص 352؛ ابن العديم : مصدر سابق، ص 87؛ Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 187-188.

⁴ ابن العديم (كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن أحمد بن هبة الله (ت 660هـ)) : زبدة الحلب من تاريخ حلب، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996. ص 214.

⁵ نفسه

⁶ سار السلطان ملكشاه إلى الموصل يريد انتزاع الموصل من بني عقيل، عقابا لهم لمساندتهم بني مروان ضد السلاجقة، وكان وزير السلطان، نظام الملك يميل إلى شرف الدولة، فكتبه يشير عليه بالخروج إلى السلطان قبل أن يصل إلى الموصل، ولقيه على مراحل منها، فقال له السلطان : "ذهب خوفك وشرح صدرك، وحقق أملك"، وأكرمه السلطان وأحسن إليه، وسامحه، وجدد له التوقيع بالبلاد الشامية والجزرية، وكل ما كان في يده، وكتب أخاه تاج الدولة أن لا يتعرض لبلاده. واكتسب بذلك الشرعية من سلطان السلاجقة. (أنظر : ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 135؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 211-212).

سليمان يتصرف مستقلاً عن ملكشاه، حيث كتب إليه يقول : "أما طاعة السلطان فهي شعاري ودياري والخطبة له والسكة في بلادتي وقد كاتبته بما فتح الله على يدي بسعاداته من هذا البلد وأعمال الكفار"،¹ وعن دفع الجزية قال له : "تلك جزية كانت على الروم لتُمسك عن جهادهم، وقد قمت أنا بفريضة الجهاد، وصارت أنطاكية للمسلمين فكيف أؤدي عنها إليك جزية؟".²

وأقام سليمان في أنطاكية، واتخذها قاعدة انطلاق لفتح الحصون المجاورة، "وفتحت الترك الثغور والدروب وأذنة وعين زربى والمصيصة"،³ واتصل به بعض أمراء بني مرداس، وبعض عساكر مسلم بن قريش، وشجعوه على ضم إمارة حلب إلى سلطنته. وأخذ يعمل على التمدد نحو المناطق التابعة لها تمهيداً لفتح المدينة نفسها.⁴ ولما شعر مسلم بن قريش بالخطر يتهدده، "جمع الجموع من العرب والتركمان... وسار إلى أنطاكية ليحصرها"،⁵ ودخل في حرب لا مفر منها ضد سليمان، انتهت بمقتل مسلم بن قريش في 24 صفر 478هـ/20 جوان 1085م.⁶

والحقيقة أن سليمان كان يريد التوسع في بلاد الشام، التي كان يحكمها آنذاك تتش بن ألب أرسلان أخ السلطان ملكشاه، بدليل أنه بنى قاعدة في مدينة قنسرين، واتخذها معسكراً لانطلاق حملاته على المناطق المجاورة، ثم ضرب حصاراً على مدينة حلب التي كان يتولاها الشريف حسن بن هبة الله الحتيتي. فطلب منه سليمان تسليم المدينة، إلا أنه رفض ورفع راية المقاومة، وأرسل إلى ملكشاه يخبره بمصرع شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي، ويدعوه للقدوم إلى حلب ليتسلمها. ولكن تحرك السلطان كان بطيئاً، فأرسل إلى تاج الدولة تتش، أخ ملكشاه وصاحب دمشق يستدعيه ويعده بتسليم المدينة. فاغتنب لهذه الفرصة، وكان يأمل في الاستيلاء على أنطاكية بعد حلب، فأسرع على رأس جيش لمساعدة المدينة المحاصرة. ولما علم سليمان بذلك فك الحصار، وسار بجيشه نحو

¹ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 137.

² ابن العديم : زبدة الحلب، ص 214.

³ العظيمي : مصدر سابق، ص 352.

⁴ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 214.

⁵ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 137.

⁶ نفسه.

الدمشقيين على غير تعبئة. ودارت بينهما معركة طاحنة بين حلب وأنطاكية، انتهت بمصرعه، بتاريخ 18 صفر 479هـ/3 جوان 1086.¹

هـ- فيلاريت في مواجهة ملكشاه

لما تُوفيَ مسلم بن قريش، أصيب فيلاريت بالرعب، وزاد من روعه، مقتل سليمان بن قتلمش، لأنه وجد نفسه وجها لوجه أمام جار أقوى، وهو تتش بن أرسلان السلجوقي أخ السلطان ملكشاه، الذي كان يتطلع إلى فتح أنطاكية. ولاحظ أن السلطات البيزنطية التي يعتبر نفسه تابعا لها، وحارسا على حدودها الشرقية، قد خذلتها ولم تقدم له أي مساعدة، وتركته وحيدا في معركته ضد السلاجقة،² فأراد أن يسابق الزمن، ويسبق الأحداث قبل أن تباغته وتجرى رياحها بما لا تشتهي سفنه. فخرج من مدينة الرها يريد مقابلة "السلطان القوي"،³ حاملا معه الذهب والهدايا النفيسة.⁴ وعلق آمالا كبيرة على هذه الزيارة؛ لأن ملكشاه اشتهر بين المسيحيين بتسامحه، وتعاطفه معهم.⁵ وترك في الرها أحد مساعديه نائبا عنه في المدينة، ولكن أحد ضباطه ويدعى بارسوما (Barsouma)، استغل فرصة غياب فيلاريت ودبر انقلابا ضده.⁶

في هذه الأثناء كان السلطان في طريقه قادما من خراسان لاستلام مدينة حلب من الحثيقي، وكان سيره أشبه بالحملة العسكرية؛ لأنه استولى أثناء سيره على كثير من المدن والحصون، ولذلك

¹ العظيمي : مصدر سابق، ص 353؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 217-218؛

Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 194-195.

² Dédéyan Gérard : Le rayonnement de l'Etat arménien de Cilicie, ds. : H.P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008. p. 337.

³ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 195.

⁴ Ibid.

⁵ أدى بعض رجال الدين المسيحيين زيارات إلى ملكشاه، والتمسوا منه إعفاء الكنائس والأديرة والقساوسة والرهبان من دفع الضرائب، فاستجاب السلطان لطلبهم، وهو يختلف كثيرا عن أبيه ألب أرسلان، ويبدو صديقا للمسيحيين، وربما كانت تلك السياسة من وحي وزيره نظام الملك، وتحذر الإشارة إلى أن زوجة الوزير نظام الملك هي ابنة كيوريك الثاني (Kiourikê II)، ملك لوري في أرمينيا الكبرى سابقا، وحزن أهل الكتاب حزنا شديدا عند وفاة السلطان ملكشاه. (انظر :

Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 201-202; Grousset : L'Empire du Levant, p. 182; Dédéyan : Les Arméniens entre Grecs Musulmans, t. I, pp. 345-346; Augé Isabelle : op. cit., pp. 69-70).

⁶ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 196.

كانت حركته بطيئة. ولما اقترب من الرها، أرسل أحد قادته وهو بوزان لمحاصرتها، وبعد ستة أشهر من الحصار، استسلمت له المدينة بعد أن عانى السكان من شح كبير في المياه والغذاء، ثم اندلعت فيها اضطرابات أدت إلى القبض على بارسوما وتسليمه إلى بوزان، وفُتحت الأبواب،¹ "وسلمه إياها الأهالي بسهولة".²

التقى فيلاريت بملكشاه في مكان غير بعيد عن مدينة الرها، -بعد أن فقد سلطته عليها- "ووعده بتأدية الجزية والمناداة باسم الخليفة والسلطان"،³ إشارة للتبعية، وأتمس منه إعادة المدن والأراضي التي انتزعها منه السلاجقة، ثم أعلن أمامه عن اعتناقه الاسلام، وهو مأجّمع عليه المصادر العربية والأرمنية والسريانية.⁴ هذه الخطوة زادت من حقد الرهاويين عليه، واعتبروه مارقا "وما عثم أن مرق من دينه وأسلم على يد السلطان... وجعل يطوف مع عساكر السلطان في رحلاتهم".⁵ وإذا كان قد مكث في معسكر المسلمين، وتنقل مع جيشهم في حملاتهم العسكرية، كما يروي المؤرخ السرياني ابن العبري، فيكون قد اعتنق الاسلام فعلا. ولكن، يشكك بعض المؤرخين في هذه المسألة، ويشيرون إلى أنه كان يتظاهر بذلك خدمة لمصلحه الخاصة،⁶ وهذا يتطابق تماما مع المبدأ القائل : "الغاية تبرر الوسيلة". ومن المحتمل أن يكون قد اعتنق الإسلام لفترة مؤقتة.⁷ وقد كان هدفه من هذه السياسة، تأمين ممتلكاته، وتوفير الاستقرار لإمارته، فليس من مصلحته آنذاك الدخول في حروب ومناوشات مع القوى الكبرى.

¹ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 197-198.

² ابن العبري : مصدر سابق، ص 119.

³ المصدر السابق، ص 120.

⁴ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 240؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 220؛ ابن العبري : مصدر سابق، ص 120؛ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 196; Michel Le Syrien, op. cit., t. III, p. 173.

⁵ ابن العبري : مصدر سابق، ص 120.

⁶ Mutaftian Claude : La Cilicie, t. I, p. 372.

⁷ Augé Isabelle : Le dilemme de l'Eglise : ouverture ou défense de la tradition nationale, ds. : H.P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008. p. 337.

والواقع أن هذه الدولة لم تكن قادرة على الصمود طويلا، أمام تعدد الجبهات التي كانت تواجهها، وكان ملكشاه يدرك بأن زوالها هو مسألة وقت فقط. وعندما لاحظ بغض الرهاويين لفيلاريت لم يُعده إلى الرها بل منحه مرعش بدلا منها، وربما أضاف إليه ملطية.¹ وبعد أن فقد أنطاكية، والرها،² وبعض المدن الأخرى التي كان يحكمها، تقلصت سلطته، واهتزت قوته شيئا ما، "حتى مات تاعسا، قيل إنه عاد فتنصر وآمن بالمسيح".³ وتعرضت دولته للتفتت والضياع بعد وفاته سنة 483هـ/1090م⁴ في مرعش.

أما "سيد العالم"⁵ السلطان ملكشاه، فقد وصل إلى حلب بتاريخ 23 شعبان 479هـ/02 ديسمبر 1086م،⁶ وظهر بمظهر الموحد للأسر السلجوقية، لأنه كان يعتبر نفسه سلطانا عليهم، بمختلف فروعهم في الشرق والغرب، وكان يتدخل في كل مرة يحاول فيها أي فرع منهم، الظهور بمظهر المستقل. ثم رتب الأمور بين السلاجقة المتنازعين،⁷ فمنح حلب لحاجبه قسيم الدولة أفسنقر مؤسس البيت الزنكي، ومنح مدينة الرها لقائده بوزان الذي فتحها، ولما وصل إلى أنطاكية تسلمها

¹ Grousset : L'Empire du Levant, p. 183.

² الجنزوري : مرجع سابق، ص 47. يوجد تضارب شديد في رواية الأحداث التاريخية المتعلقة بسقوط مدينة الرها في يد السلاجقة، فابن الأثير وهو أقدمهم، يذكر في كتابه الكامل في التاريخ، أن ملكشاه سار إلى حلب من خراسان، ولما وصل إلى الرها أمر عليها فيلاريت بعد أن اعتنق الاسلام، ولم يزل عليها حتى مات، وأخذها الأمير بوزان بعده (ج 8، ص 140، 240). ويتناقض مع نفسه، في كتابه الثاني "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية" حيث يقول بأن ملكشاه كان في الرها لما أرسل إليه الختيتي يطلب منه القدوم لاستلام مدينة الرها، وبعد أن استسلمت المدينة أقطعها للأمير بوزان (ابن الأثير (ابو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت 630 هـ)) : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1963. ص 7). ويذكر متى الرهاوي أن بوزان حاصر المدينة ستة أشهر (Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 195-199)، ويذكر ابن العبري أن المدينة استسلمت دون مقاومة (ص 119-120) ... وكل هذه المصادر كتبت بعد ما يزيد عن قرنين، ولا تتوفر على مصدر عاين الأحداث أو كان قريبا منها. (انظر أيضا :

Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 195-199; Michel Le Syrien, op. cit., t. III, pp. 173-174.)

³ ابن العبري : مصدر سابق، ص 120.

⁴ الراجح أنه توفي سنة 1090، ويرى آخرون أنه توفي سنة 1092م. أنظر : Mutafian C. : La Cilicie, t. I, p. 377.

⁵ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 196.

⁶ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 220.

⁷ طقوش : مرجع سابق، ص 69.

من الحسن بن طاهر وزير سليمان، فعين عليها أحد ضباطه وهو ياغي سيان التركي. ولم تراوده أية رغبة في ضم بلاد الروم، ثم واصل طريقه إلى السويدية،¹ "وصلى على البحر، وحمد الله على ما أنعم عليه مما تملكه من بحر المشرق والمغرب".²

و - فلاريت في المصادر الأرمنية والسريانية

الواقع أن فيلاريت، قد وصف في المصادر الأرمنية والسريانية، بأقبح النعوت، فهو عند الأرمن "الابن الأول لإبليس"،³ وهو "قائد ظالم، ومستبد وقاسٍ، وحقير"،⁴ ولا يعتبر أرمنيا إلا بأسلافه، لأنه تبنى لغة وعادات البيزنطيين ومذهبهم في الدين، ورغم أنه مسيحي فهو فاقد للإيمان، ولم يتورع عن الانتقام من الأرمن شر انتقام بعد دخوله مدينة الرها، ورغم وجود مقر لرئيس الكنيسة الأرمنية في جهات أخرى من قيليقيا، فقد أقام مقرا جديدا منافسا له في مرعش... ولم يبذل أي جهد لإنقاذ الملك البجراطي "جاجيك الثاني" لما تعرض للاغتيال على يد البيزنطيين، وحدثت العملية في قلعة غير بعيدة عن الإقليم الذي كان تحت سلطته.⁵

أما السريان واليعاقبة فهم أشد كرها له، ولا يمكن أن يغفروا له ضغطه الشديد على الكنائس والأديرة السريانية للحصول على المال، خاصة بعد أن ازدادت قوة السلاجقة وتوسعوا على حسابه، وفرضوا عليه الجزية. وكان همه الأول جمع الثروة، كما حكم باستبداد في جميع المناطق التي خضعت له، "واسترسل في الظلم والعتو".⁶ وهو في نظرهم "تخلى عن عقيدته في سبيل الاحتفاظ بالإمارة،

¹ السويدية (Saint-Siméon) : وتسمى كذلك ميناء القديس سمعان تخليدا لهذا الناسك، وهي بلدة قرب ساحل البحر المتوسط، كانت خلال العصر الوسيط تستخدم كميناء لمدينة أنطاكية، وتقع عند مصب نهر العاصي على مسافة قريبة من أنطاكية، قبيل وصوله إلى ساحل البحر. (انظر : Claude Cahen : La Syrie du Nord, p. 133.)

² ابن العديم : زبدة الحلب، ص 220؛ Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 196-197.

³ Matthieu d'Edesse : loc. cit.

⁴ Ibid., p. 173.

⁵ للتعرف أكثر على موقف المصادر الأرمنية من فيلاريت، أنظر : Ibid., p. 173-177, 187-199.

⁶ ابن العبري : مصدر سابق، ص 118.

ولكنه فقد إيمانه وحُرم من الإمارة".¹ وقد كان السريان يشكلون الجزء الأكبر من السكان في شمال سوريا بحكم وجودهم في تلك المناطق منذ العهد الأول للمسيحية، وبذلك فإن أغليبتهم كانوا ناقلين على فيلاريت.²

ويبدو هذا الرجل -من خلال المراجع الحديثة- أرمنيا طموحا محتفظا بروح عسكرية متمردة. وحاول أن يؤسس لنفسه سلطة بعيدة عن نفوذ البيزنطيين والأتراك معا، مستفيدا من الأوضاع والفوضى التي غمرت آسيا الصغرى بعد معركة منازكرد. وقد تمكن بجهوده العسكرية والديبلوماسية، أن يفتك من البيزنطيين رقعة خضعت لسلطته ما يقارب عشرين سنة،³ ومن خلالها رسم الخريطة التي ستحفظ للأرمن كيانهم وسط الأعاصير التي ضربت إقليم قيليقيا، ومكنتهم من القيام بدور أساسي في الحروب الصليبية. ويعتبره المؤرخ جيار ديدان بطلا قوميا، ومنقذا للأمة الأرمنية، ومدافعا شرسا عن الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ضد توسعات الأتراك السلاجقة، والإمارات العربية.⁴

والخلاصة أن فيلاريت لا يعدو أن يكون مغامرا جسورا،⁵ أو عسكريا هائجا مصابا بجنون العظمة، وينام بداخله شيطان المغامرة. وعلى حد تعبير جروسي فهو متعطش للسلطة، ومحب للثروة، يستخدم كل الوسائل، ومستعد لارتكاب أبسط خيانة، وكان مبدؤه "الغاية تبرر الوسيلة"، ليبقى دائما في مركز القوة.⁶ فقد بدأ حياته في دير أرمني مونوفيزي، ثم تخلص عن الكنيسة الأرمنية لصالح الأرثوذكسية الديوفيزية، لينال رضا السلطات البيزنطية وتمنحه المناصب الإدارية والعسكرية. ثم شق عصا الطاعة، وتمرد عليها. ولكنه ما لبث أن عاد إلى بيت الطاعة، ووضع نفسه في خدمة البيزنطيين،

¹ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 173.

² للتعرف أكثر على موقف السريان من سياسة فيلاريت، أنظر : ابن العبري : مصدر سابق، ص 118-120؛ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 173, 177-178.

³ انظر الملحق الثالث عشر، ص 486.

⁴ Dédéyan : Les Arméniens entre Grecs Musulmans, t. I, pp. 357.

⁵ الجنزوري : مرجع سابق، ص 47.

⁶ Grousset : L'Empire du Levant, p. 178.

وأخذ عنهم كرههم لأتباع الكنيسة الأرمنية. وانتهى به الأمر تابعا للسلاجقة، مع دفع الجزية لهم.¹ لقد تمكن فيلاريت من الحفاظ على وجوده واندس بين الامبراطوريتين، ليس بفضل قوته، بل بمكره ودهائه، فقد كان يلعب على الحبلين، فهو يتظاهر أمام البيزنطيين على أنه رجل بيزنطة الذي يعتمد عليه في المنطقة، ويتظاهر أمام جيرانه المسلمين بأنه رجل متسامح غير متعصب.² ويبدو أنه لم يين سلطته إلا على جثث بني جلدته.³ وخلال هذه المراحل كلها، "لم يوفر الحد الأدنى من الاحترام للسكان الأرمن والسريان الذين كانوا تحت سلطته، ليس بسبب مذهبه الديني فحسب، ولكنه كان انتهازيا دينيا، وهذا ما جعل الجميع ساخطين عليه : «المونوفيزيون، والخلقدنيون، والمسلمون»".⁴

وإذا كان فيلاريت قد توفي قبيل قيام الحروب الصليبية، ولم يكتب له المشاركة فيها، فإن نفوذ الأرمن لم ينقرض في قيليقيا والفرات بوفاته،⁵ حيث ساهم نوابه والأمراء الأرمن الذين كانوا تابعين له، بقسط وافر في أحداث ومعارك الحملة الصليبية الأولى. ومن بينهم جبريل (Gabriel)، الذي كان نائبا لفيلاريت بملطية منذ عام 475هـ / 1082م. وكان في أخلاقه وسيرته أقرب إلى سيده، باعتباره واحدا من المغامرين الأرمن، وكان على مذهب الكنيسة البيزنطية.⁶ وكذلك ثوروس بن هيثوم (Thoros fils de Héthoum)، الذي كان ضابطا سابقا لفيلاريت، وانتزع مدينة الرها من السلاجقة سنة 488هـ / 1095م، وساعده الأرمن على طرد الحامية التركية الصغيرة، ثم أصبح سيدا على المدينة.⁷ وفي مدينة مرعش نصب البيزنطيون حاكما أرمنيا هو ثاتول (Thatoul)، الذي بقي فيها إلى غاية 1104م.⁸ ومن بينهم كوغ فاسيل (Gogh Vasil 490-506 / 1098-1112)،

1 Laurent J. Byzance et les Turcs Seldjoudides, p. 89.

2 Grousset : L'Empire du Levant, p. 178.

3 Laurent J. op. cit., p. 87.

4 Dédéyan : Les Arméniens entre Grecs Musulmans, t. I, pp. 357.

5 عاشور سعيد عبد الفتاح : بحوث ودراسات، ص 232.

6 الجنزوري : مرجع سابق، ص 48.

7 Grousset : op. cit., p. 183-184.

8 Ibid.

الذي تمكن من إقامة إمارة صغيرة في رعبان وكيسوم بين مرعش ونهر الفرات، وكانت له علاقات متينة بالإمبراطورية البيزنطية.¹ كل هؤلاء القادة الأرمن سيرز دورهم أكثر أثناء الحروب الصليبية القادمة.

ومهما كان الدور الذي قام به فيلاريت، أو نوابه، وغيرهم من قادة الأرمن، في تاريخ أرمينيا الصغرى، فإنه يبدو ضئيلاً، أمام الدور الذي قامت به أسرتان أرمينيتان قُدر لهما أن تقودا الأحداث في قيليقيا مدة قرنين ونصف.²

4 - تأسيس إمارة بني روبين في قيليقيا

أ - بروز آل روبن وآل هيثوم

الأسرة الأولى هي آل روبين³ (la dynastie roubéniennes)، التي وضعت جذور أول إمارة أرمينية حقيقية في المنفى بعد منازكرد، وكانت مضاربها في الجزء الشرقي من قيليقيا. لذلك كان أمراؤها أكثر احتكاكا بعدد القوي الإسلامية والصليبية التي ظهرت فيما بعد بالشام والجزيرة، وكانت علاقاتهم بالدولة البيزنطية متوترة في معظم الأوقات.

والثانية هي الأسرة الهيثومية (la dynastie héthoumienne)، التي تنتسب إلى العائلة الملكية أُرْزروني (Artzrouni)، التي حكمت بعض أقاليم أرمينيا سابقا. ويعود تاريخ بروزها في قيليقيا إلى سنة 465هـ/1073م، حيث غادر أوشين (Ochine)، أحد أمرائها أرض أجداده في إقليم جنزك (Ganzak) بأرمينيا الكبرى. ونزح معه كل أفراد عائلته، ومجموعة من الفرسان والنبلاء، بحثا عن مأوى آمن. ولما وصل إلى قيليقيا دخل في خدمة أبلَغَرِيبْ أُرْزروني (Apelgharip Artzrouni) الذي عينه البيزنطيون حاكما على طرسوس (stratège de Tarse)، ثم تطورت العلاقة بينهما إلى المصاهرة، فمنحه قلعة لَمَبُرون

¹ عمران : السياسة الشرقية، ص 61؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 278؛

Grousset : L'Empire du Levant, p. 183-184.

Grousset : op. cit., pp. 387-388.

Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 198.

(Lambron)¹، المنبوعة الواقعة في أعالي جبال طوروس غرب قيليقيا، واتخذها مركزاً لإمارته.² وهذا الموقع جعل أوشين وأحفاده أقرب إلى الإمبراطورية البيزنطية وأكثر ارتباطاً بها. وكانوا أكثر الأسر الأرمنية ولاء وإخلاصاً لها، مما جعلهم يدخلون في نزاعات مع بني جلدتهم وخاصة مع أمراء الأسرة الروينية. وفي هذا الصراع الذي استغرق ما يزيد عن قرن بين الأسرتين، كان آل روبن هم دائماً البادئون بالتوسع والسباقون للعدوان، ويمكن تفسير ذلك بسببين رئيسيين :

الأول يعود إلى عوامل جغرافية واقتصادية، حيث أن معظم الأراضي التي كانت تحت سلطة بني روبين، ذات طبيعة جبلية صعبة، كثيرة المنحدرات، قليلة السهول، وهذه الطبيعة القاسية والتضاريس الصعبة فرضت عليهم سياسة توسعية، فنزلوا من معقلهم الجبلية ليسيظروا على مدن سهل قيليقيا الواقعة على الطرق التجارية المؤدية إلى المنافذ البحرية.

والثاني يعود إلى عوامل سياسية وعسكرية، فكان لابد على آل روبين أن يؤمّنوا حدودهم من ناحية الشرق بالسيطرة على دروب الشام لسد منافذها أمام السلاجقة، ومن ناحية الغرب بالسيطرة على دروب قيليقيا، وهي في أيدي البيزنطيين أو أتباعهم من بني هيثوم، مما أوقعهم في نزاع معهم.³

ورغم تنافس هاتين العائلتين وتناطحهما وتطاحنهما أحياناً، من أجل الاستئثار بالنفوذ والسلطة، أو التوسع، فإن الفضل يعود إليهما في تحقيق المجد، وتآلق أرمنيا من جديد.⁴ وكان هذا الصراع الطويل عائناً كبيراً أمام تطور وتوسع الإمارة التي أسسها آل روبين. ووحدها المصالحة التي تحققت بين العائلتين، سمحت للإمارة أن تزدهر على أسس راسخة.⁵ وما لبثت أن تحولت إلى مملكة معترف بها من طرف القوى الكبرى آنذاك. وبعد وفاة آخر ملك روبيني سنة 616هـ/1219م،

¹ لمبرون : حصن يقع في جبال طوروس بقيليقيا، يسمى حالياً نمرون. (Dulaurier : op. cit., p. 822).

² Mahé Annie et Mahé Jean-Pierre : Histoire de l'Arménie des origines à nos jours, Perrin, Paris, 2012. pp. 193-194; Tournebize F. : Histoire politique et religieuse de l'Arménie, ds. : **Revue de l'Orient Chrétien**, neuvième année, Librairie A. Picard et fils, Paris, 1904. p. 114.

³ عاشور سعيد عبد الفتاح : بحوث ودراسات، ص 232-234.

⁴ Grousset : L'Empire du Levant, p. 388; Mutfian Claude : La Cilicie, p. 368.

⁵ Mutfian Claude : loc. cit.

وهو ليون الثاني الذي لم يكن له ولد ذكر يرثه، وبعد زواج قسري، ومصاهرة بين العائلتين، انتقل العرش إلى هيثوم الأول سنة 623هـ/1226م، الذي غير معالم السياسة الخارجية للمملكة، حيث قام بإحلال التحالف مع المغول¹ محل التحالف مع الصليبيين.² ومنذ ذلك التاريخ ورث آل هيثوم عن آل روبين السلطة والنفوذ في قيليقيا، وانقادت لهم مملكة أرمينيا الصغرى، إلى غاية سنة 742هـ/1341م.

ومهما كانت العلاقة بين العائلتين الحاكميتين في أرمينيا الصغرى، فإن بني روبين هم الذين وضعوا أسس أول إمارة أرمينية مستقلة عن البيزنطيين وعن الأتراك السلاجقة، ويعود الفضل في ذلك إلى الأمير روبين الأول.

ب - روبين الأول (Roubên I) (1080-1095)

لقد دفعت عملية اغتيال الملك جاجيك الثاني الأرميني البجراطي سنة 465هـ/1073م،³ من طرف البيزنطيين في كبادوكيا، إلى هجرة عدد كبير من الأمراء والنبلاء الأرمن الملتفين حوله. وتوزعت تلك الأسر بين سفوح وقمم جبال طوروس. ومن بينهم روبين⁴ الذي يعتبر—عند المؤرخين الأرمن—

¹ حول موضوع تحالف مملكة أرمينيا الصغرى مع المغول، (أنظر : شريف أحمد : علاقات مغول تركستان وإيران الخارجية مع القوى السياسية خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري، رسالة ماجستير في تاريخ العصور الوسطى، إشراف موسى لقبال، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الدراسية 1990-1991م. ص 106-116؛ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 172-191؛ زرقوق محمد : مرجع سابق، ص 82 وما بعدها).

² عاشور سعيد عبد الفتاح : بحوث ودراسات، ص 243؛ Mouradian Claire : op. cit., p. 26.

³ لا يوجد اتفاق بين المؤرخين الأرمن حول تاريخ اغتيال جاجيك الثاني، حيث يذكر كثير منهم أن عملية الاغتيال وقعت في سنة 1079م، بينما يرجح المؤرخ جيران ديديان سنة 1073م، ويعود السبب في هذا التضارب إلى عدم وجود مصدر قريب من الأحداث. ومن المبررات التي تزيد من ترجيح هذ التاريخ، أن فيلاريت استولى على كثير من الأراضي والقصور التي كانت تحت تصرف جاجيك الثاني في كبادوكيا وقيليقيا، وبما أنه كان المستفيد الأكبر من عملية الاغتيال، فإن البعض يتهمه بالتواطؤ مع البيزنطيين. (أنظر :

Laurent J. : Byzance et les Turcs Seldjoudides, pp. 77-81; Grousset : L'Empire du Levant, p. 176; Dédéyan : Les Arméniens entre Grecs Musulmans, t. I, pp. 292-298.).

⁴ Vahram d'Edesse : Chronique rimée des rois de la petite Arménie, ds. R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} ed., Paris. 1969. t. I, p. 497.

المؤسس الأول لسلالة الأمراء، والملوك الأرمن في قيليقيا؛¹ لأن الدويلات التي أسسها القادة والزعماء الأرمن السابقين، سرعان ما انقرضت وتلاشت بعد وفاتهم، أما الإمارة التي وضع أسسها روبين، فلم تزل بموته، بل استمرت بين أبنائه وأحفاده. وهو أول من اتخذ لقب أمير بين قادة الأرمن في قيليقيا. ويتجادل المؤرخون حول صحة انتسابه إلى الأسرة الملكية البجراطية، ودرجة قرابته من الملك جاجيك الثاني. ولكن المؤكد أن عائلته تنحدر من أسرة أرمنية عريقة كانت تقطن الجهات الجنوبية الغربية من أرمينيا الكبرى، وكان كثير من أفرادها في خدمة الامبراطورية البيزنطية، سواء في إدارتها المدنية أو في صفوف الجيش.² ومما لا شك فيه أيضا، أن روبين الأول كان من الأمراء المقربين في حاشية الملك جاجيك الثاني، وكان يعيش معه في قصره بكبادوكيا،³ وربما كان قائدا لحرسه الخاص، أو لفصيلة من جيشه،⁴ وهذا ما أكسبه شرعية أكثر من الزعماء والقادة الآخرين الذين سبقوه إلى قيليقيا.⁵

بعد اغتيال الملك جاجيك الثاني، رأى روبين "واجبا أن يؤسس للأرمن دولة جديدة، وقد آزره الأمراء في هذا المطلب".⁶ بدأ نشاطه العسكري سنة 473هـ/1080م، بانتزاع قلعة كوبدار (Kopidar)،⁷ من البيزنطيين، ولأنها تقع في قمة جبلية، محصنة طبيعيا، اتخذها قاعدة لأعماله وقوته، ونواة لدولته. وسرعان ما التف حوله الأرمن، فشكل جيشا وراح يصارع الجيش البيزنطي. وتطلع إلى التوسع في جميع أنحاء قيليقيا من خلال استغلال الفرص المتاحة له، على حساب السلاجقة والبيزنطيين.⁸ ثم استولى على قلعة

¹ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 187; Grousset : L'Empire du levant, pp. 176-177.

² Dédéyan : Les Arméniens entre Grecs Musulmans, t. I, p. 414.

³ Mahé Annie : op. cit., p. 192.

⁴ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 74.

⁵ Dédéyan Gérard : Le rayonnement de l'Etat arménien, p. 337.

⁶ استراتيجيان ك. ل. : تاريخ الأمة الأرمنية، مطبعة الاتحاد الجديدة، الموصل، 1951. ص 205.

⁷ كوبدار : وتسمى كذلك كوزستار (kôstîstar)، ومعناها عش النس، لأنها تقع في أعلى قمة جبلية، وهي حصن يقع في جبال طوروس إلى الشرق من المصيصة، وإلى الشمال من سيس. (Dulaurier : op. cit., p. 30, note 2).

⁸ خانجي : مرجع سابق، ص 2015؛ طقوش : المرجع السابق، ص 62.

برسبرت¹ (Partzerperd) الواقعة شمال غرب سيس، وهي تبعد عن كوبدار بحوالي ثلاثين كلم، وبعدها بسط يده على قرية كوروموزول (Kôromozol)² ونقل إليها مقر إقامته،³ وكانت آخر ما استولى عليه من البيزنطيين. وفيها كان مستقره ومقامه حتى وفاته سنة 488هـ/1095م.⁴ وتجدر الإشارة إلى أن كل المواقع التي احتلها روين، تتميز بطابعها الجبلي الصعب، وهذا ما سهل عملية الدفاع عنها ضد البيزنطيين، وفي الوقت ذاته وجد نفسه بعيدا عن ضغوط فيلاريت. وكان حذرا ويقظا من جهة الأتراك خاصة فيما بين سنتي 477هـ/1084م و 479هـ/1086م، حينما ازداد نشاط سلاجقة الروم واقتربوا كثيرا من جبال طوروس.⁵

ويحظى روين بمكانة خاصة عند مؤرخي عصره، فتذكره بعض المصادر أنه انتقم من البيزنطيين الذين احتلوا آني في وقت سابق وتركوا الأرمن بلا وطن، فانتزع منهم بعض الأراضي والحصون في جبال طوروس، وبات سيدا عليها، وجعل منها نواة للدولة الأرمنية في قيليقيا،⁶ وبذلك يكون قد أخذ بثأر الملك جاجيك الثاني.⁷ وهو من أحياء للأرمن وطنهم المفقود، وكان معهم قائدا مثاليا "دبر ولايته على الأرمن في كيليكيا مدة خمس عشرة سنة تديرا صالحا بكل حكمة واحتراس، كأب حنون وسيد رؤوف".⁸

¹ برسبرت : معناها باللغة الأرمنية القلعة العالية أو القصر العالي، تقع في قمة من قمم جبال طوروس، شمال سيس، بينهما مسافة أربعين كلم تقريبا. وكانت أكثر القلاع الأرمنية حصانة، وكان ملوك الأرمن يلجؤون إليها في فصل الصيف، ويخبئون فيها أموالهم. (Dulaurier : op. cit., p. 168, note 2.).

² كوروموزول : ورد اسم هذه القرية بصيغ مختلفة، منها، Kôlimoghôlô و Kormolozou و Kolimozolo، وهي قرية اندثرت وكانت تقع في الشمال الشرقي من قيليقيا، وعلى الضفة اليسرى لنهر ساروس. (أنظر :

Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs Musulmans, t. I, p. 380.)

³ انظر الملحق الثالث عشر، ص 486.

⁴ الرويضي محمود : مرجع سابق، ص 177؛ Payaslian Simon : op. cit., p. 81.

⁵ Dédéyan Gérard : op. cit., t. I, p. 381, 414-415.

⁶ Vahram d'Edesse : op. cit., p. 497.

⁷ Mardiros de Crimée : Liste rimée des souverains de la Petite Arménie, ds. R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} ed., Paris. 1969. t. I, p. 684.

⁸ حانجي أنطون : مرجع سابق، ص 216.

ومن الظروف التي ساعدت روبين الأول على تأسيس إمارته وسط تضاريس جغرافية صعبة، وأحداث تاريخية معقدة، وجود عدد كبير من الأرمن الذين استقروا في تلك المناطق منذ القرن العاشر،¹ أي بعد أن استرد البيزنطيون إقليم قيليقيا من المسلمين. ثم ازداد تدفق المهاجرين القادمين من أرمينيا الكبرى ومن كبادوكيا بعد معركة منازكرد، ونزل كثير منهم أراضي قيليقيا، وشيدوا مساكنهم في جبال طوروس.² ولكنهم كانوا يفتقرون إلى سلطة تجمع صفوفهم وتوحيدهم. وكان روبين في نظرهم يمثل السلطة الشرعية التي كانوا يبحثون عنها، باعتباره أميراً مقرباً في حاشية الملك جاجيك الثاني. ولذلك وصفته المصادر الأرمنية بالأمير (إيشخان h2huwn). واستطاع هذا الأمير بفضل أولئك الأرمن أن يضع حجر الأساس لدولة أرمنية جديدة، ذات سيادة، وغير تابعة لأي إمارة أو دولة مجاورة. ورغم أنه مكث في السلطة مدة ما يزيد عن خمس عشرة سنة، فإنه لم يوسع حدود دولته بعيداً، فأقصى ما تركه لأبنائه، مساحة صغيرة مثلثة الشكل قاعدتها في الشمال تمتد من قلعة برسربرت إلى قرية كوروموزول، ورأسها في قلعة كوبدار في الجنوب، فبم يمكن تفسير ذلك ؟

يمكن جزء من الإجابة في نظرة للخريطة الطبيعية والسياسية،³ لقيليقيا في تلك الفترة حيث إن المنطقة التي أسس فيها روبين إمارته، محاطة بالعديد من القوى، أولها : الدويلات التي أنشأها قادة آخرون من الأرمن، مثل فيلاريت و كوغ فاسيل وأوشين... وهؤلاء جميعاً سبقوه إلى كثير من المدن والقلاع وبسطوا أيديهم عليها، ولم يجد أمامه إلا بعض الحصون التي كانت قريبة من ممتلكات الملك جاجيك الثاني. ويبدو أنه اقتنع بما حصل عليه من مساحة محدودة وبما وهبته التضاريس الصعبة من قلاع جبلية محصنة طبيعياً، في انتظار فرص يجود بها المستقبل، عملاً بالحكمة القائلة : "أخذ القليل خير من ترك الجميع". وثاني هذه القوى هي إمارات الأتراك، التي أخذت تزحف نحو قيليقيا ومنطقة الفرات، حيث شهد منتصف الثمانينيات من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، زيادة في نشاط السلاجقة. ففتح سليمان بن قتلمش أنطاكية سنة 477هـ/1084م، وفتح ملكشاه الرها سنة

¹ Vahram d'Edesse : op. cit., p. 497.

² استراتيجيان ك. ل. : مرجع سابق. ص 204.

³ انظر الملحق الثالث عشر، ص 486.

479هـ/1086م، وامتدت سلطته إلى حلب وأنطاكية. كما أن سلطنة سلاجقة الروم تطوّق إمارته من جهة الشمال، وهذا يعني أنه إذا أراد التوسع فلا مناص من حرب بينه وبين الأتراك السلاجقة. ويبدو أنه كان يقدر ذلك جيدا فهو غير مستعد للدخول في مواجهة عسكرية ضدهم هو في غنى عنها. وثالث هذه القوى، هي الإمبراطورية البيزنطية التي تحيط بأملاكه من جهة الغرب، ولها أتباعها من الأرمن في قيليقيا، أقربهم إليه أوشين في قلعة لمبرون. والخلاصة أنه كان محاصرا من كل الجهات، ولكن أبناءه وأحفاده الذين لعبوا ورقة الصليبيين، وكسبوا من ورائها أرباحا طائلة، تمكنوا من توسيع حدود الإمارة، وتحقيق مكاسب سياسية، واقتصادية على حساب البيزنطيين، والسلاجقة معا.

ويبقى سؤال آخر، لماذا لم تتعرض أملاكه لفتوحات السلاجقة كما حدث لفيلايرت ؟ ربما يعود ذلك لعاملين، الأول : يتمثل في السياسة الداخلية لفيلايرت وعلاقته ببني جلدته، فهي السبب الرئيس في فقدانه لممتلكاته. لقد دخل السلاجقة إلى أنطاكية والرها بطلب من أهلها، وساعدهم من بها من الأرمن على فتحها، نظرا لمقتهم وبغضهم له. أما روبين فكان من أتباع الكنيسة الأرمنية، وسيرته محمودة بين شعبه، ولم تذكر المصادر أنه حكم باستبداد أو ظلم كما فعل فيلايرت. والعامل الثاني : يعود إلى الطريق الذي سلكه السلاجقة أثناء زحفهم على أنطاكية والرها، والقلاع الأخرى، لقد كان ذلك المسلك بعيدا عن ممتلكات روبين. فسلیمان بن قتلش الذي قَدِمَ من الجهة الغربية، سار عبر سهل قيليقيا جنوبا، وقبل أن يصل إلى أنطاكية فتح في طريقه طرسوس، والمصيصة، وعين زربي، ومدنا أخرى، وكلها كانت تحت سيطرة فيلايرت، وهي تقع في الجنوب، بينما تقع ممتلكات روبين في الشمال، ومن ثمة كانت بعيدة عن طرق ومسالك سلاجقة الروم. أما السلطان ملكشاه فقد قَدِمَ من جهة الشرق وبلغ في زحفه ميناء السويدية على البحر المتوسط، ثم عاد أدراجه، دون أن تطأ قدماه أرض قيليقيا، لذلك لم تكن إمارة روبين في عين الإعصار، ولم تكن من بين أهداف السلاجقة ولا من غنائمهم.

والتساؤل الثالث، لماذا نجح فيلايرت -وهو المستبد- في مد سلطانه على رقعة واسعة، وخضع له الأمراء والقادة طوعا وكرها، وعجز روبين الأول -وهو الأمير الشرعي- عن الخروج من جوف

جبال طوروس ؟ الواقع أن فيلاريت لم يؤسس إمارة مستقلة أو دولة وطنية ذات سيادة، ولكنه استغل فرصة الفوضى والاضطراب التي حلت بالإمبراطورية البيزنطية عقب معركة منازكرد، وراح ينهب الأديرة السريانية، ويجمع المال، ولأنه امتلك جيشا من المرتزقة، أجبر العديد من قادة الأرمن على طاعته، من بينهم روين نفسه،¹ إما خشية من بأسه أو اتقاء لشره، أو حماية لأنفسهم من أعدائهم. كما لا ينبغي أن يغيب عن الذهن، أن نقفور الثالث الذي اعتلى عرش الامبراطورية البيزنطية سنة 471م/1078م، اعتبر فيلاريت واحدا من أتباعه، فهو بذلك لا يعدو أن يكون حارسا لحدود الامبراطورية من جهة الجنوب الشرقي، وأن سلطته هي امتداد لسلطة البيزنطيين، وليست سلطة أرمنية خالصة، وسرعان ما تلاشت بعد وفاته.

والخلاصة، أن الأمير روين وإن لم ينجح في توسيع رقعة بلاده، فإنه نجح في وضع حجر الأساس لتأسيس إمارة بديلة للوطن الأم الذي فقد استقلاله، على يد البيزنطيين، وترك دولة لا تزول بزوال الرجال، أو على الأقل لم تنقرض بوفاته. فورث عنه العرش ابنه قسطنطين وأحفاده، ثم تطورت إلى مملكة سنة 594م/1198م، في عهد ليون الأول. وبذلك يكون الأمير روين الجد الأعلى لأول سلالة أرمنية في المهجر، دام حكمها في أرمينيا الصغرى ما يزيد عن قرن، حتى أصبحت قيليقيا تعرف عند بعض المؤرخين ببلاد روين وأحيانا بلاد ابن لاون (ليون الأول)، أحد أحفاد روين.

وإضافة إلى إمارة آل روين التي تألفت في قيليقيا، فقد أسس الأرمن إمارات أخرى في إقليم الفرات، وفي شمال سوريا، منها إمارة ثوروس في الرها، وإمارة كوغ فاسيل في كيسوم، وإمارة جبريل في ملطية، وإمارة ثاتول في مرعش، وإمارة بقرات في الراوندان، وإمارة قسطنطين في كركر،² وكلها إمارات أرمنية تأسست بعد معركة منازكرد.³ وإذا كان عمرها قصيرا، مقارنة بإمارة آل روين، فإنها قامت بدور لا يستهان به في دعم الحملة الصليبية الأولى، وهي مثال حي عن طبيعة العلاقة التي جمعت بين الأرمن والسلاجقة من جهة وبين الأرمن والصليبيين من جهة أخرى، وهو موضوع الفصل الموالي.

¹ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs Musulmans, t. I, p. 386-388.

² انظر مواقع هذه المدن في : الملحق الثالث عشر، ص 486.

³ ابن العبري : مصدر سابق، ص 135.

وبناء على ما سبق يمكن القول، أن قيام إمارة أرمينيا الصغرى في قيليقيا، تحقق نتيجة أحداث تاريخية شهدتها آسيا الصغرى، أبرزها معركة منازكرد التي أفرزت عالما جديدا، أزاح الإمبراطورية البيزنطية وأحالها إلى هامش التاريخ. ومن الأمور الثابتة التي يمكن استنتاجها في خاتمة هذا الفصل :

أولا : شهد القرن الحادي عشر الميلادي، هجرتين كبيرتين، أحدثتا تحولات عرقية وحضارية عميقة في آسيا الصغرى، أولهما هجرة الأتراك السلاجقة من تركستان واستيطانهم آسيا الصغرى، وثانيهما : هجرة الأرمن من وطنهم الأم في أرمينيا الكبرى، واستيطانهم قيليقيا.

ثانيا : اقترن قيام سلطنة سلاجقة الروم في نيقية، بقيام أول إمارة أرمينية نصرانية، في جبال طوروس، والتي تمددت إلى سهل قيليقيا وعرفت في التاريخ بمملكة أرمينيا الصغرى أو مملكة أرمينيا القيليقية، ويبدأ تاريخها بعد معركة منازكرد 463هـ/1071م.

ثالثا : إن فتح السلاجقة لمدينتي أنطاكية ثم الرها، ومدناً أخرى في إقليم الثغور، وفي جبال طوروس وسهل قيليقيا، هو استعادة لبعض المناطق التي فتحها المسلمون في القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، وظلت جزءا من أراضي الخلافة العباسية، إلى أن استولى عليها البيزنطيون من جديد في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي.

رابعا : لم تكن أرمينيا الصغرى في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي موحدة تحت حكم أمير أرميني واحد، بل كانت مقسمة بين الأمراء الذين كانوا يحكمون القلاع والقصور وبعض المدن. من بينهم من كان مستقلا، ومنهم من كان تابعا للإمبراطورية البيزنطية.

خامسا : لولا الانهيار الذي أصاب الامبراطورية البيزنطية بعد معركة منازكرد والحرب الأهلية التي مزقت الجيش البيزنطي، ما تمكن الأرمن من تأسيس دولة خاصة بهم في قيليقيا.

سادسا : رغم أن الأرمن نجحوا في إقامة دولة في إقليم قيليقيا، استمرت ما يقارب أربعة قرون، فإنهم يعتبرون مستوطنين، ولاجئين، حلوا بتلك الربوع بشكل مؤقت، بعد ما احتلت الامبراطورية البيزنطية بلادهم، واجتياح السلاجقة لها.

الفصل الرابع

بدايات التعاون الأرمني الصليبي

1 - جذور الحروب الصليبية

أ- حروب البيزنطيين ضد الفرس

ب- حروب البيزنطيين ضد المسلمين

ج- دخول السلاجقة إلى الشام

د- الدعوة إلى الحرب الصليبية

2 - دور الأرمن في الدعوة للحرب الصليبية

أ- سفارة الجثليق جريجور الثاني فيكياسر

ب- جريجور الثاني في القسطنطينية

ج - جريجور الثاني في روما

د- جريجور الثاني في القاهرة

3 - الصليبيون في آسيا الصغرى

أ- نيقية أول امتحان للصليبيين

ب- اتصال الصليبيين بالأرمن

4 - في الطريق إلى أنطاكية

أ - في طرسوس

ب - في أذنة

ج - في المصيصة

د - في مرعش

كانت الحروب الصليبية فرصة مواتية، وسببا مباشرا لاحتكاك نصارى الغرب الكاثوليك بنصارى الشرق من يعاقبة، وسريان، ونساطرة، وأقباط، وأرمن. كما كانت فرصة تاريخية لا تعوض لإمارة أرمينيا الناشئة، حيث فكت عنها الطوق الذي كان يلفها، وأخرجتها من عزلتها، ومكنتها تلك الحروب من أن تتبوأ مكانة بين القوى الكبرى آنذاك. والقيام بأدوار هامة في توجيه الأحداث الكبرى في الشرق الأدنى. وقد ساعدها على ذلك تفكك قوة السلاجقة، وافتقارهم للوحدة السياسية والعسكرية، وغياب دولة إسلامية كبرى قادرة على التأثير في الأحداث، إلى أن برز نورالدين زنكي في بلاد الشام، ودخل في حرب ضد القوى الصليبية، فوجد الأرمن أنفسهم أمام قوة إسلامية جديدة ينبغي عليهم الاعتراف بها والتعامل معها.

ولا يتعلق موضوع هذا البحث بالحروب الصليبية إلا في نطاق صلتها بكل من إمارة أرمينيا الصغرى، وسلطنة سلاجقة الروم، ومدى تأثيرها في أوضاعهما. وبغض النظر عن الدوافع والأسباب الظاهرة والخفية التي أدت إلى اندلاع تلك المواجهات بين المسلمين والفرنجة، والظروف التي أحاطت بها في كل من أوروبا وآسيا الصغرى، فإن للحروب الصليبية نتائج وانعكاسات عديدة على الأرمن في قيليقيا.

وقبل الشروع في الحديث عن التعاون الصليبي الأرمني، لا بد من تقديم فكرة عن طبيعة الحروب الصليبية وبدايتها، وإذا كان الأرمن أكثر المسيحيين الشرقيين استفادة منها، فهل كان لهم دور في الدعوة لها ؟ وما مدى مساهمتهم فيها ؟ وما مصلحتهم في التحالف مع الصليبيين ؟ ألم تكن بينهما خلافات مذهبية وعقائدية ؟ وهل كان الصليبيون في حاجة إلى الأرمن ؟ ولماذا تعامل الصليبيون معهم دون غيرهم من الطوائف المسيحية الشرقية الأخرى ؟ وما موقف القوى الإسلامية المحلية من الأرمن أثناء تحالفهم مع القوى الصليبية ؟

1- جذور الحروب الصليبية

أ- حروب البيزنطيين ضد الفرس

يفضل بعض المؤرخين الغربيين القدماء منهم والمحدثون، أن يستهلوا كتاباتهم عن الحروب الصليبية¹ بالإشارة إلى فتح المسلمين لبيت المقدس، خلال القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، وأبرزهم وليم الصوري، الذي يعتبر من أهم مؤرخي الحروب الصليبية في العصور الوسطى، وعلى نهجه سار المؤرخ الانجليزي ستيفن رنسيمن، الذي يعتبر مرجعا لا غنى عنه في تاريخ الحروب الصليبية، فهو يبدأ كتابه المؤلف من خمسة أجزاء، بقوله : "في أحد أيام شهر محرم 17هـ/فبراير سنة 638م، دخل إلى بيت المقدس، الخليفة عمر بن الخطاب، راكبا جملا أبيض اللون. وكان يرتدي وقتذاك ثيابا خرقا قديمة. ومع أن الجيش الذي قاده كان خشنا، فإنه بلغ الاكتمال في نظامه. وسار إلى جانب الخليفة البطريك صفرونيوس باعتباره رأس رجال الادارة في المدينة التي أذعنت..."² ثم يواصل الحديث عن هذا البطريك قائلا : "ويعتبر الفتح العربي دليلا على ما أصابه من الفشل، ولم تمض أسابيع قليلة حتى قضى نخبه مكسور الخاطر".³ وتحمل هذه الرواية إشارة ذكية إلى أن العرب مثل الفرس استولوا على مقدسات النصارى، وهم غرباء عن القدس التي يجب أن تستعاد منهم، ومنذ ذلك الوقت تطلع المسيحيون لاسترجاع بيت المقدس الذي هو أساس الصراع بين المسلمين والمسيحيين.

في حين أن هناك طائفة أخرى من المؤرخين الغربيين، ومنهم الفرنسي روني جروسي، يبدأون كتاباتهم بالإشارة إلى انهيار الامبراطورية البيزنطية بعد معركة مانزكرد سنة 463هـ/1071م، التي انهار معها خط الدفاع الذي كان يحمي قلعة المسيحية في آسيا الصغرى، خاصة بعد أن سقطت

¹ يطلق مصطلح الحروب الصليبية (Croisades) على الحملات التي قام بها المسيحيون الغربيون (الفرنجة أو اللاتين) خلال القرن الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر الميلاديين، بهدف إعادة بيت المقدس والأماكن المقدسة، التي خضعت لحكم المسلمين خلال القرن السابع الميلادي. أنظر : (Moure Michel : op. cit., p. 1490).

² رنسيمن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 15.

³ المرجع السابق، ص 16.

القدس في السنة نفسها بين أيدي السلاجقة.¹ ويعتبر ذلك مبرراً كافياً ليحل الفرنجة محل البيزنطيين في حمل لواء الصليب والدفاع عن العالم المسيحي، ضد العالم الإسلامي.² والهدف من ذلك هو إبراز السلاجقة كقبائل معتدية أهانوا مقدسات المسيحيين في فلسطين. كما أن طريق الحج إلى البقاع المقدسة المسيحية أصبح مهدداً، لذلك كان من الضروري استعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين.

وسواء بدأ المؤرخون بدخول عمر بن الخطاب إلى القدس، أو بانتصار ألب أرسلان على البيزنطيين، فإن الروح الصليبية وفكرة الدفاع عن المناطق المقدسة المسيحية كانت حاضرة في نفوس المسيحيين حتى قبل ظهور الإسلام. وتجلت تلك الروح في الحروب البيزنطية الفارسية، التي انتزع فيها الفرس من البيزنطيين جزءاً كبيراً من بلاد الروم، فضلاً عن الشام، وقيليقيا، ومصر، والساحل الشرقي للبحر المتوسط، وفي فلسطين دمروا كنيسة القيامة، واستولوا على الصليب الذي يعتقد النصارى أن سيدنا عيسى (عليه السلام) صلب عليه،³ ورفض ملك الفرس كسرى الثاني ((Khosroe II) (590-628م) التفاوض مع الإمبراطور البيزنطي هرقل ((Héraclius) (610-641م)، بل وأرسل إليه قائلاً باستهزاء: "أين هو الرب الذي تتحدث عنه، لماذا لم ينقذ قيصرية، ولا أنطاكية، ولا طرسوس، ولا أماسية، ولا بيت المقدس، ولا الاسكندرية؟".⁴ وحينما أراد هرقل استرجاع ما انتزعه الفرس من الإمبراطورية البيزنطية، وقف في شتاء سنة 621م، أمام صورة السيدة مريم (عليها السلام)، مستشفعاً، مبتهلاً، استعداداً للقيام بواجب مقدس. وقيل خروجه في حملته العسكرية التفت إلى البطريك سرجيوس وقال له: "إني أعهد إلى الله وإلى والدته وإليك بهذه المدينة وبابني من

¹ بعد معركة منا زکرد، غادر السلطان ألب أرسلان منطقة آسيا الصغرى، وعاد إلى بلاد ما وراء النهر لتسوية بعض المشاكل السياسية والعسكرية هناك، وترك وراءه بعض جنوده وضباطه تحت قيادة أحد أتباعه، وهو أئسنز بن أوق الخوارزمي، وأذن لهم بفتح بلاد الشام وإخراج الفاطميين منها، فلم تنقض سنة 1071م، إلا وكان أئسنز قد استولى من الفاطميين على الرملة وبيت المقدس وفلسطين بأكملها ماعدا عسقلان، ثم استولى على دمشق والمنطقة المحيطة بها، ولكنه فشل في محاولته غزو مصر. (أنظر: ابن القلانسي: مصدر سابق، ص 98-99؛ ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 110؛ عاشور سعيد: الحركة الصليبية، ج 1، ص 88-89؛ طقوش محمد سهيل: تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، دار النفائس، ط 3، بيروت، 2009، ص 117-120).

² Grousset René: Histoire des croisades, Perrin, Paris, 1991. t. I, p. 44.

³ Sébès: op. cit., p. 69; Michel Le Syrien: op. cit., t. II, pp. 400-401.

⁴ Mutfian: La Cilicie, t. I, p. 141.

بعدي"،¹ وبعد الصلاة في كنيسة الحكمة الإلهية والتوسل تسلم إيقونة المسيح (عليه السلام). ثم تحرك بجنوده لمحاربة الفرس الوثنيين، الذين أُرغموا على خوض معركة على أرض أرمينيا سنة 1هـ/622م، ودارت الدائرة عليهم وسجل هرقل نصراً مبيناً كان فاتحة الانتصارات الروم على الفرس،² واعتبرها البعض حرباً صليبية سابقة على الحروب الصليبية المعروفة.³ والواقع أن هذا الانتصار هو دليل على صحة وصدق ماورد في القرآن الكريم في سورة الروم : {الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5)}.⁴

وقد اعتبر وليم الصوري انتصار الامبراطور هرقل على الفرس في معركة نينوى سنة 6هـ/627م، انتصاراً للمسيحية على الوثنية. ومن نتائجه، أن الامبراطور بعد أن فرغ من حروبه، توجه إلى بيت المقدس في موكب مهيب سنة 9هـ/630م، ثم أمر بترميم الكنائس وتعميرها،⁵ وأعاد الصليب الذي كانوا قد غنموه إلى موضعه في كنيسة القيامة،⁶ كما أعاد إلى الكنائس كل ما سلبوه منها. واعتبر بعض المؤرخين أن هذه الحرب أول حرب مقدسة شنّها العالم المسيحي ضد العالم غير المسيحي،⁷ وأن الامبراطور هرقل أول محارب صليبي في التاريخ.⁸

ب- حروب البيزنطيين ضد المسلمين

بعد أن اقتطع المسلمون أجزاء كبيرة من أراضي الامبراطورية البيزنطية، ظلت الحرب ضد الاسلام في آسيا الصغرى، وفي بلاد الرافدين، وفي الحوض الغربي للبحر المتوسط، تمثل انشغالا رئيسا

¹ رستم أسد : مرجع سابق، ص 225.

² المرجع السابق، ص 226.

³ خطاب محمود شيت : قادة فتح بلاد الروم، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 2009. ج 1، ص 289.

⁴ سورة الروم، الآيات من 1 إلى 5.

⁵ وليم الصوري : الحروب الصليبية، ترجمة د. حسن حبشي، مؤسسة الاسراء للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991. ج 1، ص 63.

⁶ Bréhier Louis : l'Eglise et l'Orient, p. 19.

⁷ خطاب محمود شيت : مرجع سابق، ج 1، ص 290.

⁸ رستم أسد : مرجع سابق، ج 1، ص 226؛ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 26؛

Mutafian Claude : La Cilicie, t. I, p. 145

لجل أباطرة الامبراطورية البيزنطية، خاصة في عهد الأسرة المقدونية.¹ وكلما حقق البيزنطيون انتصارا على المسلمين أو استعادوا بعضا من مدنهم السابقة اعتبروا ذلك انتصارا للمسيحية على الاسلام. وكانوا كلما تغلبوا على المسلمين في حرب أو في معركة، يؤدون في احتفالاتهم أغنية يرددون فيها : «...المجد للرب الذي ضرب الإسماعيلين، أعداء المسيح! (...) المجد للرب الذي دمر مدن العرب! المجد للرب الذي هزم الذين لا يعترفون بالثالوث المقدس!...»².

وفي هذا الإطار اتخذت عملية استعادة جزيرة كريت من المسلمين سنة 350هـ/961م، طابع الحرب المقدسة التي انتهت بانتصار المسيح، لما ترتب عنها من غلق للمساجد وإعادة المسيحية، ومحاولة تنصير العرب.³ وعندما استعاد البيزنطيون إقليم قيليقيا من المسلمين، وتغلبوا على الدولة العباسية، وتسلم الامبراطور البيزنطي نففور فوقاس مدينة طرسوس سنة 354هـ/965م، وهي أجل مدن الثغور، "صعد على منبرها وقال : يا معشر الروم أين أنا ؟ قالوا : على منبر طرسوس، فقال : لا، بل أنا على منبر بيت المقدس، وهذه البلدة التي كانت تمنعكم من بيت المقدس".⁴ وأرسل إنذارا إلى الخليفة العباسي في بغداد يهدده بالويل والثبور،⁵ وأنه قادم لهدم الكعبة ونشر المسيحية في الشرق والغرب معا.⁶ وهذا يدل على وجود عداء صليبي دفين لدى البيزنطيين. وكان مشروع استعادة الشام وبيت المقدس من أولويات معظم أباطرة الامبراطورية البيزنطية، ويشاركهم في ذلك ملوك أرمينيا الكبرى، ولذلك كتب الامبراطور البيزنطي يوحنا تزمسكس خطابا —أثناء حملته على الشام— سنة

¹ Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 180.

² الأغنية كاملة : «المجد للرب، سيد العالم، خالق كل شيء! المجد للرب الذي انتصر على الهاجرين! المجد للرب الذي حمى الملك الأرثوذكسي. المجد للرب الذي ضرب الإسماعيلين، أعداء المسيح! المجد للرب الذي حرر أسرانا من أيدي الهاجرين! المجد للرب الذي دمر مدن العرب! المجد للرب الذي هزم الذين لا يعترفون بالثالوث المقدس! المجد للرب الذي أذل هذا الأمير القاسي، عدو المسيح! المجد للرب! المجد للرب!». (أنظر : Schlumberger Gustave : Un empereur byzantin, p. 104.)

³ Bréhier Louis : op. cit., p. 183.

⁴ ابن العديم : بغية الطلب، ج1، ص 197.

⁵ أنظر الفصل الأول، ص 70.

⁶ عاشور سعيد : الحركة الصليبية، ص 53.

365هـ/975م إلى حليفه الأرميني الملك آشوت الثالث (Aschod III)،¹ يفيض حقدا على المسلمين، ورغبة شديدة في الانتقام منهم واحتلال أراضيهم، وأعطى لحروبه طابعا دينياً مقدساً. ويوحى خطابه أنه لم يخرج مع جيشه باسم الامبراطورية البيزنطية التي يحكمها، ولكن باسم المسيح، ومن أجل تحرير مقدسات المسيحيين من أيدي المسلمين، ويذكر أن هدف حملته هو "تحرير قبر المسيح من (دنس) المسلمين".²

ولم يبالغ المؤرخ الروماني حينما كتب قائلا : "إن أرمينيا هي التي خلقت الحرب الصليبية، وهي التي أثارها، وهي التي وجهتها، وهي التي أوجزتها"،³ وهو يشير بذلك إلى سيطرة الأتراك السلاجقة على أرمينيا الكبرى، ويعتبر كثير من المؤرخين أن الحرب الصليبية بمعناها العام بدأت فعلا قبل بدايتها الرسمية في سنة 488هـ/1095م بكثير.⁴ ولله در ابن الأثير حينما ربط بين دخول الفرنج إلى الشام وحركة الهجوم المسيحي على الإسلام في الأندلس وفي البحر المتوسط. وفي نظره فإن الحملات الصليبية ليست إلا جزءا من حرب شاملة بدأت بالغرب الإسلامي، وبالتحديد في الأندلس. وبدأ كتابته عن سقوط مدينة أنطاكية في يد الصليبيين بقوله : «كان ابتداء ظهور دولة الفرنج»⁵ واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس (...) ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية

¹ Vasiliev A. A. : op. cit., t. I, p. 410.

² أنظر نص الخطاب كاملا في الملحق الأول، ص 461-464.

³ Iorga N. : op. cit., p. 30.

⁴ عاشور سعيد : الحركة الصليبية، ج 1، ص 107؛ Grousset René : L'Empire du Levant, p. 187.

⁵ الفرنج أو الفرنجة (Les Franks) : مجموعة من القبائل الجرمانية استوطنت خلال القرن الثالث الميلادي المناطق الحاذية للراين (الفرنجة الساليون شمالا والفرنجة الرياريون جنوبا)، قصد الساليون بلاد الغال (فرنسا) في القرن الرابع الميلادي، كحلفاء للرومان ثم وحد زعيمهم كلوفس الأول جميع الفرنج في سنة 481م، واعتنق المسيحية ثم أسس أسرة الميروفنجيين. غزا خلفاؤه معظم بلاد غرب ووسط أوروبا، ومع ذلك انقسمت الامبراطورية الفرنجية إلى عدة ممالك، أهمها نويسترية، وأوستراسيا، وبرجنديا، بدأ الكارولنجيون حكمهم في القرن الثامن الميلادي، وبلغوا الذروة خلال حكم شارلمان، أصبحت مملكة الفرنج الغربية، فرنسا، ومملكتهم الشرقية ألمانيا بعد معاهدة مرسين 870م. (انظر : عاشور سعيد عبد الفتاح : تاريخ أوروبا، ص 78-85؛ الموسوعة العربية الميسرة : ج 5، ص 2392؛

Murray Alan V. : **Franks**, in : Crus. Enc., ABC-Clio, California, 2006. p. 470-471).

وملكوها...»¹ فالحروب الصليبية ليست من ابتكار الامبراطور ألكسيس كومنين، أو البابا أوربان الثاني (Urbain II) (1088-1099)) في مجمع كليرمونت، وليست وليدة الدعوة التي قام بها بطرس الناسك (Pierre l'Ermite)².

والواقع، أن حروب الامبراطورية البيزنطية ضد الفرس أولاً، وضد المسلمين من بعدهم، ورغم الطابع الديني الذي اتخذته، فإنها لا تعد حرباً صليبية بالمعنى الاصطلاحي، بل إنها توصف بمرحلة ما قبل الصليبيات. وقامت بدور في الاختزان والاحتشاد في الذاكرة الأوربية في العصر الوسيط، إلى أن حانت ساعة الانقضاء على المسلمين في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. ولما جاء الصليبيون لبلاد الشام، كانت فكرة الحرب المقدسة قد اختمرت في العقل الجمعي الأوربي، وتقابلها فكرة الجهاد عند المسلمين للدفاع عن ديار الاسلام. وجدير بالذكر أن الحروب الصليبية بمفهومها الاصطلاحي، هي من نتاج الغرب الأوربي وليس الشرق البيزنطي، وقادتها كنيسة روما وعلى رأسها البابا، ولم تقدها كنيسة القسطنطينية.³

ولا يستطيع أحد أن ينكر الدور الذي قام به أوربان الثاني، فهو مهندس فكرة الحملة الأولى في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي. فقد أحيا الروح الصليبية الكامنة في نفوس الأوربيين، وأيقظ فيهم الرغبة القديمة للانتقام من المسلمين. وأحسن هذا البابا المتحمس، استغلال جميع الظروف لدغدغة المشاعر الدينية، وتوجيهها لصالح البابوية، بعد أن وصلته أخبار مبالغ فيها عن اضطهاد الأتراك السلاجقة للمسيحيين في بلاد الشام، والنصارى الذين كانوا في طريقهم لزيارة بيت المقدس بفلسطين، ثم أخذ يتنقل بين المدن والبلدان، داعياً، وعاقدا العزم على تنفيذ المشروع الصليبي الجديد.⁴

¹ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 461.

² عاشور سعيد : الحركة الصليبية، ج 1، ص 107-108؛ Iorga N. : op. cit., p. 30.

³ عوض محمد مؤنس : مرجع سابق، ص 40.

⁴ عاشور سعيد : الحركة الصليبية، ج 1، ص 108-110.

ج- دخول السلاجقة إلى الشام

يُروّج مؤرخو الحروب الصليبية قصصاً مثيرة، لا تخلو من المبالغة،¹ عن اضطهاد المسلمين للمسيحيين بعد اكتساح السلاجقة لأرمينيا ووصولهم إلى بيت المقدس، وينفرد وليم الصوري في سرد رواية غريبة تتعلق بطريقة معاملة السلطان ألب أرسلان للإمبراطور رومانوس الرابع عقب موقعة منازلرد حيث يقول : «فأمر [ألب أرسلان] بإحضار الإمبراطور بين يديه، وجلس هو على عرشه الملوكي، ثم أمر بطرح رومانوس تحت قدميه، وأراد إظهار احتقاره لكل ما هو مسيحي فاتخذ من جسد الإمبراطور موطئاً لقدمه، وراح يدوسه صعوداً ونزولاً، حتى إذا رضيت نفسه بما ألحقه به من تحقير وازدراء أمر طائفة من كبار رجال الإمبراطور الذين أُسروا معه أن يرفعوه من على الأرض، وأذن لهم جميعاً بالرحيل».² وتتناقض هذه الرواية مع ما ورد في المصادر العربية والأرمنية المعاصرة للأحداث، وأهمها أريستاكيس اللستيفرتي، الذي يعتبر شاهد عيان،³ وأجمعت على حسن المعاملة التي تلقاها الإمبراطور البيزنطي من ألب أرسلان، والمعروف عن وليم الصوري أنه أخذ بوجهة النظر الغربية في سرده وتعليقه على الأحداث،⁴ ولعله بهذه الصورة التي قدمها عن رومانوس الرابع يريد تقديم نقد لاذع للإمبراطورية البيزنطية التي عجزت عن الدفاع عن معاقل المسيحية الشرقية، ويريد أيضاً، تقديم صورة عن الهوان الذي عانى منه البيزنطيون على يد السلاجقة، فلجأ إلى تشويه بعض الحقائق التاريخية التي كتب عنها.

ونتيجة لانحياز الإمبراطورية البيزنطية، وسيطرة السلاجقة على المناطق التي يمر بها (الحجاج) المسيحيون في آسيا الصغرى، ثم سقوط بيت المقدس في أيديهم، راجت موجة من المزاغم في الغرب الأوربي في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، مفادها أن الطريق إلى البقاع المقدسة المسيحية بات مقطوعاً، وأن المسيحيين عموماً، و(الحجاج) منهم خصوصاً يعانون من اضطهاد المسلمين لهم

¹ Vasiliev A. A. : op. cit., t. II, p. 25.

² وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 85.

³ اسكندر فايز نجيب : أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة، ص 114-115؛ Arisdaguès : op. cit., p. 145.

⁴ حبشي حسن : مقدمة، في كتاب الحروب الصليبية تأليف وليم الصوري، ص 34.

وشكلت مثل هذه الافتراءات والأباطيل، مناخا نفسيا عاما في الغرب الأوربي يدعم فكرة تحرير تلك البقاع التي شهدت المسيحية المبكرة، وضرورة تخليصها من قبضة المسلمين الذين حكموها قرابة خمسة قرون من الزمان، وإعادتها للمسيحيين.¹

والواقع أن المسلمين احترموا مدينة القدس قبل وبعد فتحها، وهي عندهم مدينة مقدسة أيضا؛ لأنها ترتبط بالأسراء والمعراج، {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}،² وباعتراف المؤرخين الأوربيين المحدثين، فإن حركة (الحجاج) المسيحيين المتوجهين نحو بيت المقدس، لم تتوقف بفتح المسلمين لها.³ ولم يغلق السلاجقة أبواب المدينة في وجه المسيحيين شرقيين كانوا أم غربيين، ولم يمنعوهم من التوجه إلى مزاراتهم. ولكن الطريق أصبح مخوفًا بكثير من المخاطر بسبب الحروب بين الأتراك والبيزنطيين.⁴

والأرمن، وغيرهم من المسيحيين الشرقيين بحكم خضوعهم للخلافة الإسلامية، واحتكاكهم الطويل بالمسلمين هم أدرى من غيرهم بأن أهل الذمة نعموا بالحرية في ظل الحكم الإسلامي الذي سمح لهم بالاحتفاظ بكنائسهم ودور عبادتهم، وممارسة شعائرتهم دون تدخل، أو فرض مذهب معين على طائفة من الطوائف المسيحية. بل إن منهم من أسندت إليه بعض الوظائف العامة في الدولة الإسلامية، وكان زوارهم يقدون إلى الأماكن المقدسة بفلسطين في أمن وسلام.⁵ ولما آل الحكم للسلاجقة، لم يغيروا شيئا من أوضاع المسيحيين في الشرق، إن الذين خضعوا لحكمهم فقد كانوا أحسن حالا من إخوانهم الذين عاشوا في قلب الامبراطورية البيزنطية ذاتها. وأن المتاعب التي عانوا منها في الشام وآسيا الصغرى، هي انعكاس للصراع السياسي والعسكري بين السلاجقة والبيزنطيين. ولا يوجد دليل على اضطهاد السلاجقة للمسيحيين،⁶ بل إن بعض المصادر الأرمنية وصفت

¹ عوض محمد مؤنس : مرجع سابق، ص 28.

² سورة الإسراء، الآية 1.

³ Balard Michel : Croisades et Orient latin (11^e-14^e siècle), Armand Colin, Paris, 2003, p. 24-25.

⁴ Moure Michel : op. cit., p. 1490.

⁵ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 30؛ Vasiliev A. A. : op. cit., t. II, p. 21.

⁶ نفسه

السلطان السلجوقي ملكشاه بأنه صديق المسيحيين،¹ وحزنوا عليه حزنا شديدا يوم وفاته.² ويتحدث بعض المؤرخين الغربيين المحدثين عن وجود ليونة في معاملة الأتراك للمسيحيين، ومما جاء في ذلك : "... كان المسيحيون تحت نير السلاجقة، أكثر سعادة مما كانوا عليه تحت نير البيزنطة، والأكثر تعاسة هم البيزنطيون الذين كانوا على الحدود، لأنهم يتعرضون إلى حملات متواصلة. أما عن الاضطهاد الديني، فلا وجود لأي أثر له خلال عصر السلاجقة ...".³

والمعروف أن الإسلام يحترم الديانات السماوية السابقة، ويأمر أتباعه بالإيمان بجميع الرسل والأنبياء، وأن لا يُكرهوا الناس على اعتناقه، {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}،⁴ كما يطلب من معتنقيه أن تكون دعوتهم إلى الله قائمة على الحكمة والموعظة الحسنة، {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}،⁵ وأن تكون مجادلته لأهل الكتاب بالتي هي أحسن، {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِهْنَأْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}.⁶ كما أن الاسلام احترم المسيحية احتراماً بالغاً، وفي القرآن الكريم، اصطفى الله تعالى مريم أم المسيح (عليهما السلام)، {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ}.⁷ ووردت فيه سورة تحمل اسم مريم، وفيها أن الله تعالى قد جعل سيدنا عيسى مباركا، ونادى بالسلام عليه {وَجَعَلْنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا} 31 ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ 32 ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ

¹ Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 201-204.

² Ibid.

³ Vasiliev A. A. : op. cit., t. II, p. 25-26.

⁴ سورة البقرة، الآية 256.

⁵ سورة النحل، الآية 125.

⁶ سورة العنكبوت، الآية 46.

⁷ سورة آل عمران، الآية 42.

وَيَوْمَ أُبْعِثُ حَيًّا}.¹ وذكر القرآن الكريم بأن النصارى أقرب إلى المؤمنين، {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}.² ولذلك فمن غير المعقول أن يكون المسيحيون قد تعرضوا لاضطهاد أو إكراه من قبل المسلمين.

ويركز بعض المؤرخين على بعض الحالات الفردية، والشاذة التي تعرض فيها المسيحيون للضغط والاضطهاد. مثل ما قام به الحاكم بأمر الله الفاطمي، من تصرفات تجاه أهل الذمة في مصر والشام، ويتمسك بعض المؤلفين الأوروبيين بهذه الحالات الفردية ليتخذوا منها دليلا على تعسف الحكام المسلمين مع المسيحيين.³

والحقيقة أن تدهور الأوضاع الأمنية بسبب الصراع بين السلاجقة والفاطميين، من جهة، وبين السلاجقة والبيزنطيين من جهة أخرى، وغياب سلطة مركزية قادرة على فرض الأمن في مناطق عديدة من آسيا الصغرى، ومنها المناطق التي يمر بها (الحجاج) المسيحيون في بلاد الشام، وفي قيليقيا، قد أثر على تدفقهم إلى فلسطين، فانخفض عددهم بشكل كبير، ليس بسبب ذلك الاضطهاد المزعوم الذي تعرضوا له، بل بسبب أن الطريق إلى فلسطين أصبح محفوفًا بكثير من المخاطر.⁴ والجدير بالذكر أن انعدام الأمن في الطرقات -على مر العهود- بسبب المواجهات العسكرية أو لأسباب أخرى، لم يؤثر على حركة انسياب المسيحيين فقط، بل أثر على حركة جميع الطوائف وطبقات الشعب من مسلمين ونصارى، بما في ذلك الحجاج المسلمين القاصدين بيت الله الحرام. ويروي ابن الأثير ضمن أحداث سنة 427هـ/1036م، أن الأرمن قطعوا طريق مجموعة كبيرة من الحجاج المسلمين، القادمين من

¹ سورة مريم، الآيات 31-33.

² سورة المائدة، الآية 82.

³ عاشور سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية، ج 1، ص 28-29. وللاطلاع أكثر على ما قام الحاكم بأمر الله الفاطمي، أنظر

: سيد أيمن فؤاد: مرجع سابق، ص 165-170؛ Bréhier Louis: l'Eglise et l'Orient, pp. 35-38.

⁴ عوض محمد مؤنس: مرجع سابق، ص 28.

أذربيجان، وخراسان، وطبرستان "يريدون الحج وجعلوا طريقهم على أرمينية وخلاط، فوردوا آني ووسطان فثار بهم الأرمن من تلك البلاد".¹

والملاحظ أن الحج الذي يتحدث عنه المسيحيون ليس ركنا من أركان الدين المسيحي، ولا من طقوسه، فهو لا يتعدى شعورا قويا ورغبة ملحة عند المسيحيين لزيارة بعض الآثار والمواقع المرتبطة بالذكريات الأولى لظهور المسيحية، مثل الموضع الذي ولد فيه المسيح (عليه السلام) والأماكن التي تنقل فيها بأرض فلسطين. وهو بذلك رحلة لمزارات سياحية وآثار تاريخية، اتخذت صبغة دينية، اعتقادا من المسيحيين أنهم ينالون الغفران إذا وقفوا أمام (قبر المسيح). وكانت تلك الرحلات في البداية تقتصر على الرهبان والقساوسة ورجال الدين. ومنذ أن قامت هيلانه (Hélène) أم الامبراطور قسطنطين برحلتها المشهورة إلى فلسطين سنة 326م، من أجل الكشف عن الصليب، ثم بناء كنيسة القيامة، وكنيسة المهد، صار (الحج) إلى تلك البقاع تقليدا قائما لدى المسيحيين اقتفاء لأثر القديسة هيلانه.² والسؤال الذي يواجه الباحث في هذا المقام، كيف تحول الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين من حرب ثنائية إلى حرب صليبية متعددة الأطراف؟ وما دور الأرمن في الدعوة إلى الحروب الصليبية؟

د- الدعوة إلى الحرب الصليبية

منذ انهزام الامبراطورية البيزنطية أمام السلاجقة في منازكد سنة 463هـ/1071م، لم يتوقف أباطرة القسطنطينية عن توجيه نداء الاستغاثة وطلب النجدة العاجلة من البابوية، فأرسل الامبراطور ميخائيل السابع سنة 465هـ/1073م، خطابا إلى البابا جريجوار السابع (1073-1085)، يطلب منه حث الممالك والإمارات الأوربية على إرسال نجدة سريعة لإنقاذ الامبراطورية البيزنطية

¹ ابن الأثير، الكامل، ج 8، ص 11-12.

² عوض محمد مؤنس : مرجع سابق، ص 23-24.

وأراضيها في آسيا الصغرى،¹ وبعد أن اعتلى الكسيس كومنين عرش الامبراطورية البيزنطية سار على نفس السياسة، ولكن هذه الدعوات ذهبت أدراج الرياح ولم تجد استجابة، لسببين :

الأول : الانشقاق الذي كان قائما بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما منذ سنة 446هـ/1054م، وهو يعود إلى عوامل سياسية وأخرى دينية ومذهبية خاصة بالدين المسيحي. وليس المجال هنا للخوض في تلك العوامل والخلافات المذهبية بين الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية، والكنيسة الغربية الكاثوليكية.² ولكن من المهم الإشارة إلى أن هذا الخلاف العقائدي، وما ترتب عنه من صدور قرارات الحرمان ضد أباطرة بيزنطة، لم يؤجل اندلاع الحروب الصليبية لبعض الوقت فقط، ولكنه أجج العداوة بين الكنيستين، مما ساعد على حدوث تقارب بين الفرنج والأرمن الناقمين أيضا على الكنيسة البيزنطية. وبمجرد أن وطأ الصليبيون أرض قيليقيا استقبلهم الأرمن بالأحضان، وقدموا لهم كل ما يحتاجونه من مؤن ومساعدات، بحكم العداوة المشتركة التي تجمعهم مع الصليبيين ضد البيزنطيين.³

الثاني : انشغال البابوية بالصراع ضد هنري الرابع (1054-1105) امبراطور الدولة الرومانية المقدسة،⁴ وصعوبة توحيد الفرسان ورجال الإقطاع، بسبب تنوعهم وانقسامهم.⁵

وبعد أن ارتقى أوربان الثاني كرسي البابوية بتاريخ 16 ذو الحجة 480هـ/12 مارس 1088م، انتهج سياسة مرنة تجاه خصومه المسيحيين، وأبدى رغبة في المصالحة مع الكنيسة البيزنطية، حيث اتخذ قرارا في سنة 482هـ/1089م، لصالح الامبراطور ألكسيس كومنين، يقضي

¹ عاشور سعيد : الحركة الصليبية، ج 1، ص 107؛ Bréhier Louis : l'Eglise et l'Orient, p. 51.

² حول الخلاف بين الكنيستين أنظر : شنييه جان-كلود : مرجع سابق، ص 101-102؛ الربيعة عبد الله بن عبد الرحمن : مرجع سابق، ص 432-435؛

Bréhier : op. cit., pp. 40-41; Bréhier : Vie et mort de Byzance, pp. 251-254; Schlumberger : L'épopée, t. III, pp. 681-748.

³ عاشور سعيد : تاريخ العلاقات، ص 78.

⁴ عاشور سعيد، الحركة الصليبية، ج1، ص 108؛ عوض محمد مؤنس : مرجع سابق، ص 74.

⁵ Bréhier : l'Eglise et l'Orient, p. 53.

برفع قرار الحرمان الذي اتُّخذ ضده من طرف البابا جريجوار السابع.¹ وردَّ ألكسيس على هذه الالتفاتة بأن أوفد في السنة الموالية، سفارة لزيارة البابا أوربان، وحملها رسالة تنطوي على الصداقة، وعلى إخلاص الامبراطور ومحبه.²

وأراد ألكسيس كومنين استغلال العلاقات الودية مع البابا أوربان الثاني للحصول على مساعدات عسكرية من الغرب ضد الأتراك السلاجقة، فانتهاز فرصة انعقاد مجمع ديني برئاسة البابا في بياكنزا (Plaisance) -بشمال إيطاليا- من 21 إلى 27 صفر 488هـ/من 1 إلى 7 مارس 1095م، وأرسل بعثة من القسطنطينية لحضور المجمع وتقديم طلب المساعدة. وقد سمح البابا لرسول الإمبراطور بالتحدث للحاضرين للتدليل على وجهة نظرهم، فنجحوا في إقناعهم بأن السلاجقة لا يشكلون خطراً على الدولة البيزنطية وحدها، ولكن خطرهم سيمتد ليشمل جميع المسيحيين. ولولا كثرة الأعداء على الحدود والمناوئين للإمبراطورية، وفقدانها لجزء كبير من منطقة الأناضول التي كانت مصدراً للثروة والجنود، لقامت وحدها بتوجيه ضربة قاضية للسلاجقة الذين حطوا رحالهم قاب قوسين أو أدنى من أسوار القسطنطينية. ولذلك فإن البيزنطيين في أمس الحاجة لإخوانهم المسيحيين في أوربا ليرسلوا لهم الجنود والمدد. ولا بد على الكنيسة أن تشجع الناس على التطوع للخدمة العسكرية، ليس مقابل مرتب سخّي، ولكن استجابة لتأدية الواجب الديني. ويبدو أن البابا قد تأثر بكلام مندوبي الإمبراطور، وتعاطف مع ألكسيس كومنين، وآمن بضرورة تقديم المدد للإمبراطورية البيزنطية ضد المسلمين.³

هذه الدعوة تحولت إلى مشروع جديد عند أوربان الثاني الذي راح يقلب الفكرة في ذهنه، ويقدم زناد فكره، لإيجاد خطة أكثر شمولاً وأعظم مجداً. فاقتنع البابا بضرورة الدعوة إلى حرب مقدسة لتحرير بيت المقدس من أيدي المسلمين، في المجمع الذي انعقد في شهر ذي الحجة 488هـ/نوفمبر

¹ Bréhier : Vie et mort de Byzance, p. 294.

² رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 155.

³ عاشور سعيد : تاريخ العلاقات، ص 84-85؛ رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 156-158؛

Bréhier : op. cit., pp. 294-296.

1095م، بكليرمونت (Clermont) في الجنوب الفرنسي، وتولدت عنه الحملة الصليبية الأولى. والواقع أن ألكسيس كومنين، كان يبحث عن بعض المساعدات العسكرية من مرتزقة في حربه ضد السلاجقة،¹ ولم تكن لدعوته علاقة بالحملة على فلسطين، أو بيت المقدس، أو كنيسة القيامة.² وإذا كان واضحاً وجلياً أن البيزنطيين استغاثوا بإخوانهم الفرنجة، فهل كان للأرمن دور في طلب المساعدات العسكرية من الغرب الأوربي لتحرير بلادهم من قبضة السلاجقة ؟

2- دور الأرمن في الدعوة للحرب الصليبية

تعود علاقة الأرمن بالفرنجة إلى فترة سابقة للحروب الصليبية، وتحدث المصادر التاريخية كثيراً عن العلاقات الودية التي ربطت الخلافة العباسية في عهد هارون الرشيد، بالدولة الكارولنجية في عهد شارلمان، والوفادات المتبادلة بين الطرفين. وبما أن هارون الرشيد كان يتعامل مع عاهل مسيحي، فإنه كان حريصاً على تعيين شخصيات مسيحية بين أعضاء سفارته المتوجهة إلى بلاط شارلمان، وكان يرى أن الأرمن هم الأجدر والأكفأ للقيام بهذه المهمة في بلاد الفرنجة،³ وقد ضم هذا الوفد اثنا عشر مستشاراً أرمينياً في الشؤون العسكرية والسياسية.⁴

وكان الأساقفة وبعض رجال الدين الأرمن، قد تعودوا منذ القرن السادس الميلادي على شد الرحال من حين لآخر إلى المزارات الدينية المسيحية الغربية التي تزخر بها القارة الأوروبية، منها: قبري القديسين بطرس (St. Pierre)، وبولس (St. Paul)، في مدينة روما، وهو ما يعتبر في الكتابات

¹ يبدو من الرواية التي أوردتها أنا كومنين، أن الامبراطور ألكسيس لم يكن يتوقع حملة صليبية بالمفهوم الاصطلاحي، كما أنه تفاجأ للأعداد الكبيرة التي قدم بها الصليبيون، مما جعله يتخوف من مهاجمتهم لعاصمته. (انظر : t. : Comnène Anne : op. cit., II, p. 206-207).

² يذكر ابن الأثير ضمن حوادث سنة 491هـ، أسباباً وعوامل أخرى أدت إلى خروج الفرنجة من بلادهم، (انظر : ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 185-186).

³ Macler Frédéric : La France et L'Arménie à travers l'art et l'histoire, Imprimerie H. Turabian, Paris, 1917. p. 10.

⁴ كجو غسان : حركة الثقافة الأرمنية العربية ودور الأرمن في حركة النهضة العربية، بحث مقدم في : الندوة الدولية للعلاقات الثقافية العربية-الأرمنية، 16 مارس 2009، منشورات مركز الدراسات الأرمنية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2009. ص 80.

الغربية حجا إلى الأماكن المقدسة المسيحية. ومن أشهر الرحلات زيارة القديس سمعان (Saint. Siméon)، من أرمينيا الكبرى، الذي زار كنيسة القيامة في القدس، ثم انتقل إلى روما سنة 373هـ/983م، وحظي بمقابلة البابا بنديكثس السابع (Benoît VII (974-983)، والتقى في مجلسه بقس أرميني آخر كان يحسن اللغة اللاتينية، ومقربا من البابا، وساهم هناك في القيام ببعض الإصلاحات الدينية. وفي هذا الإطار زار فرنسا، ثم إنجلترا، وألقى عصا الترحال في دير بوليرون (Polirone) بإيطاليا، حيث وافته المنية سنة 407هـ/1016م.¹ ورحلة أخرى قام بها القديس داوين (Davin)، من أرمينيا الكبرى، في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، حيث زار بيت المقدس، ومنها انتقل إلى روما، وبقي في إيطاليا إلى أن توفي سنة 442هـ/1050م، في ليكيا (Lucques) المدينة التي نال أسقفها منصب البابوية باسم البابا اسكندر الثاني (Alexandre II (1061-1073)، فقام بنقل جثمانه إلى كنيسة القديس ميخائيل. وثمة زيارات أخرى قام بها عديد من رجال الدين الأرمن للصلاة في روما قرب قبر القديس بطرس أو القديس بولس، وآخرون زاروا فرنسا، وقاموا فيها ببعض النشاطات الدينية.²

ويرى بعض المؤرخين الأرمن أن سبب هذه الهجرات الدينية الأرمنية، هو حملات الأتراك المتكررة على أرمينيا الكبرى، وتوغلهم تدريجيا في آسيا الصغرى، ومضايقتهم لرجال الدين المسيحيين، وتهديمهم للكنائس والأديرة. وهذا الادعاء عارٍ من الحقيقة، لأن عملية فتح السلاجقة لبلاد الأرمن، واستقرارهم في الأناضول، لم تتم إلا بعد معركة مناكرد سنة 463هـ/1071م. كما تميزت سياستهم تجاه الرهبان، والأساقفة بالتسامح، وإعفاء دور عبادتهم من الضرائب، ومنحهم حرية ممارسة شعائهم الدينية.³ بل إن المؤرخ المتخصص في تاريخ الامبراطورية البيزنطية، جون كلود شينيه، يرى أن

¹ Zekian Levon B. : Les colonies arméniennes des origines à la fin du XVIII^e siècle, ds. H.P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008. p. 427.

² Dédéyan Gérard : Les Arméniens en Occident, fin du X^e siècle – début du XI^e, ds. Actes des congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public, 9^e congrès, Dijon, 1978. Occident et Orient au Xe siècle. pp. 123-126.

³ انظر ما قبل في : ص 204-208.

قدوم السلاجقة إلى آسيا الصغرى، لم يؤد إلى مغادرة النخبة الأرمنية لموطنها.¹ والحقيقة أن أرمينيا الكبرى شهدت خلال القرن العاشر، والنصف الأول من القرن الحادي عشر الميلاديين، حركة تحديد ديني، أدت إلى ازدهار حياة الرهبنة والتنسك،² وميل رجال الدين إلى الخلوة في الأديرة، والتفرغ للابتغال والعبادة، والبعض منهم فضل السياحة في الأرض، وزيارة البقاع المسيحية المقدسة.³ ومن أشهر الزيارات الدينية التي تزامنت مع بداية الدعوة والتحضير للحملة الصليبية الأولى في أوربا، تلك التي قام بها الجثليق⁴ جريجور الثاني فيكاياسر (Le Catholicos Grigor Vekayaser)،⁵ إلى القسطنطينية وإلى روما سنة 467هـ/1074م، ثم إلى القاهرة.

أ- سفارة الجثليق جريجور الثاني فيكاياسر

ينتسب جريجور الثاني إلى آل بهلاووني (Pahlawouni)، الأسرة الشهيرة التي احتكرت منصب الجثليق بين أبنائها فقط، وقدمت خدمات جليلة للكنيسة وللأمة الأرمنية. كان والده غريغور

¹ Cheynet Jean-Claude : *La perte de l'Asie Mineure*, p. 10.

² Dédéyan Gérard : *Les Arméniens dans la France médiévale*, ds. : H.P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008. p. 907.

³ Dédéyan : *Les Arméniens en Occident*, p. 124; Dédéyan : *Les Arméniens entre Grecs*, t I, p. 254.

⁴ الجثليق أو الكاثوليكوس (Catholicos) : وهو الحبر الأعظم للكنيسة الأرمنية، أي أكبر سلطة دينية وروحية لدى الأرمن، ويساوي منصب البابا عند الكاثوليك. ويشرف على جميع الكنائس الأرمنية. لذلك سميت الجثليقية (le catholicossat) الأرمنية دائما باسم "جثليقية عموم الأرمن"، وكان مقر الجثليق في مدينة ايشمايازين (Etchmiadzine). غير أن هذا المقر اضطر للتنقل تبعا لمجريات الأحداث السياسية التي شهدتها أرمينيا، إلى أن استقر سنة 1293م، في مدينة سيس عاصمة الدولة الأرمنية الجديدة في قيليقيا وذلك حتى عام 1441م، عندما عاد مقر الجثليقية من جديد إلى ايشمايازين. ولكن الجثليق كريكور موسايكيان رفض نقل هذا المقر إلى ايشمايازين، مما دفع بمجلس الأساقفة الأرمن إلى انتخاب جثليق جديد هو كيراكوس فيرايتسي الذي انتقل إلى هذه المدينة. وأضحى للأرمن جثليقين ومركزين للجثليقية، واستمر هذا الوضع حتى اليوم. وانتقل مركز سيس إلى حلب، ثم إلى بلدة انطلياس في لبنان التي تحتضن المقر الحالي للجثليق الأرمني، ويعرف باسم جثليقية البيت الكبير لكيليكيان. (انظر : المدور مروان : مرجع سابق، ص 286-287؛ Valognes Jean-Pierre : op. cit., p. 451.)

⁵ ورد اسمه بصيغتين جريجور (Grigor)، و غريغوار (Grégoire)، وكان اسمه السابق فهرام (Vahram)، واشتهر بلقب فيكاياسر (Vekayaser)، أي صديق الشهداء، لأنه اعتكف على ترجمة كثير من الكتب المتعلقة بحياة، وتاريخ القديسين المسيحيين، لتكون مثالا يحتذى به الشعب الأرمني. (انظر :

Vernier Donat : *Histoire du Patriarcat arménien Catholique*, Delhomme et Brigueu éditeurs, Paris, Lyon, 1891. pp. 206-207).

ماجيسستروس (Grigor Magistros) (توفي سنة 450هـ/1058م))، قد وضع نفسه في خدمة الامبراطورية البيزنطية، بعد إلحاق مملكة آني البجراطية سنة 437هـ/1045م، وأصبح من رجالها المخلصين،¹ فمنحته لقب دوق (Duc).² وكان ابنه الأصغر، فهرام (Vahram)، منذ صغره شغوفاً بالعلم، فانكب على الدراسة والتعمق في علوم الدين، واللاهوت والعلوم الإنسانية، والآداب الإغريقية، والأرمنية. وبعد زواجه منحه الامبراطور قسطنطين العاشر دوкас، نفس اللقب الذي كان لوالده سابقاً.³ ثم اعتزل الحياة العامة، وانفصل عن زوجته، معرضاً عن كل الملذات والمناصب الدنيوية، واتجه إلى أحد الأديرة، فاكسب فيه قداسة منحته شهرة واسعة. وفي مجمع ديني، انعقد سنة 457هـ/1065م، انتُخب فهرام من طرف رجال الدين الأرمن جثلياً باسم جريجور الثاني.⁴ وأثناء رئاسته للكنيسة الأرمنية أدخل بعض الإصلاحات على نظام الأديرة، وشارك شعبه الأحزان بعد ضم أرمينيا إلى الامبراطورية البيزنطية. وفي سنة 463هـ/1071م، تنازل عن منصبه لأحد أعوانه، ودخل إلى دير آراك (Arek)، الواقع في الجبل الأسود بمرتفعات الأمانوس، واعتزل الناس وترهب مدة سنتين.⁵ ثم ألح عليه الملك الأرمني جاجيك الثاني -قبل اغتياله- وكثير من نبلاء الأرمن ليعود إلى رئاسة الكنيسة، ولكنه اعتذر قائلاً بأنه يريد "الذهاب إلى روما، ثم عبور صحراء مصر".⁶

ويبدو أنه كان يقيم خلال عزلته في الإقليم الخاضع لسلطة فيلاريت، أو ربما أقنعه هذا الأخير بالإقامة في منطقته مع توفير الحماية له؛ لأن فيلاريت باعتباره أرمينيا خلقدونيا؛ فإنه -في نظر بني جلدته- كان فاقداً للشرعية الدينية. وهذا ما جعله يعمل على إقناع وجذب جريجور الثاني للإقامة في

¹ Dédéyan : Les Arméniens sur la frontière sud-orientale, p. 83.

² دوق (Duc) : حاكم عسكري خاص بمقاطعة معينة، ويكون خاضعاً لسلطة الوالي، وكان هذا المنصب يقتصر أحياناً وفي بعض المناطق (مثل مصر) على نبلاء القصر، وتمنح لهم صلاحيات مدنية وعسكرية واسعة. (أنظر : رنسيما : الحضارة البيزنطية،

ص 98، 317؛ Bréhier Louis : Les institutions de l'empire byzantin, p. 102,113.

³ Kapoïan-Kouymjian Angèle : Le Catholikos Grégoire II le Martyrophile (vkayaser) et ses pereginations, ds. **Bazmavep**, vol. 132, n° 3-4, Venise, 1975. p. 5.

⁴ Tournebize F. : op. cit., p. 108; Kapoïan-Kouymjian Angèle : op. cit., p. 9.

⁵ Vernier Donat : op. cit., pp. 206-207.

⁶ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 161-162; Garsoïan, op. cit., p. 256.

إقليمه، خاصة مع تزايد عدد المهاجرين الأرمن وتعاضم دورهم الديني والعسكري في قيليقيا.¹ ولكن فيلاريت لم يكن فاقدا للشرعية الدينية فحسب، بل كان فاقدا لبعد النظر أيضا، وجاهلا بأصول الدبلوماسية وأعرافها، وأعماه الطمع والجشع والرغبة في جمع المال على إنزال الرجال منازلهم. فأرسل الجثليق جريجور الثاني، في مهمة دبلوماسية إلى تورنيك بن موشل، حاكم إقليم ساسون،² وهو في نفس الوقت زوج أخته، ومن آل بهلاووني أيضا، ليضغط عليه ويطلب منه دفع الإتاوة، وإعلان التبعية له. ولما رأى غريغور ما تعرض له صهره على يد فيلاريت، غادر مقر إقامته في قرية مْتَراسون (Moutarasoun)، قرب نهر الفرات، ولم يعد إليها أبدا.³ وقد راسله فيلاريت مرارا وتكرارا، متوسلا إليه، ومحاولا إقناعه بضرورة العودة إلى مقر إقامته، ولكن رئيس الكنيسة الأرمنية أبلغه أن قراره لا رجعة فيه.⁴ وأمام هذا الرفض القاطع وجد فيلاريت نفسه في وضع حرج تجاه رعاياه،⁵ وأدرك أنه لا يستطيع أن يجعل من جريجور الثاني أداة طيعة في يده، فعمل على إيجاد منافس له على رأس الكنيسة الأرمنية.⁶ والسؤال الذي يطرح إلى أين اتجه جريجور الثاني بعد مغادرته مقر إقامته التي كانت تحت سلطة فيلاريت ؟

بعد أن رفض الجثليق الأرمني الإقامة تحت سلطة فيلاريت، اتجه إلى أرمينيا الكبرى التي كانت تابعة للسلطان ملكشاه التركي السلجوقي، واستفاد هناك من التسامح الديني الذي وجدته عند المسلمين، فنصب أحد الأساقفة في مدينة آني، وبعد أن أقام فيها أياما، قرر الذهاب إلى القسطنطينية.⁷ وهذا دليل آخر على أن هجرة رجال الدين الأرمن نحو إيطاليا أو فرنسا، لم تكن بسبب حملات السلاجقة، ولكن لأسباب أخرى.

¹ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. I, pp. 225-226.

² أنظر الفصل الثالث، ص 170.

³ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 161-162.

⁴ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 176; Tournebize F. : op. cit., p. 110.

⁵ Dédéyan Gérard : op. cit., t. I, pp. 229-230.

⁶ Grousset René : Histoire de l'Arménie, p. 635.

⁷ Kapoïan-Kouymjian Angèle : op. cit., p. 11.

ب- جريجور الثاني في القسطنطينية

بعد أن رفض العودة إلى مقر الجثليقية، شرع جريجور الثاني، في القيام بمهمة دبلوماسية واسعة، ورحلة حج طويلة إلى البقاع المقدسة المسيحية، قادته إلى فلسطين، والقسطنطينية، وروما، ومصر. بدأ هذه الرحلة سنة 467هـ/1074م، فذهب إلى القسطنطينية التي حظي فيها باستقبال حار من طرف الامبراطور ميخائيل السابع الذي أكرم وفادته، وبقي في ضيافته مدة طويلة، ثم دعاه لعقد مناظرة دينية لاهوتية، في كنيسة آيا صوفيا، ترأسها الامبراطور، وحضرها بطريرك الكنيسة البيزنطية كوسماس (Kosmas (1075-1081))، ومجموعة من رجال الدين. ويبدو أنه أظهر كفاءة عالية في الإجابة عن الأسئلة التي طرحت عليه حول مذهب الطبيعة الواحدة الذي تعتنقه الكنيسة الأرمنية، ونال بذلك إعجاب الامبراطور ميخائيل السابع، الذي بالغ في إكرامه، وفتح له خزائن كتبه، وأبقاه في ضيافته مدة طويلة، وفرض له مرتبا ومن معه من مرافقيه.¹ ولعل سائلا يسأل لماذا توجه جريجور الثاني إلى القسطنطينية ولم يسافر مباشرة إلى روما ؟ وما سر هذا التقارب والود الذي جمع بين الإمبراطور البيزنطي والجثليق الأرمني، رغم الخلافات الدينية والسياسية القديمة بينهما ؟

يبدو من خلال علاقة فيلاريت بالإمبراطور ميخائيل السابع،² وبالجثليق جريجور الثاني، أن المصالح السياسية قد جمعت بين من فرقتهما المذاهب والخلافات الدينية. حيث كان فيلاريت معارضا للإمبراطور البيزنطي، وغير معترف بسلطته، كما أن الجثليق الأرمني شعر أنه يريد استغلال مكانته الدينية بين الأرمن، فخرج شبه هارب من إقامته، باحثا عن مأوى جديد، فكان ذهابه إلى القسطنطينية أشبه باللجوء السياسي، لأنه أصبح في نظر البيزنطيين الممثل الشرعي الوحيد للشعب الأرمني.³ ونظرا لما حظي به الجثليق من معاملة وتكريم في القسطنطينية، فإن متى الرهاوي أثنى على

¹ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. I, pp. 249-250.

² أنظر الفصل الثالث، ص 167-174.

³ انقرضت سلالة البجاردة بعد اغتيال الملك الأرمني حاجيك الثاني سنة 466هـ/1073م، ولقي كثير من أتباعه الأمراء الأرمن نفس المصير، وفي نفس السنة اغتيل تورنيك حاكم إقليم ساسون من طرف فيلاريت، ووجد الشعب الأرمني نفسه مقسما بين عدة أمراء يتنافسون على السلطة، ويتوسعون على حساب بعضهم البعض ... ولم تبق إلا المؤسسة الدينية المتمثلة في شخص الجثليق، التي تجمع بين أطيايف الشعب الأرمني في المهجر. (انظر : Augé Isabelle : Le dilemme de l'Eglise. pp. 348-353).

الامبراطور ميخائيل السابع، واعتبره "سليم العقيدة، وأبا للأيتام وحاميا للأرامل".¹ وبناء على ذلك، فإن ما جمع بين ميخائيل السابع وجريجور الثاني، هو وجود خطرين يهددهما معا، الأول : هو توسعات السلاجقة في آسيا الصغرى، والثاني : يتمثل في فيلاريت برخامبوس، ولذلك رأى رئيس الكنيسة الأرمنية أن مصلحته السياسية تقتضي منه زيارة القسطنطينية قبل التوجه إلى البابا في روما.

ج - جريجور الثاني في روما

وبما أن المصلحة السياسية جمعت بين رجل الدين ورجل السياسة، فإن الجثليق سرعان ما كسب ثقة الامبراطور الذي أراد استغلال هذا المكسب الهام لصالحه. فقام بإرسال جريجور الثاني مع وفد بيزنطي في مهمة دبلوماسية إلى روما، لمقابلة البابا جريجوار السابع (Grégoire VII) (1073-1085)، ليلتمس منه مساعدة المسيحيين اللاتين، ضد المسلمين الأتراك، والبحث عن سبل إعادة الوحدة بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما.² والجدير بالذكر أن الزيارة التي قام بها رئيس الكنيسة الأرمنية إلى روما ليست الوحيدة، ولا الأولى من نوعها، حيث تشير بعض الدراسات الأثرية إلى وجود مقابر وكنائس أرمنية، يعود تاريخها إلى القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، مما يفيد أن عددا من رجال الدين الأرمن قد هاجروا من أرمينيا أو من كبادوكيا أو من قيليقيا، واستقر بهم المقام في إيطاليا.³

حظي الوفد باستقبال حار من طرف البابا،⁴ ولم تذكر مصادر هذا البحث فحوى المفاوضات والحوار الذي دار بين البابا ومبعوثي الإمبراطور، ولكن من المؤكد أن الجثليق جريجور الثاني، شرح للبابا جريجوار السابع، الأوضاع الخطيرة التي تعيشها الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى، وأن السلاجقة الذين يقتربون تدريجيا من أسوار القسطنطينية، باتوا يهددون المسيحية في عقر دارها. وأن أسهل طريقة لإعادة الروح إلى العلاقات بين الكنيسة البيزنطية وكنيسة روما هو تقديم مساعدة عسكرية

¹ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 177.

² الحارثي عبد الله بن ناصر بن سليمان : مرجع سابق، ص 81؛ Dédéyan : Les Arméniens entre Grecs, t. I, p. 252.

³ Dédéyan : op. cit., t. I, pp. 255-256; Dédéyan : Les Arméniens en Occident, p. 124-126.

⁴ Kapoian-Kouymjian Angèle : op. cit., p. 14; Dédéyan : op. cit., p. 133.

للمسيحيين في الشرق.¹ وقد حاولت هذه السفارة، استغلال حماسة واندفاع جريجوار السابع، والدور الكبير الذي قام به في حملات الاسبان ضد المسلمين في الأندلس.²

ويتحدث المؤرخون عن مجموعة من الرسائل صدرت عن رئيس الكنيسة الكاثوليكية، وجهها إلى حكام وملوك أوربا يشرح لهم فيها حقيقة موقف المسيحية في الشرق، والحالة الحرجة التي تمر بها الدولة البيزنطية نتيجة توسع السلاجقة في أرمينيا، واقتراحهم من أسوار القسطنطينية. وإحدى هذه الرسائل، كتبت بتاريخ 04 فيفري 1074م،³ موجهة إلى دوق بورجنديا (Bourgogne)، ورد فيها أن البابا أعرب عن رغبته في دعوة الملوك والأمراء إلى تكوين قوة عسكرية، تعمل على محاربة النورمان الذين يشكلون تهديدا للبابوية. وبعد استسلامهم، يأمل البابا في انتقال هذه القوة إلى آسيا الصغرى لنجدة ضحايا الهجوم التركي، ويقول فيها: "إنه مستعد للذهاب إلى القسطنطينية لمساعدة المسيحيين الذين يتعرضون للدغات السَرَازان (Sarrazins)⁴ بشكل مستمر، ويطلبون منا تقديم يد المساعدة لهم".⁵ وفي رسالة أخرى بتاريخ 1 مارس 1074، موجهة "لكل المسيحيين"⁶ تحدث عن سفير جاءه من وراء البحار للصلاة والدعاء عند قبور الرسل، وأخبره بدقة عما يتعرض له المسيحيون من اضطهاد، ومن المؤكد أن هذا السفير هو الجثليق جريجور الثاني فيكاياسر.⁷ وفي رسالة أخرى

¹ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. I, p. 257.

² Grousset René : Les Croisades : Presses universitaires de France, Paris, 1964. p. 20.

³ انظر نص هذه الرسالة في الملحق الثاني، ص 465-466.

⁴ سَرَازان (Sarrazins) : استعمل اليونان قديما كلمة (Saraceni)، و (Saracenes)، واستعملها اللاتين على هذه الصورة (Saracenus)، وذلك في معنى العرب، وأطلقوها على قبائل عربية كانت تقيم في بادية الشام، وفي طور سيناء، وتوسع مدلولها بعد القرن الخامس الميلادي، فأطلقت على العرب عامة، وشاع استعمالها في القرون الوسطى من طرف الكتاب والمؤرخين النصارى، وأصبحوا يطلقونها على جميع العرب، وعلى جميع المسلمين. ويعتقد بعض الباحثين أن الكلمة مركبة من كلمة (سارة) زوجة سيدنا ابراهيم، وكلمة أخرى هي (قين)، فيكون المعنى عبيد سارة، وتوجد تعليقات أخرى لأصل ومعنى هذه الكلمة. (انظر : علي جواد : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (د. ن.)، ط2، (د. م.)، 1993، ج 1، ص 26-30).

⁵ Vasiliev A. A. : op. cit., t. II, p. 28.

⁶ انظر نص هذه الرسالة في الملحق الثالث، ص 167-468.

⁷ Dédéyan Gérard : loc. cit.

بتاريخ 7 ديسمبر 1074م موجهة إلى هنري الرابع،¹ ملك ألمانيا تحدث فيها عن "كارثة حدثت في الشرق" وأخبره بأن سفارة وصلت إلى روما من مسيحيي ما وراء البحر، ويقول فيها إنه مستعد ليقود بنفسه جيشا يتكون من خمسين ألف جندي من مسيحيي الغرب، ليصل بهم إلى كنيسة القيامة. وجاء فيها أيضا : "أنا مصمم على القيام بهذه المهمة أكثر من كنيسة القسطنطينية التي لها وجهة نظر تختلف عن نظرتنا للروح القدس، وهي في انتظار الاتفاق مع الكرسي الرسولي، وعلاوة على ذلك فإن كل الأرمن تقريبا انحرفوا عن الإيمان الكاثوليكي، وأن القسم الأكبر من المسيحيين الشرقيين ينتظرون أن يروا إيمان القديس بطرس، الذي يختلف عنهم، يدخل بين معتقداتهم".² ويعود هذا الاهتمام بمسيحيي الشرق، إلى التأثير الذي تركه الجثليق جريجور الثاني فيكاياسر، على رئيس الكنيسة الكاثوليكية.

ويبدو من رسائل جريجوار السابع، أن البابوية لم توجه الدعوة لتنظيم حملة صليبية واسترجاع بيت المقدس، بل كانت نية الزعيم الروحي للمسيحيين الغربيين، تلخص في تحضير وإعداد حملة حربية إلى القسطنطينية لإنقاذ الامبراطورية البيزنطية، حتى تتمكن من الاضطلاع بدورها المتمثل في الدفاع عن المسيحيين ضد المسلمين في الشرق، وستدفع بيزنطة ثمن تلك المساعدة بعودة كنيستها (الضالة) إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية.³ ولكن رسائل البابا جريجوار السابع، واستغاثة الجثليق جريجور الثاني لم تأت بالنتائج المرجوة منها، لأن عوامل كثيرة حالت دون تحقيق هذا المشروع البابوي-الأرمني، منها :

الأول : اختلاف ترتيب الأولويات بين الزعيمين الروحيين، فكان الجثليق الأرمني يبحث عن مساعدة عاجلة، بينما كان البابا يريد إعادة الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية ومعها كل الكنائس الشرقية إلى بيت الطاعة، وتوحيدها جميعا تحت زعامة الكنيسة الكاثوليكية. ومن ثمة فإن إعلان الحرب ضد المسلمين في الشرق، يأتي في الدرجة الثانية من سلم اهتمامات البابا جريجوار السابع، وأن

¹ انظر نص هذه الرسالة في الملحق الرابع، ص 469-471.

² Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. I, p. 258.

³ ربيع حسنين محمد : مرجع سابق، ص 196.

الانقسام الذي حدث بين الكنائس منذ سنة 446هـ/1054م، هو أكثر ترويعا من توسع المسلمين في الشرق.¹

الثاني : تخلى الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع، عن فكرة الدعوة إلى الاتحاد بين الكنيستين البيزنطية والكاثوليكية، وربما كان ذلك بتأثير من الفيلسوف والكاتب ميخائيل بسيللوس (Michael Psellos).²

الثالث : فَقَدَ الامبراطور ميخائيل السابع السلطة بعد أن نجح نقفور بوتانياتس في حركته التمردية التي أوصلته إلى عرش الامبراطورية البيزنطية، ونصب نفسه امبراطورا باسم نقفور الثالث، ولكن البابا جريجوار السابع اعتبر الامبراطور الجديد مغتصبا للعرش، ولم يعترف بسلطته، مما أدى إلى انقطاع الاتصالات بين القسطنطينية وروما.

الرابع : انقلب الود الذي كان بين الملك هنري الرابع والبابا جريجوار السابع إلى عداوة وبغضاء، بسبب القرار الذي أصدره هذا الأخير سنة 467هـ/1075م، ضد التقليد العلماني،³ وقوبل برفض شديد من طرف الملك، وبدأت الحرب سافرة بين العاهلين،⁴ ما جعل البابا يلتفت إلى الغرب، ونسي إلى حين، استغاثة جريجور الثاني جثليق الأرمن، ولم تصل إلى الشرق أية مساعدات حربية أو غيرها من الغرب اللاتيني.⁵

¹ Vasiliev A. A. : op. cit., t. II, p. 29.

² Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. I, p. 258.

³ يتعلق هذا القرار بحرمان الحكام العلمانيين من أباطرة وملوك وأمراء، من حقهم في تعيين رجال الدين في مناصبهم الدينية، الأمر الذي أزعج هنري الرابع، فاتخذ موقفا رافضا وحازما تجاه القرار البابوي، فقام البابا من جهته بتوقيع قرار الحرمان ضد هنري الرابع، وعزله من منصبه وتحريم جميع رعاياه وأتباعه من أيمان الطاعة والتبعية التي أقسموا بها، وبذلك بدأت بين العاهلين حرب باردة سافرة، أثرت على مشاريع البابوية في الشرق. (أنظر : عاشور سعيد عبد الفتاح : تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص 303-306).

⁴ المرجع السابق، ص 311.

⁵ ربيع حسنين محمد : مرجع سابق، ص 196.

وسواء نجح أم أخفق جريجور الثاني في مهمته بروما، فإننا نتساءل لماذا أرسل الإمبراطور البيزنطي، ضمن سفارته إلى إيطاليا، الزعيم الروحي للأرمن، ولم يرسل بطريرك القسطنطينية ؟ خاصة أن الخلافات المذهبية التاريخية بين الكنيسة الأرمنية والكنيسة البيزنطية، لا زالت قائمة.

ويبدو أنه أرسل رئيس الكنيسة الأرمنية ليدي حسن نيته ورغبته في إذابة الجليد بين القسطنطينية وروما، وحدوث تقارب بينهما، أو إعادة الوحدة بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البيزنطية ومن ورائها كل الكنائس الشرقية، كما يعتبر جريجور الثاني فيكاياسر أفضل سفير للمسيحيين الشرقيين، والأكثر إخلاصا وثقة، ليقوم بنقل انشغالاتهم للبابا جريجور السابع؛ لأنه من بين الأرمن الذين فقدوا وطنهم، وهو بذلك أكثر إحساسا بحاجة الامبراطورية البيزنطية إلى مناشدة البابا ليعلن التعبئة في أوروبا، ويحث المسيحيين الغربيين أو الفرنجة على تقديم المساعدة العسكرية التي يحتاجها المسيحيون في الشرق. وهذه المهمة كان بإمكان بطريرك القسطنطينية أن يضطلع بها، ولكن الرئيس السابق لهذه المؤسسة الدينية وهو ميخائيل الأول كيرولاريوس (Michel 1^{er} Cérulaire)، قطع حبل الاتصال بينه وبين البابوية، وكان سببا في اندلاع الشرارة التي فجرت الاختلافات القديمة بين كنيسة القسطنطينية والكنيسة الكاثوليكية¹ ثم الانفصال بينهما.² وكان الامبراطور ميخائيل السابع، خبيرا بالأعراف الدبلوماسية التي تقتضي منه أن لا يرسل إلى روما ممثل كنيسة قام أحد رؤسائها بطرد ممثل البابا من القسطنطينية، وأصدر قرار الحرمان ضد الوفد البابوي. ويبدو من المناظرة والمناقشات التي أجراها جريجور الثاني في كنيسة آيا صوفيا بحضور الامبراطور ميخائيل السابع، أن هذا الأخير أعجب بفصاحة الجليلي، وكفاءته وقدرته على الإقناع وتقديم الإجابات على الأسئلة التي طرحت عليه.³ وهو لا يمثل الكنيسة البيزنطية التي هي في خلاف مع كنيسة روما، بل يمثل الكنيسة الأرمنية

¹ وصلت الاختلافات إلى ذروتها بسبب سلوك الوفد البابوي الذي كان مشوبا بالتعالي والكبرياء وعدم الاحترام، وأبدى البطريرك البيزنطي موقفا مماثلا، وامتدت الاختلافات في وجهات النظر إلى التفاصيل الجزئية مثل المذهب والطقوس وعدم زواج رجال الدين واستخدام الخبز غير المخمر والصيام وما إلى ذلك. (أنظر : ربيع حسنين محمد : مرجع سابق، ص 164؛

Valognes Jean-Pierre : op. cit., pp. 47-54).

Valognes Jean-Pierre : op. cit., p. 49.

Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. I, pp. 249-250.

الوطنية المستقلة القائمة بذاتها، ولا ترتبط بأية كنيسة أخرى في الشرق أو الغرب، وهذا ما يجعله قادراً على التحدث مع البابا أفضل من بطريك القسطنطينية، ولذلك اختاره الامبراطور البيزنطي ليكون من بين أعضاء سفارته إلى روما.

وتبين من هذه الرسائل أن البابا قد حاول إرسال حملة -قبل الحملات الصليبية- لمساعدة البيزنطيين والأرمن، وجميع المسيحيين الشرقيين، ولم تكن مسألة إعادة الوحدة بين الكنيستين غائبة عن اهتماماته. ورغم عدم وصول مساعدات عسكرية من المسيحيين الغربيين إلى إخوانهم المسيحيين الشرقيين، فإن المراسلات لم تتوقف بين الزعيم الروحي للكنيسة الأرمنية، والزعيم الروحي للكنيسة الكاثوليكية. إذ وجه الجليلي رسالة إلى البابا يطلب منه معاقبة أحد الأرمن المنشقين لجأ إليه مطروداً من أرمينيا،¹ فرد عليه البابا برسالة ودية بتاريخ 06 جوان 1080م،² وربما توجد خطابات لم تُعرف بعد قد تبادلها الطرفان.³ ومما لاشك فيه أن الاتصالات لم تنقطع بين البابوية والجليلية، بدليل أن جريجور الثاني كان على رأس الأرمن الذين انضموا إلى الصليبيين، لما وطأت أقدامهم آسيا الصغرى، ودخل معهم القدس إلى جانب جودفري البويوني⁴ (Godefroy de Bouillon)، بتاريخ 24 شعبان 492م/15 جويلية 1099.⁵

ومن المؤكد أن تكون هذه السفارة والمراسلات المتكررة، قد نسجت علاقات متينة مع البابوية، استمرت إلى ما بعد وفاة جريجور الثاني سنة 498هـ/1105م، بدليل أن من بين الذين خلفوه على رأس الكنيسة الأرمنية، مثل الأخوان غريغور الثالث (Grigor III)، ونرسيس شَرَنُورْهالي

¹ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. I, pp. 259.

² Augé Isabelle : Le dilemme de l'Eglise, p. 352.

³ العبد الغني عبد الرحمن محمد : الأرمن في الحرب الصليبية الأولى، ص 107-108.

⁴ جودفري البيوني : هو جودفري الرابع دو بولوني أو بويون، ولد في بيزي عام 1061 تقريباً، ابن أوستاش الثاني كونت بولوني، ورث عمه جودفري الثالث دوق اللورين فأصبح دوق اللورين الأسفل (1095-1098)، باع دوقيته وغادر في الحملة الصليبية الأولى، وانتخب أول ملك غير متوج لمملكة بيت المقدس (1099-1100م). (انظر : الربيعي عبد الله بن عبد الرحمن : مرجع سابق، ص 449، هامش رقم 1).

⁵ Vernier Donat : op. cit., p. 208.

(Nersês Chenorhali)، وهما من آل بهلووني، قد أظهرتا تقارباً تجاه الكنيسة الكاثوليكية،¹ ودخلا في اتصالات مع البابوية، إما باستقبال ممثلي البابا القادمين إلى الشرق، أو بإرسال سفارات مباشرة إلى روما.² وهكذا فإن تعاطف البابا مع المسيحيين الشرقيين، ومحاولته تجنيد الفرنج لتقديم المساعدة للإمبراطورية البيزنطية، ما هو إلا صدى لرحلة جريجور الثاني إلى روما واستقباله من طرف جريجوار السابع،³ ودلالة تؤكد لجوء الأرمن إلى طلب المساعدة من زعيم المسيحية الغربية.

د- جريجور الثاني في القاهرة

ومن روما ولى جريجور الثاني وجهه شطر مصر التي وصلها عن طريق البحر، فنزل في ميناء الاسكندرية، سنة 472هـ/1079م، واستقبله المستنصر الفاطمي استقبال الملوك،⁴ ولكن السلطة الفعلية للدولة الفاطمية آنذاك، كانت في يد الوزير بدر الجمالي⁵ الملقب بأمر الجيوش، وهو أرمني

¹ Augé Isabelle : Byzantins, Arméniens, p. 214.

² Augé Isabelle : Le dilemme de l'Eglise, p. 352.

³ Dédéyan Gérard : Les Arméniens en Occident, p. 133.

⁴ Kapoïan-Kouymjian Angèle : op. cit., p. 17.

⁵ بدر الجمالي (بداية القرن الخامس الهجري - 487هـ/1094م) : هو بدر بن عبد الله، أرمني الجنس، أسر في إحدى الغزوات، اشتراه وهو صغير جمال الدولة أبو الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس الشام لذلك نسب إليه، وترى عنده، وترقى في عهده، وبقي يحمل اسمه، فعرف لذلك ببدر الجمالي. وبدأ حياته السياسية واليا على دمشق في سنة 455هـ، كاتبه المستنصر سرا يدعوه للقدوم إلى مصر، لإصلاح حال البلاد وإنقاذها من الأزمات المتتالية، وكان في ذلك الوقت يتولى مدينة عكا، فنزل سنة 466هـ/1074م، بدمياط في مائة مركب مشحونة بالأرمن. ولما دخل بدر الجمالي على المستنصر قرأ قارئ {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ} (آل عمران : 123) ولم يتم الآية، فقال المستنصر : لو أتمها ضربت عنقه. وقد أكرم المستنصر وفادة بدر، وأطلق يده في إصلاح حال البلاد، وولاه وزارة التفويض وإمارة الجيوش، (وزير السيف والقلم)، فقضى بدر على رؤوس الفتنة في مصر، وقتل رجال الدولة، وأقام لنفسه جندا وعسكرا من الأرمن، يقول المقرئ : "فصار من حينئذ معظم الجيش الأرمن وذهبت كتامة وصاروا من جملة الرعية بعدما كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها". (أنظر : ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681هـ)) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه د. إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1969، ج 2، ص 448-449؛ ابن الصيرفي (أمين الدين تاج الرئاسة أبي القاسم علي بن منجب بن سليمان) : الإشارة إلى من نال الوزارة، عني بتحقيقه والتعليق عليه، عبد الله مخلص، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي الخاص بالعباديات الشرقية، القاهرة، 1923، ص 55-56؛ سيد أيمن فؤاد، مرجع سابق، ص 209-213).

مسلم، فأكرم وفادته، وبأبلغ في الإحسان إليه أكثر من الامبراطور البيزنطي،¹ وأنزله في كنيسة مار مريم للنصارى الملكانيين بأرض الزهري،² ووفد عليه عدد كبير من الأرمن المقيمين في مصر لزيارته.³

وإذا كانت دوافع زيارته للقسطنطينية ثم روما واضحة ومنطقية، لأنه ذهب يلتمس المساعدة من إخوانه المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك، فما الهدف من وراء زيارته للقاهرة ؟ وماذا سيطلب من الفاطميين ؟ وهل هناك مصالح مشتركة بينه وبين بدر الجمالي ؟

الواقع أن زيارته لمصر لم تكن زيارة مجاملة أو زيارة دينية، بل زيارة سياسية دبلوماسية بالدرجة الأولى، لأن الجثليق كان يعي بأن مقاليد الحكم هناك هي بين أيدي بدر الجمالي الأرميني . فهو أول وزير عسكري للدولة الفاطمية، وقد نجح في إنقاذها -من خلال الهيمنة عليها- من الموت المبكر، بنفس الطريقة التي أنقذ بها طغرل بك الخلافة العباسية. فأوقف التقدم السلجوقي غربا في اتجاه مصر، وعزز السيطرة الفاطمية على ساحل الشام، وأعاد بناء جيش الدولة وجهازها الإداري المتهالك.⁴ كما نجح في إصلاح الأوضاع الداخلية، والقضاء على رجال الفساد، وإعادة الاستقرار للبلاد، "وعلى يده صلحت ديار مصر وعمرت بعد تحكم الفساد بها وخرابها"،⁵ فكسب بذلك ثقة المستنصر، الذي منحه صلاحيات واسعة وفوض إليه شؤون البلاد والعباد، "وألقى إليه مقاليد مملكته، وسلم إليه أمور خلافته"،⁶ فأصبح بدر الجمالي مطلق اليدين في مصر.

وكان الجثليق الأرميني، يدرك بأن الأرمن، يشكلون قوة عسكرية متميزة في مصر، وقد قدم بعضهم مع بدر الجمالي من عكا؛ لأنه اشترط على المستنصر لما كاتبه، أن يُحضّر معه عساكره

¹ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 177.

² سيد أمين فؤاد، مرجع سابق، ص 672.

³ Matthieu d'Edesse : loc. cit.

⁴ الشنقيطي محمد بن المختار : مرجع سابق، ص 113.

⁵ المقرئ (تقي الدين ت 1441/845) : كتاب المقفى الكبير، تحقيق محمد يعلاوي، دار الغرب الاسلامي، 1991. ج

2، ص 401.

⁶ المقرئ : اتعاظ الحنفا : ج 2، ص 329.

وجنوده، وألا يبقى على أحد من جيش مصر، فوافقه على ذلك.¹ ومنذ أن استلم مهامه وهو يعمل على تعزيز قوته العسكرية بالأرمن الوافدين عليه، وظلوا يتزايدون، حتى أصبحوا يشكلون عصبه جيشه. "وقدمت إليه عدة من طوائف الأرمن تقوى بهم".² والمؤكد أن هذه الطوائف التحقت بمصر، بسبب الحروب بين البيزنطيين والسلاجقة الذين سيطروا على أرمينيا الكبرى، وبعض الأجزاء من قيليقيا وشمال سوريا، إلى أن بلغ عددهم ما بين ثلاثين ألف، وخمسة وثلاثين ألف أرمني.³ وكان بدر الجمالي متسامحا مع بني جنسه ومع أهل الذمة بصفة عامة، ولم يفرض عليهم اعتناق الاسلام، بل أقطعهم أرضا وسمح لهم ببناء "كنيسة كبيرة متسعة بعدة قباب"،⁴ ووضع الجثليق في خدمتهم. ونظرا للصلاحيات التي منحت له، وعدد الأرمن المتزايد في مصر، فقد علق المقريري على تلك الفترة متحدثا عن الوزير بدر قائلا : "وأقام دولة الأرمن بديار مصر"،⁵ وبناء على ذلك فإن زيارة الجثليق الأرمني لمصر كانت بمثابة زيارة دولة أرمنية في المنفى، وأن آل بهلويوني أصبحوا ملوكا بدون مملكة،⁶ مع ما في ذلك من مبالغة.

والحقيقة أن جريجور الثاني فيكاياسر، وجد نفسه في أرمينيا، وفي قيليقيا فاقدا لأي دعم سياسي، بعد اغتيال جاجيك الثاني آخر ملوك مملكة آني سنة 465هـ/1073م، ورأى بأم عينيه زوال المملكة الوطنية للأرمن. ثم تعرض لضغط من فيلاريت الذي كان يعمل على تأسيس سلطة سياسية أرمنية، ذات اتجاه خلقدوني، مخالفا بذلك قواعد ومبادئ الكنيسة القومية الأرمنية. ولذلك

¹ المقريري : اتعاظ الحنفا : ج 2، ص 311.

² المقريري : كتاب المقفى، ج 2، ص 398.

³ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 177.

⁴ أبو صالح الأرمني : تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني : تذكر فيه أخبار من نواحي مصر وإقطاعها، المطبعة المدرسية، أوكسفورد، 1895. ص 61.

⁵ المقريري : كتاب المقفى، ج 2، ص 402.

⁶ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. I, pp. 266.

فإن جريجور، كان يريد تأسيس مأوى وطني أرمني في مصر، بدعم من بدر الجمالي الذي كان يرى في توافد الأرمن عليه، صمام أمان لاستمرار نفوذه.¹

ويبدو أن زيارة جريجور الثاني للقاهرة هي تكملة لمهمته التي بدأها في القسطنطينية وتلاها بروما، ومن غير المستبعد أن يكون مكلفا من طرف ميخائيل السابع، بمهمة دبلوماسية في مصر، نظرا لتحسن العلاقات بين الدولة البيزنطية والدولة الفاطمية، في بداية عهد المستنصر الذي عمل على تحسين علاقته مع البيزنطيين، حتى يضمن تموين القمح الذي يصله من القسطنطينية. كما كان في حاجة إلى أن يأمن جانبهم حتى يتفرغ لمواجهة العباسيين والسلاجقة.² "فتجددت الهدنة بين صاحب مصر وبين الروم وحمل كل واحد منهما لصاحبه هدية عظيمة"،³ وكان ذلك سنة 439هـ/1047م، واستمرت الهدنة بينهما ثلاثين سنة.⁴

ومن المحتمل أنه جاء إلى القاهرة يخطب ود الفاطميين، ويلتمس منهم مساعدة البيزنطيين في حربهم ضد السلاجقة الذين أخذوا في التقدم السريع من الشرق. فأنقذوا الخلافة العباسية من أيدي الشيعة، ثم قضوا على نفوذ الفاطميين في الشام، وباتوا يشكلون تهديداً متنامياً للدولة البيزنطية والدولة الفاطمية التي لم تقبل لها سيادة إلا على مصر، وجنوب فلسطين والحجاز واليمن،⁵ مما أدى إلى استحكام العداوة بين الفاطميين والسلاجقة. ولم يكن الجثليق جاهلا بالانقسام الذي ساد العالم الإسلامي في هذه الفترة، والصراع السافر بين المعسكر الشيعي في مصر، والمعسكر السني في العراق والشام. فهو قدِمَ إلى مصر ليستثمر في هذه العلاقات المتوترة بين المسلمين، ويستقطب الدولة الفاطمية، عن طريق وزيرها الأرمني ويجعلها تدور في فلك الامبراطورية البيزنطية. فهل نجح رئيس الكنيسة الأرمنية في إثارة الأرمن بمصر ضد السلاجقة ؟

¹ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. I, pp. 276.

² سيد أيمن فؤاد، مرجع سابق، ص 186.

³ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 46.

⁴ Dédéyan Gérard : loc. cit.

⁵ سيد أيمن فؤاد : مرجع سابق، ص 189، 196؛ Grousset René : Les Croisades, p. 30.

لاتقدم المصادر إجابات واضحة عن هذا السؤال، ولكن قراءة بعض الأحداث التي أعقبت الزيارة بقليل، تزيل بعض الغموض. يسوق ابن الأثير ضمن أحداث سنة 491هـ/1097م، رواية تفيد الشك، فبعد أن ذكر أسباب خروج الفرنج إلى بلاد الشام، قال : "وقيل إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم ودخول الأقيس إلى مصر وحصرها فخافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين والله أعلم".¹ وما يعزز هذه الرواية، أن الامبراطور ألكسيس كومنين، نصح الصليبيين الذين نزلوا بالقسطنطينية، بالسعي للاتفاق مع الفاطميين في مصر، لأنهم أشد الناس خصومة للترك. وتشير بعض المراجع الحديثة إلى سفارة أرسلها الصليبيون إلى مصر بعد انتزاعهم مدينة نيقية من قلع أرسلان سنة 490هـ/1097م.² وأثناء الحصار الذي ضربه الصليبيون على انطاكية، قدمت في أوائل 491هـ/1098م، إلى معسكرهم سفارة مصرية أرسلها كبير وزراء مصر الأفضل بن بدر الجمالي،³ وجدت ترحيباً منهم، وحملت اقتراحاً يتمثل في اقتسام أراضي الدولة السلجوقية، فيستولي الفرنج على شمال الشام، وتكون فلسطين من

¹ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 187.

² عاشور سعيد عبد الفتاح، بحوث ودراسات، ص 171؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 325.

³ الأفضل بن بدر الجمالي (1094-1121) : أرميني الأصل، اشتغل في بداية أمره نائبا عن والده، ووليا لعهد سنة 477هـ/1084م، ولما مرض والده وأصبح غير قادر على مباشرة مهامه، تقلد أمور مصر وشارك والده أعباء الوزارة، وبعد وفاة بدر الجمالي سنة 487هـ/1094م، اتخذ المستنصر حاكم مصر وزيرا له. وبعد وفاة المستنصر سنة 487هـ/1094م، حال الأفضل دون تولية نزار أكبر أبناء المستنصر وولي عهده للعرش، وباع أخاه الصغير أبا القاسم الذي لقب بالمستعلي، ولما توفي هو الآخر سنة 495هـ/1101م، أحضر الأفضل ابنه أبا علي المنصور وباعه أقامه مكان أبيه ولقبه بـ "الأمير بأحكام الله" وهو لم يتجاوز الخمس سنوات، فحجر عليه الأفضل، وصار بذلك مطلق التصرف في تدبير أمور الدولة التي حكمها بديكتاتورية، وتصرف فيها كالمملوك والسلطين. فنقل مقر الحكم إلى "دار الملك" التي بناها جنوب القسطنطينية، ووجد الحاكم من كل سلطاته، وحرّم عليه الركوب في المواسم والأعياد، وأكثر من استخدام الموظفين النصاري، وأحاط نفسه بجنود من الأرمن، وشجع على هجرتهم إلى مصر، وأذن لهم في إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها. وكان غير مبال بسقوط مدن الشام في أيدي الصليبيين. توفي مقتولا على يد الاسماعيلية النزارية، ليلة عيد الفطر سنة 515هـ/1122م، ويقال أن الأمر حاكم مصر دبر عملية قتله، ولذلك سُر الأمر بمقتله سرورا غير مستور عن كافة الخاصة والكافة بمصر والقاهرة. (انظر : ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 203-204؛ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 173، 303؛ ابن الصيرفي : مصدر سابق، ص 57-59؛ سيد أمين فؤاد : مرجع سابق، ص 217-229؛ الموسوعة العربية الميسرة، ج 1، ص 339).

نصيب مصر، وعاد الوفد مصحوبا بسفارة فرنجية محملة بمدايا وفيرة.¹ ولم يصف مؤرخ دور الدولة الفاطمية وموقفها أثناء الحروب الصليبية، بأبلغ وأوجز مما وصفها به المؤرخ الفرنسي روني جروسيه حين قال عن الفاطميين بأنهم "بيزنطيو الاسلام" (Byzantins de l'Islam).² وسواء نجح جريجور الثاني أو لم ينجح في مهمته بمصر، فقد كان مع الصليبيين بفلسطين يوم سقوط بيت المقدس في أيديهم عام 492هـ/1099م، دون معرفة إن كان مرافقا للحملة الصليبية، أم كان مقيما هناك قبيل قدومهم إلى بلاد الشام.³

وخلاصة القول أن جريجور الثاني فيكاياسر، كان يهدف من هذه الزيارات الثلاث كسب هذه القوى، ومناصرتها للأرمن، وحشدتها ضد الأتراك السلاجقة وهم ألد أعدائهم.⁴ وإذا كانت الزيارات التي قام بها بعض رجال الدين الأرمن، ومعهم بعض أتباعهم إلى إيطاليا، وفرنسا، خلال القرنين العاشر، وبداية القرن الحادي عشر الميلاديين،⁵ قد ساهمت في التعريف بأرمينيا لدى النورمان الفرنسيين، والإيطاليين، والفرنجة، فإن الزيارة التي قام بها هذا الجثليق إلى روما، والمهمة الدبلوماسية التي أداها لدى البابا جريجوار السابع، والمراسلات التي جرت بينهما، قد أحدثت تقاربا بين الكنيسة الأرمنية والكنيسة الكاثوليكية،⁶ وتركت صداها في المؤسسة البابوية، وروجت لضرورة تقديم المساعدة العسكرية للمسيحيين الشرقيين، ومهدت الطريق أمام البابا أروبان الثاني (Urbain II)، ليرسل جحافل الصليبيين الذين أصبحوا ابتداء من سنة 491هـ/1098م، جيران الأرمن في قيليقيا.

¹ وليم الصوري ج 1، ص 317؛ عاشور سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية، ج 1، ص 162؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 324-325؛

Albert d'Aix : Histoire des faits et gestes dans les régions d'outre-mer, J.-L.-J. Brière Libraire, Paris, 1824. t. I, pp. 177-179, 185; Grousset René : Histoire des croisades, t. I, pp. 149-150.

² Grousset René : op. cit., t. I, p. 398.

³ Kapoïan-Kouymjian Angèle : op. cit., pp. 19-20.

⁴ العبد الغني عبد الرحمن محمد : الأرمن في الحرب الصليبية الأولى، ص 108.

⁵ للمزيد عن الزيارات التي قام بها رجال الدين الأرمن إلى دول أوروبا الغربية، وإقامتهم فيها، والكنائس التي شيدها، أنظر : Dédéyan Gérard : Les Arméniens en Occident, p. 123-132.

⁶ Isabelle Augé : Byzantins, Arméniens, p. 214.

3- الصليبيون في آسيا الصغرى

وصلت جحافل الصليبيين إلى القسطنطينية تباعاً، وكانت حملة العامة التي يقودها بطرس الناسك، ووالتر المفلس أول حشد صليبي يصل إلى أسوار القسطنطينية بتاريخ 9 شعبان 489هـ/1 أوت 1096م، وعندما رأى الامبراطور ألكسيس كومنين هذا الحشد المتكون من الدهماء، الذي يفتقد إلى التنظيم ويجهل معظم رجاله أبسط مبادئ القتال، أدرك -بما له من تجربة وخبرة- أن هذا الجمع الصليبي لا يثير الخوف في القلوب، وخشي أنه إذا عبر إلى آسيا الصغرى فسيكون فريسة سهلة للسلاجقة.¹ فأشار عليهم بعدم المجازفة وقال لهم : "لا تعبروا البسفور قبل وصول بقية الجيش المسيحي لأنكم لستم بالكثرة التي تمكنكم من محاربة الترك".² ونصحهم بالتجمع والانتظار عند أحد المراكز الحصينة، حتى تأتيهم الامدادات وتصل الجيوش النظامية الرئيسية، التي كانت في طريقها إلى القسطنطينية.³ ولكنهم لم يمتثلوا لهذه النصيحة، إذ انتهزوا فرصة ذهاب بطرس الناسك لمقابلة الامبراطور البيزنطي، "فتجمع منهم رهط كانوا خمسة وعشرين ألفاً من المشاة المدحجين بالسيوف، ومائتين من الفرسان المجهزين أحسن تجهيز"،⁴ وزحفوا على نيقية، فنصب لهم السلاجقة كمينا، على مقربة من موقع اسمه دراكون،⁵ "فأوقع [السلطان] بكل من ظفر به منهم حيث قتل خلقاً كثيراً"⁶ وهلك كثير من قادتهم، منهم والتر المفلس ولم ينج منهم إلا نحو ثلاثة آلاف، ولولا القوارب التي أرسلها الامبراطور لإجلائهم لأفنهم جميعاً.⁷ وأخفقت حملة العامة، في أول اصطدام

¹ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 188؛ Comnène Anne : op. cit., t. II, p. 209-210.

² مؤلف مجهول : أعمال الفرنجة، ترجمة حسن حبشي، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1958. ص 19.

³ Grousset René : Histoire des croisades, t. I, p. 79.

⁴ وليم الصوري : مصدر سابق، ص 128.

⁵ كومينا أنا : الألكسياد، في : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة الأستاذ الدكتور سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1995. ج 6، ص 15.

⁶ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 134.

⁷ مؤلف مجهول : مصدر سابق، ص 20-21؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ص 128-130؛ كومينا أنا : مصدر سابق، ص 16؛ عاشور سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية، ج 1، ص 115.

بالسلاحة،¹ ولكنها تمخضت عن نتيجتين على درجة كبيرة من الأهمية في تاريخ الحروب الصليبية. أولاهما : اقتناع الفرنجة أن الاندفاع العاطفي والنوعيات غير المدربة عسكرياً لا تجدي مع الفروسية السلجوقية،² وثانيهما : إدراك الناس أن الإيمان وحده لن يفتح الطريق إلى بيت المقدس، إذا تجرد من الحكمة والنظام.³

وابتداء من أواخر سنة 489هـ/1096م، أخذت جيوش الأمراء تتدفق على أطراف القسطنطينية برا وبحرا، في تواريخ متتابة،⁴ ووفرت لهم الامبراطورية البيزنطية كل ما يحتاجونه من مؤن ومساعدات، وكان الامبراطور ألكسيس كومنين حريصاً على استقبال كل قائد تطأ قدماه أرض

¹ ألبرت فون آخن : تاريخ الحملة الصليبية الأولى ومملكة بيت المقدس (1095-1120م)، ترجمة محمد حمدان أحمد، دار الاعصار العلمي للنشر والتوزيع، دمشق، 2016. ص 58.

² عوض محمد مؤنس : تاريخ الصليبيات، ص 84.

³ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 194.

⁴ انقسمت الحملة الصليبية الأولى إلى قسمين، القسم الأول يعرف بحملة العامة التي قادها والتر المفلس، وبطرس الناسك، والقسم الثاني يعرف بحملة الأمراء، وهي تنقسم إلى أربع مجموعات اعتمد تنظيمها على التقسيمات الجغرافية، والعرقية، واللغوية للعناصر المشاركة فيها، وكان على رأس كل مجموعة أمير يتولى قيادتها من يوم انطلاقها إلى غاية وصولها. ترأس جودفري البويوني (Godfroy de Bouillon)، المجموعة الأولى ومعه أخوه بلدوين البولوني (Baudouin de Boulogne)، وقد قادا جيش الفلاندر، واللورين، وشمال غربي فرنسا، وكان معظم المشتركين في هذه المجموعة من القطاع اللاتيني في الامبراطورية الرومانية المقدسة، ولم يكن من القطاع الألماني سوى القليل، مما جعل الطابع العام لحملة جودفري فرنجياً، أي فرنسياً، وقد وصلت هذه المجموعة إلى ضواحي القسطنطينية في منتصف شهر ديسمبر 1096. وكان يقود المجموعة الثانية بوهيموند النورماني (Bohémond de Tarente)، وهو أكبر أبناء روبرت جويسكار (Robert Guiscard)، الزعيم النورماني الشهير، وقد قام بقيادة النورمان الإيطاليين، وشاركه في قيادة المجموعة ابن أخته تانكر (Tancred)، وكان وصولها إلى القسطنطينية في شهر افريل 1097. والمجموعة الثالثة كان بقيادة ريموند كونت تولوز (Raymond de Saint-Gilles comte de Toulouse)، ومعه المندوب البابوي أدهيمار (Adhémar)، وقد قادا جيوش جنوب فرنسا والبروفنس، ووصلت إلى القسطنطينية في شهر افريل 1097. أما المجموعة الرابعة فكان على رأسها روبرت النورماندي (Robert Courteuse duc de Normandie)، وهو ابن ويليام الفاتح، وأخ ملك إنجلترا، وكان يقود جيش نرمنديا، ووسط فرنسا، وكان وصول هذه المجموعة إلى القسطنطينية في شهر ماي 1097. وفضلاً عن هؤلاء القادة، فقد كان مع كل أمير عدد آخر من الأمراء. (انظر : وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 109-110؛ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية ج1، ص 119-130؛ عوض محمد مؤنس : تاريخ الصليبيات، ص 84-85؛ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 207-242؛

Grousset René : Histoire des croisades, t. I, pp. 82-97; Moure Michel : op. cit., p. 1491).

القسطنطينية، ولم يجد صعوبة في التعرف على نفسيات هؤلاء الغربيين،¹ لأنه لم يكن بالسذاجة السياسية التي تجعله يجهل النوايا السياسية لقادة الحملة الصليبية. فهو يدرك أن هدفهم الحقيقي هو إقامة إمارات فرنجية في الشرق،² رغم أنهم قدموا تحت غطاء ديني، استجابة لدعوة البابا أوربان الثاني، لمساعدة المسيحيين الشرقيين، وانتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين. والحقيقة أن الامبراطور ألكسيس كومنين لم يكن راغبا في حملة صليبية بقدر ما كان في حاجة إلى مساعدة عسكرية لإنقاذ الدولة البيزنطية من أعدائها في الشرق، غير أنه فوجئ بمجموع من الغوغاء، أعقبتها جيوش صليبية منظمة، على رأسها أمراء يدينون بالولاء لسادتهم في غرب أوربا. الأمر الذي أثار مخاوفه وأزعجه.³ وبما أن الأراضي التي سينتزعها الصليبيون من المسلمين، كانت إلى عهد قريب جزءا من الامبراطورية البيزنطية، فقد أصر الامبراطور على أن يُقسّم له جميع القادة الغربيين -المارين بأراضيه إلى آسيا الصغرى- يمين الولاء والطاعة، وعليهم أن يعتبروا أنفسهم أتباعا للإمبراطورية البيزنطية، وأن يعيدوا كافة المدن البيزنطية المتوقع الاستيلاء عليها في آسيا الصغرى.⁴ وفي المقابل يقدم لهم الامبراطور كل ما يحتاجونه من عتاد وإمدادات أثناء رحلتهم. وليس من اليسير إقناع قادة الإفرنج بذلك، فاستخدم ألكسيس كومنين في سبيل ذلك كافة الوسائل الممكنة من أساليب الترغيب والترهيب، حتى حصل على مراده، وأقسم له جميع القادة يمين الولاء،⁵ باستثناء ريموند الذي اتفق معه سرا،⁶ وتانكرد أخو

¹ طقوش : مرجع سابق : ص 82.

² رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 210.

³ ابراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 93.

⁴ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 68.

⁵ كومينا أنا : مصدر سابق، ص 28-29؛ ابراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 93-94؛ عمران محمود سعيد : السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، ص 67-68.

⁶ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 244. رفض ريموند بشدة تلبية رغبة الامبراطور في أن يقسم بالولاء له، وكان يطمح في أن يكون على رأس الصليبيين جميعا في الشرق، بحكم مرافقة المندوب البابوي لحملته، وأن الزعامة التي حصلت على تأييد البابوية لا يمكن أن تتفق ويمين الولاء للإمبراطور البيزنطي، فالأول راعي الكنيسة الكاثوليكية، والثاني راعي الكنيسة الأرثوذكسية. وقال أنه لم يحمل الصليب ليخضع لسيد غير السيد المسيح، ولم يغادر بلاده ليحارب من أجل سيد غير السيد المسيح. (انظر : عاشور سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية، ج 1، ص 128-130؛

بوهيموند، وعدد آخر من الأمراء الذين تجنبوا المرور بالقسطنطينية.¹ وهكذا فقد استطاع ألكسيس ببرايعته وحنكته أن يوجه الحملة لتحقيق أهدافه المتمثلة في استعادة أراضي الامبراطورية البيزنطية، في آسيا الصغرى، والتزم من جهته بتوفير فرقة عسكرية بقيادة تاتيكوس (Tatikos)، فضلا عن المرشدين والكشافين وآلات الحصار، شرط أن يستمر قادة الحملة في المحافظة على الولاء، وتسليم ما يفتحونه من مدن في آسيا الصغرى إلى ممثل الإمبراطور.² ولكن إلى أي مدى سيلتزم قادة الحملة الصليبية بالعهد التي قطعوها على أنفسهم للإمبراطور ألكسيس؟ خاصة وأن كثيرا من المدن والقلاع قد استولى عليها أمراء أرمن؟ وكيف سيتعامل أمراء وحكام قيليقيا مع قادة الحملة الصليبية؟

أ- نيقية أول امتحان للصليبيين

بعد أن خرج الصليبيون من القسطنطينية يلتمسون طريق القدس، كان لابد لهم من انتزاع مدينة نيقية من أيدي سلاجقة الروم، الذين اتخذوها عاصمة لسلطنتهم، فهي من أقوى المدن وأكثرها حصانة، مع أسوار عالية، وبحيرة حامية (بحر مرمرة) موجودة على طرفها، لذلك بدت وكأنها لا ترام.³ وهي تحتل موقعا استراتيجيا في الطريق الحربي الذي يجتازه الفرنجة إلى الشام. وبقاؤها بين أيدي الأتراك السلاجقة، سيشكل شوكة في ظهر الصليبيين، وسيكون مصدر تهديد لطرقهم ومواصلاتهم وإمداداتهم الحربية. فتوحدت أهدافهم وأهداف البيزنطيين في هذه القضية، وكان الامبراطور البيزنطي يريد كسر شوكة سلاجقة الروم بانتزاع عاصمتهم نيقية.⁴

¹ عمران محمود سعيد : السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية، ص 68؛ عوض محمد أنس : تاريخ الصليبيات، ص 88.

² فوشيه الشارترى : الاستيطان الصليبي في فلسطين، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس (1095-1127)، ترجمة قاسم عبده قاسم، دار الشروق، 2001. ص 97؛ ابراهيم نعيمة محمد : مرجع سابق، ص 96.

³ فيتالي أورديك : التاريخ الكنسي، ترجمة سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، 2008. ص 38.

⁴ طقوش : مرجع سابق : ص 83؛ عمران محمود سعيد : السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية، ص 49.

واستغل الصليبيون غياب السلطان قلع أرسلان عن عاصمته،¹ الذي خرج مع جزء كبير من جيشه، لانتزاع ملطية من بني الدانشمند² الذين كانوا ينازعونه السيادة على هذه المدينة،³ والواقع أن قلع أرسلان قد شغله ذلك النزاع على الاهتمام جددا بأمر الصليبيين، واستهان بهم، ولم يقدر جيدا الخطر الذي يتهدهده، لذلك ترك زوجته وأطفاله وأمواله، داخل أسوار نيقية، كما ترك فيها حامية مرابطة لتتولى أمر الدفاع عنها، معتقدا أن الاستحكامات المنيعة للمدينة، وأسوارها العالية، وأبراجها الكثيرة البالغ عددها مائتي وأربعين برجاً،⁴ كفيلة بصد الأعداء عنها. وربما كان يظن أن الانتصار الذي حققه بسهولة على حملة العامة، سيجعل الصليبيين لا يتوغلون حتى نيقية.

وبمجرد أن انتهت إلى قلع أرسلان أخبار الحشود الصليبية التي كانت في طريقها إلى نيقية، فك الحصار عن ملطية،⁵ وقرر العودة إلى عاصمته، ولكن الصليبيين كانوا قد سبقوه إليها، فمنذ 22 جمادى الأولى 490هـ/6 ماي 1097م، وهم يحيطون رحالهم حول أسوارها. فضرب جودفري معسكره خارج السور الشمالي للمدينة، بينما عسكر تانكرد قرب السور الشرقي، أما ريموند فوزع جنوده أمام السور الجنوبي.⁶ ولما قدم السلطان بجيشه، وجدهم قد أحاطوا بها إحاطة السوار

¹ المحميد علي بن صالح : الدانشمنديون وجهادهم في الأناضول، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1994. ص 168.

² إمارة بني دانشمند : دانشمند كلمة فارسية معناها عالم، وقد أطلقت على مؤسس هذه الإمارة؛ لأنه كان معلماً لأبناء التركمان، وهو كمشتكين أحمد دانشمند، من قادة الفتح التركي في الأناضول، في عهد ألب أرسلان، واشترك معه في معركة منازكرد، ونظراً لبلائه أقطعته مدن توقات وسيواس والبستان وملطية ونيكسار، يحكمها تحت إشراف السلاجقة العظام. وفي الوقت الذي ابتعد فيه السلاجقة العظام عن المسرح السياسي في آسيا الصغرى، استقل أحمد دانشمند بالمناطق الواقعة تحت إدارته، وأسس الإمارة الدانشمندية (477-573هـ/1084-1177م)، واتخذ من سيواس عاصمة له، وامتدت هذه الإمارة من أقصى الشمال قرب البحر الأسود وحتى مدينة ملطية في أقصى الجنوب. ودخل بنو دانشمند في صراع مع البيزنطيين الذين أرادوا استعادة بعض المدن التي خسروها أمام الأتراك، ثم تعرضت مناطق نفوذهم في الأناضول إلى اجتياح الصليبيين لها بعد 490هـ/1097م. (انظر : المحميد علي بن صالح : مرجع سابق، ص 16-35؛ طقوش : مرجع سابق، ص 58؛ أوزطونا يلماز : مرجع سابق، ص 353-354).

³ بإذباب نوره عبد الله، مرجع سابق، ص 30؛ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 250.

⁴ ألبرت فون آخن : مصدر سابق، ص 74.

⁵ طقوش : مرجع سابق : ص 83.

⁶ حول تفاصيل مواقع قوات الصليبيين في حصارهم لمدينة نيقية، (أنظر : Albert d'Aix : op. cit., t. I, pp. 71-74).

بالمعصم،¹ فهاجمهم من جهة الجنوب، محاولا فتح طريق لينفذ من خلاله إلى داخل المدينة، ولما فشل في ذلك، أدرك أن الجيش الصليبي أكثر عددا وقوة مما كان يعتقد، فقرر الانسحاب، ورأى أنه من السياسة الحربية السليمة أن يترد إلى الجبال، ويترك المدينة لتواجه مصيرها.²

ويبدو أن الامبراطور الذي كان مرابطا في بليكانوم،³ لم يكن يرغب في أن يتعرض سكان نيقية الذين كان معظمهم من المسيحيين إلى أخطار النهب، ولم يكن يريد استلام مدينة خربة، ولذلك خطط للاستيلاء عليها بنفسه.⁴ فأصدر أوامره إلى القائد البيزنطي بوتوميتس بمباشرة المفاوضات مع حامية المدينة. وكان قادة الصليبيين على اطلاع بهذه الاتصالات السرية، ولكنهم لم يكونوا على علم بتفاصيلها، ولذلك أعدوا العدة للقيام بهجوم شامل، غير أنهم فوجئوا ذات صباح برايات الامبراطور ترفرف فوق أسوار المدينة وأبراجها، ذلك أن الترك استسلموا أثناء الليل. ودخلت القوات الامبراطورية إلى نيقية عبر الأبواب التي تطل على شاطئ البحيرة، وخرج منها الأتراك تحت حراسة الجنود البيزنطيين ولم يجرؤ الصليبيون أن يمسه بالأذى.⁵ ثم "اشترى ملك الروم من السبي خلقا كثيرا وحملهم إلى القسطنطينية"،⁶ فضلا عما حُمِل إليه من ذهب وفضة وشتى أنواع المتاع،⁷ وقد أغدق الامبراطور البيزنطي على القادة الصليبيين بالهدايا، وغمرهم بمقادير كبيرة من الذهب والجواهر، طمعا منه في كسب ودهم، وأصدر أوامره بأن يصرف لكل محارب صليبي منحة من المؤونة.⁸ وبعد عودته إلى القسطنطينية، أحسن معاملة الأسرى الأتراك، وسمح لجميع موظفي القصر السلطاني والقادة بافتداء

¹ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 70.

² رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 254.

³ كومينا أتا : مصدر سابق، ج 6، ص 34.

⁴ المصدر السابق، ص 35، 41.

⁵ وليم الصوري : مصدر سابق، ص 219؛ باذياب نوره عبد الله، مرجع سابق، ص 31.

⁶ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 134.

⁷ وليم الصوري : مصدر سابق، ص 219.

⁸ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 100؛ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 256-257.

أنفسهم، وكان من بينهم أخت السلطان وزوجته وأولاده، فأعادهم الامبراطور إلى الزعيم السلجوقي دون فدية،¹ وقد استغرب الصليبيون هذا الموقف، واعتبروه قلة إخلاص ومعاكسة لهم.²

ويبدو أن ألكسيس كومنين بموقفه هذا من الصليبيين ومن الأسرى، كان يخشى إن دخل الصليبيون عنوة إلى المدينة، فسيرفضون تسليمها له، أو سيستلمها وهي خاوية على عروشها. لذلك بادر إلى إرسال بوتوميتس وهو أحد قادته للتفاوض مع الأتراك، وأقنعهم بضرورة استسلام الحامية مقابل ضمان سلامتهم، وحذرهم في الوقت نفسه، من سوء العاقبة، إذا اقتحم الصليبيون المدينة ووقعت بين أيديهم.³ كما يريد الامبراطور البيزنطي من معاملته اللينة للسلاجقة، أن يكتسب مودة الأتراك، ويثبت لهم أنه لا داعي للخوف من المستقبل،⁴ "إن هم استسلموا له على هذه الصورة التي استسلمت له بها مدينة نيقية".⁵

ومهما يكن من أمر، فقد فَقَدَ السلاجقة عاصمتهم نيقية، في 07 رجب 490هـ/19 جوان 1097م، بعد ستة عشر عاما من فتحهم لها، وهم الذين كانوا على مرمى حجر من القسطنطينية التي كانت على وشك السقوط بين أيديهم منذ سنة 474هـ/1081م، فوجدوا أنفسهم يتراجعون أمام تقدم الصليبيين إلى داخل آسيا الصغرى، وأهم نتيجة - في نظر بعض المؤرخين الغربيين - ترتبت عن إخراج السلاجقة من نيقية، هي إنقاذ أوروبا التي هي أهم من استرجاع القدس.⁶

وتعتبر عملية استعادة هذه المدينة من طرف البيزنطيين، أول اختبار عملي يبين وفاء الصليبيين بالقسم الذي أدوه أمام ألكسيس كومنين وقد وُفِّيَ هو أيضا بتقديم المساعدات التي وعد بها. كما

¹ وليم الصوري : مصدر سابق، ص 221.

² مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 37.

³ وليم الصوري : مصدر سابق، ص 217-218؛ مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 37؛ طقوش : مرجع سابق، ص 85.

⁴ الربيعي عبد الله بن عبد الرحمن : مرجع سابق، ص 455.

⁵ وليم الصوري : مصدر سابق، ص 221.

⁶ Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 106.

أثبتت نجاح الصليبيين في تخطي أول حاجز لهم في الطريق إلى بيت المقدس، وزادتهم حماساً لمواصلة جهودهم الحربية ضد المسلمين، وأملوا في المستقبل، فاشتد حرصهم على الرحيل نحو فلسطين.

لم ييأس السلطان قلعج أرسلان لما أصابه في نيقية، ورغم الأثر السيئ الذي تركه ضياع أمواله وكنوزه على سلطنته،¹ فقد صمم على إعادة الكرة مرة أخرى، فاتخذ من مدينة قونية عاصمة جديدة له،² ثم اتجه إلى الشرق لتحديد الحرب مع الدانشمنديين، والتعاون معهم بتكوين جبهة تركية إسلامية لمواجهة الخطر الصليبي، ومنعه من التغلغل داخل الأناضول،³ فأمدوه بجيش كبير، ثم بعث عيونهم وجواسيسه لتتبع خط سير الفرنج، وعلم أنهم سيمرون بوادي دوريليوم (Dorylée)،⁴ فنصب لهم كميناً هناك.⁵ وفي يوم 18 رجب 490هـ/30 جوان 1097م، فوجئ بوهيموند الذي كان يقود القسم الأول من الجيش بمهاجمة السلاجقة له وتطويقهم للجيش الصليبي،⁶ ورجحت كفة الأتراك في بداية المعركة، ولكنهم ارتبكوا لما رأوا القسم الثاني من الجيش الصليبي الذي يقوده ريموند يتقدم نحو ميدان المعركة، فانهارت معنويات السلاجقة، وتحطمت خطوطهم، وحلت بهم الهزيمة، ثم لاذوا بالفرار إلى داخل هضبة الأناضول، وتذكر الصليبيون نصيحة الامبراطور لهم في القسطنطينية، فلم يقوموا بمطاردة الأتراك المسلمين.⁷

¹ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 262.

² باذياب نوره عبد الله، مرجع سابق، ص 31.

³ المحميد علي بن صالح : مرجع سابق، ص 169-170.

⁴ دوريليوم (Dorylæum) أو (Dorylée) : هي حالياً مدينة إسكي شهر (Eskişehir) الواقعة في الشمال الغربي لتركيا، وهي مدينة قديمة كانت تقع على الطريق الرابط بين نيقية وعمورية، وازدهرت كثيراً في العهد البيزنطي، لأن الأباطرة اتخذوها مركزاً لراحتهم، فشيّدوا فيها الحمامات والقصور، ولكنها تعرضت للخراب بسبب الحروب، ولما فتحها السلاجقة غيروا اسمها إلى إسكي شهر ومعناها المدينة القديمة، لأنهم عثروا فيها على آثار قديمة. وتعتبر إسكي شهر مدينة متطورة، ومركزاً صناعياً وقطباً سياحياً. (انظر : الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ج 1، ص 291؛ Texier Charles : op. cit., pp. 408-409).

⁵ محمد عمر يحيى : مرجع سابق، ص 79.

⁶ ألبرت فون آخن : مصدر سابق، ص 82.

⁷ كومينا أنا : مصدر سابق، ج 6، ص 45-46؛ مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 40-41.

تكبد السلاجقة خسارة فادحة في معركة دورليوم، التي وضعت حداً لأحلامهم التوسعية، وتلقوا ضربة قاصمة، وأصبحوا مضطرين للقيام بالحرب الدفاعية لمدة ليست بقصيرة، وكتبت أنا كومينا قائلة: "وبلاحظ بالنسبة للمستقبل أنه لم يعد لديهم المقدرة حتى على النظر إلى وجوه اللاتين"،¹ ولم يعد قلع أرسلان يجرؤ بعد ذلك على مواجهة الصليبيين منفرداً وجهاً لوجه،² وكتب صاحب كتاب أعمال الفرنجة متحدثاً عن السلاجقة، ومعتداً بالفرنجة: "لقد كانوا يظنون أنهم يخيفون أمة الفرنجة بتهديدهم إياهم بنبأهم كما أخافوا العرب والشرقيين والأرمن والسرمان والإغريق".³ وها هو المؤرخ الفرنسي جروسي يكتب عن هذه الحقيقة التاريخية، ويقول مفتخراً ومعتزاً بالفرنجة، "لطالما وقفت جيوش الامبراطورية البيزنطية عاجزة أمام قوة الأتراك السلاجقة، وها هي الآن قوة جديدة برزت على مسرح الأحداث في الشرق الأدنى، هي قوة الصليبيين الغربيين الذين أثبتوا تفوقهم العسكري على السلاجقة، وفي هذا الصدد فإن معركة دورليوم محت وأزالت معركة منازكرد".⁴ كما شرعت بيزنطة من جهتها في استعادة المدن والأراضي التي فقدتها، وبذلك تكون الامبراطورية البيزنطية قد تأثرت لنفسها مما حل بها على أيدي السلاجقة في معركة منازكرد، منذ ما يزيد عن عشرين عاماً.⁵ والحقيقة التي تغاضى عنها جروسي، أنه إذا كانت الامبراطورية البيزنطية قد نجحت في استغلال الصليبيين لضرب الأتراك، واستعادة بعض أراضيها، فإنها لم تقم إلا بتأجيل سقوط مدينة القسطنطينية في يد الأتراك مدة ثلاثة قرون ونصف.

فتحت معركة دورليوم أبواب آسيا الصغرى أمام الصليبيين، ورفعت معنوياتهم، فاستأنفوا سيرهم، صوب الجنوب الشرقي عبر هضبة الأناضول، باتجاه أنطاكية،⁶ وبدأوا يتوغلون في إقليم

¹ كومينا أنّا : مصدر سابق، ج 6، ص 46.

² عمران محمود سعيد : السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، ص 50؛ طقوش : مرجع سابق، ص 88.

³ مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 41.

⁴ Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 106.

⁵ Grousset René : l'Empire du Levant, p. 193.

⁶ كومينا أنّا : مصدر سابق، ج 6، ص 45؛ رنسيان ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 267؛ الرويضي محمود : مرجع سابق، ص 181.

قيليقيا تدريجيا من جهة الشمال، وعلى حد تعبير ابن الأثير، فبعد أن هزم الصليبيون قلج أرسلان "واجتازوا في بلاده إلى بلاد ابن الأرمني"¹ وجدوا مجموعة من الإمارات الأرمنية المسيحية الصغيرة التي تشكلت في المدن والقلاع التي انتزعها الأرمن من البيزنطيين بعد معركة منازكرد، مع وجود حاميات سلجوقية في المدن الكبرى منذ أيام سليمان بن قتلمش.² وهذا الوجود الأرمني في المنطقة، سيستفيد منه الصليبيون كثيرا في حربهم ضد المسلمين، ولم يكونوا في حاجة ماسة إلى قوات عسكرية إضافية، فإن عددهم الضخم،³ كان يكفي لتحقيق انتصارات ساحقة على المسلمين، ولكنهم كانوا في حاجة إلى أدلاء ومرشدين وطلّاع استكشافية مخلصّة، وإلى تموين ودعم لوجستيكي محلي.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا، ماهي أسباب تفوق الصليبيين على السلاجقة بهذه السهولة التي لم تكن متوقعة؟ وما الذي حل بهم بين معركتي منازكرد ودوريليوم؟

الواقع أن هزيمة السلاجقة أمام الصليبيين، تعكس جهل المسلمين في المشرق الاسلامي يومذاك جهلا تاما بحقيقة ودوافع الحركة الصليبية، وبالأوضاع الدينية والسياسية في أوروبا الغربية. فلم يكونوا في الشام ومصر والعراق يعرفون شيئا يذكر عن التحولات الدينية والسياسية والعسكرية في غرب أوروبا وشمالها آنذاك، مقارنة بما يعرفونه عن جيرانهم من البيزنطيين والسريان والأرمن الذين ارتبطوا بعلاقات سلم وحرب معهم على مدى قرون. وظنوا ان الجيوش الصليبية التي قدمت من أعماق أوروبا لانتزاع بيت المقدس منهم، مجرد مرتزقة أوريين أرسلهم الإمبراطور البيزنطي لاسترداد شرق الأناضول، والتحرش بالقوى الاسلامية في شمال الشام، ولم يفهموا أنها قوى غربية كاثوليكية مستقلة عن

¹ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 186.

² طقوش : مرجع سابق، ص 90.

³ وردت أرقام متضاربة، ومبالغ فيها حول العدد الحقيقي الذي بلغه جيش الصليبيين، فقد قدره فوشيه الشارترى، ووليم الصوري بستمائة ألف شخص بين مقاتل ومرافق، من بينهم مائة ألف فارس، وقدر متى الرهاوي بخمسمائة ألف رجل، وذكر ابن العديم أن عددهم بلغ ثلاثمائة وعشرين ألف إنسان، والعظيمي قدرهم بثلاثمائة ألف. والراجح عند بعض المؤرخين، والذي يبدو أنه أقرب إلى الحقيقة، أن عدد المحاربين الصليبيين كان يتراوح بين ستين ألف ومائة ألف شخص، يضاف إليه عدد كبير من الزوجات، والأطفال، والخدم والوصيفات ... (انظر : ابن العديم : زبدة الحلب، ص 237؛ العظيمي : مصدر سابق، ص 358؛ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 98؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 192؛ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 73؛ رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 243، 481-489).

البيزنطيين دينيا وسياسيا، ومشحونة بالدوافع الدينية والحماس العسكري.¹ وحتى ابن خلدون الذي كتب بعد ثلاثة قرون من الأحداث، اعتقد أن إمبراطور القسطنطينية البيزنطي إنما سمح للفرنجة بعبور أرضه، ليجعل منهم حاجزا بينه وبين القوى الإسلامية التركية الصاعدة، حيث قال : "ومروا [الفرنج] بالقسطنطينية وعبروا خليجها وحلّى صاحب القسطنطينية سبيلها [سبيلهم] ليحولوا بينه وبين صاحب الشام من السلجوقية والغز فنازلوا أولا أنطاكية".²

والحقيقة أن الأوضاع السياسية والعسكرية للسلاجقة عشية وصول الصليبيين إلى آسيا الصغرى، كانت تختلف عما كانت عليه منذ عقد ونصف، حيث فقدوا في سنة 485هـ/1092م، رجلين كان لهما دور كبير في قيام دولتهم، الأول هو السلطان ملكشاه الذي كان يعتبر نفسه سلطانا على جميع السلاجقة، وموحدا لأسرهم حيثما كانوا في الشام أو في بلاد الروم أو في العراق أو في خراسان، وله عليهم سلطة وهيبة، ولا يعصى له أمر. وبعد وفاته انفرط عقد الدولة السلجوقية، وفقدت وحدتها وقوتها، وانفرد كل أمير بإقليمه، ثم اندلعت الحروب بن ابني ملكشاه.³ ويلخص ابن الأثير هذه الحالة في قوله : "الحروب تطاولت بينهما وعم الفساد فصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة والسلطنة مطموعا فيها محكوما عليها وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين"⁴. والثاني هو نظام الملك الطوسي، الذي يعد أبرز وزير سلجوقي، لما تميز به من براعة وقدرة فائقة في إدارة شؤون الدولة.

ولا تعود أسباب انهزام السلاجقة إلى قوة الصليبيين فقط، بل تعود أيضا إلى تردي أوضاع المسلمين عموما، وانشغال السلاجقة بقتال بعضهم بعضا، والدليل على ذلك، أنه لما وصل الصليبيون إلى نيقية عاصمة قلج أرسلان، كان هذا الأخير في نزاع مع الدانشمند حاكم سيواس. ففي منازل كان يقود السلاجقة قائد واحد، ولما وصل الفرنج إلى دوريليوم "اتفق لهم اشتغال عساكر

¹ الشنقيطي محمد بن المختار : مرجع سابق، ص 189-190.

² ابن خلدون : مصدر سابق، ج 7، ص 140.

³ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 36.

⁴ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 220.

الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضا ففترقت حينئذ بالمسلمين الآراء واختلفت الأهواء وتمزقت الأموال".¹ وهذه الظروف ستكون مواتية للأرمن ليعملوا على بعث دولتهم من جديد، فاتصلوا بالصليبيين وتعلقوا بأهدابهم، طمعا في تخليصهم من الأتراك والبيزنطيين معا، فهل كان الصليبيون (محررين) للأرمن أم أذاقوهم كأس الذل والهوان ؟

ب- اتصال الصليبيين بالأرمن

لقد كان الأرمن وحدهم من بين المسيحيين المحليين الذين سبق لهم وأن تعرفوا على الفرنجة قبل الحملة الصليبية الأولى،² ولذلك يبدو أن نشاطهم زاد بشكل ملحوظ بعد الهزيمة التي مني بها السلاجقة، وظهر تعاون كبير بينهم وبين الصليبيين، وبرزت دعوات من المدن ذات الأغلبية الأرمنية تدعوهم إلى القدوم إليها.³ وتعود الاتصالات الأولى بين الأرمن والصليبيين إلى منتصف سنة 490هـ/1097م،⁴ حيث وطد بلدوين البولوني (Baudouin de Boulogne) في مدينة نيقية، أواصر الصداقة مع قائد أرمني اسمه بقراط (Bagrat)، كان في وقت سابق أميرا على قلعة الراوندان (Rawandan)،⁵ التي انتزعها منه السلاجقة، ثم التحق بخدمة الامبراطور ألكسيس كومنين، وبسبب خلاف وقع بينهما، وجد نفسه مسجوناً في القسطنطينية، ولكنه تمكن من الفرار، والتحق بالصليبيين في نيقية.⁶ ولمس بلدوين في هذا القائد الأرمني صفات المحارب المقدام والمتمرس في القتال،

¹ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 221.

² Cahen Claude : Orient et Occident, p. 72.

³ السرجاني راغب : مرجع سابق، ص 92؛ Pasdermajian H. : op. cit., p. 201.

⁴ Laurent J. : *Des Grecs aux Croisés*, p. 414.

⁵ الراوندان (Rawendan) : وردت في المصادر والمراجع الأجنبية بصيغ مختلفة، منها (Arevèntan)، و (Ravendel ou Ravenel)، قلعة صغيرة في الجبال الشمالية الشرقية لأنطاكية، بالقرب من نهر الفرات، تقع على رأس جبل عال منفرد في مكانه، لا يصل إليها منجنيق، ولا يصل إليها نبل، وهي من أقوى القلاع. (انظر : ابن شداد : مصدر سابق، ج1، ق2، ص 94؛ Dulaurier : op. cit., p. 87, note n° 1.

⁶ يشير بعض المؤرخين إلى أن بلدوين هو الذي أطلق سراح بقراط، ومن المحتمل أن يكون ذلك في نيقية، ويرجح بعض المؤرخين أن بلدوين وفر له الحماية بعد إطلاقه من السجن. (أنظر : الجنزوري عليه عبد السميع : مرجع سابق، ص 53).

إضافة إلى معرفته الجيدة لمناطق سوريا وأرمينيا والإمبراطورية البيزنطية،¹ ويبدو أن العداوة المشتركة بينهما للسلطات البيزنطية، وللأتراك معاً، قد ساعدت كثيراً على التقارب بين الرجلين. فالتحق بقراط بخدمة بلدوين، وأصبح من مستشاريه، واستغل هذه الفرصة التي سنحت له، ليلتمس منه تقديم العون العسكري للإمارات الأرمنية الواقعة قرب نهر الفرات التي سيمر بها في طريقه، ومنها إمارة شقيقه كوغي فاسيل (Kogh Vasil)، المعروف بفاسيل اللص. وكان حريصاً أكثر على أن يعيد له بلدوين قلعة الراوندان بعد أن ينتزعها من الأتراك. وبناء على هذه العلاقات المتينة مع بقراط، فقد اعتبر بلدوين نفسه أكبر صديق للأرمن، ومن الممكن أن يكون قد اتفق مع مستشاره الأرمني على إقامة إمارة أرمنية صليبية في الشرق يتولى حكمها.²

كما تتحدث بعض المصادر الأرمنية عن وجود مراسلات بين بعض الأمراء الأرمن والصليبيين، بعد انتصارهم على قلج أرسلان في نيقية، فأرسل الصليبيون رسالة إلى ثوروس الأرمني (Thoros)، حاكم الرها، وأخرى إلى قسطنطين الأول من آل روبين، الذي كان يحكم بعض الجهات من جبال طوروس،³ بينما يذكر ميخائيل السرياني أن الأرمن هم أول من بادر بمراسلة الصليبيين.⁴ وإن لم تذكر المصادر فحوى هذه المراسلات، فإنها من دون شك تعرضت إلى ضرورة التعاون بين المسيحيين الشرقيين والمسيحيين الغربيين الذين جاؤوا لتلبية لنداء إخوانهم، لأن كلا من الفرنجة والأرمن في حاجة إلى بعضهم البعض، لمحاربة الأتراك السلاجقة.

وبعد رحلة شاقة في أرض موحشة، قاحلة جرداء، وخالية من السكان، زادت حرارة الصيف من صعوبتها، وصل الصليبيون في بداية شهر رمضان 490هـ/منتصف أوت 1097م،⁵ إلى مدينة قونية التي اتخذها قلج أرسلان عاصمة جديدة لسلطنته، ولكنهم تفاجأوا بوجودها مهجورة إلا من

¹ عمران محمود سعيد : السياسة الشرقية، ص 60-61؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 124.

² رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 280؛

Dulaurier : op. cit., t. I, p. 35, note n° 2; Dédéyan : Les Arméniens entre Grecs, t. I, p. 402.

³ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 216.

⁴ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 183.

⁵ وليم الصوري : مصدر سابق، ص 229.

بعض الأرمن المقيمين بالقرب منها، إذ أحلى الأتراك مدينتهم، ولجأوا إلى الجبال بكل ما لديهم من منقولات وأمتعة، ولم ير الصليبيون ما يدل على أن السلاجقة اعتزموا الدفاع عنها.¹ ولذلك اطمأنوا إليها، واستراحوا فيها أياماً، وقد وصفها المؤرخ المجهول بأنها «منطقة خصيبة تفيض بالمأكولات والأطياب وتنزر بشتى أنواع الحياة»² وهذا يدل على أن الأتراك لم يدمروا ما في المدينة من ينابيع وبساتين، ولما أراد الصليبيون مغادرة المدينة، نصحهم الأرمن أن يحملوا معهم كميات وفيرة من الماء، لأنهم سيفتقدونه مسيرة يوم كامل.³ ومن قونية اتجه الصليبيون إلى هرقله (Héraclée)، حيث اصطدموا بالدانشمنديين. وبعد أن استراحوا فيها أربعة أيام،⁴ تناقشوا حول الطريق الذي سيسلكونه إلى أنطاكية،⁵ وكان هناك طريقان :⁶

الأول : من هرقله إلى الطوانة، ثم يخترق جبال طوروس إلى طرسوس في سهل قيليقيا ثم أذنة، ثم المصيصة، فأنطاكية، وهو طريق قصير، ولكنه شديد الانحدار والضيق، ومن السهل على الأتراك الذين يحتفظون بحاميات في بعض المدن، تنصيب الكمان بأعالي الجبال، وتوجد به جماعات أرمنية في بعض القلاع والحصون.⁷

الثاني : وهو طريق طويل يلتف حول جبال طوروس من جهة الشمال، ويبدأ من هرقله إلى قيصرية، ثم مرعش بعد اجتياز جبل اللكام، ثم ينحدر عبر درب واسع إلى سهل أنطاكية، وقد سمته أئنا كومينا "الطريق السريع".⁸ ومن مزاياه أنه يجتاز مدنا في كبادوكيا، يحكمها مسيحيون، من أمراء

¹ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 135.

² مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 44.

³ نفسه.

⁴ نفسه؛ Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 107.

⁵ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 105.

⁶ انظر الملحق الثاني عشر ص 485.

⁷ Grousset René : loc. cit.

⁸ كومينا أئنا : مصدر سابق، ج 6، ص 46.

الأرمن، ومعظمهم من الموالين للإمبراطور، وقد أوصى تاتيكيوس -القائد البيزنطي المرافق للحملة- الصليبيين باتخاذ هذا الطريق.¹

قررت الغالبية أن تسلك الطريق الثاني، وعلى رأسهم جودفري البويوني، وبوهيموند، وريموند، ومعه أدهمار، المندوب البابوي،² بينما عزم تانكرد، وبلدوين -شقيق جودفري- أن ينفصلا بمن معهما من الجند عن الجيش الرئيسي، ويجتازا الطريق الثاني المؤدي مباشرة إلى قيليقيا،³ حيث يوجد أمراء أرمن.

والسؤال المطروح هنا، لم انقسم الجيش الصليبي إلى مجموعتين، رغم أن الطريق الأول هو الأقصر؟⁴ ولعل تفسير ذلك، أن البيزنطيين لازالوا متعاونين مع أغلب قادة الصليبيين، ولا زالت الأهداف المشتركة بينهما قائمة. فهم يريدون الاستفادة من الجيش الصليبي، واستعادة المدن والمناطق التي يسيطر عليها السلاجقة في إقليمي كبادوكيا، والفرات، وإعادة تهما إلى الامبراطورية البيزنطية، كما حدث في نيقية. وهو أمر متفق عليه منذ أداء اليمين في القسطنطينية أمام الامبراطور ألكسيس كومنين، وسيستفيدون كثيرا من الأرمن الذين عمروا تلك المنطقة واستقروا فيها، وهم يشكلون عنصرا قويا ومساعدًا لإعادة احتلال المنطقة من طرف البيزنطيين.⁵

أما تانكرد وبلدوين فقد كانا متعطشين لتأسيس إمارات فرنجية أرمنية في قيليقيا، وكلاهما كان يرى أن الحملة (المقدسة) ليست إلا مطية، لتحقيق مآربهما السياسية.⁶ وكان تانكرد من أشد المعارضين لاتخاذ الطريق الثاني الدائري، لأنه لم يؤد يمين الولاء والتبعية للإمبراطور البيزنطي، كما فعل بقية القادة الصليبيين. فهو في حل من القسم، وغير ملزم بإعادة المدن والمناطق التي يستولي عليها من

¹ رنسيان ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 270؛ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 136.

² Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 107-108.

³ مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 44.

⁴ لتفاصيل أكثر تتعلق بالطريق الذي سلكه كلا الجيشين وأهم المدن والقلاع التي مروا بها، أنظر :

Dédéyan : Les Arméniens entre Grecs, t. I, p. 403-406; Mutfian : La Cilicie, t. I, pp. 293-335.

⁵ Grousset René : op. cit., t. I, p. 108.

⁶ Ibid., t. I, p. 113.

السلاجقة، إلى البيزنطيين، ومن ثمة فهو حر في تصرفاته.¹ كما أن بقرط الذي له معرفة جيدة وعميقة بالدروب يرافقهما في رحلتهم إلى قيليقيا، وفي طريقهما تقع قلعة الراوندان التي كان يحكمها سابقا.²

4- في الطريق إلى أنطاكية

لما قرر تانكرد الانفصال عن الجيش الرئيسي للصليبيين في هرقله، وسلك طريقا آخر ليؤسس لنفسه إمارة في قيليقيا. رأى بلدوين أن هذه الخطوة تشكل خطورة على أطماعه، وأن حلمه في تأسيس إمارة فرنجية أرمينية، سيتعرض لمنافسة شديدة. ولذلك رأى أنه من الحماسة أن يسمح لأمر غربي سواه، أن يكون أول من يتوجه بحملة إلى بلاد يشكل فيها الأرمن نسبة كبيرة من سكانها، وهذا بحكم أواصر الصداقة التي توطدت بينه وبين بقرط في نيقية.³

اتخذ تانكرد الطريق المباشر من هرقله إلى سهل قيليقيا، عبر منطقة خصبة، تحوي مدنا وقلاعاً كثيرة، كانت محل صراع ونزاع بين السلاجقة والأرمن، دون الحديث عما تطالب به الدولة البيزنطية من حقوق هناك.⁴ وكان الأرمن قد استقروا فيها بأعداد كبيرة بعد معركة منازكرد، وأسسوا فيها إمارات صغيرة حكمها بعض المغامرين أو الموظفين، منهم فيلاريت الذي امتدت سلطته على رقعة واسعة، واستقر به المقام في أواخر حياته بمدينة مرعش، وبوفاته ما لبثت دولته أن اقتسمها نوابه الذين أصبحوا يحكمون مدن قيليقيا مستقلين عن بعضهم البعض. ومنهم أوشين، في لمبرون، وروبين وابنه قسطنطين الأول في كوبيتار، فضلا عن المدن التي فتحها السلاجقة، وأصبحت من ممتلكاتهم.

ومما سهل عملية توغل الجيش الصليبي في إقليم قيليقيا، هو وجود مرشدين وأعوان أرمن، كانوا مرافقين لتانكرد وبلدوين البولوني، في غزوهما لقيليقيا،⁵ كما كان معظم سكان المدن والقلاع في هذا

¹ Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 113.

² أنظر الملحق الثاني عشر، ص 485، والملحق الثالث عشر، ص 486.

³ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 280.

⁴ Grousset René : loc. cit.

⁵ عاشور سعيد عبد الفتاح : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص 126-127.

الإقليم مسيحيين أرمن وسريان وبيزنطيين. أما الأتراك السلاجقة، "فكانت لهم الغلبة الحربية لمهارتهم في استعمال السلاح، والذين كانت حراسة الحصون موكلة إليهم"،¹ وهم بذلك يشكلون أقلية من حيث الدين والجنس، وكانت مهمتهم تقتصر على حراسة المدن أو الحصون.

أ - الأرمن في طرسوس

كانت طرسوس أول مدينة وصل إليها تانكرد في 12 شوال 490هـ/21 سبتمبر 1097م،² "وهي أهم مدن تلك الولاية"،³ ووجد بها حامية تركية مرابطة، بادرت بمهاجمة الصليبيين، ولكنها انهزمت، وارتدت مسرعة إلى داخل المدينة. فنصب تانكرد معسكره أمام بابها،⁴ وأرسل يطلب المدد من الجيش الرئيسي،⁵ ودخل في اتصال مع أهل طرسوس من الأرمن عن طريق أرميني كان في معسكره، وعده بأن يطلب من سكانها أن يسلموا المدينة للقائد تانكرد، في أول فرصة تتاح لهم،⁶ واتفق معهم على رفع رايته على أحد الأبراج رمزا لاعترافيهم بالخضوع له. وبعد ثلاثة أيام من الحصار، وبينما المفاوضات أوشكت على نهايتها، وصل بلدوين بجيشه، وانضم إلى تانكرد، فأصبحت الحامية السلجوقية بالفرع لما تبين لها أن الصليبيين يفوقونهم عددا، فانتظرت حلول الظلام ولاذت بالفرار.⁷

ومع بداية اليوم الموالي، بدأت المطاعم الشخصية للقادة تطل بوجهها القبيح.⁸ فبعد أن فتح الأرمن الباب أمام الفرنجة، تفاجأ بلدوين ورفاقه براءة تانكرد ترفرف على أعلى برج في المدينة،⁹ وأدرك أنه لا يريد تسليمها للبيزنطيين، بل يريد الاحتفاظ بها لنفسه، وغزو قيليقيا لحسابه الخاص، خاصة

¹ وليم الصوري : مصدر سابق، ص 236.

² Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 115.

³ وليم الصوري : مصدر سابق، ص 235.

⁴ مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 44.

⁵ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 281.

⁶ ألبرت فون آخن : مصدر سابق، ص 89.

⁷ مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 45؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ص 236.

⁸ قاسم قاسم عبده : الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، دراسة عن الحملة الأولى 1095-1099م، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 1999. ص 163.

⁹ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 112.

وأنة غير مقيد بأي التزام تجاه الدولة البيزنطية، إذ لم يكن بصحبة تانكرد أحد من الموظفين البيزنطيين.¹ فنازعه، وطلب منه أن تنتقل طرسوس لسلطته قسرا، فاستشاط تانكرد غيظا، و"أوشك فيه كل منهما أن يقاتل صاحبه، ويفتك به".² وكان الأرمن يفضلون أن تكون المدينة من نصيب تانكرد.³ فهددهم بلدوين بتخريبها ونهبها إن لم يبادروا إلى إنزال راية تانكرد واستبدالها برايته.⁴ لكن بقراط الذي كان يرافقه، نصحه بترك طرسوس، والتوجه إلى الرها، لإقامة إمارة لنفسه هناك.⁵ ولما رأى تانكرد أن بلدوين أكثر قوة وعدة، وأنه لا يملك من القوة ما يواجه به خصمه، كظم غيظه، وقرر الانسحاب بجيشه، وتوجه شرقا نحو أذنة.⁶ وما كاد بلدوين يتخلص من تانكرد ويستريح مع جنوده، حتى وصل في مساء اليوم التالي، إلى المدينة فرقة من ثلاثمائة من النورمان، أرسلهم بوهيموند استجابة للنجدة التي طلبها تانكرد، ولكن بلدوين رفض أن يفتح لهم الباب، وإمدادهم بالزاد، بحجة أنه اتفق مع الأرمن أن لا يسمح لأي جيش بدخول المدينة قبل وصول أخيه جودفري، وأجبرهم على المبيت خارج أسوارها. وفي الليل قام الأتراك السلاجقة، الذين غادروا المدينة وكانوا يطوفون بالقرى المجاورة، بهجوم مباغت وقضوا على الفرقة عن آخرها.⁷ وحمل الجيش الصليبي بلدوين وجماعته، مسؤولية ما حدث لإخوانهم، وتعرض للوم شديد.⁸

أظهرت هذه الوقائع الوجه الحقيقي لقادة الحملة الصليبية، والنزعة الاستعمارية التي يتحلون بها. فقد كان هدفهم إقامة مستعمرات فرنجية أرمنية مستقلة عن الدولة البيزنطية، ووجدوا في السكان

¹ رنسيان ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 282.

² وليم الصوري : مصدر سابق، ص 238.

³ مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 45؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 112.

⁴ وليم الصوري : مصدر سابق، ص 238.

⁵ Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 115.

⁶ وليم الصوري : مصدر سابق، ص 238؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, pp. 114-115.

⁷ Albert d'Aix : op. cit., t. I, pp. 116-118.

⁸ وليم الصوري : مصدر سابق، ص 243.

الأرمن عنصرا مسيحيا محليا قويا، ولم يكونوا يأملون إلا في إقامة دولة فرنجية خاصة، ولا يوجد تفسير آخر لهذا التعاون الفرنجي الأرميني.¹

ب - الأرمن في أذنة

اتجه تانكرد إلى مدينة أذنة في أواخر شوال 490هـ/سبتمبر 1097م، استجابة لطلب أحد الأمراء الأرمن في قيليقيا، وهو أوشين -أمير لمبرون- الذي قام حديثا بالإغارة على المدينة.² وبالتزامن مع هذا تعرضت المدينة لغارة أخرى، قام بها فارس صليبي اسمه ولف (Welf)، انفصل عن الجيش الصليبي الرئيسي، "وجمع إليه حشدا كثيفا من الناس انخرطوا تحت رايته"،³ يلتمس الكسب والغنيمة، فتعاون مع أوشين وتمكنوا من طرد الحامية التركية التي كانت ترابط بها.⁴ ويبدو أن الأمير الأرميني استقل بالقلعة، واحتفظ ولف بالمدينة.⁵ ولما وصل تانكرد إلى أسوار المدينة، رحب به ولف، وزوده بالموونة،⁶ ثم التقى بالأمير أوشين، ودار بينهما حديث طويل، فسأله متعجبا ومندهشا عن مدى القوة العسكرية التي يملكها، والطريقة التي مكنته من الحفاظ على هذه المدينة، والمدن الأخرى التي تحت سلطته وسط عدد كبير من الأتراك الذين يناصبونه العداوة. فأجابه أوشين بأنه يسكن الجبال ويشعر فيها بحريته، ولكنه كان حزينا لرؤيته المسيحيين خاضعين لحكم الأتراك المسلمين، ولذلك كان يتحين جميع الفرص للعمل على تحريرهم من نير الأتراك السلاجقة.⁷

ويبدو أن تانكرد ضاعت منه فرصة الاستيلاء على أذنة، ولا يستطيع أن ينازع فيها أميرا مسيحيا محليا وسط شعبه وأهله، فأراد تجربة حظه في مدينة أخرى من مدن قيليقيا. وقبل أن يغادر

¹ Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 118.

² Raoul de Caen : Faits et gestes du prince Tancrede pendant l'expédition de Jérusalem, chez J.-L.-J. Brière, Librairie, Paris, 1852. p. 80.

³ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 239.

⁴ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 115.

⁵ Dédéyan Gérard : Les Arménien entre Grecs, t. II, p. 672.

⁶ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 239؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 115.

⁷ Raoul de Caen : op. cit., pp. 81-86.

أذنة نصحه، أوشين بالتوجه إلى مدينة المصيصة حيث جميع سكانها من الأرمن، وهم يتطلعون بشغف إلى التخلص من قبضة الأتراك.¹ وربما أرسل معه أعوانا ومرشدين ليدلوه على الطريق، ومن المحتمل أن يكون غرضه من ذلك، أن يصرف نظر تانكرد عن المصيصة التي أصبحت خالصة له، ويوجهه نحو دائرة نفوذ خصمه وغريمه الذي خرج من مرتفعات طوروس يتوسع، وهو قسطنطين الرويني.²

ج - الأرمن في المصيصة

وصلها تانكرد في أوائل شهر أكتوبر، "وهي واحدة من أروع مدن هذا الإقليم، والتي نالت حظا من الشهرة بفضل أسوارها، وأبراجها، وكثرة سكانها".³ وبعد يوم وليلة من الحصار، حاولت فيها الحامية التركية الدفاع عن أسوار المدينة، ولما عجزت، انسحبت خلال الليل، فقام الأرمن وبدون تردد بفتح الأبواب للصليبيين. ويتحدث المؤرخ راؤول دي كين (Raoul de Caen)، عن اتفاقية أبرمها تانكرد مع أهل المصيصة، دون أن يعطي تفاصيل عن فحواها. ومن دون شك أن سكان المدينة، وهم جميعا من الأرمن، سلموها له عن طيب خاطر؛ لأنه أضاف يقول : أنهم انقادوا له وهم في غاية الابتهاج والسرور. ويبدو أنه أصبح فعلا حاكما على المدينة.⁴

وما كاد تانكرد يستقر في المصيصة حتى وصل بلدوين بجيشه من طرسوس، بعد أن ترك فيها حامية صليبية، ولكن تانكرد رفض أن يفتح له أبواب المدينة، ما جعله يضرب معسكره في البساتين المحيطة بها.⁵ ثم حدث صدام بين القوتين، خلف عدة قتلى وجرحى، وأسر كل فريق رجالا من الفريق الآخر، وفي اليوم الموالي اتفق الطرفان على وقف القتال بينهما، وتصالحا.⁶

¹ Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 116.

² رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 283.

³ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 239.

⁴ Raoul de Caen : op. cit., p. 87.

⁵ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 244.

⁶ المصدر السابق، ص 245؛ Raoul de Caen : op. cit., p. 93; Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 123.

ثم خرج تانكرد يتوسع ويضم إليه عدة قلاع وحصون في جبال الأمانوس حتى بلغ الاسكندرونه،¹ ودمر القسم الشرقي من قيليقيا. وعندما أحس قادة الأرمن والأتراك في المنطقة بتفوقه، تقدموا إليه حفاظا على ممتلكاتهم "فراح كل ينافس الآخر في سرعة المبادرة بإرسال الرسل إليه، محملين بالهدايا الثمينة"،² عساهم يكسبون وده وصادقته. وفي ذلك يقول ابن القلانسي إن الفرنجة "افتتحوا في طريقهم بعض الثغور والدروب".³ واتضح هنا أن الجماعات الصليبية القادمة من أوروبا، لم تكن الفكرة الدينية هي المحرك الأول لها في زحفها على الشرق الإسلامي، وإنما تحركها أطماع سياسية، ورغبات شخصية تتمثل في إنشاء إمارات فرنجية في الشرق.

ويبدو أن بلدوين قد أدرك أن مستقبله السياسي ليس في قيليقيا. وربما نبهه بقرط إلى أنه سيكون قريبا من سلطة الامبراطور البيزنطي، ومن الأفضل مواصلة السير شرقا،⁴ نحو ملطية، وسميساط، ومرعش، وعين تاب، وتل باشر، والرها، حيث يوجد بعض الزعماء الأرمن الذين كانوا من أتباع فيلاريت، وهم الذين حلوا محله في تلك المدن بعد أن تهاوت دولته، أمام ضربات السلاجقة. وكان أولئك القادة الأرمن في حاجة شديدة إلى مساعدة الصليبيين لهم.

د - الأرمن في مرعش

وقبل الحديث عن التعاون الصليبي الأرميني في مدينة مرعش، لا بد من تتبع خط سير الجيش الرئيسي للصليبيين الذي سلك الطريق الثاني الملتف حول جبال طوروس من الشمال. ويبدو أن الأرمن كانوا متغلبين في تلك الأنحاء، حيث يتحدث المؤرخ المجهول، عن وصول الصليبيين إلى تلك المنطقة قائلًا، "ودخلوا بلاد الأرمن"،⁵ فاستولوا وهم في طريقهم من هرقله إلى قيصرية، على عدة مدن وقرى صغيرة، وسلموها إلى أمير أرميني اسمه سمعان (Simon)، وهو من "أهل البلد، فسألهم

¹ Raoul de Caen : op. cit., p. 94.

² وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 247.

³ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 135.

⁴ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 256.

⁵ مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 45.

أن يكلوا إليه أمر الدفاع عن تلك البقعة من الأرض ضد محاولات أعدائه من الترك، فمنحه الفرنجة إياها، وأقام بها مع أبناء جنسه".¹ ويدل ذلك أن سمعان كان من المواليين للإمبراطور البيزنطي، فحكمه لتلك القرى والمدن كان باسم الامبراطور، ولو كان غير ذلك لسلموا تلك القرى إلى تاتيكيوس (Tatikios)، ممثل الامبراطور الذي كان مرافقا للحملة.

ولما بلغ الصليبيون مدينة كوماننا (Placentia)، فر الترك الدانشمنديون الذين كانوا يحاصرونها منذ ثلاثة أسابيع، وكان سكان المدينة من الأرمن، فاستقبلوا الفرنجة وهم في أشد الفرح؛ لأنهم أنقذوهم من الترك. وفي شهر شوال 490هـ/أكتوبر 1097م، بلغوا مدينة كوكسن (Coxon)، ففتح لهم الأرمن أبوابها، وأظهروا لهم الود والصدقة. وبعد ثلاثة أيام قضاهما الصليبيون في المدينة بين الأرمن التماسا للراحة، تزودوا بكميات وافرة من المؤن، ثم واصلوا طريقهم نحو أنطاكية،² وهكذا فإن الصداقة الفرنجية الأرمينية، اتضحت منذ أول اتصال بأنها عمل دائم، وأن عنصر الأهالي الأرمن، يظهر في كل مكان أنه ركيزة مستقبل الشرق اللاتيني.³

وكان الطريق الجبلي الصعب، من كوكسن إلى مرعش، من أشق ما تحتم على الصليبيين أن يصادفوه،⁴ وبتاريخ 5 ذي القعدة 490هـ/13 أكتوبر 1097، بلغوا مدينة مرعش. وقد كانت هذه المدينة -فيما سبق- نواة للدولة التي أقامها فيلاريت بعد معركة منازكرد، ولما فقد ممتلكاته على يد السلاجقة، تمكن من الاحتفاظ بها إلى غاية وفاته سنة 483هـ/1090م،⁵ ومن المحتمل أن تكون قد انتقلت إلى أبنائه.⁶ ويبدو أن الأتراك استولوا عليها فيما بعد، وكانت بأيديهم قبيل وصول

¹ مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 45-46.

² المصدر السابق، ص 46-47.

³ Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 109.

⁴ رنسيان ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 272.

⁵ Grousset René : loc. cit.

⁶ Cheynet Jean-Claude : Thathoul archonte des archontes, R.E. Byz., t. 48, n° 1, Institut français d'études byzantines, Paris, 1990. p. 241.

الصليبيين إليها.¹ ولا تذكر المصادر، أن الجيش الصليبي وجد مقاومة من قبل الحامية التركية المراقبة في المدينة، مما يدل أنها استسلمت له أو فرت من أمامه كما فعلت في المدن الأخرى. وقد بقيت مدينة مرعش أرمنية بسكانها، وبوصول الصليبيين إليها، "خف سكانها لاستقبالنا فرحين غاية الفرح"،² واعتبروهم منقذين لهم وحماة للمسيحية في تلك الجهات.³ ووفى الصليبيون بقسمهم وسلموا المدينة للسلطات البيزنطية. ولم يكن مع تاتيكوس وهو ممثل الامبراطور ألكسيس كومنين، ما يكفي من الجنود لتنصيب حامية بيزنطية في المدينة، ولذلك قرر أن يعين على رأسها أميرا أرمنيا يعتبر صديقا للامبراطورية،⁴ اسمه ثاتول (Thatoul)،⁵ كان من قبل موظفا بيزنطيا، ونصبه حاكما على المدينة ومنحه لقب أمير الأمراء⁶ (بالأرمنية إيشخان الإيشخانات).⁷ ويدل هذا اللقب على أن عددا من الأمراء الأرمن الذين كانوا يحكمون مجموعة من القلاع والقرى، والمدن الصغيرة المجاورة لمدينة مرعش، قد دخلوا تحت سلطته، على أن يحكمها ثاتول باسم البيزنطيين.

وبعد أن تصالح بلدوين وتانكرد في المصيصة، اتجه بلدوين بجيشه نحو الشرق ليلتحق بأخيه جودفري ومن معه من قادة الجيش الصليبي عند مدينة مرعش، ولم يبق معهم إلا أياما قليلة. فحينما توجه الجيش الرئيسي جنوبا صوب انطاكية، انفصل عنه وعجل بالمسير نحو الشرق صوب نهر الفرات، لعله يوفق في تأسيس إمارة فرنجية أرمنية حيث فشل في قيليقيا.⁸ والحقيقة أن حركته تجاه

¹ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 265.

² مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 48.

³ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 136.

⁴ Cheynet Jean-Claude : Thathoul, p. 241.

⁵ ثاتول أو ثاتول : معناه باللغة الأرمنية الساقين الأماميتين (اليدين) للحيوان، كرمز لروح المبارزة، وكان متى الرهاوي يسميه الروماني، لأنه ربما اعتنق مبادئ الكنيسة البيزنطية، وربما كان أحد أبناء جاجيك ملك قارص، الذي قتل من طرف السلطان طغرل بك سنة 1053م، لم يكن بيزنطيا، ولم يأت إلى مدينة مرعش مع الصليبيين ولا مع البيزنطيين الذين قدموا إلى المدينة مما يدل على أنه كان موجودا بها قبل قدوم الصليبيين، وربما كان يحكمها أيضا، وربما عينه فيلاريت حاكما لبعض القلاع المجاورة لمرعش. (أنظر :

(Cheynet Jean-Claude : op. cit., pp. 236-242.

⁶ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 230.

⁷ Grousset René : L'Empire du Levant, p. 184.

⁸ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 285؛ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 91.

الشرق رغم ما تحمله من إصرار وطموح شخصي، لم تكن لتحصل لولا موافقة قادة الجيش الصليبي الرئيسي الذين أذنوا له بالانفصال عنهم، بعد أن تعهد لهم بأن يسلك أول الأمر طريقاً موازياً للطريق الذي يسلكه الجيش الرئيسي، ولا يبعد عنه إلا بضعة أميال للشرق، بهدف حماية ميسرة الصليبيين الزاحفين على أنطاكية، خوفاً من إمدادات تركية تصل من خراسان أو من العراق، أو من أرمينيا؛ لأن الطريق الذي تسلكه تلك الإمدادات لمساندة الحامية التركية في أنطاكية، تقع في البلاد التي عزم بلدوين على غزوها. كما أن تلك الجهات القريبة من الفرات تتوفر على أراض خصبة، ما يضمن تدفق المؤن على رجال الحملة الصليبية. ومن ثمة فإن حركة بلدوين نحو الشرق كان يرتجى منها النفع والريح له وللحركة الصليبية بأسرها.¹ ولم يكن معه إلا قوة يسيرة، لأن بقراط أقنعه بأنه من اليسير احتلال المنطقة بقوة صغيرة، قدرتها بعض المصادر بمائتي فارس، وحشد من المشاة،² مما يدل على أنه كان يريد الاعتماد على العناصر المسيحية المحلية المتمثلة في الأرمن، الذين كان وجودهم كثيفاً بالمنطقة.

وهكذا سلك بلدوين طريقاً موازياً للطريق الذي سلكه الجيش الرئيس، حتى بلغ عين تاب ثم اتجه رأساً إلى الشرق.³ ومع حلول شتاء سنة 491هـ/1097م، كان قد بسط سيادته على البلاد حتى نهر الفرات، ولم يجد صعوبة تذكر في الاستيلاء على كثير من المواقع، والمدن، والقلاع، وذلك بفضل مساعدة العنصر الأرميني الذي كانت له السيادة في تلك الجهات.⁴ ومن المواقع الهامة التي استولى عليها بلدوين حصن راوندان (Ravendel)، الذي يقع على الطريق بين مرعش وأنطاكية، وقد كان سكانه من الأرمن، وبمجرد أن سمعوا باقترابه من حصنهم، ثاروا ضد الحامية التركية التي

¹ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 287.

² وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 256. لا يذكر فوشيه الشارترى الذي كان مرافقاً لبلدوين عدد القوات التي سارت معه، ولكنه يقول عن بلدوين : "انه جمع عدداً قليلاً من الفرسان وانطلق صوب نهر الفرات"، ووفقاً لما أورده متى الرهاوي، فلم يكن مع بلدوين إلا مائة فارس، أما ألبرت ديكس (Albert d'Aix)، الذي لم يكن مرافقاً للحملة، فأورد في حويلته أن بلدوين أخذ معه سبعمائة فارس، والمعروف أن وليم الصوري اعتمد في حويلته على ما كتبه ألبرت ديكس. (أنظر : فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 106؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 123; Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 218).

³ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 287.

⁴ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 106؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 256-257.

آثرت الخروج والانسحاب منه، خاصة أن اتصالها مع الحكم المركزي باتت مقطوعة، ولا سبيل إلى المقاومة، ففتح الأرمن أبوابه للصليبيين، وأراد بلدوين أن يكافئ رفيقه ومستشاره الأرمني بقرط، فعينه حاكما عليه،¹ أو بالأحرى أعاده إليه الحصن الذي كان يحكمه سابقا. وبعده توجه إلى حصن تل باشر (Turbessel)،² الذي يقع في الطريق بين الرها وأنطاكية، وهو الآخر سكانه من الأرمن، ويبدو أن أميرا أرمينيا محليا كان يحكمه، اسمه فير (Fer)،³ ومن المحتمل أن يكون تابعا للأتراك، فلما سمع باقتراب الصليبيين من حصنه أعلن تبعيته لبلدوين ودخل تحت طاعته، وسلمه الحصن الذين كان يقيم فيه سلما،⁴ فأبقاه بلدوين حاكما على تل باشر. كما دخل في طاعته أمير أرميني آخر يدعى نيكوسوس (Nicusus)، كان يسيطر على عدة حصون وقلاع غير بعيدة عن تل باشر. وأبرم بلدوين مع الأميرين اتفاقيات،⁵ لم تذكر المصادر مضمونها. وباستثناء مدينة سميساط (Samosate)، التي كان يحكمها أمير تركي، لم يصادف بلدوين صعوبة في الاستيلاء على المدن الواقعة في ثغور الجزيرة، وشمال سوريا، ولم يعترض طريقه أي منافس، كما حدث في قيليقيا، ووجد في الأرمن عنصرا مساعدا لتحقيق أهدافه. ويتحدث فوشيه الشارترى عن الأرمن قائلا : " وعندما كنا نمر بمدن الأرمن، كان من المدهش أن نراهم يقبلون في تواضع للترحيب بنا، وهم يحملون الصلبان والرايات، ويقبلون أقدامنا وملابسنا حبا في الرب".⁶ وهذا الموقف من الأرمن تجاه المسيحيين الغربيين ليس جديدا فقد رأينا أن الكاثوليكوس الأرمني جريجور الثاني قد توجه في سفارة بيزنطية إلى روما، منذ عشرين سنة، لمناشدة البابا على حث المسيحيين الغربيين أتباع الكنيسة الكاثوليكية لتقديم

¹ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 124.

² تل باشر : ويسمى بالأرمنية تل أفدياتس، وتعني ضيعة أو قرية الأخبار الطيبة، وترجمها العرب إلى تل باشر أي تل الأخبار الطيبة (البشرى)، ويقع هذا المكان على بعد ثمانين كلم تقريبا إلى الشمال من حلب، وأهلها نصارى أرمن. (انظر : الحموي : مصدر سابق، ج 2، ص 451؛ ابن العديم : بغية الطلب : مصدر سابق، ص 321؛ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 82، هامش رقم 2).

³ Albert d'Aix : loc. cit.

⁴ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 106.

⁵ Albert d'Aix : op. cit., t. I, pp. 124-125.

⁶ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 107-108.

مساعدات لإخوانهم المسيحيين الشرقيين، ولذلك حينما ظهر الفرنجة على أطراف آسيا الصغرى وتوغلوا في قيليقيا، "ثم فتحوا حصون الدروب شيئا بعد شيء"،¹ وبلغوا الفرات، رأى فيهم الأرمن حلفاء غريبين، كانوا يأملون وصولهم منذ زمن طويل ليس لتخليصهم من السلاجقة فحسب، ولكن لتخليصهم أيضا من الامبراطورية البيزنطية الكريهة، على حد تعبير المؤرخ البريطاني ستيفن رنسيमान.

وستثبت الأحداث القادمة، أن نظرة الأرمن إلى الفرنجة على أنهم يقاتلون في سبيل العالم المسيحي - مع ما تحمله هذه النظرة من براءة وسذاجة - وأن الصليبيين عموما والفرنجة خصوصا، لا يختلفون عن البيزنطيين، وأن ولاء الأرمن الذي كان يتأرجح بين السلاجقة والبيزنطيين، سيتأرجح مستقبلا بين الفرنجة والبيزنطيين. ويبدو أن بقراط أول من شعر بوطأة الارتباط مع حليف قوي، وأظهر الامتناع والسخط، فاحتفظ بالحصن لنفسه فقط، ولم يسمح بإقامة حامية صليبية،² فما كان من فير إلا أن وشى به إلى بلدوين، مخبرا إياه أن بقراط يشترك مع الأتراك في التآمر عليه. والراجح أن مؤامره لم تكن إلا مع أخيه كواسيل أمير كيسون ورعبان،³ مما جعل بلدوين يشك في ولاء بقراط له، فاعتقله، ولكنه تمكن من الفرار والتحق بالجلال التي اتخذ منها مأوى في حماية أخيه كواسيل.⁴ وربما لهذه الأسباب أشار بقراط على بلدوين، لما انفصل عن الجيش الرئيسي في مرعش وتوجه نحو الفرات، أن يكتفي بقوة صغيرة، لأنه من السهل أن يسيطر على المدن التي يستقر فيها أقاربه، فانخدع بلدوين بنصيحته، ولذلك، وصفته المصادر المعاصرة بأنه "كان محاربا شديدا إلا أنه كان شديد المكر، مغموز الوفاء"،⁵ وأنه "رجل خطير ومشكوك في إخلاصه".⁶ والحقيقة أن بقراط كان يعتمد على الفرنجة، من أجل أن يفوز بإقطاع كبير، يحكمه حكما متحررا، وعند اللزوم ينقلب ضدهم ويتخلص من قبضتهم القوية، اعتمادا على أقاربه وبني جلدته في المنطقة، وكانت هذه سياسة

¹ سبط بن الجوزي : مصدر سابق، ص 300.

² Cahen Claude : La Syrie du Nord, p. 210.

³ رنسيमान ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 290.

⁴ نفسه؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, pp. 124-125.

⁵ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 256.

⁶ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 125.

فيلاريت تجاه منافسيه إذ ناور بين البيزنطيين والأتراك.¹ ولكن السحر انقلب على الساحر، فقبل أن يتخلص بقراط من حليفه القوي، سبقه بلدوين وجرده من حصنه، فوجد نفسه مشردا هائما على وجهه في الأرض، ومهما تكن نواياه فإنه قدم خدمة جليلة لبلدوين بإرشاده عبر الطرق الجبلية الوعرة، أما حقيقة بلدوين ونواياه فستظهر في مدينة الرها.

ومن الحقائق التي يمكن استنتاجها من هذا الفصل :

أولا : لم تكن الحملة الصليبية الأولى في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، إلا تجديدا وإحياء للحروب الصليبية القديمة، بشكل أكثر شمولا وتنظيما، وأكثر عنفا. وقد ساهمت المؤسسة الدينية الأرمنية إلى حد كبير في الدعوة إليها، واستعملت علاقاتها الدبلوماسية، لتوظيف الصراع بين السنة والشيعة لتحقيق أهدافها.

ثانيا : وجد الصليبيون في الأرمن عونا قويا، ووجد الأرمن في الصليبيين حليفا كبيرا، وقد ساعدت العداوة المذهبية بين الكنيسة البيزنطية الخلقونية والكنيسة الأرمنية المونوفيزية، على حدوث تقارب، وتحالف بين الأرمن اليعاقة والصليبيين الكاثوليك، ومن ثمة كان التعاون الأرمني الصليبي نوعا من الانتقام ضد البيزنطيين.

ثالثا : بقراط هو أول أرمني اتصل بالفرنجة بعد دخولهم إلى آسيا الصغرى، وكان مرشدهم ومستشارهم، وهو أول من انتبه إلى خطرهم، وأراد التخلص منهم، فكان أول ضحية لهم.

¹ الجنزوري علية عبد السميع : مرجع سابق، ص 54؛ Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 122.

الفصل الخامس

من التعاون إلى المواجهة

- 1- ثوروس في مدينة الرها
أ - ثوروس يستنجد ببلدوين
ب - بلدوين ينقلب على ثوروس
ج - سياسة بلدوين تجاه الأرمن في الرها
- 2- دور الأرمن في سقوط مدينة انطاكية
أ - تقديم المؤن والمساعدة للصليبيين
ب - خيانة فيروز الأرمني للمسلمين
ج - اجهاز الأرمن على ياغي سيان
- 3- كوغ فاسيل (Kogh Vasil) في كيسوم (Kaisoun)
أ - علاقة كوغ فاسيل بالصليبيين
ب - سياسة تانكرد تجاه الأرمن
ج - سياسة بلدوين دو بور تجاه الأرمن
د - سقوط إمارة كوغ فاسيل
- 4- جبريل في ملطية
أ - ملطية في مواجهة الدانشمند
ب - سقوط إمارة ملطية

مع دخول الفرنجة إلى كل من الرها وأنطاكية، تغيرت أوضاع المنطقة في قيليقيا والفرات وشمال سوريا تغييرا جذريا، ومن المؤكد أن الإمارات الصليبية كانت تهدف إلى محاربة الأتراك، ولكن الطموحات التوسعية لأمرائها جعلتهم لا يتورعون عن التوسع ضد الإمارات المسيحية المحلية، حتى وإن كانت منشقة عن الامبراطورية البيزنطية. إن وجود الصليبيين في شرق وغرب الفرات، سلاح ذو حدين، رادع بالنسبة للمسلمين الذين كانوا يبحثون دائما عن وسيلة لاسترجاع ممتلكاتهم من البيزنطيين أو من الأرمن، وتهديد بالتوسع بالنسبة للأرمن الذين كانوا يغيرون مواقعهم بتغير الأمراء، فيتحالفون أحيانا مع أنطاكية وأحيانا أخرى مع الرها، مما فتح الباب لاندلاع حروب وصدامات في السنوات المقبلة.

هذه الفكرة سنتعرض لها هذا بالتفصيل في هذا الفصل، لأن اندثار دولة فيلاريت بعد وفاته في سنة 483هـ/1090م، أدى إلى بروز عدد من الإمارات الأرمنية الصغيرة، حكمها نوابه أو بعض أتباعه في المدن التي ولاهم عليها. منهم الأمير ثوروس في مدينة الرها، وكوغ فاسيل في كيسوم، وجبريل في ملطية، وآخرون في مدن أقل شأنا وحجما. وكل هؤلاء رحبوا بقيادة الصليبيين لما اقتربوا بجيوشهم من إماراتهم، وتحالفوا معهم ضد المسلمين عربا وأتراكا، وساعدوهم على تأسيس إماراتهم في بلاد الشام. غير أن أطماع الصليبيين، لم تتوقف عند حدود الرها، وأنطاكية، بل عملوا على إخضاع، وضم كل المدن والحصون التي كانت بالجوار، بما فيها تلك التي كانت تابعة لحلفائهم الأرمن، الذين وجدوا أنفسهم خاضعين لأسياد جدد، فتبخر حلمهم في (التحرر). وما لبثت أن زالت هذه الدويلات الأرمنية الصغيرة من الخريطة السياسية لآسيا الصغرى، وألحقت بالإمارات الصليبية.

1- ثوروس في مدينة الرها

بعد أن شرع السلاجقة يتوسعون في آسيا الصغرى إثر موقعة منا زكرد في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، هرع إلى مدينة الرها أعداد كبيرة من الأرمن، واتخذوها مستقرا لهم. وهم الذين ساعدوا فيلاريت على انتزاعها من البيزنطيين، ولكنه بارحها بأمر من السلطان السلجوقي ملكشاه الذي بسط سيادته عليها سنة 480هـ/1087م، ثم أسند إمارتها لواحد من رجاله وهو بوزان، الذي استمر يحكمها إلى سنة 487هـ/1094م، حيث قتل على يد تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق.¹

واستغل أحد قادة الأرمن وهو ثوروس بن هيثوم (Thoros fils de Héthoum)، الحرب الدائرة بين الأمراء السلاجقة، فبسط سيادته على مدينة الرها باعتباره أرمينيا وموظفا بيزنطيا، كما كان أبوه من رجال فيلاريت.² وكان هو نفسه نائبا عنه في ملطية.³ ويبدو أنه أدرك مدى ضعف إمارته، وفقدانه للشرعية، فظل يتأرجح بين الولاء للسلاجقة وللبيزنطيين، مقتفيا في ذلك أثر فيلاريت، فتحاشى الدخول في صراع مع الأتراك، واعترف لهم بالتبعية. ورضي بدفع الجزية، للأمير السلجوقي تتش بن ألب أرسلان الذي أصبح سيد المنطقة بعد وفاة أخيه ملكشاه.⁴ وفي الوقت نفسه جعل سلطته شرعية باعتزافه بالتبعية للإمبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين،⁵ وربما كان في نيته تسليمها له فيما بعد،⁶ حتى أن المؤرخ الأرمني متى الرهاوي، سماه بالحاكم الروماني لمدينة الرها.⁷

¹ الحسيني : مصدر سابق، ص 76؛ ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص 15؛ Grousset : L'Empire du Levant, p. 183.

² أبو سعيد حامد غنيم : مرجع سابق، ص 86.

³ Balard Michel : op. cit., p. 67; Mutfian Claude : L'Arménie du Levant, t. I, p. 55.

⁴ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 147.

⁵ الجنزوري علية عبد السميع : مرجع سابق، ص 58.

⁶ الرهاوي المجهول : تاريخ الرهاوي المجهول، ترجمة سهيل زكار، في الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1995. ج 5، ص 21.

⁷ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 82.

وبعد مقتل تتش سنة 488هـ/1095م¹ انفرد ثوروس بالسيطرة على مدينة الرها.² وكان أكثر أهلها من الأرمن وليس بها من المسلمين إلا القليل.³ ولكن مركزه كان دائما بالغ الحرج، حيث ظل مهددا باستمرار من جانب السلاجقة المجاورين، الذين كانوا يقلقونه كثيرا.⁴ وقد أصيب بذعر شديد لما بلغه أن كبروغا التركي أمير الموصل "جمع العساكر وسار إلى الشام"،⁵ استعدادا لنجدة انطاكية. وبإمكانه أن يمحو، بسهولة ويسر إمارة الرها وسائر الإمارات الأرمنية الواقعة في طريقه.⁶ مما جعله يستنجد بالصليبيين الذين اقتربوا من الفرات، خاصة بعد أن نال بلدوين شهرة بلغت آفاقا بعيدة، وأصبح اسمه "يجري على كل لسان".⁷ ويبدو أن الأرمن الذين كانوا يريدون إحياء أمجادهم القديمة، لم يدركوا النوايا الحقيقية للصليبيين، فأقاموا علاقات صداقة وتعاون معهم، وحينما تبين لهم أنهم يختلفون عنهم في الأهداف، بل ويتناقضون معهم، دبت الخلافات والنزاعات بينهم، وانقلب الود عداوة.⁸

أ - ثوروس يستنجد ببلدوين

أرسل ثوروس سفارة إلى بلدوين،⁹ وهو لم يرح بعد حصن تل باشر.¹⁰ وتكوّن الوفد من أسقف المدينة واثنا عشر من أعيان الأرمن، يطلبون منه الدخول إلى الرها لمساعدتهم ضد الأتراك

¹ الحسيني : مصدر سابق، ص 76؛ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 175.

² أبو سعيد حامد غنيم : مرجع سابق، ص 86.

³ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 204.

⁴ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 82.

⁵ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 175.

⁶ رنسيमान ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 289.

⁷ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 257.

⁸ Mutafian Claude : L'Arménie du Levant, t. I, p. 57.

⁹ يبدو من بعض المصادر أن فكرة إرسال وفد إلى بلدوين، تعود إلى أعيان المدينة من الأرمن الذين اتصلوا بثوروس وألحوا عليه بطلب المساعدة من الفرنجية لحماية المدينة من الأتراك، ولم يكن ثوروس موافقا، ولكنه أدرك أن أهالي المدينة سوف يستدعون بلدوين خلافا لإرادته، فتظاهر بالاستجابة لمطالبهم. (انظر : الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 22؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 257؛ (Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 126).

¹⁰ فوشيه الشارترتي : مصدر سابق، ص 106.

الذين يهددون إمارتهم.¹ ولمس القائد الصليبي في هذه الدعوة ما يمكنه من تحقيق حلمه، فتماطل في الاستجابة، وتلقت سفارة الرها في تل باشر بأن تزيد في العرض،² بأن يتخذ ثوروس من بلدوين ابنا له بالتبني، وسيكون شريكاً له في حكم بلاده، "وإذا حدث أن مات دوق الرها، تكون المدينة ملكاً لبلدوين هي وجميع أملاك الدوق في الحال بوصفها إرثاً له كما لو كان ابناً للدوق".³ ومما لا شك فيه أن هذا العرض أسال لعاب بلدوين، خاصة وأن ثوروس، كان "شيخاً طاعناً في السن، واهن القوى، ليس له من صلبه ولد ولا بنت".⁴

وبما أن هذا العرض يتوافق مع طموحاته، فقد أسرع السير إلى الرها، ومعه ثمانون فارساً،⁵ وتعرضوا في الطريق إلى كمين نصبه لهم، الأمير التركي بلق (Balduk) صاحب سميساط (Samosate)، فلجأوا إلى أحد الأمراء الأرمن المحليين، فأواهم في قلعة مدة يومين، وحذرهم من كمائن الأتراك.⁶ وبعد أن عبر بلدوين الفرات مع فرسانه، وصل إلى الرها في 2 ربيع الأول 491هـ/6 فيفري 1098م، حيث استقبله "حاكمها بالتعظيم عند وصوله إليها، وشاركه الترحيب به جميع من فيها، كما خف لاستقباله رجال الدين والناس عامة وقد ساروا أمامه منشدين الأهازيج والتراتيل الدينية على وقع الدفوف ودق الطبول".⁷ وحسب رواية فوشيه الشارترى، التي يتحدث فيها عن ثوروس وزوجته "أنهما استقبلا بلدوين ووفيا بوعودهما دون تأخير"،⁸ وأنهما قاما بتبنيه فوراً بعد

¹ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 82؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 126.

² رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 289؛ الرويضي محمود : مرجع سابق، ص 190.

³ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 107.

⁴ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 258-259.

⁵ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 107؛ الرويضي محمود : مرجع سابق، ص 183. ويذكر متى الرهاوي أن بلدوين سار إلى الرها ومعه ستون فارساً فقط. (انظر : متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 84).

⁶ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 107؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 259؛

Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 126.

⁷ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 260.

⁸ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 108.

وصوله إلى مدينة الرها، وفقا لطقوس الكنيسة الأرمنية،¹ للدلالة على أن الفجوة التي تفصل الأرمن عن البيزنطيين، لا وجود لها بين الكنيسة الأرمنية واللاتين.²

وبمجرد أن استقر بلدوين في الرها، راح يعد العدة لمهاجمة الإمارة التركية في سميساط، لأن أميرها بلق³ كان يفرض الجزية على الأهالي، كما كان يشن غارات من حين لآخر على الحقول المحيطة بالمدينة.⁴ وهو الذي أقام كميناً للصليبيين لما كانوا متوجهين من تل باشر إلى الرها،⁵ ولذلك رأى بلدوين بأن من أول واجباته تدمير هذه الإمارة الواقعة في الطريق نحو ملطية،⁶ وشاركه في الحملة أمير أرميني آخر، وهو قسطنطين أمير كركر (Gargar)،⁷ وجيش محلي، إضافة إلى فرسانه، ولكنه فشل في تحقيق انتصار على الأتراك بسبب ضعف جنود الرها، واكتفى بالاستيلاء على حصن القديس يوحنا (Saint-Jean)، الذي يقع غير بعيد عن مدينة سميساط، واتخذ مقرًا لجماعة من فرسانه، وأمرهم بمراقبة الأتراك، والإغارة عليهم من حين لآخر للحد من تحركاتهم، بينما عاد هو إلى الرها ومعه اثنا عشر فرنخيًا.⁸ وبعد هذه العملية العسكرية ازداد الأرمن تعلقاً به، وأضحت أيام ثوروس على رأس مدينة الرها معدودة.

¹ جرت عملية التبري، بحضور سكان المدينة وفي احتفال مهيب، ووفقاً لشعائر الأرمن وقتذاك، تقرر أن يجري من طقوس احتفال التبري ما يلائم طفلاً صغيراً، لا شخصاً مكتمل الرجولة، إذ تجرد بلدوين من الملابس حتى وسطه، بينما ارتدى ثوروس قميصاً بلغ من اتساع، أن دخل فيه بلدوين، وأخذ كل من الوالد الجديد والإبن الجديد، يحك صدره في صدر الآخر، وكرر بلدوين هذا الاحتفال مع الأميرة زوجة ثوروس. (انظر : وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 261؛ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 291؛ الجنزوري عليه عبد السميع : مرجع سابق، ص 64؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 128.

² Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 123.

³ بلق أو بلك : ورد اسمه بصيغ مختلفة، منها بالدوق أو بالدوخ (Baldoukh)، وتشير بعض الروايات أنه ابن غازي بن الدانشمند، والراجح أنه ليس من الدانشمنديين، بل هو أحد أفراد أسرة الأراتقة الذين كان لهم نفوذ في فلسطين، وبعد أن طردهم الفاطميون بسطوا نفوذهم على ديار بكر، وبعض مدن شمال الجزيرة. (انظر : الخيميد علي : مرجع سابق، ص 194-195).

⁴ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 129.

⁵ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 107.

⁶ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 291.

⁷ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 85.

⁸ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 108؛ متى الرهاوي : مصدر سابق ص 85-86؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 262؛ الحارثي : مرجع سابق، ص 84؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, pp. 129-130.

ب - بلدوين ينقلب على ثوروس

ولم يكد بلدوين البولوني يدخل مدينة الرها عائدا من سميساط، حتى انتهى إلى سمعه أن الأهالي، ومعهم قسطنطين أمير كركر، يتآمرون ضد أميرهم ثوروس، ويريدون إعلان ثورة ضده للتخلص منه "ويرفعوا بلدوين إلى القصر ليكون حاكمهم".¹ وتختلف المصادر في مدى اشتراكه في المؤامرة، فبينما نجد فوشيه الشارترى -وهو المؤرخ الرسمي لبلدوين- متحفظا عن الادلاء بمعلومات مفصلة، فإن ألبرت، ووليم الصوري يذكran بأن المتآمرين أخبروه بخطتهم ولكنه رفض المشاركة فيها، بل لقد حاول تهدئة الثوار وإنقاذ ثوروس، ولكنه فشل في ذلك.² أما المؤرخ الأرمني متى الرهاوي، فإنه يتهمة صراحة بالتواطؤ مع بعض الخونة من المستشارين الفاسدين على حد تعبيره.³ ومما لا شك فيه أن بلدوين كان على علم بالمؤامرة، ولكنه ابتعد عن الظهور على مسرح الجريمة مع المتآمرين،⁴ وبما أنه هو المستفيد الأول منها، فمن المحتمل أن يكون قد أعطى موافقته للمتآمرين، وربما نسج خيوطها بالاشتراك مع قسطنطين أمير كركر أثناء زحفهما على سميساط، وربما كان يريد عزل ثوروس أو نفيه عن الرها وليس اغتياله. وسواء كان بلدوين ضالعا فيها أم كان بعيدا عنها، فإن تساؤلا يطرح عن الأسباب التي أدت إلى تدبير المؤامرة ضد ثوروس ؟

تذكر المصادر أن ثوروس لم يكن محبوبا من طرف رعاياه،⁵ لأسباب عديدة، منها : أنه كان على مذهب الكنيسة البيزنطية،⁶ ورغم أنه أرمني الجنس فهو في نظر رعاياه لا يعدو أن يكون موظفا بيزنطيا بخيلا يسهر على جمع الضرائب، وسلّبهم "ما عندهم من الذهب والفضة، وغير ذلك من كل

¹ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 108.

² نفسه؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 262-263؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, pp. 130-131.

³ متى الرهاوي : مصدر سابق ص 86؛ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 219.

⁴ الجنزوري عليه عبد السميع : مرجع سابق، ص 65-66.

⁵ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 108؛ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 22؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1،

ص 262؛ الحارثي : مرجع سابق، ص 83؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 130.

⁶ Cahen Claude : La Syrie du Nord, p. 210.

غال وثمين، وظلمهم ظلما فاحشا"¹ وإذا امتنع أحدهم عن دفع ما فرض عليه، أثار ضده الأتراك، فيصبح مهددا في حياته، وأملاكه عرضة للنهب والتخريب،² كما أنه "عاجز عن حماية رعيته من الضرر ينزل بهم، أو دفع الشر عنهم، أو تخفيف ما يلقونه من الضيق"،³ ولا يمتلك المهارة اللازمة لإدارة شؤون المدينة،⁴ ويفهم من ذلك أن عوامل الغضب والثورة ضد ثوروس كانت كامنة في نفوس الرهاويين، وأن المتآمرين لم يكونوا في حاجة إلى محرض فرنجي، يشجعهم على القيام بمثل هذه المؤامرة. ولكن كان ينقصهم قائد يحظى بحب الأرمن وتأييدهم له، وقادر على مهاجمة الأتراك والدفاع عن أسوار المدينة بعد أن يتولى أمرها، فاستغلوا فرصة وجود بلدوين بينهم، ولذلك يمكن القول أنه كان على علم بعملية الانقلاب قبل حدوثها، وربما حصل مدبروها على إذن مسبق أو تشجيع منه.⁵

ومن العوامل التي زادت من اتساع الفجوة بين الأرمن وأميرهم، وساعدت على التقارب بين المتآمرين وضيئفهم، أن الاستقبال الشعبي الحار الذي حظي به بلدوين عند دخوله مدينة الرها، قد نزع بين الرجلين، وحرك مكامن الحسد في قلب ثوروس، الذي أدرك أن السلطة الفعلية ستكون بين يدي بلدوين، فندم على ما قدم له من وعود وأراد التراجع عنها، وعرض عليه عرضا مخالفا لما تم الاتفاق عليه في تل باشر، ويتلخص في أن يقوم بقيادة الدفاع عن المدينة، مقابل مبلغ مالي ضخم، وأن يحكم باسم ثوروس المناطق التي سيمنحها له مستقبلا.⁶ واكتشف بلدوين بعد أن وصل إلى الرها، أن ثوروس يريد استخدامه كمرتزق بما عرض عليه من المال والمنح والهدايا،⁷ أو يريد الاستفادة من قوة الصليبيين دون أن يسمح لهم باستعباده.⁸ غير أن بلدوين لن يستقر في الرها إلا بالشروط التي تلائمها. فرفض هذا العرض، وأخذ يستعد للعودة من حيث جاء، ثم الالتحاق بأخيه جودفري في

¹ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 262.

² Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 130.

³ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 259.

⁴ Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 125.

⁵ الرويضي محمود : مرجع سابق، ص 194.

⁶ Albert d'Aix : op. cit., t. I, pp. 127; Laurent J. : Des Grecs aux Croisés, p. 424.

⁷ رنسيان ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 289؛ Cahen Claude : La Syrie du Nord, p. 210.

⁸ Grousset René : op. cit., t. I, p. 123.

الجيش الرئيسي للصليبيين المتوجه نحو أنطاكية.¹ وأمام هذا الموقف، تحرك شيوخ الأرمن وأعيانهم وطلبوا من ثوروس ألا يسمح لضيغه بالرحيل، فهم لا يستطيعون الاستغناء عنه، فرضخ لمطالبهم على مضض، ومن ثمة شرعوا يخططون للانتقام منه، متى يسمح الزمان والمكان بذلك.² وبناء على هذا الموقف، فمن غير المستبعد ألا يكون بلدوين مشاركاً ومتواطئاً مع الأهالي في ثورتهم ضد أميرهم، حتى يضمن لنفسه عرش الرها وبدون منافس يعكر مزاجه.

دامت الثورة أربعة أيام (من 1 إلى 4 ربيع الثاني 491هـ/7 إلى 10 مارس 1098). ولكن عملية حبك المؤامرة بدأت بعد العودة من سميساط في 20 فيفري،³ حيث يذكر متى الرهاوي، أن أربعين متآمراً اجتمعوا في الليل عند بلدوين، وبعد أن أطلعوه على خططهم، ووعدوه بتسليم الرها، أبدى بلدوين موافقته، وضموا إلى جانبهم القائد الأرمني قسطنطين،⁴ وفي يوم الأحد 7 مارس، أثار المتآمرون السكان، وحرصوهم على حمل السلاح ومهاجمة الدور التي يسكنها الموظفون، ثم تخلى الجنود عن ثوروس،⁵ وفي اليوم التالي زحف المتمردون على القصر الذي ينزل به الأمير بالقلعة، وشددوا عليه الحصار، ولما وجد ثوروس نفسه في مأزق، وشعر أن حياته في خطر، أرسل إلى بلدوين -ابنه بالتبني- وفتح له خزائن ثروته وأمواله، وترجاه أن يأخذها مقابل أن يتوسط بينه وبين الثائرين، ليسمحوا له بمغادرة المدينة واللجوء إلى صهره -والد زوجته- بملطية. ورغم أن بلدوين -حسب المصادر اللاتينية- حاول أن يكفل السلامة لثوروس، إلا أن محاولاته ذهبت أدراج الرياح. ففي يوم الثلاثاء 9 مارس تمكنت جموع الغوغاء من دخول القصر وألقوا القبض على أميرهم وهو يحاول الفرار عبر النافذة، فانقضوا عليه بالسيوف والعصي، وانهالوا عليه بالضرب، وأثخنوه بالجراح، ثم ربطوا قدميه بجبل وجروه وسط ساحات المدينة، ثم مزقوا جسده إرباً إرباً، وفي اليوم الموالي 10 مارس تم تنصيب

¹ Albert d'Aix : op. cit., t. I, pp. 128.

² وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 261.

³ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. 2, p. 1035.

⁴ متى الرهاوي : مصدر سابق ص 86؛ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 220.

⁵ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 261؛ رنسيमान ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 292.

بلدوين حاكما على الرها.¹ ولم تكن تلك العملية "حبا في الفرنجة، لكن بسبب البغضاء والنقمة التي كانت تملأ قلوب أعداء تيودور [ثوروس]"،² وبهذه الطريقة البشعة تخلص الأرمن من حاكمهم، وهو من جلدتهم، وتدل طريقة اغتياله أنهم انتقموا منه، وكانوا يكرهونه، لأنه أساء إليهم، أو كان قاسيا عليهم، وسلموا المدينة لحاكم فرنجي اعتقدوا أنه سيحميهم، ولم ينتبهوا أنه جاء فارغ اليدين يبحث عن ثروة وإمارة، وعن قريب سيطر عليهم بوجهه الحقيقي. وباعتباره المستفيد الأكبر من هذه الثورة فمن غير المستبعد أن يكون هو الذي حرك هذه الثورة التي أتاحت له في النهاية أن يحقق الهدف الذي كان يتطلع إليه.³

تعتبر الرها من المدن التي كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية قبل أن تخضع لسيادة السلاجقة. لذلك ينطبق عليها اليمين الذي أداه قادة الصليبيين أمام الامبراطور ألكسيس كومنين في القسطنطينية. ولكن بلدوين أظهر أن لا أهمية لهذا اليمين، ولم يكن حريصا على الوفاء بتعهداته للإمبراطور البيزنطي منذ أن جرب حظه في قيليقيا، وتل باشر، والراوندان، إضافة إلى ذلك أنه تولى مقاليد الأمور في الرها بتفويض من أهل المدينة، وبعد ثورة داخلية قام بها الأرمن ضد أمير من جنسهم، الذي يعتبر من الناحية الرسمية من أتباع الامبراطورية البيزنطية⁴ التي تربطهم بها علاقات سيئة، فتورقهم ضد ثوروس هي رمز للتمرد على سلطة يكرهونها. ومن ثمة فقد وجد بلدوين في الأرمن عنصرا قويا لتحقيق طموحاته، واستعان بهم لنقل السلطة في الرها من "قائد أرمني-بيزنطي إلى قائد فرنجي-أرمني".⁵ وقال ابن الأثير متحدثا عن امتلاك الفرنجة للرها : "قد ملكوا الرها بمكاتبة من أهلها لأن أكثرهم أرمن وليس بها من المسلمين إلا القليل"،⁶ غير أن الحادث لم يكن خافيا على ألكسيس،

¹ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 23؛ متى الرهاوي : مصدر سابق ص 86-88؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1،

ص 263؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, pp. 131-132.

² الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 22-23.

³ أبو سعيد حامد غنيم : مرجع سابق، ص 88.

⁴ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 293.

⁵ Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 129.

⁶ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 204.

الذي كان يراقب الوضع من بعيد، ولكنه أجّل المطالبة بحقوقه، إلى أن يصبح في وضع يمكنه من تحقيقها.¹

وبعد أن حقق بلدوين طموحه، وأسس أول إمارة فرنجية صليبية في المشرق، واتخذ لنفسه لقب كونت الرها،² ولكي تعظم مكانته في أعين أتباعه الجدد الذين نصبوه حاكماً على المدينة، راح يتوسع في القرى والحصون المجاورة، مستنداً في ذلك إلى الأرمن الذين كانوا "على أهبة لبذل أرواحهم دفاعاً عن كل ما فيه صالحه ومجده"،³ كما اعتمد على بعض الصليبيين الذين التحقوا به. وفي هذا الإطار استأنف مشروعه لغزو سميساط،⁴ الأمر الذي أفرغ بلق، ولما رأى هذا الأخير استعدادات بلدوين وإصراره على غزو مدينته، وأدرك صعوبة الدفاع عن إمارته بعد أن تبدلت الأوضاع في الرها، لجأ إلى دبلوماسية المساومة، فعرض عليه بيع مدينته مقابل عشرة آلاف قطعة ذهبية. وقبل بلدوين هذا العرض، وتسلم سميساط من بلق الذي قديم إلى الرها واتخذها مقراً له ولحرسه، على أن يكونوا من المرتزقة عند الكونت ومن أتباعه. ووجد القائد الصليبي في سميساط مجموعة من الرهائن والأسرى الرهاويين -معظمهم من الأرمن-، فحررهم جميعاً وأعادهم إلى ذويهم، فأكسبته هذه العملية حب أهالي الرها له، وزاد في أعينهم زيادة كبيرة.⁵

إذا كانت عملية سميساط قد فتحت الطريق للفرنجية، بين الرها ومدينة ملطية التي يحكمها جبريل الأرميني، فإن بلدوين اهتم بعدها بتمديد سلطته إلى مدينة سروج⁶ (Sarûj)، التي تقع بين الرها وأنطاكية، وكانت تابعة للأرناؤة،⁷ فتمكن منها، ووضع فيها حامية عسكرية

¹ رنسيان ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 293.

² المرجع السابق، ج 1، ص 295.

³ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 264.

⁴ Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 129.

⁵ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 133.

⁶ انظر موقع هذه المدينة في : الملحق الثالث عشر، ص 486.

⁷ تذكر المصادر اللاتينية أن حاكم سروج هو بلق بن بهرام الأرتقي ويسمونه بالاس (Balas)، ويذكر ابن الأثير في حوادث سنة 494 هـ، أن حاكمها هو سقمان بن ارتق. والأرناؤة سلالة تركية حكمت منطقة ديار بكر وماردين، منذ نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، حتى بداية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. وهي تنتسب إلى أرتق بن أكسب أحد =

فرنجية أرمنية.¹ وفي سنة 492هـ/1099م استولى على قلعة البيرة (Al-Bîra)،² وهي تقع على الطريق بين الرها وعين تاب، وتعتبر مركزا حربيا، ومنطقة عبور استراتيجية وهامة على الفرات، وترك على رأسها أميرا أرمنيا محليا يدعى أبو الغريب (Abelgh'arib).³

هكذا يكون بلدوين قد نجح -عن طريق الأرمن- في تحويل الإمارة الأرمنية البيزنطية إلى كونتية فرنجية⁴ أرمنية، أو بالأحرى إمارة أرمنية لورينية،⁵ عاصمتها الرها، اشتملت على سميساط وسروج والبيرة والراوندان وتل باشر. وهو أول قائد بين قادة الحملة الصليبية الأولى، استطاع أن يمكن لنفسه في الشرق ويحقق آماله وأطماعه السياسية بتأسيس إمارة ينفرد بحكمها وسط محيط يشكل الأرمن أغليته، مع وجود بعض المراكز التي بقيت خاضعة للمسلمين. وقد شجع هذا النجاح بقية القادة الصليبيين على أن يحدوا حذوه في تكوين إمارات لأنفسهم.⁶

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، كيف استطاع بلدوين أن يؤسس إمارة الرها بهذه السهولة؟ وهل كان يمكن له أن يحقق ذلك لو أن حاكمها كان مسلما، أو أن أغلبية سكانها كانوا مسلمين؟

=ممالك السلطان السلجوقي ملكشاه، الذي عينه على مدينة حلوان وأعمالها في العراق، ثم دخل في طاعة حاكم دمشق تاج الدولة تنش الذي منحه فلسطين في سنة 1086م، ثم خلفه أبنائه، إلى أن طردهم الفاطميون منها في سنة 1098م، فلجأوا إلى الجزيرة واسسوا هناك إمارة جديدة. (انظر : ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 204؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 264؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, pp. 134; Cahen Claude : **Artukids**, in : Enc. Isl., E. J. Brill, Leiden, 1986. vol. I. pp. 662-667).

¹ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 134؛ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 27-28؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 265؛ Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 131.

² البيرة : بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية وهي قلعة حصينة كانت تعرف بالقلعة البيضاء، تشرف على واحد من الطريقين الرئيسيين الرابطين بين شمال الشام والجزيرة. (انظر : الحموي : مصدر سابق، ج 2، ص 413؛ Cahen Claude : La Syrie du nord, p. 122).

³ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 152؛ Grousset René : op. cit., t. I, p. 132.

⁴ الحارثي : مرجع سابق، ص 84؛ Grousset René : op. cit., t. I, p. 128.

⁵ لورينية لأن أصل بلدوين البولوني يعود إلى المنطقة اللورين الواقعة شمال شرق فرنسا، وكانت هذه المنطقة محل نزاع طويل بين الممالك الفرنجية الشرقية والممالك الفرنجية الغربية، وانتقل هذا النزاع بين فرنسا وألمانيا، واستمر إلى الحرب العالمية الثانية. (انظر : الجنزوري عليه عبد السميع : مرجع سابق، ص 72؛ الموسوعة العربية الميسرة، ج 6، ص 2895).

⁶ Vasiliev A. A. : op. cit., t. II, p. 44; Bréhier Louis : L'Eglise et l'Orient, p. 77.

وهنا من المفيد، الإشارة إلى أن خروج إقليم الثغور والعواصم من أيدي المسلمين، وسيطرة البيزنطيين عليه في القرن العاشر الميلادي،¹ يعتبر من أهم نقاط القوة في الجبهة الصليبية؛ لأن المسلمين وجدوا أنفسهم مرغمين على مغادرة الإقليم، وعملت الإمبراطورية البيزنطية من جهتها على تعميره بعناصر مسيحية، وشجعتهم على الاستقرار في مدنه.² ثم هاجر إليه الأرمن بعد معركة منازلرد، وظلت هجرتهم متواصلة خلال الربع الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي، حتى أصبحوا يشكلون أغلبية السكان،³ ثم حلوا محل الإمبراطورية البيزنطية في السيطرة على تلك الجهات. ولما أعاد السلاجقة فتح إقليم الثغور وبسطوا أيديهم على مدنه وقراه، وانتزعوا من الأرمن بعض المدن مثل الرها، والمصيصة، واذنة... فإن ذلك لم يغير شيئاً من التركيبة البشرية للسكان، لأنهم اكتفوا بأن تكون لهم السيادة السياسية فقط، ولم يعملوا على تهجير العناصر المسيحية، أو على الأقل تشجيع المسلمين للاستقرار في تلك المناطق، بل عمدوا إلى تنصيب حاكم تركي على رأس كل مدينة، ووضعوا حاميات تولت أمر الحراسة والدفاع، وترتب عن ذلك حقيقة هامة، هي أن سيطرة الأتراك السلاجقة على إقليم الثغور، لم تكن سيطرة قوية شاملة، وكانت سيادتهم عليها سطحية، واكتفوا بأن يقدم لهم أمراء الأرمن فروض الطاعة، عن طريق تقديم المال والاعتراف بنوع من التبعية لهم.⁴ وفي ذلك يقول العمري متحدثاً عن دولة الأرمن: "وكانت طاعتهم آخراً لبقية الملوك السلاجقة بالروم، وعليهم جزية مقررة، وطاعة معروفة، والعمال والشحاني على البلاد من جهة الملك السلجوقي".⁵ ويستنتج من ذلك أن المسيحيين وخاصة الأرمن، ظلوا يشكلون الأغلبية الساحقة في مدن الثغور، وبات نفوذهم قوياً فيها،⁶ وهم الذين سهلوا مهمة بلدوين البولوني في الاستيلاء على مدينة الرها. ولو

¹ انظر الفصل الأول، ص 64-75.

² Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 198.

³ زعرور ابراهيم : تحرير الرها وأثرها على مجرى الحروب الصليبية، مجلة دراسات تاريخية، ع 59-60، جامعة دمشق، جانفي -

أفريل 1997. ص 10؛ Laurent J. : *Des Grecs aux Croisés*, p. 446.

⁴ عاشور سعيد عبد الفتاح : بحوث ودراسات، ص 231-232.

⁵ ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت 749 هـ)) : التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988. ص 80-81.

⁶ زعرور ابراهيم : مرجع سابق، ص 11.

كان حاكمها مسلماً، أو أغلب سكانها مسلمون، لكانت عملية الاستيلاء عليها مختلفة تماماً. يضاف إلى ذلك أن الصراعات والانقسامات كانت قد انهكت الجبهة الإسلامية، فالصراع العباسي الفاطمي، كان له أثره في تمزيق العالم الإسلامي، إلى معسكر سني تقوده الخلافة العباسية في بغداد، ومعسكر شيعة تقوده الدولة الفاطمية في القاهرة. وبعد وفاة السلطان ملكشاه سنة 485هـ/1092م، انتهت معه مرحلة التآلق في تاريخ السلاجقة، وانحلت دولتهم، وانشغل أفراد بيتهم بالتنافس والصراع وبالتآمر على بعضهم بعضاً، وتمزقت دولتهم إلى إمارات صغيرة. حيث أصبحت كل مدينة في يد قائد من القادة، مما أدى إلى فراغ سياسي، وغياب قوة إسلامية ضاربة، وقادرة على توحيد جهود المسلمين. استغل بلدوين هذا الفراغ السياسي والعسكري الإسلامي، بتوجيه ومساعدة من الأرمن في المنطقة.

وقامت إمارة الرها الصليبية بدور فرقة الاستطلاع التي تسبق الجيش في الحروب، أو كانت بمثابة مركز متقدم، ومحطة إنذار مبكر للصليبيين في حالة وقوع هجومات إسلامية قادمة من الشرق. وكانت في نفس الوقت حاجزاً بينهم وبين السلاجقة في آسيا الصغرى وفي العراق، وفي بلاد فارس، وقلعة تحمي بقية الإمارات الصليبية التي ستنشأ فيما بعد في بلاد الشام، من أي هجوم يأتي من النواحي الشرقية،¹ واتخذها الصليبيون قاعدة للضغط على على الخاصرة الغربية لدولة السلاجقة، وشكلت تهديداً ضد مدن ديار بكر، مثل نصيبين وماردين وحرّان، وشمالي العراق، كما سيطرت على الطرق المؤدية إلى حلب والموصل.²

ج - سياسة بلدوين تجاه الأرمن في الرها

وقد حاول بلدوين أن يطبق سياسة قائمة على الربط بين العناصر المختلفة التي صارت تتألف منها الإمارة، وقد أعطى مثالا عن ذلك بزواجه بالأميرة أردا (Arda)، وهي ابنة أحد الأمراء الأرمن، يسمى تفروق أو تفنوز (Tafrouk ou Taphnouz)، وهو ابن أخ قسطنطين أمير حصن كركر،

¹ عوض محمد مؤنس : تاريخ الصليبيات، ص 98؛ أبو سعيد حامد غنيم : مرجع سابق، ص 89.

² طقوش : سلاجقة الروم، ص 92.

الذي دفع صداقا كبيرا، ووعد بلدوين بأن يرث أرضه بعد وفاته، وأن يؤمنه ضد الأتراك، وأن يحميه من خشونة الأرمن،¹ وربما كان هؤلاء يريدون بهذه الزيجة مراقبة سيدهم الجديد.² فهو لم يكن يثق فيهم ثقة كاملة، بعدما حدث لثوروس من جانبهم.³ ولذلك كان حريصا على أن يظل العنصر الأرمني خاضعا للعنصر اللاتيني الغربي،⁴ ولكن قلة عدد الفرسان الفرنجة الذين يعتمد عليهم في كونتيته أعاقه عن تحقيق هذا الهدف.⁵ وهنا ساعده الحظ من جديد لتحقيق سياسته، إذ تدفق على الرها عدد كبير من الصليبيين الذين كانوا في طريقهم إلى أنطاكية، أو بعد أن سئموا من طول الحصار،⁶ وربما أغراهم بلدوين على القدوم إليه، فالتحقوا به ينشدون حياة أفضل في إمارته،⁷ فأغدق عليهم المنح والأموال، وشجعهم على الزواج من أميرات أرمنيات، وأقطعهم ضياعا في الريف.⁸ وسرعان ما أدت هذه السياسة إلى تكوين أرستقراطية عسكرية فرنجية، تحكم شعبا من الأرمن يشتغل أفرادها بالتجارة والزراعة. فما انعكاسات هذه السياسة على الأرمن؟ وكيف كان موقفهم منها؟

لم يحفل أرمن الرها بالفرجة كثيرا أول الأمر، خاصة وأنهم لم يضطهدوهم مذهبيا مثلما كان يفعل البيزنطيون قبلهم،⁹ ومع مرور الأيام، وتزايد تدفق الفرسان الفرنج إلى ممتلكاتهم، اتضحت سلبات هذه السياسة على الشعب الأرمني. لقد عاش الصليبيون الغربيون في الرها بعيدين عن الاختلاط بالأهالي، واتصفوا بالكبرياء والتعالي، فلم يصانعوهم بل عاملوهم بازدراء واحتقار، واعتبروهم جنسا أقل منهم في المستوى، واستخدموا العنف معهم في كثير من الأحوال، مما أساء كثيرا إلى شعورهم. واكتشف الأرمن أنه جرى استبعادهم من مجلس الكونت، حيث اقتصر فيه التمثيل عل

¹ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 142; Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 132.

² وليم الصوري : مصدر سابق، ج 2، ص 194؛ Dédéyan : Les Arméniens entre Grecs, t. 2, p. 1038.

³ الجنزوري علية عبد السميع : مرجع سابق، ص 74.

⁴ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 152؛ الحارثي : مرجع سابق، ص 85.

⁵ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 48.

⁶ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 293.

⁷ الجنزوري علية عبد السميع : مرجع سابق، ص 74-75.

⁸ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 296.

⁹ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 152.

الفرنج فقط، كما أن الضرائب التي يؤدونها لبلدوين، لا تقل عن الضرائب التي فرضها عليهم ثوروس. وبعد أن استولى الفرنجة على الضياع الزراعية خارج أسوار الرها، "وقوي أمرهم، وملكوا الرها وما حولها من الحصون الفراتية"،¹ وجد الفلاحون أنفسهم أقنانا عند أسيادهم القادمين حديثا،² وأنهم استبدلوا سيذا بسيد آخر.³ وأحسوا بأسلوب التفرقة الذي يسير عليه بلدوين، وأنه أثر عليهم المسيحيين الغربيين الذين وفدوا معه، فأصيبوا بخيبة أمل مريرة.⁴ وأدركوا أنهم حينما سلموا السلطة لبلدوين البولوني إنما أكرموا لئيمًا، وندموا على أن يكونه من السيادة عليهم، ولات حين ندم.

تلوم المؤرخة عليّة عبد السميع الجنزوري، بلدوين الذي لم يحسن انتقاء العناصر الصليبية الوافدة إلى إمارته،⁵ والحقيقة أن اللوم يعود على الأرمن أنفسهم؛ لأن هذا القائد الصليبي لم يدخل الرها ولم يستلم حكومتها إلا بموافقتهم، وثوروس لم يلق مصرعه إلا على أيديهم، وكان بإمكانهم أن يعيشوا مستقلين عن بيزنطة، مع دفع الجزية للسلاجقة الذين يحمونهم من أي غزو خارجي، بدلا من تسليم زمام أمورهم للفرنجة الذين جاؤوا يبحثون عن مستوطنات في الشرق، فإن المثل العربي، "يداك أوكتا وفوك نفخ" خير من يصف علاقة الأرمن بالفرنجة.

كل هذه العوامل متضافرة أدت إلى زوال الثقة بين بلدوين ورعاياه الرهاويين. وتوترت العلاقات بين الطرفين، وأخذ الأرمن يدبرون تنظيم إنقلاب على حاكمهم الجديد. فتشكلت خلية من اثني عشر فردا من نبلائهم في المدينة، واتصلوا بالأمرء الأتراك الأراتقة سرا في ديار بكر، وأشركوا معهم تفنوز صهر بلدوين، الذي كان في الرها آنذاك، ووعدوه بتنصيبه حاكما على الرها بعد الفتك ببلدوين، أو على الأقل طرده من مدينتهم. وبينما المتآمرون يحضرون في سرية للإجهاز عليه، إذ بأحد الأرمن يكشف له عن خيوط المؤامرة التي ترمي لاغتياله. وكان رد فعله سريعا، وعنيفا، إذ بتاريخ 30

¹ الفارقي : مصدر سابق، ص 268.

² رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 299؛ عاشور سعيد عبد الفتاح : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص 140؛ الجنزوري عليّة عبد السميع : مرجع سابق، ص 76-77.

³ زعرور ابراهيم : مرجع سابق، ص 11.

⁴ أبو سعيد حامد غنيم : مرجع سابق، ص 89.

⁵ الجنزوري عليّة عبد السميع : مرجع سابق، ص 76-77.

محرم 492هـ/26 ديسمبر 1098م، وقبل أن يبادر المتآمرون بأية حركة، أمر بإلقاء القبض عليهم، وعاقب اثنين يمثلان رأس المؤامرة، حسب الطريقة المعروفة في الدولة البيزنطية، فسمل أعينهما، وجدع أنفيهما، وقطع أيديهما وأرجلهما، وسجن المشتبه بهم، ونفى البعض منهم، وجرّد البعض الآخر من ممتلكاتهم. أما والد زوجته تفنوز الذي لم تثبت صلتة بالمؤامرة، فقد خرج من الرها، وعاد إلى إقليمه مذعورا مرعوبا، لما شاهده من شدة وجبروت صهره.¹ وبعد سنوات طرد بلدوين زوجته الأرمنية.² وهكذا وجد الأرمن المسيحيون أنفسهم قد لقوا على يد مسيحي آخر، تولى حكمهم منذ أقل من سنة، ما لم يسبق لهم أن لقوا مثله، على أيدي الحكام المسلمين،³ ولذلك اعتبرهم رنسيما ناكرون للمعروف.⁴

وبهذه التدابير أفشل بلدوين البولوني الانقلاب في مهده، وخرج منه مستفيدا، وقضى على كل ما يتوقعه من خطر أرمني، وأصبح يقف على أرض صلبة، ويشعر بأنه سيد عظيم يمتلك إمارة واسعة الأطراف، وافرة الثروة، وهو الذي كان يوم خروجه للحملة لا يملك شروى نقير، يعتمد في حياته على ما يجود به عليه اخوته،⁵ وأضحى الآن من كبار الأمراء، وبعد أقل من سنة من استلامه مدينة الرها، اكتسب شهرة بالغة الذيوع والانتشار، وكل ذلك كان بفضل الأرمن الذين أظهروا الامتعاظ والسخط من السلاجقة، ومن البيزنطيين، فوقعوا في قبضة الفرنجة. وكما كان الأرمن سببا في دخول الفرنجة إلى الرها، سيكونون سببا أيضا في دخولهم إلى مدينة أنطاكية.

2- دور الأرمن في سقوط مدينة أنطاكية

في الوقت الذي كان بلدوين يوطد حكمه وسط الأرمن في غرب الجزيرة، كان القسم الأكبر من الجيش الصليبي الذي غادر مرعش بتاريخ 8 ذي القعدة 490هـ/16 أكتوبر 1097م، يبحث

¹ ألبرت فون آخن : مصدر سابق، ص 185؛ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 300؛

Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, pp. 134-135.

² Mutfian Claude : L'Arménie du Levant, t. I, p. 59.

³ أبو سعيد حامد غنيم : مرجع سابق، ص 89.

⁴ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 294.

⁵ المرجع السابق، ج 1، ص 301.

الخطى زاحفا نحو مدينة أنطاكية في شمال الشام، وقد صادف الصليبيون في طريقهم، جماعات كبيرة من الأرمن، كانوا يسكنون الحصون والقلاع،¹ ومنها قلعة أرتاح التي انتزعوها من الحامية التركية بفضل من بداخلها من الأرمن،² وفي ذلك يقول وليم الصوري، "وما كاد الأرمن ... النازلين أرتاح يعلمون أن هؤلاء المحاربين قد جاؤوا من الجيش الذي طال انتظارهم إياه وتشوقوا إليه ... فهبوا إلى أسلحتهم وانقلبوا على الترك"،³ ثم استولوا على قلعة بغراس وقلاع أخرى بنفس الطريقة،⁴ وبعد أن "فتحوا كل ما عبروا : نيقية والشغور والدروب، نزلوا على أنطاكية"،⁵ يوم الأربعاء 13 ذي القعدة 490هـ/21 أكتوبر 1097م، فكان بوهيموند الذي يقود طلائع القوات الصليبية، أول قائد يحط رحاله أمام أسوارها، وجاء في أثره كل الجيش، ثم وصل تانكرد قادما من قيليقيا، بينما بقي بلدوين في الرها، واشتد خوف الصليبيين حين شاهدوا المدينة الضخمة لأول مرة.⁶

تعتبر أنطاكية مدينة كبيرة للغاية،⁷ وهي من أقوى مدن ذلك العصر تحصينا، بحيث لا يمكن مقارنتها في مناعتها وقوة تحصينها إلا بالقسطنطينية،⁸ فضلا عن موقعها الفريد والمتميز، مما جعلها مفتاحا لشمال الشام. وأدرك الصليبيون أنهم لا يستطيعون تأمين سيرهم جنوبا نحو بيت المقدس ما لم تقع أنطاكية بأيديهم. ولها في قلوب المسيحيين قداسة خاصة، إذ فيها أُطلق لأول مرة اسم المسيحيين على أتباع سيدنا عيسى عليه السلام، وبها بنى بطرس -كبير الخواريين- أول أسقفية له، وكان أول من تبوأ فيها وظيفة الأسقف هناك.⁹

¹ Cahen Claude : La Syrie du Nord, p. 209.

² Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 138.

³ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 266.

⁴ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 237.

⁵ العظيمي : مصدر سابق، ص 358؛ سبط بن الجوزي : مصدر سابق، ص 300.

⁶ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 268؛ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 306.

⁷ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 109.

⁸ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 271؛ Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 139.

⁹ ابن العديم : بغية الطلب، ص 85؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 271-272؛ Balard Michel : op. cit., p. 60.

وكان فيلاريت الأرميني قد انتزعها من البيزنطيين سنة 471هـ/1078م، بدعوة تلقاها من أرمن المدينة. ثم آلت إلى سليمان بن قتلمش سنة 477هـ/1084م، عن طريق خيانة داخلية قام بها الأرمن. وبعد وفاته آل حكمها إلى ابن عمه ملكشاه فعين عليها سنة 479هـ/1087م، أحد رجاله وهو ياغي سيان، الذي كان يحكمها عشية وصول جحافل الصليبيين إليها، وعلى عاتقه وقعت مسؤولية الدفاع عن المدينة.¹

ولما وصلت الحملة الصليبية الأولى إلى أنطاكية، كان ياغي سيان في موقف سياسي ضعيف، إذ دب الخلاف بينه وبين رضوان أمير حلب، وهو الأقوى بين أمراء سلاجقة الشام، وأقربهم إلى أنطاكية، بالإضافة إلى النزاعات بين الأخوين رضوان ودقاق أمير دمشق.² وهكذا وجد الصليبيون جبهة إسلامية ممزقة، وقد حاول ياغي سيان في هذا الوضع المضطرب إلتماس الحلفاء لمساعدته في مواجهة أعدائه الذين يحاصرون مدينته. فأرسل "ولديه شمس الدولة ومحمدا، (...) إلى أمراء المسلمين"،³ يطلب منهم النجدة والمساعدة لمواجهة جموع الفرنج، ولم يكتب إلى رضوان بسبب ما كان بينهما من خلاف، إضافة إلى خشيته من أن ينتزع منه أنطاكية.⁴ وفي الوقت نفسه أعد ياغي سيان عدته لحصار طويل، فشحن القلاع بالجند والمقاتلين، واختزن داخل أسوار المدينة المؤن الكافية،⁵ ولذلك مدحه ابن العديم قائلا: "وكان حسن التدبير في سياسة العسكر".⁶

أما الصليبيون فقد اتخذوا مواضعهم خارج أسوار أنطاكية، وضربوا حصارا عليها، وارتأوا التريث قبل مباشرة اقتحامها على الرغم من أن فرصة نجاحهم كانت ممكنة.⁷ وكان بوهيموند من أشد المعارضين لفكرة الهجوم المباشر، لأنه كان يخطط لامتلاك المدينة والانفراد بها، أسوة بما قام به بلدوين

¹ انظر الفصل الثالث، ص 172-173، 176-184.

² طقوش محمد سهيل: تاريخ الحروب الصليبية، دار النفائس، بيروت، 2011. ص 100.

³ ابن العديم: زبدة الحلب، ص 237.

⁴ طقوش محمد سهيل: تاريخ الحروب الصليبية، ص 100.

⁵ وليم الصوري: مصدر سابق، ج 1، ص 279؛ عاشور سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية، ج 1، ص 158-159.

⁶ ابن العديم: زبدة الحلب، ص 238.

⁷ طقوش محمد سهيل: تاريخ الحروب الصليبية، ص 99.

في الرها، وأشد ما كان يخشاه، أنه إذا سقطت المدينة، بفضل الجهد المشترك للجيش الصليبي، فلن يكون بوسعه مطلقاً أن ينفرد بالمطالبة بامتلاكها. وقد تعلم هذا الدرس من ألكسيس كومنين، أثناء محاصرة الصليبيين لمدينة نيقية،¹ وكان يدرك بأن الطريق الأقصر لتحقيق حلمه في أنطاكية هو الاتصال بالطابور الخامس.

أ - تقديم المؤن والمساعدة للصليبيين

عند وصول الصليبيين إلى أنطاكية، كان معظم سكانها مسيحيون، وهم يتكونون من البيزنطيين والسرمان والأرمن. أما الأتراك السلاجقة فكانوا أقلية، وقد احتكروا حمل السلاح والوظائف الإدارية الهامة، وتركوا الحرف والتجارة إلى أهالي المدينة.² وكان الأرمن وحدهم يشكلون ثلث (أو على الأقل ربع) سكان المدينة،³ ولذلك وجد الصليبيون صعوبة في الاستيلاء عليها،⁴ عكس مدينة الرها أو مدن أخرى في قيليقيا أو الفرات، حيث كانوا يشكلون أغلبية السكان.⁵ وعندما اقترب الصليبيون من مدينة أنطاكية وجدوا عدداً من نصارى المدينة خارج الأسوار، وهم من السرمان والأرمن، بعضهم أخرجهم ياغي سيان، وبعضهم خرجوا خفية، ومما لا شك فيه أنهم قدموا معلومات للصليبيين تتعلق بأسرار المدينة،⁶ كما تذكر بعض المصادر العربية أن ياغي سيان لما علم باقتراب الصليبيين من مدينته، أساء السيرة مع المسيحيين في أنطاكية وما جاورها، واتخذ إجراءات تعسفية ضدهم، فظلم بعضهم، وصادر ممتلكاتهم، فجاءتهم الفرصة للانتقام منه.⁷

¹ رنسيان ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 309.

² وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 334؛ Dédéyan : Les Arméniens entre Grecs, t. II, p. 833.

³ Dédéyan : op. cit., t. II, p., 836.

⁴ Cahen Claude : La Syrie du nord, p. 211.

⁵ براور يوشع : عالم الصليبيين، ترجمة قاسم عبده قاسم و محمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 1999. ص 83.

⁶ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 186؛ مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 50.

⁷ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 135؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 237.

وبعد ثلاثة أشهر من الحصار، نفذ ما كان عند الصليبيين من مؤن،¹ وبعد التشاور قرروا "خروج أعظم قادتهم بطائفة من الجند لشن حملة على أرض العدو، يستولون فيها على الماشية، وينهبون ما يقدرون عليه من الطعام اللازم"،² فأخذوا ينهبون القرى والضياع المجاورة لأنطاكية وحلب، بحثا عن الغذاء والأعلاف،³ واقتربوا من حلب "فأفسدوا ونهبوا وقتلوا من وجدوا".⁴ وفي ذلك الوقت وصلت إلى شيزر نجدة إسلامية كانت في طريقها إلى أنطاكية، على رأسها دقاق السلجوقي من دمشق، ومعه طغتكين أتابك، وجناح الدولة حسين بن ملاعب أمير حمص. فالتقوا بالصليبيين عند البارة في نهاية شهر محرم 491هـ/ديسمبر 1097،⁵ ويبدو أن المسلمين لم يحققوا انتصارا حاسما ضد الصليبيين، بدليل حدوث صدمات أخرى، كانت الحرب فيها سجالا بين الطرفين،⁶ وتمكن الفرنج من السيطرة على بعض القلاع والقرى المجاورة، منها الروج، ومعة مصرين، وحارم، وتل قباسين، وكان الأرمن يشكلون أغلب السكان فيها،⁷ "وغالبا ما كانوا يتصرفون وفق ما نريد"،⁸ فاستغلوا الفرصة وثاروا ضد الحاميات التركية المربطة بتلك المناطق وطردوها، وانضموا إلى الصليبيين،⁹ "فعند ذلك عصى من كان في الحصون والمعقل المجاورة لأنطاكية وقتلوا من كان فيها وهرب من هرب منها".¹⁰

ولكن هذه الانتصارات المحلية لم تحقق للصليبيين ما كانوا يرجونه من زاد وطعام، لأن المنطقة المحيطة بأنطاكية، تعرضت لعمليات نهب متتالية، فأجذبت الأرض، واستنزفت الموارد المحلية، بسبب

¹ ألبرت فون آخن : مصدر سابق، ص 111؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص 196.

² وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 291، 294.

³ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 159.

⁴ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 237.

⁵ نفسه.

⁶ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 113.

⁷ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 238؛ الرويضي محمود : مرجع سابق، ص 198-199؛

Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 144.

⁸ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 114.

⁹ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 138-139.

¹⁰ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 134.

عددهم الكبير، فلم يجدوا ما ينهبونه،¹ كما أن المسلمين بدأوا يدافعون عن أرزاقهم بشكل منظم فكانوا ينقضون على فرق السلب والنهب بأكملها، وقاموا بنقل قطعانهم ومواشيهم إلى الجبال التي لا يصل إليها أعداؤهم،² وعادوا إلى أنطاكية بأيد خالية وبطون خاوية.³ ولما رأى الأرمن أن الصليبيين عادوا بخفي حنين، خالبي الوفاض، أخذوا يجوبون الجبال والقرى، يشترون الحنطة والأطعمة ويرسلونها إلى المعسكر، غير أن الحافز لم يكن حب الخير، إنما الحرص على الربح، فباعوا ما حصلوا عليه بأثمان مضاعفة،⁴ وقام قسطنطين أمير آل روبين في جبال طوروس، بمد الصليبيين بكل ما في وسعه أن يمدّه، وبعث بعض الرهبان الأرمن المقيمين بأعالي جبال الأمانوس،⁵ بعض المؤن. وفي هذه الأثناء قام بلدوين أمير الرها من جهته بإرسال كميات من الطعام، وبعض الهدايا لقادة الجيش الصليبي، وتنازل لأخيه جودفري، عن كل موارد تل باشر من حبوب، ونيذ، وزيت، كما خصص له راتباً سنوياً.⁶

ولم تكف المساعدات التي وصلت من قبرص ومن جنوة، فأخذ شبح المجاعة يهدد معسكر الصليبيين، وتحت تأثير الجوع والإنهاك تفشت الأوبئة بينهم،⁷ وعمّت الفوضى وسوء النظام بين الجند، وتسرب اليأس إلى نفوس بعض قادتهم، فأخذوا ينسحبون من الحصار سرا،⁸ وما زاد من اضطراب أوضاعهم، وفَت في عضدهم، أن أخباراً انتشرت بين صفوفهم تفيد أن كربوغا أمير الموصل، قد جمع حشوداً لا يحصيها العد من الفرس والترك والأكراد،⁹ وسار بها إلى الشام، وبعد أن حاصر الرها عدة أسابيع، أخذ يزحف في طريقه إلى أنطاكية، وبعدها سيخرج ياغي سيان بجيشه من

¹ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 112.

² وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 292، 300؛ طقوش محمد سهيل : تاريخ الحروب الصليبية، ص 102.

³ المصدر السابق، ص 299.

⁴ مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 54-55؛ فيتالي أوردريك : مصدر سابق، ص 54.

⁵ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 314.

⁶ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 329-330؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 203.

⁷ المصدر السابق، ج 1، ص 300؛ فيتالي أوردريك : مصدر سابق، ص 52.

⁸ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 111؛ فيتالي أوردريك : مصدر سابق، ص 54؛ Raoul de Caen : op. cit., p. 124.

⁹ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 339.

المدينة، فيجد الصليبيون أنفسهم بين فكي كماشة، "فلما سمعت الفرنج عظمت المصيبة عليهم وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات عندهم".¹

ولكن بوهيموند وجد في هذه الظروف فرصة لتحقيق حلمه. فاستغل أصعب أوقات الحصار وأشدّها حرجاً - في أواخر محرم 491هـ/أوائل جانفي 1098 - ليعلن أنه قرر الانسحاب والعودة إلى موطنه بإيطاليا، متظاهراً بأنه لا يستطيع الاستمرار في تلك العملية الحربية الطويلة التي لم يكن مستعداً لها، ولا يمكنه أن يصبر على رؤية رجاله وفرسانه وحيوله، وهم يتساقطون كل يوم صرعى من الجوع والبرد أمام أسوار أنطاكية، فأسرع قادة الصليبيين - إلا ريموند كونت تولوز - وتوسلوا إليه أن لا يتركهم أمام أسوار أنطاكية، ووعدوه بتسليمها له فور الاستيلاء عليها.²

أخذ بوهيموند يعد الخطة لتنفيذ فكرته، ففرض أولاً على الجواسيس الذين كانوا مندسين بين صفوف الصليبيين بوحشية،³ نظراً لدرايته بما اشتهر في الشرق من طرق الخيانة والغدر. وكان هو نفسه قد أعد خطة للاستيلاء على المدينة عن طريق الخيانة، وعن طريقها استولى الأتراك على أنطاكية سنة 487هـ/1085م، وتعتبر الخيانة الخطر الوحيد الذي كان لابد لياغي سيان أن يحذر منه،⁴ خاصة من جانب الأرمن.

¹ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 187.

² وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 338-345؛ مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 66-67؛ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 160-161، 161-160، Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 160-161.

³ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 301-303.

⁴ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 308.

ب - خيانة فيروز الأرمني للمسلمين

وكان بوهيموند قد وطد صلته بأحد القادة بداخل المدينة اسمه فيروز،¹ وهو أرمني اعتنق الاسلام،² وعرف في المصادر العربية باسم الزرّاد.³ أما بعض المصادر الغربية فقد وصفته بالمرتد عن المسيحية.⁴ وكان ينتمي إلى أسرة أرمنية عريقة اتخذت من الأمانوس مأوى لها، حيث امتلكت فيه قصورا، وأراضٍ شاسعة، واتخذ كثير من أفرادها من صناعة الأسلحة حرفة لهم.⁵ وكان فيروز من أثرياء المدينة، وله فيها نفوذ قوي، وهو كبير عشيرته وأسرته، ونال ثقة ياغي سيان، فقلده مناصب سامية، فكان كاتم السر في القصر، ثم عهد إليه بحراسة أحد أبراج المدينة، وهو برج الأختين الذي يقع في الجانب الغربي من المدينة، وقد خصص هذا البرج لتلك العائلة.⁶ وفي ظروف الحصار الصعبة التي فرضها الصليبيون على أنطاكية، طلب ياغي سيان من كل سكان المدينة أن يضعوا في قصره نصف ما يدخرون من حبوب، ثم أرسل إلى فيروز يطلب منه أن يحضر النصف المتبقي من كمية القمح التي مازالت عنده،⁷ أو ربما قدم فيروز كمية قليلة، واحتكر كمية كبيرة عنده، فقام ياغي سيان بمصادرة ماله وغلته، ولم يلبث ذلك الأرمني أن حقد على سيده، فنافق وتواطأ مع الصليبيين وكاتبهم.⁸

¹ يختلف ألبرت فون آخن (Albert d'Aix)، في روايته عن المصادر الأخرى، فهو يسمي هذا الخائن بوهيموند ويقول أنه تنصر، وسبب الخيانة تعود إلى أن طفلا تركيا وقع في الأسر، واتفق بوهيموند أن يسلمه إلى أبيه في أنطاكية مقابل الخيانة. (انظر : ألبرت فون آخن : مصدر سابق، ص 138).

² أنا كومينا : مصدر سابق، ص 46؛ العظيمي : مصدر سابق، ص 359؛ عاشور سعيد عبد الفتاح : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص 156؛ فيتالي أورديك : مصدر سابق، ص 62؛ Cahen Claude : La Syrie du nord, p. 215.

³ الزرّاد ليس اسما، ولكنه اسم فاعل وأصل الفعل زرد ومعناها نسج أو صنع الدرع، والزراد هو صانع الدروع، وكانت عائلة فيروز مشهورة بهذه الحرفة التي توارثتها أبا عن جد، واكتسبت منها ثروة طائلة، وهذا لا يعني أن فيروز كان يمتن هذه الحرفة، ولكن أسرته اشتهرت بهذا اللقب حتى أصبحت تعرف ببني زرّدة، وكل أفرادها عرفوا بلقب الزرّاد. (انظر : ابن منظور : مرجع سابق، مج 3، ص 194؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 334).

⁴ Raoul de Caen : op. cit., p. 131.

⁵ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. II, p. 825, 837.

⁶ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 334-335؛ Raoul de Caen : op. cit., p. 131.

⁷ Raoul de Caen : op. cit., p. 131-132.

⁸ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 239؛ الرويضي محمود : مرجع سابق، ص 200.

اتصل فيروز سرا عن طريق ابنه بوهيموند، وتعددت المراسلات والمكاتبات بينهما،¹ وحرص بوهيموند على أن تظل هذه الاتصالات سرية، واتفقا في الأخير على كيفية الدخول إلى المدينة والمكافأة التي يتحصل عليها، والضمانات المقدمة له، واحتفظ وليم الصوري بإحدى الرسائل التي أرسلها فيروز عن طريق ابنه إلى بوهيموند.² ومقابل هذه الخيانة يعيد بوهيموند إلى فيروز كل الأراضي والممتلكات التي كانت تملكها عائلته في الأمانوس، مع ثروة ضخمة تجعله من كبار الأثرياء في المدينة،³ ومن المحتمل أنهما اتفقا على أن يقوم باعتراف المسيحية من جديد.⁴ غير أن بوهيموند احتفظ لنفسه بسر المؤامرة، ولم يبح لأحد من رجاله أو من قادة الصليبيين بتفاصيل الاتفاق بينه وبين فيروز الزراد الأرمني،⁵ وبقي يؤكد علنا ما سوف يواجهه الصليبيين من أخطار حتى يعطي قيمة كبيرة لانتصاره المقبل.⁶

راح بوهيموند يعمل لتنفيذ فكرته، وكان حريصا على عدم تسليم المدينة إلى البيزنطيين، والاحتفاظ بها لنفسه.⁷ فاستفز تاتيكوس ممثل الامبراطور البيزنطي، ثم تظاهر بأنه يقدم له النصيحة بأن قادة الحملة الصليبية يتآمرون لقتله، فانسحب مسرعا إلى السويدية ثم إلى قبرص،⁸ وبذلك تخلص بوهيموند من ارتباطاته مع ألكسيس كومنين. ولما حلت ساعة الصفر لاقتحام المدينة كما هو متفق عليه مع فيروز، التقى بوهيموند بكبار القادة وأخبرهم لأول مرة عن خطته،⁹ ثم أمرهم بحشد الجيش بعد الظهر، والتوجه نحو الشرق للتظاهر بأنه يسير لمنع تقدم كربوغا، ولما رأى الأتراك الذين بداخل

¹ Guibert de Nogent : Histoire des Croisades, chez J.-L.-J. Brière, Librairie, Paris, 1825. p. 155.

² انظر نص هذه الرسالة في الملحق الخامس، ص 472-473.

³ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 186؛ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 222.

⁴ مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 66؛ Guibert de Nogent : op. cit., p. 156.

⁵ Comnène Anne : op. cit., t. III, p. 20.

⁶ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 329.

⁷ عطية حسين محمد : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون 1171-1268م/567-666هـ، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1989. ص 124.

⁸ أنا كومينا : مصدر سابق، ص 47.

⁹ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 338؛ ألبرت فون آخن : مصدر سابق، ص 138.

المدينة أن الصليبيين يتعدون عن أسوارها، أخذوا للراحة، يبتغون ليلة هادئة.¹ وعند منتصف الليل، صدرت الأوامر للجيش بالعودة والمرابطة في الجهات الغربية والشمالية الغربية للمدينة، فوصل جنود بوهيموند أمام برج الأختين عند السحر، ونصبوا سلما، ارتقاه نحو ستين فارسا، الواحد بعد الآخر، ودخلوا من نافذة بأعلى السور، ووجدوا فيروز في انتظارهم، وظن أن عددهم ليس كافيا فصاح قائلا: "ما أقل الفرنجة ؟ أين بوهيموند ؟".² ومن برج الشقيقتين تسلل الفرسان إلى برجين مجاورين كانا يحرسهما شقيق فيروز،³ واستولوا عليهما، ثم تمكن رفاقهم من أن يقيموا السلام على سائر أجزاء السور، الواقعة بين الأبراج الثلاثة، ثم صعد بوهيموند، ونزلت فئة أخرى من الصليبيين إلى داخل المدينة، فأثاروا السكان المسيحيين، وفتحوا باب القديس جورج، والباب الكبير، حيث كان قبالة معظم الجيش الصليبي، فأخذ يتدفق على المدينة، وانحاز إليه الأرمن وبقية المسيحيين، ثم أرشدوهم عبر مسالك البلد المتشابكة المعوجة الوعرة،⁴ وأخذوا يقتلون كل من وجدوه في طريقهم من الترك.⁵

ج - اجهاز الأرمن على ياغي سيان

اما ياغي سيان فقد فر مع بعض غلمانة. ولما "طلع عليه النهار رجع إليه عقله وكان كالولهان"،⁶ فندم على ما فعل، وأخذ يتلهف على ترك أهله وأولاده والمسلمين، حتى سقط مغشيا عليه، فتخلى عنه حرسه، ومر به بعض الأرمن فعرفوه، وهو على آخر رمق، فقطع أحدهم رأسه، وحمله إلى الفرنج بأنطاكية، فكافأه بوهيموند بجائزة، بينما باع الآخرون متاعه، وسيفه وغمده.⁷

¹ مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 67-68؛ رنسيان ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 331؛
Guibert de Nogent : op. cit., p. 158.

² المصدر السابق، ص 68؛ Ibid., p. 160.

³ Raoul de Caen : op. cit., p. 133.

⁴ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 338؛ Guibert de Nogent : op. cit., p. 162.

⁵ مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 68-69؛ رنسيان ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 331-332.

⁶ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 186.

⁷ مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 70؛ ألبرت فون آخن : مصدر سابق، ص 144؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 240؛ ابن

العبري : مصدر سابق، ص 132-124؛ Guibert de Nogent : op. cit., p. 164.

وهكذا انتقلت أنطاكية إلى الصليبيين يوم 1 رجب 491هـ/3 جوان 1098م¹، بعد أن امتنعت عنهم سبعة أشهر، فتحتها لهم الأرمن خيانة وغدرا، بعد أن عجزوا عن دخولها عنوة وبالسيف، واستباحوها أياما للنهب والسلب والاعتصاب، وكشر الصليبيون عن أنيابهم، بعد أن دلهم الأرمن على عورات المسلمين، وتحول جنود المسيح إلى قتلة وسفاكي دماء، لا يختلفون عن البرابرة، وليس هناك أفضل مما كتبه شاهد عيان قائلا : "وامتلأت جميع شعاب المدينة ومسالكها بالجثث، حتى لقد أصبح من المستحيل السير فيها نظرا للرائحة النتنة المتصاعدة منها، ولم يتمكن أحد منا من السير في الشوارع إلا على جثث الموتى"²، وأثار خبر سقوط أنطاكية موجة من الذعر في القرى والبلدان الإسلامية القريبة فهرب من كان فيها من المسلمين وتسلمها الأرمن.³

أما بالنسبة لفيروز، فإذا كانت الرواية التي وردت في بعض المصادر اللاتينية صادقة، فيبدو أنه ارتد واعتنق المسيحية مجددا، وسمّى نفسه بوهيموند، واستعاد ثرواته وممتلكاته، ثم سار مع الصليبيين إلى فلسطين، وشارك معهم في حصار بيت المقدس، وبعد أن استولوا عليها، عاد فيروز إلى أنطاكية، ثم أرسل من يعلن في أسواقها وأزقتها، أن من له حاجة، ويريد الذهاب معه إلى قصره وأراضيه في الأمانوس، سيمنحهم هناك ما وعدهم به من عطايا ومنح. فالتحق به عدد من الناس، طمعا في ماله أو هداياه، فلما وصلوا قلب لهم ظهر المجن، واعتقل بعضهم، وقتل آخرين واستولى على خيولهم، في حين تمكن آخرون من الفرار. ثم تخلى عن المسيحية واعتنق الاسلام من جديد، والتحق بخدمة رضوان بن تتش السلجوقي أمير حلب، ما جعل بعض المصادر اللاتينية تصفه بالخائن.⁴

ولا يسمح إطار البحث بمتابعة كل نشاطات الحملة الصليبية الأولى، التي تقرر مصيرها بعد سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين،⁵ الذين قاموا بتجنيد عدد كبير من الأرمن في صفوفهم،

¹ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 135.

² مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 70.

³ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 240.

⁴ Guibert de Nogent : op. cit., p. 218-219; Dédéyan : Les Arméniens entre Grecs, t. II, p. 847-849.

⁵ عطية حسين محمد : مرجع سابق، ص 111.

واستفادوا منهم كثيرا في احتلال المدن الساحلية في الشام، وكانوا إلى جانبهم في الحصار الذي ضربه على بيت المقدس. وعلى العكس من ذلك، فقد اتخذوا موقفا معاديا من السريان، الذين كانوا - في نظر الصليبيين - أقرب إلى المسلمين من الأرمن، باعتبارهم من أهل البلد أي عراقيين أو سوريين، فإنهم لم يكونوا متعاطفين مع اللاتين، ولم يولوهم شيئا من العطف.¹

أما الأرمن فكانوا دائما مع الفرنجة ضد البيزنطيين أو ضد المسلمين، فحينما فشل كربوغا في الحصار الذي ضربه على أنطاكية، وانهمز أمام الصليبيين، وفرَّ الجيش الذي كان معه متراجعا إلى حلب أو إلى المدن المجاورة لأنطاكية، فإن الأرمن نصبوا لهم الكمائن في الطرقات، وكانوا لهم بالمرصاد، ونهبوا معسكرهم.² وفي 28 ذي الحجة 491هـ/25 نوفمبر 1098م، خرج ريموند دو تولوز (Raymond de Toulouse)، بجيشه من أنطاكية، وسار معه "الأرمن الذين في طاعته"³ وحاصروا معرة النعمان، وكان القس الأرمني في أنطاكية كبريانوس (Kiprianos)، يشجع بني جلدته على الانضمام إلى جيش الصليبيين.⁴ ومما يدل على أنهم أصبحوا جزءا من الجيش الصليبي بعد احتلاله أنطاكية، أنه في سنة 503هـ/1110م، ضاعف تانكرد حملاته العسكرية ضد رضوان في حلب، ثم طلب منه دفع الجزية وإطلاق سراح الأسرى الأرمن، الذين أسرههم وقت إغارته على أنطاكية.⁵

وبعد أن استقر الصليبيون في الرها وأنطاكية، شرعوا يتوسعون على حساب جيرانهم من المسلمين والمسيحيين، فانقلب الود والتعاون الذي كان بينهم وبين الأرمن إلى عداوة سافرة، أدت إلى اندلاع حروب ومعارك حامية بين الطرفين، وهو ما سنتعرض إليه في الصفحات اللاحقة.

¹ رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 336.

² ابن العديم : زبدة الحلب، ص 241؛ Guibert de Nogent : op. cit., p. 206.

³ المصدر السابق، ص 244.

⁴ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. II, p. 860.

⁵ العظيمي : مصدر سابق، ص 365؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 253.

3- كوغ فاسيل (Kogh Vasil) في كيسوم (Kaisoun)

يسميه ابن الأثير "بسيل الأرمني صاحب الدروب ببلاد ابن لاون"،¹ واشتهر في المصادر باسم فاسيل اللص،² (كوغ qnn) kogh بالآرمينية تعني سارق)،³ واكتسب هذا اللقب "لأنه كان يسطو على المسافرين باستمرار"،⁴ ما يدل على أنه كان يقوم في بداية شبابه بعمليات السلب والنهب، والسطو على أموال وممتلكات الناس، وعلى المارة في الطرقات،⁵ أو لأنه "سرق عدة قلاع من الثغور فتملكها الأرمن إلى الآن"،⁶ وقد استولى على هذه القلاع من البيزنطيين، مستغلا ضعفهم بعد معركة منازكرد، وانشغالهم بالحرب الأهلية. فهو مغامر مثل فيلاريت، ولكنه يختلف عنه لأنه بقي ملتزما بطقوس الكنيسة الأرمنية، ولم يعتنق مبادئ الكنيسة البيزنطية، ولذلك كان مقبولا من عامة الشعب الأرمني، ومن رجال الدين، أكثر من فيلاريت،⁷ الأمر الذي جعل رجال الدين الأرمن يتخذون من إقليمه ملجأ لهم، منهم الكاثوليكوس جريجور الثاني فيكاياسر، الذي أقام في أواخر حياته، في الأراضي التابعة له، وبالضبط في دير يقع قرب كيسوم يعرف بالدير الأحمر، كان تابعا للسريان فاغتُصِب منهم ومنح لخلق الأرمن، وبقي فيه حتى وافته المنية سنة 1105م،⁸ ويثني عليه متى الرهاوي على كوغ فاسيل بقوله : "هذا المحارب الشهير الذي اجتمعت عنده فلول جيشنا الوطني"،⁹ ويعتبره بطلا قوميا، ومن الذين ساهموا كثيرا في لمّ شمل الأرمن في الشتات.¹⁰

¹ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 295.

² ابن الشحنة : مصدر سابق، ص 180؛ ابن العبري : مصدر سابق، ص 126.

³ Grousset : L'Empire du Levant, p. 184; Dédéyan : Les Arméniens entre Grecs, t. II, p. 1059.

⁴ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 25.

⁵ Dédéyan Gérard : loc. cit.

⁶ ابن العبري : ص 199؛ ابن الشحنة : مصدر سابق، ص 180.

⁷ Mutfian Claude : La Cilicie, t. 1, p. 377.

⁸ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 135؛ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 257.

⁹ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 145.

¹⁰ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 282; Mutfian Claude : loc. cit.

أسس كوغ فاسيل إمارة عمّرت حوالي ثلاثين سنة (1082-1112)، امتدت من الفرات شرقاً إلى مرعش غرباً، ومن ضواحي ملطية شمالاً إلى البيرة جنوباً،¹ وكانت معظم هذه الأراضي جبلية، وهي تضم عدة مدن وقلاع منها كيسوم (Kaisoun)، التي اتخذها عاصمة له، ويبدو أنها كانت مدينة خربة ومهجورة، فقام بترميمها وإعادة بناء سورها، وبسط نفوذه أيضاً على رعبان (Raban)، وقلعة الروم، وحصن منصور...² وامتدت سلطته في بعض السنوات إلى مرعش، وسميساط، وسرعان ما غدت تلك الإمارة الأرمنية قلعة منيعة، ومأوى لكثير من الأرمن، ومحوراً لآمالهم.³ وكان في بداية أمره من أتباع فيلاريت، وبعد وفاته، حاول كوغ فاسيل الإبقاء على الروابط الاسمية مع الامبراطورية البيزنطية،⁴ فمنحه ألكسيس كومنين لقب سباستوس (Sebaste)،⁵ وهو من الألقاب التي كان يحملها بعض رجال الامبراطورية البيزنطية، ويستنتج من ذلك أنه كان أكثر الأمراء الأرمن نشاطاً في الشرق، كما كان في وقت من الأوقات، ممثلاً لمصالح بيزنطة في إقليم الفرات، ومعترفاً بسيادتها، ويقوم بدور شبيه بالدور الذي كان يقوم به أوشين في لمبرون.⁶

لم تنل إمارة كوغ فاسيل حظها من الدراسة والبحث، ولم ترد معلومات كافية عنها في المصادر، كما هو الحال بالنسبة لإمارة آل روين، وآل أوشين في جبال طوروس، ربما لأنها لم تعمر طويلاً (ثلاثون سنة)، أو ربما كانت بعيدة عن الطريق الذي سلكه الصليبيون في اتجاههم نحو أنطاكية

¹ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. II, p. 1059.

² Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 187, 199.

³ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية ج 1، ص 361.

⁴ Grégoire le prêtre : Chronique de Grégoire le prêtre, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} éd., Paris, 1969. t. I, p. 165.

⁵ سباستوس (Sebaste) : أي الجليل، وهو لقب شرقي ابتدعه الامبراطور ألكسيس كومنين، وكان يمنحه للوجهاء، وأصحاب الجهاد، الذين لا تربطهم قرابة بالعائلة الحاكمة، وهو لقب وليس رتبة في الإدارة أو في السلطة، وقد حمله بعض رجال الامبراطورية البيزنطية، وكما منح الأباطرة هذا اللقب إلى كوغ فاسيل، منحوه أيضاً إلى أمراء آل هيثوم في لمبرون، وآل روين في طوروس، = وهي الإمارات الأرمنية الثلاث الأكثر أهمية في قيليقيا، كوسيلة لربط هؤلاء القادة بهم، وكرمز لتبعية الامبراطورية البيزنطية. (انظر : رنسيما ستيفن : الحضارة البيزنطية، ص 98؛ عمران محمود سعيد : السياسة الشرقية، ص 61؛

Bréhier : Les institutions p. 142, 279; Dulaurier : ds. R.H.C.D. Arm. t. 1, p. 165. Note n°1.)

⁶ Chalandon Ferdinand : Les Comnène étude sur l'empire Byzantin au XI^e et XII^e siècles, Burt Franklin, New York, 1925. t. II, p. 101.

والقدس. وقد ارتبط مصير هذه الإمارة إلى حد بعيد، بمصير الإمارة الصغيرة التي أقامها بقرط في الراوندان.

بقرط هو الأخ الأصغر لكوغ فاسيل، اتخذه بلدوين مستشارا له منذ ان تعرف عليه في نيقية، وهو الذي أرشد الصليبيين في الدروب الوعة التي عبروها في قيليقيا، ونصح بلدوين بالتوجه شرقا نحو الفرات حيث يقيم عدد كبير من الأرمن الذين هم في انتظاره، ليساعدهم بجيشه في حروبهم ضد الأتراك.¹ ولكن هذه العلاقات المتميزة لم تلبث أن توترت، إذ سرعان ما ارتاب بلدوين في مدى إخلاص بقرط له، واندلعت الحرب سافرة بينهما.

ذلك لأن بلدوين كان قد ادخر في نفسه كل ما يتصف به الرجل السياسي من الحكمة والحنكة وبعد النظر والصلابة، فبمجرد أن حامت الشكوك حول بقرط، وأصبح مشكوكا في مدى إخلاصه،² عزله عن الحكم، وانتزع منه حصن الراوندان، ثم ألقى به في السجن. وبقدر ما كان بلدوين صلبا، فإن بقرط كان أرمنيا شديد المكر، حيث فر من سجنه، ولجأ إلى أخيه كوغ فاسيل في كيسوم، فوجد عنده المأوى والملجأ، واحتفى بالجبال الواقعة في إقليمه، وانضم إلى عصاة أخيه، ثم أخذوا يبتز أهل الأديرة بالأموال الطائلة، ويقطع الطرق على سالكيها ويسلبهم ما يحملون.³

ولكي يحمي بقرط نفسه من تسلط بلدوين وأخيه جودفري عليه، وضع نفسه في خدمة بوهيموند،⁴ ورغم أنه استعاد بعضا من حصونه وقلاعته مؤقتا، فإن بلدوين دو بور

¹ انظر الفصل الرابع، ص 240-241.

² رنسيما ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ص 15؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 125.

³ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 256؛ ج 2، ص 27؛ ابن العري : تاريخ الزمان، ص 135.

⁴ يذكر وليم الصوري أن نيكوسوس وهو أحد أمراء الأرمن، أرسل إلى بلدوين أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية، هدية تتمثل في خيمة كبيرة منسوجة بإتقان، ولكن بقرط نصب كمينا لاصطياد الخدم الموكل إليهم حراسة هذه الهدية، وأمر رجاله بالاستيلاء على الخيمة، وان يأخذوها إلى بوهيموند، كهدية من بقرط، ليكسب صداقته. ولما سمع جودفري من الخدم ما حدث لهم، توجه إلى بوهيموند وطلب منه أن يعيد إليه الخيمة المهداة إليه شخصيا، وقد اغتصبها منه بغير حق، فرفض بوهيموند طلب جودفري، لأن الخيمة مهداة من بقرط إليه شخصيا عربونا على التبعية والولاء، ومن حقه الشرعي الاحتفاظ بها لنفسه. وكاد أن يندلع نزاع بينهما، ثم استجاب بوهيموند لالتماسات القادة، وأعاد إلى جودفري الخيمة التي كانت مهداة إلى بلدوين. (انظر : وليم الصوري: مصدر سابق، ج 1، ص 330، ج 2، ص 27؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, pp. 203-204, 280.)

(Baudouin de Bourg)، ابن عم الملك بلدوين وسميه،¹ هاجمه وانتزعها منه، ثم اغتاله حوالي سنة 507هـ/1113م أو 508هـ/1114م.² ولم يستطع بوهيموند حاكم أنطاكية، أن يقدم له أي دعم أو مساعدة.³ هكذا أنهى الصليبيون حياة أول أمير أرمني، وضع نفسه في خدمتهم، ووظفها لإدخال الفرنجة إلى قيليقيا، وفتح لهم أبواب الشرق على مصراعيه، فإن المثل العربي القائل جزاء سنمار، ينطبق تماما على وضعية بقراط تجاه الصليبيين.

ومما لا شك فيه أن هذه العلاقات المتوترة بين بقراط والصليبيين، كان لها أثر واضح في علاقة بلدوين بكوغ فاسيل، الذي حاول أن يحافظ على استقلال إمارته بعيداً عن نفوذ الصليبيين، فهو لم يرسل في طلبهم، ومن المحتمل أن يكون قد أرسل مساعدة لبلدوين في هجومه على سميساط، إلا أنه لم يعترف له بالتبعية، ولم يتلق في قلاعه وحصونه حاميات صليبية لحمايته من الأتراك. وربما ساعدته الطبيعة على ذلك، فإمارته تقع في زاوية منعزلة وبعيدة عن طرق الصليبيين، وطابعها الجبلي يزيد من صعوبة الوصول إليها، بالإضافة إلى وجود عدد كبير من نبلاء الأرمن الذين هاجروا مع فرقهم العسكرية الخاصة، وضعوا أنفسهم في خدمة كوغ فاسيل. ثم إن عملية الاغتيال الوحشي والبشع التي تعرض لها ثوروس الأرمني في الرها، زادت من درجة ارتيابه في الصليبيين، وحذره منهم، وجعلته متحفظاً يلتزم مسافة بعيدة عن بلدوين البولوني يتقي بها شره.⁴ ولكن سياسة الحياد السلبي، أو بالأحرى موقف النعامة الذي التزم به كوغ فاسيل كان وبالا عليه وعلى إمارته، ولم يكن منه إلا الثبور والخسران.

¹ ظل بلدوين يحكم مدينة الرها حتى سنة 1100م، حيث انتقل إلى فلسطين ليتولى عرش مملكة بيت المقدس بعد وفاة أخيه جودفري، فاستدعى ابن عمه بلدوين دو بور، الذي كان آنذاك في أنطاكية، وقلده حكومة الرها، على أن يكون خاضعاً لسيادته. (انظر : رنسيमान ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 455، ج 2، ص 63).

² رنسيमान ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ص 211، Dédéyan : Les Arméniens entre Grecs, t. II, p. 1124.

³ Chalandon Ferdinand : t. II, op. cit., p. 99.

⁴ Dédéyan Gérard : op. cit., t. II, p. 1112.

أ - علاقة كوغ فاسيل بالصليبيين

والحقيقة أن الموقف الذي اتخذته كوغ فاسيل، من أخيه بقرط، الذي لجأ إليه بعد فراره من سجن بلدوين، يعتبر بمثابة إعلان حرب ضد الفرنجة، وتحديدًا ضد جودفري أخ بلدوين البولوني الذي تلقى دعوة من أخيه لزيارته في الرها، فذهب إليه في شهر رمضان 491هـ/أوت 1098م، هروبا من الأوبئة التي تفشت في مدينة أنطاكية بعد سقوطها في أيدي الصليبيين. فأقطعه بلدوين حصون تل باشر، وعين تاب، والراوندان،¹ وهي التي كان بعضها تحت سلطة بقرط سابقا. واستغل بعض ضحايا بقرط، وكوغ فاسيل فرصة وجود جودفري في منطقة الفرات، وبسطوا أمامه شكواهم حول ما يتعرضون له من نهب وسلب على أيدي رجال بقرط وكوغ فاسيل. "فبعث على الفور ضدهما رهطا من خمسين من خاصة فرسانه، مع طائفة من أهل تلك الناحية، فاقتحموا كلهم قلاعها بقوة السلاح وسووها بالأرض، لتخضيد شوكة هذين الكبيرين -ولو إلى حد ما- وحملهما على الكف عن سفههما الذي لم يعد محتملا".² ولكن تلك الهجومات لم تقلص من مساحة إمارة كوغ فاسيل الذي ظل يحكم كيسون ورعبان، وقلعة الروم، بل أضاف إليها حصونا أخرى أهمها حصن منصور الذي انتزعه من إمارة الرها.³

وإذا كانت علاقة كوغ فاسيل ببلدوين وأخيه جودفري قد ساءت إلى حد اندلاع الحرب بينهما، فإن علاقته ببوهيموند كانت على أحسن ما يرام، وكانت السبيل الوحيد أمامه ليخرج من عزلته. ربما لأن بوهيموند كان يدرك أكثر من القادة الصليبيين الآخرين، أهمية الأرمن والدور الذي يمكن أن يقوموا به في المسائل المتعلقة بالمنطقة، وخاصة في الحرب ضد البيزنطيين أو الأتراك، وفي الأزمة الناشبة بينه وبين الامبراطورية البيزنطية، حول ملكية أنطاكية بعد انتزاعها من أيدي الأتراك السلاجقة. لذلك أظهر قدرا من الاهتمام بهم، وكان يعمل دائما على استرضائهم ومصانعتهم، لأن الروح الحربية تأصلت فيهم زمنا طويلا، فإذا نجح في اجتذابهم وتعاونوا معه أضحى لديه جيش جاهز،

¹ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 2، ص 26؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 279.

² المصدر السابق، ج 2، ص 27.

³ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 281.

وكان حريصا على حمايتهم والدفاع عنهم معتقدا أن النورمان والأرمن تجمعهم مصلحة مشتركة، هي معاداة كل من البيزنطيين والأتراك.¹

وجاءت أحداث سنة 493هـ/1100م، لتثبت صحة هذا الرأي، إذ تعرضت مدينة ملطية التي يحكمها الأمير الأرمني جبريل، لحصار شديد فرضه عليها كمشتكين أحمد الدانشمند أمير سيواس، فاستنجد جبريل بأمير أنطاكية الصليبي بوهيموند، الذي استجاب للنداء ولكنه وقع أسيرا بين أيدي القوات الدانشمندية،² وقد حاول بلدوين أمير الرها أن ينقذه من الأسر، فخرج بدوره من الرها على رأس قوة صغيرة تشمل مائة وأربعون فارسا مقتنيا أثر القوات الدانشمندية، وظل يتعقبهم ثلاثة أيام، ولما توغل بين الجبال، خشي أن يقع في كمين، فعاد أدراجه إلى ملطية ومنها إلى الرها.³ ولم تلبث الأحوال السياسية أن تطورت نحو بقاء بوهيموند في الأسر لمدة أطول، وهذا ما يتعارض مع مصلحة كوغ فاسيل، حيث توفي جودفري ملك مملكة بيت المقدس، بتاريخ 10 رمضان 493هـ/18 جويلية 1100م، فانتقل بلدوين إلى فلسطين ليتسلم مقاليد الحكم باعتباره الوريث الشرعي لعرش أخيه، وعهد بشؤون الرها⁴ إلى ابن عمه بلدوين دو بور.⁵

ولكن مشكلة عكرت صفو الملك الجديد لبيت المقدس، وهي وجود تانكرد في فلسطين أين يملك إقطاعا بمدينة حيفا، ولم تكن علاقته جيدة ببلدوين الملك الجديد لبيت المقدس، والمعروف أن تانكرد كان يحقد على بلدوين بسبب النزاع الذي نشب بينهما منذ ثلاث سنوات في قيليقيا،⁶ كما

¹ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 94؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 25؛ براور يوشع : مرجع

سابق، ص 83؛ Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 424.

² فيتالي أورديك : مصدر سابق، ص 231.

³ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 2، ص 184.

⁴ أنا كومينا : مصدر سابق، ص 61؛ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 155؛

Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 418; Grousset René : Les Croisades, p. 37.

⁵ هو بلدوين البورجي (Balwin de Bourg)، وربما كان ابن عمه الثاني، وقد خلفه في حكم الرها (1100-1118) كما خلفه في حكم بيت المقدس (1118-1137). (انظر : فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 155، هامش رقم 2).

⁶ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 160؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 2، ص 206، 210.

أنه كان يسعى لتعيين بوهموند حاكماً على بيت المقدس بعد وفاة جودفري،¹ ومما لا شك فيه أن العلاقات بينهما ستزداد توتراً في فلسطين. ولم يلبث أن ظهر حل بالغ اليسر والسهولة، حيث كان الصليبيون في أنطاكية بحاجة إلى رجل قوي يملأ الفراغ الذي تركه بوهموند، فوجدوا ضالته في ابن أخته تانكرد الذي بدا المرشح الوحيد الذي يحقق ذلك.² وبقدر ما ابتهج الملك بلدوين لأنه تخلص من تابع لا يثق فيه ولا يحبه، فإن تانكرد كان أكثر منه طرباً وغبطة لهذه الفرصة التي لاحت له، لأنه سيجد نفسه يتصرف مستقلاً في مجال جديد يفتح أمامه آفاقاً واسعة. ولما غادر فلسطين في جمادى الأولى 494هـ/مارس 1101م، لم يشترط سوى أنه إذا عاد خاله من الأسر في خلال ثلاث سنوات، واستغنت أنطاكية عن خدماته، فينبغي أن يعاد إليه إقطاعه بفلسطين. ولذا كان من مصلحة كل من بلدوين وتانكرد ألا يجري التعجيل بإطلاق سراح بوهموند من الأسر.³

وبمجرد توليه شؤون أنطاكية، سلك تانكرد سياسة خارجية قائمة على التوسع على حساب جيرانه، وكان كوخ فاسيل وأخوه بقراط من بين ضحايا أطماعه التوسعية. أما بلدوين دي بور في الرها، فقد كانت بلاده معرضة لغزوات مستمرة من الأتراك، ولذلك دأب على مصانعة الأرمن واسترضائهم، وتحقيق نوع من التآلف بينهم وبين الصليبيين الغربيين، وحرص على أن تكون علاقته طيبة معهم، ليكسب ثقتهم ويضمن مساندتهم، ويستخدمهم جنوداً. ومن مظاهر التقرب إليهم ومخاطبة ودهم، أنه تزوج بأميرة أرمنية وهي مورفيا (Morfia)، البنت الصغرى لجبريل الأرمني صاحب ملطية.⁴ وعلى العموم فقد تبنى بلدوين دو بور سياسة تقارب مع الأرمن، وكان أكثر انفتاحاً من ابن عمه بلدوين البولوني،⁵ وهذا ما جعله محل مدح من متى الرهاوي : "لقد كان هذا

¹ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 425.

² فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 168؛ طقوش : تاريخ الحروب الصليبية، ص 189؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 436.

³ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 57.

⁴ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 27؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 2، ص 239.

⁵ عاشور سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية، ج 1، ص 352؛ Grousset : Histoire des Croisades, t. I, p. 432.

الأمير من أكثر الإفرنج منزلة، محاربا باسلا، ومثلا في حسن الأخلاق، وعدوا للخطيئة، يتحلى باللطف والتواضع".¹

وكان بلدوين دو بور يتخوف كثيرا من أطماع تانكرد التوسعية، ويرتاب في نواياه، وود أن يعود بوهيموند إلى أنطاكية،² وهي الرغبة التي يتقاسمها مع كوغ فاسيل، الذي قام بدور الوساطة في التفاوض بين الأتراك والفرنجة لإطلاق سراح بوهيموند،³ ولما أوشكت المفاوضات على النهاية، قام أحمد الدانشمند بمهاجمة جبريل في ملطية، ولم يتدخل صهره بلدوين دو بور لمساعدته، خوفا من فشل المفاوضات، التي انتهت بموافقة الدانشمند على إخلاء سبيل بوهيموند في شعبان 496هـ/أواخر ماي 1103م، مقابل مائة ألف قطعة ذهبية، دفع منها كوغ فاسيل وحده عشرة آلاف قطعة (العشر)،⁴ قاطعا الطريق أمام ألكسيس كومنين الذي اقترح دفع الفدية مقابل تسليمه بوهيموند، لمعاقبته على رفضه تسليم أنطاكية للإمبراطورية البيزنطية.⁵ وكان كوغ فاسيل مهندس هذه المفاوضات، فهو الذي قام بدور الوساطة بين الدانشمنديين والفرنجة، وهو الذي دفع عشر الفدية، وأشرف على عملية جمع المبلغ من الأمراء المسيحيين، ثم أخذه بنفسه إلى غاية حدود الإمارة الدانشمندية في سيواس، غير بعيد عن عاصمته كيسوم، "ولم يساهم كونت أنطاكية بشيء يذكر".⁶ كما أنه كان أول من استقبل بوهيموند بعد إطلاق سراحه وأخذه إلى قصره لينعم بالراحة، ووزع العطايا على الذين رافقوه في الطريق. وخلال المدة القصيرة التي أقامها في ضيافة الأرمن، قام كوغ فاسيل بتبني بوهيموند كابن له، بنفس الطريقة التي حدثت بين ثوروس وبلدوين البولوني في الرها، ثم رافقه إلى أنطاكية.⁷

¹ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 205.

² Raoul de Caen : op. cit., p. 276.

³ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 252.

⁴ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 134-136؛ Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 441.

⁵ Chalandon Ferdinand : op. cit., t. II, p. 100.

⁶ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 135.

⁷ المصدر السابق، ص 134-135.

ويبدو من سياق الأحداث أن الأمراء الأرمن لم يأخذوا العبرة من التجارب السابقة، وأنهم يكررون نفس الأخطاء، ورغم الروح الحربية المتأصلة فيهم فإنهم يرضون أن يكونوا أتباعاً لغيرهم. واعتقد كوغ فاسيل أنه اشترى لإمارته الأمن والاستقرار، بعشرة آلاف قطعة ذهبية، والحقيقة أنه اشترى وهماً، أو كان كمن يجري وراء السراب، وإذا كانت بلاده لم تتعرض لغزو فرنجي بعد الخدمة التي أسداها لبوهيموند، فإن ذلك كان لفترة مؤقتة ومحدودة. لأن سياسة التخاذل والاحتماء بالأقوياء التي سار عليها كوغ فاسيل، رهنّت مستقبل الإمارة، وجعلتها مرتبطة بسياسة بوهيموند، مما يهدد أمنها واستقرارها، وحتى وجودها.

ب - سياسة تانكرد تجاه الأرمن

ففي منتصف سنة 498هـ/1104م، وقع أمير الرها بلدوين دو بور، أسيراً في يد سقمان بن أرتق،¹ فطلب سكانها الأرمن من تانكرد أن يتولى الوصاية على المدينة إلى غاية إطلاق سراح أميرهم،² وفي أواخر الصيف من نفس السنة رحل بوهيموند إلى أوربا، يبحث عن دعم فرنجي، "واستخلف ابن أخته طنكريد يدبر أمر أنطاكية والرها"،³ وبما أن بوهيموند لم يعد مطلقاً إلى الشرق،⁴ فإن كوغ فاسيل فقد صديقاً وحليفاً صليبيّاً، وأضحى تانكرد حاكماً لأنطاكية والرها، وكانت سياسته مع الأرمن تختلف عن سياسة خاله بوهيموند.

¹ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 222؛ فوشيه الشارترى، مصدر سابق، ص 194؛

Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 449.

² الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 32؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 2، ص 252؛

Albert d'Aix : op. cit., t. II, p. 82; Raoul de Caen : op. cit., p. 283.

³ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 249؛ فوشيه الشارترى، مصدر سابق، ص 193، 197؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 2، ص 257؛

Albert d'Aix : op. cit., t. II, p. 89.

⁴ توجه بوهيموند في أواخر سنة 1104م، إلى إيطاليا، ولم يتم فقط بجمع المحاربين من إيطاليا وصقلية وفرنسا، بل قام أيضاً بدعاية واسعة ضد الامبراطورية البيزنطية، وصورها للفرنبيين على أنها حليفة الاسلام والعقبة الكؤود في وجه الصليبيين، وأن القضاء عليها هو الضمان الوحيد لنجاح الحملة الصليبية واستقرار الصليبيين في الشام. وبعد عودته من أوربا دخل بوهيموند في حرب ضد الامبراطورية البيزنطية سنة 1107م، وضرب حصاراً على حصن دوزازو المنيع، مفتاح شبه جزيرة البلقان، الذي ظل النورمان زمناً طويلاً يطمعون في الاستيلاء عليه، ولكن بوهيموند مني بهزيمة أمام ألكسيس كومنين، وانتهت الحرب بينهما بإبرام معاهدة ديفول سنة 1108م، وقد حطمت تلك المعاهدة بوهيموند، الذي لم يجرؤ على العودة إلى إمارته بالشام، إذ أنه لجأ إلى أملاكه في أبوليا بإيطاليا، حيث بقي فيها إلى أن مات في مارس سنة 1111م. (انظر : فوشيه الشارترى، مصدر سابق، ص 209؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 2، ص 270؛ فيتالي أورديك : مصدر سابق، ص 309؛ رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 83-86؛ Grousset R. : op. cit., t. I, p. 456-461)

فقد وضع خطة استهدفت إلحاق إقليم قيليقيا بأكمله بإمارة انطاكية، حيث أغار على مدينة المصيصة، وانتزعها من الأمير الأرمني أوشين الذي كان يحكمها لحساب الامبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين، ثم بسط سيادته على أذنة وطرسوس، وهي مدن ذات أغلبية أرمنية، ومن ثمة فإن سياسة تانكرد في تلك المنطقة لم تكن موجهة ضد البيزنطيين فحسب بل ضد الأرمن أيضا. ولما انتقل تانكرد إلى أنطاكية بعد رحيل بوهيموند إلى أوروبا، ترك في مدينة الرها أحد رجاله، وهو ريتشارد دو سالرنو (Richard de Salerne)، نائبا عنه، "وكان ريتشارد هذا رجلا فاسدا طاغية خشنا ظلوما"،¹ فاشتهرت إدارته بسوء معاملة الأرمن، والقسوة وابتزاز الأموال، ما أدى إلى نفورهم منه،² كما أنه عجز عن حمايتهم، إذ تعرضت المنطقة المحيطة بالرها، في صيف 498هـ/1105م، إلى حملة عسكرية أثناء موسم الحصاد قام بها الأتابك جكرمش حاكم الموصل، فخرج ريتشارد متهورا على رأس مليشيا أرمنية تفتقر إلى التدريب والاستعداد، فانقض عليهم الأتراك وقضوا بسهولة على اربعمائة وخمسين رجلا،³ "هذه الكارثة ألفت بمظاهر اليأس على مدينة الرها، وأغرقت كل عائلة بحزن عميق، وكان العويل يسمع في كل بيت، وغرقت أرياف المدينة بالدماء"،⁴ ويضيف متى الرهاوي معلقا على فترة حكم ريتشارد قائلا: "والحقيقة عندما احتل هذا الأخير مدينة الرها تسبب في هلاك العديد من الناس".⁵ كل هذه العوامل جعلت الأرمن يتطلعون إلى تحرير بلدوين دو بور من الأسر، ويحنون إلى أيام حكمه وهو الأمير الذي صانعهم وتقرب منهم وحافظ على شعورهم وتزوج أميرة أرمنية.⁶

ويبدو أن غطرسة تانكرد وتسلطه دفعت الأرمن في عدة مدن إلى طلب النجدة من السلاجقة، أو الدخول في حماية بعض الإمارات الإسلامية القريبة منهم، حيث تنازلوا في أرتاح عن مدينتهم

¹ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 32.

² الحارثي : مرجع سابق، ص 91؛ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 195.

³ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 361.

⁴ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 149.

⁵ المصدر السابق، ص 162.

⁶ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 361.

للملك رضوان في حلب، تخلصا من "جور الإفرنج"،¹ وهربوا من طغيان أنطاكية، وساروا على هذا النحو في مدن : المعرة، ومصرين، وسرمين،² وبضيف متى الرهاوي متحدثا عن تعسف الصليبيين في مدينة البستان (Ablastha)³ سنة 1106م، حيث دمروا بعض الكنائس الأرمنية، وأغلقوا أخرى، واضطهدوا رجال الدين، "إن هذه الآلام من صنع أمة الإفرنج المسعورة؛ لأنه لم يعد هناك وجود لقادة محاربين مشهورين، وإن إماراتهم تولى فيها المسؤولية أمراء غير جديرين بها، والسبب الذي دفع الإفرنج إلى تعذيب واضطهاد المؤمنين كان يكمن وراء الجشع والطمع"،⁴ ولذلك قرر أرمن المدينة الانتقام لأنفسهم فاتصلوا سرا بالأتراك وتحالفوا معهم.⁵

والمعروف أن تانكرد عمل على توسيع مساحة إمارة أنطاكية إلى أقصى حدودها، على حساب المسلمين والبيزنطيين، ولم يتورع في الاستيلاء على بعض ممتلكات الأرمن الواقعة على ضفتي الفرات، وكانت له نوايا في الاستيلاء على إمارة الرها الصليبية التي السواد الأعظم من أهلها أرمن. يضاف إلى ذلك أنه كان يعمل على أن تكون كل الإمارات السلجوقية والأرمنية المحيطة بأنطاكية، تابعة وخاضعة له، وإذا كان قد حقق انتصارات على عدة جبهات، فقد بقي له أن يُخضع أقوى أمير أرمني وهو كوغ فاسيل،⁶ الذي أحس بالخطر يتهدهه لما تمددت سلطة تانكرد إلى الرها، وأضحت حدود إمارة أنطاكية متاخمة لحدود إمارته، بل وتطوقها من عدة جهات حتى أصبحت تبدو وكأنها محاصرة بالفرنجية.

¹ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 249؛ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 148؛ العظمي : مصدر سابق، ص 362؛ سبط ابن الجوزي : مصدر سابق، ص 440.

² رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 77؛ الحارثي : مرجع سابق، ص 90.

³ أبلاستا : تسمى أيضا أبلستين، والبستان ، واسمها الروماني القديم هو (Arabissus)، تقع شرق قيصرية، وهي من مدن الثغور في أيام الروم، وذكرت المصادر العربية أنها مدينة اصحاب الكهف، سكنها الأرمن بعد معركة منازكرد، تقع حاليا في تركيا وتسمى (Arabkir). (انظر : ابن العديم : زبدة الحلب، ص 330-334؛ لسترنج كي : مرجع سابق، ص 178-179).

⁴ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 151.

⁵ المصدر السابق، ص 150؛ Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 454.

⁶ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. II, p. 1128.

وفي هذه الأثناء، كانت إمارة كوغ فاسيل تزداد تألقاً، حيث نجح سنة 500هـ/1107م، في صد هجوم قام به جيش من الأتراك، تعداده اثنا عشر ألف جندي، عبروا سهل مرعش، وأخذوا العديد من الأسرى، ولما وصلوا إلى أرض كوغ فاسيل، قام هذا الأخير بجمع الفرق الأرمنية وخرجوا لمواجهة الأتراك، وأجبروهم على التراجع ثم قاموا بملاحقتهم واستعادوا منهم الغنائم والأسرى.¹ وفي سنة 501هـ/1108م، تعرضت إمارته إلى هجوم جديد قام به سلاجقة قونية، الذين قدموا من جهة حصن منصور، أثناء موسم الحصاد وقطف الثمار، فأهلكوا الحرث، ووقع عدد من الفلاحين في الأسر، فتصدى لهم من جديد، وخرج على رأس قوة قوامها خمسمائة رجل من نبلاء الأرمن، حققت انتصاراً باهراً ضد الأتراك السلاجقة.² كل هذا زاد من نفوذه وسلطانه، وأصبح في نظر الأرمن بطلا قومياً، وزاد من مكانته، أن لجأ إليه رئيس الكنيسة الأرمنية، الذي اتخذ من إمارته مأوى وملجأً له، وأقام تحت حمايته.

ج - سياسة بلدوين دو بور تجاه الأرمن

ولما أُطلق سراح بلدوين دو بور سنة 501هـ/1108م، رفض تانكرد أن يعيد إليه مدينة الرها،³ ما أدى إلى اندلاع الحرب بينهما، فلجأ بلدوين إلى جميع أمراء الأرمن في الجهات الواقعة شرقي آسيا الصغرى وأطراف الجزيرة، يبحث عن حليف للقيام بعمل مشترك ضد تانكرد، وكان أولئك الأمراء ينظرون إلى تانكرد على أنه خصم عنيد، خاصة منهم كوغ فاسيل،⁴ الذي كانت شهرته تدوي في الآفاق، فاتجه إليه بلدوين دو بور يلتمس منه المساعدة لتخليص إمارته من قبضة تانكرد واستعادة مدينة الرها، فاستقبله أحسن استقبال، وأغدق عليه بالهدايا، وقد توافقت مصلحة الأمير الأرمني مع مصلحة الأمير الصليبي بسبب تخوف الأرمن من سياسة نانكرد التوسعية،⁵

¹ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 155.

² المصدر السابق، ص 155-158.

³ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 2، ص 274.

⁴ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. II, p. 1127.

⁵ طقوش : تاريخ الحروب الصليبية، ص 229.

فتحالف معه، وأمدته بثمانمائة رجل، وفرقة من البشناق، تابعة لإمبراطور الروم،¹ كما أرسل أوشين الأرمني، حاكم لمبرون، ثلاثمائة من عساكر البشناق المرتزقة، تعبيراً عن ارتياحه للقيام بكل عمل لمناهضة تانكرد.² وسار بهم بلدوين دو بور من رعبان إلى تل باشر، حيث جرت مناوشات بينه وبين خصمه، وقبل أن تشتد المعركة تدخل بطريك أنطاكية برنارد الفلنسي (Bernard de Valence)، "الذي هو عندهم كالإمام الذي للمسلمين لا يخالف أمره، وشهد جماعة من المطارنة والقسيسين أن ييمند [بوهيموند] خال طنكري قال له لما أراد ركوب البحر والعود إلى بلاده أن يعيد الرها إلى القمص إذا خلص من الأسر"،³ ولم يجد تانكرد بدا من الانصياع إلى أمر البطريك وتصالح مع بلدوين دو بور،⁴ وأعاد إليه الرها بتاريخ 09 صفر 502هـ/18 سبتمبر 1108م،⁵ ودخلها منتصراً، واستقبل من طرف رعاياه بمظاهر الغبطة والسرور. والخاسر الأكبر في هذه الحرب هو كوغ فاسيل، لأنه سيجد نفسه وحيداً في مواجهة تانكرد الذي لن يغفر له مطلقاً تحالفه مع بلدوين دو بور، ومساعدته له بالمال والرجال.

ولكن أحداثاً طرأت جعلت بلدوين دو بور يغير سياسته تجاه الأرمن، ويقلب لهم ظهر الحجن. ففي صيف 506هـ/1112م، قام مودود⁶ حاكم الموصل بمهاجمة مدينة الرها، وحاصرها قرابة شهرين. وخلال الحصار اتصل به سرا عشرون أرمنياً، طلبوا منه مساعدتهم للتخلص من حكم الصليبيين، على أن يساعدوه في الاستيلاء على المدينة. ولكن تلك العملية باءت بالفشل، غير أنها

¹ أورد ابن الأثير أرقاماً أخرى حيث ذكر أن كوغ فاسيل أنجد القمص (بلدوين دو بور) بألف فارس من المرتدين وألفي راجل. (انظر : ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 253؛ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 158-160؛ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 335؛

Chalandon Ferdinand : op. cit., t. II, p. 100; Mutfian Claude : L'Arménie du Levant, t. I, p. 61).

² رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 183.

³ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 254.

⁴ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 196-197؛ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 34؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 182، 186.

⁵ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 254. Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 478.

⁶ هو شرف الدولة مودود بن طغتكين أو التوتكين، أرسله سلطان سلاجقة فارس محمد بن ملكشاه إلى الموصل ليأخذها من الأمير جاولي، فتسلمها الأمير مودود في شهر صفر عام 502هـ/أكتوبر 1108م. (انظر : ابن الأثير : الكامل، ص 252).

تكشف النقاب عن مدى الاضطهاد الذي تعرض له الأرمن على يد الصليبيين، وأنهم ضاقوا ذرعاً بحكمهم، وأصبحوا بالنسبة لهم أعداء تفوقوا على الأتراك في تطرفهم.¹ ورغبتهم في التخلص منهم، وأن حكم السلاجقة المسلمين أرحم من حكم الفرنجة الغربيين.

وبعد أن أخفقت المؤامرة، وقُبرت في مهدها قبل أن تبدأ، أدرك بلدوين دو بور أن وجود الأرمن في المدينة يشكل خطراً عليه وعلى سلامة الصليبيين، فقطع الشعرة التي تربط بينه وبينهم، وأخذ في محاكمة المتآمرين، وألقى القبض على كثير من المذنبين والأبرياء، واتخذ إجراءات حاسمة وراعدة ضدهم وعاملهم معاملة وحشية صارمة،² فقطع أيدي بعضهم، وجدع أنوفهم، وقلع أعين البعض الآخر منهم، وقد مات الكثير من جراء ذلك، وأعدم الآخرين.³ ولما أخذ مودود حاكم الموصل يتأهب لحملة جديدة على الرها سنة 507هـ/1113م، أمر بلدوين دو بور أحد رجاله بمعاينة الأرمن، رغم عدم وجود دليل يثبت تورطهم ثانية مع حاكم الموصل، فانتشر الصليبيون في المدينة يذبحونهم بالجملة، "فقد أخرجوا الناس من منازلهم وطردوهم من المدينة وأمروا بحرق الذين بقوا محتبئين في منازلهم ولم يبق أحد باستثناء أربعة رجال لجأوا في المساء إلى كنيسة القديس ... لقد كان يوماً عصيباً على الرها وما من أحد شاهد تلك المصيبة إلا ورثى نفسه وقدره، ولم يتبق فظاعة إلا وارتكبتها الإفرنج"،⁴ ثم أمر بالترحيل الجماعي والقسري لهم إلى مدينة سميساط والبلاد الأرمنية الأخرى القريبة،

¹ السرجاني راغب : مرجع سابق، ص 279؛ الحارثي : مرجع سابق، ص 103؛

Grousset Ren2 : Histoire des Croisades, t. I, p. 483.

² ليست المرة الأولى التي يعامل بها بلدوين دو بور الأرمن بهذه الطريقة، حيث سبق له وأن اضطهدهم سنة 1108م، حيث اعتقد الأرمن في الرها أن أميرهم قد لقي حتفه في حرب دارت بينه وبين تانكرد، وأن ريتشارد دو سالرنو سيعود من جديد إلى الرها، وهو الذي حكمهم بقساوة شديدة، فعقدوا مجلساً وحاولوا تشكيل حكومة جديدة، وبعد يومين وصل بلدوين إلى المدينة سالماً وساوره الشك في وقوع خيانة، واعتقد أن الأرمن يعدون خطة لاسترجاع استقلالهم والتخلص منه، فبادر بالضرب على أيديهم في شدة وعنف، وألقى القبض على عدد كبير من الأرمن، وسمل عيون جماعة منهم، ولم تسلم عينا الأسقف الأرمني إلا بعد أن دفع غرامة كبيرة، ثم اضطّر عدد كبير من الأرمن إلى مغادرة المدينة. (انظر : رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 185؛ Grousset René : op. cit., t. I, p. 481-483).

³ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 36-37؛ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 178-180.

⁴ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 184.

وطرد من تبقى منهم على قيد الحياة خارج المدينة،¹ ولم يترك فيها إلا الفرنجة، والسريان، واليعاقبة، وغيرهم من الطوائف الأخرى.²

هذه الأحداث وما سبقها، غيرت الأمور فجأة، ما انعكس سلبا على وضع الأرمن في الرها وعلى إمارة كوغ فاسيل في الشمال، وزادت من شعور الكراهية المتبادل بينهم وبين الصليبيين في تلك الفترة، وظلوا يضمرون الحقد والبغضاء وسوء النية لهم ولبلدوين دو بور بوجه عام، وولدت عندهم شعورا بالاستياء منهم، وأدت إلى تعبئة الرأي العام الأرميني ضدهم، ليس في مدينة الرها فحسب، بل في كل أنحاء أرمينيا الصغرى، وجميع المناطق التي انتشر فيها الأرمن من قيليقيا، إلى شمالي الشام، والجزيرة. أما الصليبيون فلم يقتصر حقدهم على الأرمن المتواجدين في الرها فقط، بل حقدوا أيضا على كوغ فاسيل، وحسدوه على ازدياد نفوذه وسلطانه، واتساع أملاكه.³

وهكذا تهيأت الظروف لبلدوين دو بور لينقلب على حليفه السابق، فتحالف ضده مع تانكرد الذي جاءته الفرصة لينتقم من كوغ فاسيل، ودخل الجميع في صراع مكشوف سنة 506هـ/1112م، فهاجم تانكرد بلاده، وانتزع منه رعبان، واستعد لضرب حصار على كيسوم، ومن جهته قام كوغ فاسيل بحشد خمسة آلاف رجل، واستولى من الصليبيين على حصن منصور،⁴ ومن المحتمل أن وصلته قوة من ملك غازي بن دانشمند،⁵ واصطفت الجيوش استعدادا للحرب، ومرت عدة أيام ولم يتقاتلوا، ثم تصالح الخصمان، واتفقا أن يعيد كل طرف إلى خصمه الأراضي التي

¹ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 373-374، 376؛

Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 196; Grousset : Histoire des Croisades, t. I, pp. 510-511.

² عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 364.

³ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 200.

⁴ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 180.

⁵ ملك غازي بن دانشمند (499-529هـ/1105-1135) : تولى إمارة سيواس عقب وفاة أبيه كمشتكين أحمد دانشمند سنة 499هـ/1105م، ويعتبر أول أمير من أمراء الدانشمند يحظى بتأييد وثقة الخلافة العباسية لما أظهره من ولاء شديد للخلافة خلال فترة حكمه، إذ منحته لقب ملك فصار لقباً رسمياً من بعده لخلفائه أمراء الدانشمندان في سيواس. وتقول الروايات أنه قضى على جميع إخوانه يوم توليه العرش، وقد تميز حكمه بالعدالة والتسامح تجاه أهل الذمة، ويذكر عنه أنه سمع ذات يوم رجلاً فارسياً يقيم في ملطية جلس على الصليب ساخراً من النصارى، فأمر بنفيه خارج الحدود. (انظر : المحميد علي بن صالح : مرجع سابق، ص 50-53).

انتزعها منه،¹ "وبعدها رجع تانكرد بهدوء إلى أنطاكية"،² ولا تذكر المصادر أدنى التفاصيل المتعلقة بالمعاهدة أو إبرام الصلح أو شروط توقيف الحرب، مما يدل أن القوتين كانتا متساويتين، وأن كوغ فاسيل كان فعلاً يملك قوة ونفوذاً في منطقة الفرات. ويبدو أن تانكرد فضل توقيف الحرب وإبرام الصلح، لأنه كان ينتظر أن تؤول إليه إمارة كيسوم بعد وفاة صاحبها، إذ أن كوغ فاسيل كان قد تبنى بوهموند كابن له بعد إطلاق سراحه سنة 496هـ/1103م، وباعتباره نائباً عن بوهموند ووريثه في إمارة أنطاكية،³ فإن أملاكه تنتقل حتماً إلى تانكرد.

د - سقوط إمارة كوغ فاسيل

وما لبث أن مات كوغ فاسيل في 19 ربيع الثاني 506هـ/12 أكتوبر 1112م، بعد فترة وجيزة من إبرام الصلح مع تانكرد، وقد سبب موته حزناً بالغاً للأرمن الذين كانوا يجدون فيه كل الصفات الممتازة،⁴ وعلى حد قول المؤرخ الأرمني : "لقد كانت وفاته خسارة".⁵ وانتقلت الإمارة إلى أرملة وابنها بالتبني فاسيل دغا (Vasil Dgh'â)، وكان عمره خمساً وعشرين سنة. ويبدو أنه اتعظ بما لحق بسلفه، وأدرك أن الصليبيين هم الجانب الأقوى في هذه المرحلة، ولا بد من الانحياز إليهم أو مصانعتهم.⁶ فأرسل إلى تانكرد هدايا كثيرة وثمانية، وأرسلت أرملة كوغ فاسيل تاجها إلى سيسيليا زوجة تانكرد كرمز للتبعية.⁷ ولكن تانكرد كان يعتبر نفسه الوريث الشرعي الوحيد لكل

¹ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 200-201؛

Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 280-281; Dédéyan : Les Arméniens entre Grecs, t. II, p. 1129.

² متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 181.

³ لما توجه بوهموند إلى أوربا سنة 1104م، يبحث عن دعم عسكري ومادي، تزوج هناك سنة 1106م، بكونستانس، كونتيسة شامبانيا بعد طلاقها، وهي ابنة الملك الفرنسي فيليب الأول (1060-1108)، وأنجب منها ولدين، وقد مات أولهما، أما الثاني الذي أخذ اسم أبيه فقد عاش ليكون وريثه، وكان على تانكرد أن يستمر في حكم الرها إلى غاية قدوم ابن بوهموند ليتولى مقاليد الحكم في إمارة أبيه. (انظر : فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 197؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 2، ص 258، 271؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 82).

⁴ عمران : السياسة الشرقية، ص 61.

⁵ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 181.

⁶ عمران : السياسة الشرقية، ص 62.

⁷ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 181-182؛ Dédéyan Gérard : op. cit., t. II, p. 1130.

ممتلكات كوغ فاسيل، واعتبر فاسيل دغا منافسا له، الأمر الذي جعله يجهز جيشا وخرج به من أنطاكية "إلى ناحية كريسيل [كوغ فاسيل] مقدم الأرمن"،¹ يريد احتلال بلاده وضمها إلى أنطاكية، ولكن القدر لم يمهله، حيث دهمه المرض فجأة وهو في طريقه لغزو كيسوم، فعاد إلى أنطاكية ومات بها في 21 جمادى الثاني 506هـ/12 ديسمبر 1012م،² وموته يكون تانكرد قد فشل في مشروعه ليصبح سيدا على بلاد الأرمن.

ولكن مشروع الصليبيين في الاستيلاء على بلاد الدروب لم يتوقف بموت تانكرد، لأن خليفته في أنطاكية وهو روجر دو سالرنو (Roger de Salerne)،³ لا يقل دهاء ومثابرة عن سلفه، كما أن بلدوين دو بور الذي نكل بالأرمن وطردهم من الرها، وتحالف مع تانكرد لغزو إمارة كوغ فاسيل سابقا، لا زالت إمارته تتأخم إمارة دغا فاسيل الأمير الجديد لرعبان وكيسوم، ومن ثمة فإن خطر الصليبيين وتهديدهم لا زال قائما. ولا يستطيع الأرمن أن يغفروا للصليبيين المجازر التي ارتكبوها ضدهم في الرها، وسوء معاملتهم لهم، واضطهادهم لكنيستهم، وقد ارتحل فريق منهم إلى بلاد دغا فاسيل، وإذا كانوا غير مستعدين أن ينسوا ما تجرعوه من آلام على أيديهم، فإنهم أصبحوا يحنون إلى حكم الأتراك السلاجقة المسلمين، وأضحوا مستعدين للتحالف معهم ضد الصليبيين.

لذلك راحت أرملة كوغ فاسيل وابنها بالتبني يبحثان عن حليف قوي للاحتماء به ضد الفرنجة، ويروي ابن الأثير ضمن حوادث سنة ثمان وخمسمائة، أن بعد وفاة كوغ فاسيل استولت زوجته على المملكة وراست آقسنقر البرسقي⁴ حاكم الموصل، تطلب منه الحماية مع اعترافها بالتبعية له،

¹ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 183.

² ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 295.

³ روجر دو سالرنو بن ريتشارد : يسميه ابن الأثير سرخالة، وعُرف بروجر الأنطاكي. اختاره خاله تانكرد ليكون خليفه في حكم مدينة أنطاكية، لما اشدت به المرض وأدرك أنه لن يشفى سنة 506هـ/1112م، واشترط عليه أن يتنازل عن الحكم لابن بوهموند إذا بلغ سن الرشد، وقايم من الغرب للحصول على تركة أبيه. (انظر : ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 295؛ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 183، هامش رقم 1؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 203؛

Cahen Claude : la Syrie du nord, p. 266)

⁴ أبو سعيد آقسنقر البرسقي الغازي المسمى قسيم الدولة سيف الدين، عينه السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي أميرا على الموصل بعد وفاة الأمير مودود، وأمره بقتال الفرنج، واستمر حكمه حتى عام 509هـ/1116م، ثم استبدل بالأمير جيوش بك، =

وسيادته على الإمارة، فوافق على ذلك بعد أن فرض عليها جزية رمزا للتبعية.¹ وشتان بين هذه الحالة وبين حالة الأرمن أيام بلدوين البولوني الذي استنجدوا به ليحميهم من السلاجقة، فرحبوا بالصليبيين وأرشدوهم عبر الدروب، وأمدوهم بالميرة، وفتحوا لهم أبواب مدنهم وقصورهم، وهامهم يستنجدون من جديد بالسلاجقة لحمايتهم من الأتراك. وما أشبه اليوم بالبارحة إنهم يلتمسون من الدول الأوربية أن تضغط على تركيا، لتعترف بارتكاب مجازر ضد الأرمن في عهد الدولة العثمانية.

ولما علم الفرنج بما حدث، اعتبروا تحالف أمراء كيسوم الأرمن مع السلاجقة خيانة كبرى ضد المسيحية، يجب أن يدفع مرتكبوها الثمن باهظا، كما أن هذا الحلف يشكل تهديدا صريحا وتحديا للإمارات الصليبية في شمال الشام، الأمر الذي دفع بلدوين دو بور إلى الخروج من الرها سنة 509هـ/1115م، وإعلان "الحرب على فاسيل دغا الأمير الأرمني الكبير" فحاصر قلعة رعبان، وواصل هجماته عليها لوقت طويل، من غير أن يحقق مناله، مع أنه دكها من جميع الجهات"،² فعاد أدراجه إلى الرها.

عندئذ حاول دغا فاسيل تعزيز علاقته مع بني جلدته، فالتمس المساعدة من آل روبين الذين كانوا يحكمون منطقة طورورس الجبلية، وطلب الزواج من إحدى بنات أمرائهم. فدعاه الأمير ثوروس بن قسطنطين (1100-1129)، لزيارته ومناقشة مسألة التحالف الأرمني ضد الصليبيين، وبمجرد دخوله إلى قصره اعتقله "واحتجزه غدرا" ثم اقتاده وسلمه لخصمه بلدوين دو بور، الذي لم يطلق سراحه إلا بعد أن "انترع منه تنازلا عن حكم مدنه"، وعندئذ سمح له بمغادرة الرها، فلجأ إلى القسطنطينية التي أمضى فيها بقية حياته.³ وبذلك أسدل الستار على إحدى الإمارات الأرمنية، بعد

= فذهب البرسقي إلى إقطاعه في مدينة الرحبة وأقام فيها. وفي عام 512هـ/1119م، عينه السلطان محمود شحنة لبغداد، وفي عام 515هـ/1122م، أعاده نفس السلطان إلى إمارة الموصل وأعماله، وأضاف إليها الجزيرة وسنجار. (انظر : ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 268؛ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 190، هامش رقم 1).

¹ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 269؛ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 196.

² متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 200.

³ المصدر السابق، ص 201؛ طقوش : تاريخ الحروب الصليبية، ص 236؛

Chalandon Ferdinand : op. cit., p. 101, Grousset : Histoire des Croisades, t. I, pp. 530-531.

أن ظلت تتأرجح بين الفرنجة والسلاجقة ردحا من الزمن، كما أنها كانت طرفا أساسيا ومساعدًا في دخول الصليبيين إلى الشرق، وعلى أيديهم انتهت.

بعد أن استولى بلدوين دو بور على رعبان وكيسوم سنة 510هـ/1116م، عزم على استئصال شأفة الأرمن، والقضاء على ما تبقى من إمارات أرمنية الواقعة بوادي الفرات،¹ التي كان ينظر إليها بعين الحسد، وتتبع بقسوة العديد من قادة الأرمن وأسقطهم تباعاً، وكان أكثر قساوة عليهم من السلاجقة أنفسهم.² فاستولى على البيرة، التي كان يحكمها القائد الأرمني أبو الغريب (Abelgharib). ثم هاجم بقرط، شقيق كوغ فاسيل، الذي كان يحكم إمارة صغيرة في خوروس الواقعة غرب الفرات، وهو الصديق القديم، وفي نفس الوقت العدو القديم لبلدوين البولوني، فهو الذي أرشده من نيقية إلى قيليقيا ثم نصحه بالتوجه إلى الفرات، وهو أول من تدمر من سلطة الفرنجة. ثم غزا بلدوين دو بور بلاد قسطنطين صاحب كركر، وهو الآخر كان حليفاً لبلدوين البولوني عشية دخول الصليبيين إلى الشرق، ورمى به في سجن سميساط، ثم وُجد جثة هامدة بعد أن ألقى به الزلزال من أعلى إلى أسفل مربوطاً بعمود كان في سجنه، فلقي حتفه غرقاً.³

ويسرد المؤرخ متى الرهاوي، المآسي التي عاشها الأرمن في ظل الحكم الصليبي، والجرائم التي ارتكبتها الفرنجة في حق شعبه، ويصفهم بأنهم يمتلكون روحاً حاكمة شريرة، ولا وجود للرحمة في قلوبهم، كما أن أمة الأرمن فقدت الثقة في أمة الفرنجة. ولكنه لا يستطيع مواصلة الكتابة، فيتوقف عن سرد الأحداث، لأنه كان يكتب بخوف شديد من الصليبيين، حيث قال "لقد أردنا حصر جرائمهم غير أننا لم نتجرأ على فعل ذلك لأننا كنا تحت سلطتهم".⁴

لقد رحب كل هؤلاء الأمراء الأرمن بقدوم الصليبيين، ولم يكونوا يتوقعون نزول هذا الحظ عليهم من أوروبا، فهم مسيحيون، وأكثر من ذلك أعداء للبيزنطيين، لقد كانوا يحلمون بإيجاد حلفاء، وها هو

¹ رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 210؛ Grousset : Histoire des Croisades, t. I, pp. 530-532.

² متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 201-202.

³ رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 211؛ Chalandon Ferdinand : op. cit., p. 102.

⁴ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 203.

حلمهم يتحقق. ولكنه أصبح كابوساً، بل كارثة عليهم، فبعد أن استغلهم "حلفاؤهم" ردوا لهم الجميل بتجريدهم من عروشهم، وممتلكاتهم، وفي كثير من الأحيان باغتيالهم.¹

بعد أن ذابت الإمارات الأرمنية الأولى واندثرت، وبعد أن قضى بلدوين دو بور على ما تبقى منها في الفرات، لم يبق من الأمراء المستقلين إلا آل روين في الجهات الغربية من جبال طوروس، وعائلة أبناء روبين وحدها التي استطاعت البقاء والتعايش مع الإمارات الصليبية، وهو موضوع الفصل القادم.

4- جبريل في ملطية

كانت مدينة ملطية (Mélitène) من أجلّ الثغور الإسلامية وأشهرها،² ورغم أن المسلمين فتحوها خلال القرن الأول الهجري/السابع الميلادي،³ فقد تعاورتها غير مرة أيدي الروم والمسلمين.⁴ وفي سنة 467هـ/1074م، استولى عليها فيلاريت وانتزعها من البيزنطيين، وأضحت تشكل جزءاً من إمارته،⁵ وعين عليها بعض أعوانه من الأرمن، فأُسند حكمها في البداية إلى ثوروس بن هيثوم (Thoros fils de Héthoum)، -وهو الذي حكم الرها فيما بعد، واستنجد ببلدوين البولوني- ثم حكمها حارب (Hareb)، ثم بلاتيانوس (Balatianos) وأخيراً جبريل (Gabriel).⁶

يعتبر جبريل أحد المغامرين الأرمن،⁷ ومن رجال فيلاريت، الذي عينه نائباً عنه في ملطية سنة 477هـ/1084م،⁸ ومنذ أن تولى المدينة إلى غاية وفاته سنة 496هـ/1102م، واجهته عدة تحديات داخلية وخارجية. فعلى الجبهة الداخلية، تعرض لكرهية رعاياه بسبب تخليه عن الكنيسة

¹ Mutaftian Claude : La Cilicie, t. I, p. 386.

² ابن حوقل : مصدر سابق، ص 166.

³ البلاذري : مصدر سابق، ص 261.

⁴ الإدريسي : مصدر سابق، ص 650؛ ابن الشحنة : مصدر سابق، ص 196؛ لسترنج كي : مرجع سابق، ص 153.

⁵ Grousset : L'Empire du levant, p. 179.

⁶ Michel Le Syrien, op. cit., t. III, pp. 173-174.

⁷ Grousset : op. cit., p. 184.

⁸ المحميد علي بن صالح : مرجع سابق، ص 77.

الأرمينية واعتناقه لمذهب الكنيسة البيزنطية، وكان هدفه من هذه الخطوة هو الحفاظ على حسن العلاقات مع الامبراطورية البيزنطية.¹ وإذا عرفنا أن الأرمن والسريان ظلوا يشكلون أغلبية السكان في ملطية،² فيمكن أن ندرك درجة توتر العلاقات بينه وبين شعبه، خاصة بعد أن أقدم على إعدام أحد الأساقفة.

أ - ملطية في مواجهة الدانشمند

وأهم تحد واجهه جبريل على الجبهة الخارجية، كان يتمثل في إحاطة الأتراك بمدينته من جميع النواحي، ومع بداية حكمه تعرضت ملطية إلى هجوم قام به أحمد دانشمند غازي، مستغلا فرصة انشغال فيلاريت بحروبه ضد الأمير سليمان بن قتلмыш في أنطاكية،³ فوجد جبريل نفسه في ظروف صعبة، وعجز عن المقاومة، ووافق على دفع جزية سنوية، وبقاء حامية دانشمندية ترابط قرب حدود ملطية،⁴ وباتت المدينة مهددة باكتساح الأتراك لها في حالة رفض دفع الجزية المقررة عليها. ولما توفي فيلاريت سنة 483هـ/1090م، استقل جبريل بمدينة ملطية وأعلن نفسه أميرا عليها، مستغلا في ذلك ضعف الامبراطورية البيزنطية، وعجزها عن الدفاع عن مدنها وأراضيها في الشرق والجنوب. ولكي يضمن استمرار سلطته، أعلن تبعيته للأمير السلجوقي بوزان الذي عينه السلطان ملكشاه في وقت سابق حاكما على مدينة الرها،⁵ ثم أراد أن يعطي لهذه التبعية شرعية أكبر، فأرسل زوجته في مهمة دبلوماسية إلى بغداد لإعلان التبعية، للخلافة العباسية، وعادت الزوجة وهي تحمل لجبريل تأكيدا بضمان بقائه في إمارته،⁶ واعتقد الأمير الأرمني أنه قد كفل لإمارته الاستقرار والاستمرار، وأنها أصبحت آمنة من هجومات الأتراك.

¹ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 145.

² ابن حوقل : مصدر سابق، ص 166؛

³ انظر الفصل الثالث، ص 175-181.

⁴ المحميد علي بن صالح : مرجع سابق، ص 77.

⁵ الرهاوي الجهول : مصدر سابق، ص 26.

⁶ Michel Le Syrien, op. cit., t. III, p. 179.

وكان جبريل يحسن اغتنام الفرص، إذ حدث في سنة 487هـ/1094م، أن قُتل سيده بوزان أمير الرها، على يد تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق،¹ فانتقلت المدينة إلى أيدي الأمير الأرمني ثوروس بن هيثوم، وحدث تقارب بين الأميرين، حيث كان جبريل والد زوجة ثوروس،² فتكونت جبهة أرمنية لحماية الإمارات الأرمنية الصغيرة من هجمات السلاجقة، وكانت هذه الجبهة أوهن من بيت العنكبوت. ولم يكن الخطر قادمًا من وراء الأسوار فحسب بل كان يكمن بين السكان، لأن استياء أهالي المدينتين من تصرفات الأميرين ظل يتفاقم مع الوقت.

ولما لاحظ أمير سيواس أحمد دانشمند أن جبريل يتأرجح في ولائه بين الخلافة العباسية، وسلطنة السلاجقة، وإمارة الرها، صمم على فتح مدينة ملطية وضمها إلى إمارته، وشرع في تجهيز قواته استعدادًا للزحف عليها، وسرعان ما وصلت إلى أسماع سلطان سلاجقة الروم في قونية فلبج أرسلان أبناء هذه الاستعدادات، فأمر قواته بالتحرك سريعًا نحو ملطية التي وصلها قبل القوات الدانشمندية، وضرب عليها حصارًا سنة 488هـ/1095م،³ ثم وصل أمير سيواس مسرعًا للحيلولة دون سيطرة السلاجقة عليها. فاستغل جبريل التنافس القائم بين القائدين التركيين، ولجأ إلى إثارة النزاع وإيقاع الفتنة والبغضاء بينهما،⁴ حيث أقنع أحمد دانشمند بضرورة عقد تحالف معه ضد قلعج أرسلان حتى لا تسقط المدينة بين أيديهم،⁵ وبذلك يكون قد نجح في التفريق بين أعدائه، كما استطاع أن يدس السم في شراب أحد قادة جيش السلاجقة المحاصر لمدينته،⁶ ما أدى إلى تسرب الشك بين صفوفهم فضلًا عن حدوث الفوضى والارتباك بينهم.

ورغم ذلك فإن قوات السلاجقة ظلت تحاصر ملطية أملًا في استسلامها، ولما اشتد الحصار على المدينة، جرت مفاوضات بين الطرفين. وتقدم مطران المدينة سعيد بن صابوني من جبريل

¹ الحسيني : مصدر سابق، ص 76؛ ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص 15؛ Grousset : L'Empire du Levant, p. 183.

² الجنزوري : مرجع سابق، ص 68.

³ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 122.

⁴ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 250.

⁵ المحميد علي بن صالح : مرجع سابق، ص 78.

⁶ Michel Le Syrien, op. cit., t. III, p. 179.

ونصحه قائلاً : " خليك بنا أن نرّحل السلطان عنا بكلمات طيبة وهدايا موافقة، وأنت ترى ما يعاني الأغنياء والفقراء من الضيق"¹، وكان هذا المطران رجلاً سريانياً، زاهداً عاكفاً على العبادة وخدمة الكنائس، ويحظى باحترام قومه، ولكن جبريل ارتاب في ولائه له، وأضمر له الشر. وفي الغد أراد جبريل أن ينفذ حكم الإعدام في أحد الضباط -لسبب ما- فتدخل المطران مرة أخرى يريد إنقاذ الضابط من حبل المشنقة، غير أن جبريل شتمه واتهمه بالخيانة ثم انقض عليه بسيفه وأجهز عليه، ولم يسمح لأتباعه بدفنه إلا بعد يومين من قتله.² هذه الحادثة جعلت السريان بصفة خاصة في ملطية لا يغفرون مطلقاً لجبريل ما قام به ضد مطرانهم.³ وتمادى في ظلمه وخطاسته تجاه رعاياه، فسقى السم لبعض رجال الدين وابتز تجار المدينة وأثرياءها، فانتزع منهم الذهب والفضة، وطالت يده ممتلكات الكنائس ودور العبادة،⁴ وفرض على الأرمن والسريان الاحتفال بعيد الفصح وفق الرزنامة البيزنطية،⁵ هذه التصرفات زادت من حقد سكان المدينة عليه، وكانوا ينتظرون الفرصة المناسبة لتسليم مدينتهم للسلاجقة لينقذوهم من جحيم جبريل الأرمني. ولكن أحداثاً طرأت أطالت في عمر هذه الإمارة الصغيرة وأجلت سقوطها في يد السلاجقة إلى حين.

¹ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 122.

² الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 27؛ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 122؛ Michel Le Syrien, op. cit., t. III, p. 186.

³ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 67.

⁴ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 123؛ Ibid. p. 180.

⁵ عيد الفصح هو أهم أعياد النصارى السنوية، ويسمى أيضاً عيد القيامة، ويعتبر امتداداً لعيد الفصح اليهودي، ولكن معناه عند المسيحيين يختلف عن معناه عند اليهود، فبينما يعتقد اليهود أن الفصح هو ذكرى عبورهم من العبودية إلى الحرية بعد خروجهم من مصر، ويعتقد المسيحيون أن في عيد الفصح يستذكرون (قيام السيد المسيح من الموت بعد ثلاثة أيام من صلبه). ويأتي عيد الفصح بعد الصوم لمدة 55 يوماً، ثم يفطرون على لحم الخروف وإشعال الشموع، وترديد الأناشيد ... وقد نص مجمع نيقية المنعقد سنة 325م، أن يكون الاحتفال به في الأحد الأول الذي يلي اكتمال البدر الذي يظهر بعد الاعتدال الربيعي، ويكون الاحتفال به في الكنائس الغربية بين 22 مارس و 25 أبريل، بينما تتأخر الكنائس الشرقية الأرثوذكسية، مثل الكنيسة الأرمنية والسريانية إلى ما بين 4 أبريل و 8 ماي. أما بالنسبة لمدينة ملطية فقد وقع اضطراب شديد بين المسيحيين حول تحديد يوم الاحتفال، فالكنيسة البيزنطية، حددته بيوم 5 أبريل، أما الأرمن والسريان فقد حددوه بيوم 6 أبريل، فحاول جبريل الذي يعتنق مذهب الكنيسة البيزنطية أن يفرض على الجميع يوم 5 أبريل، فاعتبره الأرمن ضلالاً. (انظر : متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 125-127؛

Michel Le Syrien, op. cit., t. III, p. 189; Feuillet Michel : Vocabulaire du Christianisme, Presses Universitaires de France, 2^e édition, Paris, 2004. p. 86).

وبينما كانت قوات السلاجقة تواصل حصارها لمدينة ملطية، بلغتهم أنباء وصول القوات الصليبية التي عسكرت حول أسوار مدينة نيقية، عاصمة سلاجقة الروم، سنة 490هـ/1097م، عندئذ أمر قلعج أرسلان قواته بالانسحاب والعودة، عساه يفك الحصار عنها، ويمنع سقوطها في أيدي الفرنجة،¹ وهكذا فقد ساهمت الحملة الصليبية الأولى في إنقاذ مدينة ملطية من السقوط في أيدي السلاجقة، وأجلت انتقالها من الأرمن إلى المسلمين.

وبعد سقوط مدينة نيقية في أيدي الصليبيين، تصدى لهم الدانشمند وابن سليمان،² فصرفا نظرهما عن ملطية فترة من الزمن، وحينما اطمأن أحمد دانشمند إلى ابتعاد الخطر الصليبي، عاد إليها مرة أخرى يريد فتحها، ويبدو أنه قد وجد نفسه في حل من اتفاقه السابق مع جبريل بعد جلاء الخطر السلجوقي،³ وظل على مدار ثلاث سنوات بدءاً من عام 491هـ/1097م، "يلح على جبريل اليوناني صاحب ملطية في الطلب ويقبل في أثناء الصيف من سبسطية ويعيث في البلد ويأكل غلاله وينصرف في الشتاء"،⁴ بهدف إهلاك الإمارة اقتصادياً. وفي سنة 493هـ/1100م، أعد أحمد دانشمند⁵ قواته وتحرك صوب مدينة ملطية لفتحها، ولما شعر جبريل بالخطر وأدرك أنه لا قبل له بالمواجهة، راح يبحث بين الصليبيين الذين استقروا في الفرات وفي أنطاكية عن حليف ينقذه من تهديدات الدانشمنديين، فأرسل إلى بوهيموند أمير أنطاكية، يطلب منه النجدة، وأقسم له ثلاثاً بأنه

¹ Michel Le Syrien, op. cit., t. III, p. 187.

² العظيمي : مصدر سابق، ص 358.

³ المحميد علي بن صالح : مرجع سابق، ص 79.

⁴ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 125؛ Ibid.

⁵ تذكر بعض المراجع الحديثة مثل سعيد عبد الفتاح عاشور، وروني جروسي، وفرديناند شالندون ... أن الذي سار لمحاصرة ملطية هو الملك غازي كمشتكين بن الدانشمند، أمير سيواس، ويذكر ابن العبري اسماً آخر وهو اسماعيل الدانشمند، وهذا خطأ؛ لأن أمير سيواس آنذاك هو كمشتكين أحمد الدانشمند الذي حكم بين 477-499هـ/1084-1105م، ففي عهده حث الحصار على ملطية (سنة 1100م)، أما الملك غازي كمشتكين بن الدانشمند فهو ابنه، وقد حكم بعد وفاة أبيه بين 499-529هـ/1105-1135م، أما اسماعيل فقد حكم بعد 560هـ/1164م. (انظر : المحميد علي بن صالح : مرجع سابق، ص 37، 50، 62، 177).

سيسلمه المدينة إن هو نجح في إزاحة الخطر الدانشمندي عنها،¹ ولم يشأ أن يطلب النجدة من بلدوين في الرها وهي أشد قربا إليه من أنطاكية، ما يدل على أنه اتعظ بتجربة صهره ثوروس أمير الرها سابقا.²

ولم يتردد بوهيموند في الاستجابة لنداء جبريل، نظرا للعلاقات الطيبة التي تربطه بالأرمن، كما أن الوعد المغربي الذي تلقاه بتسليمه المدينة أسال لعبه، فذهب مسرعا ومعه ابن عمه ريتشارد أمير سالرنو، وثلاثمائة فارس واتباعهم من الرجال، ولعله كان من بين فرسانه جماعة من الأرمن. واعتقد أنه يستطيع أن يتغلب على الأتراك، وينقذ ملطية بقوة صغيرة العدد،³ ولذلك سار "من غير حيلة أو حذر"⁴. وبعد أن علم أحمد دانشمند بواسطة الجواسيس خط سيره، نصب له كميناً، وانتهى به الأمر أن وقع أسيراً، في أواخر رمضان 493هـ/أوائل أوت 1100م،⁵ "فخيّب الله ظن الفرنج"،⁶ ونُقل إلى قلعة نيكسار (Nîksâr ou Néocésarée)، الواقعة قرب شواطئ البحر الأسود.⁷ وكان لهذه الحادثة نتائج أخرى، إذ تبخرت أحلام بوهيموند في توسيع إمارته على حساب حلب والإمارات الإسلامية المجاورة لها.⁸

وقد حاول بلدوين البولوني انقاذ مدينة ملطية، وتحرير بوهيموند من أسرهِ، فخرج من الرها يقود قوة عسكرية، واتجه بها إلى ملطية، ولكن أحمد دانشمند، فك الحصار وانسحب عائداً إلى بلاده. وأجل عملية اقتحام المدينة إلى فرصة أخرى أكثر ملاءمة. وما كان من بلدوين إلا اقتفاء أثره، عساه

¹ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 2، ص 183؛ ابن العري : تاريخ الزمان، ص 125.

² رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 451-452.

³ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 195؛ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 108-110؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 414.

⁴ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 109.

⁵ سبط ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 1، ص 337؛ ابن العري : تاريخ الزمان، ص 126؛

Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 188; Grousset : Histoire des Croisades, t. I, p. 424.

⁶ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 246.

⁷ سبط ابن الجوزي : مصدر سابق، ص 337-338؛ العظيمي : مصدر سابق، ص 360؛ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص

137-138؛ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 150؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 2، ص 183-184.

⁸ عطية حسين محمد : مرجع سابق، ص 127.

يقبض عليه، ويدمر قوته العسكرية، ويحرر بوهيموند من أسره، ولكن دانشمند توغل بعيدا داخل البلاد، وخشي بلدوين أن يكون ضحية خيانة المسيحيين المحليين، أو أن يقع في كمين الأتراك، وبعد ثلاثة أيام من المطاردة، عاد أدراجه إلى ملطية، ومنها إلى الرها، في شوال 493هـ/أواخر أوت وبداية سبتمبر 1100م.¹

والسؤال الذي يطرح على الباحث، لماذا لم يستول بلدوين البولوني على مدينة ملطية وابتزرها من جبريل الأرميني ويضمها إلى إمارته في الرها ؟ الواقع أن بلدوين جاءته فرصة أفضل من الاستيلاء على هذه المدينة من الأرمن، إذ بلغه نعي أخيه جودفري ملك مملكة بيت المقدس بتاريخ 10 رمضان 493هـ/18 جويلية 1100م، وظهر أنه الوريث الشرعي الوحيد، فانتقل إلى فلسطين ليتسلم مقاليد الحكم هناك، ولذلك لم يهتم بأمر ملطية كثيرا،² أو ربما أجل عملية ضمها وإلحاقها بأملكه إلى وقت لاحق، وترك الرها بين أيدي ابن عمه بلدوين دو بور.

وثمة سؤال آخر يطرح بحدّة، وهو لماذا تراجع دانشمند عن ملطية ؟ كما أنه أطال في العودة إليها، إذ لم يعد إلى ملطية إلا بعد سنتين، فما السر وراء هذا التأخر ؟ رغم أنه كان أول أمير تركي حقق انتصارا على الصليبيين كما أن جبريل كان في أضعف موقف بعد وقوع بوهيموند في الأسر، ورحيل بلدوين إلى فلسطين.

يبدو أن قرار أحمد دانشمند بفك الحصار عن ملطية وانسحابه إلى سيواس، يدل على وعي سياسي في التخطيط العسكري لدى أترك آسيا الصغرى بصفة عامة،³ إذ كان من السهل أن يُطبق الصليبيون على قوته أمام ملطية، فبعد خروج بلدوين من الرها، كان من الممكن أن يخرج جيش جبريل من ملطية، فيجد الدانشمنديون أنفسهم بين فكي كماشة، ويتحول أول حصاد حققه الأتراك

¹ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 150؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 2، ص 184؛ طقوش : تاريخ الحروب الصليبية، ص 188؛ Raoul de Caen : op. cit., pp. 262-263; Guibert de Nogent : op. cit., p. 320; Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 425.

² وليم الصوري : مصدر سابق، ج 2، ص 187، 192.

³ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 95.

ضد الصليبيين إلى هشيم تذروه الرياح، ولذلك كان من الحكمة أن يتراجع من أمام أسوار ملطية، وتأجيل الاقتحام إلى وقت آخر. وحينما رأى جبريل انسحاب الدانشمنديين، اعتقد أنه بتحالفه مع الصليبيين قد أبعد الخطر عن مدينته، والحقيقة أن انصراف الأتراك عن ملطية لم يكن إلا تكتيكا حربيا، وإلى حين.

ثم حدث أن انشغل أحمد دانشمند، بالتحالف مع قلعج أرسلان ليتعاونوا معا ضد الحملة الصليبية اللومباردية¹ التي حلت بآسيا الصغرى سنة 495هـ/1101م، فصرفا نظرهما عن ملطية، وتفرغا لمحاربة الصليبيين الذين تكبدوا خسائر فادحة، وانهمزوا هذه المرة شر هزيمة أمام التحالف الذي جمع بين البيتين التركيين، آل دانشمند في سيواس، وآل سلجوق في قونية. وبمجرد نهاية هذه الحملة الصليبية التي ضاعت بين الرمال في آسيا الصغرى، شرع الأمير الدانشمندي في تعبئة جيشه، وتزويده بالموثون استعدادا لفتح ملطية.

وفي هذه الأثناء كان بلدوين دو بور قد شرع في التفاوض مع أحمد دانشمند لإطلاق سراح بوهيموند، مقابل فدية يؤديها له، ولما علم الإمبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين بأمر هذه المفاوضات، أرسل إلى الأمير التركي، وعرض عليه مبلغا سخيا مقابل تسليمه بوهيموند، لمعاقبته على عدم الوفاء بقسمه ورفضه إعادة أنطاكية إلى الامبراطورية البيزنطية. ووصل نبأ هذا العرض المغربي إلى مسامع قلعج أرسلان فطلب من أحمد دانشمند أن يعطيه نصف الفدية، باعتباره سيدا على جميع الأتراك في آسيا الصغرى، ولأنه حليفه ضد الحملة الصليبية اللومباردية، ولكن الأمير الدانشمندي رفض اقتسام المبلغ، ورفض أيضا العرض البيزنطي، وأبقى على الاتصالات مع حاكم الرها بلدوين دو بور،² عن طريق كوغ فاسيل أمير كيسوم الذي كان وسيطا في هذه المفاوضات.

¹ اللومبارديون : من الشعوب الجرمانية القديمة، استوطنوا في القرن الأول الميلادي البلاد الواقعة على طول نهر الألب الأدنى، ثم سمح لهم الامبراطور جوستينيان الأول بالاستيطان في المجر وشرق النمسا، ثم غزوا بقيادة زعيمهم البوين شمال إيطاليا سنة 568م، وأسسوا مملكة عاصمتها بافيا في لمبارديا، ثم توغلوا في وسط إيطاليا وجنوبها، وبلغت مملكتهم أوجها في القرنين السابع والثامن الميلاديين، حتى قضى شارلمان على مملكتهم حوالي سنة 774م. (انظر : الموسوعة العربية، مرجع سابق، ج 6، ص 2877).

² Albert d'Aix : op. cit., t. II, p. 72-73.

ب - سقوط إمارة ملطية

وقبل أن تكتمل المفاوضات، سار أحمد دانشمند بجيشه، وفرض حصارا على مدينة ملطية،¹ وطلب من جبريل أن يسلمه المدينة دون إراقة للدماء، غير أنه رفض ذلك، وأرسل إلى صهره بلدوين دو بور،² يلتمس منه الغوث،³ ولكن حاكم الرها أراد في هذه اللحظة الحرجة ألا يسيء إلى أمير سيواس،⁴ خوفا من فشل المفاوضات الجارية بينهما لإخلاء سبيل بوهموند، فلم يعر صهره اهتماما، ولم يرسل له المساعدة التي طلبها.

ولما اشتد الحصار على ملطية، تضرر السكان من ندرة المؤن وارتفاع الأسعار، وبات شبح المجاعة يهدد المدينة، فنغد صبرهم، وكانوا قد ضاقوا ذرعا من تسلط جبريل عليهم، ولم يغفروا له قتله لأحد أساقفتهم سابقا، فتآمر عليه ضابطان ومعهما مجموعة من الجنود، وقبضوا عليه وأخذوه أسيرا إلى أحمد دانشمند، ثم فتحوا أبواب المدينة التي دخلها الأتراك بدون صعوبة بتاريخ 4 ذو الحجة 495هـ/18 سبتمبر 1102م.⁵ ولكن قلعة تقع داخل المدينة كانت تقيم فيها زوجة جبريل، صمدت في وجه الأتراك، ورفضت الاستسلام، فطلب أحمد دانشمند من جبريل أن يصدر أوامره إلى القلعة بالإذعان والاستسلام، ولكن جبريل لجأ إلى المكر والخديعة، حيث كتب إلى زوجته رسالة جاء فيها : "سلمي القلعة وهذه لك إشارة مني، إني قبل أيام أرسلت إليك فتى اسمه ميداس" وميداس لفظ أرمني معناه لا تسلمي،⁶ أي أنه كان يدفع زوجته إلى مواصلة المقاومة والصمود، وربما كان ينتظر مددا يصله من صهره في الرها، ولكن أحمد دانشمند اطلع على حقيقة الرسالة، وأدرك أن خصمه

¹ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 27.

² تزوج بلدوين دو بور بالأميرة مورفيا (Morfia)، صغرى بنات جبريل سنة 1101م، باقتراح من بلدوين البولوني ملك بيت المقدس آنذاك. (انظر : الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 27؛

Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. II, pp. 977-978).

³ المحميد علي بن صالح : مرجع سابق، ص 80.

⁴ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 104؛ رنسيمن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 67.

⁵ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 126؛

Michel Le Syrien, op. cit., t. III, p. 188; Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 426.

⁶ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 126؛ Michel Le Syrien, op. cit., t. III, p. 189

ماكر ومخادع فنفذ فيه حكم الإعدام أمام أسوار القلعة، وتقول المصادر السريانية أنه ألقى به للكلاب، وأزال بيته من الوجود كلياً.¹ وبذلك انتقلت ملطية إلى الأتراك، وأسدل الستار على إمارة جبريل الأرميني الذي تعلق بأهداب الصليبيين، وعلق عليهم الأمل في حمايته من الأتراك.

ولما دانت هذه المدينة لأحمد دانشمند. أمر أتباعه بعدم التعرض لأهاليها بالقتل أو بالأسر، ودافع عنهم كأهم خاصته، ومكنهم من دخول بيوتهم ولم يُقتل أحد منهم، ثم نقل لهم من بلده ما يحتاجون إليه من غذاء ومؤونة، وحثهم على مواصلة أعمالهم دون خوف، وأطلق سراح جميع السجناء الذين كانوا في ملطية وفي سيواس، ثم عين عليها حاكماً يدعى باسيل (Basile).² ويبدو من بعض المصادر أن سكان ملطية كانوا في ظل حكم الدانشمند، في رغد من العيش، وفي أمن واستقرار، ما جعل تلك المصادر تثني على أحمد دانشمند، وتصفه بالرجل الطيب والمحسن، والمعطاء.³

ومما يمكن استنتاجه من هذا الفصل :

أولاً : لقد رحب الأمراء الأرمن بدخول الصليبيين إلى قيليقيا، وإلى إقليم الفرات، ثم اكتشفوا أنهم أكثر عداوة لهم من البيزنطيين.

ثانياً : لقد كانت الحملة الصليبية الأولى كارثة على الأرمن، إذ بعد أن استغلهم الصليبيون كحلفاء لهم تارة ضد البيزنطيين وتارة ضد الأتراك، تخلصوا منهم إما بتشتيتهم، أو بالقضاء عليهم.

ثالثاً : أكدت كثير من المصادر الأرمنية والسريانية أن حكم السلاجقة للأرمن هو أرحم من حكم الصليبيين.

رابعاً : لم تكن علاقة الحكام الأرمن برعاياهم حسنة بل ميزها التوتر والدسائس، واندلاع الثورات والانقلابات.

¹ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 27.

² ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 126؛ Michel Le Syrien, op. cit., t. III, p. 188

³ نفسه؛ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 142؛ Matthieu d'Edesse : op. cit., p 256.

خامسا : إن نفوذ الأرمن الذي لم ينقرض في إقليم الثغور، مع الفراغ السياسي والانقسام المذهبي الذي أزهق المشرق الإسلامي، ساعد إلى حد بعيد بلدوين وبوهيموند في تأسيس إمارة لهما في كل من الرها وأنطاكية.

سادسا : سلم الصليبيون إلى ألكسيس كومنين كل المدن التي استولوا عليها من السلاجقة، ماعدا تلك الواقعة في قيليقيا والجزيرة وبلاد الشام، لأنهم وجدوا فيها جالية أرمنية قوية، تعاونت معهم ضد السلاجقة وضد البيزنطيين معا.

سابعا : إن تضامن فرنسا اليوم بشكل لافت، مع الأرمن في قضيتهم ضد الأتراك وهم سلاجقة، ماهو إلا رد للجميل، لأن جزءا كبيرا من الصليبيين كانوا فرنجة (فرنسيين)، وأول إمارة صليبية تأسست في الرها كانت نورماندية.

الفصل السادس

ثبات آل روبين في قيليقيا

1 - قسطنطين الأول بن روبين (488-494هـ/1095-1100م)

أ - توسيع حدود الإمارة

ب - مساعدة قسطنطين للصليبيين

2 - ثوروس الأول بن قسطنطين (494/524هـ/1100-1129م)

أ - علاقته بالسلاجقة

ب - دور ثوروس الأول في الحرب الأهلية بين السلاجقة

ج - علاقته بالصليبيين

3 - ليون الأول (524-532هـ/1129-1137م)

أ - الحرب بين ليون الأول والصليبيين

ب - قضاء الامبراطور يوحنا كومنين على إمارة أرمينيا الصغرى (1137م)

4 - ثوروس الثاني بن ليون الأول (539-563هـ/1145-1168م)

أ - إحياء الإمارة

ب - الحرب بالوكالة

ج - التحالف الأرمني الصليبي ضد نور الدين زنكي

د - الامبراطور مانويل كومنين في قيليقيا

هـ - ثوروس في معركة حارم

و - مشروع مستوطنة أرمنية في فلسطين

5 - مليح بن ليون الأول (566-569هـ/1170-1174م)

أ - التحالف مع نور الدين محمود زنكي

ب - محاربة مليح الصليبيين والبيزنطيين

يتعرض هذا الفصل إلى إمارة آل روبين التي نشأت في جبال طوروس بقيليقيا، ويعود الفضل في ذلك إلى الأمير روبين الأول الذي وضع أسس أول إمارة أرمنية مستقلة عن البيزنطيين وعن الأتراك السلاجقة.¹ وإذا كانت الإمارات الأرمنية السابقة قد اندثرت وتلاشت بفعل توسع الأتراك، أو استولى عليها الفرنجة وحولوها إلى إمارات صليبية، فإن تلك الإمارة صمدت ولم تقاوم المد السلجوقي والصليبي فحسب، بل وقفت في وجه الإمبراطورية البيزنطية التي عملت على استعادة أراضيها في قيليقيا. وكانت لها علاقات مع عدة قوى إسلامية معاصرة مثل سلاجقة الروم، والفاطميين في مصر، وآل زنكي، والأيوبيين في الشام، وحاولت أن تستغل جميع الفرص لضمان بقائها وسط كل تلك القوى التي كانت تناصبها العدا، بل ودخلت أحيانا في صراع مكشوف ضد الصليبيين في أنطاكية، فما هي أهم الأحداث التي عاصرتها هذه الإمارة ؟ وكيف كانت علاقتها بالأتراك السلاجقة وبالصليبيين ؟ وكيف تحولت إلى مملكة في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ؟

مات الأمير روبين بعد أن نجح في زرع إمارة أرمنية حملت اسمه مدة قرن ونيف فوق أعالي جبال طوروس. وإذا كانت المصادر لم تتطرق بالتفصيل إلى الحروب التي خاضها روبين ضد البيزنطيين أو ضد السلاجقة، ولا إلى العلاقات التي أقامها مع خصومه وجيرانه، فإنها أسهبت في الحديث عن ابنه قسطنطين الأول الذي ورث عرش الإمارة عن والده سنة 488هـ/1095م. ومنذ ذلك الوقت تغيرت المعطيات والظروف الدولية والإقليمية، وجرت الرياح بما يشتهي بني روبن، إذ ساقط إليهم (حجاجا) مسيحيين مسلحين قاصدين بيت المقدس، وجنودا من الفرنجة يدفعهم حماس شديد للانتقام من المسلمين، ووجد فيهم أمراء الأسرة الروبينية فرصة لا تعوز للاستعانة بهم ضد أعدائهم من المسلمين والبيزنطيين على حد سواء.

¹ انظر ص من الفصل الثالث، ص 187-194.

1 - قسطنطين الأول بن روبين (488-494هـ/1095-1100م)

أشادت المصادر الأرمنية واللاتينية بالدور الذي قام به الأمير قسطنطين الأول بن روبين في تثبيت أركان هذه الإمارة، ويعتبر في نظر كثير من المؤرخين الأرمن، المؤسس الحقيقي لإمارة أرمينيا الصغرى في قيليقيا، فقد كان قائدا في جيش جاجيك الثاني،¹ وهو أول من أخرج آل روبين من عزلتهم في أعالي جبال طوروس، وثبت أقدامهم في سهل قيليقيا.² فبعد أن تولى عرش هذه الإمارة الناشئة، وضع نصب عينيه، تحقيق ثلاثة أهداف أساسية ليضمن الحياة لإمارته، أولها: توسيع حدود رقعتها الصغيرة بقوة سيفه،³ وثانيها: إعمارها بعناصر أرمينية محاربة، وثالثها: إيجاد موارد مالية كافية إذا أراد لها الاستمرارية.⁴

أ - توسيع حدود الإمارة

استولى على قلعة فاهكه (Vahka)⁵ سنة 491هـ/1098، وكانت محصنة ومركزا حريا هاما، وقد سقطت في قبضته بعد أن حاصرها وغلب البيزنطيين فيها،⁶ وهي تشرف على أحد دروب

¹ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 74، 102.

² Vahram Rapoun : Chronique du royaume Arménien de la Cilicie à l'époque des croisades, traduit par Sahag Bedrosian, Benjamin Duprat, Paris, 1864. p. 8; Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 227; Mutfian Claude : La Cilicie, t. I, p. 368.

³ اسكندر فايز نجيب : "مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى (1250-1375م/648-776هـ)", رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه في الآداب، إشراف أ د جوزيف نسيم، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، السنة الجامعية 1979-1980. ص 52.

⁴ المدور عثمان : مرجع سابق، ص 225.

⁵ فاهكه : حصن يقع في جبال طوروس، وفي سفح جبل صخري معزول، إلى الشرق من نهر سيحان (Sarus)، وإلى الشمال الشرقي من مدينة سيس التي يبعد عنها بحوالي خمسين كلم. وهو حصن محصن طبيعيا أكثر مما حصنته يد الإنسان، يبلغ ارتفاعه 1270م فوق مستوى سطح البحر، الأمر الذي جعل منه مركز مراقبة لكل الطرق العابرة للمنطقة. ويعود تاريخه إلى العهد الروماني، ولكن البيزنطيين تخلوا عنه في القرن العاشر الميلادي، فأثرت فيه عوامل الطبيعة والانسان، فرممه قسطنطين وأعاد بناءه، وزاد في تحصيناته واتخذ مقر له. ولما تغيرت عاصمة الإمارة، فيما بعد، تحول إلى سجن لكبار الشخصيات، وخاصة في عهد الملك ليون الأول (1187-1219). يقع حاليا في جنوب تركيا، وسط قرية صغيرة تعرف باسم (Féké)، (انظر :

Alishan : op. cit., p. 172; Langlois : op. cit., p. 408; Dulaurier, op. cit., p. 47, note 4; Mutfian Claude : op. cit., t. I, p. 304).

⁶ اسكندر فايز نجيب : مملكة أرمينية، ص 53؛ Sempad (le Connétable) : Chronique du royaume de la Petite Arménie, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} éd., Paris, 1969. p. 610; Mahé Annie : op. cit., p. 192.

التجارة الرئيسة في جبال طوروس،¹ وأمن بذلك مورداً مالياً منتظماً أخذ يستوفيه من الرسوم الجمركية المفروضة على البضائع المارة منه.² اتخذ قسطنطين من هذه القلعة عاصمة لإمارته، ثم انطلق منها يتوسع في الأراضي المجاورة، فاقترب من مدينة سيس (Sis(Uhu))³، ومن مدينة عين زربي، فأضحى الطريق الرابط بينها وبين مدينة قيصرية تحت رقبته.⁴ وتذكر بعض المصادر أنه بلغ سواحل البحر المتوسط وانتزع من الإمبراطورية البيزنطية خليج اسكندرونة،⁵ وكانت معظم توسعاته على حساب البيزنطيين، والأترك في نفس الوقت،⁶ "وانتصر على الروم أمراراً [مرات] كثيرة وأخذ منهم مواضع عديدة وبها وسع سلطنته".⁷ ويضيف استراحيان، وفايز نجيب اسكندر أن قسطنطين كان يريد بهذه الحركة، تحصين إمارته ضد المماليك في مصر.⁸

ويبدو أن المصادر الأرمنية قد بالغت في تحديد الأراضي التي توسع فيها والمدن التي ضمها إلى إمارته، والواقع أن حدود بلاده لم تتجاوز نهر بيراموس (Ceyhan çay)، لأن المدن الواقعة إلى الجنوب من هذا النهر وأهمها طرسوس، والمصيصة، وأذنة، كان قد استولى عليها فيلاريت في وقت سابق من البيزنطيين، ثم انتزعها منه سليمان بن قتلمش منذ 477هـ/1084م، ثم آلت إلى الصليبيين الذين طردوا منها السلاجقة سنة 490هـ/1097م، وإذا كان قسطنطين قد استولى على فاهكة سنة 491هـ/1098م، فإنه لم يكن قادراً على التوسع جنوباً في سهل قيليقيا المطل على

¹ انظر : موقع القلعة وصورتها في الملحق الثالث عشر، ص 486، والملحق الخامس عشر، ص 489.

² المدور عثمان : مرجع سابق، ص 225؛ Mahé Annie : op. cit., p. 192; Mutfian : La Cilicie, t. I, p. 368.

³ سيس : اسمها القديم هو فلافيوبوليس (Flaviopolis) وعامة أهلها يسمونها سيسيّة، وهي تقع على المنحدر الشمالي في كتلة جبلية صخرية، بين نهر سيحان وجيحان. وتدل آثارها الحالية أنها كانت من أعظم مدن الثغور الشامية ولا يفصلها عن حصن عين زربي إلا مسافة 36 كلم، اتخذها الملك ليون الأول -من آل روبين- عاصمة لمملكته، ثم استمرت عاصمة لمملكة أرمينيا الصغرى في عهد آل هيثوم، إلى أن سقطت في يد المماليك سنة 1375م، وحالياً تسمى كوزان (Kozan)، في محافظة أذنة جنوب تركيا. (انظر : موقع المدينة وصورتها في الملحق الثالث عشر، ص 486 والملحق السابع عشر، ص 491؛ الحموي، مصدر سابق، ج 5، ص 105؛ لسترنج كي : مرجع سابق، ص 173).

Langlois Victor : op. cit., p. 381-384; Texier Charles : op. cit., p. 583.)

⁴ Chalandon Ferdinand : t. II, op. cit., p. 106.

⁵ Vahram Rapoun : op. cit., p. 8.

⁶ Sempad : loc. cit.; Vahram d'Edesse : op. cit., p. 498; Payaslian Simon : op. cit., p. 81.

⁷ خانجي أنطون : مرجع سابق، ص 216.

⁸ استراحيان : مرجع سابق، ص 207؛ اسكندر فايز نجيب : مملكة أرمينية، ص 54.

البحر المتوسط، لأن الصليبيين كانوا قد سبقوه إلى المنطقة، وبسطوا أيديهم على أهم مدنها. ومن ثمة، فإن الإقليم الذي حكمه قسطنطين الأول، لم يتجاوز مدينة عين زربي الواقعة في الضفة الشمالية لنهر بيراموس، ولم تصل حدود إمارته إلى البحر المتوسط. ومما لا شك فيه أنه كان يطمح لتوسيع حدود إمارته في كل الاتجاهات، وتحصينها من أعدائه، ولكن ليس من دولة المماليك التي كانت لم تتأسس بعد في عهده.

وسواء توسع قسطنطين ضد الأتراك أو ضد البيزنطيين، فإنه بهذه الحركة لفت انتباه الامبراطورية البيزنطية إلى الخطر الذي يمكن أن تشكله هذه الإمارة الأرمنية الناشئة على حدودها الجنوبية،¹ التي وجدت نفسها تخوض صراعا مريرا وطويلا من أجل البقاء، حيث كانت تعاني من هجمات وتوسعات السلاجقة من جهة، ورغبة الإمبراطورية البيزنطية في استعادة الأراضي والمدن التي فقدتها في قيليقيا من جهة أخرى. وإذا كان اليعقوبي قد قال عن أرمينيا الكبرى في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، بأنها بلد "يحيط بها الأعداء"،² فإن هذا الوصف ينطبق على إمارة أرمينيا الصغرى التي نشأت في قيليقيا، أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. فكيف استطاع الأمير قسطنطين الأول أن يحفظ لأرمينيا وجودها وسط محيط يناصبهم العداء ؟

أورد ميخائيل السرياني في حوليته جزءاً من الجواب عن هذا السؤال، فبعد أن تحدث عن الحملة الصليبية الأولى وتغلب الصليبيين على المسلمين في شمال سوريا، قال : "لما وصل جنود الحملة الصليبية الأولى إلى آسيا الصغرى، كان أبناء روبين قد استقروا في جزء من قيليقيا"،³ ويستنتج من ذلك أن الحملة الصليبية الأولى كانت متنفسا ومخرجا من العزلة والطوق الذي تعاني منه إمارة آل روبين في مرتفعات طوروس، فبمجرد ما وطئت أقدام الصليبيين أرض قيليقيا، وجد الأرمن في الصليبيين سندا قويا لمواجهة البيزنطيين، والسلاجقة معا، كما وجد الجيش الصليبي في الأرمن عنصرا

¹ استراتيجان : مرجع سابق، ص 207.

² اليعقوبي : مصدر سابق، ص 20.

³ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 198.

بشريا فعلا يتميز بخبرة كبيرة في الحروب، ودراية بالمسالك والدروب، وعنصرا أساسيا للتموين.¹ ورغم اختلاف الألسنة بين الأرمن والفرنجة القادمين من أوربا، "كنا نبدو اخوة في حب الرب وتفكيرنا واحد تقريبا".²

وبالعودة إلى ما ورد في الفصل الرابع حول خط سير الحملة الصليبية الأولى،³ فإن الجيش الصليبي الذي سار عبر قيليقيا متوجها إلى أنطاكية، قد ضم بين صفوفه مجموعة من الأرمن كمرشدين ومساعدين، وهم الذين ربطوا الاتصال بين قادة الصليبيين والأمراء الأرمن في مرتفعات طوروس والفرات. كما أن مدن قيليقيا مثل طرسوس، والمصيصة، وأذنة، لم تسقط في أيدي الصليبيين إلا بمساعدة سكانها الأرمن. وإذا كانت بعض المصادر اللاتينية قد ذكرت أن تانكرد نسج علاقات في مدينة أذنة مع أوشين الأرميني أمير لمبرون،⁴ فإن متى الرهاوي قد ذكر أن الصليبيين أرسلوا رسالة إلى "القائد الأرميني الكبير قسطنطين بن روبين الذي كان يحتل جبل طوروس في بلد غوبيدار (Gobidar)،"⁵ دون أن يكشف عن فحواها، ومن دون شك أنها تطرقت إلى ضرورة التحالف معهم ضد السلاجقة، وتقديم المؤونة للجيش الصليبي الذي وجد صعوبة في التموين نظرا لبعده عن قواعده في أوربا، ولا يمكن له الاعتماد على البيزنطيين الذين فقدوا نفوذهم في قيليقيا. ومن الممكن أن تكون هذه المراسلة قد حدثت لما وصل الصليبيون إلى مدينة عين زربي⁶ التي تفصلها عن فاهكة، عاصمة آل روبين، مسافة أربعة وثمانين كلم فقط. ومن المحتمل أيضا أن يكون قسطنطين الأول على علاقة مع جودفري البويوني (Godefroy de Bouillon)، الذي كان يقود الجيش الصليبي الرئيسي المتوجه إلى أنطاكية عبر جبال طوروس الداخلية الواقعة شمال شرق قيليقيا غير بعيدة عن إمارة

¹ اسكندر فايز نجيب : مملكة أرمينية، ص 53؛ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 24.

² فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 105.

³ انظر الملحق الثاني عشر، ص 485.

⁴ Raoul de Caen : op. cit., pp. 81-86.

⁵ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 73، Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 216.

⁶ المصدر السابق، ص 74.

آل روبين.¹ وما يجعل هذه الاحتمالات أكثر قبولاً، هو الدور الذي قام به قسطنطين الأول في مساعدة الصليبيين أثناء حصارهم لأنطاكية.

ب - مساعدة قسطنطين للصليبيين

بعد أن حط الصليبيون رحالهم قرب أسوار أنطاكية في 13 ذي الحجة 490هـ/21 أكتوبر 1097م، وبعد شهرين من الحصار الذي ضربوه على المدينة نفذ ما كان معهم من مؤن، فخرج بوهيموند يقود شطرا من الجيش لنهب القرى والضياع المجاورة للمدينة، ولما وصل إلى قرية البارة² يوم 31 ديسمبر، باغته جيش من المسلمين يقوده دقاق ملك دمشق، كان في طريقه إلى أنطاكية لنجدة ياغي سيان، ورغم أن النصر لم يكن حليف المسلمين في هذه المعركة، فإن الجيش الصليبي ارتد مسرعاً إلى معسكره بعد أن نهب قرية أو قريتين فقط.³ وعلى حد تعبير وليم الصوري، "عادت الحملة بأيدٍ خالية وبطن خاوية".⁴ والحقيقة أن الصليبيين لم يجدوا ما ينهبوه، لأنهم "خربوا النواحي كافة، ولم يعد ممكناً أن يجدوا الخبز ليشتروه من أي مكان، وعانوا من الجوع معاناة متزايدة. ونتيجة لهذا، تسرب اليأس إلى الجميع، وبدأ كثيرون ينسحبون من الحصار سراً، عن طريق البر وعن طريق البحر على السواء"،⁵ وكان بطرس الناسك من بينهم.⁶

ولما اشتد الفقر والبؤس بمعسكر الصليبيين، وبلغ بهم الأمر إلى أكل جلود الحيوانات وبذور الغلال التي وجدوها في القمامة والسباح،⁷ وحين رأى الأرمن الذين يقيمون في قيليقيا وفي جبال

¹ Tournebize F. : op. cit., p. 115; Dédéyan Gérard : Les Arménien entre Grecs, t. I, p. 406.

² البارة : بلدة صغيرة من نواحي حلب، وفيها حصن، تقع شرق نهر العاصي (Oronte)، على بعد حوالي أربعة وثمانين كلم جنوب غرب حلب. (انظر : الحموي : مصدر سابق، ج 2، ص 256؛ Cahen Claude: La Syrie du nord, p. 162.

³ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 134؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 237-238؛

Albert d'Aix : op. cit., t. I, pp. 165-166; Cahen Claude: op. cit., p. 213; Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 144.

⁴ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 292، 300

⁵ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 111.

⁶ مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 55.

⁷ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 112.

طوروس والأمانوس وفي الفرات، أن الصليبيين عادوا صفر اليمين خالي الوفاض من غزوات النهب التي قاموا بها في المناطق المجاورة، أخذوا على عاتقهم عملية تموين الجيش الصليبي وتزويده بالأطعمة.¹

وكان قسطنطين من بين الأمراء الأرمن الأكثر نشاطا في خضم هذه الأحداث، حيث عمل على تزويد الصليبيين بما يحتاجونه من مؤن، ولم يكن الحافز تقديم المساعدة، أو القيام بأعمال خيرية، بل كان حريصا على استغلال المجاعة التي خيمت على معسكرهم ليحقق لإمارته أرباحا طائلة. فكان الأرمن في إمارته يشترون الحنطة والأطعمة ويرسلونها إلى معسكر الصليبيين الذي كانت المجاعة القاسية تتفاقم فيه يوما بعد يوم، وباعوا لهم الخبز، والزيت، والملح، والأبقار، والحمير ... بأسعار مضاعفة،² "فمات الكثيرون من رجالنا الذين عجزوا عن دفع هذا الثمن الفاحش الارتفاع".³

ولم يقتصر عمل قسطنطين على تموين الصليبيين بالمؤن، بل تحالف معهم عسكريا، ويستنتج من بعض المصادر الأرمنية، أنه حارب إلى جانبهم ضد الأتراك.⁴ فبعد انهزام الملك دقاق أمام الصليبيين في معركة البارة يوم 5 صفر 492هـ/31 ديسمبر 1098م، انتقلت مسؤولية الدفاع عن أنطاكية إلى أخيه رضوان ملك حلب، فهو يعتبر المدينة جزءا من نصيبه بعد وفاة ملكشاه. وكان ياغي سيان قد أرسل ابنه إلى حلب -بعد معركة البارة- يعتذر عما بدر منه في وقت سابق، ويطلب المدد لإنقاذ أنطاكية، فخرج رضوان مع قوات أخرى من حماة، وحمص، ومن ديار بكر، واحتشدت هذه القوات كلها في حارم.⁵ وقضت الخطة المتفق عليها أن تقوم هذه القوات بهجوم مفاجئ على

¹ مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 54؛ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 79-80.

² ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 134؛ Albert d'Aix : op. cit., t. I, p. 169.

³ مؤرخ مجهول : مصدر سابق، ص 55.

⁴ Samuel d'Ani : Chronographie de Samuel d'Ani, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} éd., Paris, 1969. t. I, p. 448; Vahram d'Edesse : op. cit., p. 498; Vahram Rapoun, op. cit., p. 8.

⁵ حارم : حصن حصين وكورة جلييلة تجاه أنطاكية، تقع غير بعيدة عن الطريق الرابط بين أنطاكية وحلب، كانت في الماضي زريبة للماشية، بنى البيزنطيون في مكانها قلعة صغيرة، طورها الفرنجة كثيرا وجعلوا منها حصنا منيعا. (انظر : الحموي : مصدر سابق، ج 3، ص 108؛ 135 p. (Cahen Claude: La Syrie du nord, p. 135؛ 108).

المعسكر الصليبي الذي يحاصر أنطاكية، وفي الوقت نفسه يخرج ياغي سيان بجيشه من المدينة ويهاجم من الاتجاه المقابل، فيقع الجيش الصليبي بين فكي الكماشة.¹

وكان أهل حارم من الأرمن، ولما علموا بتلك الخطة، أرسلوا سرا إلى الصليبيين أمام أسوار أنطاكية يخبرونهم بما يُعده المسلمون. وبعد أن علم قادة الصليبيين بالأمر، وضعوا خطة تقضي بأن يبقى المشاة يحرسون المعسكر، ويستمرّون في الحصار، ويخرج بوهيموند على رأس ما تبقى من الفرسان (حوالي سبعمائة)، ثم يقومون بهجوم مفاجئ على جيش سلاجقة الشام الذي عسكر في حارم. وانتهت المعركة التي دارت رحاها يوم 4 ربيع الأول 491هـ/8 فيفري 1098م، بانتهزام جيش السلاجقة، وعودة رضوان إلى حلب. ويبدو أن قسطنطين الأول شارك في هذه المعركة بفرسانه، حيث يذكر ابن العديم أنه "في شهر ربيع الأول من السنة وصل خلق من الأرمن إلى تل قَبَّاسين بناحية الوادي فقتلوا من فيه"،² والقائد الوحيد الذي كان بإمكانه أن يحشد الأرمن ويقترّب بهم من حلب هو من دون شك قسطنطين الأول الذي كان يعمل على استغلال كل فرصة لتوسيع إمارته في قيليقيا على حساب كل من المسلمين والبيزنطيين.³ لأن الأمراء الأرمن الآخرين، كان بعضهم من أتباع الامبراطورية البيزنطية ولا يستطيعون القيام بأي مبادرة عسكرية إلا بموافقة القسطنطينية، من بينهم الأمير أوشين في لمبرون، الذي يبدو أنه لم يتعاون مع الصليبيين منذ أن التقى بهم في مدينة أذنة في أواخر سبتمبر سنة 490هـ/1097م، والأمير ثاتول في مرعش الذي نصبه البيزنطيون حاكما على المدينة باسمهم. وبعضهم كانوا يصارعون السلاجقة والصليبيين معا في إقليم الفرات، لحماية إماراتهم من العواصف المتضاربة التي أحاطت بهم، مثل ثوروس في الرها، وكوغ فاسيل في كيسوم، وجبريل في ملطية.

¹ طقوش : تاريخ الحروب الصليبية، ص 103.

² ابن العديم : زبدة الحلب، ص 237-238.

³ اسكندر فايز نجيب : مملكة أرمنية، ص 54.

ومما يدل على مشاركته مع الصليبيين في حربهم ضد السلاجقة، أنهم اعترفوا له بالفضل ومنحوه لقب مركيز¹ (Marquis)، "وقدموا للمذكور هدايا ثمينة وأعطوه شرف الوزارة ومدحوه كثيرا"²، لهذا نال شهرة في أوروبا.³ ورغم أن فترة حكمه قصيرة (خمس سنوات) إلا أنه نال مكانة سامية بين رعاياه، حيث لقبته المصادر الأرمنية بالأمير الكبير، أو الأمير الكبير للأرمن،⁴ وتفسير ذلك أنه عاصر أحداث الحملة الصليبية الأولى التي استغلها لصالح إمارته. وبهذه المواقف يكون قسطنطين الأول قد وضع دعائم سياسة خارجية قائمة على التحالف مع الصليبيين محل التحالف مع الامبراطورية البيزنطية، أو مع السلاجقة، وهي السياسة التي دأب خلفاؤه على اتباعها بعد وفاته سنة 493هـ/1100م، حيث آل عرش الإمارة إلى ابنه ثوروس.⁵

2 - ثوروس الأول بن قسطنطين (494/524هـ/1100-1129م)

هو الابن البكر لقسطنطين الأول.⁶ ولما تولى شؤون الإمارة في سنة 494هـ/1100م، كانت حدود بلاده محاطة بعدد القوي المتصارعة. وباستثناء كوغ فاسيل في الشرق، فقد كان تانكرد وألكسيس كومنين يتصارعان حول سهل قيليقيا في الجنوب، وكان سلاجقة الروم والدانشماند يطمعون في الاستيلاء على الأراضي الواقعة غرب وجنوب الإمارة. فكيف استطاع ثوروس الأول أن يحافظ على توازن إمارته وسط كل تلك العواصف ؟

لم يبق ثوروس متفرجا على الأحداث التي تجري حوله، بل حاول أن يكون فاعلا ومؤثرا فيها، ليضمن الأمن والاستمرار لإمارته. وبدأ سياسته بتوسيع رقعة بلاده على حساب السلاجقة أحيانا

¹ مركيز : رتبة عسكرية فرنجية تمنح لمن يقود فرقة من المشاة، وتطور ها اللقب فأصبح يطلق على بعض النبلاء الذين لهم مرتبة بعد الدوق وقبل الكونت. (انظر :

Le Petit Robert : dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, Le Robert, Paris, 1983. p. 1158.)

² خابجي انطون : مرجع سابق، ص 216.

³ Vahram d'Edesse : op. cit., p. 498; Samuel d'Ani, op. cit., p. 448; Aslan Kévork : op. cit., p. 76.

⁴ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 216; Samuel d'Ani, lo. cit.

⁵ Héthoum : op. cit., p. 473.

⁶ Vahram Rapoun, op. cit., p. 8.

وعلى حساب البيزنطيين أحيانا أخرى، وكانت معظم توسعاته في المناطق الجبلية، لأن سهل قيليقيا انتقل إلى حيازة الصليبيين منذ سنة 503هـ/1109م.

انتزع من البيزنطيين مدينة عين زربي¹ الواقعة على حافة سهل قيليقيا وسفح الجبل، واتخذها مقرا له، وكانت هذه العملية بداية تعاظم قوته، واشتداد شوكته.² ولا تذكر المصادر بدقة تاريخ استيلائه على هذه المدينة، ولكن بعض المؤرخين المحدثين يرجحون أن العملية تمت في بداية عهده وربما في سنة 500هـ/1107م.³ وحسب ما ورد في بعض المصادر فإن الاستيلاء عليها يعتبر أكبر نجاح للأمير ثوروس الأول،⁴ ومن المحتمل أنه استولى على مدينة سيس قبلها.⁵ وتدل هذه التوسعات على أنه لم يعترف بالتبعية للإمبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين.⁶ وازدادت العلاقة سوءاً بينه وبين السلطات البيزنطية بعد أن انتزع من الإخوة ماندالي (Mandale)⁷ قلعة كيزسترا (Kyzistra).⁸ وتوسع أخوه ليون في الجهات الشرقية لجبال طوروس واقترب من مدينة مرعش، فانتزع من السلاجقة عدة قلاع وحصون ضمها إلى إمارة أخيه. ولم يكن بإمكانه التوسع أكثر من ذلك، لأن الأتراك يطوقون إمارته من جهة الشمال، وقوات تانكرد تمنعه من التوسع في قيليقيا جنوبا.⁹ وبذلك امتدت أرمينيا الصغرى في عهد ثوروس الأول من كيزسترا شمالا إلى عين زربي جنوبا، ومن برسربرت شرقا إلى نواحي

¹ Vahram d'Edesse : op. cit., p. 499; Samuel d'Ani, op. cit., p. 449.

² Mahé Annie : op. cit., p. 193.

³ Alishan : op. cit., p. 274; Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. I, p. 442.

⁴ Vahram d'Edesse : loc. cit.; Samuel d'Ani, loc. cit.

⁵ Dardel Jean : Chronique d'Arménie, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} éd., Paris, 1969. t. II, p. 7.

⁶ Chalandon Ferdinand : op. cit., t. II, p. 106.

⁷ الإخوة ماندالي : هم ثلاثة إخوة أبناء ماندالي، أتباع للإمبراطورية البيزنطية التي أقطعتهم هذه قلعة كيزسترا، وهم الذين قاموا باغتيال الملك الأرميني حاجيك الثاني البجراطي في هذه القلعة انتقاما منه، لأنه قتل رئيس أساقفة مدينة قيصرية. (انظر :

Dulaurier : op. cit., p. XXII; Cheynet Jean-Claude : Les Arméniens de l'Empire en Orient, p. 68

⁸ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 175-178؛ عمران محمود سعيد : السياسة الشرقية، ص 63.

⁹ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 193.

مرعش غرباً.¹ ولكي يعزز استقلاله عن الامبراطورية البيزنطية ضرب السكة باسمه.² ونظراً للرقعة الواسعة التي بلغتها أرمينيا الصغرى في عهده، والمدة الطويلة التي ظل فيها على رأس الإمارة، أصبح في نظر المصادر الأرمنية فاتحاً عظيماً، وحملت البلاد التي حكمها اسمه، فأصبحت تعرف ببلاد ثوروس.³

أ - علاقته بالسلاجقة

ظلت العلاقة بين آل روبين والسلاجقة متوترة، بسبب التحالف والتعاون القائم بين الأرمن والصليبيين من جهة، وبسبب رغبة سلاجقة الروم في التوسع على حساب إمارة آل روبين، واستعادة المدن والقلاع التي فتحوها منذ أيام سليمان بن قتلмыш من جهة أخرى، ولذلك كان أمراء بيت روبين في جبال طوروس، أشد تعرضاً لهجماتهم.⁴ ولكي يحمي إمارته منهم نسج ثوروس الأول في بداية عهده علاقات حسنة مع إمارة الدانشمنديين التي كانت في صراع مع سلاجقة قونية،⁵ وربما هو الذي بلغ عن بوهيموند مما أدى إلى وقوعه أسيراً بين يدي أحمد الدانشمند، سنة 493هـ/1100م، حيث يذكر ابن العبري أن أبناء روبين الذين "خشوا أن يستولي الفرنج عليهم ويخرجوهم من نواحيهم فكتبوا سرا إلى اسماعيل بن دنشمند ليكمن لهم".⁶

وفي هذا الإطار، يذكر متى الرهاوي ضمن أحداث سنة 500هـ/1107م، أن جيشاً تركياً تعداده اثنا عشر ألفاً، عبّر جبال طوروس واتجه إلى بلاد ثوروس، ولما وصل إلى عين زربي، أخذ العديد من الأسرى. وأثناء عودته عبّر سهل مرعش، تصدى له كوغ فاسيل أمير كيسوم، الذي انتصر على الأتراك وأجبرهم على التقهقر، واستعاد منهم الغنائم والأسرى.⁷ ولا يذكر المصدر خروج ثوروس

¹ انظر الملحق الثالث عشر، ص 486.

² Alishan : op. cit., p. 452; Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. I, pp. 465-471.

³ Vahram d'Edesse : op. cit., p. 499.

⁴ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 193.

⁵ Dédéyan Gérard : op. cit., t. I, pp. 505-506.

⁶ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 126.

⁷ Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 264.

لمواجهة هذه القوات التركية، إما لأنها لم تتوغل في المناطق الجبلية التي يحكمها آل روبين، لأن مدينة عين زربي آنذاك (1107م)، كانت لا تزال تحت حكم البيزنطيين، أو لأنه أدرك بأنه لا يستطيع مقاومتها فلجأ إلى قلعة فاهكة الحصينة منتظرا انسحابها من بلاده. وربما تساءل بعض الباحثين من أين جاء هذا الجيش التركي؟ من قونية، أو من ملطية، أو من جهة أخرى؟ ومن كان يقوده قلعج أرسلان أم قائد تركي آخر؟

الراجع أن هذا الجيش قدم من ملطية، التي كان قلعج أرسلان قد انتزعها من ياغي سيان¹ سنة 498هـ/1105م،² واتخذها مقرا لإقامته. إذ في الوقت الذي كان فيه ثوروس يتوسع في مرتفعات طوروس، كان سلاجقة الروم يبحثون لأنفسهم عن مواقع جديدة في جنوب آسيا الصغرى لتعويض ما فقدوه من أراضٍ على يد الصليبيين والبيزنطيين.

ويذكر الفارقي ضمن أحداث سنة 498هـ/1105م، أن السلطان قلعج أرسلان الأول (485-500هـ/1092-1107م) استقبل بملطية الأمراء والوزراء الذين سلموا له ميفارقين،³ "وحضر إلى خدمته أمراء جميع ديار بكر... وأقام بملطية وجمع العساكر".⁴ وفي السنة الموالية، خرج منها على رأس جيش كثيف لفتح الرها ونزل قريبا منها،⁵ غير أنه فشل في اقتحامها. وقد منحته هذه الحملات شهرة في كافة أرجاء العالم الإسلامي، وتطلع المسلمون إليه ليقود حركة الجهاد ضد الصليبيين.⁶ فكتب إليه أهل

¹ ياغي سيان : أو أغوسيان، هو أحد أبناء أحمد دانشمند، وكان على رأس السلطة في مدينة ملطية أثناء وقوع الهجوم عليها من طرف قلعج أرسلان. (انظر : المحميد علي بن صالح : مرجع سابق، ص 48).

² Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 192.

³ ميفارقين : أشهر مدينة بديار بكر، واسمها العربي هو تحريف لاسم ميفركث (Maypharkath) الأرامي أو موفركن (Moufargin) الأرميني، سماها اليونان مرتيروبولس (Martyropolis)، وكانت محل صراع بين الفرس والروم، ثم فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب، وبها قبر سيف الدولة بن حمدان. (انظر : الحموي : مصدر سابق، ج 8، ص 349؛ لسترنج كي : مرجع سابق، ص 143).

⁴ الفارقي : مصدر سابق، ص 272-273.

⁵ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 150.

⁶ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 106.

حُران¹ "ليسلموها إليه فسار إليهم وتسلم البلد وفرح به الناس لأجل جهاد الفرنج"،² إلا أنه أصيب بمرض شديد أوجب عودته إلى ملطية فعاد مريضاً وترك أصحابه بحران.³

وهذا يدل على أن ملطية غدت مركزاً لنشاطاته العسكرية والسياسية، ومنها تطلع قلعج أرسلان إلى التوسع في إقليم الجزيرة وشمال سوريا، وقيليقيا. ولكنه لم يتمكن من إتمام مشروعه، حيث انهزم أمام جاولي⁴ ومات غرقاً في نهر الخابور⁵ بتاريخ 9 شوال سنة 500هـ/02 جوان 1107م.⁶ وبعد وفاته آلت ملطية إلى ابنه الأصغر طغرل أرسلان⁷ (500-503هـ/1107-1109م)، الذي كان تحت

¹ حُرّان : تقع جنوب مدينة الرها، بينهما مسيرة يوم، اسمها القديم كرها (Carrhae) وقيل سميت بماران أخي إبراهيم عليه السلام لأنه أول من بناها، وكانت مدينة الصابئين (الصابئة الحارانية وهم يختلفون عن صابئة العراق اليوم)، وهم على دين إبراهيم، ويقال إن حران كانت أول مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان. فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد عياض بن غنم. تقع حالياً جنوب شرق تركيا عند منبع نهر البليخ أحد روافد نهر الفرات. (انظر : الحموي : مصدر سابق، ج 3، ص 130؛ لسترنج كي : مرجع سابق، ص 134).

² ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 236.

³ نفسه.

⁴ جاولي سقاوه (أو سقاوو) : من ممالك وأمراء السلطان محمد بن ملكشاه، أقطعه الموصل سنة 500هـ، وكان قبل هذا قد استولى على البلاد التي بين خوزستان وفارس وأقام بها سنتين وعمر قلاعها وحصنها وإساء السيرة في أهلها، فلما تمكن السلطان محمد من السلطنة خافه جاولي، ثم دخل في خدمته، وأمره السلطان بالمسير إلى الفرنج ليأخذ البلاد منهم وأقطعه الموصل والأعمال التي بيد جكرمش، وديار بكر والجزيرة كلها. ولما وصل إلى الموصل امتنع عليه جكرمش وخرج للقاءه، غير أنه انهزم إثر المعركة التي حدثت بينهما خارج المدينة، ووقع أسيراً في يد جاولي. فأرسل أهل الموصل إلى قلعج أرسلان يطلبون منه المساعدة، فتوجه إليهم واستقبلوه بخفاوة، ثم دارت المعركة بينه وبين جاولي، وبعد أن أدرك أنه خسر المعركة، حاول الفرار فألقى بنفسه في نهر الخابور، فأنحدر الفرس به إلى قاع النهر، وغرق وظهرت جثته بعد أيام. (انظر : سبط ابن الجوزي، ج 2، ص 445، هامش رقم 2؛ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 238-241).

⁵ الخابور : هو اسم لنهر كبير منبعه في رأس عين ومصبه في الفرات من أرض الجزيرة، ونسبت إليه البلاد التي يجري في أراضيها. (انظر : الحموي : مصدر سابق، ج 3، ص 206؛ لسترنج كي : مرجع سابق، ص 127).

⁶ سبط ابن الجوزي : مصدر سابق، ج 2، ص 477، 479-480؛ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 157؛ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 153.

⁷ طغرل أرسلان : هو أصغر أبناء قلعج أرسلان بن سليمان بن قتلмыш، تولى السلطة عقب وفاة أبيه سنة 500هـ/1107م، بتدبير من بزيمش (أو الأمير أيدبر) أحد رجال أبيه عندما نقل امرأة السلطان الراحل قلعج أرسلان وابنه الصغير طغرل أرسلان من الموصل إلى ملطية، ونادى بطغرل أرسلان سلطاناً في ملطية، حيث ظل في السلطنة حتى عاد أخوه الأكبر ملكشاه بن أرسلان من الأسر، إلى ملطية ونادوا به ملكاً فخلع أخاه الصغير طغرل أرسلان. (أنظر : ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 131-132؛ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 113، 120؛ المحميد علي بن صالح : مرجع سابق، ص 83، هامش 1؛ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 194).

الوصاية. ولم تؤثر وفاة ألب أرسلان في الروح العسكرية التي بثها بين أتباعه في حملته الأخيرة، فخرجوا من ملطية يتوسعون في الأقاليم المجاورة، وبلغوا أعالي قيليقيا،¹ التي تعتبر جزءا من إمارة آل روبين.

وبينما كان ثوروس الأول يبحث عن سبل لحماية إمارته من تهديدات سلاجقة الروم، فإن الأحداث ساقته ليجد نفسه في حرب أخرى ضد سلاجقة فارس. ذلك أن بعض أهالي حلب ضاقوا بالصليبيين ذرعاً، وأرسلوا وفداً إلى الخليفة يلتمسون منه إعلان الجهاد، لتخليصهم مما يتعرضون له من تهديد من قِبَل الفرنج، ولما لم يتحصلوا إلا على وعود جوفاء، أثاروا أهل بغداد وحملوهم على التظاهر في جامع السلطان،² "ومضى بعضهم إلى بغداد واستغاثوا في أيام الجمع، ومنعوا الخطباء من الخطبة مستصرخين بالعساكر الإسلامية على الفرنج."³ وفي منتصف سنة 504هـ/أوائل 1111م، أرسل ألكسيس كومنين سفارة إلى بغداد محملة "بهدايا وتحف ومراسلات مضمونها البعث على قصد الفرنج والإيقاع بهم والاجتماع على طردهم من هذه الأعمال وترك التراخي في أمرهم واستعمال الجد والاجتهاد في الفتك بهم قبل اعضاء خطبهم واستفحال شرهم".⁴ ألم يتحالف ألكسيس سابقا مع الصليبيين لدفع خطر السلاجقة عن بلاده، فلماذا يستنفر المسلمين اليوم ضد الصليبيين ؟

والحقيقة أن ظاهر هذه السفارة هو استشارة الخليفة العباسي، وسلطان السلاجقة⁵ ضد الصليبيين، ولكن باطنها هو استغلال المسلمين لمحاربة تانكرد الذي بات يشكل خطرا على الامبراطورية البيزنطية، حيث استولى على عدة مدن في اقليم قيليقيا، فضلا عن مدينة أنطاكية التي رفض تسليمها إلى السلطات البيزنطية. وبعبارة أدق، فإن ألكسيس كومنين دعا إلى تكافل أهل

¹ Cahen Claude: La Syrie du nord, p. 253.

² رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 196.

³ ابن العديم: زبدة الحلب، ص 253.

⁴ ابن القلانسي: مصدر سابق، ص 173.

⁵ الخليفة العباسي هو أبو العباس أحمد الملقب بالمستظهر بالله (487-512هـ/1094-1118م)، والسلطان السلجوقي هو محمد بن ملكشاه (498-511هـ/1104-1118م). (انظر: السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ): تاريخ الخلفاء، تحقيق احمد ابراهيم زهوة و سعيد بن أحمد العيدروسي)، دار الكتاب العربي، ط4، بيروت 2003. ص 326-330.

الشرق ضد الغزاة الفرنجة.¹ ويبدو أن هذه السفارة تركت أثراً عميقاً في نفسية المسلمين، فصاح أهل حلب في السلطان: "أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام حتى قد أرسل إليك في جهادهم".² وأمام هذه الأوضاع، "أرسل الخليفة إلى السلطان في المعنى يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه"³ فبادر السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه إلى إصدار أمر إلى مودود أتاك الموصّل بالدعوة إلى الجهاد وتكوين حلف إسلامي والسير لقتال الفرنج. واستجاب لندائه أمراء ميفارقين، ومراغة، وأربل، وهمدان، وتبريز، وديار بكر، وماردين، وشيزر، ثم رحلوا إلى الشام في منتصف محرم سنة 505هـ/23 جويلية 1111م.⁴ وتخلّى عنهم رضوان ملك حلب فأغلق في وجههم أبواب المدينة، وأمر باعتقال عدد كبير من أعيانها خوفاً من اتصاّهم بالقوات الإسلامية المتحالفة وتسليمها لهم،⁵ وفضل المحافظة على علاقاته الجيدة بالفرنجة، مدعياً أن عهوداً ومواثيق تربطه بهم ولا بد من الوفاء بها.⁶

ولما تحرك الشرق كله استجابة لدعوة السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه للجهاد، أدرك الصليبيون والأرمن أن مصدر الخطر ليس من سلاجقة الروم فقط، بل الخطر الأكبر الذي يهدد وجودهم مصدره سلاجقة فارس. وأمام هذا التحدي الإسلامي، استجاب بلدوين الأول (494-511هـ/1100-1118م) ملك بيت المقدس، لنداء الاستغاثة الذي أرسله كونت الرها بلدوين دو بور (Baudouin de Bourg)، ودعا سائر الفرسان بالشرق الفرنجي، ليلحقوا به،⁷ فتكون حلف مسيحي شارك فيه بعض الأمراء الأرمن منهم كوغي فاسيل صاحب كيسوم، وأبو

¹ Dédéyan Gérard : Les Arménien entre Grecs, t. I, p. 506.

² ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 262.

³ المصدر السابق ج 8، ص 261.

⁴ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 174؛ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 262.

⁵ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 254.

⁶ Albert d'Aix : op. cit., t. II, p. 171; Cahen Claude: La Syrie du nord, p. 262.

⁷ فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 217؛ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 167؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2،

ق 1، ص 198؛ Albert d'Aix : op. cit., t. II, p. 172; Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 488.

الغريب صاحب البيرة،¹ وثوروس الأول (Antevelle) مع أخيه ليون،² اللذان التحقا بتانكرد قرب أسوار أنطاكية، وبالانضمام لهذا التحالف المسيحي، أقحم ثوروس إمارته في الحرب ضد سلاجقة فارس وهو لم يتخلص بعد من ضغوط سلاجقة الروم على حدود بلاده.

ويبدو أن طغرل أرسلان (500-503هـ/1107-1109م) أمير ملطية لم يشارك في التحالف الإسلامي ضد الصليبيين، واستغل فرصة انسحاب معظم الجنود الأرمن ومن معهم من الفرنجة من الحدود الشمالية وانضمامهم للتحالف المسيحي، فهجم على مدينة البستان والجهات المجاورة، ثم أغار على قيليقيا، التي وجدها خالية من الجند، فبلغ مدينة عين زربي، وطرد منها حامية صليبية قليلة العدد.³ وبما أن ثوروس الأول كان مع جيشه قرب أنطاكية يقف إلى جانب تانكرد، فإنه لم يخاطر بالعودة إلى إمارته لمحاربة السلاجقة الذين أخذوا "معهم عددا لا يحصى من الأسرى وكثيرا من الغنائم".⁴

ب - دور ثوروس الأول في الحرب الأهلية بين السلاجقة

ولكن العصر الذهبي لسلاجقة الروم انتهى بوفاة قلع أرسلان بن سليمان بن قتلمش سنة 500هـ/1107م، وولّى العهد الذي كانوا يهددون فيه حدود الامبراطورية البيزنطية، وحدود إمارة آل روبين، حيث انفجرت النزاعات بين أبنائه، الذين غرقوا في صراعات وحروب مدمرة حول عرش السلطنة، التي اقتسموها بينهم، ثم راح كل واحد منهم يتوسع على حساب الآخر. أكبرهم ملكشاه الذي سقط أسيرا في يد جاولي بعد معركة الخابور، ثم أرسله إلى السلطان محمد بن ملكشاه في فارس، ولكنه هرب من معتقله وعاد إلى ملطية سنة 503هـ/1109م. فخلع أخاه الصغير طغرل أرسلان، وسجن أخويه مسعود وعرب⁵ ليخلو له العرش. ولكن أخاه مسعود تمكن من الهرب من السجن

¹ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 168.

² Albert d'Aix : op. cit., t. II, p. 172.

³ المصدر السابق، ص 172؛ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 200, 205.

⁴ نفسه

⁵ العظيمي : مصدر سابق، ص 368؛ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 132.

ولجأ إلى الأمير غازي بن كمشتكين أحمد دانشمند صاحب سيواس، وتحالف معه، ثم أعلن الثورة ضد أخيه ملكشاه، فتمكن من قتله والاستيلاء على الحكم، والجلوس على عرش السلطنة سنة 510هـ/1116م.¹

وإثر مقتل ملكشاه، تقلصت سلطنة سلاجقة الروم، واقتسمها الإخوة الثلاثة الذين أسسوا إمارات مستقلة عن بعضها البعض وهي :

- إمارة قونية التي آل مصيرها إلى ركن الدين مسعود بن قلع أرسلان (510-550هـ/1116-1155م).

- إمارة أنقرة،² التي حكمها الأخ الثاني وهو عرب، بعد أن فر من سجنه في أنقرة إثر مقتل ملكشاه، وضم قسطنطيني (Kastamonou)،³ إلى إمارته.

- إمارة ملطية التي حكمها الأخ الأصغر طغرل أرسلان، وكان تحت وصاية أمه.

كان هذا الانقسام فرصة للأمير غازي بن دانشمند صاحب سيواس لاستعادة ملطية من سلاجقة الروم، فحارب عليها حصاراً مكنه في الأخير من الاستيلاء عليها سنة 518هـ/1124م، وضمها إلى ممتلكاته بمساعدة مسعود أمير قونية،⁴ وخرج منها طغرل أرسلان مع أمه.⁵

¹ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 132؛ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 118.

² أنقرة : تسمى أيضا انكورة (Angora) وباللغوية انقيرا (Ancyra)، وبالفارسية انكورية. تقع وسط الأناضول وهي حاليا عاصمة تركيا. نالت شهرة في التاريخ لأنها كانت مركزاً تجارياً هاماً منذ عهد الحثيين، وأصبحت عاصمة إقليمية تحت حكم الرومان، وتضم أرضها عدة أطلال. وصل إليها المسلمون خلال القرن الأول الهجري ولم يتمكنوا من فتحها، وظلت خاضعة للبيزنطيين، حتى انتزعها منهم سلاجقة الروم، فيها تغلب تيمورلنك سنة 804هـ/1402م، على بايزيد الثاني ووقع في أسره. (انظر : لسترنج كي : مرجع سابق، ص 182؛ الموسوعة العربية الميسرة، ج 1، ص 486؛ Texier Charles : op. cit., pp.479-492).

³ قسطنطيني : مدينة تقع في حوض نهر قارة سو (Kara sou)، وهو أحد روافد نهر هاليس (حاليا هو نهر قزل ارماق (Kızılırmak) (النهر الأحمر) في تركيا). لم يرد اسمها في الكتب القديمة، ولم تبرز في التاريخ إلا في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي. تقع المدينة في سفح جبل صخري كبير يعلوه قصر شيده آل كومنين، بما عدة مساجد ذات هندسة معمارية رائعة يعود تاريخها إلى عهد السلاجقة، خضعت فترة من الزمن لإمارة الدانشمانيين، ثم انتقل حكمها إلى بايزيد. هي حاليا عاصمة محافظة قسطنطيني على ساحل البحر الأسود في تركيا. (انظر : Texier Charles : op. cit., p. 617).

⁴ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 42؛ Chalandon Ferdinand : t. II, op. cit., pp. 77-78.

⁵ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 220.

أثارت خسارة ملطية وخروجها من يد السلاجقة إلى الدانشمنديين، غضب السلطان عرب، وما زاد من غضبه تعاون أخيه مسعود مع غازي بن دانشمند ضد أخيه الأصغر طغرل بن أرسلان، فاتمه بالخيانة، وعقد العزم على محاربه والجلوس مكانه على العرش، وإعادة توحيد القوى السلجوقية تحت سلطانه.¹ فحشد قوة عسكرية وزحف على مدينة قونية سنة 520هـ/1126م، لانتزاعها من أخيه مسعود، فلجأ هذا الأخير إلى الامبراطور البيزنطي يوحنا كومنين² (Jean Comnène 511-537هـ/1118-1143م)، الذي خلف والده ألكسيس، يطلب منه المساعدة للتغلب على أخيه عرب.³

غادر مسعود القسطنطينية بعد ان استقبله الامبراطور يوحنا بحفاوة، "وأعطاه ذهباً وجيشاً كثيراً"،⁴ وتوجه إلى سيواس، يطلب المساعدة من غازي بن دانشمند، عملاً بنصيحة الامبراطور، وأمام هذا التحالف السلجوقي الدانشمندي البيزنطي، عجز عرب عن المقاومة، فخرج من قونية لاجئاً إلى الأمير الأرمني ثوروس الأول في قيليقيا.⁵ فما المصلحة التي تجمع بين عرب السلجوقي وثوروس الأول الأرمني؟ وهل وجد عرب عند ثوروس المساعدة التي كان في حاجة إليها؟

يبدو أن عرب أحسن استغلال الظروف السياسية لتحقيق هدفه، حيث كانت الحرب تندلع من حين لآخر بين إمارة بني روبين والدانشمنديين الذين كانوا يشنون هجمات على الحدود الشمالية

¹ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 121.

² يوحنا كومنين : ورد في المصادر العربية باسم كيالياني، وأطلق عليه رعاياه اسم يوحنا الصالح، كالويوانس (Kaloioannes)، تولى عرش الامبراطورية وهو في الثلاثين من عمره، لم يكن يشارك فيما اشتهر به أفراد أسرته من الميل إلى الأدب والمناقشات الدينية. كان جندياً يفضل النهوض للقتال على البقاء في القصر الامبراطوري، واشتهر أيضاً بكفاءته وعدالته في الإدارة. ورث عن أبيه اسطولا قويا، وجيشاً منظماً ومسلحاً، وخزانة عامرة بالمال. كانت سياسته الخارجية قائمة على المحافظة على أطراف الدولة وإعادة توحيد حدودها السابقة. وحسب رنسيما لم يكن في وسع احد من المؤرخين المعاصرين له أن يلصق به شيئاً من العيوب، باستثناء مؤرخ واحد، هي اخته أنثا كومنين. (انظر ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 258؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 332-335؛ Chalandon Ferdinand : t. II, op. cit., pp. 1-11).

³ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 223.

⁴ ابن العري : تاريخ الزمان، ص 141.

⁵ نفسه؛ Michel Le Syrien : loc. cit.

للإمارة، بهدف الاستيلاء على بعض المدن والحصون.¹ ولم يكن ثوروس الأول قادراً على تأمين حدوده الشمالية بسبب رغبته في التوسع جنوباً في سهل قيليقيا، ولذلك فقد كان في حاجة ماسة إلى حليف يقف معه في حروبه ضد إمارة بني دانشمند، وجاءته الفرصة لما لجأ إلى بلاطه الأمير عرب السلجوقي يبحث عن حليف ضد أخيه مسعود. وبما أن المصلحة جمعت بين الأميرين، فقد كان من السهل على عرب أن يقنع ثوروس الأول بعقد تحالف بينهما لمواجهة غازي بن دانشمند.

إذ تذكر المصادر السريانية -وهي الوحيدة التي تمدنا بهذه المعلومات- أنه في صيف 521هـ/1127م، جمع الأمير عرب جيشاً من الأتراك والأرمن، وأعلن الحرب ضد الإمارة الدانشمندية معتمداً على حرب الكمائن أو ما يشبه حرب العصابات، فتمكن من أسر بعض أبناء غازي، وكانت الحرب سجالاً، وانتهت في الأخير بانحزام عرب الذي لجأ إلى القسطنطينية وضاع خبره هناك.² ويعلق ميخائيل السرياني قائلاً: "كل هذه الأحداث التي اندلعت بين الأتراك، بسبب تمرد بعضهم ضد بعض، دفعتهم إلى طلب النجدة من المسيحيين".³ وكانت هذه النزاعات فرصة للأمير ثوروس الأول الذي وضع جزءاً من قواته تحت تصرف الأمير عرب، ليغزو بها إمارة غازي بن دانشمند، الذي كان يهدد الحدود الشمالية لإمارة بني روبين بشكل مستمر، ولكن ما أن وضعت الحرب أوزارها بين السلاجقة والدانشمديين، حتى "جمع غازي جيشاً للهجوم على أراضي الأرمن أبناء (رافين)".⁴

ج - علاقته بالصليبيين

استولى بوهيموند على أنطاكية وحقق فيها حلمه بتأسيس إمارة نورمندية صليبية سنة 491هـ/1098م، رغم إرادة الإمبراطور ألكسيس كومنين، ثم أخذ يعمل على توطيد مركزه وتوسيع

¹ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 52، 53.

² ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 141؛ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, pp. 223-224.

³ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 224.

⁴ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 53.

إمارته في السهول والأقاليم المجاورة. وكانت مدينة اللاذقية (Laodicée)¹ الساحلية من بين المدن التي أثارت أطماعه،² فهي تقع إلى الجنوب من أملاكه، وتعتبر أقصى ما يقع من الموانئ في الطرف الجنوبي للإمبراطورية البيزنطية، وامتلاك البيزنطيين لها يشكل خطرا كبيرا على إمارته، إذ بإمكانهم مهاجمته من الجنوب ومنعه من التوسع،³ لذلك هاجمها بوهيموند وحاصرها في أواسط سنة 492هـ/صيف 1099م، دون أن يتمكن من اقتحامها.⁴ ثم أراد التوسع على حساب الأمراء المسلمين المجاورين لإمارته، فبدأ بمهاجمة أفامية (Apamée)⁵ في رجب 493هـ/أفريل 1100م،⁶ ثم هاجم أراضي سلاجقة الشام بين حلب وأنطاكية، وانتزع منهم عدة قلاع،⁷ ثم اتجه نحو الشمال وحاصر مدينة مرعش التي كان يتولاها ثاتول الأرمني لحساب البيزنطيين، ولما لم يستطع اقتحام المدينة، اكتفى بالسيطرة على الأراضي المكشوفة المحيطة بها.⁸ ومن مرعش اتجه مسرعا إلى مدينة

¹ اللَّاذِقِيَّة (Lattaquié) : مدينة فينيقية قديمة، تضم مقابر وآثارا متنوعة، تقع على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، تداولتها أيدي البيزنطيين والمسلمين، والصليبيين الذين استغلوا ميناءها للحصول على المؤونة وإنزال الجيش، فتحها صلاح الدين الأيوبي في سنة 1188م، وهدمها ثم استعادها الصليبيون، واستولى عليها قلاوون في سنة 1288م، وهي الآن تقع غرب سوريا وأهم منافذها على البحر المتوسط. (انظر : الحموي : مصدر سابق، ج 7، ص 169؛ الموسوعة العربية الميسرة، ج 6، ص 2832؛ Raoul de Caen : op. cit., pp. 266-267).

² فيتالي أوردريك : مصدر سابق، ص 184.

³ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 310؛ Grousset : Histoire des Croisades, t. I, p. 417.

⁴ أنا كومينا : مصدر سابق، ص 61؛ ألبرت فون آخن : مصدر سابق، ص 253؛ طقوش : تاريخ الحروب الصليبية، ص 183؛ Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance, p. 301.

⁵ أفامية : مدينة قديمة تقع على بعد 60 كلم شمال غرب مدينة حماة، وقد بنيت على أنقاض مدينة قديمة خلال القرن الرابع قبل الميلاد، من طرف الملك سلوقس نيكاتور، وقد سماها أفاميا تكريما لأمه (أبامي). وأصبحت المدينة مركزا حضاريا وتجاريا مهما في عهد السلوقيين، وتعرضت عبر تاريخها لعدة هزات أرضية مما أدى إلى تدمير كثير من مبانيها. بعد أن حكمها الرومان، فتحها المسلمون خلال القرن الأول الميلادي بعد معركة اليرموك، ثم احتلها الصليبيون، ولم تعد إلى حضن المسلمين إلا بعد أن حررها نور الدين زنكي

عام 1149م. (انظر : ابن العديم : بغية الطلب، ج 1، ص 143-144؛ Texier Charles : op. cit., pp. 446-447.

⁶ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 138.

⁷ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 245-246.

⁸ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 107-108؛ Grousset René : op. cit., t. I, p. 423.

ملطية استجابة لنداء الاستغاثة الذي أرسله الأمير جبريل الأرمني لمقاومة الحصار الدانشمدي، بل وعرض عليه تسليم المدينة متى توقف خطر الترك عنها.¹

وإذا كان هدف بوهيموند من هذه الحركة التوسعية هو السيطرة على دروب جبل اللكام (الأمانوس)، ليقطع الطريق عن أي هجوم يمكن أن يقوم به ألكسيس كومنين لانتزاع انطاكية من الصليبيين،² فإنه بهذه الحركة قد أثار مخاوف الأمير الأرمني ثوروس الأول. وبناء على الرواية التي انفرد بها المؤرخون السريان فإن ثوروس تأمر مع أحمد دانشمند، وزوده بمعلومات دقيقة حول خط سير بوهيموند، مما أدى إلى أسره في أواخر رمضان 493هـ/أوائل أوت 1100م.³ "وكان فريق من الأرمن منذ أيام فيلردس يتولون بعض الأمكنة منهم كوغ باسيل أعني اللص صاحب كيسوم ورعبان، وأبناء روفين أصحاب بعض نواحي أرمينية. فهؤلاء خشوا أن يستولي الفرنج عليهم ويخرجوهم من نواحيهم فكتبوا سرا إلى اسمعيل بن دنشمند ليكمن لهم"،⁴ وحسب هذه الرواية فإن ثوروس الأول كان يخشى من "بوهيموند الذي لا يشبع من أطماعه"،⁵ فيستولي على إمارته أو بعض مدنها، مما جعله يتصل سرا بأحمد دانشمند. ولم يكن وحده في هذه المؤامرة بل شارك معه الأمير الأرمني كوغ فاسيل—وهو الذي ساهم بعد ثلاث سنوات في دفع الفدية لإطلاق سراح بوهيموند—والأمير جبريل الأرمني صاحب ملطية الذي وجه نداء الاستغاثة إلى بوهيموند،⁶ له ضلع في هذه المؤامرة، "أما جبرائيل الملعون فلما وصل بوهيموند إلى قرية جفنة فوق ملطية جعل يملئه ويؤجله من يوم إلى يوم ريثما وصل ابن دنشمند وأقام الكمناء تجاهه ثم قبض عليه وبعثه إلى سبسطية وأقبل هو إلى ملطية وشدّد عليها".⁷ وتبقى هذه الرواية محل تساؤلات وشك عند كثير من المؤرخين، خاصة وأن المصادر السريانية تحمل في كثير من الأحيان أحكاما وآراء سلبية تجاه الأرمن.

¹ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 2، ص 183؛ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 125.

² رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 451.

³ انظر ما قبل في : ص 289، 308.

⁴ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 126؛ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 188.

⁵ ألبرت فون آخن : مصدر سابق، ص 253.

⁶ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 109.

⁷ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 126؛ Michel Le Syrien : loc. cit.

ومهما كان مدى صحة هذه الرواية، فإن المصادر لم تشر كثيرا إلى العلاقات بين آل روبين وبوهيموند، الذي ظل غائبا عن الساحة السياسية في آسيا الصغرى بعد أسرته، ولم يكن في أنطاكية خلال عهد ثوروس الأول إلا في سنتي 1103-1104م. وعلى العكس من ذلك فإن العلاقة مع تانكرد كانت أطول.

تولى تانكرد الوصاية على إمارة أنطاكية، وسار في نفس الطريق الذي رسمه بوهيموند قبله، فعمل على توسيع حدودها على حساب البيزنطيين والمسلمين جميعا. فبدأ بمهاجمة البيزنطيين في قيليقيا، في صيف سنة 494هـ/1101م، واسترد منهم المدن الرئيسية الثلاث، المصيصة واذنة وطرسوس،¹ وهي المدن التي انتزعها البيزنطيون من الصليبيين منذ ثلاث سنوات خلت. ثم انصرف إلى اللاذقية التي استسلمت له بعد حصار طويل، في بداية سنة 496هـ/1103م.²

وقد شارك مجموعة من الجنود الأرمن في كثير من هذه العمليات العسكرية، معظمهم قدموا من إمارة آل روبين التي كان يحكمها ثوروس،³ حيث تذكر أُنَّا كومنين (Anne Comnène)، متحدثة عن القائد البيزنطي بوتوميتس (Boutoumitès)، لما أراد استعادة قيليقيا من الصليبيين سنة 496هـ/1103م، "وعندما وجد أن الأرمن كانوا على وفاق واتفاق مع تانكرد، مر بهم".⁴ فمن هم الأرمن الذين كانوا في قيليقيا في تلك السنة؟ آل روبين أم آل هيثوم؟

كان أوشين أمير آل هيثوم يشرف على الجهات الغربية من جبال طوروس، فقد أقطعتة السلطات البيزنطية مجموعة من الأراضي والحصون، منها حصن لمبرون الذي اتخذ قاعدة لملكه، وهو غير بعيد عن سهل قيليقيا، ويعتبر أوشين تابعا مخلصا للإمبراطورية البيزنطية، بل هو حارسها الأمين في هذا الركن من آسيا الصغرى، ولذلك من غير المتوقع أن يتعاون مع تانكرد ضد بيزنطة. وعلى العكس منه، فإن آل روبين لجأوا إلى الجهات الشرقية من جبال طوروس، فرارا من بطش البيزنطيين

¹ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 25؛ رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 59.

² فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 191؛ طقوش : تاريخ الحروب الصليبية : ص 191.

³ Dédéyan Gérard : Les Arménien entre Grecs, t. I, pp. 487-489.

⁴ كومينا أُنَّا : مصدر سابق، ج 6، ص 66؛ Comnène Anne : op. cit., t. III, p. 41.

الذين اغتالوا الملك جاجيك الثاني، وانتزعوا منهم الحصون والقلاع التي استقروا فيها بقوة السيف، ولم تتنازل لهم عنها السلطات البيزنطية.¹ ومن ثمة فإن الأمير ثوروس الأول ورث عن أسرته ما كانت تكنه من عداوة لبيزنطة، فمن الطبيعي أن يكون على وفاق واتفاق مع تانكرد، عدو ألكسيس كومنين.

ولكن هذا الوفاق، تخللته بعض الأوقات الحرجة، مما أدى إلى فتور في العلاقات بين ثوروس الأول وجيرانه الصليبيين في أنطاكية. حيث استأنف بوهيموند نشاطه التوسعي والعدائي، بعد إطلاق سراحه سنة 496هـ/1103م، فأغار على بلاد حلب والحصون المجاورة لها، وانتزع من الأهالي إتاوة كبيرة استخدمت لتسديد القروض التي دفعت لافتداء بوهيموند.² ثم اتجه شمالاً وهاجم مرعش، واستولى على مدينة البستان الواقعة إلى الشمال من مرعش.³

واستغل الصليبيون ما كان سائداً من تمزق بين السلاجقة في المشرق الإسلامي، فصمموا على احتلال مدينة حران، لقطع الاتصال بين المسلمين في العراق وفارس من جهة وبلاد الشام من جهة أخرى، كما يمكنهم إن هم سيطروا على هذه المدينة من مهاجمة الموصل والجزيرة مستقبلاً.⁴ وانزعج المسلمون مما يتعرضون له من أخطار على يد الصليبيين. واقتضت الشهامة من أميرين تركيين، هما جكرمش أتابك الموصل، وسقمان الأرتقي⁵ صاحب

¹ عاشور سعيد عبد الفتاح : مرجع سابق، ص 233؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 279؛

Grousset : L'Empire du levant, p. 177; Mutaftian : La Cilicie, t. I, p. 368.

² ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 211؛ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 324.

³ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 69؛ طقوش : تاريخ الحروب الصليبية، ص 194.

⁴ عطية حسين محمد : مرجع سابق، ص 131.

⁵ سقمان الأرتقي (ت 498هـ/1104م) : الملقب بمعين الدولة، هو صاحب حصن ماردين وكيفا (من 495هـ/1101م)، وقبلهما كان صاحب حصن سروج. من كبار قادة المسلمين، حارب الفرنجة أثناء الحروب الصليبية، أسر جوسلين وبلدوين الأول في الرها. وصفه ابن الأثير أنه حازم داهية ذا رأي كثير الخير، توفي سنة 498هـ/1104م، وهو في طريقه إلى طرابلس استجابة للاستغاثة التي أرسلها له فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس، لنصرته على الصليبيين، فمرض في الطريق، فأشار عليه أصحابه بالعودة إلى حصن كيفا، فامتنع وقال : «بل أسير فإن عوفيت تمت ما عزمت عليه ولا يراي الله ثققلت عن قتال الكفار خوفاً من الموت، وإن أدركني أجلي كنت شهيداً سائراً في جهاد». (انظر : ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 211، 221، 227؛

الموسوعة العربية الميسرة، ج 4، ص 1855؛ Cahen Claude : Artukids, pp. 662-667.

ماردين،¹ أن ينسيا ما كان بينهما من نزاعات وحزازات،² وأن يتحالفوا على مقاومة الصليبيين الذين احتشدوا أمام حران. ونشبت المعركة بين الطرفين في 9 شعبان 497هـ/6 ماي 1104م،³ تلقى فيها الصليبيون هزيمة ساحقة، ولاذ بوهيوند بالفرار،⁴ "ولم يفلت إلا في نفر قليل"،⁵ وكتب ابن القلانسي معلقاً على انتصار المسلمين : "وكان نصراً حسناً للمسلمين لم يتهياً مثله وبه ضعفت نفوس الفرنج وقلَّتْ عُدتهم وقلَّتْ شوكتهم، وشكَّتْهم وقويت نفوس المسلمين وارهنت وارهفت عزائمهم في نصرة الدين ومجاهدة الملحدين وتباشر الناس بالنصر عليهم وأيقنوا بالنكاية فيهم والادالة منهم"⁶، واندثرت أسطورة أن الفرنج لا يقهرن.

لم يتسبب بوهيموند ورهطه في إزعاج المسلمين فقط، بل حتى المسيحيين المحليين وعلى رأسهم الأرمن الذين تضايقوا من توسعات الصليبيين، فاستغلوا فرصة انهزامهم أمام المسلمين، وأعلنوا الثورة ضد حكم النورمان. وسلم الأرمن في أرتاح حصنهم للمسلمين "لجور الفرنج"⁷، واغلبوا للإفلات من طغيان أنطاكية، ولم تكن أرتاح المدينة الوحيدة التي تنازل عنها أهلها من الأرمن للمسلمين، وإنما كانت هناك حالات أخرى مشابهة.⁸ ويروي متى الرهاوي في حوليته المآسي والويلات التي عانى منها الأرمن في مدينة البستان على أيدي الصليبيين الذين وصل بهم الأمر إلى

¹ ماردين (Mardin) : تقع في ديار بكر بالجزيرة (جنوب تركيا)، وهي حصن حصين منيع لا يرام ولا يقدر عليه، مبني على قمة جبل شاهق، يقال لها الباز، مساكن أهلها كالدرج كل دار فوق الأخرى، وكل درب منها يشرف على ما تحته من الدروب. فتحها عياض بن غنم سنة 19هـ. وكانت معقل أمراء بني حمدان. (انظر : ابن حوقل : مصدر سابق، ص 202؛ لسترنج كي : مرجع سابق، ص 125-126).

² انظر هذه النزاعات في : ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 227-228؛ Grousset : Histoire des Croisades, t. I, p. 447.

³ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 143.

⁴ حول تفاصيل المعركة (انظر : Grousset René : op. cit., t. I, pp. 445-449).

⁵ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 249.

⁶ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 143.

⁷ المصدر السابق، ص 148؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 249؛ سبط ابن الجوزي : مصدر سابق، ص 440.

⁸ عاشور سعيد عبد الفتاح : مرجع سابق، ج 1، ص 326؛ رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 77؛

Grousset René : op. cit., t. I, p. 454.

إغلاق الكنائس، وتدمير بعضها، مما جعل السكان ينتقمون لأنفسهم، فتحالفوا مع السلاجقة وقاموا بمهاجمة القلعة ومحاصرتها، وقالوا لقائد الافرنج : "اذهب إلى وطنك وليكن الله معك".¹

وفي قيليقيا ابتهج الأرمن لما بلغهم نبأ هزيمة الصليبيين في حران، ثم ثاروا عليهم، فلم يجد الجيش البيزنطي في صيف 497هـ/1104م، صعوبة في أن يحتل من جديد مدن شرق قيليقيا، طرسوس وأذنة والمصيصة، وطرد منها الحاميات الصليبية.² ولم يحرك ثوروس الأول ساكنا لمنع البيزنطيين من الدخول إليها، مما يدل على أنه وقف على الحياد، وربما كان يفضل أن تبقى قيليقيا بيزنطية، حتى يستطيع إلحاقها بسهولة بإمارته لما تحين الظروف، وستصعب عليه هذه المهمة إن بقيت بين أيدي الصليبيين.

وحينما انهزم بوهيموند أمام الامبراطورية البيزنطية في صفر 501هـ/سبتمبر 1107م، تحت أسوار حصن دورازو (Durazzo)،³ حرص ألكسيس كومنين في معاهدة ديفول المبرمة بين الطرفين سنة 501هـ/1108م، على حماية حقوق أتباعه من آل روبين، حيث ذكر بوهيموند بالتفصيل جميع الأراضي والمدن التي تنازل له عنها الامبراطور واستثنى منها "بلاد آل روبين، ليون وثوروس، الأرمن الذين هم رجال امبراطوريتك"،⁴ وفي هذا إشارة إلى أن الامبراطور كان يعتبر الأرمن في جبال طوروس

¹ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 150-151.

² Raoul de Caen : op. cit., p. 183.

³ دورازو (Durazzo) : هي التسمية الإيطالية لمدينة قديمة اشتهرت عند البيزنطيين باسم (Dyrrhachium)، و (Epidamne)، ووردت عند الادريسي باسم دراس، وذكرها من بين المدن التي تطل على بحر البنادقيين من جهة الشرق، وقال أن الطريق من دراس إلى القسطنطينية مساحلا. وهي أقوى حصن بيزنطي عند مدخل الأدرياتيك، وتعد مفتاح البلقان، وهي الآن ثاني أكبر مدينة في ألبانيا بعد العاصمة تيرانا التي تبعد عنها 33 كلم، وتقع في منتصف الشاطئ الألباني على بحر الأدرياتيك. حاول بوهيموند بعد عودته من أوربا، وقيامه بحملة ضد الإمبراطور ألكسيس الثاني، أن يغزو الامبراطورية البيزنطية انطلاقا من هذه المدينة التي ظل النورمان زمتا طويلا يطعمون في الاستيلاء عليها، ولكن ألكسيس استعد للمعركة، فانهزم بوهيموند، وتبخرت آماله على شواطئ بحر الأدرياتيك. (انظر : الادريسي : مصدر سابق، ص 790-798؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 83-84؛ التائب محمد علي : ألبانيا عبر القرن العشرين، منشورات جمعية الدعوة الاسلامية العالمية، بنغازي، 1991. ص 27؛ Comnène Anne : op. cit., t. III, p. 65).

⁴ Comnène Anne : Ibid., t. III, p. 134.

من أتباعه، وغير راضٍ عن تحررهم من بوتقة الامبراطورية.¹ فما الذي جعل ألكسيس كومنين يعتبر آل روبين من أتباعه، ويحرص على حقوقهم ؟ من دون شك، فإن الأمير ثوروس وأخاه ليون تعاونوا مع الجيش البيزنطي لطرد الصليبيين من قيليقيا بعد هزيمة حران سنة 497هـ/1104م، والذي يؤكد ذلك أن تانكرد حينما كان يستعد لمهاجمة قيليقيا واستعادة مدنها من البيزنطيين في منتصف سنة 501هـ/أواخر سنة 1108م وأوائل سنة 1109م، اشترط على برتراند² أن يساهم معه في "محاصرة وقتال وغزو مدينة المصيصة، لأنه فقدتها من خلال خيانة الأرمن والإمبراطور البيزنطي".³ ويستحيل أن يكون آل هيثوم في قيليقيا الغربية هم الذين خانوا تانكرد، فهؤلاء أتباع لبيزنطة ولا علاقة لهم بالصليبيين، ويبقى المقصود بها إذن آل روبين الذين ربما اتصلوا سرا بألكسيس كومنين، ليحفظ لهم حقوقهم بعد هزيمة بوهيموند. ولكن هل ساءت العلاقة بين ثوروس الأول والصليبيين إلى حد انعدام الثقة أو اندلاع الحرب بين الطرفين ؟

بعض المراجع الحديثة تتحفظ في حديثها عن طبيعة العلاقات بين ثوروس الأول والصليبيين.⁴ وللإجابة عن هذا السؤال لابد من العودة إلى بعض الأحداث، والنصوص القليلة التي وردت في المصادر. حيث ورد في بعضها أن ثوروس الأول (Antevelle) انضم مع أخيه ليون، سنة

¹ Chalandon Ferdinand : t. II, op. cit., p. 107.

² برتراند : هو الابن الأكبر لريموند كونت تولوز الذي كان أغنى من خرج في سنة 1096م، من الأمراء في الحملة الصليبية الأولى، وحافظ على علاقاته الجيدة بالامبراطور البيزنطي ألكسيس، وكان يعمل على تأسيس إمارة صليبية في طرابلس الشام، ولكنه توفي في سنة 1105م قبل تحقيق حلمه. أما برتراند فهو ابن ريموند من زوجته الأولى، ابنة مراكيز بروفانس، وقد تقرر إلغاء هذا الزواج فيما بعد لما بينهما من صلة قرابة وثيقة تمنعه، على أن هذا الإلغاء لم يمنع ريموند من اعتبار برتراند وريثا له في تولوز. وبعد وفاة ريموند التحق ابنه برتراند بالشرق في سنة 1108م لاستكمال إنشاء إمارته المقبلة بالاستيلاء على طرابلس. ولما التقى بتانكرد اشترط عليه هذا الأخير أن يساهم معه في محاصرة وقتال وغزو مدينة المصيصة، مقابل أن يمنحه إقطاعا في أنطاكية لأن والده ريموند كان على رأس الغزاة لما سقطت هذه المدينة، ورفض برتراند هذا الطلب، مما أدى إلى غضب تانكرد، ثم طلب منه أن يغادر مع جيشه أنطاكية على وجه السرعة. (انظر : ألبرت فون آخن : مصدر سابق، ص 462-471؛ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 277-305؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 93-115؛

Grousset : Histoire des Croisades, t. I, pp. 483-487; Cahen : La Syrie du Nord, pp. 244-246.)

³ ألبرت فون آخن : مصدر سابق، ص 464.

⁴ Chalandon Ferdinand : t. II, op. cit., p. 107.

505هـ/1111م. إلى تانكرد للدفاع عن أنطاكية التي تعرضت لتهديد التحالف الإسلامي.¹ وفي سنة 509هـ/1115م، ذهب دغا فاسيل إلى بني روبين طالبا المصاهرة وباحثا عن تحالف معهم ضد خصومه الصليبيين، فقام ثوروس الأول باعتقاله وسلمه إلى بلدوين دو بور أمير الرها.² ولما حشد روجر دو ساليرنو، قواته لانتزاع مدينة عَزَّاز³ من المسلمين في سنة 512هـ/1118م، انضم إليه ليون بن قسطنطين بن روبين، الذي كان شريكا في الحكم مع أخيه ثوروس الأول،⁴ وبعد ثلاثين يوما من الحصار ترك مهمة الهجوم للأرمن الذين حققوا انتصارا، "واكتسب ليون في ذلك اليوم سمعة بسبب شجاعته، وأصبح اسمه موضوع ثناء عند الفرنج، ومنذ هذا الوقت أحب روجر القوات الأرمينية".⁵ وتعززت العلاقات أكثر بين الصليبيين وآل روبين بعد أن اتخذ كونت الرها الجديد جوسلين دو كورتيناوي⁶ (Jocelin de Courtenay 513-526هـ/1119-1131م)) زوجة أرمينية، هي

¹ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 174؛ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 262؛

Albert d'Aix : op. cit., t. II, p. 172; Cahen Claude: La Syrie du nord, p. 263.

² متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 201.

³ عَزَّاز : بلدة صغيرة فيها قلعة تقع شمالي حلب، وكانت تعرف في صدر الاسلام بتل عزاز، ولا ذكر لها إلا بالعبور بها والاحتياز. وخلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، أصبحت مدينة عامرة، يقصدها التجار، والمسافرون، والحجاج، فاتسعت أرجاؤها، وكثرت منفعتها. استولى عليها الصليبيون في سنة 512هـ، وبقيت بأيديهم إلى أن فتحها نور الدين محمود ابن زنكي بن آق سُئُفُر سنة 545هـ، وتسلمها من يد جوسلين. (انظر : الحموي : مصدر سابق، ج 6، ص 324؛ ابن العديم : بغية الطلب، ج 1، ص 267-268).

⁴ العظيمي : مصدر سابق، ص 368؛

Mathieu d'Edesse : op. cit., p. 298; Vahram d'Edesse : op. cit., p. 500; Grousset : Histoire des Croisades, t. I, p. 549.

⁵ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 208.

⁶ جوسلين دو كورتيناوي : منحه بلدوين دو بور حكم الأراضي الرهاوية الواقعة غرب الفرات، مثل تل باشر، ودلوك، وعين تاب، ثم طرده منها، لأنه أخذ يتصرف في ذلك الوقت تجاه بلدوين دو بور تصرفات تدل على عدم اللياقة والإخلاص، مما أثار حقن بلدوين وشكوكه، بعد أن وجد أنه محبوب من الأرمن. وبعد أن أطلق سراحه، عزله بلدوين دو بور عن حكم تل باشر، فلجأ إلى ملك بيت المقدس بلدوين الأول في فلسطين، طامعا في عطفه. فأقطعته إمارة طبرية والجليل. وبعد وفاة الملك سنة 1118م، دافع جوسلين بشدة في مجلس المملكة على إسناد عرش مملكة بيت المقدس إلى بلدوين دو بور، باعتباره ابن عم الملك الراحل والوريث الشرعي، وهو الوحيد الذي بقي من كبار فرسان الحملة الصليبية الأولى. والحقيقة أن جوسلين كان يريد استغلال الفرصة لاسترضاء سيده وولي نعمته السابق، وإزالة ما وقر في صدره من رواسب الماضي. وبعد تعيين بلدوين دو بور ملكا على بيت المقدس باسم بلدوين الثاني، لم يكتف الملك الجديد بإعادة ابن عمته جوسلين دو كورتيناوي إلى تل باشر فقط، بل كافأه على موقفه ووفائه بتعيينه أميرا على مدينة الرها بأكملها في سنة 1119م، على أن يكون تابعا له في حكمها. (انظر : رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ج2، ص 230-231؛ طقوش : تاريخ الحروب الصليبية، مرجع سابق، ص 225، 239-240؛ الحارثي : مرجع سابق، ص 87؛ Grousset : op. cit., t. I, pp. 566-567)

أخت ثوروس الأول، وكانت تنتمي إلى الكنيسة الأرمنية المنفصلة، أي من أتباع الطبيعة الواحدة، ولذلك كانت شديدة العطف على مواطنيها من الأرمن، وجوسلين نفسه لم يُظهر مطلقاً إزاءهم من الشدة والصرامة، ما اشتهر به سلفه بلدوين دو بور.¹ ولما وقع جوسلين وبلدوين الثاني أسيرين في يد بلک² بين سنتي 516-517هـ/1122-1123م،³ بذل ثوروس الأول جهوداً دبلوماسية مضيئة لإطلاق سراحهما، مستفيداً من المفاوضات التي كانت تجري بين الكُرَج والسلاجقة لإطلاق سراح بعض الأسرى المسلمين.⁴ وتشبه هذه المساعي الدبلوماسية تلك التي قام بها كوخ فاسيل في وقت سابق لإطلاق سراح بوهيموند.

¹ رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 260.

² بلک: هو نور الدولة بلک بن بهرام بن أرتق صاحب حلب، ابن أخي نجم الدين إيلغازي (صاحب ماردين)، وكان في السابق حاكماً على سروج (488-494هـ)، ثم عاناه (497هـ)، ثم حلب وحران (سنتي 517 و 518هـ). و تسلم حلب من بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق الذي كان متحاذلاً في جهاد الصليبيين. وتزوج ابنة الملك رضوان بن تتش صاحب حلب سابقاً بقصد توطيد مكانته السياسية في قلوب الحلبين. وقد لعب بلک دوراً بارزاً في جهاد الصليبيين. توفي إثر إصابته بسهم طائش انطلق من حصن منبج، فانتزعه وبصق عليه وقال: "هذا قتل المسلمين كلهم"، وهو في ذلك على صواب، إذ أنه فاق سائر القادة الترك الذين التقى بهم الصليبيون، فيما أظهره من نشاط وافر وحكمة بالغة. ولم تبق قوة الأراتقة طويلاً بعده، وكانت وفاته يوم 20 ربيع الأول 518هـ/6 مايو 1124م. (انظر: ابن القلانسي: مصدر سابق، ص 209؛ سبط ابن الجوزي: مصدر سابق، ج 2، ص 773؛ ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 302، 304، 309، 311-315؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص 284-285، 289؛ رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 264؛

Cahen Claude: Artukids, vol. I. pp. 662-667).

³ سبط ابن الجوزي: مصدر سابق، ج 2، ص 773.

⁴ كان يحكم بلاد الكُرَج (جورجيا) آنذاك الملك داود الثالث بن جورج الثاني (482-518هـ/1089-1124م)، الملقب بالمجدد، وهو ينتسب إلى الأسرة البجراطية الأرمنية. ويعتبر داود هذا مؤسس الدولة الكرجية المسيحية التي حاولت في عهده الاستقلال عن الدولة البيزنطية، وانتزاع ما يمكن انتزاعه من الأراضي السلجوقية. وما فتئ يقوم بعدة غارات على سلطنات السلاجقة، وفي عهده تم انتزاع تفليس من أيدي المسلمين. وكان لسلاجقة الروم دور كبير في مواجهة مملكة جورجيا بفعل الحدود المشتركة بينهما. واشتدت الغارات الكرجية أكثر بعد انقسام السلاجقة واندلاع الحروب بينهم، وامتدت تلك الغارات إلى أرمينيا الكبرى حتى وصلوا إلى أذربيجان وتفليس وآني، وهددوا سلاجقة الشام ومن أشهر حملاتهم تلك التي قام بها الملك داود الثالث ابتداءً من سنة 515هـ/1121م، الذي استعاد الكاتدرائية الأرمنية في آني، وسقط في يده العديد من الأسرى المسلمين. ورغم أنه لم يكن عند الكرج من الدواعي ما يجعلهم يميلون إلى الفرنج، إلا أن غزواتهم التي تزامنت مع الحملة الصليبية الأولى، جعلت بعض المؤرخين يسمونها حملة الكرج الصليبية. (انظر: سبط ابن الجوزي: مصدر سابق، ج 2، ص 739-744؛ اللهيبي: مرجع سابق، ص 154-175؛ رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 253-255؛ Samuel d'Ani, op. cit., p. 451).

وعموماً فإن العلاقات بين ثوروس الأول والصليبيين في أنطاكية والرها، كانت قائمة على التحالف والتعاون، رغم توترها في بعض الأحيان خاصة في عهد بوهيموند. وقد دخلت تلك العلاقات منعرجاً جديداً بعد مجيء بوهيموند الثاني (520-524هـ/1126-1130م)، من إيطاليا ليتولى إمارة أنطاكية في أواخر سنة 520هـ/1126م،¹ ثم وفاة ثوروس الأول في سنة 524هـ/1129م، فتولى أخوه ليون عرش إمارة آل روبين.

3 - ليون الأول (524-532هـ/1129-1137م)

ورد اسمه في المصادر مقروناً باسم أخيه ثوروس الأول،² مما يدل على أنه كان شريكاً له في السلطة، وربما منحه أخوه الأمير استقلالاً ذاتياً في الجهة الشرقية من الإمارة، مع الاعتراف بالسيادة لثوروس الأول. وتثير بعض المصادر تساؤلات حول طريقة انتقال العرش إلى الأمير ليون الأول، حيث جاء فيها: "بعد وفاة ثوروس سُجن ابنه الأكبر ووريثه، ثم مات مسموماً في السجن، على يد زمرة من الأشرار، فانتقلت الإمارة إلى ليون"،³ والجدير بالذكر، أن لثوروس الأول ابناً آخر، توفي قبل سنة 524هـ/1129م.⁴ فمن المستفيد من سجن واغتيال الوريث الشرعي والوحيد للعرش؟ من دون شك هو الأمير ليون الأول، ورغم أن أصابع الاتهام لا تشير إليه مباشرة، ولا توجد مصادر أخرى ذكرت ذلك، فإن هذه الحملة التي أوردتها صموئيل دآني (ت سنة 581هـ/1185م)، توحي أن قسطنطين بن ثوروس الأول تعرض لمؤامرة أبعدته عن البلاط ووضعته في السجن ثم التحق بأبيه بعد بضعة شهور. ومن الطبيعي أن الإمارة آلت مباشرة إلى الذي يليهما في الحكم، وهو ليون الأول شقيق ثوروس. كل هذا يدل أن الأمير الجديد واجه صعوبات أو منافسة حول تولي عرش الإمارة.

¹ فيتالي أوردريك : مصدر سابق، ص 326.

² Samuel d'Ani, op. cit., p. 448; Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 187, 198.

³ استراتيجيان : مرجع سابق، ص 208؛ Samuel d'Ani, op. cit., p. 451; Vahram Rapoun : op. cit., p. 9.

⁴ Alishan : op. cit., p. 275; Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. I, p. 524.

أ - الحرب بين ليون الأول والصليبيين

وبمجرد أن تولى شؤون الإمارة، وجد نفسه في حرب سافرة ضد الصليبيين في أنطاكية، إذ طمع أميرها بوهيموند الثاني في توسيع مساحة إمارته، نحو الشمال. فسار في مطلع سنة 524هـ/1130م، على رأس جيش صغير للاستيلاء على مدينة عين زربي التي كانت في حوزة آل روبين، ومقر إقامة أمرائهم، ولكنه لم يكن وحده في قيليقيا، حيث دخل غازي بن دانشمند أمير سيواس وملطية،¹ من الجهة الشمالية دون أن يعلم أحدهما بوجود الآخر، وكلاهما يريد غزو إمارة بني روبين. فارتاع ليون الأول أمام هذا الهجوم المزدوج، ولم يسعه إلا أن يقاوم بوهيموند الثاني مقاومة ضعيفة، حيث قام بسد الدروب في شمال جبل اللكام (الأمانوس)، وترجّح بعض المراجع الحديثة أنه أرسل إلى ابن دانشمند من أخبره بوجود الصليبيين، الذين كان خطرهم أشد من خطر الدانشمنديين.² وبينما كان بوهيموند يتقدم دون اكتراث على امتداد نهر جيحان (Pyramus)، نحو عين زربي، انقض عليه جنود دانشمند، وقتلوه مع جميع رجاله، دون معرفة شخصيته.³ أما ليون الثاني فبعد أن كانت إمارته في عين الإعصار، فإنه استطاع أن يربح كل شيء دون أن يخسر شيئاً، حيث بقي بعيداً عن ميدان المعركة، ولم يتعرض لخصمه، ونجح في توجيههما ليضرب كل منهما

¹ ذهب بعض المراجع الحديثة إلى أن ليون الأول تحالف مع غازي بن دانشمند واستنجد به ضد بوهيموند الثاني. والحقيقة أن دخول غازي إلى قيليقيا كان انتقاماً وعقاباً لبني روبين؛ لأن الأمير السابق ثوروس الأول، استقبل في سنة 520هـ/1126م الأمير السلجوقي عرب الذي كان في حرب ضد أخيه مسعود المتحالف مع غازي بن دانشمند، وكانت هذه النزاعات فرصة للأمير ثوروس الأول الذي وضع جزءاً من قواته تحت تصرف الأمير عرب، ليغزو بها إمارة غازي بن دانشمند، الذي كان يهدد الحدود الشمالية لإمارة بني روبين بشكل مستمر. وقد جاءت الفرصة المواتية للإنتقام من آل روبين، خاصة بعد الإنتصار الذي حققه على قسطنطين جابراس البيزنطي (Constantin Gabras)، في منطقة البنطس (Pont)، الواقعة على الساحل الجنوبي للبحر الأسود، وانتهى بإبرام صلح مع البيزنطيين. ولم يدخل غازي إلى قيليقيا استجابة لطلب المساعدة الذي أرسله له ليون الأول الذي كان يريد التحالف معه ضد بوهيموند الثاني كما ورد عند بعض المؤرخين. (انظر : 330-333 من هذا الفصل؛ رنسيما

: تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 292؛ Cahen Claude : La Syrie du Nord, p. 349).

² Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. I, p. 547.

³ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 72-73؛ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 52؛ فيتالي أورديك : مصدر سابق، ص 327؛ ابن العبري : مصدر سابق، ص 143؛ عطية حسين محمد : مرجع سابق، ص 142؛

Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 227; Cahen Claude : op. cit., pp. 349-350.

الأخر. وخرج منها سالماً لأنه لم يتكبد فيها خسائر، وخرج منها غانماً لأن عين زربى بقيت في يده، وأبعد خطر الصليبيين عن حدود بلاده. ومن عجائب الصدف أن أحمد دانشمند، هزم جيش بوهيموند الأول في سنة 493هـ/1100م، وأبقاه عنده أسيراً ما يقارب ثلاث سنوات، وبعد ثلاثين سنة، هزم غازي بن أحمد دانشمند جيش بوهيموند الثاني ابن بوهيموند الأول.

كان موت بوهيموند الثاني وهو في ريعان شبابه، "خطباً فادحاً نزل بأهل أنطاكية"،¹ فلم يترك ذكراً يرث عرشه، ولم يُرزق من زواجه بأليس (Alice)،² إلا بابنة لم تتجاوز الثانية من عمرها. وبادرت أمها إلى أن تتولى بنفسها الوصاية على انطاكية، فأرسلت إلى الأتابك زنكي³ في حلب تخطره بأنها على استعداد لتدخل في تبعيته إذا تكفل بإبقاء انطاكية تحت حوزتها. ولما قدّم أبوها الملك بلدوين الثاني إلى أنطاكية، أغلقت الأميرة الأرملة أبواب المدينة في وجهه، ولم تُفتح له إلا بعد أن تدخل بعض النبلاء، ثم قام الملك بعزل أليس وأبعدها إلى اللاذقية، وتولى بنفسه الوصاية على أنطاكية.⁴ ولكن ابنته لم تتوقف عن حبك المؤامرات للعودة إلى أنطاكية والقبض على زمام الأمور

¹ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 73.

² أليس : هي ابنة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس، والأميرة الأرمينية مورفيا (Morfia)، البنت الصغرى لجبريل الأرميني صاحب ملطية. (انظر : Grousset René : Histoire des Croisades, t. I, p. 704).

³ زنكي : هو عماد الدين زنكي، ابن آق سنقر (الصقر الأبيض)، الذي ينتمي إلى قبيلة ساب يو التركمانية، كان أبوه قائداً لجيش السلطان السلجوقي ملكشاه، ثم أميراً على مدينة حلب قبل قدوم الصليبيين، ولقي حتفه سنة 1094م، على يد تتش أخ ملكشاه. كان عمر زنكي آنذاك عشرة أعوام، فوضعه السلطان في خدمة أتابكة الموصل، وتلقى تكوينه العسكري على يد أكبر قادة عصره، كربوغا، وجكرمش، ومودود، والبرسقي، ولما أتقن فنون القتال ولاه السلطان السلجوقي محمود، قيادة الجيش، فذاع صيته بعد أن هزم جيش الخليفة العباسي المسترشد، وأرغمه على الخضوع للسلطان السلجوقي. ونظراً لدمائه الخلق واللباقة التي يتميز بها عماد الدين زنكي، اقترحه الخليفة على السلطان محمود ليكون أتابكاً على الموصل خلفاً للبرسقي الذي توفي في سنة 521هـ/1127م. وسع زنكي ملكه من الموصل إلى نصيبين وسنجار وحران، وفتح حلب في سنة 1128، وحماة وحمص وبعبلبك في سنة 1129م. وبعد أن وطد سلطانه، وأتم استعداداته عزم على مقاتلة الصليبيين، وفي أول مواجهة له مع الصليبيين في سنة 524هـ/1130م، قال لأصحابه أثناء حصاره لحصن الأثارب : « هذا أول مصاف عملناه معهم فلندقهم من بأسنا ما يبقى رعبه في قلوبهم ففعلوا ». قاد حركة رد الفعل الإسلامي ضد الصليبيين، فانتزع الرها من جوسلين في سنة 1144م، مما حول دفة الحرب لمصلحة المسلمين. (انظر : ابن الأثير : التاريخ الباهر : مصدر سابق، ص 4-27، 74-84؛ الموسوعة العربية الميسرة، ج 4، 2285).

⁴ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 304-305.

فيها. وبعد سنة تقريبا توفي بلدوين الثاني بتاريخ 26 رمضان 525هـ/21 أوت 1131م، وخلفه فولك الخامس كونت أنجو (Foulques V d'Anjou)،¹ على رأس مملكة بيت المقدس، ولكنه كان وافدا جديدا، حديث العهد في عالم الشرق. وفي أواخر السنة توفي جوسلين دو كورتينايا أمير الرها، فخلفه ابنه جوسلين الثاني² (525-545هـ/1131-1150م)، الذي لم يكن يمتلك شيئا من حزم وشجاعة أبيه، و"كانت تعوزه المعرفة والفهم"³، وبذلك بدأ أمر الصليبيين في الانحلال.⁴

في هذه الأثناء ظفر المسلمون ببطل بالغ القوة والطموح، هو عماد الدين زنكي الذي بدأ نجمه يلمع في سماء المشرق،⁵ حيث استعاد حصن الأثارب⁶ من أيدي الصليبيين في سنة 524هـ/1130م، وهو من أمنع الحصون الصليبية القريبة من حلب، وبعد أن فتح الحصن، خربه

¹ فولك (1131-1144م) : ورد في المصادر العربية باسم كندياجور، هو فولك الخامس كونت أنجو، ابن فولك الرابع ريشين الذي زار بيت المقدس سنة 1120م، وأضحت له معرفة شخصية بالملك بلدوين، وكان يملك إقطاعا يعتبر من أغنى وأقوى الإقطاعيات بفرنسا. رزق الملك بلدوين الثاني بأربع بنات، ولم ينجب ذكرا يرث عرش مملكة بيت المقدس، ورغم أن إحدى بناته وهي أليس كانت متزوجة من بوهيموند الثاني أمير أنطاكية، فإن الملك لم يفكر إطلاقا في أن يجعل من صهره النورمندي وريثا له في مملكة بيت المقدس. وبعد أن استشار مجلسه في سنة 1128م، أرسل إلى لويس السادس ملك فرنسا، يطلب منه أن يختار رجلا شجاعا وقديرا من نبلاء فرنسا يصلح زوجا لابنته مليسند، فاقترح لويس على بلدوين الثاني، الأمير فولك الخامس الذي كان من أجدد المرشحين، فهو من أقدر أمراء المملكة الفرنسية عندئذ، وقد حظي هذا الاقتراح بتأييد البابا هونوريوس الثاني، فضلا عن مساندة ملك فرنسا له. وفي أوائل ربيع سنة 1129م، أبحر فولك من فرنسا، وتزوج بمليسند وسط مظاهر الفرح والسرور، وبحكم زواجه من وريثة ابنة بلدوين الثاني، أصبح هو ملك بيت المقدس المقبل. (انظر : فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 309-310؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 65-66؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 314؛ فيتالي أورديك : مصدر سابق، ص 326؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية : ج 2، ص 283-284).

² جوسلين الثاني : وصفه وليم الصوري قائلا : "كان جوسلين الصغير كونت الرها دون أبيه في صفاته، فقد كان شخصا يتسم بالتراخي، فهو مسلم قياده للملذات الوضيعة الفاسقة حائدا عن الطريق القويم، لا يعف عن سلوك السبل الدنيئة مع إضمماره الكراهية السوداء لأمر أنطاكية الذي كان سقوطه أكبر ما يشرح صدره ويثقل قلبه، لذلك لم يعبأ بالمثل القائل : «إن شبت النار في بيت جارك، فدارك هي الأخرى في خطر»". (انظر : وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 327).

³ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 53.

⁴ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 73؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية : ج 2، ص 292-297؛ عاشور سعيد عبد الفتاح : تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 429؛ طقوش : تاريخ الحروب الصليبية، ص 261-262؛

⁵ Pasdermadjian H. : op. cit., p. 207.

⁶ الأثارب : الأثارب : قلعة بين حلب وانطاكية (انظر : الحموي : مصدر سابق، ج 1، ص 80).

كي لا يطمع الصليبيون في استعادته.¹ ثم انتقل إلى حارم قرب أنطاكية، "وقد استدار المسلمون بتلك الأعمال وضعفت قوى الكافرين وعلموا أن البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب وصار قصاراهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع".² فوجد المسلمون في عماد الدين زنكي قيادة قوية ومخلصة توحد صفوفهم، وتقودهم إلى الجهاد لدفع الخطر الصليبي الجاثم على صدورهم. وبذلك بدأ ما يسميه المؤرخون عصر توازن القوى في الحروب الصليبية.

استغل ليون الأول أمير بني روبين هذه الأوضاع الصعبة التي بات الصليبيون يعيشونها؛ حيث تداعت سلطة أنطاكية في سهل قيليقيا. فنزل إليه، واستولى على المصيصة، وطرسوس، وأذنة في أواخر سنة 1130م، وبداية 1131م، وهي المدن التي كانت تابعة لإمارة أنطاكية،³ وبذلك يكون ليون أول من نجح من بين أمراء آل روبين، في توسيع حدود الإمارة جنوباً حتى بلغت البحر المتوسط. وبعد أن سيطر على قيليقيا تحسنت أحواله وبلغ أوج قوته، وزادت سلطته على الصليبيين، وكبدهم خسائر كثيرة.⁴ وتعود أهمية هذه المدن التي تعتبر أمهات الثغور،⁵ أنها تحتل مواقع استراتيجية، وكل من يتحكم فيها فهو يملك مفاتيح الطرق البرية بين آسيا الصغرى، وبلاد الشام، ويستطيع كذلك مراقبة الخطوط البحرية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، فهي إذن مصدر ثروة ضخمة، من جراء المكوس والرسوم التي تفرض على القوافل والبضائع المارة بها. ولذلك كانت هذه المدن الواقعة في ثغور الشام، محل شد وجذب بين البيزنطيين، والعرب، والأرمن، والسلاجقة، والصليبيين.

لم يواصل ليون الأول توسعاته على حساب إمارة أنطاكية الصليبية، لأنه تعرض لهجوم قام به غازي بن دانشمند في سنة 526هـ/1131م، فانكفأ للدفاع عن حدود إمارته، ثم وعد الأمير

¹ ابن الأثير : التاريخ الباهر : مصدر سابق، ص 93-42؛ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 55.

² ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 321.

³ Sempad : op. cit., p. 615; Vahram d'Edesse : op. cit., p. 500; Chalandon Ferdinand : t. II, op. cit., p. 107; Grousset René : Histoire des Croisades, t. II, p. 58; Cahen Claude : La Syrie du Nord, p. 354; Mutfian Claude : La Cilicie au carrefour, t. I, p. 387.

⁴ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 56.

⁵ ابن شداد : مصدر سابق، ج 1، ق 2، ص 148-149.

الدانشماندي بدفع الجزية سنويا، ولكنه لم يلتزم بوعده.¹ غادر ابن دانشمند قيليقيا، وانشغل بحروبه ضد الدولة البيزنطية، مما جعل الحدود الشمالية لإمارة بني روبين آمنة من أي غزو خارجي ولو مؤقتا. فهاجم ليون الأول حصن مشار² وانتزعه من الأتراك في سنة 528هـ/1133م،³ ثم التفت إلى حدوده الجنوبية التي تتاخم حدود إمارة أنطاكية.

ويبدو أن هذه الإمارة التي بقيت بدون أمير منذ وفاة بوهيموند الثاني، استهوت جوسلين الثاني أمير الرها، فطلب أن تمنح له الوصاية على مدينة أنطاكية مستغلا نجاحه في الدفاع عنها ضد هجوم قام به الأتراك الدانشمند سنة 529هـ/1134م، ولكن فولك ملك بيت المقدس، وأعيان المدينة رفضوا ذلك، فنقم منهم جوسلين الثاني. واستغل الأمير روبين الأول هذه الفرصة السانحة، واستعان بأمير الرها الذي هو في نفس الوقت ابن أخته، وانتزع من إمارة أنطاكية في سنة 530هـ/1135م، قلعة سرفنتيكار⁴ (Sarvantikar)،⁵ ليقطع على الصليبيين في أنطاكية الاتصال بمدينة مرعش في الشمال، ولم تلبث أن دخلت العلاقات بين إمارة آل روبين في قيليقيا من جهة، والصليبيين في أنطاكية من جهة أخرى في دور من العداء المتبادل،⁶ مما أدى إلى اشتعال شرارة الحرب بين الأرمن في قيليقيا والصليبيين في أنطاكية، الذين وجدوا أنفسهم منقسمين إلى فريقين. الفريق الأول يتكون من أمير آل روبين وجوسلين الثاني أمير الرها، الذي يعتبر من الناحية القانونية تابعا للملك فولك، ولكنه انحاز إلى عواطفه، فتحالف مع خاله الأمير ليون الأول. والفريق الثاني يتكون من ملك بيت المقدس،

¹ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 144؛ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 230.

² مشار (Mechar) : أو مِصْر (Mesra) : قرية تقع جنوب شرق ملطية، على الطريق المصيصة. (انظر :

Dulaurier : op. cit., p. 143, note n° 2.

³ Sempad : op. cit., p. 616; Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. I, p. 552.

⁴ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 233; Sempad : op. cit., p. 616.

⁵ سرفنتيكار : تقع في جبال الأمانوس، كان روجر الأنطاكي قد انتزعها من بني روبين في وقت سابق، (انظر : استراتيجان : مرجع سابق، ص 209).

⁶ المدور عثمان : مرجع سابق، ص 227.

وأمر أنطاكية الجديد ريموند بواتيه (Raymond Poitiers)،¹ الذي حل بأنطاكية في رجب 530/أبريل 1136م.²

أثار طموح ليون الأول ونشاطه على حدود إمارة أنطاكية مخاوف ريموند بواتيه، في الوقت الذي كان فيه هذا الأمير النورماني لا يقل عنه طمعا ورغبة في التوسع. فبدأ نشاطه السياسي والعسكري بإعلان الحرب على آل روبين، لأنه اعتبر إقليم قيليقيا المجال الحيوي لإمارة أنطاكية، وصمم على انتزاعه من إمارتهم.³ وبعد أن تحصل على موافقة الملك فولك، سار بجيش ضخم لمحاربتهم، ولكن جيش أنطاكية انهزم وعاد على أعقابها، بفضل المساعدة التي تلقاها الأرمن من جوسلين الثاني. ولما أدرك ريموند أنه غير قادر على تحقيق انتصار حاسم، لجأ إلى المكر والخديعة، حيث طلب من بلدوين صاحب مرعش، أن يرتب له لقاء مع ليون الأول للتفاوض وإبرام معاهدة صلح، ولكنه غدر به وأسرته، ثم سلمه لريموند بواتيه، الذي وضعه في السجن.⁴

وبدلاً من أن يسعى أبناؤه لإنقاذ أبيهم من السجن، والسهر على شؤون الإمارة، راحوا يتشاجرون فيما بينهم، ووثبا اثنان منهم على أخيهما الأكبر قسطنطين فسملا عينيه، وبذلك انهارت

¹ ريموند بواتيه (1136-1149) : هو الابن الأصغر لوليم التاسع دوق أكيثانيا، والذي يقيم بالجلترا في بلاط الملك هنري الأول الذي تزوجت ابنته أخيراً من جفري بن فولك. وكان سبب مجيء ريموند بواتيه إلى أنطاكية أن الأميرة الأرملة أليس استعملت في منفاها باللاذقية كل الوسائل لتعود إلى أنطاكية وتسيطر على شؤونها، وتنتزع حقوق ابنتها كونستانس. واستعانت بأختها الملكة ميلزанда لتحقيق ذلك، وكانت هذه الأخيرة زوجة الملك فولك الذي رضخ له، ووافق على عودة أليس إلى أنطاكية. وآخر خطة لجأت إليها أليس أنها بعثت نهاية صيف 1135م، رسولا إلى القسطنطينية يعرض خطبة ابنتها لمانويل، الابن الأصغر للإمبراطور يوحنا كومنين. وقد ارتاع نبلاء أنطاكية ورجال كنيسة لها قامت به أليس، لأنهم سيجدون أنفسهم تابعين للدولة البيزنطية وكنيسة الشرقية. فأرسلوا فوراً إلى الملك فولك طالبين منه اختيار زوج مناسب للأميرة كونستانس البالغة من العمر تسع سنوات، ليرعى شؤون الإمارة ويحفظها من الفوضى الداخلية والأخطار الخارجية، فوقع اختيار الملك على ريموند بواتيه. (انظر : ولیم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 102-104، 126-129؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 315-318؛ طقوش : تاريخ الحروب الصليبية، ص 280-281؛

Chalandon Ferdinand : t. II, op. cit., p. 121; Grousset : Histoire des Croisades, t. II, pp. 43-48).

² Sempad : op. cit., p. 616.

³ عطية حسين محمد : مرجع سابق، ص 146.

⁴ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 56؛ عاشور سعيد عبد الفتاح، بحوث ودراسات، ص 263؛

Chalandon Ferdinand : t. II, op. cit., p. 110; Cahen Claude : La Syrie du Nord, p. 358.

سلطة بني روبين، وتعرضت إمارتهم لعدة حملات عسكرية قام بها الأتراك الدانشمنديون، وغدت قيليقيا مرتعا وملاذا لقطاع الطرق، وقراصنة البحر.¹ ولم تكن هذه الكوارث خافية على الأمير ليون الأول الذي قضى شهرين في معتقله بأنطاكية، وإذ ارتاع لما يحدث في بلاده، عرض على ريموند التخلي عن مدن قيليقيا، وقلعة سرفنتيكار، وأن يدفع له ستين ألف قطعة ذهبية، ويترك أبناءه رهائن في أنطاكية، مقابل إطلاق سراحه.²

وبمجرد عودته إلى مقر إقامته بعين زربي، ضرب الاتفاقية التي أبرمها مع ريموند عرض الحائط، فنظم جيشه، واحتل مدن قيليقيا من جديد، واستعد للزحف على أنطاكية، فتجددت الحرب بين الطرفين. ولكنها كانت حربا قصيرة إذ سرعان ما قام جوسلين الثاني بدور الوساطة، وتدخل الملك فولك، لعقد هدنة بين المتحاربين، أدت إلى إحلال السلم وإعادة الرهائن إلى ليون الأول.³ ولم تتحدث المصادر عن مصير المدن التي أعاد ليون الأول احتلالها، هل احتفظ بها أم أجبر على التنازل عنها لأنطاكية؟ هل احتفظ ببعضها وتنازل عن البعض الآخر؟ ولماذا لم يتدخل الملك فولك لإطلاق سراح ليون الأول لما سجن غدرا وخيانة؟ وما مصلحته لما تدخل لتوقيف الحرب التي نشبت مجددا بين الطرفين؟ وما السر وراء هذه السرعة في الاستجابة للوساطة وتوقيف الحرب؟

لم ترد في المصادر معلومات كافية ودقيقة حول هذه الأحداث والسنوات والأشهر التي وقعت فيها، رغم أن بعض المراجع الحديثة تذكر أن ليون الأول أعاد إلى أنطاكية كل المدن التي احتلها، بل وتذهب بعضها إلى وضع إمارة أنطاكية تحت الحماية الأرمنية.⁴

والواقع أن أنباء ترامت من الشمال عجلت بإبرام عقد الصلح بين الصليبيين والأرمن، حيث تحدثت المصادر المعاصرة، عن حملة عسكرية ضخمة أعدها الإمبراطور يوحنا كومنين، كانت في

¹ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 249؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 320؛

Sempad : op. cit., p. 616,

² العظيمي : مصدر سابق، ص 388؛ 59. Ibid; Grousset : Histoire des Croisades, t. II, p.

³ استراتيجيان : مرجع سابق، ص 209؛ 110. Chalandon Ferdinand : t. II, op. cit., p.

⁴ نفسه؛ المدور عثمان : مرجع سابق، ص 228.

طريقها نحو قيليقيا وبلاد الشام.¹ والحقيقة أن الامبراطور يوحنا ما فتئ يقوم بعمليات عسكرية في أنحاء مختلفة من بلاده منذ وراثته العرش، فقد كان عسكريا ومحاربا قديرا، قضى معظم سنوات حكمه يقود الجيوش، ويؤثر الخروج للقتال على البقاء في القصر الامبراطوري، ولم يكن يريد أن يحافظ على أطراف الدولة فقط، بل كان يطمح أن يعيد الدولة إلى حدودها السابقة، كما كانت في عهد نقفور فوقاس.² وبعد أن استرد للإمبراطورية البيزنطية الشاطئ الجنوبي للبحر الأسود، وفقدت إمارة الدانشمنديين قوتها إثر وفاة الأمير غازي بن دانشمند في سنة 529هـ/1135م، والتزم السلاجقة في قونية بالهدوء والسكينة،³ التفت نحو الجبهة الجنوبية. فحشد من كافة أرجاء الامبراطورية صفوة جنوده وفرسانه، ورجالا من قوميات وألسنة متباينة،⁴ وبعد أن "وصلته مراكبه البحرية بالأثقال والميرة والمال"،⁵ "خرج ملك الروم من القسطنطينية، ومعه خلق عظيم لا يحصون كثرة من الروم والفرنج، وغيرهما من أنواع النصرارى، فقصد الشام، فخافه الناس خوفا عظيما".⁶ وأضحى يوحنا كومنين مستعدا للسير بجيشه جنوبا، لتحقيق الأهداف التي وضعها لهذه الحملة، وهي لا تخرج عن معاهدة ديفول التي أبرمت بين والده ألكسيس وبوهيموند في سنة 501هـ/1108م، ومنها :

-استرداد اقليم قيليقيا في الجنوب الشرقي لآسيا الصغرى من الأرمن.⁷

-إجبار الصليبيين في أنطاكية على الاعتراف بسيادة الامبراطور.⁸

-إخراج المسلمين من شمال الشام.⁹

¹ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 258؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 315؛ Sempad : op. cit., p. 616.

² رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 335؛

Bréhier : Vie et mort, p. 308; Mutfian Claude : La Cilicie, t. I, p. 388.

³ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 127؛ 90، t. II, p. Grousset René : Histoire des Croisades,

⁴ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 134؛ 113، t. II, op. cit., p. Chalandon Ferdinand :

⁵ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 315.

⁶ ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص 55.

⁷ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 134؛ 53، t. II, p. Vasiliev : op. cit.,

⁸ Ibid.

⁹ عاشور : الحركة الصليبية، ج 1، ص 456.

والواقع أن هذه الأراضي كانت في الأصل تابعة للدولة البيزنطية، والصراع القائم بين الأرمن والصلبيين حول سهل قيليقيا، هو صراع على إقليم لا يمتلكه أي طرف منهما، وكل ما يريد أن يقوم به يوحنا كومنين في حملته هذه، هو إعادة الهيبة للدولة البيزنطية في المناطق المتنازع عليها.¹ ومهما تعددت أهداف هذه الحملة، فإن الدولة البيزنطية لا يمكن لها أن تتنازل عن قيليقيا بتلك السهولة ليستقل بها الأرمن، ولا يمكن لأباطرتها أن يغفروا لهم وللصلبيين ما فعلوه في الربع الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي من اقتطاع أثمان الأباطورية في جنوب شرق آسيا الصغرى، وشمال الشام، فضلا عن الخلافات المذهبية والدينية، التي جعلتهم منفصلين عن الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية.

ويبدو أن هذه الحملة عجلت بوقف الحرب بين ريموند بواتيه أمير أنطاكية، وليون الأول أمير قيليقيا، اللذين تفاجأ عندما بلغهما نبأ اقتراب الجيش البيزنطي من قيليقيا، واستبدت بهما الدهشة. وبما أن الخطر المشترك بات يهددهما معا، فقد نسيا ما بينهما من خلافات عميقة وأحقاد قديمة.² وربما أراد الصليبيون في أنطاكية من هذه الخطوة، أن يجعلوا من إمارة الأرمن في قيليقيا حاجزا يعيق تقدم الجيش البيزنطي نحوهم، ومركزا حربيا متقدما، تجري فيه الحرب نيابة عنهم، فيستغرق الامبراطور بعض الوقت في محاربة ليون الأول، ويستهلك كثيرا من معداته، مما يكفل لهم الاستعداد وأخذ التدابير لمواجهة حينما يقترب من أسوار مدينتهم.

ب - قضاء الامبراطور يوحنا كومنين على إمارة أرمينيا الصغرى (1137م)

وعندما وصلت مقدمة الجيش البيزنطي إلى سهل قيليقيا، في رجب 531هـ/أفريل 1137م، اندهش الأرمن من القوات البيزنطية التي لم تظهر في هذه المناطق منذ عشرات السنين.³ وكان واضحا أن إمارة أرمينيا الصغرى الحديثة العهد، غير قادرة على الصمود، خاصة بعد أن رفض كثير من نبلاء

¹ Pasdermajian : op. cit., p. 204.

² Chalandon Ferdinand : t. II, op. cit., p. 112; Grousset René : Histoire des Croisades, t. II, p. 87; Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. I, p. 564.

³ السرجاني راغب : مرجع سابق، ص 457.

الأرمن الانتقياد لأميرهم. بل إن بعضهم شارك في الحملة إلى جانب الإمبراطور البيزنطي، حيث تحدث ابن القلانسي -وهو معاصر للأحداث- عن حملة يوحنا كومنين، وأورد نصاً ينفرد به بين جميع المصادر، يفيد أن أوشين الأرميني صاحب لمبرون، كان مع يوحنا كومنين يوم دخوله إلى قيليقيا، "وملك تل حمدون وحمل أهله إلى جزيرة قبرص وكان صاحبه ابن هيثم¹ الأرميني ثم عمّر مينا الاسكندرية ثم خرج إلى انطاكية ونزل عليها وضايق أهلها في سلخ ذي القعدة"².

ورغم عدم تكافؤ القوى، فقد حاول ليون الأول تنظيم المقاومة عند سماعه نبأ اقتراب الجيش البيزنطي من بلاده. فقد نهض لوقف تقدمه بالاستيلاء على سلوقية، ولكنه اضطر إلى الانسحاب والاحتماء بالعاصمة، تاركاً سهل قيليقيا مفتوحاً أمام الإمبراطور يوحنا كومنين الذي استولى من غير صعوبة على أمهات الثغور، طرسوس وأذنة والمصيصة. وحسب المعلومات التي أوردها وليم الصوري فإن هذه المدن كانت تابعة لإمارة أنطاكية وليس لإمارة أرمينيا الصغرى.³ وهو أمر غير مستبعد بحكم الوساطة التي قام بها جوسلين الثاني والملك فولك، بين ليون الأول وريمون بواتيه نجم عنها توقيف الحرب بينهما، وإبرام صلح، ربما نص على إعادة تلك المدن إلى أنطاكية، مقابل إعادة الرهائن (أبناء ليون) إلى إمارتهم. ومما يدعم هذا الرأي أن ليون الأول لم يقاوم الجيش البيزنطي عند استيلائه على هذه المدن، وإنما تراجع إلى عاصمته.

بعد سهل قيليقيا، عرّج يوحنا كومنين نحو مدينة عين زربي عاصمة إمارة أرمينيا الصغرى، ولما بلغ أسوارها اصطدم بمقاومة شديدة، ووجد صعوبة في اقتحامها. وبعد سبعة وثلاثين يوماً، خرت

¹ ابن هيثم : هو أوشين بن هيثوم، (Ochine fils de Hethoum)، يعرف في المصادر العربية باسم ابن هيثم أو حلقم، وأصل الاسم فارسي أو عربي، لأنه أول من عرف بهذا الاسم بين الأرمن. هاجر مع عائلته من أرمينيا الكبرى، واستقر بقيليقيا، في حصن لمبرون، الذي منحه له صهره أبلغريب (Apelgharip)، وهو أحد رجال الملك جاجيك الثاني، وكان من أتباع الإمبراطور ميخائيل السابع (1067-1078). وكان أوشين تابعاً وفيّاً وحارساً أميناً للإمبراطورية البيزنطية. (انظر : ص 170-172؛ Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. II, pp. 660-661).

² ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 258.

³ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 135.

استحكما ما تمها المنيعه أمام آلات الحصار، وأذعنت المدينة للإمبراطور الذي "ملكها عنوة"¹ في شهر جويلية من نفس السنة، ثم أزال قلاعاً وحصوناً أرمنية كثيرة كانت تجاورها. أما ليون الأول فقد رقص رقصة الديك المذبوح، حيث لجأ إلى حصونه القديمة مثل سيس وفاهكة الواقعتين في أعالي الجبال، لعله يجد فيها المأوى، ليتقي بها شر الأسر. ولم يرد يوحنا كومنين اقتفاء أثر خصمه، بل أمهله إلى حين عودته من أنطاكية، التي هي أهم وأولى عنده من مسألة قيليقيا، ولكنه ترك كتية ترأب وتتابع تحركات الأمير الأرمني.²

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا، لماذا لم يتقدم الصليبيون في الأقاليم المجاورة، مثل أنطاكية والرها، ومرعش، وطرابلس، وبيت المقدس، لتقديم المساعدة العسكرية للأمير ليون الأول ومساعدته في محنته أمام الامبراطورية البيزنطية ؟

الواقع أن الصليبيين جميعاً كانوا يعمرون بظروف بالغة الحرج والصعوبة، إذ تراجعت قوتهم كثيراً بعد انقراض الرواد الأوائل من الجيل القديم، ووجد الجيل الجديد نفسه يفتقر إلى الخبرة والزعامة، وعلى العكس منهم فإن المسلمين صادفوا وقتذاك في عماد الدين زنكي رجلاً قادراً على توحيد القوى الإسلامية، وذاعت شهرته على أنه بطل المسلمين في محاربة الصليبيين. وانتهاز فرصة اختلال أوضاع الصليبيين في أنطاكية، وشرع في مهاجمة مواقعهم، مستهدفاً أدناها وأشدها خطراً على كيانه السياسي في حلب.³ ومن بين المواقع التي هاجمها قلعة بعين (Barin)⁴، التي لجأ إليها فولك ملك بيت المقدس، بعد انهزامه أمام زنكي في شوال 531هـ/جوان 1137م، فحاصره عماد الدين زنكي داخل القلعة. وأرسل الملك استغاثة عاجلة إلى بطريك بيت المقدس، وإلى أمير الرها وأنطاكية يطلب منهم المبادرة إلى بذل المساعدة، فاستجابوا

¹ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 258.

² ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 358؛ المدور، مرجع سابق، 228؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 335؛ Grégoire le Prêtre : op. cit., p. 152; Mutfian Claude, La Cilicie, p. 389.

³ طقوش : تاريخ الحروب الصليبية، ص 276.

⁴ بعين : هي المعروفة عند الصليبيين باسم قلعة مونفيران (Montferrand)، تقع بين حلب وحماة، وحددها الصليبيون حوالي عام 1190م. (انظر : الحموي : مصدر سابق، ج 2، ص 357؛ وليم الصوري، ج 3، ص 154، هامش رقم 29).

لندائه.¹ وبذلك انصرف الصليبيون إلى نجدة ملكهم، خوفا من زوال المملكة، وأغفلوا ما دون ذلك من أخطار، وتركوا ليون الأول وحده يجابه الآلة البيزنطية التي كانت أكبر منه بكثير.

ولما وصل "أقوى ملوك العالم"² على حد تعبير وليم الصوري، إلى أنطاكية التي دانت له دون مقاومة تذكر، أقبل أميرها ريموند بواتيه فركع أمام الامبراطور، وبذل له التبعية،³ ولم تتطرق المفاوضات التي دارت بينهما إلى مسألة قيليقيا وليون الأول، مما يدل على أن إمارة أرمينيا الصغرى في نظر الامبراطور البيزنطي، أصبحت في خبر كان، وأن ريموند بواتيه تخلص من أخطر منافس له في الشمال.

وربما يتساءل المرء، ما سر هذا التفاهم السريع بين الصليبيين والبيزنطيين ؟ ألم يعارض نبلاء أنطاكية منذ سنتين زواج ابنة أليس بمانويل الابن الأصغر للإمبراطور يوحنا كومنين خوفا من إلحاق إمارتهم بالإمبراطورية البيزنطية، وها هم الآن يعلنون التبعية التامة لهذه الامبراطورية الكريهة ؟

والحقيقة إن ما حدث ليس مجرد تفاهم، بل تقارب في المفاهيم والرؤى، أملت الرسالة التي أرسلها الملك فولك إلى ريمون بواتيه أثناء المفاوضات مع الامبراطور البيزنطي، ونصحه فيها بالاعتراف بسلطة الإمبراطور على مدينة أنطاكية.⁴ إذ أصبحت قضية قيليقيا، وتبعية أنطاكية للإمبراطورية مسائل ثانوية، أمام بروز عماد الدين زنكي. فقد أدرك ملك بيت المقدس أن زنكي هو الخطر الأكبر على الوجود الصليبي في بلاد الشام، وأن الدولة البيزنطية هي القوة المسيحية الوحيدة القادرة على وقف تقدم المسلمين، وللاستفادة من هذه القوة وتوجيهها ضد زنكي، لا بد من كسب ود البيزنطيين والتعاون معهم في حملاتهم ضد المسلمين. وكان الامبراطور من جهته واقعا في تفكيره السياسي، فلم يطلب من الصليبيين في أنطاكية أكثر مما نصت عليه معاهدة ديفول، وأدرك بأن مصلحة المسيحيين

¹ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 145-136.

² المصدر السابق، ج 3، ص 146.

³ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 258؛ Bréhier : Vie et mort, p. 311.

⁴ انظر نص هذه الرسالة في : رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 341.

في الظرف الراهن تقتضي عدم طرد الصليبيين، لأن إماراتهم يمكن أن تكون درعا واقيا، يقي الامبراطورية من ضربات المسلمين.¹ أما مسألة الأرمن في قيليقيا فهو كفيل بها.

وفي خريف سنة 531هـ/1137م، قفل يوحنا كومنين عائدا من أنطاكية إلى قيليقيا، التي أمضى فيها الشتاء مع جيشه، "ورحل عائدا إلى الدروب فافتتح ما بقي في يد ابن ليون الأرمني من الحصون وشتا بها".² وتفرغ لاستئصال إمارة آل روبين. فحاصر قلعة فاهكة التي لجأ إليها الأمير ليون الأول. وبعد أسابيع من المقاومة، استولى الجيش البيزنطي على القلعة وسقط الأمير أسيرا مع اثنين من أبنائه هما روبين وثوروس. ولجأ ثلاثة من أبنائه هم مليح (Mléh)، وستيفن (Stéphane)، وقسطنطين (Constantin) الضرير إلى ابن عمتهم جوسلين دو كورتيناى أمير الرها.³ وعند هذه الأحداث توقف متى الرهاوي عن الكتابة، وجاء في آخر فقرة من حوليته "وفي الحقيقة إن الامبراطور كان قد اقترب من انطاكية مدمرا بلاد المسلمين، بعد أن انتزع من أميرنا ليون حكمه، واستولى على مدنه، وقلاعها، وبعد أن تأكد من شخصه، قام بإرساله إلى بلاد اليونان في الجهة الأخرى من البحر على تخوم آسيا".⁴

وفي منتصف سنة 532هـ/بداية 1138م، كان يوحنا كومنين قد أنهى حملته على إقليم الثغور، وصادف فيها نجاحا تاما، حيث أعاد إلى حظيرة الإمبراطورية البيزنطية إقليم قيليقيا الذي فقدته منذ زمن طويل. أما إمارة أرمينيا الصغرى فقد أثبتت الأحداث أنها لم تنضج بعد، وهي أوهرن من بيت العنكبوت مهما تشبّه أمراؤها بالصقور الذين اتخذوا من أعالي الجبال بيوتا. وبنقل أميرها وأبنائه أسرى إلى القسطنطينية، فإن ما شيده أبناء روبين منذ نصف قرن، قد أصبح في مهب الريح.

¹ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 341؛ طقوش : تاريخ الحروب الصليبية، ص 287.

² ابن القلانسي : مرجع سابق، ص 258.

³ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 343؛ المدور عثمان : مرجع سابق، ص 228؛

Vahram d'Edesse : op. cit., p. 501; Mutaftian : L'Arménie du Levant, t. I, p. 75; Grousset : Histoire des Croisades, t. II, pp. 91-92.

Mathieu d'Edesse : op. cit., p. 322.

ولا يمكن الجزم في طريقة إلقاء القبض عليهم، إما أنهم لجأوا إلى شعاب الجبال، بعد سقوط القلعة، وهناك وقعوا بين أيدي فرقة بيزنطية أحاطت بهم، بعد أن أضناهم الجوع والعطش.¹ وإما أن الجيش البيزنطي قبض على زوجة الأمير وابنيها، وأخذهم رهائن عنده، فلم يجد ليون الأول بدا من الاستسلام للإمبراطور.² ولم تذكر المصادر الأرمنية وغيرها أن ليون الأول تفاوض مع الامبراطور البيزنطي، إلا ابن العديم الذي أشار إلى ذلك أثناء حديثه عن حملة يوحنا كومنين فقال : "فعاد إلى بلاد لاون فافتتحها جميعها، فدخل إليه لاون متطارحا³، فقال : «أنت بين الفرنج والأتراك لا يصلح لك المقام». فسيره إلى القسطنطينية، وأقام في عين زربي وأذنة والثغور، مدة الشتاء".⁴ ويفهم من هذا الحوار القصير، أن ليون الأول تحدث مع الامبراطور البيزنطي، وربما اقترح عليه أن يتركه على رأس الإمارة، مع الاعتراف بسيادة بيزنطة، وبالتبعية للإمبراطور، ولكن هذا الأخير أجابه بالرفض، بحجة أن الإمارة تقع في زاوية ضعيفة على الطريق بين الصليبيين في الشام، والأتراك في آسيا الصغرى، فهي معرضة لخطرهما معا. ويفهم من كلمة سيّره إلى القسطنطينية، أنه أرغمه على الذهاب إلى القسطنطينية ولم يترك له حرية اختيار أحد الأقاليم للإقامة فيه، ولم يشر إطلاقا إلى أسره، وهو ما ورد في كل المصادر الأرمنية والسريانية. أما ابن الأثير الذي كتب بعد حوالي قرن من الأحداث، فهو ينفرد برواية أخرى، فبعد أن تحدث عن الاتفاق الذي تم بين الامبراطور يوحنا كومنين وريموند بواتيه صاحب أنطاكية، قال : "ورحل عنها إلى بغراس ودخل منها إلى بلد ابن ليون الأرمني فبذل له ابن ليون أموالا كثيرة ودخل في طاعته والله أعلم".⁵ وهي رواية شاذة، فكيف يدخل في طاعته ثم وجد نفسه في السجن ؟

¹ Vahram d'Edesse : op. cit., p. 501; Chalandon Ferdinand : t. II, op. cit., p. 117.

² Grégoire le Prêtre : op. cit., p. 152-153; Sempad : op. cit., p. 617.

³ متطارحا : أي عارضا عليه المشكلة، أو مناقشا له فيها. من طرح طرحا عليه مسألة، أي عرضها. طارح الكلام أو الشعر أو الغناء أي ناظره وجاوبه فيه، تطارح القوم الكلام أو الغناء أي طارح فيه بعضهم بعضا. الأطروحة : المسألة تطرحها. (انظر : ابن منظور : مرجع سابق، مج 2، ص 528-529).

⁴ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 315.

⁵ ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 358.

ومهما كانت الطريقة، فإن الامبراطور، أمر بإرسالهم فوراً إلى القسطنطينية، وإيداعهم السجن هناك. ويبدو أنهم حظوا بعطف يوحنا كومنين فيما بعد، ورقاً لحالهم فسمح لهم بالعيش معه في قصره، فأكرمهم وأنعم عليهم. ثم وضعهم من جديد تحت رقابة مشددة، توفي خلالها ليون الأول في سنة 537هـ/1142م. وأثار ابنه روبين شكوك الامبراطور البيزنطي، فأمر بسجنه، وسُملت عيناه، ثم مات تحت التعذيب. أما ابنه ثوروس فقد حظي بتشريف الامبراطور له، وأذن له بالإقامة في قصره، ثم استغل فرصة وفاته سنة 1143م، وفر من القسطنطينية وعاد إلى قيليقيا، ليعمل على بعث الإمارة من جديد.¹ وحتى يحين ذلك الوقت، يحق للباحث أن يتساءل عن انعكاسات اختفاء هذه الإمارة على أوضاع السلاجقة والصليبيين في آسيا الصغرى؟

ظلت أرمينيا الصغرى ثمانية أعوام بدون أمير يحكمها، وخلال هذه المدة كانت خاضعة لسيادة البيزنطيين الذين اعتبروا الأرمن منشقين عن الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية، فأحرقوا كنائسهم، وأديرتهم، وتعرض رجال الدين للاضطهاد والمتابعة،² مما يدل على الانخيار التام لإمارة أرمينيا الصغرى. والواقع أن زوال دولة الأرمن من قيليقيا أدى إلى زيادة الضغط الصليبي البيزنطي على المسلمين في الشام، وفي آسيا الصغرى. لأن اختفاء هذه الإمارة الصغيرة، جعل الحدود مفتوحة بين البيزنطيين والصليبيين النورمان في أنطاكية.³ وترتب عن ذلك أن تخلص الصليبيون في أنطاكية من منافس عنيد، هو ليون الأول الذي كان يشكل خطراً على حدودهم الشمالية، وكانت أطماعه لا تقل خطراً عن أطماعهم.

ولكن الصليبيين كانوا يعمرون بأزمة حادة، ناتجة عن اضطرابات الحكم المتكررة في أنطاكية، وناتجة أيضاً عن الضربات الموجعة التي تلقوها من عماد الدين زنكي أمير الموصل الذي رفع لواء

¹ انطون خانجي : مرجع سابق، ص 219؛ استراتيجيان : مرجع سابق، ص 210؛

Vahram Rapoun : op. cit., pp. 9-10; Cahen Claude : La Syrie du Nord, p. 360.

² استراتيجيان : مرجع سابق، ص 210.

³ عاشور : الحركة الصليبية، ج 1، ص 463؛ Grousset René : Histoire des Croisades, t. II, p. 95.

الجهاد ضدهم،¹ وما زاد من حدة الأزمة أنهم كانوا يفتقرون إلى زعامة حقيقية تقودهم في حروبهم ضد المسلمين بعد انقراض الرواد الأوائل من الصليبيين، كما أنهم كانوا لا يملكون القوة العسكرية التي تحفظ لهم كيانهم أمام وحدة المسلمين. ولذلك جاء انهيار، أو بالأحرى اختفاء إمارة أرمينيا الصغرى في الوقت المناسب. وبعد أن أصبح ظهرهم محمياً، فإنهم يستطيعون التفرغ في المستقبل لمواجهة الإمارات الإسلامية في الجنوب، ويمكن لهم الاستعانة بالإمبراطورية البيزنطية بعد أن زال الحاجز الذي كان قائماً بينها وبين إمارة أنطاكية، وانهارت الحدود التي كانت تعرقل وصول الجيش البيزنطي إلى الشام. وكان الملك فولك، والأمير ريمود بواتيه وغيرهما من الأمراء الصليبيين يدركون جيداً هذا الواقع. ولذلك بمجرد أن وصل يوحنا كومنين إلى حدود أنطاكية، أذعنوا له جميعاً بدون قيد ولا شرط.

ونتيجة لهذا التقارب الصليبي البيزنطي "انضاف الفرنج إلى ملك الروم"²، وظهر مشروع حملة صليبية كبرى في ربيع 1138م، يشترك فيها البيزنطيون والصليبيون ضد المسلمين في الشام. وقد وضعت تلك الحملة من بين أهدافها تحطيم قوة عماد الدين زنكي. ولكي يخفي الإمبراطور يوحنا كومنين أهداف حملته، أرسل إلى زنكي يخبره بأنه ذاهب "ليحاصر بلاد لاون"³، وهو ينوي خداعه ليطمئن. وفي منتصف 532هـ/بداية 1138م، أرسل الإمبراطور إلى جوسلين أمير الرها، وإلى ريمون أمير أنطاكية يخطرهما بالاستعداد للقتال،⁴ والحرص على ألا تتسرب أخبار الاستعدادات إلى عماد الدين زنكي عن طريق التجار والمسافرين المسلمين، وعندما وصل إلى أنطاكية انضمت إليه القوات الصليبية، فارتاع المسلمون لهذه الأنباء، وخافه الناس خوفاً عظيماً،⁵ "ونقض الفرنج الهدنة التي كانت بينهم وبين زنكي على حلب، وأظهروا العناد، وقبضوا على التجار بأنطاكية والسفار من أهل حلب، في جمادى الأولى من السنة، بعد إحسانه إليهم واصطناعه لمقدميهم، حين أظفره الله بهم، وانضافوا

¹ السرجاني راغب : مرجع سابق، ص 457.

² العظمي : مصدر سابق، ص 393.

³ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 315.

⁴ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 159.

⁵ ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص 55.

إلى ملك الروم كالياني¹. ثم هاجمت هذه القوات البيزنطية الصليبية، مدينة حلب ومن بعدها بُزاعة² والأثارب، وشِيزر³ وانتهى الهجوم بفشل التحالف الصليبي، ورفع يوحنا كومنين الحصار عن شيزر ورجع إلى أنطاكية⁴.

أما بالنسبة للأتراك فقد استغلوا سقوط الأسرة الحاكمة في أرمينيا الصغرى، وغياب الامبراطور البيزنطي، وانشغاله بمسألة أنطاكية، فقاموا بمهاجمة بلاد الأرمن. حيث تخلى السلطان السلجوقي مسعود الأول صاحب قونية، (510-550هـ/1116-1155م)، عن معاهدة التفاهم المبرمة بينه وبين يوحنا كومنين، وتحالف مع محمد بن غازي دانشمند فهاجم كيسوم ثم دخل إلى قيليقيا وفتح مدينة أذنة "وأجلى أهاليها جميعا مع أسقفهم واستاقهم إلى ملطية"⁵. وفي سنة 534هـ/1139م، زحف الأمير محمد صاحب ملطية إلى قيليقيا وفتح بعض حصونها⁶. ولكن يوحنا كومنين تصدى لهما بعد أن عاد من بلاد الشام⁷.

وبما أن يوحنا كومنين أحس بنشوة النصر بعد أن أخضع ليون الأول وأرسله أسيرا إلى القسطنطينية، وأزال الحاجز الذي كان بين الامبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية، وبات الطريق أمامه مفتوحا إلى الشام، فقد شجعه ذلك على القيام بحملة ثانية في ربيع 537هـ/1142م، على انطاكية

¹ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 316.

² بزاعة : بلدة بين حلب ومنبج، لها حصن مانع، وعليه خندق. وكان البيزنطيون قد استولوا على هذا الحصن في سنة 531هـ، وأخذوه بالسيف، وعادوا إليه في السنة الموالية وفتحوه بالأمان، ثم غدروا بأهل الحصن، ونادى مناديتهم : من تنصر فهو آمن/ ومن أبى فهو مقتول أو مأسور، فتنصر من أهله أكثر من خمسمائة انسان، منهم القاضي والشهود، ولما ضاق الخناق بالمسلمين، فتحه عماد الدين زنكي وانتزعه من الصليبيين، في سنة 563هـ، وخربه حتى لا يطمعوا فيه ثانية. (انظر : ابن شداد : مصدر سابق، ج 1، ق 2، ص 122-123).

³ شيزر : مدينة صغيرة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة يوم، استولى عليها الفرنج لما دخلوا إلى الشام في الحملة الصليبية الأولى، أسس فيها آل منقذ إمارة صغيرة. (انظر : ابن العديم : بغية الطلب، ج 1، ص 145).

⁴ انظر تفاصيل هذه الأحداث في : ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 258-266؛ ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص 55-57؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 159-171؛ عمران : السياسة الشرقية، ص 91-94.

⁵ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 153.

⁶ المصدر السابق، ص 154.

⁷ طقوش : تاريخ السلاجقة، ص 127-128.

وأرمينيا الصغرى، وجعلهما إقطاعا لابنه المفضل مانويل.¹ ومن دواعي تحريك هذه الحملة أن دعوة وصلته من ريموند بواتيه، يلتبس منه المساعدة ضد المسلمين، حيث "تلقى كثيرا من الكتب من أمير أنطاكية ومن أهلها تحمل إليه التماسا بالجيء إليهم، فاستجاب لهم وخرج إلى أنطاكية في العدد الكبير، ومعه الخيل والعربات والأموال التي لا يحصيها العد".² وتعود أسباب هذه الدعوة إلى الانتصار الباهر الذي حققته قوات عماد الدين زنكي على قوات أنطاكية على ضفاف نهر العاصي.³ واجتاز الجيش البيزنطي قيليقيا وسلسلة جبال الأمانوس العليا التي كانت تحت سلطة آل روبين سابقا، ولما بلغ تل باشر، هرع إليه أمير الرها جوسلين الثاني وقدم له فروض الولاء، ثم يَمَّ وجهه صوب أنطاكية.⁴ ولكن هذه الحملة انتهت بدون أن يحقق الامبراطور يوحنا كومنين أهدافه، وشعر بخيبة أمل كبيرة من موقف ريموند بواتيه الذي رفض تسليمه مدينة أنطاكية، ومن موقف الملك فولك الذي اعتذر له بلباقة عن عدم قدرته على استقباله لزيارة الأراضي المقدسة. فعاد إلى قيليقيا ليقتضي فيها فصل الشتاء، وهو غير راضٍ عن الصليبيين، ولذلك عزم على العودة في الربيع التالي لتأديبهم.⁵ ولكن الموت اختطفه قبل أن يحقق عزمه.⁶

¹ Diehl Charles : Histoire de l'Empire byzantin, Auguste Picard, éditeur, Paris, 1924. p. 157.

² وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 199.

³ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 276؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 323؛ Chalandon : t. II, op. cit., p. 184.

⁴ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 200؛ طقوش : تاريخ الحروب الصليبية، ص 291.

⁵ المصدر السابق، ج 3، ص 202-204؛ عمران : السياسة الشرقية، ص 82-83.

⁶ توفي يوحنا كومنين في 21 رمضان 537هـ/ 8 أبريل 1143م، في قيليقيا وهو يستعد لمنازلة الصليبيين في أنطاكية وانتزاعها منهم بعد الخلاف الذي وقع بينهم خلال حملته الثانية. وحينما أتم استعداداته التمس فرصة قصيرة للتوجه إلى الصيد في جبال طوروس، وبينما هو يطارد فريسته، أصابه سهم جرحه في يده، فلم يعره اهتماما، غير أن الجرح التهب، وتورمت ذراعه، ولم يلبث الامبراطور أن دامه الموت بسبب هذا الجرح. وكان معه أبناؤه الأربعة، الأكبر وولي عهده، ألكسيس، خرمريضا ومات خلال الحملة، فتولى ولده الثاني والثالث أندرونيكوس، وإسحاق، مرافقة الجثة عند نقلها بحرا إلى القسطنطينية، غير أن أندرونيكوس مات أيضا في الطريق على ظهر السفينة، وواصل مانويل الحملة مع والده. وكان إسحاق في العاصمة لما توفي والده، وكاد أن يستولي على العرش. وظل الامبراطور خلال مرضه، رابط الجأش، يعمل على ترتيب وراثته الملك، وقرر أن يكون ورثته مانويل أصغر أبنائه سنا وألمعهم. (انظر : الرهاوي المجهول: مصدر سابق، ص 61؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 358-359؛ طقوش : تاريخ صلاحقة الروم، ص 128؛

Chalandon : t. II, op. cit., pp. 192-193).

ولا يمكن متابعة تفاصيل ما جرى بين المسلمين والصليبيين، في الشام، حتى لا يخرج البحث عن إطاره التاريخي، ولكن هذه الأحداث تدل دلالة قاطعة أن أرمينيا الصغرى كانت دولة حاضرة بين البيزنطيين والصليبيين. وبمجرد ما اختفت اجتمع الصليبيون والبيزنطيون على محاربة المسلمين. وما لبث أن تغير هذا الواقع، حيث عاد ثوروس الثاني ابن ليون الأول من القسطنطينية، وأخرج الإمارة من رمادها.

4 - ثوروس الثاني بن ليون الأول (539-563هـ/1145-1168)

كان ثوروس أسيرا في القسطنطينية مع أبيه وأخيه، ولكن الامبراطور يوحنا كومنين عفا عنه، فأطلق سراحه، ومنحه بعض الوظائف في القصر الامبراطوري، ثم أصبح ضابطا في الجيش البيزنطي.¹ ولكنه استطاع أن يفر بجلده، وعاد إلى قيليقيا وعمل على إعادة بعث الدولة الأرمينية من رُمسها. وتختلف المصادر كثيرا في سرد الطرق التي فر بها ثوروس من القسطنطينية.² حيث تذكر بعض الروايات أنه كان مع الامبراطور يوحنا في حملته الثانية على قيليقيا، وانتهر فرصة موته في سنة 537هـ/1143م، وهرب عن طريق البحر إلى مدينة أنطاكية، ومنها اتخذ طريقه إلى قيليقيا.³ وتذهب رواية أخرى، إلى أنه كان في القسطنطينية، ولما بلغه خبر وفاة الامبراطور، استغل فرصة انشغال آل كومنين بمسألة وراثة العرش الامبراطوري، واحتفالات التتويج، وفر من القسطنطينية عائدا إلى قيليقيا متنكرا في زي تاجر.⁴

وإذا كان اختلاف المصادر يجعل من الصعب تحديد تاريخ وطريقة عودته إلى أرمينيا الصغرى بشكل دقيق، فالمؤكد أن ذلك جاء في أعقاب وفاة الامبراطور يوحنا كومنين. ويذكر ميخائيل السرياني في حوليته وهو معاصر للأحداث، أن ثوروس عاد إلى قيليقيا سيرا على الأقدام، ولم يكن

¹ Vahram d'Edesse : op. cit., p. 503.

² انظر هذه الروايات والتفاصيل المتعلقة بطريقة الهروب في : Samuel d'Ani, op. cit., pp. 452-453; Sempad : op. cit., p. 618; Vahram d'Edesse : op. cit., pp. 503-504; Vahram Rapoun : op. cit., p. 11; Grégoire le Prêtre : op. cit., p. 167; Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 281.

³ Vahram Rapoun : loc. cit.

⁴ حانجي أنطون : مرجع سابق، ص 225؛ استراتيجيان : مرجع سابق، ص 211؛ Héthoum : op. cit., p. 474.

يملك شيئاً، فلجأ إلى أحد الكهنة السريان، كان يثق فيه ويعرفه منذ أيام حكم أبيه. وبعد أن أفضى له بحقيقة شخصه، اتصل الكاهن ببعض أعيان الأرمن ونبلائهم، فالتحقوا بثوروس وأخذوا يجتمعون سرا. ولما بلغ عددهم حوالي اثنا عشر فارساً، خرج بهم إلى قلعة عامودا (Amouda)، وبعد أن عرفه الحراس الأرمن أنه ابن الأمير ليون الأول، سلموها له دون تردد.¹ ومنها أخذ يستعيد شيئاً فشيئاً إمارة أبيه، حيث بدأ بقلعة فاهكة² التي كانت معقل عائلته، وفيها اعتلى عرش والده باسم ثوروس الثاني.³

أ - إحياء الإمارة

ولما ذاع خبر مجيئه إلى قيليقيا، وفهم الجميع قصده، مال إليه أكثر الأرمن، والتف حوله الأمراء والأعيان ورجال الدين الناقمين على السلطة البيزنطية. وبعد أن جمع حوالي عشرة آلاف مقاتل شرع في مهاجمة القلاع والمدن، وانتزاعها من الحاميات البيزنطية التي تتولى حراستها، واحتل في مدة وجيزة أماكن شتى.⁴ ويبدو أن هذه العمليات لم تستغرق منه وقتاً طويلاً، بدليل أن المصادر لم تشر إلى أي عمل عسكري قام به الامبراطور مانويل كومنين (539-576هـ/1143-1180م)، ضد توسعات ثوروس الثاني، حتى سنة 547هـ/1152م. فلماذا هذا الموقف السلبي من الامبراطور؟ هل كان عاجزاً عن اتخاذ إجراءات تأديبية أو عقابية ضد الأمير الأرميني المتمرد؟ أم شغلته شؤون الامبراطورية وحروبها المتعددة؟

الحقيقة أن أربعة أحداث هامة تزامن وقوعها مع حرب الاسترداد التي قام بها ثوروس الثاني، صرفت الامبراطور عن قيليقيا فترة من الزمن، ومكنت الأمير الأرميني من بسط نفوذه، وفرض سيادته على الإقليم.

¹ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 281.

² انظر موقع هذه القلعة في الملحق الثالث عشر، ص 486؛ والملحق الخامس عشر، ص 489.

³ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 25؛ Sempad : op. cit., p. 618.

⁴ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 163؛ قمعون عاشوري : مرجع سابق، ص 304؛ خانجي انطون : مرجع سابق، ص 224.

الأول : انشغال مانويل كومنين بتأديب ريموند بواتيه أمير أنطاكية الذي استغل فرصة وفاة الامبراطور يوحنا كومنين وطالب الامبراطور الجديد بإعادة قيليقيا إلى إمارته، ثم قام بمهاجمة بعض القلاع البيزنطية في هذا الإقليم. واعتبر مانويل هذا العمل تهديدا خطيرا لحدود الامبراطورية ومركزه، فأرسل قوة برية وأخرى بحرية، قامت بطرد قوات ريموند من قيليقيا ومطاردتها حتى أسوار أنطاكية.¹ ولم يلجأ الامبراطور البيزنطي إلى التحالف مع الأمير ثوروس الذي فر من القسطنطينية واستعماله ضد ريموند، لأن ذلك يعتبر اعترافا سياسيا بشرعيته وبقيام إمارة أرمينيا الصغرى من جديد، وسيمنحه الحق في ضم المدن والقلاع التي ينتزعها من ريموند إلى إمارته، وسيزيد المشكلة تعقيدا في المستقبل. وبما أن مانويل اكتفى بتأديب ريموند دو بواتيه ولم يُلْقَ بالا بعودة ثوروس الثاني، فإن هذا الأخير وجد الوقت الكافي للتخطيط والاستعداد لإحياء إمارة أرمينيا الصغرى.

الثاني : استعادة مدينة الرها من الصليبيين، إذ كان عماد الدين زنكي، يخطط لفتحها وإعادة تأسيسها لحظيرة المسلمين طوال مدة حكمه، فهو "لم يزل لها طالبا وفي تملكها راغبا ولا ينتهاز الفرصة فيها مترقبا لا يبرح ذكرها جائلا في خلده وسره وأمرها ماثلا في خاطره وقلبه"،² ولتحقيق هدفه كان يراقب تحركات الصليبيين والبيزنطيين في الشام، والنزاعات التي كانت تحدث بين قادتهم من حين لآخر. وبعد أن بلغه أن العلاقة قد ساءت إلى حد كبير بين ريموند أمير أنطاكية، وجوسلين الثاني أمير الرها،³ أدرك بأنها الفرصة التي طالما انتظرها لتحقيق حلمه الذي راوده عبر سنوات كفاحه الطويل ضد الصليبيين. فتظاهر بأنه "مشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج انه غير متفرغ لقصد بلادهم".⁴ وانخدع جوسلين "عاتيهم وشيطانهم"،⁵ فغادر الرها إلى تل باشر التي كانت تروق له ليجد فيها "شتى ضروب اللهو والمتعة".⁶ فنادى عماد الدين في "العسكر بالتجهيز والتشمير، والجد في

¹ رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 377-378؛ عمران: السياسة الشرقية، ص 110.

² ابن القلانسي: مصدر سابق، ص 279.

³ وليم الصوري: مصدر سابق، ج 3، ص 236.

⁴ ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 8.

⁵ ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 66.

⁶ وليم الصوري: مصدر سابق، ج 3، ص 235.

المسير،¹ وبعد أربعة أسابيع من الحصار سقطت في يده بتاريخ 26 جمادى الثاني 539هـ/23 ديسمبر 1144م.² وكانت الرها أول إمارة صليبية يؤسسها الأجانب الدخلاء في بلاد الشام، وهي أول إمارة يستردها المسلمون، ولذلك "كان هذا فتح الفتوح حقاً".³

في هذه الأثناء كان ثوروس الثاني قد شرع في إعادة تأسيس إمارة أرمينيا الصغرى في قيليقيا. واتخذ الامبراطور مانويل كومنين موقفاً سلبياً منه، ولم يقيم بأي رد فعل إيجابي ضده بعد هروبه من القسطنطينية، لأنه كان منشغلاً بحروبه ضد سلاجقة الروم. وقيام الإمارة في هذه الظروف بالذات، سيجعل منها دولة حاجزة بين الامبراطورية البيزنطية، وبين القوى الإسلامية في الشام التي استعادت قوتها بعد فتح الرها، وراحت تعمل على إعادة بسط نفوذها في كامل المنطقة. خاصة بعد ضعف الصليبيين، وانحيار معنوياتهم، "وتفرقوا في أعمالهم ومعاقلهم مفلولين مخذولين".⁴ هذا بالنسبة للبيزنطيين، أما بالنسبة للمسلمين فإن قيام هذه الإمارة المعادية للإمبراطورية البيزنطية سيكون بمثابة خط دفاع أمامي عن الممتلكات الإسلامية في الشام.⁵

الثالث : انشغال مانويل كومنين بالحرب ضد السلاجقة، إذ بمجرد أن تولى عرش الامبراطورية، سار في نفس الطريق الذي سلكه والده، وهو مواصلة الحرب ضد الأتراك والعمل على تقليص نفوذهم في آسيا الصغرى.⁶ وحتى يتفرغ لسلاجقة الروم دون غيرهم من الأتراك، تحالف في سنة 537هـ/1143م، مع الأمراء الدانشمنديين، الذين كانوا عرضة لهجمات السلطان مسعود الأول. وعندئذ التفت مانويل إلى السلاجقة، ولكي يضع حداً لهجماتهم، بنى على الحدود سلسلة من الأبراج وثيقة الارتباط فيما بينها، كما شيد بعض الحصون والقلاع على الطرق التي يسلكونها خلال

¹ ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص 68.

² ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 279.

³ ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص 67.

⁴ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 280.

⁵ عمران : السياسة الشرقية، ص 126.

⁶ Diehl Charles : Histoire de l'Empire, p. 149-150.

هجماتهم.¹ ثم قام بحملتين على السلطان مسعود، الأولى في سنة 539هـ/1145م، ولم تتعد هذه الحملة طرد الأتراك السلاجقة من منطقة ملاجينة (Mélanguia)، الواقعة على الطريق الممتد من نيقية إلى دوريليوم. وبعد سنة قام بحملته الثانية التي بلغ فيها قونية عاصمة سلطان سلاجقة الروم مسعود الأول، وحاصرها مدة أربعة أشهر. وخلال ذلك انتشرت أخبار تفيد بتحريك حملة صليبية جديدة إلى الشرق، فاثارت مخاوف كلا من العاهلين، مما عجل بتوقيف الحرب وإبرام هدنة في سنة 542هـ/1147م.² ومما لا شك فيه أن هذه الحروب التي خاضها مانويل كومنين في الأناضول جعلته لا يهتم بما يقوم به ثوروس الثاني على حدود بلاده في قيليقيا، لأن سلاجقة الروم أعظم خطراً من الأرمن، ولذلك ركز جهوده في الحرب ضدهم، ولم يُلْقَ بالا لِمَا يحدث في قيليقيا، فوجد ثوروس نفسه وحيداً في الميدان، مما ساعده على إعادة تأسيس الإمارة في زمن قياسي ودون صعوبات كبيرة.

الرابع : الحملة الصليبية الثانية، إذ كان نجاح عماد الدين زنكي في تحرير مدينة الرها من الاحتلال الصليبي، وإعادتها لحظيرة المسلمين السبب المباشر في قيام الحملة الصليبية الثانية. وبما أنها "من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً"،³ فقد أحدث سقوطها، صدعاً عميقاً، وصدمة مؤلمة للصليبيين في الشرق. وتعكس قصيدة الشاعر الأرمني سانت نرسيس (Saint Nersès) التي كتبها عن سقوط الرها، مدى الألم والأسى الذي يعتصر قلوب النصارى المحليين على فقدانهم لهذه المدينة.⁴ أما بالنسبة للمسيحيين في غربي أوروبا، فقد أثارت أنباء سقوط الرها الرعب بينهم، وكانت إيذاناً لهم بترنح البناء الصليبي الكبير الذي أقامه الصليبيون الأوائل بالشرق. ولذلك أسرع زعماء الغرب الأوروبي إلى ترميم ذلك الصدع، خشية أن يمتد إلى بقية الإمارات الصليبية الأخرى.⁵ ولا يمكن التعرض لأحداث الحملة الصليبية بكل تفاصيلها، حتى لا يكون هناك استطراد وخروج عن موضوع البحث.

¹ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 129.

² المرجع السابق، ص 131-135؛ Bréhier : Vie et mort, pp. 315-316. Chalandon : t. II, op. cit., pp. 242-257.

³ ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص 66.

⁴ Saint Nersès Schnorhali (le gracieux) : Élégie sur la prise d'Edesse, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} éd., Paris, 1969. pp. 226-268.

⁵ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 493؛ Grousset : Histoire des Croisades, t. II, p. 222.

وجه البابا يوجين الثالث (Eugène III) (1145-1153م)،¹ خطابا إلى الملك الفرنسي لويس السابع (Louis VII)،² في سنة 540هـ/1145م، يحثه فيه على النهوض لنجدة الصليبيين في الشرق، وتناول في رسالته سقوط مدينة الرها، وما ترتب عن ذلك من نتائج تندر بأخبار وشيك للإمارات الصليبية كلها في الشرق. واستجاب الملك لويس السابع في لهفة وشغف لنداء البابا، وفي بلاطه تبلورت ونمت فكرة الحملة الصليبية الثانية، ثم استجاب كونراد الثالث (Conrad III) (1093-1152م)،³ ملك ألمانيا للدعوة. وهكذا تكونت الحملة الصليبية الثانية من جيشين كبيرين ينتميان إلى أكبر دولتين في الغرب الأوروبي، ويقودهما اثنان من أقوى الملوك في غرب أوروبا.⁴ وانتظرت الامبراطورية البيزنطية وجميع دول الشرق في خوف أو في أمل قدوم الحملة الصليبية المعروفة بالثانية.⁵

وصلت الطلائع الأولى للقوات الألمانية إلى القسطنطينية في طريقها إلى الشام، في ربيع الثاني 542هـ/سبتمبر 1147م، وبعد شهر وصل الجيش الفرنسي يقوده الملك لويس السابع، وبعد أن زودهم مانويل كومنين بالمؤن وبالمرشدين، سلكت هذه الجيوش طريقها عبر الأناضول بخلاف ما

¹ يوجين الثالث : كان راهبا في دير كليرفو، وكان اسمه برناردو باجانيللي دي مونتيمايو، مات في تيفولي عام 1153. (انظر : الربيعي عبد الله عبد الرحمن : مرجع سابق، ص 468، هامش رقم 3).

² لويس السابع "الشاب" : ولد عام 1120م، ابن لويس السادس، تصادم مع البابا انوسنت الثاني، نجح في توطيد حكمه بمساعدة رجال الدين، وساند البابا ألكسندر الثالث ضد فردريك بربروسا. وبزواجه من الينور الأكيتينية، تمكن من ضم إقليم أكيتين جنوب غرب فرنسا عام 1152م. ومات في باريس عام 1180م. (انظر : الربيعي عبد الله عبد الرحمن : مرجع سابق، ص 469، هامش رقم 1).

³ كونراد الثالث : ملك ألمانيا وأحد قادة الحملة الصليبية الثانية، هو ابن فردريك الأول دوق سوابيا، وأغنس ابنة هنري الرابع، امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة، ومن المحتمل أن يكون قد زار البقاع المسيحية المقدسة في فلسطين عام 1124/1125م، أي قبل الحملة الصليبية الثانية، ومن المؤكد أنه تعهد بالنزول إلى بيت المقدس، ولم يكن حاضرا في انتخاب ملك جديد لألمانيا عام 1125، حينما كان أخوه الدوق فردريك الثاني السوابي (ت 1147م) أحد المرشحين. كونراد نفسه أظهر اهتماما بالتاج منذ ديسمبر 1127، ومن المحتمل أن يكون بعد عودته من بقليل من الشرق. ثم تم انتخابه ملكا في مارس 1138، بعد وفاة الامبراطور لوثر الثالث. (انظر :

Loud -G. A. : **Conrad III of Germany (1093-1152)**, in : Crus. Enc., ABC-Clio, California, 2006. p. 270).

⁴ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 297؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 268؛ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 80؛

Odon de Deuil : Histoire de la Croisade de Louis VII, J.-L.-J. libraire, Paris, 1825. pp. 283-284.

⁵ عمران : السياسة الشرقية، ص 125.

نصحهم به مانويل كومنين. فسقطت غنيمة باردة في يد السلاجقة، الذين كانوا يدركون بأن هذه القوات الصليبية ذاهبة لقتال إخوانهم في الشام، وانتزاع مدينة الرها من المسلمين. وإذا تركوها تتجه إلى الشام سليمة وكاملة فإنهم يطعنون إخوانهم المسلمين من الخلف.¹

وفشلت الحملة فشلا ذريعا في تحقيق أهدافها لأسباب كثيرة، وعاد الألمان والفرنسيون إلى بلدانهم "خائبين هائبين، خاسئين خاسرين"،² وظل مانويل على اتصال دائم بالقوات الصليبية، منذ نزولها في القسطنطينية إلى غاية عودتها خائبة، وقد صرفته هذه الحملة عن قيليقيا، ولم يهتم بأمر ثوروس الثاني الذي ثار على الامبراطورية البيزنطية في المنطقة، مما ساعده على إعادة تأسيس إمارته في وقت قصير.

والجدير بالذكر، أن المصادر لم تشر إلى اتصال الأرمن بقيادة الحملة الصليبية الثانية، أو تقديم المؤونة والغذاء لهم كما حدث خلال الحملة الصليبية الأولى. ولما عبر الصليبيون مدينة طرسوس في سهل قيليقيا، تعرضوا لهجوم عنيف من السلاجقة،³ ولم تتحدث المصادر عن نجدة أرسلها ثوروس الثاني لمساعدتهم رغم أنهم مروا غير بعيد عن حدود إمارته. فما السر ياترى في هذا الموقف السلبي والبارد من الحملة الصليبية الثانية ؟ ربما يعود ذلك إلى سببين رئيسيين :

الأول : أن الأرمن بعد أربعين سنة من الاحتكاك بالصليبيين، تعرفوا عليهم عن قرب، وأدركوا أن هدفهم هو الاحتلال وتكوين إمارات صليبية مسيحية فرنجية. كما اتعظ الأرمن من التجربة القاسية التي مروا بها في الرها وفي بقية الإمارات الأرمنية الأخرى، التي تعرضت لحرب شعواء من الصليبيين.

¹ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 80؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 269-270؛ عمران : السياسة الشرقية،

ص 148؛ Odon de Deuil : op. cit., p. 362.

² الأصفهاني : مصدر سابق، ص 205.

³ عمران : السياسة الشرقية، ص 160؛

Odon de Deuil : op. cit., pp. 379-380; Grousset René : Histoire des Croisades, t. II, p. 238.

الثاني : أن الأرمن في قيليقيا أو في الفرات، كانوا يمرون بظروف حرجة، ففي قيليقيا دمر الامبراطور يوحنا كومنين إمارتهم، وبشق الأنفس عملوا على إعادة تأسيسها من جديد. وفي إقليم الفرات، تلاشت إماراتهم، وفقدوا السلطة، كما فقد الصليبيون والمسلمون معا الثقة فيهم، وأصبح الجميع يحذرهم، بفعل الخيانات التي اشتهروا بها. ومن ذلك أنهم بعد سقوط الرها في يد زنكي، دبروا مؤامرة لإعادة المدينة إلى الصليبيين من جديد. والبعض منهم فضل الدخول تحت الحكم الاسلامي.¹ ولذلك حينما قدم رجال الحملة الصليبية الثانية لم يكن الأرمن يملكون شيئا، ولذلك لم يكن في وسعهم تقديم أي شيء.

والخلاصة، أن الأحداث السابقة صرفت الامبراطور مانويل كومنين عن محاربة ثوروس الثاني واسترجاع قيليقيا، رغم إدراكه الأكيد للحقيقة. بدليل أن المصادر لم تشر إلى أي عمل عسكري قام به ضد ثوروس، قبل سنة 547هـ/1152م. وكان الأمير الأرمني يعرف من أين تؤكل الكتف، فاستغل هذه الفرصة وشرع في مهاجمة الحاميات البيزنطية المربطة في قيليقيا. فاستولى على المدن الواحدة تلو الأخرى، وأخيرا كل سهل قيليقيا، وتفاقم نفوذه بعد ان انضم إليه أخواه مليح (Mléh)، وستيفن (Stéphane)، اللذان كانا لاجئين في الرها.² ولا يمكن تحديد تواريخ احتلاله لهذه المدن بشكل دقيق، بسبب تضارب المعلومات الواردة في المصادر، وعدم دقتها، واختلاطها بالأساطير، وتركيزها في كثير من الأحيان على الطابع الأدبي أكثر من الطابع التاريخي، وتجعل من ثوروس الثاني بطلا ورمزا للمقاومة ضد البيزنطيين والسلاجقة والصليبيين جميعا.

وبعد فشل الحملة الصليبية الثانية، ازداد موقف الصليبيين سوءاً، وفقدوا هيبتهم، ومكانتهم في الشام. وكتب وليم الصوري عبارات تحمل زفرة وأسى حيث قال : "وبدأ وضع اللاتين يتدهور في الشرق بصورة واضحة للعيان منذ ذلك الحين، ورأى خصومنا ما آلت إليه جهود أعظم ملوكنا وقوادنا من الفشل، وذهاب محاولاتهم أدراج الرياح، فأخذوا يسخرون من تدهور بأس الذين يمثلون الركن

¹ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 315؛ عمران : السياسة الشرقية، ص 188.

² Mutaftian : La Cilicie, t. I, p. 393; Dédéyan : Les Arménien entre Grecs, t. I, pp. 620-621.

الركين للمسيحيين، وبهزأون من مجدهم المنهار، ويزدرون من كانت أسماؤهم وحدها تبث الفزع في نفوسهم، ثم زاد إقدامهم وغرورهم زيادة بلغت الذروة فلم يعودوا يقيمون وزنا للعساكر المسيحيين، ولا يتأخرون عن مهاجمتهم مهاجمة شرسة لم تعهد فيهم من قبل".¹ وما زاد من ضعفهم مصرع ريموند دو بواتيه أمير أنطاكية في إحدى المعارك في سنة 544هـ/1149م،² "وكان عاتيا من عتاة الفرنج وعظيما من عظمائهم".³ وفي السنة الموالية سقط جوسلين الثاني أسيرا في أيدي المسلمين،⁴ "وكان جوسلين لعنه الله فارس الفرنج غير مدافع قد جمع الشجاعة والرأي (...). وكان أسره من أعظم الفتوح لأنه كان شيطانا عاتيا شديدا على المسلمين قاسي القلب وأصيبت النصرانية كافة بأسره".⁵ وفي الوقت الذي كان الصليبيون يفقدون نفوذهم، كان المسلمون يزدادون نفوذا، فأخذوا ينتزعون منهم الحصون والقلاع المحيطة بالرها وأنطاكية، وكثير منها سلمها أهلها من الأرمن والسريان للمسلمين بدون حرب.⁶ وقد انزعج الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين من هذه الأعمال، واعتبر نفسه مسؤولا أمام الرأي العام المسيحي على حماية هذه المدن والقلاع، فأرسل قوة صغيرة لمنع نور الدين محمود زنكي⁷ ونوابه من استلام المدن والقلاع، ودارت المعركة في دلو، وقد نجح المسلمون في إنزال هزيمة ساحقة بالقوات البيزنطية.

¹ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 321-322.

² المصدر السابق، ج 3، ص 321، 323؛ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 82.

³ ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 25.

⁴ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 310؛ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 165؛ الأصفهاني : مصدر سابق، ص 206.

⁵ ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 29.

⁶ ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص 102-103؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 336.

⁷ نور الدين محمود زنكي (541-569هـ/1146-1174م) : هو أبو القاسم نور الدين محمود بن الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آقسنقر التركي، ويعرف بالشهيد، ولد في حلب في شوال سنة 511هـ/1118م، ونشأ على الخير والصلاح، ثم آلت إليه بعد استشهاد والده في سنة 541هـ/1146م، خلال حصاره لقلعة جعبر، وكان ابنه نورالدين في خدمته. فاستقل بحلب، ومنها انتقلت الدولة النورية إلى كل من دمشق سنة 549هـ/1154م، ثم إلى مصر سنة 576هـ/1171م، وامتدت سلطته إلى كل من بلاد الشام، والجزيرة، والموصل، وديار بكر والمغرب، واليمن، وخطب له بالحرمين. وكان مشهورا بالصلاح والعدل، مداوما على الجهاد مباشرة له بنفسه، موفقا في حروبه ضد الصليبيين معتنيا بإصلاح شؤون رعيته وبلاده. وحينما سيطر على حلب، كما قام بحملة تصفية واسعة ضد الشيعة، وألزمهم بتغيير صيغة الأذان في مساجدهم إلى الصيغة المعتمدة لدى أهل =

اغتنم الأمير ثوروس الثاني الهزائم التي لحقت بالبيزنطيين على يد نور الدين زنكي وقواته، وشن هجوماً على الحاميات البيزنطية الموجودة في قيليقيا، فاستولى على طرسوس، والمصيصة في سنة 546هـ/1151م، وسقط في أسره توماس الحاكم البيزنطي للمنطقة.¹ وأحس مانويل كومنين، بتزايد نفوذ ثوروس، والخطر الذي يمكن أن يشكله على الحدود الجنوبية للإمبراطورية. فقرر في سنة 1152م، إرسال ابن عمه أندرونيك (Andronic Comnène) للقضاء على ثورة ثوروس والحد من حماس الأرمن للاستقلال، ووضع تحت قيادته جيشاً بلغ تعداداه اثنا عشر ألف مقاتل، ضم في صفوفه بعض زعماء الأرمن، من أتباع الامبراطورية البيزنطية.²

وفشل القائد البيزنطي في تحقيق النصر، حيث تعرضت قواته لهزيمة قاسية على يد القوات الأرمنية، أما أندرونيك فقد لاذ بالفرار إلى القسطنطينية. وترتب عن المعركة سقوط عدد كبير من الزعماء الأرمن أسرى في أيدي قوات ثوروس، فأطلق سراحهم جميعاً بعدما ارتبطوا معه بمعااهدات صداقة وتحالف ضد البيزنطيين، ماعداً الأمير أوشين الذي كان يسيطر وقتذاك على الجهات الغربية من قيليقيا كنائب عن الامبراطور البيزنطي، متخذاً من لمبرون قاعدة لحكمه.³ حيث طلب منه ثوروس الثاني دفع فدية ضخمة نظراً لما يتمتع به من ثروة ونفوذ. ولقد تمكن أوشين من دفع نصف الفدية وترك ابنه هيثوم رهينة عند الأمير ثوروس حتى يدفع بقية الفدية. ثم ما لبثت أن تحسنت العلاقات بين الأميرين وتوجت بزواج هيثوم من ابنة ثوروس وعقد تحالف بينهما. وهكذا نجح ثوروس في الحصول على المال واكتساب صداقة الزعماء الأرمن والتحالف معهم ضد البيزنطيين، كما تمكن من

= السنة، ونفى عدداً من أعيان الشيعة الحلبين. وكانت وفاته في دمشق في شوال سنة 569هـ/1174م. (ابن خلكان : مصدر سابق، ج 5، ص 184-189؛ الشنقيطي محمد بن المختار : مرجع سابق، ص 166-167؛ **Nur Al Elisseefe N.** : **Din Mahmud b. Zanki**, in : Enc. Isl., E.J. Brill, Leiden, 1995. vol. VIII, pp. 127-133).

¹ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 310; Sempad : op. cit., p. 619.

² استراتيجيان : مرجع سابق، ص 211؛ شينيه جان-كلود : مرجع سابق، ص 105؛

Grégoire le Prêtre : op. cit., pp. 167-168.

³ بوعمامة : مرجع سابق، ص 26.

بسط نفوذه على إقليم قيليقيا بأكمله، وسطع نجمه كقائد ثورة، وأضحى سيد أرمينيا الصغرى بدون منازع.¹

ب - الحرب بالوكالة

في الوقت الذي كانت فيه إمارة أرمينيا الصغرى تتشكل من جديد وسط محيط يناصبها العداء، ويزداد فيها الأمير ثوروس الثاني قوة ونفوذا، كانت القوى السياسية المجاورة له في المنطقة تزداد قلقا من الانتصارات والتوسعات التي حققتها هذه الإمارة المتنامية، التي يمكن أن تشكل خطرا على حدودها في المستقبل. والدول التي كانت بالأمس تريد أن تجعل من أرمينيا الصغرى دولة حاجزة بينها وبين الامبراطورية البيزنطية، أمست -بعد انتصار ثوروس على البيزنطيين- تبحث عن فرصة تسمح لها بالتدخل عسكريا ضدها للقضاء عليها أو التقليل من دورها في المنطقة.

تفطن الامبراطور مانويل إلى هذا الواقع السياسي، ولجأ إلى سياسة مأكرة في منطقة آسيا الصغرى وهي سياسة ضرب العدو بالعدو، أو ما يسمى حاليا "الحرب بالوكالة" أو "الحرب بالنيابة". وهي تعتمد على احتواء إحدى قوى المنطقة أو التحالف معها ليضرب بها قوة أخرى في نفس المنطقة، تكون سياستها معادية للسياسة البيزنطية، وبذلك تشغل القوتان ببعضهما عن الصراع مع الامبراطورية البيزنطية، وسيخرجان من هذا الصراع ضعيفتين ومنهكتين، مما يعطي الفرصة للإمبراطورية لزيادة نفوذها والتخلص من خصومها.²

قام ثوروس الثاني في سنة 548هـ/1153م، باجتياح كبادوكيا ومهاجمة ملطية التي كانت نظريا تحت سلطة السلطان مسعود حاكم قونية، متشجعا في ذلك بالانتصارات التي أحرزها على القوات البيزنطية، وعاد إلى بلاده محملا بالأسرى والغنائم.³ استغل مانويل هذه الحادثة وأرسل إلى السلطان

¹ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 168؛ عمران : السياسة الشرقية، ص 190-194؛

Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 310; Vahram d'Edesse : op. cit., pp. 506-507; Tournabize F. : op. cit., p. 121; Cahen Claude : La Syrie du Nord, pp. 389-390.

² عمران : السياسة الشرقية، ص 194.

³ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 168؛ Michel Le Syrien : loc. cit.

مسعود الذي كان اسمه يلقي الرعب في نفوس الأرمن،¹ وعرض عليه مهاجمة ثوروس مقابل حصوله على أموال وهدايا، وهي الفرصة التي كان ينتظرها بشغف، فجمع قواته وتقدم بها نحو قيليقيا. وعندما سمع ثوروس نبأ تحرك السلاجقة تجاه بلاده، أمر قواته بنصب الكمان في الممرات والدروب الجبلية الواقعة على الحدود بين سلطنة السلاجقة وإمارة أرمينيا الصغرى.² ولما رأى مسعود استعداد الأرمن للدفاع عن إمارتهم، أدرك أن الدخول في حرب ضدهم ضرب من ضروب الانتحار، فأرسل مندوبين إلى الأمير ثوروس ليلغوه بأنه لم يحضر لتخريب بلاده، وإنما للمطالبة بإعادة المدن والقلاع التي في حوزته إلى الامبراطورية البيزنطية، مع اعترافه بسيادة السلطان مسعود عليه. فوافق على الشرط الأخير، ولكنه رفض إعادة المناطق التي استولى عليها إلى الامبراطورية البيزنطية، وانتهت المفاوضات بعقد معاهدة صلح، وانسحاب السلاجقة دون أي اشتباك.³

لم يستسلم مانويل كومنين، ولم يتخل عن خطته السياسية الهادفة إلى ضرب الأرمن بالسلاجقة، فاتصل بالسلطان مسعود مرة ثانية في سنة 549هـ/1154م، وضاعف له الهدايا والأموال، وحرّضه على الانتقام من الأمير ثوروس الثاني بصفة خاصة ومن الأرمن بصفة عامة، وطلب منه تدمير القلاع، وحرّق الكنائس الأرمنية، وألا يغادر إمارة أرمينيا الصغرى إلا بعد أن تصبح رمادا.⁴ "فزحف مسعود سلطان قونية في جيش تركي جرار إلى قيليقيا"،⁵ واعتمد على المباغتة، حيث اتخذ طريقه هذه المرة عبر جبال الأمانوس، ورغم ذلك فشل في اقتحام أسوار مدينتي عين زربي والمصيصة، فاتجه إلى حصن تل حمدون لمحاصرته، ولكن الوباء تفشى بين قواته، فاضطر إلى مغادرة الثغور دون أن يحقق هدفه.⁶ وتعرض السلاجقة أثناء انسحابهم إلى كارثة، فمن نجا منهم من الوباء

¹ Grégoire le Prêtre : op. cit., p. 169.

² ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 168؛

³ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 156-157؛

Grégoire le Prêtre : op. cit., p. 170; Sempad : op. cit., p. 620; Vahram Rapoun : op. cit., p. 13.

⁴ Grégoire le Prêtre : op. cit., p. 171.

⁵ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 169.

⁶ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 311; Grégoire le Prêtre : op. cit., p. 173-174; Sempad : op. cit., p. 621.

حصدته سيوف الأرمن، حيث وضع ثوروس بعض قواته في طريق عودتهم، وطاردوهم في ممرات الجبال دون رحمة أو شفقة، ثم تسلل الجنود الأرمن إلى كبادوكيا وقاموا بأعمال السلب والنهب.¹

لكن لماذا اعتمد مانويل على سياسة التحالف مع السلاجقة، وأحجم عن تنظيم حملة يقودها بنفسه ضد ثوروس الثاني؟ ولماذا تحالف مع قوة إسلامية ضد قوة مسيحية؟ ألم يكن يخشى رد فعل الصليبيين؟ وإثارة الرأي العام المسيحي ضده؟ خاصة وأن رئيس الكنيسة الأرمنية آنذاك وهو الجاثليق جريجوار الثالث (Grégoire III) (1113-1166م)، أرسل في سنة 539هـ/1145م، أي قبيل الحملة الصليبية الثانية، سفارة إلى البابا يوجين الثالث، يطلب منه المساندة لمناهضة الامبراطورية البيزنطية التي لا تعترف بالكنيسة الأرمنية، وتحاول إجبار الأرمن على الدخول تحت قبة الكنيسة البيزنطية.² وهذا الأمر له دلالة، لأن القرن الثاني عشر هو عصر الإيمان أو عصر التعصب الديني كما سماه بعض المؤرخين،³ يضاف إلى ذلك أن بعض الدوائر في الغرب اتهمت مانويل بالتحالف مع السلاجقة ضد الحملة الصليبية الثانية، وحمّلت مسؤولية فشلها.⁴

يبدو أن الامبراطور كان منصرفاً عن إمارة أرمينيا الصغرى بحروبه ضد روجر الثاني⁵ ملك صقلية (Roger II) (1095-1154م)، في محاولة لإعادة النفوذ البيزنطي على إيطاليا. كما قام مانويل في سنة 546هـ/1151م، بتنظيم حملة عسكرية قادها بنفسه إلى البلقان لإخماد ثورة الصرب

¹ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 169.

² Tournebiz F. : op. cit., pp. 539-540; Vernier Donat, op. cit., pp. 213-214.

³ عاشور سعيد عبد الفتاح : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 362.

⁴ Grousset René : Histoire des Croisades, t. II, p. 262.

⁵ روجر الثاني (1095-1154) : هو الابن الأصغر لروجر الأول، وملك صقلية النورماني، استولى على أبوليا وسالرنو 1127م رغم معارضة البابا وأخذ جانب البابا المضاد أناكلييتوس الثاني (الذي توجه ملكاً عام 1130م) ضد البابا إنوسنت الثاني فجمع إنوسنت الامبراطور لوثير الثاني وحلفاء آخرين ضد روجر. ولكنه هزم في سنة 1139م، واعترفت نابلي وكابوا بسيادة روجر، وأجبر إنوسنت على أن يقطع جميع الأراضي التي كوّنت إلى سبعة قرون تالية مملكتي نابلي وصقلية، واستولى روجر أيضاً على عدة مدن في الساحل الأفريقي، وشجع اندماج الجماعات البشرية المختلفة في مملكته، وأقام إدارة مركزية قوية، استعادت لصقلية رخاءها. كان بلاطه في بالرمو مركزاً للفنون والآداب والعلوم، خلفه ابنه وليم الأول. (انظر : رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 1، ص 403-405؛ الموسوعة العربية الميسرة، ج 3، ص 1671؛

Loud -G. A. : **Roger II of Sicily**, in : Crus. Enc., ABC-Clio, California, 2006. p. 1044).

هناك.¹ ولذلك منح الوكالة للسلطان مسعود ليقاتل باسمه ضد ثوروس الثاني. أما عن تحالفه مع قوة إسلامية ضد إمارة مسيحية، في الحقيقة أن الامبراطور مانويل كومنين ليس هو أول من تحالف مع المسلمين ضد المسيحيين، فقد سبقه جده ألكسيس إلى ذلك حينما استنجد بالسلطان قلعج أرسلان الأول ضد بوهيموند في العقد الأول من القرن الثاني عشر الميلادي. وبالنسبة للبيزنطيين فإن الأرمن يعتبرون منشقين عن الكنيسة البيزنطية، التي فرضت عليهم حصارا مذهبيا، ووصل بها الأمر إلى المطالبة بإعادة تعميد الأرمن،² ومعنى ذلك أنها لا تعترف بالكنيسة الأرمنية إطلاقا، ومن ثمة فإن مانويل لم يجد حرجا في التحالف مع السلاجقة المسلمين ضد الأرمن المسيحيين.

توفي السلطان مسعود بعد أشهر قليلة من عودته إلى بلاده، دون أن يحقق أية فائدة من تحالفه مع الامبراطور مانويل كومنين، بل حطم جيشه أمام ثوروس الثاني. وآل عرش سلطنة سلاجقة الروم إلى ابنه قلعج أرسلان الثاني³ (550-588هـ/1155-1192م)، ثم ما لبث أن دب الخلاف بينه وبين أخيه شاهنشاه، وطمع آل دانشمند في بلاده، مما جعل البلاد تعيش حالة من الفوضى والاضطراب.⁴ وكانت هذه المرحلة فرصة للأمير ثوروس الثاني للانتقام من السلاجقة الذين هاجموا إمارته مرتين في أواخر حكم السلطان مسعود الذي تحالف مع الامبراطور البيزنطي مانويل، فأرسل

¹ ربيع حسنين محمد : مرجع سابق، ص 223-225؛

Bréhier : Vie et mort, pp. 318-319; Vasiliev : op. cit., t. II, pp. 63-65

² بوعمامة : مرجع سابق، ص 115؛ Valognes Jean-Pierre : op. cit., p. 455.

³ قلعج أرسلان الثاني : هو عز الدين بن قلعج أرسلان بن مسعود، خلف أباه مسعود في سلطنة سلاجقة الروم، ويتمتع بذكاء حاد، ويحتل مكانة مميزة بين سلاطين سلاجقة الروم، بل يعد من ألمعهم شهرة، مارس الحكم في أيام والده، فقد عينه على البلاد المفتوحة في الجنوب الشرقي لآسيا الصغرى، وكان حريصا على تنويعه في حياته. تابع نهج والده السياسي، وعمل من أجل الوحدة السياسية للأتراك السلاجقة، والازدهار الاقتصادي والثقافي لبلاده.

(انظر : طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 161؛

Cahen Claude : **Kilidj Arslan II**, in : Enc. Isl., E. J. Brill, Leiden, 1986. Vol. V, p. 104).

⁴ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 162-163.

أخاه ستيفاني على رأس قوة أرمنية قامت بمهاجمة كيسوم وبَهَسْنَا¹ ومرعش،² وهي البلاد التي آلت إلى السلاجقة حديثاً من بقية إمارة الرها. ولعل ما دفع الأرمن إلى مهاجمة هذه المدن أنها ضاعت من زوجة جوسلين الأرمنية³ وبذلك يكون لهم الحق من وجهة نظرهم كأرمن في استردادها.⁴

وبعد ان لاحظ مانويل كومنين انغماس الأتراك السلاجقة في خلافاتهم الداخلية، وفشلهم في تحقيق انتصار على الأرمن، لجأ إلى حليف آخر لإخضاع ثوروس الثاني، وهو رينو دو شاتيون⁵ (Renaud de Châtillon)، أمير أنطاكية الجديد. ورغم أن مانويل لم يكن ينظر بعين الرضا إلى

¹ بهسنا : قلعة عظيمة حصينة مانعة، بين مرعش وسميساط، يسكنها المسلمون والأرمن، وهي متاخمة لإمارة أرمينيا الصغرى، انتزعها السلاجقة من الأرمن سنة 545 هـ، ثم انتقل حكمها إلى المغول، ولما عجز أهلها عن الدفاع عنها سلموها للأرمن إلى ان انتزعها منهم المماليك في سنة 660 هـ. (انظر : ابن شداد : مصدر سابق، ج 1، ق 2، ص 116-119).

² Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 314; Vahram Rapoun : op. cit., pp. 13-14.

³ هي بياتريس بنت قسطنطين بن روبين، وأخت ثوروس الأول وليون الأول، أي هي عمة ثوروس الثاني بن ليون، أما زوجها فهو جوسلين دو كورتيناى أمير الرها، الذي توفي في سنة 525 هـ/1131م، فخلفه ابنه جوسلين الثاني، الذي سقط أسيراً في يد نور الدين زنكي في سنة 544 هـ/1149م. ولما رأت بياتريس نفسها عاجزة عن الدفاع عما تبقي تحت يديها من مدن وقلاع إمارة الرها، تنازلت عنها للإمبراطورية البيزنطية مقابل معاش سنوي. ولكن نور الدين زنكي، ومسعود سلطان قونية، نجحاً في طرد الحاميات البيزنطية منها وانتزعها من الامبراطورية البيزنطية. (انظر : وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 337-343؛

Cahen Claude : La Syrie du Nord, pp. 386-387, Grousset René : Histoire des Croisades, t. II, pp. 286-287.).

⁴ عمران : السياسة الشرقية، ص 202.

⁵ رينو دو شاتيون : يعرف في المصادر العربية باسم أرناط، وهو الابن الأصغر لجيوفري كونت جيين وسيد اقطاع شاتيون سير لورانج. قدم مع لويس السابع في الحملة الصليبية الثانية، ولما لم يكن له آمال في وطنه، فإنه آثر البقاء في فلسطين بعد عودة رجال الحملة الصليبية إلى بلادهم. ودخل في خدمة الملك بلدوين الثالث، الذي صحبه إلى أنطاكية في سنة 1151م، وربما حاز إقطاعاً بها. شد هذا الفارس انتباه كونستانس أرملة ريموند دو بواتيه، أمير أنطاكية السابق، وكانت هذه الأميرة الأرملة قد رفضت الزواج من الأمراء الصليبيين والبيزنطيين الذين رُشِّحوا للزواج بها بعد مقتل زوجها، ولعل إقامة رينو دو شاتيون في إمارتها هي التي حفزتها على رفض العرسان الذين تقدموا إليها. وربما تزوج بها رينو دو شاتيون سراً، ثم تقدم إلى بلدوين الثالث ملك بيت المقدس، والوصي على إمارة أنطاكية، وطلب منه الاذن بالزواج من كونستانس باعتباره من أتباع الملك، فوافق الملك دون تردد، وبذلك أصبح رينو أميراً على أنطاكية في سنة 548 هـ/1153م. ولكن الامبراطور مانويل كومنين الذي يعتبر نفسه السيد الأول لإمارة أنطاكية، لم يكن راضياً عن هذا الزواج الذي تم دون موافقته، وشعر رينو أنه ضايق الامبراطور مانويل بزواجه من كونستانس دون استشارته وموافقته، لذلك كان يتوود إلى الامبراطور للحصول على رضاه. وقال عنه المؤرخون بأنه كان مغامراً خطيراً، اتصف في كثير من تصرفاته بالبطش والتهور وعدم مراعاة العهود، والجهل بأحكام السياسة وأصولها. (انظر : وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 359؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 2، ص 557؛ Grousset René : op. cit, t. II, pp. 316-317).

زواج رينو بأرملة ريموند دو بواتيه، فقد تحالف معه لأن ثوروس في هذه الأثناء هو أخطر على الامبراطورية البيزنطية من رينو دو شاتيون.¹ وقد استغل مانويل تودد رينو إليه للموافقة على زواجه، فأرسل وفدا إلى أنطاكية، طلب منه حشد قواته والتوجه بها إلى قيليقيا لمحاربة ثوروس وإخراجه من الأراضي التي استولى عليها، ووعدته الامبراطور بإغداق المال عليه، والاعتراف به أميرا على أنطاكية،² وهذا أقصى ما كان يريده رينو دو شاتيون.

وبما أن الأمير الجديد لأنطاكية، كان يبحث عن الشرعية، وعن موافقة مانويل على زواجه من أميرة أنطاكية، فقد وافق على القيام بهذه المهمة، وهكذا زج به الامبراطور مانويل في الصراع القائم بينه وبين الأرمن. وبحث رينو عن سبب يشعل به فتيل الحرب ضد ثوروس الثاني، فطلب منه إعادة قلعة جاستون (Gastoun)،³ إلى الفرسان الداوية (les Templiers)،⁴ باعتبار أن هذه الطائفة

¹ Cahen Claude : La Syrie du Nord, p. 391.

² وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 401-402؛ طقوش : تاريخ الحروب الصليبية، ص 342.

³ جاسطون : هو حصن بغراس (Baghrâs) الواقع بين الاسكندرونة وأنطاكية، وجاء في المصادر أنها قلعة حصينة تقع على الطريق الذي كان يسلكه الفاتحون المتوجهون إلى إقليم الثغور، اهتم بأمره الخلفاء الأمويون والعباسيون تحصينا وتعميرا. (انظر : ابن شداد : مصدر سابق، ج 1، ق 2، ص 411-418؛ ابن العديم : بغية الطلب، ج 1، ص 151).

⁴ الفرسان الداوية : تعرف في المصادر العربية باسم فرسان المعبد، أو الداوية أو الديوية، كما عرفت في المصادر الأجنبية بعد أسماء منها : *Templiers pauvres Soldats du Christ* أي جنود السيد المسيح الفقراء، *Les Chevaliers de Temple*، أو فرسان المعبد وغيرها من الأسماء. وهي تنظيم عسكري ديني تأسس حوالي سنة 1119م، في مملكة بيت المقدس. ونشأت هذه الهيئة بعد استيطان الصليبيين في بلاد الشام، عندما ظهر لزوارهم ورعاياهم مشكلة الطرق غير الآمنة نتيجة اغارات المسلمين عليها وسطو قطاع الطرق عليهم بغرض السلب والنهب. وقد اهتم بلدوين الثاني، ملك بيت المقدس، بمشكلة تأمين طرق زوار مملكة بيت المقدس، وذلك بأن شجع بعض الفرسان المتحمسين بتكوين هيئة هدفها حماية وحراسة (الحجاج)، وهي الهيئة التي أصبحت فيما بعد تشكل أكبر هيئة عسكرية صليبية في الشرق، وهي التي عرفت باسم هيئة فرسان المعبد أو فرسان الداوية. وقد بدأ تخمس هؤلاء الفرسان النبلاء لفكرهم في تأسيس هيئة حربية جديدة عندما زار الأراضي المقدسة فرسان هما : هيو دي باين (Hugh de Paynes)، وهو فارس من إقليم شامبني بفرنسا، وزميله جفرى دي سانت أومير (Geoffrey de St. Omer)، ومعهم تسعة من زملائهم كلهم من أصل فرنسي. وبوصول هؤلاء الفرسان إلى مملكة بيت المقدس، نالوا تصريحاً سنة 1118م من بطريك بيت المقدس جاريموند (Guarimond)، ومن الملك بلدوين الثاني بإنشاء منظمة حربية مهمتها محاربة المسلمين، وحماية طرق (الحجاج)، وحماية معبد سليمان. وقد قسم الفرسان على ذلك بجانب القسم الكنسي الأول القائم على الفقر والعفة والطاعة. ووهب هؤلاء الفرسان حياتهم كاملة لمحاربة المسلمين، وبذلك شكلوا خطراً ظل يشكل أهمية خاصة لدى حكام المسلمين. وحلت المنظمة من قبل البابا كليمنت الخامس في مؤتمر فينا في سنة 1312م. (انظر : مقامي نبيلة ابراهيم : فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، القاهرة، 1994. ص 16-20؛ Barber Malcolm : *Templar of Tyre*, in : Crus. Enc., ABC-Clio, California, 2006. pp. 1149-1157).

تعمل لفائدة الحركة الصليبية،¹ ولما رفض ثوروس طلبه، تقدم رينو بقواته نحو جنوب قيليقيا، "وكسره وأجهز تماما على جيشه"،² وكانت هذه الواقعة قرب الاسكندرونة، في سنة 550هـ/1155م.³

ولكن الامبراطور تخلي عن وعده للأمير الصليبي، ورفض أن يؤدي له المال المتفق عليه،⁴ لأن الهدف الأساسي لم يتحقق وهو القضاء على إمارة أرمينيا الصغرى نهائيا. وأمام هذا الرفض انتبه كل من ثوروس، ورينو أن صاحب المصلحة من اندلاع الحرب بينهما هو مانويل كومنين، عدوهما المشترك. فانقلب السحر على الساحر، إذ سرعان ما غير رينو سياسته تجاه الامبراطورية البيزنطية، وعقد صلحا مع ثوروس الثاني ثم انضم إليه، وأخذا يهاجمان ما تبقى للبيزنطيين من الحصون والقلاع المتاخمة لأرمينيا الصغرى. ولم يكتفيا بذلك، بل قاما بغزو جزيرة قبرص التابعة للإمبراطورية البيزنطية، في أوائل 551هـ/1156م، ولم يخرجها منها إلا بعد أن تركاها قاعا صفصفا.⁵ ولم يتوقف التحالف بين ثوروس وأمير أنطاكية على محاربة البيزنطيين فقط، بل تعداه إلى محاربة نور الدين زنكي.

ج - التحالف الأرميني الصليبي ضد نور الدين زنكي

بعد أن نجح نور الدين زنكي في ضم دمشق إلى إمارته بحلب سنة 549هـ/1154م، أراد الانصراف إلى ترتيب أوضاع دولته، خاصة بعد الزلزال الذي أحدث كثيرا من الأضرار في بلاد الشام، فأبرم هدنة مع بلدوين الثالث ملك بيت المقدس لمدة سنة، وذلك في شهر شوال من سنة 551هـ/نوفمبر 1156م.⁶ واستغلت مجموعة من الرعاة التركمان والفلاحين العرب هذه الهدنة، وحصلت على إذن من الملك بلدوين الثالث برعي ماشيتهم وحيولهم في منطقة الشَّعراء المجاورة

¹ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 171.

² وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 402.

³ قمعون عاشوري : مرجع سابق، ص 306؛ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 314.

⁴ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 402.

⁵ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 1، ص 515؛ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, pp. 314, 315;

Grégoire le Prêtre : op. cit., p. 187; Sempad : op. cit., p. 621; Bréhier : Vie et mort, p. 319.

⁶ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 335.

لبانياس.¹ ونظرا لتوفر الأمن والاستقرار، فقد أصبح فيها ما لا يحصى من الماشية، ويبدو أن الخيول الكثيرة التي امتلكها أولئك الرعاة، أسالت لعباب بلدوين الثالث، فنقض الهدنة، و"غدر الكفرة الفرنج ونقضوا ما كان استقر من المودعة والمهادنة"،² فهاجم جنوده أولئك الرعاة العزل من السلاح في أواخر 551هـ/بداية 1157م، "واستاقوا جميع ما وجدوه وأفقروا أهله منه مع ما أسروه من تركمان وغيرهم وعادوا ظافرين غانمين آثمين".³ أثارت هذه الحادثة نور الدين زنكي، فخرج من دمشق للانتقام من الصليبيين، وضرب حصارا على حصن بانياس، ثم انقض المسلمون على الصليبيين، ولم ينج منهم إلا القليل، من بينهم الملك بلدوين الثالث الذي فر إلى صَفَد،⁴ ومكث فيها ثلاثة أيام لا أحد يعرف مصيره، "وقيل إن ملكهم لعنهم الله فيهم وقيل أنه في جملة القتلى ولم يُعرف له خبر"⁵ ثم

¹ بانياس : مدينة تقع على الطريق بين دمشق وصور، كانت في القدم تعرف بـ قيصريّة فيليب (Césarée de Philippe)، خلال فترة احتلال الصليبيين لفلسطين، كانت بانياس جزءا من الأراضي والأملاك التابعة لمدينة دمشق، ولم يكن لها أي دور سياسي، أو اقتصادي، أو اجتماعي، خلال الفترة التي سبقت الحروب الصليبية، وبدأت أهميتها تظهر بعد تأسيس مملكة بيت المقدس، وأصبحت قاعدة متقدمة لمدينة دمشق، وفي سنة 1126م، منحها الأتابك طغتكين إلى الاسماعيلية الذين جعلوا منها حصنا لطائفتهم، ثم تنازلوا عنها لبلدوين الثاني ملك بيت المقدس في سنة 1128م. كانت بانياس محل نزاع بين المسلمين والصليبيين مما عرضها للحصار عدة مرات. (انظر : الحيارى مصطفى : مدينة بانياس في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، مجلة دراسات، ع 12، مج 13، الجامعة الأردنية، عمان، ديسمبر 1986. ص 161؛

Murray Alan V. : **Banyas**, in : Crus. Enc., ABC-Clio, California, 2006. pp.151-152; Aryeh Grabois : **La cité de Baniyas et le château de Subeibeh pendant les croisades**. ds: **Cahiers de civilisation médiévale**, 13^e année (n°49), Janvier-mars 1970. pp. 43-45).

² ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 337.

³ نفسه.

⁴ صَفَدُ : ذكر الحموي أن صفد مدينة في جبال بني عاملة المطللة على حمص بالشام وهي من جبال لبنان. وهي في نفس الوقت حصن يقع في فلسطين، بين منطقتي الجليل والجولان، 13 كلم شمال غرب طبرية. احتل الصليبيون حصن صفد نظرا لموقعه الاستراتيجي فهو يشرف على الطريق بين دمشق وعكا، ووضع تحت تصرف الداوية فترة من الزمن ليحمي مملكة بيت المقدس من الهجمات الاسلامية القادمة من ناحية دمشق، وإليه لجأ الملك بلدوين الثالث اثر اندحار قواته أمام الملك نورالدين زنكي. وبعد معركة حطين، فتحه صلاح الدين الأيوبي وانتزعه من الصليبيين. (انظر : الحموي : مصدر سابق، ج 5، ص 193؛

Kennedy Hugh : **Saphet**, in : Crus. Enc., ABC-Clio, California, 2006. p.1074-.

⁵ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 341.

سقط حصن بانياس في أيدي المسلمين، وسرعان ما تمكن الصليبيون من استعادته، وظل كالكرة تتقاذفها أيدي الصليبيين حيناً والمسلمين أحياناً أخرى طوال سنوات عديدة.¹

شكلت هذه الحملة خطراً على الصليبيين في الشام، فقرروا توحيد صفوفهم ثم حشدوا جيوشهم وعزموا على مهاجمة نور الدين زنكي، الذي كان هو الآخر يعد العدة لمواجهتهم، ولكن مرضاً ألمَّ به، أشرف بسببه على الموت، وحُمل إلى حلب وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، وهلل الصليبيون فرحاً لاعتقادهم بأن خصمهم اللدود قد مات، ولن يلبث أن ينقسم المسلمون من جديد.² وحرص الملك بلدوين الثالث على حشد جميع القوى الصليبية والمسيحية، ولم يكتف بأمريري أنطاكية وطرابلس، والداوية،³ بل أرسلوا إلى ثوروس "يلتمسون منه أن يحسن إليهم فينضم بمن عنده إليهم في حملتهم التي يتوقعون لها النجاح التام، وعهدوا إلى أولئك الرسل أن يصطنعوا كل وسيلة حتى يتخلى عن كل المعاذير وينضم بإمداداته إلى عسكر الحلفاء الموجود في أنطاكية، فتلقى ثوروس هذه الدعوة بالغبطة".⁴ وأسرع إلى أنطاكية على رأس جيش كبير، للمشاركة في عرقلة أعمال نور الدين ووقف تقدمه،⁵ واستئصال الدولة النورية التي تمثل أمل المسلمين جميعاً. ثم سار مع الجيش الصليبي لمحاصرة مدينة شيزر في رمضان 553هـ/أكتوبر 1157م.⁶ وقد أكسبته هذه المساعدة التي قدمها للصليبيين شهرة، واعتُبر أشهر وأقوى شخصية أرمنية،⁷ حيث مدحه وليم الصوري في قوله : "ثوروس الأمير الأرمني القوي (...). كان رجلاً ذا خلق قويم وطبيعة نشيطة".⁸

¹ عاشور : الحركة الصليبية، ج 1، ص 528؛ الحيارى مصطفى : مدينة بانياس، ص 182-184.

² ابن العديم : زبدة الحلب، ص 340؛ طقوش : تاريخ الحروب الصليبية، ص 359.

³ Chevalier Marie-Anna : Les Ordres religieux-militaires en Arménie cilicienne, Geuthner, Paris, 2009. pp. 98-99.

⁴ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 417.

⁵ استراتيجان : مرجع سابق، ص 212.

⁶ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 84؛ Mutaftian Claude : L'Arménie du Levant, p. 79.

⁷ استراتيجان : مرجع سابق، ص 212.

⁸ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 417.

وفي نفس السنة تحالف أيضا مع السلطان السلجوقي قلع أرسلان الثاني الذي شكل خطرا على نور الدين زنكي، حيث قام بمهاجمة شمال الشام، وإقليم الفرات، وظهر أمام أنطاكية، وهدد منطقة حلب،¹ وبدلا من أن يضم سلاحه إلى سلاح المسلمين لمحاربة الصليبيين، راح يزيد في جراح إخوانه. ثم أرسل سفارة إلى ثوروس نجحت في إبرام اتفاقية معه، أعاد بموجبها بعض القلاع إلى السلاجقة، بهدف كسب ودهم ضد الامبراطورية البيزنطية.² وأثبتت هذه الأحداث أن ثوروس الثاني لم ينجح في إعادة تأسيس إمارة أرمينيا الصغرى فحسب، بل نجح أيضا في اكتساب الحلفاء، وزيادة نفوذه، كما أثبتت أنه أظهر مهارة فائقة في الاحتفاظ بإمارة أرمينيا الصغرى وسط العواصف العاتية التي أحاطت بها. ولكن الامبراطور مانويل كومنين مازال يتحين الفرص للانقضاض عليه.

د - الامبراطور مانويل كومنين في قيليقيا

في سنة 553هـ/1158م، انتهى الامبراطور مانويل كومنين من مشاكله في أوروبا، وأصبح متفرغا للجبهة الشرقية، وشرع يخطط لحملة أرادها أن تكون جولة عسكرية.³ كان يريد تنظيم حملة عسكرية جديدة ينتقم فيها من ثوروس الثاني ومن رينو دو شاتيون،⁴ ثم يواصل زحفه إلى حلب، وبذلك يعيد للإمبراطورية حقوقها التي ضاعت بين الأرمن في قيليقيا، وهبتها التي دنسها أمير أنطاكية في الشام. وحرص على حماية ظهره من أي هجوم يقوم به الأتراك على مؤخرة جيشه، خاصة بعد أن تصالح الدانشمنديون والسلاجقة في الأناضول وجمدوا خلافاتهم، وتوحدوا لمهاجمة الامبراطورية البيزنطية، كما أثار مخاوفه التقارب السلجوقي الأرمني الذي حدث منذ سنة. فعقد صلحا في صيف سنة 553هـ/1158م، مع سلاجقة الروم الذين أعادوا إليه بعض المدن التي فتحوها، وأغدق عليهم الأموال والهدايا لكسب رضاهم،⁵ وبذلك يكون قد نجح في عزل ثوروس الثاني عن حلفائه.

¹ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 164.

² Grégoire le Prêtre : op. cit., pp. 178-179; Sempad : op. cit., p. 621; Alishan : op. cit., p. 52; Cahen Claude : La Syrie du Nord, p. 391; Mutfian Claude, La Cilicie, t. I, p. 395.

³ Bréhier Louis : Vie et mort, p. 320.

⁴ Alishan : op. cit., p. 53; Dédéyan Gérard : Le rayonnement de l'état arménien, p. 338.

⁵ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 164-165؛ Diehl Charles : Histoire de l'Empire, pp. 152-153.

وبعد أن أتم الامبراطور مانويل استعداداته، خرج في سبتمبر 553هـ/1158م على رأس قواته متجهاً إلى قيليقيا. واعتمد على عنصر المفاجأة، حيث سلك الطريق الساحلي الملتوي، وما من أحد علم بقدومه حتى أصبح على مسيرة يوم واحد من طرسوس، التي كان يقيم فيها ثوروس الثاني آنذاك.¹ وتفاجأ الأمير الأرمني بقدوم الامبراطور، وأدرك أنه غير قادر على مواجهة الجيش البيزنطي، فجمع على الفور كل أمواله، وثرواته، وأهل بيته، وبعض أصدقائه المقربين، وبادر بالهروب إلى الجبال، ثم التحق به بعض فرسانه. وظلوا يتنقلون بين شعاب الجبال وغاباتها حتى لا تكتشف القوات البيزنطية مكائهم.²

عسكر الامبراطور مانويل في المصيصة، وانساب جنوده بيسر في أرمينيا الصغرى دون أن يجدوا مقاومة تذكر من قبل المواطنين الأرمن، ونجحوا في أسر الحاميات الأرمينية التي كانت تحمي المدن. فقد كان لهروب ثوروس، والعدد الضخم للقوات البيزنطية أبلغ الأثر في نجاحهم. وفي ظرف أسبوعين كانت المدن والحصون الهامة قد وقعت في قبضة الامبراطور.³ ورغم أن المؤرخ جريجوار يُعتبر معادياً لكل ما هو بيزنطي، فقد اعترف في حويلته أن مانويل كومنين لم يلحق أي ضرر بالسكان الأرمن.⁴

وفي المصيصة جاءه رينو دو شاتيون ذليلاً مهاناً، يسترضيه ويطلب منه العفو عما بدر منه تجاه الامبراطورية البيزنطية، ويعلن خضوعه وولاءه للإمبراطور.⁵ وقد لاحظ الملك بلدوين الثالث، أثناء ضيافته لمانويل كومنين في معسكره بالمصيصة، شدة غضب الامبراطور على ثوروس الثاني، وأنه رفض توسلات البعض للعفو عنه بعدما عفا عن رينو، وأمر قواته بالاستعداد لمهاجمة ثوروس وتعقبه والبحث عنه. ولكن الملك لم يئأس، فتوسط مع فرسان الداوية للصلح بين الامبراطور وثوروس،⁶ وعندما

¹ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 354؛ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 428-429.

² وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 429؛ عمران : السياسة الشرقية، ص 230.

³ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 354 ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 173؛

Grousset René : Histoire des Croisades, t. II, p. 384.

⁴ Grégoire le Prêtre : op. cit., p. 187.

⁵ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 430-431. رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 2، ص 568-569.

⁶ Chevalier Marie-Anna : op. cit., p. 99.

حضر هذا الأخير أمام مانويل طرده في أول الأمر.¹ والحقيقة أن الامبراطور كان مستعداً للعفو عن ثوروس بعد ما عفا عن رينو، ولكنه كان يريد من الأمير الأرمني أن يظهر أمامه في رداء المتضرع المتوسل، وبنفس مظاهر الإهانة والإذلال التي ظهر بها الأمير رينو قبله.

وما لبث أن اكتسب ثوروس عطف مانويل بعدما أوضح له أن الوشايات هي السبب في كل ما حدث، ثم أدى يمين الولاء وأعلن خضوعه للإمبراطور،² الذي قلده حكم بعض المدن التي تحت يده،³ وعينه قائداً لجميع الجيوش البيزنطية في ساحل البحر، ومنحه لقب سباستوس (Sebaste)،⁴ مع التبعية للإمبراطورية البيزنطية.⁵ ولضمان ذلك عين حاكماً بيزنطياً يتولى شؤون قيليقيا.⁶ ثم أذن له بالعودة إلى طرسوس، واشترط عليه أن يحضر على وجه السرعة في أي وقت يطلبه. وسرعان ما عاد ثوروس إلى المعسكر البيزنطي في المصيصة ومعه قطع كبير من الخيول والماشية، نالت إعجاب مانويل كومنين، فأكرمه بالهدايا وعفا عنه.⁷ فمن هو الرابع والخاسر في هذه المواجهة ؟

يبدو أن كليهما خرج ظافراً من هذه المعركة، والأكثر من ذلك أنهما استفادا من تجربتهما السابقة. الامبراطور مانويل أعاد إقليم قيليقيا إلى حظيرة الامبراطورية البيزنطية، وأدرك أن الأمير الأرمني صعب المراس، والأفضل أن يقبله تحت طاعته، على أن يستمر في محاربتة، خاصة وأن خطره قد تلاشى بإعلان توبته. وبما أن الامبراطور كان يخطط لمهاجمة نور الدين زنكي في حلب، فإنه كان في حاجة إلى تحالف كل القوى المسيحية معه. وفي نظره، فإن خطر الأرمن يهون أمام خطر المسلمين، ولتحقيق هدفه سار مانويل كومنين في سياسة المصالحة التي هي أفضل من سياسة المواجهة.

¹ Grégoire le Prêtre : op. cit., p. 188.

² وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 433.

³ Grégoire le Prêtre : op. cit., p. 191; Pasdermajian H. : op. cit., p. 205.

⁴ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 173؛ Mutfian Claude : L'Arménie du Levant, p. 80.

⁵ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 432-433؛ استراتيجيان : مرجع سابق، ص 213؛ المدور عثمان : مرجع سابق، ص 229؛

Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 316.

⁶ عمران : السياسة الشرقية، ص 243؛ Payaslian Simon : op. cit., p. 83.

⁷ Grégoire le Prêtre : op. cit., p. 188.

والمعروف أن الإمبراطور البيزنطي، ارتحل إلى أنطاكية بعد أن أكمل مهمته في قيليقيا، وخرج منها في حشد هائل من القوات البيزنطية والصليبية، في طريقها إلى حلب. ويفهم من كلام وليم الصوري أن ثوروس الثاني قد انضم إليه، حيث قال : "امر الامبراطور المنادين أن ينادوا في قادة كتائبه أن يبعثوا أمامهم آلاتهم الحربية، وأن يسيروا بالجيش إلى حلب في يوم حدده لهم، وخرج هو وراءهم وقد صحبه الملك وحكام المملكتين، ثم رحل عن أنطاكية والطبول تفرع حوله وحول من معه، والأبواق يتعالى نفخها"¹، وتوقفوا جميعا على مسافة بضع ساعات من حلب. الملك الذي صحب الامبراطور هو بلديون الثالث ملك مملكة بيت المقدس، فمن هما حكام المملكتين ؟ الأول هو رينو دو شاتيون أمير أنطاكية، والثاني من المحتمل أن يكون ثوروس الثاني أمير أرمينيا الصغرى،² لأن مانويل طلب منه لما أذن له بالعودة إلى طرسوس، أن يحضر على وجه السرعة في أي وقت يطلبه.³ وبذلك يكون مانويل قد نجح في أن يجعل من ثوروس جنديا في صفوف قواته، مستغلا طاقته في محاربة المسلمين.

أما ثوروس فقد أدرك أن الامبراطور مصمم على اقتلاع إمارة أرمينيا الصغرى، ولا يمكن له أن يظل هاربا من وجهه، وستكون عاقبته الأسر أو الموت في شعاب الجبال، والأخطر من ذلك ستختفي إمارته أو ستزول نهائيا، والأفضل له في هذه الحالة أن يقنع بسيادة ناقصة، أي بالتبعية للإمبراطورية البيزنطية، ويحفظ هذه النواة اللازمة لاستمرار هذه الإمارة لمن يأتي بعده من الأمراء، في انتظار ما ستسفر عنه الأحداث.

وباستثناء تمرد قصير قام به ضد الحاكم البيزنطي في قيليقيا انتقاما لمقتل أخيه ستيفان،⁴ أمضى ثوروس الثاني بقية حياته خادما وفيا ومطيعا للإمبراطور البيزنطي، وحليفا مخلصا للصليبيين في حروبهم

¹ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 3، ص 435.

² Chevalier Marie-Anna : op. cit., p. 101.

³ Grégoire le Prêtre : op. cit., p. 188.

⁴ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 27؛

Guiragos de Kantzag : L'Histoire d'Arménie de Guiragos de Kantzag, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} éd., Paris, 1969. p. 416.

ضد المسلمين. حيث انضم إلى مانويل كومنين في سنة 557هـ/1161م، وشاركه حملته العسكرية التي قام بها ضد سلاجقة الروم الذين نقضوا الهدنة مع البيزنطيين.¹

هـ - ثوروس في معركة حارم

وكانت معركة حارم في رمضان 559هـ/أوت 1164م، دليلاً آخر على أن ثوروس الثاني أصبح يشكل شوكة في حلق المسلمين. حيث قام نور الدين زنكي بمهاجمة حصن حارم لإجبار الملك عموري الأول² (Amaury I^{er} 558-570هـ/1162-1174م)، على الانسحاب من مصر، وتخفيف الضغط الصليبي عليها. فتكثرت الصليبيون، "فجأؤوا في حدهم وحديدتهم وملوكهم وفرسانهم وقسوسهم ورهبانهم وأقبلوا إليه من كل حذب ينسلون"،³ وانضم إليهم الأمير الأرميني ثوروس الثاني⁴ للقضاء على نور الدين الذي لما رأى ضخامة القوات المتحالفة، رفع الحصار عن حارم، وتوجه نحو أرتاح، وفق خطة عسكرية محكمة لاستدراجهم إلى مكان بعيد عن قواعدهم. ولكن الأمير الأرميني الذي اتصف بالحذر الشديد، وعركته الحروب، نصح الأمراء الآخرين بعدم

¹ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 171.

² عموري الأول : أو أمالك أو أماريك الأول، ملك صليبي لا تيني على بيت المقدس (1162-1174م)، ورث أخاه الملك بلدوين الثالث. كان كونت يافا وعسقلان، ولما تولى عرش المملكة كان عمره خمسا وعشرين سنة، ولم ينل من التعليم ما ناله أخوه، ولكنه كان واسع الامام بالأمور القانونية، ولكن حياته الخاصة لم تكن مقبولة عند رعاياه، وطد علاقاته بالإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين، وتحالف معه في عدة مناسبات. كانت عين عموري الأول على مصر، فقد اهتم بشؤون مصر اهتماماً عظيماً، حيث كان حريصاً على حرمان نور الدين من توحيد مصر مع بلاد الشام في جبهة إسلامية واحدة، وكان مستعداً لفعل كل ما بوسعه لمنع نور الدين من وضع يده على مصر، لما في ذلك من خطر على مملكة بيت المقدس، وعلق ابن الأثير على ذلك قائلاً : "وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن تم ملكه لها"، ولذلك قضى حكمه في محاولة الاستيلاء على مصر والاحتفاظ بالسيادة عليها، مستغلاً في ذلك تدهور أوضاع الدولة الفاطمية. لكن السلطان نور الدين محمود زنكي تصدى له وأحبط محاولاته. (انظر : ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 85؛ وليم الصوري : في : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1995. ج 7، ص 251-259؛ رنسيما : ج 2، ق 2، ص 585-589؛ الشنقيطي محمد بن المختار : مرجع سابق، ص 113؛ 202-203؛ الموسوعة العربية الميسرة، ج 1، ص 413؛

Gerish Deborah : Amalric of Jerusalem (1136-1174), in : Crus. Ency., ABC-Clio, California, 2006. pp. 58-59).

³ ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 86.

⁴ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 346.

الدخول في المعركة وانتظار الملك عموري الأول حتى يعود من مصر، غير أن القادة الصليبيين لم يأخذوا بنصيحته، فانسحب من المعركة مع أخيه مليح.¹ ولما وقع الصدام انهزم الصليبيون شر هزيمة، وسقط منهم ستة آلاف أسير في أيدي المسلمين، من جملتهم "صاحب أنطاكية، وصاحب طرابلس، والدوك مقدم الروم، وابن جوسلين"،² ولم ينج منهم إلا الأمير ثوروس، وأخوه مليح اللذان انسحبا من ميدان المعركة ولجآ إلى أنطاكية،³ بعد أن تبين لهما عدم جدوى مقاومة المسلمين. ورغم ذلك سقط عدد كبير من الجنود الأرمن في الأسر. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، تلقى نور الدين بعض الهدايا من الأمير ثوروس، مع إلتماس بإطلاق سراح الأرمن، غير أنه رفض هذا الطلب. فقام ثوروس بغزو مدينة مرعش "واعتقل أربعمئة تركي وأرسل إلى نور الدين يقول : إني مزعم أن أحرقهم أو ترد إلي الزعماء الذين عندك"،⁴ فاضطر نور الدين إلى تبادل الأسرى معه.

بعد سقوط حارم في أيدي المسلمين، أصبح الطريق مفتوحا أمام نور الدين لفتح أنطاكية، ومنها يغزو إمارة أرمينيا الصغرى في قيليقيا،⁵ فأشار عليه أصحابه باغتنام فرصة وقوع أمير أنطاكية في الأسر، والهجوم على المدينة واستعادتها من الصليبيين، فهي تكاد تكون خالية، فرفض نور الدين، وأجابهم بقوله : "أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد طول حصار، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها إليه، ومجاورة يميند أحب إلي من جوار ملك الروم".⁶ ويفهم من ذلك أن نور الدين كان يفضل أن تبقى إمارة أنطاكية، وإمارة أرمينيا الصغرى حاجزا بينه وبين الامبراطورية البيزنطية، حتى لا تتكرر التجربة التي حدثت سابقا مع الامبراطور يوحنا كومنين، الذي قضى على إمارة أرمينيا الصغرى، ثم انساب بسهولة إلى الشام، وجمع الصليبيين حوله لمحاربة عماد الدين زنكي.

¹ الرهاوي المجهول : مصدر سابق، ص 85-86؛ طقوش : تاريخ الحروب الصليبية، ص 384.

² ابن العديم : زبدة الحلب، ص 347.

³ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 324.

⁴ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 177.

⁵ Mutaftian Claude : La Cilicie, t. I, p. 399.

⁶ ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص 125.

و- مشروع مستوطنة أرمنية في فلسطين

انشغل ثوروس الثاني في سنواته الأخيرة بحروبه ضد الأمير الأرمني أوشين صاحب لمبرون،¹ ثم زار البقاع المسيحية المقدسة في مملكة بيت المقدس بفلسطين،² فأكرم الملك عموري الأول وفادته.³ ولا حظ ثوروس خلال هذه الزيارة مدى ضعف المملكة من الناحية البشرية، إذ أن عدد المسيحيين فيها قليل، لأن هجرة الفرنجة إلى بيت المقدس اقتصرت على أصحاب السلطة، والعسكريين، والفرسان، وهذه الطبقة يتركز وجودها في المناطق الحضرية فقط، وغير قادرة على تجديد القوة البشرية للمملكة. أما المسلمون الذين يشكلون الأغلبية في الأرياف، فمعظمهم من الفلاحين والتجار. فاقترح ثوروس الثاني على الملك مشروع إقامة مستوطنة أرمنية في مملكته.⁴ وتعود أهمية هذا المشروع إلى توفر أعداد ضخمة من الأرمن الذين نزحوا من أرمينيا الكبرى، خلال القرن الحادي عشر الميلادي، واستقروا في إقليمي قيليقيا والفرات، وهم يشكلون موردا بشريا هائلا، معظمهم فلاحون وتجار، وأقصى ما يطلبون هو الأمن في أراضي مسيحية، واحترام كنيستهم الوطنية، وإذا ما تمكن هؤلاء الأرمن الذين ولدوا أعداء للإسلام، من ضرب جذورهم في المملكة، سيشكلون حاجزا أمام سيل المسلمين، ويستطيعون أن يوفرُوا للمملكة ما تحتاجه من أغلبية مسيحية في الأرياف والحوضر. وهذه الهجرة الأرمنية المنظمة سيكون في مقدورها إنقاذ الممتلكات الفرنجية.

وفهم الملك عموري الأول مشروع الأمير الارمني فورا، وبعد أن شكره استدعى رجال الدين والبارونات لمناقشة هذا الاقتراح، وتسوية اجراءات الهجرة الارمنية، وكان رأيه أن يمنح للمستوطنين الأرمن نفس القانون الخاص بالرعايا العرب اتباع الملك الذين يعيشون في المملكة، أي نفس

¹ Mutfian Claude : L'Arménie du Levant, p. 81.

² يذكر أليشان أن هذه الزيارة جرت في السنة 1162، ويقول أن ثوروس حظي باستقبال الملوك من طرف الملك الجديد، ثم قدم له التهاني، وأدى له فروض الطاعة، وأقسم له أنه سيقى دائما من أتباع ملك مملكة بيت المقدس، والصليبيين ولما عاد إلى قيليقيا أرسل إليه ثلاثين ألف جندي، ووضع في خدمته في الحال خمسة عشر ألفا عربون وفاء. ولكن الكنيسة طلبت منه دفع ضريبة العشر ... (انظر : Alishan : op. cit., p. 53).

³ Ernoul : Chronique d'Ernoul et de Bernard le trésorier, Librairie de la société de l'histoire de France, Paris, 1871. p. 25; Mutfian Claude : L'Arménie du Levant, p. 82.

⁴ براور يوشع : مرجع سابق، ص 83.

الامتيازات الشخصية والثقافية، ويضاف إليهم اجبارية الخدمة العسكرية، وأيد البارونات هذا الرأي. ولكن الاكليروس المحلي اللاتيني الذي كان في بعض الاحيان يرتاب كثيرا من الطوائف المسيحية الأخرى، اشترط على ثوروس الثاني أن يدفع المستوطنون الأرمن في مملكة بيت المقدس ضريبة دينية خاصة، واتخذ رجال الدين هذا القرار بدون العودة الى رئيس الكنيسة الكاثوليكية، الذي بنظرته البعيدة لا يرفض مشروعاً فرنجياً أرمينياً كهذا. ورفض ثوروس الثاني باسم الشعب الأرميني الخضوع لشروطهم، قائلاً : "لا يأتي الأرمن إلى ارض المملكة ليصبحوا عبيدا".¹ وهكذا أفشل رجال الدين اللاتين فكرة إقامة مستوطنة أرمينية في فلسطين، وولد المشروع ميتاً.

بعد عودته من بيت المقدس، انقطع ثوروس في أواخر حياته إلى الرهينة، مع احتفاظه بعلاقاته الجيدة مع الداوية،² إلى أن توفي في ربيع الأول 564هـ/ديسمبر 1168م، وأوصى بالعرش لابنه الصغير وحرّم أخاه مليح من وراثته.³

5 - مليح بن ليون الأول (566-569هـ/1170-1174م)

تعتبر شخصية الأمير مليح فريدة في تاريخ أرمينيا، فهو لم يتحالف مع البيزنطيين أو مع الصليبيين ضد المسلمين على عادة أمراء أرمينيا الصغرى، بل سار عكس التيار الذي كان سائداً في بلاده، حيث تحالف مع نور الدين محمود زنكي، الذي وضع تحت تصرفه فرقاً من عساكر المسلمين، شن بهم حرباً على بني جلدته من الأرمن وعلى البيزنطيين، والصليبيين، وشكل خطراً عليهم، وظل حليفاً لنور الدين إلى وفاته.

¹ Ernoul : op. cit., p. 26-30; Grousset René : Histoire des Croisades, t. II, pp. 574-575.

² Alishan : op. cit., p. 55; Chevalier Marie-Anna : op. cit., p. 100.

³ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 179؛

Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 331; Vahram d'Edesse : op. cit., p. 508; Chevalier : op. cit., p. 106.

أ - التحالف مع نور الدين محمود زنكي

وتعود بداية العلاقة بين الأمير مليح ونور الدين محمود زنكي، إلى ما بعد معركة حارم التي جرت في سنة 559هـ/1164م. حيث ساءت العلاقة بين الأمير ثوروس الثاني وأخيه مليح في أواخر حياته، فقد ورد في حولية سمباد، أن مليح دبر مؤامرة لاغتيال أخيه، ولما باءت المحاولة بالفشل، طرده أخوه من الإمارة، فلجأ إلى حلب،¹ وهناك رحب به نور الدين زنكي وأحسن وفادته، ثم أقطعه قلعة خُرُوص² (Cyrrhus). ولم تذكر المصادر سبب محاولة الاغتيال، فربما يعود السبب إلى طمع ثوروس في الانفراد بعرش أرمينيا الصغرى،³ أو ربما كان مليح يتوقع أن تؤول إليه الإمارة بعد وفاة أخيه، أو على الأقل يكون وصيا على ابن أخيه القاصر، فخابت توقعاته.⁴ والراجح أن الأمير ثوروس كان فاقدا للثقة في أخيه مليح لسبب ما،⁵ فأوصى بولاية العهد إلى ابنه الصغير روبين من بعده، وأوكل الوصاية عليه إلى أحد أقربائه،⁶ فآثار بذلك حفيظة أخيه، الذي أدرك بأن عرش الإمارة أصبح بعيد المنال، فحاول أن يصل إليه بطريقته الخاصة.

وبعد وفاة ثوروس الثاني، وعملا بالوصية، فقد نصب نبلاء الأرمن في أرمينيا الصغرى، ابنه روبين أميرا عليهم، باسم روبين الثاني (564-566هـ/1168-1170م)، وهو لم يبلغ سن

¹ Smbat : La chronique attribuée au connétable Smbat, introduction, traduction et notes par Gérard Dédéyan, librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1980. pp. 49-50.

² خُرُوص : مدينة قديمة، تقع على بعد كيلومترات أسفل قلعة الراوندان، عند مصب نهر صابون وغفرين (انظر الخريطة). وحاليا تقع شمال غرب مدينة كِلِس (Kilis)، جنوب تركيا. (انظر : ابن شداد : مصدر سابق، ج 1، ق 2، ص 12؛ Mutfian Claude : La Cilicie, t. I, p. 19).

³ الغامدي علي محمد عودة : سياسة نور الدين محمود العسكرية إزاء الأرمن في قيليقيا 563-569هـ/1168-1147م، بحث منشور في : بحوث تاريخية، بحوث علمية محكمة حصيلة اللقاءين العلميين الأول والثاني، شوال 1409هـ و شوال 1410هـ، إصدار الجمعية التاريخية السعودية، الرياض، 1993/1413. ص 314.

⁴ المدور عثمان : مرجع سابق، ص 230.

⁵ عمران : السياسة الشرقية، ص 319.

⁶ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 179؛ Grousset René : Histoire des Croisades, t. II, pp. 539-540.

الرشد. فتولى الوصاية عليه توماس (Thomas)، وهو من أنطاكية ومن أصل فرنجي،¹ وفضلا عن قرابته العائلية، فقد كان على علاقة قديمة بأبيه.² غير أنه افتقر إلى المقدرة والإدراك، ولم يستطع أن يكيف نفسه بسرعة وسط محيطه الجديد، بسبب أصله اللاتيني، ومذهبه الكاثوليكي.³

وبعد سنة من تولي الأمير الأرمني الجديد شؤون أرمينيا الصغرى، خرج مليح من حلب في سنة 565هـ/1170م، ومعه فرسان نور الدين زنكي، وقام بغزو الأرمن في قيليقيا، "وأجلى ستة عشر ألفا من فتيان وفتيات ورجال ونساء وقسوس ورهبان وأساقفة واستاق الجميع إلى حلب وباعهم ودفع أثمانهم إلى الأتراك"،⁴ ولم يجد توماس الوصي بدا من الهروب إلى أنطاكية، أما النبلاء الأرمن فقد أخذوا الأمير روبين الثاني إلى قلعة الروم،⁵ عساه يجد الحماية فيها عند رئيس الكنيسة الأرمنية. ثم اتفقوا مع مليح على أن يتولى نصف البلاد، وتعهد لهم بالحفاظ على حقوق ابن أخيه الأمير روبين الثاني الوريث الشرعي، ولكنه ما لبث أن نقض هذا العهد وأرسل رجاله يتعقبونه، فاغتالوه، وخلا عرش أرمينيا الصغرى للأمير مليح.⁶

¹ حانجي انطون : مرجع سابق، ص 224؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 2، ص 629؛ اسكندر فايز نجيب : مملكة أرمينية، ص 56.

² Mutfian Claude : L'Arménie du Levant, p. 83.

³ وليم الصوري : في : الموسوعة الشامية، ج 7، ص 361؛ الغامدي علي محمد عودة : مرجع سابق، ص 315.

⁴ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 180.

⁵ قلعة الروم (Hromgala) : قلعة حصينة تقع فوق جبل صخري، في غربي الفرات مقابل البيرة بينها وبين سميساط، بها مقر جثليق الأرمن، ويسمونه بالأرمنية كتاغيكوس (Catholicos)، وقد منحتها له الكونتيسة بياتريس الأرمنية، أرملة جوسلين كونت الرها في سنة 1150م. وفتح المسلمون ما حولها من البلاد، وبقيت القلعة في وسط بلادهم ولم ينتزعوها من الجثليق، لأجل مقام رب الملة عندهم كأهم يتركونها كما يتركون البيع والكنائس في بلاد الاسلام. وما كان فيها من بناء بيزنطي قدم، أكمله جثالقة الأرمن في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، وبقيت قلعة الروم مقرا للجثليق نحو قرن ونصف في ظل السيادة التركية. (انظر : الحموي : مصدر سابق، ج 7، ص 83-84؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 2، ص 530؛

Cahen Claude : La Syrie du Nord, p. 122; Augé Isabelle : Le catholicos arménien pendant la période cilicienne, ds : **Cahiers de civilisation médiévale X^e-XII^e siècles**, n° 52, centre d'études supérieures de civilisation médiévale, université de Potiers, 2009. p. 338.

⁶ عمران : السياسة الشرقية، ص 319؛ الغامدي علي محمد عودة : مرجع سابق، ص 315؛

Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 331; Smbat : op. cit., p. 53.

ولكن أليس من المدهش أن يطلب مليح مساعدة السلطان نور الدين محمود وهو الذي زرع الرعب في قلوب الصليبيين والمسيحيين المتحالفين معهم ؟ ما الذي جعل مليح يذهب إلى حلب، ولم يتجه إلى أنطاكية أو إلى بيزنطة ؟ هل كان مسلما يخفي إسلامه ؟ أم كان يريد الانتقام من أخيه ؟ وما مصلحة نور الدين في قبوله لاجئا ؟ ولماذا منحه قلعة خروص بالذات ؟

للإجابة عن هذه الأسئلة لا بد من البحث في حياة ثوروس الخاصة قبل طرده من أرمينيا الصغرى. وتبرر الدراسات الأرمينية الحديثة موقف مليح، بأنه عاش محروما في طفولته، ثم مر بمرحلة مراهقة مضطربة. حيث تركه والده رهينة عند ريموند بواتيه أمير أنطاكية سابقا، ثم وقع أبوه أسيرا بين يدي يوحنا كومنين، الذي سجنه في القسطنطينية حتى مات هناك. فأمضى مليح نصف حياته وحيدا في قيليقيا، ولم ينل في صغره تربية صحيحة تؤهله لتولي شؤون الإمارة، وظل مهملا، وعاش في حياته متأرجحا مترددا، وتقلب بين الديانات والمذاهب، وانخرط في طائفة فرسان الهيكل، فاكسب منهم شجاعة وجراة، ولكنه أظهر عنادا وغرورا، فطردوه من صفوفهم أو انسحب بإرادته، وتذهب هذه الدراسات إلى القول أنه ارتد عن المسيحية واعتنق الاسلام بعد مغادرته للطائفة.¹

والواقع أن مليح لم يكن مهملا في صغره، ولم يكن وحيدا في قيليقيا، بل قضى شطرا من شبابه لاجئا عند ابن عمته جوسلين الثاني أمير الرها ومرعش، منتقلا بين قصوره هناك. واكتسب من انضمامه إلى صفوف الداوية، تربية عسكرية وروحية قائمة على الانضباط والتفاني في خدمة المسيحية. وشارك معهم في التحالف الصليبي ضد المسلمين في معركة حارم التي جرت وقائعها أربع سنوات قبل وفاة أخيه، وفر بجلده من المعركة بمساعدة قبيلة تركمانية، يقول ابن العديم أنه خالهم.²

ومن ثمة فإن اعتناقه للإسلام أمر غير ثابت، خاصة وأن جميع المصادر العربية والأرمينية والسريانية، واللاتينية، لم تذكر إطلاقا هذه المسألة وتحدثت فقط عن تعاونه مع نور الدين ضد المسيحيين، وهي نفسها التي ذكرت أن فيلاريت مؤسس أول دولة أرمينية في قيليقيا، أنه اعتنق

¹ استراتيجيان : مرجع سابق، ص 214؛ بوعمامة : مرجع سابق، ص 28؛

Alishan : op. cit., p. 55; Pasdermajian : op. cit., p. 205; Chevalier : op. cit., pp. 107-108.

² ابن العديم : زبدة الحلب، ص 347.

الاسلام في الثمانينيات من القرن الحادي عشر، فلماذا تتجاهل مليح لو أصبح مسلماً؟! ورغم أن وليم الصوري وصفه بأقذع الصفات، إلا أنه لم يصرح بأنه اعتنق الاسلام.¹ ويفهم من سياق النص الذي أورده ابن الأثير أن نور الدين وجد معارضة من بعض مستشاريه لما منح قلعة خروص إلى مليح، حيث قال: "فإن نور الدين لما قيل له في معنى استخدامه وإعطائه الاقطاع في بلاد الشام قال أستعين به على قتال أهل ملته"،² ومن دون شك أن المعارضين استندوا إلى عقيدة مليح المسيحية، وما يزيد من تأكيد هذا الرأي أن نور الدين قال أنه يستعين به على أهل ملته، وهذا يثبت أنه كان مسيحياً. أما الذهبي فقد وصفه بالنصراني: "وكان نور الدين قد استخدم مليح بن لاون الأرمني النصراني على بلاد سيس"،³ وهذا لا يدع مجالاً للشك في عقيدته. ومن الأدلة القاطعة على أنه لم يعتنق الاسلام، زواجه بابنة شقيق الجثليق الأرمني نرسييس شنورھالي (Nersês Chnorhali (1166-1173م))، وهو رئيس الكنيسة الأرمنية، والجدير بالملاحظة، أن مليح هو الأمير الوحيد من آل روبين الذي تزوج بأميرة أرمنية، والأمراء الآخرون تزوجوا بأميرات بيزنطيات أو فرنجيات. كما أنه دفن في دير مَتَزْكَار (Mètzk'ar)، الذي أشرف هو على بنائه، وكان ختمه يحمل تمثالاً نصفياً للسيدة مريم.⁴ كل هذا يثبت أن مليح ظل على عقيدته المسيحية، ومن دون شك أن فكرة اعتناقه الاسلام، التي روجت لها كثيراً بعض المراجع الحديثة، تعود إلى تحالفه مع نور الدين محمود، أقوى عاهل مسلم آنذاك، وهو لا يزيد عن كونه تحالفاً سياسياً.

أما عن لجوئه إلى حلب، وليس إلى بيزنطة أو أنطاكية أو بيت المقدس، فلم يرد في المصادر أن مليح كان على علاقة مع نور الدين قبل طرده من إمارة أرمنيا الصغرى، ولذلك يبدو أن الأمر يتعلق برغبة مليح في الانتقام من أخيه ثوروس، الذي كانت تربطه علاقات متينة بالبيزنطيين وبفرسان المعبد،

¹ وليم الصوري: في: الموسوعة الشامية ج 7، ص 361.

² ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 119.

³ الذهبي: مصدر سابق، ج 2، ص 73.

⁴ Vahram Rapoun, op. cit., p. 14; Chevalier: op. cit., p. 107; Mutaftian: L'Arménie du Levant, p. 84.

وبالصليبيين جميعاً، وهؤلاء جميعاً يشتركون في عداوتهم لنور الدين، فأراد مليح أن يستغل هذه العداوة ويستعين به ضد أخيه.

وأحسن نور الدين محمود استغلال هذه الفرصة التي لن تتكرر، لشق جبهة المسيحيين المتحالفين ضد المسلمين، ونجح بسياسته هذه في فصل الأرمن عنهم،¹ مطبقاً سياسة فَرَق تَسُدَّ. وبرر نور الدين سياسته هذه بقوله : "أستعين به على قتال أهل ملته وأريح طائفة من عسكري تكون بإزائه تمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له".² وعلى سبيل المقارنة، إذا كانت سياسة مانويل كومنين في محاربة الأرمن قائمة على ضرب العدو بالعدو، فإن سياسة نور الدين في محاربة الأرمن قائمة على ضرب العدو لنفسه بنفسه.

ولما منحه قلعة خروص بالذات، فإن ذلك يدل عل بعد النظر عند نور الدين محمود، فهذه القلعة تعتبر قاعدة مراقبة متقدمة للدفاع عن حلب، فهي تشرف على شمال إمارة أنطاكية وجنوب إقليم قيليقيا، ولما منحها نور الدين إلى مليح كانت خراباً،³ فعليه أن يصلحها ويرمم أسوارها، ثم يجعل منها محطة إنذار مبكر، في حالة هجوم بيزنطي أو صليبي، على إمارة حلب من جهة الشمال، كما تصلح لتكون قاعدة لمهاجمة أرمينيا الصغرى. والراجح أن نور الدين اشترط شروطاً مقابل مساعدته للمليح،⁴ ربما تضمنت القضاء على النفوذ البيزنطي والصليبي في منطقة قيليقيا، لأنها نقطة الاتصال البرية الوحيدة بين الدولة البيزنطية والإمارات الصليبية في بلاد الشام.⁵ وكان نور الدين يعرف جيداً طبيعة المنطقة التي قدر له أن يتولى إحدى قياداتها المهمة، ويقف على ثغر من ثغورها المتقدمة بمواجهة خطر التحالف الصليبي المائل أمامها.⁶

¹ Cahen Claude : La Syrie du Nord, p. 413.

² ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 119.

³ ابن شداد : مصدر سابق، ج 1، ق 2، ص 115.

⁴ وليم الصوري : في : الموسوعة الشامية ج 7، ص 361.

⁵ الغامدي علي محمد عودة : مرجع سابق، ص 315.

⁶ المزني إبراهيم بن محمد بن حمد : سمات الحكم الزنكي في عهد نور الدين محمود (541-569هـ/1146-1147م)، مجلة جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، ع 22، جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ربيع الثاني 1419هـ. ص 444.

وإذا نجح نور الدين في مساعدة مليح للوصول إلى السلطة، فإنه سيجعل من إمارة أرمينيا الصغرى دولة حاجزة بينه وبين الامبراطورية البيزنطية، تقيه ضرباتها. وكان نور الدين محمود يعرف جيداً ما يقع في شمال بلاده، حيث كان إقليم قيليقيا يتعرض باستمرار لهجمات الأتراك أو الأرمن الذين ينزلون من جبال طوروس، وإذا أراد الامبراطور البيزنطي الذهاب إلى أنطاكية، أو إلى الشام، يجب عليه أن يسيطر على قيليقيا،¹ وحتى تكون الحدود الشمالية للدولة الزنكية آمنة، جعل من الأمير مليح حارساً عليها. وقد أفصح عن ذلك حينما قال لمستشاريه : "وأجعله سداً بيني وبين ملك القسطنطينية".²

ويوضح ابن الأثير سياسة نور الدين هذه التي سلكها مع مليح بأنها خدعة من خدعه التي كان يكثر من استعمالها ضد أعدائه. فهو لا يستطيع أن يسيطر على قيليقيا لمناعتها، بينما كان في مقدور القوى المعادية التي تسيطر على قيليقيا شن الغارات على أعمال حلب والعودة عبر دروب قيليقيا والتحصن بمعاقلها الجبلية، وأمام هذه الحقيقة التي كان نور الدين يعرفها جيداً، لجأ إلى استمالة مليح، حيث قال : "ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن صاحب الدروب، فإنه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفيراً وحضراً، وكان يقاتل به الفرنج، وكان يقول: إنما حملني على استمالاته، أن بلاده حصينة وعرة المسالك، وقلاعه منيعة، وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام، فإذا طُلِبَ انْخَرَجَ فيها فلا يقدر عليه، فلما رأيت الحال هكذا، بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا، وساعدنا على الفرنج".³

¹ Elisséeff Nikita : Nūr Ad-dīn un grand prince musulman de Syrie au temps des croisades (511-569h./1118-1174), Librairie d'Amérique et d'Orient, Damas, 1967. T. II, p. 536.

² الذهبي : مصدر سابق، ج 2، ص 73.

³ ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص 169.

ولكن شمس الدين الذهبي الذي كتب بعد حوالي قرن من ابن الأثير، لم يعتبر ما قام به نور الدين تجاه مليح من جيد الرأي، بل قال : "وَعُدَّتْ هذه من غلطات نور الدين، رحمه الله تعالى".¹ فما الذي حمله على هذا القول ؟ وكيف يمكن تفسير هذا التناقض بين المؤرخين بشأن تصرف نور الدين تجاه مليح ؟

الواقع أن مليح لم يشكل خطرا على الإمارات الإسلامية المجاورة له، حتى يعد ذلك من أخطاء نور الدين محمود، فكانت نزاعاته مع اهل ملته المسيحيين من بيزنطيين وصليبيين كافية لتشغله عن شؤون المسلمين في شمال الشام أو في آسيا الصغرى. وكان نور الدين محمود يدرك هذه الحقيقة ولذلك كان يرسل إليه ما يحتاجه من قوة عسكرية لتثبيت مركزه في قيليقيا، لكي تبقى جبهة الصليبيين مقسمة ومشغولة بقضاياها الداخلية، وهذه من حيل الحرب وكيدها، ومن باب استعانة المسلم بكافر ضد كافر. ولكن الأمراء الأرمن الذين حكموا بعد مليح أعادوا للإمارة قوتها، وتحالفها مع الصليبيين وشكلت خطرا على الإمارات الإسلامية في المنطقة، خاصة في عهد الملك ليون الأول، وهيثوم الأول، وربما هذا ما يشير إليه الذهبي، أي أن خطر أرمينيا الصغرى على المسلمين لم يكن قائما في عهد الأمير مليح أو في عهد نور الدين، ولكن مواقع القوى تغيرت بعد وفاتهما لصالح الأرمن.

ب - محاربة مليح الصليبيين والبيزنطيين

وبعد أن سيطر مليح على دفة الحكم في أرمينيا الصغرى، بدأ نور الدين يجني ثمار استخدامه لهذا الأمير، الذي شرع يضايق الصليبيين وينكل بهم. حيث شرع بصحبة فرسان نور الدين، بطرد فرسان الهيكل، من قلاعهم التي منحهم إياها أخوه ثوروس، وهي تمتد على طول جبال الأمانوس الفاصلة بين إمارة أرمينيا الصغرى في الشمال وإمارتي حلب وأنطاكية في الجنوب. وكان يكن حقدًا دفينا لهذا التنظيم العسكري الديني، الذي سبق له وأن انخرط فيه،² ثم غادره بعد اختلافه معهم،

¹ الذهبي : مصدر سابق، ج 2، ص 73.

² وليم الصوري : في : الموسوعة الشامية ج 7، ص 361؛ مقامي نبيلة ابراهيم : مرجع سابق، ص 132؛

Tournebize F. : op. cit., p. 126.

وكثيراً ما كانت تستخدم تلك القلاع مراكز لمهاجمة المسلمين، وخطوط إمداد للصليبيين، أبرزها قلعة بغراس ذات الموقع الاستراتيجي، وهي تشرف على الطريق الرابط بين قيليقيا وأنطاكية.¹ وبانتزاعه من الداوية، جميع القلاع وبطردهم إلى خارج قيليقيا، يكون مليح قد وجه ضربة قوية للنفوذ الصليبي داخل إمارة أرمينيا الصغرى، وريح الجولة الأولى من المعركة.

وفي سنة 566هـ/1171م، قدم إلى فلسطين عن طريق البحر ستيفن كونت سانكير،² (le comte Étienne de Sancerre ou de Blois,) للزواج بالأميرة سيبلا (Sibylle)، الابنة الكبرى للملك عموري الأول، ولكنه عدل عن رأيه، وقطع المحادثات حول إتمام الزيجة. ثم أراد العودة إلى بلاده براً مع جماعة من فرسانه، قاصدين زيارة أنطاكية والقسطنطينية. ولما بلغ المصيصة في سهل قيليقيا، وقع في كمين نصبه له الأمير مليح، فانقض عليه وأسرته مع أتباعه، وغنم جميع الكنوز الثمينة التي كانت معه. وبعد توسلات مذلة بذلها ستيفن، أطلق مليح سراحه مع بعض مرافقيه، ولم يترك له إلا فرسا هزيعاً لاستخدامه في ما بقي له من طريق إلى القسطنطينية التي بلغها بعد مشقة كبيرة، وتركت هذه الحادثة أسوأ الأثر في نفوس الصليبيين.³

ثم التفت مليح إلى الجبهة البيزنطية في بداية سنة 568هـ/1173م، للقضاء على ما تبقى من نفوذ بيزنطي في قيليقيا، فهاجم آل هيثوم جيرانه الأرمن الذين يعتبرون من أتباع الامبراطورية البيزنطية، في الجهة الغربية من جبال طوروس، وحاصر عاصمتهم لمبرون دون أن يتمكن من اقتحامها.⁴ ثم هاجم الحاميات البيزنطية المرابطة في أذنة وطرسوس والمصيصة، وتمكن من السيطرة عليها.⁵ فأرسل

¹ Elisséeff Nikita : Nūr Ad-dīn un grand prince, t. II, p. 556; Chevalier Marie-Anna : op. cit., pp. 108-110; Mutfian Claude : La Cilicie, t. I, , p. 401.

² ستيفن كونت سانكير أو ستيفن شامبين : هو حفيد المحارب الصليبي كونت بلوا، وأصغر أبناء ثيوبالد الثاني (Thibaut de Champagne) كونت بلوا وشارتر وتروي، ولد حوالي سنة 1130م ويبدو أنه تزوج أكثر من مرة، وكان أرملاً في سنة 1170م، ولكنه كان بالغ الثراء والتجربة. (انظر : رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 2، ص 643، هامش رقم 1).

³ وليم الصوري : في : الموسوعة الشامية ج 7، ص 358؛ الغامدي علي محمد عودة : مرجع سابق، ص 315؛

Cahen Claude : La Syrie du Nord, p. 414.

⁴ Sempad : op. cit., pp. 632-624; Mutfian Claude : L'Arménie du Levant, p. 85.

⁵ Dédéyan Gérard : Le rayonnement de l'Etat arménien de Cilicie, p. 338.

الامبراطور مانويل كومنين قوة عسكرية لاستعادة هذه المدن التي تعتبر أم الثغور، وأرسل نور الدين بدوره قوة عسكرية لمساعدة الأمير مليح، فانهزم البيزنطيون وكثر فيهم القتل والأسر، وانقطع دابرهم في أرمينيا الصغرى، بفضل الإمدادات التي وصلت من حلب. فأرسل مليح إلى نور الدين كثيرا من الغنائم وثلاثين أسيرا من أعيان القوم الذين وقعوا في الأسر، فسير نور الدين بعضهم إلى الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله (566-575هـ/1170-1180م).¹

وبعد أن سيطر الأمير مليح على قلاع الداوية في الأمانوس، وتعرض لستيفن أثناء عبوره قيليقيا، واستعاد من البيزنطيين أذنة وطرسوس والمصيصة، وقويت شوكته، لم يعد في مقدور الصليبيين الانتقال برا من الشام إلى الدولة البيزنطية. وشعر بوهيموند الثالث² (Bohémond III) (1163-1201)) أمير أنطاكية، أن إمارته باتت مهددة، إذ أصبح مليح يشرف عليها من الشمال ويمكنه أن يهاجمها في أي وقت إذا ما أوعز إليه نور الدين بذلك.

ووجد الصليبيون أنفسهم أمام واقع جديد، وهو أن إمارة أرمينيا الصغرى التي كانت برج حراسة للإمارات الصليبية في الشمال، انقلبت عليهم، وأصبحت محطة هجوم ضدهم، ومنبع الخطر الذي يهددهم. وفي الوقت الذي كان فيه صلاح الدين الأيوبي (532-589هـ/1137-1193م)³

¹ ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 119؛ عمران : السياسة الشرقية، ص 320؛ بوعمامة فاطمة، مرجع سابق، ص 28؛

Elisséeff Nikita : Nūr Ad-dīn un grand prince, t. II, p. 536.

² بوهيموند الثالث : أمير أنطاكية (1163-1201)، ابن كونستانس (ابنة ووريثة بوهيموند الثاني)، وزوجها ريموند بواتيه أمير أنطاكية الذي لقي مصرعه في معركة بينه وبين نور الدين محمود زنكي في سنة 1149م. ثم تزوجت برينالد دو شاتيون الذي وقع في أسر نور الدين عام 1160م. كان بوهيموند الثالث آنذاك يبلغ من العمر خمس عشرة سنة، وكانت أمه تريد أن تستأثر بالسلطة لنفسها، فتدخل بلدوين الثالث ملك بيت المقدس وأعلن بوهيموند الثالث أميرا شرعيا، وعهد بالحكومة إلى البطريك اعمرى حتى يبلغ الأمير سن الرشد، الأمر الذي أغضب كونستانس فبادرت إلى الاستنجاد بالامبراطور مانويل كومنين. (انظر :

Mac-Evitt Christopher : **Bohemund III of Antioch (d. 1201)**, in : Crus. Ency., ABC-Clio, California, 2006. p.177).

³ صلاح الدين الأيوبي : هو صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب، مهندس ومنفذ معركة حطين، والخصم الأكبر للصليبيين، ولد في تكريت من أصل كردي، ونشأ في بلاط عماد الدين زنكي، وقضى طفولته في ظل والده في بعلبك، وحفظ القرآن الكريم ودرس الفقه والحديث والمذهب السني. رحل مع أبيه إلى دمشق والتحق ببلاط نور الدين محمود سلطان حلب، رافق عمه أسد الدين شيركوه في الحملات التي أرسلها نور الدين إلى مصر، والتي انتهت بتولي شيركوه الوزارة، وعند وفاته في سنة 565هـ/1169م، خلفه صلاح الدين وعندما وطد سلطته بمصر أنهى حكم الفاطميين، وظل تابعا اسميا للسلطان نور الدين =

يحصروهم من الجنوب الغربي بعد فتحه لمصر، جاءت (خيانة) مليح لتحاصروهم من جهة الشمال الغربي.¹

أمام هذا الواقع، بدأ الصليبيون يتحركون للقضاء على الأمير مليح، الذي "بدا أنه من أسوأ أعدائهم"،² حيث زحف بوهيموند الثالث ومعه بعض الأمراء الصليبيين المجاورين له على أرمينيا الصغرى في ربيع سنة 568هـ/1173م، ولكنه فشل في تحقيق الانتصار. فاستنجد بعموري الأول ملك مملكة بيت المقدس الذي أسرع بقواته لمساعدة أمير أنطاكية،³ فقد كان يرى أن قتال القوات الصليبية للقوات الأرمنية فيه إهدار لهذه القوى التي يجب ادخارها لقتال المسلمين. ولذلك سعى لتحقيق السلام قبل أن يباشر القتال، لعل مليحا يفيق إلى رشده، ويقدر أهمية الوازع الديني. فأرسل إليه وفدا طلب منه الحضور بمفرده لعقد اجتماع معه لتصفية الخلافات وإجراء الصلح بينه وبين أمير أنطاكية. أظهر الأمير مليح سعادة بتلقيه رسالة من الملك، ولكنه ظل يراوغ، ولم يعط إجابة محددة ولا تاريخا معينا لعقد الاجتماع، والراجح أن الأمير مليح أراد كسب الوقت، حتى يتمكن من الاتصال بنور الدين، ووضع خطة مشتركة إزاء تدخل الملك الصليبي. ولما نفذ صبر الملك حشد قواته، وجميع القوات الصليبية في تلك المنطقة، وقام بحملة عسكرية عقابية ضد مليح الذي لجأ إلى إحدى القلاع واعتصم بها. فهاجم أرمينيا الصغرى، متخذاً الطريق الساحلي، حتى لا يسقط في الكمائن التي نصبها

= الذي دخل في خلاف معه. وبعد وفاته أعلن صلاح الدين استقلاله ونصب نفسه سلطاناً على مصر، سنة 569هـ/1174م، ثم ضم الشام والجزيرة، وأصلى الصليبيين نارا حامية، وهزمهم في معركة حطين في سنة 583هـ/1187م. ذاع صيته بين المسيحيين محاربا شهما كريم الخلق حتى مع أعدائه، وسياسيا ماهرا، وقائدا محنكا، ومحباً للعلم ومشجعاً للعلماء. ويوجد جدال بين جماعتي السنة والشيعة حول تقييم الجوانب المختلفة من شخصيته ودوافعه، فأهل السنة يرون أن صدف صلاح الدين ومثاليته أمرا بديهيان لا يقبلان النقاش، فهو الذي وحد العالم الاسلامي وحرر القدس من الصليبيين، وهو مثال للقائد التقى الشجاع المتجرد. أما الشيعة اليوم فيرون صلاح الدين مجرد مغامر عسكري أناني، خان أمته وفرط في ثقة قادته وجنوده، وتصالح مع الصليبيين، وهذأ أركان أعظم الامبراطوريات في التاريخ الاسلامي، وهي الدولة الفاطمية. (انظر : الشنقيطي محمد بن المختار : مرجع سابق، ص 235-272؛ الموسوعة العربية الميسرة : مرجع سابق، 4، ص 2101-2102؛

Richards D.S. : **Salah Al-Din**, in : Enc. Isl., EJ. Brill, Leiden, 1995. pp. vol. VIII, 910-914).

¹ المزني ابراهيم بن محمد : مرجع سابق، ص 450؛ Grousset René : Histoire des Croisades, t. II, p. 540.

² وليم الصوري : في : الموسوعة الشامية ج 7، ص 361.

³ Elisséeff Nikita : Nūr Ad-dīn un grand prince, t. II, p. 556; Payaslian Simon : op. cit., p. 84.

له مליح في الدروب والممرات الضيقة. فأحرقت قواته الحبوب والمحاصيل الزراعية، وحاولوا أن يقتحموا القلاع الواقعة على طريقهم دون جدوى.¹

وأراد نور الدين أن يخفف الضغط على حليفه مليح، فسار بقواته واتجه بها نحو حصن الكرك،² التابع لمملكة بيت المقدس الصليبية، فحاصره ونصب عليه المجانيق،³ و"أحدث هذا النبأ كربا شديدا للملك"،⁴ الذي اضطر إلى ترك أرمينيا الصغرى على حاله، والعودة مع قواته بأقصى سرعة إلى بيت المقدس، خوفا من أن يهاجمها نور الدين. وبذلك انشغل الصليبيون بحصار الكرك، ونجح نور الدين في صرف نظرهم عن مليح في قيليقيا، وتشتيت صفوفهم، ولما تأكد نور الدين من عودة عموري الأول إلى فلسطين، فك الحصار وقفل عائدا إلى بلاده.⁵

وبوفاة نور الدين في 11 شوال 569هـ/14 ماي 1174م،⁶ تحطم التحالف الاسلامي الأرميني، وكان مليح أول من تأثر بذلك، إذ فقد حليفا قويا، طالما ساعده في حروبه ضد الصليبيين والبيزنطيين.⁷ ولم يعد النبلاء الأرمن أو جنده الخاص يخشونه، فثاروا عليه في سنة 570هـ/1175م، ولما حاول اللجوء إلى إحدى القلاع المنيعه، قبضوا عليه وفتكوا به في مدينة سيس، وهو أول أمير أرميني تعرض للاغتيال في سلالة بني روبين،⁸ وتذكر المصادر السريانية أن حراس القلعة "قطعوه إربا إربا وألقوا جثته للكلاب"،⁹ وإن

¹ وليم الصوري : في : الموسوعة الشامية ج 7، ص 362؛ ابن العربي : تاريخ الزمان، ص 183؛ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 2، ص 19؛ اسكندر فايز نجيب : مملكة أرمينية، ص 58؛ عمران : السياسة الشرقية، ص 325؛ الغامدي

علي محمد عودة : مرجع سابق، ص 317. Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 337.

² الكرك : قلعة حصينة جدا في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة والبحر الأحمر، والبيت المقدس، وهي على رأس جبل عالٍ تحيط بها أودية إلا من جهة الرض. (انظر : الحموي : مصدر سبق، ج 7، ص 131).

³ ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص 144.

⁴ وليم الصوري : في : الموسوعة الشامية ج 7، ص 362.

⁵ نفسه؛ ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 106؛ الذهبي : مصدر سابق، ج 2، ص 69؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج

2، ق 2، ص 640؛ Mutfian Claude : L'Arménie du Levant, p. 83.

⁶ ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص 191.

⁷ اسكندر فايز نجيب : مملكة أرمينية، ص 58؛ عطية حسين محمد : مرجع سابق، ص 178.

⁸ Alishan : op. cit., p. 57.

⁹ ابن العربي : تاريخ الزمان، ص 192؛ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 361.

كانت هذه الرواية مبالغ فيها كثيرا ولا يمكن تصديقها، لأن قبره موجود في دير متزكار،¹ فإنها تدل على أن المسيحيين عموما والأرمن خصوصا تبرموا من حكمه، واعتبروه شخصية سلبية شوهت تاريخ أرمينيا الصغرى،² حتى أن بعض المؤرخين الأرمن تجاهلوه إطلاقا في حولياتهم ولم يذكروا اسمه، والأحداث التي اندلعت في عهده، ليس سهوا منهم، بل دليل أنهم ذكروا الأمراء الذين حكموا أرمينيا الصغرى قبله وبعده.³

ولكن المؤرخ الفرنسي روني جروسبيه، بعد أن عدد مساوئ الرجل، اعترف له بالفضل في القضاء على النفوذ البيزنطي في أرمينيا الصغرى، واعتبره محرر البلاد من كل أشكال التبعية.⁴ ويبدو أن مליح هو أكثر الأمراء الأرمن وطنية، فقد استفاد من دروس التاريخ، وتعلم بأن الصليبيين غزاة وهم الذين أذاقوا الأرمن من كأس الهوان، في الرها وفي كيسوم، وفي مرعش، وينظرون بعين الطمع إلى قيليقيا، أما الامبراطورية البيزنطية فما زالت تعتبر أن إقليم قيليقيا جزءاً من أراضيها، وأن الأرمن هراطقة، فرأى أن من مصلحته التحالف مع نورالدين محمود زنكي بغض النظر عن كونه مسلماً.

ومن الأمور التي يمكن استنتاجها من هذا الفصل :

أولاً : استطاع أمراء أرمينيا الصغرى أن يضمنوا الاستمرار لإمارتهم، بفضل تحالفهم وتعاونهم مع الصليبيين، رغم النزاعات التي كانت تندلع بينهم من حين لآخر.

ثانياً : كما كانت أرمينيا الكبرى في العهد العباسي دولة حاجزة بين الامبراطورية البيزنطية والخلافة العباسية، كذلك الأمر بالنسبة لأرمينيا الصغرى، فقد كانت حاجزا بين الامبراطورية البيزنطية والدولتين النورية، والأيوبية في بلاد الشام.

ثالثاً : إن تحالف نور الدين زنكي مع الأمير مليح الأرمني، كان لأغراض سياسية وعسكرية وليس دينية، وكان يمكن لهذا التحالف أن يعطي ثمارا أكثر، لو سار على منواله السلاطين الذين حكموا بعده.

¹ Vahram d'Edesse : op. cit., p. 509, Alishan Léonce : op. cit., p. 57, 217.

² بوعمامة فاطمة، مرجع سابق، ص 28.

³ Vartan le Grand : Extrait de l'histoire universelle, ds. R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} ed., Paris, 1969. p. 485; Guiragos de Kantzag : op. cit., p. 421.

⁴ Grousset René : L'Empire du levant, p. 391.

الفصل السابع

من إمارة إلى مملكة

1 - روين الثالث بن ستيفان (570-583هـ/1175-1187م)

أ - هجوم صلاح الدين الأيوبي على أرمينيا الصغرى

ب - الحرب بين أرمينيا الصغرى وإمارة أنطاكية

2 - ليون الثاني (583-616هـ/1187-1219م)

أ - بين صلاح الدين الأيوبي وليون الثاني

ب - ليون الثاني والحملة الصليبية الثالثة (585هـ/1189م)

ج - التوسع على حساب المسلمين

د - السعي للحصول على التاج الملكي

3 - ملامح التحولات الدينية والثقافية في أرمينيا الصغرى

أ - الكنيسة الأرمنية بين التسامح الاسلامي والتعصب المذهبي المسيحي

ب - علاقة الكنيسة الأرمنية بالكنيسة الكاثوليكية

في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، كان أمراء أرمينيا الصغرى قد تغلبوا على كثير من الصعاب والتحديات التي واجهت إمارتهم، ونجحوا في تثبيت أسسها وسط محيط يناصبهم العداء. فقد عمل الأمير روين الثالث على نحو آثار سياسة عمه الأمير مليح، وعاد للتحالف مع جديد مع الصليبيين، ثم دخل في حرب ضدهم. وخلال الحملة الصليبية الثالثة بذل الأمير ليون الثاني جهداً منقطع النظير، للحصول على التاج الملكي، فنسج خيوط التحالف مع المؤسسة البابوية، ومع بعض الدول الكبرى في أوروبا الغربية، واكتسب بذلك اعتراف القوى الروحية والزمنية بدولته التي تحولت إلى مملكة مسيحية ترعى مصالح الصليبيين بعد انهيار مملكة بيت المقدس في معركة حطين. ولكن القوى الإسلامية المعاصرة، تصدت لهذا المولود الجديد الغريب عن ديارهم، لأنهم أدركوا أنه يعيش بفضل الروح التي نفختها فيه الكنيسة الكاثوليكية الحاقدة على الإسلام والمسلمين، وهي التي دفعت بحشود الصليبيين إلى أرضهم قبل قرن من الزمان.

يتعرض هذا الفصل إلى تفاصيل تلك الأحداث، بدءاً بظروف تولي ليون الثاني السلطة في إمارته، وكيف تعاطى مع أحداث الحملة الصليبية الثالثة، واستغلالها لتنفيذ مآربه، وعلاقته بصلاح الدين الأيوبي الذي ارتاع لاقترب جنود هذه الحملة من بلاده. ثم المساعي الدبلوماسية التي بذلها ليون الثاني لتتويجه ملكاً على أرمينيا الصغرى. وينتهي الفصل بالبحث عن مظاهر الصراع المسيحي المذهبي وكيف أدى ذلك إلى استقلال الكنيسة الأرمنية عن الكنائس الأخرى، ثم التعرض في الأخير إلى أهم مظاهر التحولات الاجتماعية والثقافية، التي مست أرمينيا الصغرى بعد عقود طويلة من احتكاكها بشعوب واجناس تختلف عنها في الأصول والانتماء الحضاري.

1 - روبين الثالث بن ستيفان (570-583هـ/1175-1187م)

هو ابن ستيفان أخ ثوروس الثاني ومليح، كان مقيما عند أخواله مع أخيه الأصغر ليون منذ أن استولى عمه مليح على السلطة. وبعد اغتياله أرسل النبلاء الأرمن إلى روبين ليخلف عمه ويجلس على عرش أجداده. فنصبوه أميرا على أرمينيا الصغرى باسم روبين الثالث، مما جعل المؤرخ كلود موتافيان يطرح احتمال ضلوعه في المؤامرة التي أودت بحياة عمه الأمير مليح.¹ وبعد أن تولى شؤون الإمارة، غير روبين الثالث سياسة إمارة أرمينيا الصغرى، واتبع خطا مخالفا تماما لما كان عليه سلفه. وعلى حد تعبير بعض المؤرخين، انصرف الأمير الجديد إلى إزالة الآثار السيئة ومداواة الجراح التي سببها الأمير مليح بالنسبة للأرمن.² ومن مظاهر هذا التحول أنه أعاد ربط العلاقات مع فرسان المعبد، وسمح لهم باستعادة قلاعهم في جبال الأمانوس.³ وتحالف مع الصليبيين وشارك معهم في حصار حصن حارم في سنة 573هـ/1177م،⁴ وازدادت علاقته متانة بهم بعد زيارته لبيت المقدس، وزواجه في سنة 577هـ/1181م، بأميرة فرنجية هي ايزابيلا (Isabelle)، ابنة أمير الكرك.⁵ وأظهر خلال مدة حكمه أنه حليف مخلص للفرنج. كما اهتم بالجالية الأرمنية خارج أرمينيا الصغرى، حيث أرسل سفارة إلى مصر، للمطالبة بإعادة فتح كنيسةين أرمينيتين، كان قد وهبهما بدر الجمالي للأرمن في وقت سابق، ولم تحقق هذه السفارة هدفها بسبب معارضة أحد الفقهاء في مصر.⁶ واهتم بالعمران والمدن، وبناء الكنائس، والأديرة،⁷ وسعى لجعل من إمارة أرمينيا الصغرى دولة قوية.⁸

¹ Smbat : op. cit., p. 55; Alishan : op. cit., p. 57; Mutaftian Claude : L'Arménie du Levant, p. 87.

² استراتيجيان : مرجع سابق، ص 215؛ المدور عثمان : مرجع سابق، ص 230.

³ Chevalier Marie-Anna : op. cit., p. 111.

⁴ ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 142-143؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 376؛

Michel Le Syrien : op. cit., t. III, pp. 375-376.

⁵ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 2، ص 681؛

Vahram Rapoun : op. cit., p. 14; Sempad : op. cit., p. 627

⁶ أبو صالح الأرمني : مصدر سابق، ص 7-8؛ عطية حسين محمد : مرجع سابق، ص 178.

⁷ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 29؛ Pasdermadjian : op. cit., p. 206.

⁸ Grousset René : Histoire des Croisades, t. II, p. 649.

أ - هجوم صلاح الدين الأيوبي على أرمينيا الصغرى

لقد شاءت الظروف أن يتم تنصيب روين الثالث أميرا على إمارة أرمينيا الصغرى، في وقت فقدت فيه الامبراطورية البيزنطية هيبتها بعد الهزيمة القاسية التي تلقتها على أيدي قوات سلطنة سلاجقة الروم في معركة ميريو كيفالون¹ (Myrioképhalon) في سنة 572هـ/1176م.² وخلال الأعوام التالية لم يعد الجيش البيزنطي في وضع يسمح له بشن الهجوم على قيليقيا، وذلك بسبب الخسائر التي تكبدها، وانشغاله بالدفاع عن الحدود البيزنطية ضد السلاجقة، مما أدى إلى زوال طموح بيزنطة للسيطرة على الأناضول أو أرمينيا الصغرى من جديد.³ وبقدر ما حزن البيزنطيون، هلك الأرمن لهزيمة بيزنطة، لأنهم كانوا يدركون بأن إمارتهم ستكون الضحية القادمة في حالة انتصار الامبراطورية البيزنطية على السلاجقة، ولكن الامبراطور مانويل كومنين مازال يعلق آمالا على الطابور الخامس المتمثل في آل هيثوم في مرتفعات أرمينيا الغربية.⁴

وإذا كانت إمارة أرمينيا الصغرى في عهد روين الثالث قد تخلصت من أطماع الامبراطورية البيزنطية نهائيا، فإنها وجدت نفسها معرضة لتهديدات جديدة من جيرانها الثلاثة : إمارة أنطاكية التي كان على رأسها بوهيموند الثالث، وسلطنة سلاجقة الروم التي آل عرشها إلى السلطان قلعج أرسلان الثاني، والدولة الأيوبية التي وضع أسسها صلاح الدين الأيوبي بعد وفاة نور الدين محمود زنكي.

¹ ميريو كيفالون : هو اسم الحصن حرب يقع في نهاية ممر تزيترت (Tzivritze)، شمال بحيرة أجردير (Eğirdir) وسط جبال السلطان في غرب آسيا الصغرى (حاليا في تركيا). ونسبت المعركة إلى هذا الحصن، حيث تلقت قوات مانويل كومنين هزيمة قاسية على أيدي سلاجقة الروم. (انظر :

Rosemary Morris : **Myriokephalon, Battle (1176)**, in : Crus. Ency., ABC-Clio, California, 2006. pp. 861-862).

² حول معركة ميريو كيفالون، (انظر : وليم الصوري : في : الموسوعة الشامية ج 7، ص 393؛ ابن العري : تاريخ الزمان، ص 192-193؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 2، ص 665-668؛ عمران : السياسة الشرقية، ص 330-353؛ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، 179-193؛ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 369.

³ عطا زبيدة : مرجع سابق، ص 102؛ قمعون عاشوري : مرجع سابق، ص 338؛

Dédéyan Gérard : Le rayonnement de l'Etat arménien de Cilicie, p. 338.

⁴ Mutaflan Claude : La Cilicie, t. I, p. 403.

وصادف في سنة 576هـ/1180م، أن فتك روبين الثالث بمجموعة من الرعاة التركمان كانوا يرعون ماشيتهم في بلاده، بعد أن منحهم الأمان، وسمح لهم بالإقامة في أرضه، "كان قد استمال قوما من التركمان وبذل لهم الأموال فأمرهم أن يرعوا مواشيهم في بلاده وهي بلاد حصينة كلها حصون منيعة والدخول إليها صعب لأنها مضائق وجبال وعرة ثم غدر بهم وسبى حريمهم وأخذ أموالهم وأسر رجالهم بعد أن قتل منهم من حان أجله".¹

وفي هذه الأثناء توجه صلاح الدين الأيوبي إلى الأناضول على رأس قوة عسكرية، ليس لمحاربة الأمير الأرمني، ولكن لوقف قلج أرسلان الثاني عند حده، بسبب مشكلة عائلية.² فعقد السلطان الأيوبي مجلسا للصلح انتهى برأب الصدع، والإصلاح بين المتخاصمين في 10 جمادى الأولى 576هـ/1 أكتوبر 1180م. ويبدو أن قلج أرسلان الثاني أثناء إقامته في المعسكر الأيوبي، قد لاحظ شدة بأس صلاح الدين، وكثرة سلاحه ودوابه، فالتمس منه على هامش المباحثات التي جرت بينهما، مساعدته على الانتقام من روبين الثالث، الذي اعتدى على رعاياه التركمان.³

¹ ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 151.

² المشكلة العائلية بين عز الدين قلج أرسلان الثاني الذي زوّج ابنته سلجوق خاتون بنور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، ومنحه عددا من الحصون التي تجاور بلاده، كمهر. وبعد مدة وقع نور الدين محمد في غرام فتاة تتهن الغناء والرقص، فتزوجها، ومال إليها وحكمت بلاده وخزائنه، واعرض عن زوجته السلجوقية وتركها نسيا منسيا. فكتبت إلى أبيها تشكوه، فطلب منه أن يحسن عشرتها أو يفارقها، فلم يلتفت إليه، عند ذلك، قرر قلج أرسلان الثاني استخدام القوة العسكرية ضد صهره لتأديبه، وضمّ بلاده، فاستجار هذا الأخير بصلاح الدين الأيوبي، وترددت الرسل بينه وبين قلج أرسلان الثاني دون أن تسفر عن نتيجة، فاضطر صلاح الدين الأيوبي إلى التوجه على رأس قوة عسكرية إلى الأناضول، والتحق به نور الدين محمد، فتقدم إلى تل باشر، ثم عرج على رعبان. ولما بلغت أنباء هذا التقدم مسامع قلج أرسلان الثاني، تهيّب الموقف، فأرسل إليه أحد كبار أمرائه، ليشرح له القضية، وأنه لا بد من تأديب نور الدين محمد على تصرفه. وكادت أن تندلع الحرب، بعدما هدد صلاح الدين بالزحف على ملطية وبقية بلاد السلاجقة. وانتهت المشكلة في الأخير باقتناع بإصلاح ذات البين وعقد صلح تضمن مجموعة من الشروط. (انظر : ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 150-151؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 2، ص 680؛ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 200-201؛ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 388).

³ ابن شداد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف (ت 632هـ/1239م)) : النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، ط 2، القاهرة، 1994. ص 98؛ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 201.

وأثناء عودته إلى الشام، هاجم صلاح الدين إمارة أرمينيا الصغرى،¹ فأسر عدداً من الأرمن، واستولى في جبال الأمانوس على أحد حصونهم المنيع بما فيه من ذخيرة وأقوات. وخشي روبين الثالث أن يقوم صلاح الدين باكتساح بلاده، فجنح إلى التفاوض وعدم المقاومة، "وخاف الأرمني ودخل الرعب قلبه فأرسل بإطلاق الأسارى مدعنا وبذل من مجهوده في الاسترضاء والاستعطاف ما كان ممكناً"،² فاقترح على السلطان الأيوبي مبلغاً من المال، وإطلاق ما عنده من الأسرى، فلم يرض السلطان بما أعطاه، فزاد الأمير الأرميني في المبلغ، وأنه يشتري خمسمائة أسير مسلم من الصليبيين ويعتقهم، فوافق السلطان، وأخذ منه رهينة على ذلك، فأذعن روبين الثالث، وأطلق ما بيده من الأسرى،³ وعاد صلاح الدين إلى دمشق وتبارى الشعراء في مدحه.⁴ ومن حسن حظ روبين الثالث أن إمارة أرمينيا الصغرى لم تكن آنذاك من أولويات صلاح الدين الأيوبي.

ب - الحرب بين أرمينيا الصغرى وإمارة أنطاكية

غير أن الخطر الأكبر الذي واجهه الأمير روبين الثالث خلال فترة حكمه لم يكن من جانب المسلمين، بل كان مصدره إمارة أنطاكية الصليبية المجاورة لإمارته. إذ ما لبثت العلاقات بينه وبين بوهيموند الثالث أن دخلت في دور من العداء المتبادل، رغم ما كان بين أمراء إمارة أرمينيا الصغرى وأمراء الإمارات الصليبية في الشام من تحالف وعلاقات مصاهرة. وتعود بدايات هذا التوتر إلى سنة 578هـ/1182م، إذ قرر روبين الثالث إزالة ما بقي من مظاهر السيادة البيزنطية في قيليقيا، فضرب

¹ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 196.

² البنداري (الفتح بن علي) : سنا البرق الشامي 562هـ/1166م : 583هـ/1187م، إختصار الفتح بن علي البنداري، من كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب الأصفهاني، تحقيق فتحية النراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1979. ص 177.

³ أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي (ت 665هـ)) : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002. ج 3-4، ص 37.

⁴ كان الجمال الواسطي أبو غالب محمد بن سلطان بن الخطاب المقرئ شاهدا على هذه الغزوة، فنظم قصيدة منها :

أَزَزْتُ ابْنَ لَاحُونَ لَأَوْاءَهُ فَأُضْحِي بِهِ خَبِيراً عَنْ عِيَانِ
وَدَانَ مِنَ الدُّلِّ لَا يَرْعَوِي حِذَاراً مِنَ الرَّاعِفَاتِ الدُّدَانِ
فَلَا قَدَّمَ عِنْدَهُ لِلشَّبَاتِ وَلَيْسَ لَهُ بِسُطَّاكُم يَدَانِ

(انظر : أبو شامة، مصدر سابق، ج 3-4، ص 37-38).

حصاراً على قلعة لمبرون،¹ عاصمة آل هيثوم، وهم عملاء الدولة البيزنطية وظلها في قيليقيا الغربية. وصمدت القلعة نظراً لخصائنها وموقعها في قمة الجبل، وعجز روبين الثالث عن تحقيق انتصار حاسم على خصمه، ولكنه ظل يضايقه، ويهاجمه من حين لآخر. ولم يكن بإمكان الأمير هيثوم حاكم لمبرون التماس المساعدة من الامبراطورية البيزنطية، لأنها كانت تعاني من التدهور والضعف والانهيار بعد وفاة الامبراطور مانويل كومنين.² فاستجار بوهيموند الثالث أمير أنطاكية، الذي يعتبر نفسه نائباً للسلطة البيزنطية العاجزة في أرمينيا،³ وظل يلح عليه لكسر شوكة روبين الثالث. فلجأ بوهيموند إلى الحيلة والغدر، حيث وجه دعوة في سنة 581هـ/1185م، إلى الأمير الأرمني ليقابله في أنطاكية والبحث عن حلول لتسوية المشكلة بطريقة ودية، وإبرام الصلح، فأجاب روبين الثالث الدعوة، ولكن بوهيموند الثالث قبض عليه وسجنه.⁴ والواقع أن أسباب حقد بوهيموند الثالث عليه، لا تعود إلى حصار لمبرون فقط، بل لأنه استقبل في إمارته معظم البارونات ورجال الدين الذين طردهم بوهيموند الثالث من أنطاكية، بسبب مواقفهم المعارضة لتصرفاته السياسية والأخلاقية المسيئة للأدب والدين، ولا تليق به كأمر على مدينة لها قدسيته الدينية عند المسيحيين، مما أدى إلى صدور قرار عقوبة الحرمان الكنسي ضده.⁵

واستغل بوهيموند الثالث فرصة وجود الأمير روبين الثالث في السجن، وراح يهاجم إمارة أرمينيا الصغرى لبسط سيادته على سهل قيليقيا.⁶ ولما بلغت هذه الأنباء أسماع أخية ليون، بادر بحشد قوة عسكرية وتصدى له، ثم توجه على رأس قواته لمحاصرة لمبرون، وأرغم أميرها على التوسط عند صديقه

¹ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 29؛ Vahram d'Edesse : op. cit., p. 509.

² ربيع حسنين محمد : مرجع سابق، ص 232؛

Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 381; Vasiliev : op. cit., t. II, p. 75.

³ عطية حسين محمد : مرجع سابق، ص 204.

⁴ يذكر سمباد في حويلته أن روبين الثالث ذهب إلى أنطاكية للمتعة والتسلية، واستغل بوهيموند الثالث هذه الفرصة فقبض عليه وسجنه. (انظر : Sempad : op. cit., p. 628, Vahram Rapoun : op. cit., p. 14).

⁵ وليم الصوري : في : الموسوعة الشامية ج 7، ص 439-443؛ عطية حسين محمد : مرجع سابق، ص 197-200؛

Mutafian Claude : L'Arménie du Levant, p. 89.

⁶ عطية حسين محمد : مرجع سابق، ص 204؛ Vahram d'Edesse : op. cit., p. 510.

أمير أنطاكية لاطلاق سراح شقيقه. واستجاب أمير أنطاكية، فأحلى سبيل روبين الثالث مقابل فدية، وتنازله عن مدينتي المصيصة وأذنة، ومواقع أخرى، ولكن الأمير الأرمني أعلن الحرب على إمارة أنطاكية حتى تمكن من استعادة المدينتين.¹

بعد هذه الأحداث بقليل، اعتزل روبين الثالث السلطة والسياسة، وتنازل عن العرش لأخيه الأمير ليون (Léon)، ثم أوصاه بالسهر على تربية ابنتيه، وأن لا يزوجهما بأي أجنبي. ويبدو أنه تاب أو ندم عما اقترفه، حيث اعتذر لآل هيثوم عما ألحقه بهم وببلادهم من أضرار، ولبس المسوح، ثم دخل الدير وتنسك، وأمضى فيه بقية حياته. ولما توفي في 26 صفر 583هـ/6 ماي سنة 1187م، دفن في دير ترازارك (Trazargue).²

2 - ليون الثاني (583-616هـ/1187-1219م)

هو الأمير والملك الأكثر شهرة في تاريخ أرمينيا الصغرى، في عهده بلغت الإمارة أقصى اتساع لها، وعرفت استقرارا سياسيا وازدهارا اقتصاديا وثقافيا، وجعل من مدينة سبب عاصمة جديدة لإمارته، وأقام علاقات سياسية مع عدة قوى معاصرة له، إسلامية ومسيحية. وكان له أثر كبير في تغيير مستقبل الشعب الأرمني وبعثه من جديد.³ وكان طموحا إلى أعلى درجات المجد،⁴ وأصبحت أرمينيا الصغرى تعرف في المصادر العربية باسم بلاد ابن لاون، ولاون هنا تحريف للفظ ليون أو ليو، أول ملوك أرمينيا الصغرى.⁵

جلس ليون الثاني على عرش أرمينيا الصغرى قبيل وفاة أخيه روبين الثالث، وعمره ثماني وثلاثين سنة، ورغم أنه ورث عن سلفه نفس الأوضاع السياسية والعسكرية المضطربة، فقد أخرج إمارته من

¹ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 206؛ المدور عثمان : مرجع سابق، ص 231؛ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, pp. 396-397; Pasdermajian : op. cit., pp. 205-206; Cahen Claude : La Syrie du Nord, p. 424.

² خانجي أنطون : مرجع سابق، ص 229؛ استراتيجيان : مرجع سابق، ص 216؛

Smbat : op. cit., p. 58; Alishan : op. cit., pp. 58-59.

³ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 30.

⁴ استراتيجيان : مرجع سابق، ص 218.

⁵ عاشور سعيد عبد الفتاح، بحوث ودراسات، ص 239.

عنق الزجاجية، وأظهر مهارة فائقة في الاحتفاظ بها، وجعل منها مملكة تقف في مصاف الدول الكبرى رغم صغر مساحتها وحدثة نشأتها. حيث كانت ثلاث قوى كبرى تحيط بإمارة أرمينيا الصغرى، هي سلطنة سلاجقة الروم في الشمال، والدولة الأيوبية، وإمارة أنطاكية الصليبية في الشرق والجنوب الشرقي،¹ فضلا عن جحافل الحملة الصليبية الثالثة التي مرت ببلاده. فكيف تمكن ليون الثاني من الاحتفاظ بإمارته وسط تلك العواصف السياسية والتيارات الحضارية المتضاربة ؟

أ - بين صلاح الدين الأيوبي وليون الثاني

وصادف أنه في الوقت الذي استلم فيه ليون الثاني شؤون الحكم، برز خطر جديد شكل تهديدا لإمارتي أرمينيا الصغرى وأنطاكية معا. حيث حشد رجل تركماني من الرعاة يقال له رستم خمسة آلاف فارس وعدد ضخم من المشاة،² جاء بهم من أعالي الجزيرة، واجتاحوا الأراضي الإسلامية والمسيحية على السواء، ولم يتصد لهم قلع أرسلان الثاني لما مروا ببلاده، بسبب انشغاله بتمرد أبنائه ضده. فأغاروا على جنوب أرمينيا الصغرى وبلغوا مدينة سيس، وشمال إمارة أنطاكية واللاذقية، وكانوا ينهبون ويخربون ويحرقون المناطق التي يمرون بها وأسروا عددا كبيرا من الناس.³ وقد دفعت هذه الغزوات إلى تعاون بين إمارتي أنطاكية وأرمينيا الصغرى وأحدثت تقاربا بينهما لمواجهة الخطر المشترك حيث تصدى لهم ليون الثاني في نواحي مرعش، فقضى على قائدهم وكثير من أتباعه.⁴ وفي نواحي أنطاكية برز إليهم بوهيموند الثالث وسحق كثيرا منهم.⁵

ولا شك أن هذا التقارب بين الإماراتين المسيحتين، قد منحهما قوة، مما أثار مخاوف صلاح الدين الأيوبي الذي كان يعد العدة لفتح بيت المقدس. فبعث ببعض قواته قبيل معركة حطين إلى

¹ انظر الملحق الرابع عشر، ص 487.

² ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 213.

³ ابن شداد (بهاء الدين) : مصدر سابق، ص 120؛ ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 170-171؛

Michel Le Syrien : op. cit., t. III, pp. 400-402

⁴ Alishan Leonce M. : Léon le magnifique premier roi de Sissouan ou de l'Arménocilie, traduit par Georges Bayan, Imprimerie Mekhithariste, Venise, 1888. p. 83.

⁵ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 212-213؛ Smbat : op. cit., p. 64؛ Vahram d'Edesse : op. cit., pp. 510-511؛

شمال الشام، وربضت على الحدود مع أرمينيا الصغرى وأنطاكية، لمراقبة تحركات ليون الثاني وبوهيموند الثالث، و"ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهملاً".¹ فوضع ليون الثاني قواته في حالة استنفار وتأهب خوفاً من هجوم مباغت تقوم به تلك القوات على إمارة أرمينيا الصغرى. وبذلك كبّله صلاح الدين فوق جبال طوروس الشاخنة، ونجح في عزله عن الأحداث الجارية في المنطقة. وترتب عن ذلك حرمان الصليبيين في فلسطين من مساعدة الأرمن لهم ضد صلاح الدين الأيوبي.²

وبعد هذه الأحداث بقليل، سقطت مملكة بيت المقدس الصليبية في معركة حطين الشهيرة،³ بتاريخ 25 ربيع الثاني 583هـ/3 جويلية 1187م، وبعد ما يقارب مدة قرن من سيطرة الصليبيين عليها، حل الهلال محل الصليب. ثم شرع صلاح الدين الأيوبي في فتح الحصون والقلاع التي طالما أغارت على بلاد المسلمين، بعضها فتح عنوة وأخرى صلحا، "وفتح أيضا جميع إقليم أنطاكية ومعاقلها التي للفرنج والأرمن، وحده من أقصى جبلة واللاذقية إلى بلاد ابن لاون، وبقيت أنطاكية بمفردها".⁴ وكان حصن بغراس من أهمها، فهو يحتل موقعا فريدا يجعله يتحكم في الطريق بين أنطاكية وإمارة أرمينيا الصغرى، وبعد ما تسلمه المسلمون بما فيه من ذخائر وأموال وسلاح، أمر صلاح الدين بتخريبه. وينتقد ابن الأثير هذا التصرف، لما ترتب عنه من ضرر كبير على المسلمين، لأن "ابن ليون صاحب الأرمن خرج إليه من ولايته وهو مجاوره، فجدد عمارته وأتقنه وجعل فيه جماعة من عسكره

¹ ابن شداد (بهاء الدين) : مصدر سابق، ص 125.

² عطية حسين محمد : مرجع سابق، ص 206؛ Cahen : La Syrie du Nord, p. 426; Sempad : op. cit., p. 630.

³ البنداري : مصدر سابق، ص 295.

⁴ أبو شامة : مصدر سابق، ج 4، ص 34.

يغيرون منه على البلاد فتأذى بهم السواد الذي في حلب وهو إلى الآن بأيديهم".¹ ويبدو أن صلاح الدين كان يريد الدخول إلى قيليقيا، ولكن أحداثا طرأت جعلته يتخلى عن هذه الفكرة إلى حين.²

والجدير بالذكر أن تصدع المعسكر الشيعي بانضمام مصر للمعسكر السني كان له أبلغ الأثر في بداية العد التنازلي لإزالة المستوطنات الصليبية الدخيلة على المشرق الاسلامي، وكان هذا من حسنات صلاح الدين الأيوبي الذي أحيا موات أمة خامدة هامدة، وامتد ذلك الإحياء حتى وصل الزوايا المعتمدة التي احتواها العدو الصليبي. وكانت بداية الإحياء بمعركة حطين التي كانت زلزلا شديدا هدم معظم ما شيده الصليبيون في الشرق منذ قرن، ولم يتبق لهم إلا بعض المراكز في بلاد الشام، التي غدت سماؤها ملبدة بالغيوم المنذرة بأوخم العواقب على الوجود الصليبي فيها.

وكان من الطبيعي أن تحدث هذه الأنباء رد فعل عنيف وسريع في الغرب الأوربي، "وقامت قيامتهم على ذهاب القدس منهم"،³ فتحركت البابوية، ودعت ملوك الغرب إلى وضع حد لخلافاتهم ونزاعاتهم، والإسراع لنجدة المسيحيين في الشرق، وإنقاذ الإمارات الصليبية التي أوشكت على الانهيار التام أمام الجبهة الاسلامية المتحدة التي قامت آنذاك.

وكانت البابوية تدرك أهمية العنصر الأرمني في معركتها ضد الإسلام، ولم تنس ما قدمه الأرمن من مساعدات للحملة الصليبية الأولى، فأرسل البابا كليمنت الثالث (Clément III) (1187-1191) في 11 ربيع الثاني 585هـ/28 ماي 1189م، خطابا إلى الأمير ليون الثاني، وخطابين إلى الجليلي جريجوار الرابع،⁴ طلب فيها من الأرمن الاستعداد لمساعدة الصليبيين لاستعادة بيت

¹ ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 195. ويرى بعض المؤرخين أن ابن الأثير -حليف البيت الزنكي- يتحامل على صلاح الدين، فهو يرى أن صلاح الدين كان يعتقد أن نور الدين زنكي متى زال الفرنج عن طريقه، أخذ البلاد منه فكان يحتمي بهم عليه، ولا يؤثر استئصالهم. ويرى آخرون أن ابن الأثير كان ولاؤه الأول لمدينته الموصل وتحيزه لها ضد المدن والمناطق الأخرى كان - على ما يبدو- من أسباب أحكامه السلبية على سيرة صلاح الدين وسياساته. (انظر : عوض محمد مؤنس : مرجع سابق، ص 220؛ الشنقيطي محمد بن المختار : مرجع سابق، ص 237؛ Chevalier Marie-Anna : op. cit., p. 127-130).

² Alishan Leonce M. : Léon le magnifique, p. 94.

³ الذهبي : مصدر سابق، ج 2، ص 92.

⁴ انظر نص الخطاب كاملا في السادس، ص 474-476.

المقدس.¹ وبناء على هذه التحركات تأسس حلف صليبي جديد، شاركت فيه ثلاث دول أوربية كبرى، تجهزت للقيام بحملة مشتركة ضد المسلمين في الشرق، وهو ما عرف بالحملة الصليبية الثالثة.

ب - ليون الثاني والحملة الصليبية الثالثة (585هـ/1189م)

شارك في الحملة الصليبية الثالثة الامبراطور الألماني فردريك بارباروسا (Frédéric Barberousse 1152-1190م)، وفيليب الثاني أغسطس (Philippe II Auguste 1180-1223م) ملك فرنسا، وريتشارد الأول قلب الأسد (Richard I Cœur de Lion 1189-1199م) ملك إنجلترا، وهم أقوى أباطرة وملوك عصرهم في الغرب الأوروبي.² وقد اختار ملكا فرنسا وإنجلترا الطريق البحري المؤدي مباشرة إلى فلسطين. بينما سلك الامبراطور الألماني طريق البر، الذي يمر عبر القسطنطينية، وبلاد سلطنة سلاجقة الروم، ثم إمارة أرمينيا الصغرى، وكان هو أول من أسرع إلى المسير، إذ غادر بلاده في ربيع الثاني 585هـ/ماي 1189م، ومعه عدة عظيمة،³ "قصد العبور إلى بلاد الإسلام، وقطع بلاد الروم والأرمن إلى الشام".⁴ وبعد أن تعرض فردريك ببروسا لبعض المتاعب في أراضي الامبراطورية البيزنطية، وفي بلاد سلاجقة الروم، ونزل ضيفا عند السلطان قلعج أرسلان الثاني وطمأنه بقوله : "ما قصدنا بلادك ولا أردناها وإنما قصدنا البيت المقدس".⁵

وفي قونية تم تبادل السفارات بين الامبراطور الألماني، والأمير الأرمني الذي أراد استغلال هذه الحملة لتحقيق حلمه، حيث كان يتطلع إلى التاج ليكون ملكا متوجا يتمتع بما للملوك من مكانة

¹ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 63؛

Alishan : Léon le magnifique, p. 162-163; Mutaftian Claude : L'Arménie du Levant, p. 93-94.

² عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية ج 2، ص 116-117؛

Grousset René : Histoire des Croisades, t. III, pp. 53-54.

³ ابن شداد (بهاء الدين) : مصدر سابق، ص 178؛ Grousset René : Les Croisades, p. 56.

⁴ أبو شامة : مصدر سابق، ج 4، ص 66.

⁵ ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 207. كانت أولوية السلطان قلعج أرسلان الثاني مواجهة البيزنطيين لا الصليبيين، وقد ظل موقفه من الصليبيين متذبذبا، وقد غضب صلاح الدين الأيوبي من هذا الموقف واعتبره تواطؤاً وخيانة. (انظر : الشنقيطي محمد بن المختار : مرجع سابق، ص 66).

وهيبة، "فأعرب له عن خضوعه وطاعته"،¹ ووعدته الامبراطور فردريك ببروسا بإعطائه التاج وتنصيبه ملكا على أرمينيا الصغرى.² ثم قاد قواته وعبر دروب جبال طوروس دون أن يصادف مقاومة، وكلما اقترب من قيليقيا زاد إحساس ليون الثاني بقرب تحقيق حلمه. ولما بلغ أرمينيا الصغرى، خرج حكام القلاع والحصون الأرمينية التي مر بها الجنود الألمان، ورحبوا بهم، واقترحوا عليهم المساعدة.³ وبعد أن تحدث ابن الأثير عن وصول فردريك ببروسا إلى بلاد الأرمن، أورد عبارة تدل على أن ليون الثاني أعلن تبعيته للإمبراطور الألماني ودخل في خدمته، "حتى أتى بلاد الأرمن وصاحبها لافون بن اصطفانة بن ليون فأمدهم بالأقوات والعلوفات وحكمهم في بلاده وأظهر الطاعة لهم".⁴ أما المسلمون في الشام فقد أصابهم الهلع لاقترب القوات الألمانية من بلادهم، واستولى اليأس على عامتهم.⁵ "واشتد ذلك على السلطان وعظم عليه"،⁶ فبادر صلاح الدين الأيوبي إلى إعلان الدعوة للجهاد، وشرع يعد العدة للمواجهة.⁷

ولما اقترب فردريك ببروسا من مدينة سلوقية التي كانت بأيدي الأرمن، تجهز لعبور نهر كاليكادنوس⁸ (Calycadnus)، لكي يدخل المدينة، ولكنه توفي فجأة بعد أن تآقت نفسه للسباحة في النهر، في 4 جمادى الأولى 586هـ/10 جوان 1190م.⁹ ومات معه مشروع استعادة

¹ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 218.

² عاشور سعيد عبد الفتاح، بحوث ودراسات، ص 236؛ Vartan : op. cit., pp. 440-441.

³ Mutfian Claude : L'Arménie du Levant, p. 94.

⁴ ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 207.

⁵ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 421.

⁶ ابن شداد (بهاء الدين) : مصدر سابق، ص 178.

⁷ نفسه.

⁸ كاليكادنوس : يعرف أيضا باسم نهر السلف (Saleph)، وهو أطول نهر في سهل قيليقيا، يقع حاليا في جنوب تركيا ويعرف باسم نهر جوكسو (Göksu)، وهذا النهر يقع قرب مدينة سلوقية، وليس مدينة طرسوس كما ورد في كثير من المصادر العربية، ونقلتها عنها المراجع الحديثة. (انظر : ابن شداد (بهاء الدين) : مصدر سابق، ص 190؛

Alishan : Sissouan, : pp. 12-13; Mutfian Claude : La Cilicie, t. I, , p. 15.

⁹ تتضارب المعلومات الواردة في المصادر والمراجع حول كيفية غرق فردريك ببروسا ووفاته. وما حدث عندئذ ليس معروفا على وجه التأكيد، فإما أن يكون الامبراطور قد وثب عن حصانه إلى الماء البارد ليستعيد نشاطه، ولكن تيار النهر فاق في القوة ما كان يعتقد، وإما أن جسمه الهرم (في السبعينيات من عمره) لم يستطع أن يقاوم الصدمة المفاجئة، أو زلت قدما فرسه، فقفذه إلى =

بيت المقدس من قبضة صلاح الدين. في هذه الأثناء كان الجثليق جريجور الرابع والأمير ليون في طريقهما لاستقباله والفرحة تملأ قلوبهما،¹ فوصلهما خبر غرق الامبراطور، وأصيب ليون الثاني بخيبة أمل، فأجل مشروع التتويج إلى حين، واحتفظ بفكرته حية في ذهنه.² وهكذا فقد أنقذ القدر صلاح الدين الأيوبي من أصعب موقف عسكري واجهه في حياته.³ أما الصليبيون فقد أصيبوا بصدمة عنيفة هزت كيان الحملة الصليبية الثالثة.

وبعد أن فقد الأمير الأرمني أمله في الحصول على التاج الملكي، أشاح بوجهه عن مساعدة فردريك السوابي ابن الامبراطور فردريك بربروسا، الذي خلف والده في قيادة الحملة الجرمانية، فتركه ليون الثاني وانقطع عنه، وعاد إلى حصونه، في وقت كان فيه فردريك السوابي محتاجا إلى مساعدة الأمير الأرمني، بعد المحنة التي حلت به.⁴

ويبدو أن الأمير ليون لما رأى فشل مشروعه في التحالف مع فردريك بربروسا، خشي من رد فعل صلاح الدين الأيوبي، فأوعز إلى الجثليق جريجور الرابع أن يكتب خطابا إلى صلاح الدين يخبره عن وصول الجيش الألماني وهلاك فردريك بربروسا، وأن الأمير عاد إلى حصونه بعد أن بلغه وفاة الملك. وأورد الكاتب الخاص لصلاح الدين الأيوبي ومؤرخ حياته بهاء الدين بن شداد، نص الخطاب كاملا.⁵ وبعد أيام قليلة من وصول الخطاب الأول، وصل مبعوث آخر من الجثليق الأرمني، يحمل خطابا ثانيا، وكان بهاء الدين حاضرا في مجلس السلطان لحظة وصوله، تحدث فيه عن فردريك السوابي ابن الامبراطور الذي خلف أباه في قيادة الحملة الألمانية بمعنويات منهارة، وفتكت الأوبئة بكثير من

= الماء، فغرق بسبب ثقل أسلحته، وإما أنه سبح في النهر بعد تعب ونصب، وكان مأؤه شديد البرودة، فأصابته وعكة أدت إلى وفاته. (انظر : ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 207؛ ابن شداد (بهاء الدين) : مصدر سابق، ص 190؛ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 218؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ج 3، ق 1، ص 39-40؛

Ernoult : op. cit., p. 249; Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 407; Vartan : op. cit., p. 441.

¹ Mutaftian Claude : L'Arménie du Levant, p. 95.

² Alishan : Léon, p. 151; Tournet F. : op. cit., p. 130; Pasdermadjian H. : op. cit., p. 210.

³ الشنقيطي محمد بن المختار : مرجع سابق، ص 66.

⁴ أبو شامة : مصدر سابق، ج 4، ص 77.

⁵ انظر نص هذه الرسالة كاملا في الملحق السابع، ص 477-478.

فرسانه وجنوده، "ويقول : هم عدد كثير، لكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة وأكثرهم ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة".¹ ويضيف أن الأمير ليون الثاني لما أحس منهم بهذا الضعف طمع فيهم حتى أنه عزم على أخذ مال الملك لمرضه، وضعفه، وقلة، من معه من الجند.² وقد واصل هؤلاء الجنود طريقهم نحو أنطاكية بعد أن زال خطرهم وتشتت شملهم،³ ويتهم المؤرخ ابن الأثير بجموع الألمان الذين وصلوا سالمين إلى الشام بقوله : "وقع فيهم الوباء والموت فوصلوا إلى أنطاكية وكأنهم قد نبشوا من القبور".⁴

ورغم شك بعض المؤرخين الأرمن في صحة هذه الرسالة،⁵ وبعضهم ينفيها إطلاقاً، فإن هدفها واضح، حيث تريد أن تثبت لصالح الدين أن علاقة ليون الثاني بفردريك ببروسا، ليست علاقة تحالف، ولكن علاقة خضوع لقانون الأقوى، كما كان الأرمن يريدون طمأننة صلاح الدين لريح الوقت، في انتظار ما ستسفر عنه حملة الملكين الفرنسي والانجليزي. وعبر عن ذلك أبو شامة في قوله : "ولا شك أنه إلى جنسه النجس مائل، وبملاءة أهل ملته قائل".⁶ وهذا يدل دلالة قاطعة أن صلاح الدين كان مدركاً لحيلة ليون الثاني.

ورغم أن المصادر الأرمنية والعربية لم تذكر ما يفيد بتعاون ليون الثاني عسكرياً مع ملك فرنسا، وملك إنجلترا،⁷ فإن حولية الإنجليزية وبعض الدراسات الحديثة، أشارت إلى مساهمة قواته في حصار عكا،⁸ وكان مع الأمراء الصليبيين الذين رافقوا ريتشارد الأول قلب الأسد، ملك إنجلترا، في غزوه

¹ ابن شداد (بهاء الدين) : مصدر سابق، ص 195-196.

² المصدر السابق، ص 197.

³ قمعون عاشوري : مرجع سابق، ص 353.

⁴ ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 207.

⁵ Mutfian Claude : L'Arménie du Levant, p. 95.

⁶ أبو شامة : مصدر سابق، ج 4، ص 67.

⁷ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 65.

⁸ عاشور سعيد عبد الفتاح، بحوث ودراسات، ص 237.

لجزيرة قبرص، في سنة 587هـ/1191م، وأدى له فروض التبعية والولاء.¹ وكان هذا النشاط كفيلا بإعلاء مكانته، وإظهار إخلاصه وتحاوله مع أهداف الصليبيين.

ج - التوسع على حساب المسلمين

وبعد أن زال خطر الحملة الألمانية، انشغل السلطان الأيوبي بحروبه ضد الصليبيين في عكا وفي مراكز أخرى على ساحل الشام،² فوجد ليون الثاني الفرصة لتوسيع مساحة إمارته على حساب جيرانه المسلمين،³ مستغلا في ذلك اندلاع الحرب بين أبناء السلطان قلعج أرسلان الثاني. ولما فرغ صلاح الدين الأيوبي من الفرنج، وعاد إلى دمشق في سنة 589هـ/1193م، أظهر اهتماما ببلاد الروم،⁴ ولا بد له من عبور جبال الأمانوس التابعة لإمارة أرمينيا الصغرى، فأرسل إلى الأمير ليون الثاني يطلب منه تسليم بلاده ويمكنه أن يرحل منها بسلام، فأجاب ليون بازدياء، قائلا لمبعوث صلاح الدين : "قل للسلطان ليس لي أرضاً أعطيها له، ولكن إذا دخل بلادي، سأجعل سيفه يرتد عليه مثل صاحبه رستم"، فجهز صلاح الدين جيشا وأمره بالسير إلى قيليقيا، وشاء القدر أن تعود قوات صلاح الدين من سفوح جبال الأمانوس، ولا تدخل إلى بلاد ابن لاون، لأن السلطان مرض ومات بعد ذلك بقليل.⁵

¹ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ج 3، ق 1، ص 91؛ عطية حسين محمد : مرجع سابق، ص 230؛

Benedict of Peterborough : Gesta regis Henrici secundi benedicti abbatis, edited by William Stubbs, Longmans, London, 1867. Vol. II, p. 165; Du Cange Charles : Les Familles d'Outre-Mer de Du cange, publiées par E.-G. Rey, bibliothèque S. J. Les Fontaines, Paris, 1869. pp. 119-120; Hill Georges : A History of Cyprus, Cambridge university press, New York, 2010. Vol. 1, p. 319; Mutfian Claude : L'Arménie du Levant, p. 93.

² ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 221-208. Michel Le Syrien : op. cit., t. III, pp. 407-409.

³ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 145. حول الحروب التي اندلعت بين أبناء قلعج أرسلان، وعلاقتهم بأرمينيا الصغرى، (انظر : طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 212-244؛ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 143-118).

⁴ ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 225.

⁵ سباد هو الوحيد بين المصادر الذي يذكر هذه الرواية، ويبدو أن صلاح الدين لم يكن على رأس هذه الحملة العسكرية، بل أسند قيادتها لأحد أبنائه، لأنه كان مريضا وبقي في دمشق إلى أن مات فيها في 27 صفر 589هـ/3 مارس 1193م). (انظر :

ابن شداد (بهاء الدين) : مصدر سابق، ص 359-366؛ Mutfian : La Cilicie, p. 409. Smbat : op. cit., p. 69;

وابتسم الحظ للأمير ليون، لأن قلعج أرسلان الثاني صاحب قونية كان قد توفي منذ سنة، وفي هذه السنة توفي صلاح الدين الأيوبي، وانشغل أبناؤهما بصراعاتهم ونزاعاتهم العائلية حول العرش، مما هيا الجو للأمير الأرمني ليتوسع على حساب المسلمين، حيث شن عدة غارات على ضواحي حلب،¹ واستنجد به أبناء قلعج أرسلان الثاني في حروبهم ضد بعضهم البعض، ثم تمكن من احتلال اثنين وسبعين حصناً، انتزع بعضها من سلاجقة الروم ومن الأيوبيين، وبعضها الآخر من البيزنطيين.²

غير أن الانتصارات التي حققها ليون الثاني، اصطدمت بمصالح سلاجقة الروم، وعرضت طريق القوافل التجارية بين آسيا الصغرى وبلاد الشام للشلل التام. مما دفع ببعض سلاطينهم الذين نجحوا في إعادة توحيد بلادهم، إلى الرد على تلك الاعتداءات، بغزو قيليقيا، على أساس الاحتياجات الاقتصادية والتجارية لسلطنتهم. وحرصوا كل الحرص على إيجاد منافذ بحرية لبلادهم على الساحل الشمالي والساحل الجنوبي، فنجحوا في الاستيلاء على مينائي سينوب وسامسون على البحر الأسود، وميناء أنطالية على البحر المتوسط.³ وفي سنة 589هـ/1193م، دخل ليون الثاني في صراع ضد بوهموند الثالث أمير أنطاكية، حول امتلاك حصن بغراس، فاعتقله، ووضعه في السجن بمدينة سيس، انتقاماً لأخيه روبين الثالث، وأجبره على أن يتنازل له عن السيادة على أنطاكية، فتدخل هنري دو شامبانيا⁴ (Henri de Champagne)، وفض النزاع بينهما.⁵

¹ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 446-448.

² ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 228؛ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 212؛ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 411.

³ باذياب نورة بنت عبد الله بن سعيد : سلطنة سلاجقة الروم ومملكة أرمينيا الصغرى في النصف الأول من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، ع 4، السنة الثانية، الجمعية التاريخية السعودية، الرياض. جويلية 2001. ص 89-91.

⁴ هنري دو شامبانيا : برز خلال حصار عكا في أحداث الحملة الصليبية الثالثة، وهو ابن أخت ريتشارد قلب الأسد، وحاكم مملكة بيت المقدس الجديدة التي نشأت في عكا (بدون بيت المقدس). (انظر : رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ج 3، ق 1، ص 126-127، 145، 127؛ Grousset René : Histoire des Croisades, t. III, p. 78.)

⁵ ابن العبري (جريجوريوس أبو الفرج) : مخطوطة تاريخ الأزمنة، ترجمة شادية توفيق حافظ، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2007. ص 27-28؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ج 3، ق 1، ص 163؛ عطية حسين محمد : مرجع سابق، ص 237-239؛ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 411; Balard Michel : op. cit., p. 215; Mutfian : La Cilicie, p. 409.

غير أن طموح ليون الثاني لم يتوقف عند هذا الحد، فقد كان يسعى للحصول على التاج الملكي، وكان رأي رجال القانون في ذلك العصر، أنه لا يصح أن يبذل التاج إلا الامبراطور، أو البابا وفقا لرأي الفرنج. ولذلك كان حريصا على التوجه إلى الغرب الأوربي، حتى لا يبدو في صورة أقل من الأمراء الصليبيين في الشرق، خاصة وأن الامبراطورية البيزنطية لم تعد تملك من القوة ما يكفي لأن يقدر ألقابها الفرنج، فضلا عن أطماعها في قيليقيا.¹

د - السعي للحصول على التاج الملكي

ولم ييأس ليون الثاني من الحصول على التاج الذي وعده به الامبراطور فردريك بربروسا، إذ بعد وفاة هذا الأخير كلف الأمير ليون أحد الأساقفة بالذهاب إلى ابنه فردريك السوابي الذي تولى قيادة الجيش الألماني، فأجابه بأنه غير مؤهل لمنح التاج إلى الأمير الأرميني.² ثم استغل فرصة مجيء هنري دو شمبانيا إلى سيس، للصلح بينه وبين أمير أنطاكية، فطلب منه تتويجه ملكا على أرمينيا الصغرى وأنطاكية، أو التوسط له لدى ملوك الدول الأوربية لتحقيق هذا الغرض،³ ولم يكن هنري يملك من الصلاحيات والمؤهلات ما يجعله قادرا على تلبية هذا الطلب.

غير أن ليون الثاني واصل مساعيه الدبلوماسية لدى الغرب الأوربي، فأرسل سفارة إلى البابا سلسنتين الثالث (1191-1198)، يطلب منه التاج الملكي، وبما أن البابوية تعتبر الكنيسة الأرمينية كنيسة متطرفة، فقد أشار ليون الثاني إلى خضوع كنيسته إلى الكنيسة الكاثوليكية، غير أن رجال الدين الأرمن رفضوا إطلاقا التخلي عن مذهبهم واستقلالهم، وقاوموا في عنف انصهار كنيستهم في الكنيسة الكاثوليكية، ولكن ليون الثاني لم يكف عن المثابرة، حتى أقنع رجال الدين بأن السيادة البابوية سوف تكون اسمية فقط، ولن تغير شيئا من الواقع، وأنه يرغب في ارتباط سياسي فقط، ولن يجبر أحدا على التخلي عن مذهب الطبيعة الواحدة، وأكد لهم أنه سيبقى الحارس والمدافع عن الجثليق والكنيسة الأرمينية المقدسة. وهذه هي سياسة المخادعة التي لا تليق برجل دولة وقائد شعب.

¹ رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ج 3، ق 1، ص 167؛ عاشور سعيد عبد الفتاح، بحوث ودراسات، ص 236.

² Mutafian Claude : L'Arménie du Levant, p. 97.

³ Ernoul : op. cit., p. 322; Alishan Leonce M. : Léon : p. 152.

وعندئذ أذعن له رجال الدين الأرمن على مضض. غير أن البابا لم يتسرع في إرسال التاج، بل نصح مندوبيه بالتحلي بالصبر والدبلوماسية.¹

وفي نفس الوقت الذي كان فيه ليون الثاني يعمل على كسب القوة الروحية في الغرب، كانت آله الدبلوماسية تعمل في خط متوازي لكسب القوة الزمنية أيضا، عساه يكسبهما معا وتوظيفهما لتحقيق أهدافه. فأرسل سفارة في سنة 591هـ/1194م، إلى الامبراطور الألماني هنري السادس² (Henri VI) (1190-1197م)، الذي كان آنذاك في إيطاليا يضع الخطط لتنظيم حملة صليبية جديدة،³ فوعده بالتتويج، متى قدم إلى الشرق، مقابل الاعتراف له بحقوق السيادة على أرمينيا الصغرى. غير أنه توفي في ذي القعدة 593هـ/سبتمبر 1197م. ولكنه كان قد أرسل جزءا من قواته عن طريق البحر إلى الشام، وأسند قيادتها إلى متولي ديوان الوثائق عنده، هو كونراد دو كويرفورت، أسقف هيلدسهايم (Conrad de Querfurt, évêque de Hildesheim)، ومعه تاجان. وكان برفقته ممثل البابا،⁴ كونراد دو فيتلسباخ، رئيس أساقفة ماينز (Conrad de Wittelsbach, archevêque de Mayence)، فوضع أحدهما في سبتمبر 1197م، على رأس عموري دو لوزنيان (Amaury de Lusignan) صاحب قبرص.⁵ ولما وصل كونراد إلى عكا، اتصلت به سفارة من الأمير ليون الثاني، يرأسها المطران يوحنا من مدينة

¹ رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ج 3، ق 1، ص 167-168؛ بوعمامة فاطمة: مرجع سابق، ص 66؛

Guiragos de Kantzag : op. cit., p. 423; Grousset : L'Empire du levant, p. 394; Alishan : Léon : p. 166.

² هنري السادس : ولد في نيميغ عام 1165م، وهو ابن فردريك بروسان توج ملكا على إيطاليا عام 1186م، وتوج في روما إمبراطورا للدولة الرومانية المقدسة عام 1191م، باسم هنري ليون، تزوج كونستانس ابنة وليم الثاني ملك صقلية عام 1186م، مما أهله لحمل لقب "ملك صقلية" عام 1194م. مات في مسين عام 1197م، وهو يعمل على إعداد حملة صليبية تملأ الفراغ الذي تركته نكسة الحملة الصليبية الثالثة. (انظر : انظر : الربيعي عبد الله بن عبد الرحمن : مرجع سابق، ص 482).

³ Guiragos de Kantzag : op. cit., p. 422; Alishan Leonce M. : Léon : p. 153.

⁴ Cahen Claude : La Syrie du Nord, p. 589; Mutfian Claude : L'Arménie du Levant, p. 98.

⁵ Ernoul : op. cit., pp. 302-303.

سيس،¹ لترافقه إلى أرمينيا الصغرى. وبما أن كونراد بقي في الشام، فقد أسند مهمة نقل التاج الملكي إلى مرافقه كونراد رئيس أساقفة ماينز، المندوب البابوي.²

وفي 26 صفر 594هـ/6 جانفي 1198م،³ تولى الجليلي الأرميني جريجوار أبيراد (Grégoire Abirad) وضع التاج على رأس ليون الثاني، بينما منحه كونراد صولجان الملك. وبذلك تم تتويج ليون الثاني ملكا على أرمينيا الصغرى، في كاتدرائية القديسة صوفيا (Sainte-Sophie)، بطرسوس، وليس في العاصمة سيس، في حفل مهيب، حضره عدد كبير من ممثلي الدول، ورجال الدين، والنبلاء.⁴ ومنذ ذلك التاريخ أصبح ليون الثاني يدعى بالملك ليون الأول. وإذا كان هنري السادس، يهدف بهذا التتويج أن يضع قدما لبلاده في بلاد الشام، ويؤسس في المستقبل مستوطنات جرمانية على غرار المستوطنات الفرنجية أو النورمانية،⁵ فإن البابا كان يرى بأن أرمينيا الصغرى هي شعاع الأمل الذي يومض بين دياجير الخوف من التهديد الإسلامي، باعتبارها خصما

¹ Smbat : op. cit., p. 73.

² Alishan Leonce M. : Léon : p. 155; Mutfian Claude : L'Arménie du Levant, p. 98.

³ يوجد خلاف بين المؤرخين حول تاريخ تتويج ليون الثاني، إذ يذكر البعض منهم يوم 06 جانفي 1199، وسبب الاختلاف يعود إلى اعتماد المصادر الأرمنية على التقويم الأرميني، (السنة الأرمنية سنة شمسية تتكون من 365 يوم فقط، ويتوافق أول يوم في أول سنة أرمنية مع يوم 11 جويلية 552م). حيث جاء في حولية صموئيل دآني (ت سنة 1185م)، التي توقفت عند سنة 626 الأرمنية (من 5 فيفري 1177م إلى 4 فيفري 1178م)، وأكملها مؤرخ مجهول بعده، أن التتويج حدث في سنة 646 حسب التقويم الأرميني (من 31 جانفي 1197 إلى 30 جانفي 1198م). أما سمباد (ت سنة 1276م)، الذي كتب بعده بكثير، فيذكر أن عملية التتويج كانت في سنة 647 حسب التقويم الأرميني، وهي السنة التي تبدأ من 31 جانفي 1198م إلى 30 جانفي 1199م. وقدم المؤرخ كلود موتافيان بحثا معمقا حول هذه المسألة، اعتمد فيه على أدلة اقتبسها من مخطوطات أرمنية، أثبت فيه أن التتويج كان يوم 06 جانفي 1198م، ومعظم الدراسات الحديثة ترجح سنة 646 الأرمنية، التي تتوافق مع هذا التاريخ. علما أن يوم 6 جانفي هو عند المسيحيين يوم عيد يسمى بعيد الظهور الإلهي، أو عيد الغطاس، أو عيد الدنح أو عيد العماد، (jour de Épiphanie) حسب المذاهب المسيحية، وهو أيضا يوم ميلاد سيدنا المسيح في الكنيسة الأرمنية (jour de Nativité). (انظر :

Samuel d'Ani : op. cit., p. 588; Sempad : op. cit., p. 634; Alishan Leonce M. : Léon : pp. 169-171; Grousset : L'Empire du levant, p. 394; Feuillet : op. cit., p. 47, 78; Valognes Jean-Pierre : op. cit., p. 468; Mutfian Claude : L'Arménie du Levant, t. I, pp. 99-101.

⁴ رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ج 3، ق 1، ص 168؛

Dulaurier : op. cit., p. LIII; Pasdermadjian : op. cit., p. 210; Cahen : La Syrie du Nord, p. 589.

⁵ Cahen Claude : op. cit., p. 588.

من خصوم المسلمين، ولذلك وافق على منح التاج إلى ليون الثاني، مكافأة له على ماقدمه من مساعدات وخدمات بشرية ومادية للصليبيين،¹ وبذلك يكون قد ضمن بهذا التتويج وجود تابع له يحتاج إليه في الحملات الصليبية القادمة،² وكان البابا اينوسنت الثالث (1198-1216)، يرى أن أرمينيا الصغرى في قيليقيا، الدولة المسيحية الوحيدة القادرة على الوقوف في وجه المسلمين والانتقام منهم.³ وهكذا فقد شهد نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، ميلاد مملكة مسيحية جديدة، في شرق البحر المتوسط، قدر لها - إلى جانب مملكة قبرص - أن تنهض بعبء محاربة المسلمين أمدا طويلا في أواخر العصور الوسطى.⁴

وتمشيا مع سياسة الأمر الواقع، وحتى لاتنفرد الامبراطورية الرومانية المقدسة بإقليم قيليقيا، أرسل الامبراطور البيزنطي ألكسيس الثالث أنجيلوس (1195-1203م)، تاجا إلى الملك ليون. وأرسل مع التاج رسالة قصيرة جاء فيها : "لا تضع على رأسك تاج اللاتين، ولكن ضع تاجنا، لأن بلادك هي قرية منا أكثر من قربها من روما".⁵ وتمثل هذه الخطوة التي أقدم عليها الامبراطور ألكسيس الثالث اعترافا باستقلال أرمينيا الصغرى، وتنازلا منه للأرمن عن إقليم قيليقيا الذي ظل ردحا من الزمن محل صراع وتنافس بين عدة قوى. ومع بداية القرن الثاني عشر الميلادي، انتقلت جبال طوروس من السيادة البيزنطية إلى السيادة الأرمنية،⁶ رغم إرادة الامبراطور البيزنطي. كما أراد الامبراطور البيزنطي من خلال هذا الاعتراف، الاحتفاظ بالخيط الواهي الذي ظل يربط دولته بأرمينيا الصغرى. ولكن بيزنطة تأخرت كثيرا في القيام بهذه الخطوة، لأن أرمينيا الصغرى غدت مملكة جديدة ذات كيان مستقل، كما أن الملك ليون الثاني الذي كان مغرما بالحضارة اللاتينية، أدار ظهره لعالم

¹ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 66.

² Mutfian Claude : L'Arménie du Levant, t. I, p. 98.

³ Dédéyan Gérard : Le rayonnement de l'Etat arménien de Cilicie, p. 338.

⁴ عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، ج 2، ص 166؛ Iogra : op. cit., p. 37.

⁵ Guiragos de Kantzag : op. cit., p. 424.

⁶ Cahen Claude : Orient et Occident, p. 181.

البيزنطيين، وباشر في تطبيق سياسة إصلاحية شاملة،¹ هي أشبه بسياسة الإدماج، ليجعل من مملكته، دولة شبيهة في أنظمتها بالدول الفرنجية والصليبية المجاورة له.

ولكن بعد نشوة المجد قصيرة الأمد، أدرك الأرمن في مملكتهم الجديدة، أنهم لم يكسبوا في آخر الأمر من الصبغة الغربية إلا ربحاً ضئيلاً، إذ وجدوا أنفسهم مفصولين حضارياً عن الأرمن بأرمينيا الكبرى، موطن عنصرهم وجنسهم،² وبعد أن كانت تجمعهم مؤسسة دينية واحدة، أضحوا مقسمين بين أتباع الكنيسة الأرمنية والكنيسة الكاثوليكية.³ ثم تأزمت العلاقات بين مملكة أرمينيا الصغرى وإمارة أنطاكية فيما بين 603هـ/1206 و 616هـ/1219م، بسبب السياسة التوسعية التي سار عليها الملك ليون الثاني، وزجت هذه الأزمة بأطراف كثيرة في النزاع بين أمراء أنطاكية والملك ليون الأول الذي أراد بسط سيادته على أنطاكية عن طريق الوراثة.⁴

لكن ماموقف المسلمين من تأسيس هذه المملكة المسيحية الجديدة ؟ وما انعكاسات هذه التطورات في أرمينيا الصغرى عليهم ؟

رغم أن بعض المراجع الحديثة ذكرت حضور رسل من قِبَل الخليفة العباسي أثناء حفل التتويج،⁵ فإن المصادر المعاصرة للأحداث، لم يرد فيها ما يفيد بإرسال وفد أو تاج أو هدايا من قِبَل أي خليفة أو حاكم مسلم، بل إن المصادر العربية لم تتحدث إطلاقاً عن تتويج ليون الثاني. ويبدو من المصادر المتأخرة، أن المسلمين لم ينسوا أبداً أن هذا الإقليم كان خاضعاً لنفوذهم منذ وقت مبكر. وسواء حكمها الأمراء أم الملوك الأرمن، فعليهم جميعاً دفع الجزية رمزا للخضوع والتبعية. وفي هذا السياق كتب شهاب الدين بن العمري يقول : "وكانت طاعتهم (أي الأرمن) آخراً لبقية الملوك

¹ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 69-81.

² رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ج 3، ق 1، ص 169.

³ Mutfian Claude : La Cilicie, t. I, p. 410.

⁴ ابن العبري : مخطوطة تاريخ الأزمنة، ص 62؛ اسكندر فايز نجيب : مملكة أرمنية، ص 70-75؛ بوعمامة : المرجع السابق،

ص 84-96؛ مقامي نبيلة ابراهيم : مرجع سابق، ص 135؛ Mutfian Claude : op. cit., t. I, pp. 413-414.

⁵ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ج 3، ق 1، ص 168؛ استراحيان : مرجع سابق، ص 221؛ Alishan : Léon : p. 156.

السلاجقة بالروم، وعليهم جزية مقررة، وطاعة معروفة (...) حتى ضعفت تلك الدولة، (يقصد دولة سلاجقة الروم) وسكنت شقائق تلك الصولة، وانتدب بعضهم لقتال بعض (...) قطع هذا اللعين (يقصد ملك أرمينيا الصغرى) واستنسر بغائه،¹ واشتد إنكائه، ورأى سواماً² لا ذائد عنه فساقه، ومتاعاً لا حامية له فملاً منه أوساقه،³ واستولى على هذه البلاد وتملكها، وتحيف مواريث بني سلجوق واستهلكها⁴. وقد كان فيلاريت، يدفع الجزية لشرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي حاكم حلب⁵، وحتى ليون الثاني الذي رفض دفع الإتاوة المتوجبة عليه للسلطان السلجوقي عز الدين كيكافوس الأول (608-616هـ/1211-1219م)، وجد نفسه في الأخير مضطراً إلى إعلان الطاعة التامة للسلطان السلجوقي، ومضاعفة الخراج مع دفع المبالغ المستحقة عن السنين الماضية.⁶

ويبدو من كتابات المسلمين، أنهم رفضوا الاعتراف بالمكانة الجديدة التي حققتها أرمينيا الصغرى بعد 594هـ/1198م، حيث وصفهم العمري بأنهم "اخبت عدو للإسلام".⁷ ويقول القلقشندي في معرض حديثه عن مملكة أرمينيا : "وإنما يقال له متملك سيس دون ملك سيس لما تقدم من أنها كانت أولاً بيد المسلمين، ثم وثب عليها رئيس الأرمن المقدم ذكره فملكها من أيدي المسلمين"⁸، وكلمة متملك تدل على أنه ملك البلاد قهراً.⁹

¹ من المثل العربي القائل : "إن البُعَاثَ بأرضنا يَسْتَنَسِر"، والبغاث من ضعاف الطير، واستنسر أي صار كالنسر في القوة. يضرب للعزيز إذا نزل عنده ذليل عزَّ به، أو ضعيفٌ صار قوياً. (أنظر : ابن منظور : مرجع سابق، ج 2، ص 118).

² السوام والسائمة، مفرد سوائم : الماشية والإبل الراعية. (أنظر : ابن منظور : مرجع سابق، ج 12، ص 311).

³ أوساق : ستون صاعاً (حمل البعير). (أنظر : الجوهري : مرجع سابق، ص 1566).

⁴ ابن فضل الله العُمري : التعريف بالمصطلح الشريف، ص 80-81.

⁵ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 66.

⁶ المرجع السابق، ص 233-234.

⁷ ابن فضل الله العُمري : التعريف بالمصطلح الشريف، ص 82.

⁸ القلقشندي : مصدر سابق، ج 8، ص 33.

⁹ ابن منظور : مرجع سابق، ج 6، ص 92.

كما استخدم المسلمون ألقاباً عديدة للتعبير عن أرمينيا الصغرى أو ملكها، منها "بلاد ابن لاون"¹، والمقصود به هو الملك ليون، و"متملك سيس" أو "صاحب سيس"، وسيس هي العاصمة التي انتقل إليها الملك ليون. وذكر العمري في كتابه المصطلح الشريف، "ومن ملك منهم سمي «التكفور»"²، وهو لفظ أرميني معناه "المُتَوَجَّح"³، كما يقصد به الملك أو العظيم⁴.

توفي ليون الثاني بتاريخ 16 صفر 616هـ/02 ماي 1219م، ولم يترك ابناً ذكراً، فانتقل التاج لابنته زابيل (Zabel ou Isabelle)، ثمة زواجه الثاني. تزوجت بـ فيليب -ابن بوهيموند الرابع، حاكم أنطاكية- وقد اشترط عليه الأرمن، أن يُقسِمَ بأن يعيش معهم وفق طقوس الكنيسة الأرمنية، واحترام امتيازات عائلاتهم الكبيرة. ولكنه بمجرد أن أصبح ملكاً، أظهر ميلاً نحو اللاتين، وعامل الأرمن على أنهم رعايا أقل درجة، واتهم بتحويل كل شيء ثمين إلى أنطاكية، مما أدى إلى انتزاعه من بين أيدي زوجته وإبعاده عن السلطة، ثم اغتياله سنة 622هـ/1225م.⁵

وقام وصي الملكة الأرملة الصغيرة قسطنطين -أمير لامبرون وزعيم آل هيثوم- بإرغامها على الزواج ثانية، بابنه هيثوم بتاريخ 16 جمادى الأولى 623 هـ/14 ماي 1226 م.⁶ وبهذا الزواج انتقل العرش من آل روبين إلى آل هيثوم.⁷ وإذا كانت السياسة الخارجية لأرمينيا الصغرى قد قامت على التعاون مع الصليبيين منذ الحملة الصليبية الأولى، فإن الملك هيثوم الأول (623-667هـ/1226-1269م) خليفة ليون الأول، قد وضع دعائم سياسة خارجية جديدة، قائمة على التحالف مع

¹ الحموي : مصدر سابق، ج 3، ص 12.

² ابن فضل الله العمري : التعريف بالمصطلح الشريف، ص 80.

³ نفسه.

⁴ بوعمامة : مرجع سابق، ص 69.

⁵ ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 371-372؛ ابن العبري : مخطوطة تاريخ الأزمنة، ص 69، 75-76؛ خنجي : مرجع سابق، ص 237؛

Guiragos de Kantzag : op. cit., pp. 428-429; Smbat : op. cit., pp. 92-94, Aslan Kévork : op. cit., p. 80.

⁶ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 271؛ طقوش : تاريخ سلاجقة الروم، ص 243؛ خنجي : مرجع سابق، ص 237؛

Smbat : op. cit., p. 96; Grousset : L'Empire du Levant, p. 396.

⁷ بوعمامة : مرجع سابق، ص 148-151.

المغول بدلا من التحالف مع الغرب الأوربي بعد أن ثبت انشغال الدول الأوربية بمشاكلها الخاصة عن المساهمة الجدية في الحروب الصليبية، مما أدى إلى فتور تيار الحركة الصليبية، وانحرافها عن وجهتها الصحيحة منذ أوائل القرن الثالث عشر.¹ وهكذا حل الأرمن محل الفرنجة في قيادة الحركة الصليبية الجديدة التي ولت وجهها شطر المغول، وكانت مملكة أرمينيا الصغرى في الصف الأول، لتوجيه الجهود المسيحية الغربية نحو إعادة احتلال الشام وإعادة السيطرة المسيحية على بيت المقدس.² وبذلك تبدأ مرحلة جديدة من تاريخ أرمينيا الصغرى أو كما سماها جُزُوسي أرمينيا الجديدة.

3 - ملامح التحولات الدينية والثقافية في أرمينيا الصغرى

مما لا شك فيه، أن العقود التي عاشتها إمارة أرمينيا الصغرى، والحروب والمعارك التي خاضتها ضد المسلمين، والتحالفات التي أبرمتها مع الصليبيين، قد أدت إلى وجود احتكاك حضاري بين الأرمن وغيرهم من الشعوب والأجناس المختلفة عن بعضها البعض في أصولها ولغاتها، وعاداتها وأديانها. وترتب عن هذا التداخل بين التيارات الحضارية المختلفة، وضع حضاري جديد في أرمينيا الصغرى، خاصة في الجانب الاجتماعي بأبعاده الدينية واللغوية.³

ويبدو من الوهلة الأولى، أن الصليبيين تركوا بصماتهم واضحة في الحياة الاجتماعية والثقافية للأرمن رغم المدة القصيرة التي قضوها في بلاد الشام، مقارنة بالمسلمين الذين احتكوا بالأرمن مدة تزيد عن سبعة قرون. فإن تأثر الأرمن بالحضارة الإسلامية ومساهماتهم فيها يبدو بسيطا إذا لم يكن

¹ عاشور سعيد عبد الفتاح : بحوث ودراسات، ص 243. حول تحالف مملكة أرمينيا الصغرى مع المغول، (انظر : بوعمامة : مرجع سابق، ص 165-191؛ زرقوق محمد : مرجع سابق، ص 62 وما بعدها).

² Iogra : op. cit., p. 29, 40, 45.

³ إن البحث في هذا الموضوع شائك ويتطلب جهد مؤسسات متخصصة، تجمع عددا من المتخصصين في التاريخ والأنثروبولوجيا واللغات، تكشف النقاب عن أهم التفاعلات الحضارية في الفكر واللغة والمجتمع، بين الأرمن والمسلمين والصليبيين. والواقع أن الكتابة التاريخية عن الأرمن خلال الحروب الصليبية، من الناحية الثقافية والاجتماعية ليست بالأمر اليسير، بل إنها تعد مشكلة في حد ذاتها، على اعتبار أن المصادر التاريخية التي ألفها الأرمن أو الصليبيون أو المسلمون، اهتم أصحابها بالجوانب السياسية والحربية في المقام الأول، ولم يتعرضوا بنفس الاهتمام للجوانب الحضارية الأخرى. والمصادر العربية، تركز على الجوانب الحربية والسياسية، وتحمل البعد الاجتماعي والاقتصادي، فيما يتعلق بالتعامل مع الآخر، والمقصود به هنا الأرمن، ناهيك عن وجود فجوات مصدرية في مراحل تاريخية معينة، ومن ثم فإن حجم المادة التاريخية عن هذا الموضوع ليس متوازنا بصفة عامة، وهو يحتاج إلى دراسة خاصة.

منعدما. ولا يمكن أن يعود السبب إلى هوية الأرمن والمسيحية التي اعتنقوها منذ عهد بعيد، لأن شعوبا مسيحية محلية مثل السريان والأقباط، تعاطوا مع الحضارة الاسلامية فساهمو فيها، ونخلوها منها في آن واحد، وحافظوا على معتقداتهم. وربما من بين العوامل التي يمكن الاشارة إليها في البداية أن الأرمن سيطرت على حياتهم في أرمينيا الصغرى، فكرة الحرب، فهم محاربون، مثل الصليبيين تماما، واستمرت ظلال الحرب تخيم عليهم إلى غاية سقوط مملكتهم على يد المماليك. ومن الطبيعي في مثل هذه الظروف أن تنعدم الجسور الحضارية بين الأرمن وغيرهم من العرب والأتراك المسلمين.

أ - الكنيسة الأرمنية بين التسامح الاسلامي والتعصب المذهبي المسيحي

تسربت المسيحية إلى أرمينيا في وقت مبكر، وكان ذلك عن طريق المبشرين القادمين من القدس أو أنطاكية أو الرها. وعانى الأرمن الأوائل الذين اعتنقوا المسيحية من اضطهاد الفرس والرومان لهم. ولم يكن الحكام الأرمن آنذاك يعترفون بها، مما جعل عددا كبيرا من الشعب الأرمني يتأرجح بين الوثنية والمسيحية، إلى أن حسم الأمر القديس جريجوار المكنى بالنوراني أو المنور (Grégoire l'Illuminateur)¹ الذي يرجع إليه الفضل في إدخال المسيحية لأرمينيا في سنة 301م، في عهد الملك درطاد الثالث (Tiridate III (298-330 م))،² وتم تعيين جريجوار

¹ هو جريجور لوسافوريغ (يلقب بجريجور المنور Grégoire l'Illuminateur)، ابن الأمير أناك (Anak)، الذي قتل الملك خسروف الأول (درطاد الثاني)، فتعرضت أسرته إلى الإبادة إلا الطفل جريجور، حيث هرب مع مربيته إلى كبادوكيا فرارا من الموت. وهناك تلقى عناية من شقيق هذه المربية، وكان مسيحيا فرباه على مبادئ الدين الجديد. وعندما كبر، غادر قيصرية تاركا وراءه زوجته وولديه ليقوم بالتبشير بالمسيحية في قلب أرمينية ... تعرض للتعذيب والمتابعة ورمى به الملك درطاد الثالث في بئر سحيقة، لأنه رفض تقديم قربانا لأحد الأصنام المعبودة من طرف الأرمن. وتروي المصادر الأرمينية، عدة أساطير حول هذه الشخصية وكيفية خروجه من البئر وجهوده لنشر المسيحية. توفي سنة 325 م. (أنظر : خوريناتسي : مصدر سابق ص 179-180؛

Grousset : Histoire de l'Arménie, p. 125; Mouradian Claire : op. cit., p. 16).

² حكم أرمينيا ثلاث مرات، آخرها بين 298-330 م. كان متحالفا مع الرومان ضد الساسانيين، متعلقا بالوثنية، كارها للمسيحية، بل وقام بتعذيب وإعدام العديد من المسيحيين. أصيب بمرض نفسي، جعله يتطبع بأخلاق الحيوانات وفي حالة من اللاوعي والشذوذ، جعلته أبعد ما يكون عن الإنسانية (...). شفي على يد جريجور بعد أن أطلق سراحه. بعدها، اعتنق المسيحية عقيدة، وأصبح من دعاة، وقام بتهدم المعابد الوثنية. (خوريناتسي : مصدر السابق ص 182-187؛ خانجي : مرجع السابق، ص 101-102؛ Mahé Jean-Pierre : Affirmation de l'Arménie chrétienne, pp. 163-165).

أول جثليق للكنيسة الأرمنية،¹ ثم راح يعمل لتنصير بقية أبناء شعبه وتنظيم شؤون كنيسته. وبذلك كانت أرمينيا أول مملكة في التاريخ تتبنى المسيحية كديانة رسمية للدولة والشعب في آن واحد.²

والجدير بالذكر في بداية هذا الفصل، أن موجة الاضطهاد التي تعرض لها رواد المسيحية في تاريخها الباكر، على أيدي الرومان، جعلتهم متماسكين في جبهة واحدة للدفاع عن كيانهم، ولم يكن لهم من الوقت ما يسمح لهم بالجدل حول تفاصيل القضايا العقائدية واللاهوتية. وبعد ما خفت هذه الضغوط والاضطهادات، بانتصار المسيحية على الوثنية، وصدر مرسوم ميلان الشهير في سنة 313م، طفت إلى السطح عدة مشاكل في وجه معتنقي المسيحية، أدت إلى حدوث خلافات مذهبية، كان أخطرها ذلك الخلاف المذهبي الذي يمس جوهر العقيدة نفسها ويتناول ألوهية المسيح، ومكانة الأَقْنوم³ الثاني (الابن) في الثالوث المقدس، أي تحديد العلاقة بين (المسيح الابن والاله الأب) حسب معتقدات المسيحيين. وكان القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية، اليوناني الفكر والثقافة واللسان هو المجال الحيوي الذي تدور في رحابه عملية الجدل الديني وذلك لانتشار المدارس الفلسفية في كثير من مدنه مثل الاسكندرية وأنطاكية، وأثينا، فضلا عن اليونانية التي كانت لغة أم العلوم آنذاك.⁴

¹ اسمها الرسمي هو الكنيسة الأرمنية الرسولية (Eglise Arménienne Apostolique)، كما تعرف أيضا باسم الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية ويطلق عليها عادة اسم الكنيسة الأرمنية الجريجورية، نسبة إلى القديس جريجوريوس المنور، ولا علاقة بذلك بالجريجورية البابوية الرومانية. (موسوعة عالم الأديان، Nobilis، بيروت، 2004. ج 15، ص 11-12).

² خوريناتسي : مصدر السابق ص 129-130؛ عطية عزيز سوريال : مرجع سابق، ص 394؛ خانجي : ارجع السابق، ص 102؛ Dulaury Édouard : Histoire Dogmes, Traditions et Liturgie de l'Église Arménienne orientale, A. Durand, Librairie, 3^{ème} éd. Paris, 1859. pp. 9-25.

³ الأَقْنوم (Hypostase) : كلمة من أصل سرياني وتعني حرفياً "شخص" أي صفات وخصائص الكائن التي بها نتعرف علي ماهيته الخاصة التي نشخصه بها، هذا معناها اللغوي. وباللغوية (upostatis) وهي مكونة من مقطعين هيو (upo) وتعني تحت وستاتيس (statis) وتعني قائم أو واقف، وبذلك تعني لغوياً تحت القائم أو ما يقوم عليه الشيء. ولاهوتياً تعني ما يقوم عليه الجوهر أو ما يقوم به الجوهر أو الطبيعة، والأَقْنوم هو كائن حقيقي له شخصيته الخاصة به وله إرادة. (انظر : Feuillet Michel : op. cit., p. 59).

⁴ نافع أميرة محمد : المسيحيون الخليون في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية (491-691هـ/1097-1291م)، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 2016. ص 30-31.

وبما أن هذا البحث دراسة في التاريخ السياسي لا في العقائد والفلسفة، فستتم الإشارة فقط إلى قضيتين من أمهات القضايا ذات الصلة بموضوع الدراسة، وهما علاقة المسيح عليه السلام بالله تعالى وبمريم العذراء، وقضية طبيعة المسيح، وقد شغلت هاتان القضيتان المسيحيين قروناً طوية، وكانت من أعظم أسباب الصراع المذهبي بين المسيحيين الذي أدى إلى انقسام المسيحية إلى عدة مذاهب وكنائس. وكانت بداية الجدل في مدينة الاسكندرية بين اثنين من رجال الكنيسة، الأول هو القس آريوس (Arius)¹ الذي فجر الخلاف في عام 318م، عندما أنكر ألوهية المسيح حين قال: "مادم المسيح هو ابن الله فلا بد وأن يكون أقل منه شأنًا وأدنى منزلة، وإذا كان الخلود هو صفة الله الذي لا أول ولا آخر له، فإن المسيح لا يعد خالداً لأن له بداية؛ ولهذا فليس المسيح إلهًا، كما أن المسيح مخلوق فقد خلقه الله من العدم، ومن ثمة فقد كان هناك زمن لم يكن فيه الابن موجود وبالتالي فهو لا يساوي الأب في الجوهر"،² وبعبارة بسيطة فإن المسيح مخلوق لا إله، وإلا فإن المسيحيين يصبحون متهمين بعدم التوحيد وعبادة الهين.³ والثاني هو أثناسيوس (Athanasius) أسقف كنيسة الاسكندرية، الذي قال: "إن الابن مساوٍ تماماً للإله الأب في المكانة والمنزلة والقدرة بحكم أنهما من عنصر واحد، وأن فكرة الثالوث المقدس، الأب، الابن، الروح القدس، تدعو إلى اعتبار المسيح إلهًا لا يقل شأنًا عن الإله الأب".⁴ لقد كانت أفكار آريوس تقوم على أساس من المنطق والتعقل، ولذلك وجدت طريقها بين المثقفين والمتعلمين في الشام، وآسيا الصغرى.

ونظراً لاهتمام جميع الناس في الشرق المسيحي بهذا النقاش الديني، لم يعد الخوض في المسائل اللاهوتية يقتصر على رجال الدين فقط، بل نزل إلى عامة الناس، حتى أصبح العمال والعبيد يشتغلون بقضايا اللاهوت والناسوت في مدينة القسطنطينية، فمن يقصد صرافاً لاستبدال قطعة نقود يوقفه ليروي له أوجه الخلاف بين (المسيح الابن والإله الأب)، وإذا ذهب أحدهم لشراء رغيف خبز أخبره

¹ كاميللو بيير : مرجع سابق، ص 11. انظر ايضا ص 57 هامش رقم 2 .

² نافع أميرة محمد : مرجع سابق، ص 31.

³ حافظ احمد غانم : الامبراطورية الرومانية من النشأة إلى الانهيار، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2007. ص 211، 222؛

عاشور سعيد عبد الفتاح : تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص 40.

⁴ نافع أميرة محمد : مرجع سابق، ص 32.

الخباز بأن الابن يجب أن يكون دون الأب، وإذا طلب من الحماامي أن يعد له الحمام، أجابه بأن الابن وجد من لا شيء.¹ بينما انتشرت أفكار أثناسيوس في الغرب اللاتيني، حيث تكاد تنعدم المدارس الفلسفية، والمستوى العلمي والثقافي أقل مما هو عليه في شرق الامبراطورية الرومانية، وهو يتفق إلى حد بعيد مع طريقة تفكير عامة الناس الذين يتميزون ببساطة التفكير، وعدم الاهتمام بالنظر في القضايا الفلسفية والفكرية.

وتوسعت دائرة الجدل الديني بين المسيحيين، من النقاش حول علاقة المسيح بالله، إلى قضية أخرى لا تقل خطورة عن الأولى، وهي تتعلق بطبيعة السيد المسيح (عليه السلام). وقد أدى هذا الصراع المذهبي إلى ظهور عدة مذاهب مسيحية، أهمها المذهب المونوفيزي (Monophysisme)، الذي يقول : "أن يسوع المسيح إله كامل وإنسان كامل، والألوهية والبشرية باتحادهما المجرد عن الاختلاط، كونتا طبيعة واحدة في المسيح"،² ويسمى أتباع هذا المذهب بالمنافرة، أو أصحاب الطبيعة الواحدة.³ والمذهب الديوفيزي (Diophysisme)،⁴ أو الخلقدونني (Chalcédonien)، الذي يقول : أن المسيح يتكون من "طبعتين متميزتين، طبيعة إنسانية وطبيعة إلهية، متحدتين كل الاتحاد، ولكنهما غير مختلطتين أو ممتزجتين"،⁵ وعرف أتباعه باسم الملكانية⁶ أو الخلقدونيين.⁷

¹ عاشور سعيد عبد الفتاح : تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص 39.

² المدور : مرجع سابق، ص 282-283؛ Mahé Jean-Pierre : Affirmation de l'Arménie , pp. 197-202. يسمى هذا المذهب عند المسلمين باليعقوبية، وهم أتباع يعقوب البرادعي، الذين قالوا : "انقلبت الكلمة لحما ودماء، فصار الإله هو المسيح. وهو الظاهر بجسده، بل هو هو. وعنهم أخبرنا القرآن الكريم، في سورة المائدة، الآية 72 {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} (انظر : الشهرستاني : مصدر سابق، ص 182؛ الفصل الأول ص 56، هامش رقم 2 .

³ Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 135-136; Michel Le Syrien : Extrait de la chronique, p. 369.

⁴ كلمة Monophysisme، مركبة من كلمتين يونانيتين هما mono تعني واحد، و physis تعني الطبيعة، أي طبيعة واحدة، ونفس التركيب في كلمة Diophysisme، حيث كلمة dio تعني إثنان. (انظر : موسوعة أديان العالم : ج 13، ص 12-13؛ Feuillet Michel : op. cit., p. 76, 78.

⁵ المدور : مرجع سابق، ص 283؛ أنظر أيضا : الفصل الأول ص 56، هامش رقم 3.

⁶ الشهرستاني : مصدر سابق، ص 179-181.

⁷ إضافة إلى هذا عرفت المسيحية مذهبين آخرين هما : المذهب النسطوري (Nestorianisme) : الذي يقول بوجود طبيعتين منفصلتين في المسيح إحداها إلهية والأخرى بشرية، والطبيعة البشرية هي التي تغطي على المسيح لأنه أمه مريم العذراء من البشر.=

وقبل انفجار هذا الجدل كانت الكنيسة الأرمنية من الناحية العملية واحدة من الكنائس المسيحية الأخرى المنتشرة في العالم، حتى انعقاد مجمع خلقدونية في سنة 451م¹ الذي تبنى مذهب الطبيعتين، وغدا المذهب الرسمي للكنيسة البيزنطية. لكن رجال الدين الأرمن اشتموا فيه رائحة النسطورية التي أدانتها المجامع الدينية السابقة، مما جعلهم يرفضون ما ورد فيه من قرارات، ثم عقدوا مجمعا دينيا في مدينة دوين² (Dwin) عام 506م، حضره أساقفة أرمن، وجورجيين، وخزريين، أعلنوا فيه تمسكهم بمذهب الطبيعة الواحدة، وتلتها مجامع كنسية أخرى أهمها الذي انعقد في 21 مارس 555م، بمدينة دوين دائما، الذي يمكن اعتباره يوم ميلاد الكنيسة الأرمنية القومية، حيث

= والمذهب المونوثيليتي (Monothélisme) : القائل بوجود إرادة واحدة في المسيح دون التعرض لطبيعته. (انظر : الشهرستاني : مصدر سابق، ص 181؛ الدبس يوسف : مرجع سابق، ج 4، ص 333-334؛ حافظ احمد غانم : مرجع سابق، ص 211؛ ويلتر ج : مرجع سابق، ص 91-93؛ نافع أميرة محمد : مرجع سابق، ص 33-34؛

Valognes Jean-Pierre : op. cit., pp. 36-37, 41-42).

¹ لا تعترف الكنيسة الأرمنية إلا بالمجامع الدينية الثلاث الأولى، وهي مجمع نيقية (325م)، الذي أقر تأليه المسيح ومساواته التامة مع الله، واتخذ قرارا بتكفير آريوس وكل من يقول أن المسيح إنسان، ومجمع القسطنطينية (381م)، الذي أقر ألوهية الروح القدس، ومساواته التامة مع الأب، ومجمع أفسس (431م)، الذي أدان نسطور، لأنه فصل بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية للسيد المسيح (Diophysisme). أما مجمع خلقدونية (451م)، فقد تقر فيه أن للمسيح طبيعتين دون خلط ودون امتزاج، ودون انفصال ودون تفريق، وهذا ما يسمى اصطلاحا بمذهب الطبيعة الثنائية (Diophysisme). ولم يكن للأرمن من يمثلهم في مجمع خلقدونية بسبب انشغالهم بمعركة افارير (Avarair)، ضد الفرس، ومن ثمة فلم يكونوا على علم بقراراته. (أنظر : نبيل نيقولا جورج بوخاروف : المسيحية دين الله الذي أنزله على المسيح أم هي ديانة بولس، (بدون دار ومكان النشر) 2007. ص 80-81؛ موسوعة عالم الأديان؛ ج15، ص 31، 37؛ كاميللو بيري : مرجع سابق، ص 37-43؛ الفصل الأول ص 78، هامش رقم 3).

Grousset : Histoire de l'Arménie, pp. 202-206; Mouradian : op. cit. p. 17; Augé Isabelle : Byzantins, Arméniens, p. 19).

وحول هذا نزلت آيات قرآنية كثيرة منها : {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ} (المائدة «73»)، أي أن المسيحيين يقولون أن طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية : الله الأب، والله الإبن، والله الروح القدس. وليس بعد قول الله تعالى قول، حيث يذكر أن المسيح وأمه بشر : {مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّئُ هُمُ اللَّائِي ثُمَّ أَنْظِرْ إِلَى يَوْمِكُنَّ} (المائدة «75»). (أنظر : قطب سيد : في ظلال القرآن، دار الشروق، ط. 11، القاهرة، 1982. ج2، ص 943-945).

² دوين : تسمى أيضا توين ودليل، وهي الآن قرية صغيرة في جنوب يريفان، وكانت في العصر الوسيط من أكبر المدن بأرمينيا الكبرى، كانت ثغرا فتحه حبيب بن مسلمة في أيام عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، ومنذ القرن الخامس الميلادي اتخذها جتالقة الأرمن مقرا لهم، إلى أن تعرضت لزلازل عنيف في نهاية التاسع الميلادي. (انظر : الحموي : مصدر سابق، ج 4، ص 288؛ لسترنج كي : مرجع سابق، ص 216؛ Mutafian Claude : L'Arménie du Levant, t. I, p. 477).

أكد الحاضرون فيه رفضهم المطلق لتعاليم مجمع خلقدونية، فانقطعت بذلك الكنيسة الأرمنية عن الكنيسة البيزنطية وكرسي القسطنطينية وروما. وبذلك تكون الكنيسة الأرمنية قد حددت موقفها المذهبي بالوقوف في خندق واحد مع المنافزة في الشرق وانفصلت عن الكنائس المسيحية الأخرى في طقوسها ومعتقداتها.¹

والجدير بالملاحظة، أن قرار انفصال الكنيسة الأرمنية عن الكنيسة البيزنطية، كان مدفوعاً بدوافع سياسية أكثر منها دينية، ذلك أن الامبراطورية البيزنطية تحاول أن تكون وريثة الامبراطورية الرومانية بكل امتدادها الجغرافي، وتحاول فرض سياستها المركزية عن طريق مذهبها العقائدي. وكان الأباطرة البيزنطيون يخشون أن تؤدي هذه الاختلافات المذهبية إلى اضطرابات أو حروب داخلية تفقد فيها الامبراطورية ولاياتها الشرقية، لذلك سعوا للسيطرة على الكنيسة ورجالها حتى لا يعطوا الفرصة لهم ليستقلوا بكنائسهم وولاياتهم، لذلك كان الأباطرة يرغبون في غالب الوقت في الانتصار لكنيستهم البيزنطية، الأمر الذي يجعلهم يضطهدون أتباع المذاهب الأخرى.² وبلغ بهم الأمر إلى تنظيم حملة عسكرية في عهد الامبراطور قسطنطين دوقاس، للقضاء على المؤسسة الدينية للأرمن، فهجموا على الجثليق، وحاولوا إزالة مقر إقامته من أجل إرغام أرمنيا على تطبيق قرارات مجمع خلقدونية.³ وذكر ميخائيل السرياني أن بطريك القسطنطينية أمر بطرد جميع السريان والأرمن الذين لا يعترفون بمرطقته، وأحرق كل كتبهم.⁴

وكان أشد ما يكرهه الأرمن هذه المركزية، خاصة إذا مست مذهبهم المونوفيزي، خشية ضياع شخصيتهم الدينية والسياسية. وسرعان ما وجدوا في تمسكهم بمذهبهم المخالف لمذهب كنيسة القسطنطينية شخصيتهم السياسية المستقلة. لهذا حرصوا أشد الحرص على ألا يذوبوا في كيان سياسي

¹ المدور عثمان : مرجع سابق، ص 282؛ عطية عزيز سوريال : مرجع سابق، ص 404؛ موسوعة عالم الأديان؛ ج15، ص 38؛
Dulaurier Édouard : Histoire Dogmes; p. 35; Valognes Jean-Pierre : op. cit., pp. 450-451;
Mahé Annie : op. cit., pp. 97-100.

² عطية عزيز سوريال : مرجع سابق، ص 404؛ نافع أميرة محمد : مرجع سابق، ص 44.

³ Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 114-115.

⁴ Michel Le Syrien : op. cit., t. III, p. 166-167.

آخر، لذا ظلوا منذ ذلك التاريخ متهمين بالانشقاق، وفي حالة شك وارتباب متبادلة بينهم وبين الامبراطورية البيزنطية، التي حاولت في أكثر من مرة أن تجبرهم على اعتناق مذهبها الرسمي، وطالما عانوا من اضطهاد البيزنطيين لهم. وكان من نتائج تلك السياسة التعسفية التي مارسها الأباطرة البيزنطيون ضد رعاياهم الأرمن المخالفين لهم في المذهب، أن بلغ الكره بين البيزنطيين والأرمن أقصاه، فتحول أتباع الكنيسة الأرمنية المضطهدة من الخلاف المذهبي إلى المعارضة السياسية، الأمر الذي جعلهم يرحبون بالفاتحين المسلمين باعتبارهم منقذين لهم عندما طرّقوا بلادهم فاتحين في القرن السابع الميلادي، وسرعان ما شعر الأرمن بسماحة المسلمين الذين لم يتدخلوا في شؤونهم الدينية، وسمحوا لهم بممارسة شعائهم، ولم يحاولوا أن يفرضوا عليهم ديناً أو مذهباً بعينه، ولذلك فضلوا الإقامة في مناطق تخضع للسيادة الإسلامية ليتمكنوا من ممارسة عبادتهم بحرية دون تدخل من بيزنطة. وفي نهاية الأمر أفلتت أرمينيا من الاتحاد مع الكنيسة البيزنطية، وتعززت هذه الاستقلالية تحت الحكم الإسلامي.¹

وما عزز هذه الاستقلالية أكثر، هو اختراع الأبجدية الأرمنية فيما بين 392 و 405م،² فتحوّلت الأرمنية من لغة منطوقة إلى لغة مكتوبة، وكان الانجيل أول كتاب ترجم إليها ثم تبعته الكتب الدينية الأخرى، وشيئاً فشيئاً حلت اللغة الأرمنية محل اليونانية والسريانية في الطقوس والشعائر الدينية. وبذلك لم تعد الكنيسة الأرمنية مجرد مكان يلتقي فيه الأرمن لأداء عباداتهم، بل تحوّلت إلى وعاء ورمز للهوية والشخصية الأرمنية، وساعدت الأرمن خلال تاريخهم الطويل على التميز حيثما انتشروا، بفضل كنيستهم الوطنية،³ التي بقيت متمسكة بموقفها المناهض لمذهب الطبعيتين الخلقدونى، ولم تقبل المساومة على قواعد إيمانها القائم على مذهب الطبيعة الواحدة أو

¹ رنسيان ستيفن : الحضارة البيزنطية، ص 292؛ عطية عزيز سوريال : مرجع سابق، ص 407؛ العبد الغني عبد الرحمن محمد : أرمينية، ص 45؛ موسوعة عالم الأديان، ج 15، ص 51؛

Bréhier Louis : L'Eglise et l'Orient, pp. 18-19; Grousset : Histoire de l'Arménie, p. 234-237,315; Augé Isabelle : Byzantins, Arméniens, pp. 20-21.

² خوريناتسي : مصدر السابق ص 262-265.

³ Grousset : op. cit., pp. 171-176; Mouradian Claire : op. cit. p. 19.

المونوفيزية. وهذا الموقف الواضح هو الذي حدد مواقف الأرمن طوال تاريخهم من كنيستي القسطنطينية وروما، إلى جانب رفضهم التام لكل ما هو يوناني وسرياني. ومن هذا المنطلق يعترف الأرمن بتقاليدهم الخاصة في احتفالاتهم الدينية وبأبجديتهم، وبالنسخة الأرمنية للكتاب المقدس.¹ ويقول اسقف أرميني معاصر: "إن الأرمني الذي لا ينتمي إلى المسيحية لا يعد أرمينيا، إيماننا وهويتنا ينبعان من مصدر واحد".² ولم يقتصر تميز الكنيسة الأرمنية في عقيدتها وطقوسها فحسب، بل تميزت عن الكنائس الأخرى حتى في طرازها المعماري الفريد الذي جعلها تختلف في شكلها وهندستها عن الكنائس البيزنطية والقبطية والسريانية، وقد بلغت الحضارة الأرمنية في هذا المجال شأوا بعيدا حيث تجاوزت المؤثرات الأرمنية في فنون العمارة حدود أرمينيا لتصل إلى بلدان وحضارات أخرى كثيرة مجاورة ونائية، ويقول أحد العلماء المختصين في الهندسة المعمارية، أن للأرمن دورا رئيسا في خلق أصول الهندسة المعمارية الأوربية وتطور العمارة المسيحية بشكل عام.³

وإذا كان المؤرخ القبطي عزيز عطية سوريال يعترف بأن وضع الكنيسة الأرمنية تحت الحكم العربي الإسلامي، كان أفضل بكثير من وضعها تحت سيطرة البيزنطيين،⁴ فإنه يتهم الأتراك بالشدة وعدم التسامح، حيث يقول: "ولم يكن السلاجقة يتحلون بالسماحة التي لمسها الأرمن في أيام العرب وعدلهم في الحكم، فلقد جاء السلاجقة للإقامة الدائمة على أرض أرمينيا، كما أنهم كانوا أشداء في تعاملهم مع الشعب الأرمني".⁵ والحقيقة الوحيدة التي وردت في حديث هذا المؤرخ أن السلاجقة فعلا كانوا أشداء في حروبهم، ليس ضد الأرمن أو المسيحيين فقط بل ضد كل الشعوب التي واجهوها بما في ذلك المسلمين، وهذه عادة كل الحكام الجدد إذ يستخدمون الشدة مع السكان

¹ عطية عزيز سوريال : مرجع سابق، ص 423.

² موسوعة عالم الأديان؛ ج15، ص 11.

³ يحتاج موضوع الهندسة المعمارية الأرمنية في ميدان بناء الكنائس إلى بحث مستقل يضطلع به باحثون متخصصون في الموضوع.
(انظر : المدور عثمان : مرجع سابق، ص 353-365؛ عطية عزيز سوريال : مرجع سابق، ص 433-441؛

Dédéyan, Les Arméniens en Occident, p. 131; Thierry Nicole : op. cit., p. 363-364.

⁴ عطية عزيز سوريال : مرجع سابق، ص 407.

⁵ المرجع السابق، ص 410.

في بداية حكمهم لتوطيد سلطتهم. ولكنهم لم يجبروا المسيحيين في الشرق على اعتناق الاسلام، أو منعوهم من ممارسة شعائرتهم، أو أجبروهم على اتباع مذهب معين، لأن الإكراه في الدين أو المذهب يأتي بنتائج عكسية ووخيمة.¹

والدليل على ذلك ما ورد في حولية متى الرهاوي حيث وصف السلطان السلجوقي ملكشاه بأنه صديق للمسيحيين، وأعفى كنائسهم من الجزية المفروضة عليهم.² ولما تعرض رئيس الكنيسة الأرمنية الجاثليق الأرميني جريجور الثاني فيكاياسر لضغوط الأمير الأرميني فيلاريت بعد معركة منازكرد، وضاق به ذرعاً، لجأ إلى أرمينيا الكبرى التي كانت خاضعة لملكشاه مستفيداً من تسامح السلاجقة،³ ولذلك يوم وفاة السلطان ملكشاه حزن عليه المسيحيون حزناً شديداً.⁴ وتحدث متى الرهاوي عن التركماني أحمد دانشمند صاحب سيواس قائلاً: "كان رجلاً طيباً ومحسناً ومعطاءً تجاه شعبه ورحيماً تجاه المؤمنين، وسبب رحيله الأسى للمسيحيين".⁵ وفي نظر ميخائيل السرياني، فإن الاضطهاد الذي مارسه ضدهم بيزنطة أسوأ بكثير من السلب والنهب الذي مارسه الأتراك السلاجقة، لأنهم لم يتعرضوا لأموال العقيدة، فذكر، أن السلاجقة المسلمين "يعتبرون معتقدات الديانة المسيحية خاطئة، ولكنهم لم يضطهدوا أحداً بسبب عقيدته أو مذهبه كما يفعل البيزنطيون الهراطقة المنبوذون".⁶ هذه بعض شهادات مؤرخين مسيحيين معاصرين للأحداث. وأكبر دليل على تسامح المسلمين مع الكنيسة الأرمنية، أن المسلمين في عهد الدولة الأيوبية فتحوا كثيراً من المدن والقلاع في منطقة الفرات، وبقيت قلعة الروم وحدها وسط بلادهم، ولم ينتزعوها ليس لحصانتها ومناعة أسوارها ولكن

¹ اسكندر فايز نجيب : سيبوس (Sébêos) - المؤرخ الأرميني المعاصر للفتح الاسلامي لأرمينية - وصورة الآخر، بحث مقدم في : الندوة الدولية للعلاقات الثقافية العربية-الأرمنية، 16 مارس 2009، منشورات مركز الدراسات الأرمنية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2009. ص 166.

² Matthieu d'Edesse : op. cit., pp. 201-204; Augé Isabelle : Byzantins, Arméniens, pp.70-71.

³ Grousset : Histoire de l'Arménie, p. 636; Augé Isabelle : Le catholicos, p. 344.

⁴ Matthieu d'Edesse : loc. cit.

⁵ متى الرهاوي : مصدر سابق، ص 142.

⁶ Michel le Syrien : op. cit. t. III, p. 222.

احتراما وتبجيلا للجنثليق الأرمني الذي اتخذ من هذه القلعة مقرا له ولحاشيته، "لأجل مقام رب الملة عندهم كأنهم يتركونها كما يتركون البيع والكنائس"، وبقيت هذه القلعة وسط بلاد المسلمين دون أن ينازعهم فيها أحد نحو قرن ونصف.¹ والجدير بالذكر أنه لم يكن قائدا روحيا للأرمن في قيليقيا فقط، بل لجميع الأرمن حيثما كانوا.²

وإنصافا للحقيقة التاريخية، فإن بعضا من الأرمن عارضوا بقوة الفتوحات الاسلامية، ورفضوا الانصياع للدولة الاسلامية، وقاوموا بشدة الأتراك السلاجقة، وأبرز هؤلاء الأرمن الذين ناهضوا المسلمين كانوا من أتباع الكنيسة البيزنطية الخلقدونية، لا من أتباع الكنيسة الأرمنية، وكان معظمهم في خدمة الامبراطورية البيزنطية إما منخرطين في جيشها أو موظفين في إدارتها، منهم فيلاريت براخامبوس في طوروس، وجبريل في ملطية وثوروس في الرها وثاتول في مرعش ... فهؤلاء وغيرهم كانوا ينعمون بحماية الدولة البيزنطية لهم، ولا يرغبون في ظهور حكام جدد في المنطقة، لذلك استمروا على ولائهم لبيزنطة، وشكلوا خطرا على المسلمين، وكانت مقاومتهم للوجود الإسلامي في قيليقيا والفرات، امتدادا للمقاومة البيزنطية.

فهل يعني ذلك أن الأرمن وغيرهم من المنافرة أتباع مذهب الطبيعة الواحدة كانوا أقرب إلى المسلمين في عقيدتهم من الخلقدونيين أتباع مذهب الطبيعتين ؟

الواقع أن الاجابة عن هذا السؤال تحتاج إلى بحث يغوص في عمق العقائد والمقارنة بين العقيدة الاسلامية ومعتقدات اليعاقبة والمنافرة، والملكانية. وهذا يخرج عن موضوع البحث. وما يمكن قوله في هذا الموضوع أن المسلمين عموما والسلاجقة خصوصا، لما فتحوا الأمصار والبلدان، واستقروا في الشام وفي آسيا الصغرى، وجدوا أنفسهم وسط طوائف وجماعات مسيحية، وغير مسيحية يعتقدون مذاهب شتى، فأقرهم المسلمون على ما هم عليه، ولم يفرقوا بين الطوائف المسيحية المختلفة فهم

¹ الحموي : مصدر سابق، ج 7، ص 83-84؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ق 2، ص 530؛

Cahen Claude : La Syrie du Nord, p. 122.

² Mutaftian Claude : La Cilicie, t. I, p. 410.

جميعاً يتمتعون بالحماية طالما يدفعون الجزية، ولا يتدخلوا في شؤون الدين الإسلامي.¹ ولم يتدخل المسلمون عرباً أو سلاجقة في عقائد غيرهم، وتركوا لهم حرية ممارسة حياتهم الدينية والاجتماعية وفقاً لمذهب كل طائفة، ووضعوا أحكاماً خاصة بهم تنظم علاقتهم بالمسلمين ومعاملاتهم اليومية، وعرفت هذه التشريعات بفقهِ وأحكام أهل الذمة. أما الحروب التي اندلعت بين المسلمين والأرمن وغيرهم من الطوائف المسيحية، فقد كانت لأسباب ودوافع سياسية وليس لدوافع دينية أو مذهبية. وإذا كانت الكنيسة الأرمنية قد خرجت سالمة غائمة من الحرب الدينية التي فرضتها عليها بيزنطة، فقد وجدت نفسها—بعد استقرار الصليبيين في الشام—تخوض صراعاً مذهبياً جديداً من أجل البقاء.

ب - علاقة الكنيسة الأرمنية بالكنيسة الكاثوليكية

لا بد من الإشارة إلى أن الخلاف الذي اندلع بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي،² وأدى في الأخير إلى تكريس الانشقاق نهائياً في سنة 446هـ/1054م، بين الكنيستين الشرقية والغربية، حيث سميت الأولى بالكنيسة الأرثوذكسية،³ وسميت الثانية بالكنيسة الكاثوليكية.⁴ ولم يكن للكنيسة الأرمنية دور فيه، لأنها لم تكن معنية به، وذلك لأنها انفصلت منذ زمن بعيد عن كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما بسبب قرارات مجمع خلقدونية. ورغم ذلك سميت كنيسة الأرمن خطأً بالكنيسة الأرثوذكسية الأرمنية، بينما هي في الأصل تحمل اسم "الكنيسة الأرمنية" فقط، أو اسم "الكنيسة الرسولية الأرمنية".⁵

¹ نافع أميرة محمد : مرجع سابق، ص 51.

² حول أسباب وظروف هذا الانشقاق وتطوره، (انظر : نافع أميرة محمد : مرجع سابق، ص 73-79؛

Bréhier Louis : L'Eglise et l'Orient, pp. 40-50).

³ الأرثوذكسية (Orthodoxie) : كلمة يونانية مركبة من أرثو (Orthos)، وتعني مستقيم أو راشد أو قويم، ومن دوخسا (doxa)، ومعناها الرأي، وتعني أن الكاثوليك ملتزمون بالعقيدة المسيحية المستقيمة كما وردت في المذاهب الكنسية القديمة منذ 395م، ومنذ 1054، أصبح هذا المصطلح يستعمل لتمييز مجموع الكنائس الشرقية غير المرتبطة بكنيسة روما. (انظر :

Feuillet Michel : op. cit., p. 84; Valognes Jean-Pierre : op. cit., 43-46, 134-140).

⁴ الكاثوليكية (Catholicisme) : كلمة يونانية (Katholikos)، معناها عالمي، ويطلق هذا المصطلح على جميع المسيحيين والكنائس التابعة للبابا في الفاتيكان بروما. (انظر :

Feuillet Michel : op. cit., p. 23; Valognes Jean-Pierre : op. cit., 140-142, 146-148.

⁵ المدور عثمان : مرجع سابق، ص 284.

ورغم طغيان طابع المشاحنات والنزاعات على العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية وإمارة أرمينيا الصغرى، فإن ذلك لم يمنع من قيام عدة محاولات للتقريب بين الكنيسة الأرمنية والكنيسة البيزنطية، خاصة بعد الانشقاق؛ لأن هذه الأخيرة كانت تريد احتواء الكنائس الشرقية لتقف معها في حربها المذهبية ضد كنيسة روما الكاثوليكية. وفي هذا الإطار، جرت عدة مراسلات وعُقدت عدة لقاءات بين الاكليروس الأرمني ونظيره البيزنطي. ولكن شساعة الهوة بين الكنيستين، أدت إلى بقاء نقاط ظل كثيرة لم يتمكن الطرفان من التوصل إلى اتفاق حولها، مما جعل كل تلك المحاولات لإعادة الكنيسة الأرمنية إلى الكنيسة البيزنطية تذهب أدراج الرياح؛ بسبب العداء الدفين الذي يكنه كل طرف للآخر، وتقدم بيزنطة لمطالب مبالغ فيها، مثل إعادة التعميد، والاعتراف بقرارات مجمع خلقدونية، الذي يعتبره الأرمن في ذمة التاريخ.¹

ولما فشلت محاولات التطبيع بين الكنيسة الأرمنية والكنيسة البيزنطية، ولّى رؤساء المؤسسة الدينية الأرمنية وجوههم شطر روما، لعلهم يحظون بتأييد البابا لهم فيتدخل لحمايتهم من اضطهاد الكنيسة البيزنطية.² وتعود الاتصالات الأولى بين الأرمن وكنيسة روما إلى ما قبل الحملة الصليبية الأولى، حيث زار الجثليق جريجور الثاني فيكاياسر، كنيسة روما والتقى بالبابا جريجوار السابع كما مر سابقا، ولم تكن الزيارة تهدف إلى البحث عن سبل التقارب بين الكنيستين، ولكنها كانت للاستغاثة بالغرب اللاتيني ضد الأتراك السلاجقة الذين اكتسحوا آسيا الصغرى واقتربوا من القسطنطينية.

ولما حل الصليبيون في آسيا الصغرى وفي الشام، خلال حملتهم الأولى، لاحظ الأرمن أن الصليبيين لا يبحثون في عقائد الطوائف المسيحية، ويتعدون عن المناقشات اللاهوتية،³ وشعروا بأنهم

¹ حول نقاط الخلاف بين الكنيسة البيزنطية ونظيرتها الأرمنية ومحاولات التوفيق بينهما، (انظر : بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 113-124؛

Dulaurier : Histoire Dogmes, pp. 38-53; Mutaflan : L'Arménie du Levant, t. I, pp. 543-553.

² Tournebize F. : op. cit., pp. 539-540.

³ براور يوشع : مرجع سابق، ص 82؛ العبد الغني عبد الرحمن محمد : الأرمن في الحرب الصليبية، ص 109.

أكثر قربا إلى اللاتين في أفكارهم وأحاسيسهم، من البيزنطيين.¹ فاعتقدوا انه من السهل استغلال هذا العنصر الجديد لتحقيق هدفهم المتمثل في إحياء دولتهم وبعث مملكتهم الغابرة، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف بذل رؤساء الكنيسة الأرمنية، والأمراء الأرمن في قيليقيا، طيلة القرن الثاني عشر الميلادي، جهودا دبلوماسية مضيئة مع البابوية، وقد أثمرت تلك الجهود في أواخر القرن، بتتويج ليون الثاني ملكا على أرمينيا الصغرى.

وكان الصليبيون من جهتهم براغماتيين في علاقتهم بالأرمن. فهم يعتبرونهم هراطقة وأصحاب بدع، ولكنهم يدركون أهميتهم في المنطقة، فاستعانوا بهم لإقامة إماراتهم الصليبية، ولم يخوضوا معهم جدالا فلسفيا أو نقاشا حول اللاهوت والناسوت في سيدنا المسيح، ويتضح ذلك من الرسالة التي أرسلها قادة الحملة الصليبية في 12 شوال 491هـ/ 11 سبتمبر 1098م، إلى البابا أوربان الثاني يخبرونه استيلاءهم على القسطنطينية، حيث جاء فيها : "لقد أخضعنا الأتراك والوثنيين، ولكننا لم نستطع التغلب على الهراطقة من اليونانيين والأرمن والسوريين واليعاقبة".² ويبدو أن كراهية الصليبيين للأرمن للبيزنطيين قد قاربت بين الطرفين في بعض الأحيان، وباعتبار الأرمن أشهر المناوئين للكنيسة البيزنطية التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية الراعية للحملة الصليبية، فقد وجدوا وغيرهم من اليعاقبة، معاملة ودية إلى حد ما من جانب الصليبيين الذين أظهروا -على العموم- احتراما للكنيسة الأرمنية وحثليتها، ولكنهم لم يقبلوا إطلاقا أن يكونوا تحت سيادة رجال الدين الشرقيين أرمن أو غيرهم، ولذلك عينوا بطاركة كاثوليك في كل المدن التي خضعت لهم.³

ولكن هل هذا يعني بأن علاقة الكنيسة الأرمنية بالصليبيين كانت دائما قائمة على الود والصفاء ؟ لقد شاب هذه العلاقة بعض المشاحنات، أحيانا لأسباب سياسية وأخرى لأسباب دينية. ومن أمثلة ذلك، ما حدث من نزاع بين الكنيستين في بداية القرن الثاني عشر الميلادي، حيث أرادت

¹ Tournebize F. : Histoire politique et religieuse de l'Arménie, ds. : **R.O. Chr.**, dixième année, Librairie A. Picard et fils, Paris, 1905. p. 15.

² فوشيه الشارترى : مصدر سابق، ص 126.

³ فيتالي أوردريك : مصدر سابق، ص 184؛ براور يوشع : مرجع سابق، ص 80، 86؛

Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 253; Augé Isabelle : *Byzantins, Arméniens*, p. 99.

البطيركية الكاثوليكية لأنطاكية فرض سيادتها على الكنيسة الأرمنية في قيليقيا بحجة أن هذا الإقليم تابع سياسيا وإداريا لإمارة أنطاكية الصليبية، مما أدى إلى احتدام النزاع بين الصليبيين والأرمن، وبلغ الأمر بهما إلى الاحتكام لدى البابوية.¹

غير أن أهم مظهر لتدخل الكنيسة الكاثوليكية ومحاولة تأثيرها في الكنيسة الأرمنية يظهر في عهد ليون الثاني، حيث سعى هذا الأخير للحصول على التاج من الغرب الأوربي، وانتهج سياسة تقارب واضحة تجاه كنيسة روما، بل ورغب في الاتحاد معها، معتمدا في ذلك على مطران مدينة طرسوس، نرسييس دو لمبرون (Narsês de Lambron 1153-1198)،² عراب سياسة الاندماج في أرمينيا الصغرى، وكان هذا التقارب استجابة لظروف سياسية أكثر من كونه تقاربا كنسيا. ولكن الجثليق جريجوار الخامس (1193-1194)، عارض بشدة السياسة الدينية التي سار عليها ليون الثاني، فما كان على هذا الأخير إلا أن وضعه في قلعة قرب مدينة سيس، وفرض عليه حراسة مشددة، ولما حاول الفرار سقط من أعلى السور ولقي حتفه في سنة 591هـ/1195م.³ وفي نفس السنة، وبعد جدال كبير، اعترف ليون الثاني، ومعه الجثليق جريجوار السادس أبيراد (الشيرير) (Grégoire VI Abirad 1195-1202)، للبابا سلسنتين الثالث في سنة 1196م، بقرارات مجمع خلقدونية (مذهب الطبيعيتين)، كعربون عن حسن النية.⁴

ولكن البابا اشترط من جثليق الأرمن ثلاثة شروط، تمس بشعائر وطقوس الكنيسة الأرمنية، حتى تُرفع عنها صفة الهرطقة، وتدخل تحت عباءة الكنيسة الكاثوليكية، وهذه الشروط هي⁵ :

¹ Dulaurier : ds. R.H.C.D. Arm., t. I, p. 29, note n° 2; Mutaftian : L'Arménie du Levant, t. I, pp. 543.

² Cahen Claude : Orient et Occident, p. 180; Pasdermadjian H. : op. cit., p. 231; Augé Isabelle : Byzantins, Arméniens, p. 46.

³ Tournebize : **R.O. Chr.**, 10^{ème} année, p. 17; Vernier Donat : op. cit., p. 224; Augé Isabelle : Le catholicos, p. 340, 342.

⁴ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 128؛ Tournebize F. : op. cit., p. 22-26.

⁵ Guiragos de Kantzag : op. cit., pp. 422-423; Vernier Donat : op. cit., p. 226.

1. الاحتفال بعيد ميلاد السيد المسيح (Noël ou Nativité)، والأعياد الدينية الأخرى حسب الرزنامة التي تحددها الكنيسة الكاثوليكية.¹

2. عدم قطع صيام الاحتراس، لعيدي الميلاد الفصح، بالحب، بل بتناول الزيت والسمن فقط.

3. قراءة التراتيل حسب الأوقات المحددة داخل الكنيسة وليس خارجها.

وأضاف بعض المؤرخين شرطين آخرين هما² :

1. تعليم اللغة اللاتينية في أرمينيا، وتلقينها للأطفال في سن الثانية عشر.

2. على جثليق الأرمن أن يرسل في وقت محدد ومعلوم، وفدا إلى روما بصفة منتظمة، لتقديم التحية ومظاهر الاحترام للبابا.

وبعد أن تلقى ليون الثاني التاج الملكي، كتب الكاثوليكوس جريجوار السادس عدة رسائل إلى البابا الجديد إنوسنت الثالث (Innocent III)، خاطبه فيها بقوله : "أيها القائد للكنيسة الكاثوليكية الرومية، بعد المسيح، أم جميع الكنائس، وأساس الأمة المسيحية ، أنا ابن كنيستكم". وأرسل الملك ليون الثاني بدوره رسالة بتاريخ 26 رجب 595هـ/23 ماي 1199م، إلى البابا، وصفه برئيس الكنيسة الجامعة، وأعرب له فيها عن رغبته في تحقيق الاتحاد بين الكنيسة الأرمنية وكنيسة روما، وأن يجمع حولها كل الأرمن حيثما كانوا، وطلب منه أن يساعده لتحقيق هذه الغاية، وأن يقف إلى جانبه ضد أعداء المسيح، وأجابه البابا برسالة أخرى تحمل تاريخ 4 صفر 596هـ/24 نوفمبر 1199م، شكره فيها، وهنأه، وأخبره أن عددا من الجنود حملوا الصليب وهم في طريقهم لمساعدته في الحرب ضد المسلمين (sarrasins).³

وهكذا، ومن أجل الحصول على التاج أراد ليون الثاني ومعه بعض رجال الدين الأرمن، تحويل كنيستهم الوطنية إلى ملحقة للكنيسة الكاثوليكية الصليبية، عملا بمبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" وهي

¹ يحتفل الأرمن بعيد الميلاد يوم 6 جانفي من كل عام، ويحتفل به الكاثوليك يوم 25 ديسمبر. (انظر :

Valognes Jean-Pierre : op. cit., p. 469).

² Alishan Leonce M. : Léon : p. 167; Tournebize F. : **R.O. Chr.**, 10^{eme} année, p. 26.

³ Tournebize F. : op. cit., pp. 27-29, Vernier Donat : op. cit., pp. 226-227.

السياسة التي سار عليها كل أمراء أرمينيا، منذ فيلاريت في سنة 465هـ/1072م، إلى تتويج ليون الثاني في سنة 594هـ/1198م. ولكن ثمة فرق كبير بين أحلام أرباب القصور في أرمينيا الصغرى، وطموح الشعب الأرميني، إذ سرعان ما وجد ليون الثاني نفسه يسبح ضد التيار، حيث وجدت سياسة الاندماج هذه معارضة قوية من الاكليروس ومن عامة الشعب، واتهم نرسييس دو لمبرون بخيانة قواعد الايمان الأساسية، وتقاليد الكنيسة الأرمنية، ولتبرير موقفه كتب رسالة طويلة إلى ليون الثاني، قدم فيها مجموعة من النصائح للملك، ودعا له بالنجاح في مسعاه.¹

ونتيجة لهذه الأزمة، تعرضت الكنيسة الأرمنية للشقاق والفرقة، فقام مجموعة من رجال الدين بانتخاب جثليق جديد مناهض ومعارض لسياسة الانضمام إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية، واتخذ من مدينة أجثمار (Aghtamar) في أرمينيا الكبرى مقرا له، مما أدى إلى وجود جثليقين متنافسين، الأول في أرمينيا الصغرى، ويمثل فريق المطالبين بالانضمام إلى كنيسة روما، والثاني في أرمينيا الكبرى ويمثل أنصار المحافظين على المذهب المونوفيزي، وبذلك بدأ فصل جديد في تاريخ الكنيسة الأرمنية. ثم شرع بعض بطاركة الأرمن يعترفون بالمذهب الكاثوليكي الواحد بعد الآخر، ورغم ذلك لم يعترف أي مجمع كنسي أرميني بالانضمام إلى الكاثوليكية، وظل هذا الانقسام قائما إلى غاية سقوط أرمينيا الصغرى على يد المماليك في سنة 776هـ/1375م. ولم يتمكن الأرمن الكاثوليك من تأسيس كنيسة خاصة بهم إلا في سنة 1740م، فبادر البابا بندكت الرابع عشر (Benoît XIV) (1740-1758م))، باعتمادها، ومقرها في مدينة بيروت إلى اليوم.²

¹ Nersês de Lampron : Lettre adressée au roi Léon II, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} éd., Paris, 1969. pp. 579-603.

² عطية عزيز سوريال : مرجع سابق، ص 413-419؛

Valognes Jean-Pierre : op. cit., p. 494; Payaslian Simon : op. cit., p. 89.

ج - المؤثرات الاجتماعية والثقافية

- الزواج بين الأرمن والصليبيين

تمثل علاقات المصاهرة بين الأرمن والفرنجة، خلال فترة الحروب الصليبية، أهم مظهر للتفاعل الاجتماعي بين فئتين مختلفين حضارياً. ومنذ الأيام الأولى التي استقر فيها الصليبيون في الإمارات التي أسسوها في الشام، اتخذ بعض نبلائهم وفرسانهم زوجات أرمنيات. وكان بلدوين البولوني، أول أمير صليبي في الرها، وثاني ملك على مملكة بيت المقدس، قد تزوج من أردا، ابنة أحد الأمراء الأرمن في إقليم الفرات. وحذا حذوه خليفته، بلدوين الثاني إذ تزوج من مورفيا ابنة جبريل صاحب ملطية. واتخذ جوسلين دو كورتينا، أمير الرها، زوجة أرمنية هي أخت ثوروس الأول بن قسطنطين،¹ أمير بني روبين في أرمينيا الصغرى. ونفس الأمر بالنسبة للأمراء والنبلاء الأرمن فقد تزوج كثير منهم من فرنجيات، مثل الأمير ليون الأول الذي تزوج بالأميرة بياتريس (Béatrice)، قريبة بلدوين الثاني، ثم الملك ليون الأول الذي تزوج بزابيل (Zabêl) أخت سبيل زوجة بوهيموند الثالث، أمير أنطاكية، وبعد أن طلقها ارتبط بسبيل (Sibylle) ابنة عموري ملك قبرص. وقد أصبحت هذه المصاهرات والعلاقات الزوجية بين الأرمن والصليبيين سمة بارزة في تاريخ أرمينيا الجديدة إلى غاية سقوطها سنة 776هـ/1375م.² ولم يقتصر هذا الزواج المختلط على فئة الأمراء والنبلاء فقط، بل شاع أيضاً بين فقراء الجنود الفرنج الذين اتخذوا من الأرمنيات زوجات لهم.³ وهذه الزيجات العديدة التي حدثت بين الأمراء الأرمن ونظرائهم الصليبيين، وكذلك بين عامتهم لا يوجد مثلها بين الأرمن والمسلمين. باستثناء ما حدث من مصاهرات قبل الحروب الصليبية، حيث استوطنت بعض القبائل والأسر العربية

¹ Aslan Kévork : op. cit., p. 76.

² أنظر القائمة الكاملة لعلاقات الزواج والمصاهرة التي تمت بين أمراء من أصول أوربية، وأميرات أرمنيات وأمراء أرمن بأميرات

فرنجيات، في : Dulaurier : op. cit., pp. CXXIII-CXXIV.

³ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ق 1، ص 164؛ الرويضي محمود : مرجع سابق، ص 202.

منطقة أرمينيا واستقرت هناك إلى جانب الأرمن واختلطت بهم إلى حد الزواج، كما كانت أمهات عدد من الخلفاء العرب أرمينيات المولد.¹

وقد أنجبت هذه العلاقات الزوجية بين الصليبيين والمسيحيين المحليين جيلا جديدا مهجنا، يعرف بالبولان (Poulains)،² وقد حل هذا الجيل الجديد بمرور الوقت محل طبقة عامة المحاربين من الصليبيين وقام بدوره في خدمة المجتمع الصليبي بالشام.³ منهم جوسلين الثاني أمير الرها، الذي كانت أمه أرمينية هي أخت الأمير الأرميني ليون الأول، وأبوه هو جوسلين دو كورتيناى المعروف بجوسلين الأول، صاحب الرها، وبعض المؤرخين يعتبره مع أمثاله نصف أرميني (demi-arménien).⁴

وعن طريق هذا الزواج المختلط، وجد فن الطهي الشرقي طريقه إلى المستوطنات الصليبية، وتسرب معه السرور والرضا إلى المطبخ الصليبي، بسبب زواج الصليبيين بسيدات أرمينيات على مستوى الملوك والأمراء، وهؤلاء كن يُحضرن الخدم الشرقيين البارعين في فن الطهي. كما تزوج أفراد الطبقة الدنيا من الصليبيين بنساء من الأرمن ماهرات في الطهي.⁵

¹ بولاديان آرشاك : أرمينيا في التاريخ العربي-الاسلامي، بحث مقدم في : الندوة الدولية للعلاقات الثقافية العربية-الأرمنية، 16 مارس 2009، منشورات مركز الدراسات الأرمينية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2009. ص 7، 9.

² البولان : أو البولانيون وتعني طبقة الأفراخ، وهم الأبناء المنحدرين من الزيجات المختلفة، بين الفرنجة والمسيحيين المحليين من أرمن ويعاقبة وسريان وغيرهم، وقد كثرت تلك الزيجات خاصة في المدن. ويوصفون بأنهم تربوا في الترف، والميل إلى الرفاهية، وأقاموا علاقات وطيدة مع المسلمين وتأثروا بهم كثيرا. وهناك رأي آخر يعتبر أن البولان في اللغة الفرنسية القديمة اشتقت من بولوس (Pullus)، وتعني صغير حيوان ما، وإن البولاني كانوا على الجيل الثاني من المستعمرين، ولم يكونوا على الإطلاق من دماء مختلطة. وتوجد فئة أخرى تشبهها، هي التركبولية (Turcoples)، وهم الأبناء الذين ولدوا من آباء أتراك وأمهات مسيحيات يونانيات في الغالب. (انظر : الحويري محمود محمد : الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، دار المعارف، القاهرة. 1979. ص 80؛ عوض محمد مؤنس : مرجع سابق، ص 139؛

Crawford Paul : **Poulains**, in : Crus. Enc., ABC-Clio, California, 2006. p. 984; Balard Michel : Les Latins en Orient XI^e-XV^e siècle, Presses universitaires de France, Paris, 2006. p. 93.

³ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ق 2، ص 469-470؛ نافع أميرة محمد : مرجع سابق، ص 83.

⁴ Cahen Claude : Orient et Occident, p. 73.

⁵ براور يوشع : الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس اللاتينية، ترجمة عبد الحافظ عبد الخالق البناء، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001. ص 616؛ نافع أميرة محمد : مرجع سابق، ص 85.

– الألقاب والعادات

وعلى ضوء الحملات الصليبية التي طغى عليها الطابع الفرنجي (الفرنسي)،¹ وكثرة المصاهرات والعلاقات الزوجية بين الأرمن والفرنج، فقد كان من الطبيعي أن صارت اللغة والعادات الفرنسية عنصرا مهما وأساسيا في حياة البلاط الأرمني، طيلة الحقبة التي كان فيها الأرمن سادة على إقليم قيليقيا، بل واستمرت إلى ما بعد سقوط المملكة. ومن بين مظاهر التأثير بالفرنجة، إطلاق الأرمن ألقابا غربية على أصحاب المناصب السياسية والادارية والعسكرية، مثل بارون، وكونت، ومارشال. ويستنتج من الخطاب الذي وجهه المطران نرسييس للمبروني إلى الملك ليون الثاني، أن تأثير الفرنجة في الأرمن بلغ شأوا بعيدا، مما جعل المطران –رغم أنه من دعاة الاندماج والانضمام إلى الكنيسة الكاثوليكية الغربية– ينصح الملك في هذا الخطاب بالتمسك بعادات وتقاليده وأجداده، ومما جاء في هذه الرسالة الطويلة، "... لا تذهب إلى المجالس حاسر الرأس مثل اللاتين الذين يقولون بأن الأرمن مصابون بداء الصرع، اترك لحيتك تنمو على الذقن كما فعل أجدادك، البس التورة² (tour'a)، العريضة المكسوة بالشعر، وليس معظفا أو سترة قصيرة ضيقة حول الجسم، (...) استعمل ألقابا شرفية مثل أمير، حاجب، مرزبان، وأخرى تشبهها، ولا تستعمل ألقابا مثل سير (sire)، وبروكسيموس³ (proximos)، وكونتابل⁴ (connétable)، (...) مثلما يفعل اللاتين، غير لباس وألقاب هؤلاء، واعطهم ألقابا فارسية (تركية) وأرمنية ...".⁵

ومن أبرز العادات التي كان يمتتها الأرمن عند اللاتين، عادة حلق اللحية التي كان الأرمن يعتبرونها من مقومات الرجولة، وراعهم ما شاهدوه من كثرة الصليبيين الذين يخلقون لحاهم. ويذكر

¹ Cahen Claude : Orient et Occident, op. cit., p. 67.

² التورة : معطف مصنوع من جلد الماعز، عادة ما يكون شعره طويل، وفي الوجه الخارجي للمعطف. (انظر :

Dulaurier : ds. R.H.C.D. Arm., t. I, pp. 597-598, note n° 4.)

³ بروكسيموس : هو ضابط أو مساعد قائد معسكر، وفي النصوص الأرمنية يقصد به أحد الموظفين السامين المكلف بالشؤون المالية.

(انظر : بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 75؛ Dulaurier : op. cit., t. I, p. 598, note n° 6.)

⁴ كونتابل : هو الذي يحمل لواء الملك أثناء الحرب (انظر : بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 75).

⁵ Nersès de Lampron : op. cit., pp.597-598.

وليم الصوري حادثة وقعت بين جبريل الأرميني صاحب ملطية، وبلدوين الثاني أمير الرها، الذي كان متزوجاً من مورفيا صغرى بنات جبريل. وكان بلدوين شرها في اكتساب المال، ولا يتورع عن اتخاذ أي وسيلة للحصول عليه، فدبر مؤامرة مع فرسانه من أجل ابتزاز صهره الأرميني الأمير جبريل، الذي كان فاحش الثراء. وتنفيذا للخطة المدروسة بذكاء ومكر، قام بلدوين بزيارة مجاملة إلى صهره في ملطية، وبينما كانا يتجاذبان أطراف الحديث، دخل عليهما جمع من الفرسان الصليبيين، وتقدم أحدهم طالبا من بلدوين أن يسدد ما عليه من ديون تجاههم، وأنهم سئموا الانتظار وهم يرفضون التأجيل أكثر مما احتملوا، فإما أن يدفع لهم ما يستحقونه أو يفكون الارتباط معه وينصرفون عن خدمته في الحال. ولما استفسر جبريل من زوج ابنته عن واقع الأمر، اعترف له بلدوين بأنه مدين بمبلغ ثلاثين ألف قطعة ذهبية، إلى رجاله، وأنه أقسم لهم، بأنه سوف يخلق لحيته إذا لم يدفع لهم هذا المال، وهو لا يملكه الآن. واعتقد جبريل أن صهره إذا خلق لحيته، سيُلحق به الأذى والضرر، فبادر وسلم المبلغ إلى بلدوين، حتى لا يعرض نفسه للإهانة والسخرية، ويحفظ شرفه، وطلب من بلدوين على أن لا يقسم مرة أخرى برهن لحيته مطلقاً.¹

ولكن الصليبيين قاوموا تلك العادة الشرقية، إذ استمروا في خلق ذقونهم، مما جعلهم موضع احتقار الشرقيين وامتعاضهم، وفي نفس الوقت كان الصليبيون يتهمون وينتقدون الأرمن وغيرهم من المسيحيين الشرقيين؛ لأنهم يتشبهون بالمسلمين في إعفاء اللحى.² ويبدو أن الأرمن بعد قرن من احتكاكهم بالصليبيين، أصبحوا هم أيضاً يخلقون لحاهم، حيث طلب نرسييس اللمبروني، من الملك ليون الثاني في الخطاب السابق الذكر أن يترك لحيته تنمو على ذقنه ولا يخلقها كما يفعل اللاتين.³

¹ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 2، ص 280-283؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ق 1، ص 64-65.

² براور يوشع : عالم الصليبيين، ص 112.

³ Nersês de Lampron : op. cit., p.597.

– اللغة والترجمة

ومع كثرة عدد الزيجات التي وقعت بين الأمراء الأرمن والأميرات الفرنجيات، ونظرا للاحتكاك الدائم بين الأرمن والصليبيين، في الحروب والتجارة ومختلف المعاملات، فقد غزت اللغة الفرنسية بلاط مملكة أرمينيا الصغرى، واتخذت مع اللغة اللاتينية طابعا رسميا منافسا للغة الأرمنية، في المعاملات اليومية، وبها كانت تدون السجلات والقرارات الرسمية، إلى جانب اللغة الوطنية،¹ بينما كانت الإيطالية لغة التجارة والاقتصاد.² وأصبحت اللغة الفرنسية لغة الكتابة والتأليف في أرمينيا الصغرى، ومن الأمثلة عن ذلك أن المؤرخ الأرمني هيثوم (Héthoum)، الذي اشتهر في أوربا باسم هایتون (Hayton)، وهو ابن أخ الملك الأرمني هيثوم الأول، وشغل عدة مناصب في أرمينيا الصغرى. ألف كتابا في التاريخ باللغة الفرنسية القديمة، عنوانه "زهرة تواريخ أرض المشرق" (La Flor des estoires de la terre d'orient) ثم ترجمه إلى اللغة اللاتينية وقدمه في سنة 707هـ/1307م، إلى البابا كليمنت الخامس (1305-1314م)، تعرض فيه لهجمات المغول على منطقة الشرق بما فيها أرمينيا وفارس، والعراق، وفيه وصف لحصار حلب واقتحام قلعتها من قبل هولاكو، ومعه الملك هيثوم الأول، وهو الذي روج في الغرب الأوروبي لفكرة أن الخان المغولي مونكو اعتنق المسيحية.³

وإذا كانت اللغة الفرنسية قد وجدت طريقها إلى بلاط مملكة أرمينيا، فعلى العكس من ذلك بالنسبة للغة التركية، والعربية. وإذا كانت التركية لغة محدودة الانتشار والاستعمال لأنها لغة الأتراك فقط، الأمر الذي حال دون تسربها إلى الأرمن، فإن اللغة العربية التي كانت الأكثر انتشارا واستعمالا يومذاك، ورغم ذلك لم تجد طريقها إلى المؤسسات الرسمية الأرمنية. وما يزيد من غرابة هذه الظاهرة، أن الشعوب المسيحية المحلية الأخرى، مثل السريان، والأقباط، والمارونيين، وغيرهم كانوا يتكلمون

¹ بوعمامة فاطمة : مرجع سابق، ص 79.

² Pasdermajian H. : op. cit., p. 231.

³ اسكندر فايز نجيب : مملكة أرمينية؛ ص 5-9؛ زرقوق محمد : مرجع سابق، ص 12، 88-105؛ (انظر أيضا :

Hayton : La Flor des estoires de la terre d'Orient, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} éd., Paris, 1969. t. II, p. 113.

اللغة العربية.¹ ولما استقر الصليبيون ببلاد الشام، كانوا يجهلونّها جهلاً مطلقاً، وبمرور الوقت تعلوها لأسباب عديدة، منها حاجة بعض أفراد الطبقات الدنيا من الصليبيين للمفردات والكلمات العربية لاستخدامها في حياتهم اليومية، أو على الأقل للتحدث بها في السوق وممارسة التجارة للحصول على الربح المادي.² ولم يقتصر استخدامها على عامة الصليبيين، بل تعلمها بعض عليّة القوم إلى درجة الاتقان قراءة وكتابة، مثل وليم الصوري أسقف مدينة صور، وهو المؤرخ اللاتيني المشهور، وعلماء آخرون أقل شهرة، وبعض رجال الدين الذين كانوا يقومون بحركة التنصير بين المسلمين.³

ولا شك أن الأرمن كانوا يحسنون معرفة واستعمال بعض المفردات والكلمات العربية عن طريق التعامل المتكرر مع المجتمع الإسلامي، على الرغم من أن هذه التعاملات كانت قليلة ونادرة. حيث تتحدث بعض المراجع الحديثة عن وجود سبعمائة كلمة من أصل عربي في اللغة الأرمنية،⁴ منها على سبيل المثال، فعل ترجم باللغة الأرمنية (Targmanal) ((Թարգմանութիւն)، وكلمة أرزاق (Erzak) تعني في الأرمنية بضاعة وثروة، وكلمة العليق التي تعني علف الدواب، احتفظت بصيغتها العربية في اللغة الأرمنية (Aleg)، وكلمة غَزَل بالأرمنية تدل على ضرب من ضروب الشعر، وهو الغزل بنفس المعنى في الشعر العربي، واحتفظت النباتات الطبية بأسمائها العربية في اللغة الأرمنية.⁵ وتدل هذه الأمثلة على وجود تفاعل فكري وثقافي بين المسلمين والأرمن في العصر الوسيط، كما يوجد خمسمائة أثر كتابي باللغة العربية على أرض أرمنيا،⁶ ولكنها تعود إلى العهد الأموي والعباسي، وليس إلى حقبة الحروب الصليبية.

¹ Cahen Claude : Orient et Occident, p. 170.

² Cahen Claude, La Syrie du Nord, p. 184; Balard Michel : Les Latins en Orient, p. 151.

³ براور يوشع : الاستيطان الصليبي، ص 623-625.

⁴ زهر الدين صالح : عيّنات ثقافية في العلاقات العربية-الأرمنية، بحث مقدم في : الندوة الدولية للعلاقات الثقافية العربية-الأرمنية، 16 مارس 2009، منشورات مركز الدراسات الأرمنية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2009. ص 38-39.

⁵ كجو غستان : مرجع سابق، ص 71، 87.

⁶ زهر الدين صالح : مرجع سابق، ص 38-39.

وتسهب المصادر العربية في ذكر مفكرين وعلماء مسلمين ينتسبون إلى مناطق من أرمينيا التاريخية، نبغوا في مختلف ضروب العلم، كما يوجد بعض المؤرخين الأرمن من القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، الذين كتبوا عن ظهور الرسالة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية، وعن الفتوحات الإسلامية، التي كانوا معاصرين وشهود عيان لبعض أحداثها منهم جيفوند (Ghévoud)، و سيبوس (Sébéôs). كما ترجم بعض رجال الدين الأرمن في العهد العباسي بعض المؤلفات الفلسفية العربية إلى لغتهم.¹

ولم تنقطع حركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الأرمنية في أرمينيا الصغرى، حيث أمر الملك هيثوم الأول (623-667هـ/1226-1269م)، بترجمة مجموعة من المؤلفات العربية تبحث في علم تعدين الفولاذ وصهره، وصناعة السيوف، والتنجيم، والكيمياء، وتربية الخيل. ومن الكتب المثيرة للجدل حول أصلها العربي أو الأرمني، "كتاب الخيل" لمؤلفه الطبيب فرج، وهو كتاب ألفه صاحبه من أجل الملك الأرمني سمباط الثالث (1296-1298م)، وأهداه إليه، ومضمونه معرفة الجياد من الخيل وأمراضها وعملها ومعالجتها بالأدوية والعقاقير، ويبدو أنه كُتب باللغة الأرمنية ثم ترجم إلى العربية، رغم وجود من يقول بأن الكتاب كتب أصلاً باللغة العربية، ثم ترجم إلى الأرمنية، ولكن الأصل العربي للكتاب فقد، وبقيت الترجمة الأرمنية، ومنها نقلت النسخة العربية. وقصة ترجمة الكتاب تعود إلى عهد القائد المملوكي حسام الدين لاجين الذي هاجم سويس عاصمة الأرمن في قيليقيا ليستولي على قصر الملك الأرمني، فوجد في الخزانة نسخة لهذا المخطوط فأعطاه إلى خادمه، ولما علم أن للمخطوط قيمة ثمينة استدعى أحد الأسرى الأرمن يدعى محبوب الأرمني، وطلب منه ترجمة الكتاب إلى العربية.²

¹ بولاديان آرشاك : مرجع سابق، 9-19؛ كجو غسان : مرجع سابق، ص 80.

² كجو غسان : مرجع سابق، ص 74-76.

- اعتناق الاسلام

أشارت عديد المصادر إلى بعض من الأرمن الذين اعتنقوا الاسلام، وهي حالات محدودة ولا تشكل البتة ما يوصف بالظاهرة، ويعود سبب اعتناقهم الاسلام، إلى الحصول على وظائف عسكرية أو إدارية؛ إذ كان من المستحيل التعيين في وظيفة وهم على المسيحية، ولذلك كانوا يختفون وراء أسماء إسلامية، وربما اعتنق بعضهم الاسلام حفاظا على ممتلكاتهم وثرواتهم. وينفرد ابن العبري في رواية حادثة وقعت في سنة 460هـ/1067م، تفيد أن أحد بطارقة الأرمن خرج من حصنه ومعه مائتي رجل أرمني، إلى حصن أكثر مناعة خوفا من الأتراك، فوقعوا بين يدي أمير تركي، فقالوا له : "إننا ماضون إلى السلطان لنجاهر بالإسلام بين يديه. فسيرهم إليه مكرمين وجاهرنا بالإسلام مرغمين، وقرر السلطان أن يدفع للبطريق كل سنة عشرين ألف دينار لمعاشه، غير أن أولئك الأرمن ما عثم أن عادوا إلى أرمينيا الداخلية ورجعوا إلى ديانتهم النصرانية".¹ ولا يمكن الجزم في صحة هذه الرواية، حيث أن المصادر لم تذكر أن الأتراك أرغموا غيرهم من الشعوب على اعتناق الاسلام تحت التهديد أو باستعمال القوة، كما أن ابن العبري هو الوحيد من بين المصادر الذي أورد هذه الرواية، فلم يذكرها قبله أريستاكيتس اللستيفرتي المعاصر للأحداث، ولا ميخائيل السرياني.

أما بالنسبة لأرمينيا الصغرى، فإذا كان الأمير مليح لم يعتنق الاسلام، رغم تحالفه مع السلطان نورالدين محمود زنكي ضد الصليبيين والبيزنطيين، فإنه من الثابت أن فيلاريت براخامبوس قد اعتنق الاسلام أمام السلطان السلجوقي ملكشاه. وهو أول من حاول إقامة دولة أرمينية في قيليقيا بعد معركة منازكرد، في سبعينيات القرن الحادي عشر الميلادي، غير أنه لم يستطع مواجهة الرياح العاتية التي جاءت من قبل السلاجقة. حيث أسس سليمان بن قتلمش سلطنة سلاجقة الروم في نيقية، وحاول تمديد حدود بلاده نحو جبال طوروس وشمال الشمال، فانتزع من فيلاريت مدن الثغور وأنطاكية، ثم وصل السلطان السلجوقي ملكشاه من جهة الشرق إلى شمال الشام، فانتزع منه مدينة الرها. ولما رأى أن دولته أصبحت هشيمة تذرؤه الرياح، التقى في ضواحي مدينة الرها بالسلطان

¹ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 108.

ملكشاه، وعرض عليه دفع الجزية والإقرار بالتبعية للخليفة والسلطان، مقابل استعادة المدن والحصون التي انتزعت منه. وتجمع المصادر أنه أعلن إسلامه أمام السلطان الذي أبقاه معه في معسكره فترة من الزمن، وربما أخذه معه ملكشاه إلى بغداد، وهناك أعلن إسلامه في حضرة السلطان السلجوقي، وأخذ يتودد إليه أن يقره على إمارته.¹ ولما لاحظ ملكشاه أن فيلاريت لا يحظى بشعبية كبيرة بين بني جلدته لأنه كان من أتباع الكنيسة البيزنطية (خلقدونيا)، ثم بسبب اعتناقه للإسلام، لم يعد له كل المدن التي انتزعها منه الأتراك، بل أعاد له مدينة مرعش فقط، وربما أضاف إليه مدينة ملطية، مع الاعتراف بسيادة السلاجقة. ومن الواضح، أن فيلاريت أراد بإسلامه أن يحافظ على ممتلكاته وثرواته، بدليل أنه عاد واعتنق المسيحية من جديد، ومن ثمة فإن إسلامه كان لفترة مؤقتة، ولغرض في نفس يعقوب.²

وخارج قيليقيا توجد حالة فيروز الزراد، وحارس الأبراج في أنطاكية، فمما لاشك فيه أنه كان أرمنيا مسلما حسب المصادر المعاصرة، ولذلك كان محل ثقة ياغي سيان حاكم المدينة، فأُسند إليه حراسة أحد الأبراج أثناء حصار الصليبيين لمدينة أنطاكية، وبخيانته للمسلمين سقطت المدينة في أيدي الصليبيين، ثم انقطعت أخباره في المصادر العربية، مما يدل على أنه انضم إلى معسكر بوهيموند. وحسب أحد المصادر اللاتينية، فإنه سار مع الصليبيين إلى بيت المقدس، وشارك معهم في حملتهم ضد المسلمين، واعتنق المسيحية من جديد، ثم عاد إلى جبال الأمانوس حيث ممتلكاته وأراضيه، ثم عاد واعتنق الاسلام من جديد، والتحق بخدمة رضوان بن تتش السلجوقي أمير حلب.³

وتذكر المصادر عددا من الأرمن الذين اعتنقوا الاسلام ودخلوا في خدمة الأمراء والسلاطين المسلمين، والتزموا بواجباتهم تجاه الدولة الاسلامية، منهم بدر الجمالي في مصر، وابنه الأفضل، وياروقتاش الملقب بشمس الخواص، الذي كان قائدا للجيش في حلب ومتولي أقطاع الجند، وتولى

¹ الرويضي محمود : مرجع سابق، ص 178.

² ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 240؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 220؛ ابن العبري : مصدر سابق، ص 120؛

Matthieu d'Edesse : op. cit., p. 196; Michel Le Syrien, op. cit., t. III, p. 173; Augé Isabelle : Le dilemme de l'Eglise, p. 337.

³ Guibert de Nogent : op. cit., p. 218-219; Dédéyan : Les Arméniens entre Grecs, t. II, p. 847-849.

مدينة حلب في سنة 511هـ/1117م، لفترة قصيرة بعد مقتل الملك رضوان.¹ ومنهم أيضا الأمير ألتونتاش (Altountâsh)، صاحب قلعة صَرْخَد،² الذي كان غلاما لأمين الدولة كمشتكين.³ فقد توجه في سنة 542هـ/1147م، إلى الصليبيين في مملكة بيت المقدس "للاستنصار بهم وتقرير أحوال الفساد معهم"،⁴ حيث طلب منهم، أن يمنحوه إقطاعا داخل مملكتهم، مقابل أن يتنازل لهم عن القلعة التي يحكمها، وهي تحتل موقعا استراتيجيا في ضواحي دمشق التي كانوا يسعون لاحتلالها، ولكن محاولته باءت بالفشل بعد تدخل السلطان نور الدين زنكي، ولما عاد ألتونتاش من مملكة بيت المقدس إلى دمشق، اعتقل ثم سُيِّمَت عيناه.⁵ هذه أمثلة لمن اعتنق الاسلام من الأرمن وتبوأ منزلة رفيعة في الدولة الاسلامية. وتوجد حالات أخرى مماثلة لها في مصر وفي الشام، تعود إلى عهد الدولة الأيوبية.

ورغم أن العلاقات بين الأرمن والمسلمين تميزت عموما بطابع التوتر، واندلاع الحروب، فقد نسج بعض الأمراء العرب علاقات صداقة مع أمراء بني روبين في أرمينيا الصغرى، خلال فترة الحروب الصليبية. حيث يروي أسامة بن منقذ⁶ في كتابه، ان أباه الذي كان مولعا بالصيد، تعود على إرسال

¹ ابن الأثير : مصدر سابق، ج 8، ص 279؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ص 263-266؛

Cahen : La Syrie du Nord, p. 276-277; Dédéyan : Un émir arménien du Hawrân entre la principauté turque de Damas et le royaume latin de Jérusalem (1147), ds. : Dei gesta per Francos. Etudes sur les croisades dédiées à Jean Richard, ed. by Michel Balard, Ashgate, 2001. pp. 179-185.

² صرخد : بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة. (انظر : الحموي : مصدر سابق، ج 5، ص 184).

³ هو نائب الأتابك طُغْتُكِين على قلعتي صرخد وبصرى، توفي في ربيع الثاني 541هـ، وهو واقف المدرسة الأمينية بدمشق. (انظر: ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 289).

⁴ نفسه.

⁵ ابن القلانسي : مصدر سابق، ص 288-290؛ وليم الصور : مصدر سابق، ج 3، ص 175-180؛

Dédéyan : Les Arméniens entre Grecs, t. II, pp. 880-881.

⁶ أسامة بن منقذ : ينتسب إلى بني منقذ، وهي أسرة عربية أصيلة، تعود أصولها إلى كنانة القحطانية التي كانت تسكن حول مكة قبل الاسلام. ولد أسامة في قلعة شيزر عام 488هـ/1095م، وهو ابن الأمير مرشد، وقد تربى على تقاليد الفروسية، كما درس العلوم الدينية والآداب واللغة. وقد جمع في شخصه بكل جدارة، إمارة السيف والقلم. وكان من المتوقع أن يتولى الإمارة بعد عمه سلطان، إلا أن الأخير أثر أولاده الذين أنجبهم بعد أن تقدمت به السن، على ابن أخيه. (انظر : ابن خلكان : مصدر سابق، ج 1، ص 195-199؛ زيتون عادل : المجتمع الصليبي في مذكرات أمير عربي، مجلة العربي، ع 555، وزارة الاعلام، الكويت، فيفري 2005. ص 114-115).

غلمانه لشراء البزة واصطيادها حيثما كانت، وكان يحصل على البعض منها من جبال طوروس التي كان تحت حكم آل روبين، ولذلك جرت عدة مراسلات بينه وبين الأمير ليون الأول، وابنه الأمير ثوروس الثاني، بهدف الحصول على البزة، حيث كانوا يرسلون له كل سنة "عشرة من بزة أو ما حولها على أيدي رجالة أرمن بازيارية، وينفذون الكلاب الزغارية. وينفذ لهم هو [أبوه] الحُصْن والطيب ومن كسوة مصر، فكان يجيئنا من عندهم بزة ملاح نادرة فاجتمع عندنا في بعض السنين بزة قد جاءت من الدروب فيها باز فرخ مثل العقاب وبزة دونه".¹ وتدل هذه الشهادة، على وجود أرمن مكلفون بترويض البزة في قصر أمراء بني شيزر، وتشير رواية أخرى إلى وجود مسيحيين آخرين يقومون بنفس المهمة، أحدهما اسمه نيقولا، والآخر يدعى بطرس.² كما تدل شهادة أخرى أن مجموعة من الأرمن كانوا يقيمون في أراضي الإمارة حيث خرج أسامة ومعه "عشرين راجلا من الأرمن الأجياد رماة"،³ لاصطياد أسد كان يحوم حول التلال المجاورة للقصر. ويستفاد من هذه الروايات كلها، التي هي عبارة عن مذكرات شخصية لأسامة بن منقذ، أن العلاقات بين الأرمن والمسلمين، لم تقتصر على الحروب والنزاعات فقط، بل تخللتها علاقات صداقة.

ومن الأحداث السابقة تتضح مجموعة من الحقائق التاريخية منها :

أولا : إن انتقال أرمينيا الصغرى من إمارة إلى مملكة في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، جاء بموافقة ومباركة من البابوية، التي كانت تهدف بهذه الخطوة، أن تجعل من أرمينيا الصغرى دركيا مسيحيا يضمن استمرار الوجود الصليبي في بلاد الشام.

ثانيا : لم ينس المسلمون بأن إقليم قيليقيا الذي نشأت فيه مملكة أرمينيا الصغرى، كان خاضعا لنفوذهم منذ القرن الأول الهجري، ولذلك لم يعترفوا بهذه الدولة التي بدت لهم كيانا غريبا تجب إزالته.

¹ ابن منقذ أسامة (مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيزري (ت 584هـ/1188م)) : كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (بدون تاريخ). ص 202.

² المصدر السابق، ص 218، 224.

³ المصدر السابق، ص 106.

ثالثا : اختلاف المسيحيين حول طبيعة المسيح مزق جسد الديانة المسيحية وحوّلها إلى عدة مذاهب مختلفة، ثم تحول معتنقوها إلى فرق متطاحنة ومتصارعة، وحاولت الامبراطورية البيزنطية فرض مذهبها بالقوة على الأرمن، مما أدى إلى نفورهم منها، بسبب تمسكهم بكنيستهم القومية إلى درجة التعصب.

رابعا : استفاد الأرمن كثيرا من التسامح الديني أثناء تعايشهم مع المسلمين، ولكن الصليبيين أرادوا إدماج الكنيسة الأرمنية مع كنيستهم الكاثوليكية لتكون وسيلة وأداة في أيديهم خلال حروبهم ضد المسلمين.

خامسا : لم تكن علاقة الأرمن بالصليبيين، قائمة على التعاون والتعايش السلمي، بل تخللتها حروب ونزاعات كثيرة، مما جعل فترة الاحتلال الصليبي، لبلاد الشام، فترة معاناة للأرمن في أرمينيا الصغرى.

سادسا : لم يتأثر الأرمن كثيرا بمظاهر الحضارة الاسلامية، وعلى العكس من ذلك بالنسبة لتأثرهم بالصليبيين.

الطائفة

في ختام هذا البحث الذي أخذ بأيدينا في مسارب ملتوية من تاريخ العلاقات الأرمينية السلجوقية الصليبية، في ظل إمارة أرمينيا الصغرى، وفي لحظة حرجة من لحظات التاريخ الاسلامي، أرجو أن أكون قد وفقت في محاولة تتبع مسيرة هذه الإمارة، منذ استيلاء الامبراطورية البيزنطية على الممالك الأرمينية في أرمينيا الكبرى، التي سقطت في أيدي السلاجقة بعد معركة منا زكرد في سنة 463هـ/1071م، إلى غاية تطورها إلى مملكة على يد الملك ليون الأول في سنة 1198م.

لقد دخل الأرمن بعد انهزام البيزنطيين امام السلاجقة في نفق مظلم، لم يستطيعوا الخروج منه. حيث تعرضت بلادهم إلى اجتياح القبائل التركية، مما جعلهم يهاجرون من موطنهم الأصلي، وخرجوا باحثين عن مأوى جديد. ورغم أنهم وجدوا في قيليقيا وطنا بديلا، حاولوا فيه توحيد جهودهم، وتشكيل قوة سياسية وعسكرية تجمع شملهم، فإنهم وجدوا أنفسهم مهددين بالزوال، وسط قوى متضاربة، وتيارات حضارية متناقضة. ونظرا لتشبههم، وإصرارهم على البقاء، فقد تمكنوا من التكيف مع التغيرات والمعطيات الجديدة التي دخلت على منطقة آسيا الصغرى. فتأرجحت علاقاتهم بالسلاجقة والبيزنطيين والصليبيين بين الولاء والعداء.

وظلت إمارة أرمينيا الصغرى وسط تلك العواصف القوية مثل بيت العنكبوت، معلقة بين السماء والأرض، ودلت الأحداث التي مرت بها أنها معرضة للسقوط عاجلا أو آجلا على يد القوى المجاورة لها، ولكن الحملات الصليبية الثلاث، كانت بمثابة جرعات من الأوكسجين، أنقذتها من موت محتوم.

ويبقى أن ألخص النتائج التي توصلت إليها، بشكل محدد ومباشر، أكثر مما وردت مضمرة في ثنايا البحث، وهي تتمثل في :

أولاً : أحدثت معركة منازكرد تحولاً كبيراً في العلاقات الدولية التي كانت سائدة حتى منتصف العصر الوسيط، كما نتج عنها تحولات عرقية واجتماعية عميقة في آسيا الصغرى لازالت آثارها ممتدة إلى اليوم.

ثانياً : يعتبر إقليم قيليقيا من الأراضي التي فتحها المسلمون في القرن الأول الهجري، وأصبح جزءاً من دار الإسلام، وبموجب ذلك أصبح فيه للمسلمين حقوق ولا ينبغي لهم التفریط فيها. ولم يكن آنذاك للأرمن أي وجود سياسي هناك. لذلك ظلت القوى الإسلامية القائمة يومذاك في المنطقة، تعتبر الأرمن مغتصبين ومحتلين لهذا الإقليم الذي كان جزءاً من أراضي الخلافة العباسية. ويتضح ذلك من خلال المصطلحات التي استعملها المؤرخون في المصادر الإسلامية. ومن ثمة، فإن الحرب ضد إمارة أرمينيا، لم تكن هدفاً في حد ذاتها، بل وسيلة لإعادة قيليقيا إلى الحضيرة الإسلامية. والدليل على ذلك هو الأمير مليح الأرميني الذي تحالف مع نور الدين زنكي، فاحتفظ بمنصبه وبإمارته.

ثالثاً : لم يهاجر الأرمن من موطنهم الأصلي في أرمينيا الكبرى نتيجة دخول السلاجقة إلى بلادهم فقط، بل بدأوا يغادرون بلادهم أفراداً وجماعات منذ أن استولت الإمبراطورية البيزنطية على مملكتهم، وأقطعت ملوكهم بعض الأراضي في أنحاء شتى من أراضيها، ثم قامت بحلّ وحدات الجيش الأرميني. ورغم الظروف القاسية التي مروا بها، من تعرضهم للغزو، ومن تشتت في المنفى، وانقسام سياسي، فإنهم حافظوا على هويتهم، ولم يتنازلوا عن لغتهم، ومذهبهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، ويعود الفضل في ذلك إلى الكنيسة الأرمنية المستقلة عن الكنائس الأخرى. وهذا يدعو إلى احترام هذا الشعب وتقديره.

رابعاً : وضع فيلاريت أسس أول دولة أرمينية في المنفى، قبل قدوم جيوش الحملة الصليبية الأولى، ويعود إليه الفضل في جمع شمل الأرمن في قيليقيا. والواقع، إن تأسيس هذه الدولة، أو إمارة أرمينيا الصغرى واستمرارها في جنوب شرقي آسيا الصغرى، ثم تطورها إلى مملكة

كان إفرازاً طبيعياً لضعف القوى الإسلامية المحيطة بها. خاصة بعد وفاة سليمان بن قتلمش، وملكشاه، وقليج أرسلان الأول، أقوى سلاطين السلاجقة.

خامسا : عاش الأرمن في ظل الدولة الإسلامية ينعمون بالتسامح الذي يتميز به الإسلام. كما أنهم عرفوا تطوراً حضارياً بالغاً، في ظل الحكم الإسلامي، باعتراف المؤرخين الغربيين أنفسهم. بينما كانت علاقتهم الدينية بالدولة البيزنطية، سيئة منذ البداية، وتميزت بالاضطهاد وعدم الاعتراف بالكنيسة الأرمنية. ولم تكن علاقتهم برجال الدين اللاتين، أو بملوكهم وأمراءهم، أفضل مما كانت عليه مع البيزنطيين، حيث كانت مدة الاحتلال الصليبي مرحلة معاناة كاملة للأرمن.

سادسا : كان الأرمن أول من اتصل بالغرب الأوروبي، عن طريق رئيس كنيستهم، وهم أول من اتصل بالفرنجة عند نزولهم في آسيا الصغرى، فاستغل الصليبيون حاجة الأرمن إليهم، وجعلوهم طابوراً خامساً لتنفيذ مخططهم الاستعماري في الشام، وكانوا هم أول ضحاياهم في إقليم الفرات. وظهر ذلك بوضوح في الرها، التي شكل الأرمن غالبية سكانها، ثم تخلوا عنهم، واعتمدوا على أبناء جلدتهم في حكم الإمارات الإفريقية وإدارتها.

سابعا : نشأت إمارة أرمينيا الصغرى قبيل الحملة الصليبية الأولى، ولذلك، فهي ليست دخيلة كبقية الإمارات التي أنشأها الفرنجة في بلاد الشام، ولكن الحملات الثلاث الأولى، كانت فرصة للمحافظة على وجودها وحماية حدودها، وتثبيت أقدامها في قيليقيا. ولم تكن قادرة على الاستمرار، إلا بالتحالف مع القوى الصليبية، وبدونها فهي معرضة للزوال. ولولا انقسام المسلمين وانشغالهم بالحروب ضد الفرنجة، ما تمكنت هذه الإمارة من البقاء حوالي ثلاثة قرون.

ثامنا : حصل ليون على التاج الملكي، وتحولت إمارته إلى مملكة، اعترف بها الغرب الأوروبي، لأن البابوية أصبحت تنظر إلى إمارة أرمينيا، على أنها الملاذ الأخير للمسيحيين في المشرق الإسلامي. بعد استعادة المسلمين لبيت المقدس من الصليبيين.

تاسعا : أثمرت العلاقات الأرمنية الصليبية في العصر الوسيط، تقاربا بين الأرمن والغرب الأوربي، امتد إلى وقتنا الحالي، خاصة مع الدولة الفرنسية التي كانت وراء أغلب الحملات الصليبية، فنشأت بينهما علاقات تاريخية متينة، عن طريق المصاهرة التي ربطت بين الأمراء والملوك الأرمن ونظرائهم الفرنسيين. ولذلك مازال الأرمن يعلقون آمالا كبيرة على فرنسا إلى يومنا هذا. وقد ساعدتهم خلال الحرب العالمية الأولى، على محاولة بعث دولتهم من جديد في قيليقيا. وهي الآن من أكثر الدول الأوربية التي تتبنى قضيتهم وتضغط على تركيا للاعتراف بمذابح الأرمن في العهد العثماني. ولم يقتصر الأمر على فرنسا بل تعدت هذه العلاقات إلى المؤسسة البابوية، حيث قام البابا بولص الثاني بزيارة إلى جمهورية أرمينيا في عام 2001م، وبعد خمسة عشر عاما، قام البابا فرنسيس بزيارة إلى أرمينيا في جوان 2016، ودعا إلى الاتحاد بين المسيحيين، رغم أن الكاثوليك لا يشكلون إلا نسبة ضئيلة من المجتمع الأرميني.

وفي الختام، أرجو أن أكون قد وفقت في هذا البحث، وحسبي محاولة الاجتهاد، ولا أعتقد أن نتائجه نهائية، وسيزيدها الأساتذة المتخصصون تحليلا، وتصويبا، بملاحظاتهم وآرائهم السديدة.

والله أسأل السداد والتوفيق.

الملحق

1 - الوثائق

- الملحق الأول : رسالة الامبراطور يوحنا تزمسكس إلى آشوط الثالث ملك أرمينيا.
- الملحق الثاني : رسالة البابا جريجوار السابع إلى ويليام دوق بورجنديا. (Guillaume 1^{er} duc de Bourgogne)
- الملحق الثالث : رسالة البابا جريجوار السابع إلى كل المسيحيين.
- الملحق الرابع : رسالة البابا جريجوار السابع إلى هنري الرابع ملك ألمانيا.
- الملحق الخامس : رسالة فيروز الأرميني الزراد إلى بوهيموند.
- الملحق السادس : رسالة البابا كليمنت الثالث إلى رئيس الكنيسة الأرمنية
- الملحق السابع : رسالة جثليق الأرمن إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي

2 - السلاطين والأمراء.

- الملحق الثامن : أمراء آل روبين في قيليقيا
- الملحق التاسع : سلاطين سلاجقة الروم

3 - الخرائط.

- الملحق العاشر : خريطة أرمينيا الكبرى.
- الملحق الحادي عشر : توسع السلاجقة حتى سنة 1095م
- الملحق الثاني عشر : الحملة الصليبية الأولى
- الملحق الثالث عشر : أرمينيا الصغرى بين 1072-1219م.
- الملحق الرابع عشر : أرمينيا الصغرى عند وفاة الملك ليون الأول 1219م.

4 - الصور.

- الملحق الخامس عشر : قلعة فاهكه
- الملحق السادس عشر : عين زربي
- الملحق السابع عشر : مدينة سيس

1. الوثائق

الملحق الأول

رسالة الامبراطور يوحنا ترمسكس إلى آشوط الثالث ملك أرمينيا

"آشود شاهنشاه أرمينيا الكبرى، ابني الروحي، إسمع وتعلم من الآيات التي أبدعها الرب من أجلنا، وانتصاراتنا التي تنم عم إعجاز، وتظهر أنه من المستحيل التكهن بالرأفة الإلهية، المتمثلة بالأوسمة الرفيعة من الآيات المستمدة من إرثه في هذه السنة، وبواسطة الرب أردنا بهذه الأوسمة أن تزين مجدك، آه يا آشود، يا بني، تعلم كمسيحي ومؤمن وصديق وفيّ لجلالتنا أنك ستبتهج لما حققناه وستحمد عظمة السيد المسيح وستعرف أن الرب هو الحامي الدائم للمسيحيين، وأنه يسمح لأبانا في السماء أن يقطع دابر العبودية في الشرق الفارسي، وستعلم كيف جلبنا من نصيبين (Nisibe) مدينة المسلمين ذخائر البطريك القديس جاك (Jacques)، وكيف جعلناهم يدفعوا لنا الجزية التي فرضوها علينا في السابق، وكيف حررنا الأسرى منهم، وكان من أهداف حملتنا، معاقبة غطرسة وكبرياء أمير المؤمنين حاكم الأفارقة المسمى ماكير العرب (Maker Arabes). والذي تقدم نحونا بجيش كبير، وقد شكل في البداية خطر على جيشنا، لكن نجحنا في هزيمتهم بفضل قوتنا الحذرة، ولنصرة الله لنا، فاضطرت قواتهم إلى الانسحاب مهزومة شأن كل أعدائنا، وسيطرننا بعد ذلك على مناطق بلادهم الداخلية، بعد أن سفكنا دماء سكانها، وبحلول فصل الشتاء انسحبنا بسرعة إلى أراضينا لقضاء الشتاء فيها.

وفي بداية نيسان عززنا سلاح الفرسان وجهزنا حملة، دخلنا بها أراضي فينقيا (Pnenicie) [لبنان] وفلسطين (Palestine)، في أثر الأفارقة الملاحين الذين هرعوا لنجدة الشام (سوريا)، وتركنا أنطاكية بكامل جيشنا، وتقدمنا مباشرة عبر البلاد التي كانت خاضعة لنا، وأعدنا سيطرتنا عليها، وطبقنا فيها قوانيننا، وفرضنا على أهلها جزية كبيرة بعد أن أخذنا الأسرى منهم. وعندما وصلنا إلى مدينة حمص (Emesse) قام سكانها الذين كانوا في السابق يدفعون الجزية لنا باستقبالنا خير استقبال. ثم قصدنا مدينة بعلبك التي تحمل اسم هيلوبوليس (Heliopolis) أي مدينة الشمس، وهي مدينة جميلة، ضخمة، غنية ومليئة بالمؤمن، وقد خرج لنا سكانها بشكل عدواني متأهبين للقتال فأجبرتهم قواتنا على الفرار، ونكلت سيوفنا في رقابهم، ثم حاصرنا المدينة، وقبضنا على عدد من

الأسرى، واستحوذنا على كميات كبيرة من الذهب والفضة، وعدد من الماشية. وتابعنا سيرنا متجهين نحو مدينة دمشق الكبيرة وبنيتنا الحصار، لكن حاكمها الذي كان شيخا فطنا، أرسل إلينا وفدا محملا بالهدايا الفيسة، ملتجئين أن لا نأخذهم أسرى أو عبيدا، كسكان بعلبك، وأن لا ندمر مدينتهم كما حل بسابقيهم، فقدموا لنا الهدايا الفاخرة، وعددا من الخيول الأصيلة، وبغالا جميلة وأسرجة مرصعة بالذهب والفضة. والجزية التي دفعها العرب زادت على أربعين ألف تايجان (Tahegans) من الذهب وزعت عن طريقنا على جنودنا. وكتب السكان المحليين رسالة لنا، يعدنا فيها بالبقاء تحت طاعتنا جيلا بعد جيل وإلى الأبد، وأقمنا على حكم دمشق رجلا قدم من بغداد يدعى التركي (Le Turk) وبرفته خمسمائة فارس، فقدم ولاءه لنا باعتناقه المسيحية، وكان على علم بسطوتنا فأقسم هو وفرسانه بالالتزام على دفع الجزية بشكل مستمر، وهتفوا بالمجد لجلالتنا، وتعهدوا على محاربة أعدائنا، وبمقتضى هذه الشروط تركناهم وشأنهم. ومن هناك توجهنا نحو بحيرة طبريا، حيث قام سيدنا المسيح بمعجزته مع سمكتين وخمس خبزات من الشعير، فعزمنا على حصار المدينة غير أن سكانها أعلنوا خضوعهم لنا. وترتب عليهم مثلما فرض على سكان دمشق، الهدايا الفاخرة، ومبلغ ثلاثين ألف تايجان، ناهيك عن الأمور الأخرى، وطالبونا أن نصب قائدا منا عليهم، وكتبوا تعهدا يلتزمون فيه بالبقاء مخلصين لنا مع دفع الجزية إلى الأبد، وعليه، تركناهم أحرارا، وأعتقناهم من الأسر، والعبودية، وامتنعنا عن تدمير مدينتهم، وتخريب أراضيهم، وأعفيناهم من دفع ضريبة استخدام الطرقات؛ لأن مدتهم كانت موطن رسل السيد المسيح، ثم توجهنا بعد ذلك إلى الناصرة المدينة التي تلقت فيها مريم العذراء أم الرب البشري الطيبة من الملاك. وقصدنا بعدها إلى جبل طابور (Thabor)، حيث المكان الذي تجلى فيه سيدنا يسوع المسيح، وخلال صعودنا، جاءنا أناس من الرملة والقدس، يتوسلون إلينا ويلتمسون الرحمة، وطالبوا بتنصيب شخص ليحصل الجزية، ويفرض سيطرتنا، فكان لهم كل ما رغبوا به. وكانت رغبنا تحرير قبر المسيح من دنس المسلمين. وقد عينا عددا من الحكام العسكريين في كل الثيمات [المقاطعات] لتحصيل الجزية في بيسان التي كانت تسمى الديكابوليس (Decapolis)/جنزاريث (Genesareth)، وعكا التي كانت تسمى بتوليماي [بطلمية] (Ptolemis)، وتعهد السكان خطيا بدفع جزية سنوية ثابتة، والعيش تحت

كنف سلطتنا. ثم انطلقنا نحو قيصرية [قيسارية] التي تقع على ساحل المتوسط، وكان قد تقلص حجمها، ولو أن هؤلاء الملعونين الأفارقة الذين بنوا فيها مساكنهم، لم يلجأوا إلى القلاع الساحلية، لكننا ذهبنا مسلحين بنصرة الرب إلى المدينة المقدسة القدس، ولاستطعنا الصلاة في تلك الأماكن المقدسة. ولما انهزمت شعوب الساحل، قمنا بإخضاع القسم الأعلى من البلاد للهيمنة الرومانية، واستبدلنا حاكم المنطقة، وكسبنا ود السكان، لكن الذين أظهروا العصيان أجبرناهم على الاستسلام. ثم تتيعنا الطريق الساحلي الذي يفضي بخط مستقيم إلى بيرت (Beryte) وهي مدينة مشهورة، محصنة بأسوار منيعة، وتحمل هذه الأيام اسم بيروت (Berouth)، وقد فرضنا سيطرتنا عليها بعد قتال شديد، وأسرننا ألفاً من الأفارقة، بالإضافة إلى نوصيري (Nouceiry) قائد أمير المؤمنين، وعدد آخر من الضباط ذوي الرتب العالية، وعهدنا هذه المدينة إلى حاكم من اختيارنا، وبعد ذلك تابعنا السير إلى صيدا، وعندما علم السكان بنيتنا، أرسلوا مبعوثيهم إلى جلالتنا، يناشدونه أن يدفعوا الجزية ويصبحوا عبيداً لنا للأبد. ووفقاً لهذه التعهدات استمعنا لتضرعاتهم، وحققنا إرادتهم، ففرضنا الجزية، وعين عليهم الحكام، وتابعنا السير متجهين نحو (جبيل) بيبلوس (Byblos) وهي مدينة عريقة ومنيعة، استولينا عليها عنوة، وأسرننا حاميتها، وبعدها تابعنا احتلال كل المدن الساحلية، وأخذنا سكانها عبيداً، ثم سلكنا طريقاً ضيقة لم يسلكها فرسان من قبل، فكانت شاقة ومتعبة، وصادفنا مدناً أهلة بالسكان، وحصوناً تحميها أسوار قوية، وحاميات من العرب، فحاصرناها، ودمرناها جميعاً وأخذنا سكانها أسرى. وقبل الوصول قبالة طرابلس أرسلنا خيالة [الشمات] ثيماتسيس (Thimatsis) وداشكاماداتسيس (Daschkhamadatsis) إلى ممر كاريرس (Kareres)، لأننا علمنا أن الأفارقة الملاحين كانوا قد تركزوا في هذا الممر، فأمرنا قواتنا بالتربص وتجهيز كمين قاتل لهم، فنفذت أوامرنا غير أن ألفين من الأفارقة اكتشفوا ذلك فانقضوا على قواتنا، ولكن تمكنا من قتل عدد كبير منهم وأسر عدد آخر اقتيدوا على مرأى منا، واحتجزنا عدداً من الأسرى من كل حذب وصوب، ونهبنا كل مقاطعة طرابلس، وخربنا جميع مزارع الكرم، والزيتون والبساتين، ونشرنا الدمار والخراب في كل مكان، ولكن الأفارقة الذين تركزوا، تجاسروا بالتقدم نحونا فانقضضوا عليهم فجأة، وتمكنا من إبادة جميعهم، وتمكنا من فرض سيادتنا على المدينة الكبيرة دجول (Djouel) وتسمى

أيضا جابون (Gabaon) وعلى بلاني (Balanee) وصهيون (Sehoun)، بالإضافة إلى مدينة بورزو (Bourzo) المشهورة، ولم يعد حتى الرملة وقيصرية لا بحر ولا أرض إلا وخضع لنا بقوة الرب الذي لا مخلوق سواه.

إن فتوحاتنا وصلت إلى بابل العظمى، وقد أملينا قوانيننا على السكان، وجعلنا منهم عبيداً لنا، وذلك لأنه خلال خمسة أشهر جبننا البلاد بقوات كثيرة، ندمر المدن، ونخرب المقاطعات، دون أن يتجرأ أمير المؤمنين الخروج من بابل لمواجهةنا، أو حتى إرسال فرق الخيالة لنجدة قواته، ويجب أن تعرف يا صاحب المجد أنه لولا الحرارة الشديدة، والطرق الخالية من المياه في الأماكن المجاورة لتلك المدينة، لاستطعنا الوصول إليها؛ لأننا طاردنا هذا الأمير حتى مصر، وانتصرنا عليه بفضل الله الذي وهبنا تاجنا. إن فينيقيا وفلسطين وسوريا أُعْتُقَت من طغيان المسلمين، وأخضعت للرومان، وكذلك الجبل الكبير في لبنان خضع لحكمنا، وكل العرب الذين احتلنا أراضيهم وقبضوا أسرى بين أيدينا بأعداد هائلة، ووزعناهم على فرساننا. وقد حكمنا آشور بلطف وإنسانية، ورفق وجلبنا منها عشرين ألف شخص من أجل بناء جابون، ستعرف أن الله منح المسيحيين نجاحاً لم يمنحه أحد من قبل، وقد وجدنا في جابون نعل المسيح المقدس الذي مشى به عندما نزل على الأرض، وكذلك صورة المخلص التي طعنت من قبل اليهود، حيث سال على أثرها بعض من الدم والماء، لكننا لم نجد فيها موضعاً للطعن، كما وجدنا في هذه المدينة جديدة شعر المبشر يوحنا المعمدان، وجمعنا بقايا القديسين وحملناها للاحتفاظ بها في مدينتنا حماها الله. وفي شهر أيلول قدنا جيشنا الذي حماه الرب بمقدرته إلى إنطاكية + لقد أردنا يا صاحب المجد أن تعرف هذه الأعمال كي ندخل عليك المسرة بعد قراءة هذه الرسالة، ولكي تمجد من جانبك الرب، وحتى تعرف مقدار الأعمال الحسنة التي أنجزت في هذا الزمن، وكم نحن عظيمون، وأن سيطرة الصليب المقدس امتدت إلى جميع الأصقاع من هذه الأقطار، وأن اسم الرب العظيم مُجَدُّ بروعة وجلال في جميع أنحاء إمبراطوريتي. وهكذا فإن أفواهنا لن تتوقف عن ذكر الأعمال المبهجة، والانتصارات العظيمة التي حدثت بفضل الرب، فليبارك رب إسرائيل إلى الأبد".¹

¹ متى الرهاوي مصدر سابق، ص 50-60.

الملحق الثاني

رسالة البابا جريجوار السابع إلى ويليام دوق بورجنديا (Guillaume 1^{er} duc de Bourgogne)

ملخص الرسالة

إلى ويليام كونت بورجنديا

هذا الخطاب موجه من البابا جريجوار السابع (1073-1085)، إلى ويليام كونت بورجنديا (1057-1087)، في غربي فرنسا، وهو يعتبر من أتباع الامبراطورية الألمانية التي كانت على علاقة جيدة مع البابوية، قبل الخلاف الذي وقع بين الامبراطور هنري الرابع (1054-1105)، والسلطة الروحية المسيحية في سنة 1076م.

يُذكر البابا في هذه الرسالة الكونت وليام بأنه ملزم بتنفيذ الوعود التي قطعها البابا السابق الاسكندر الثاني (Alexandre II) (1061-1073م)، أمام قبر القديس بطرس، وبحضور الأساقفة، ورؤساء الأديرة ويطلب منه إعداد قوة عسكرية، وإذا لزم الأمر يأتي معها الكونت، ليكون في خدمة الرب، والدفاع عن ممتلكات الكنيسة التي تتعرض لتهديدات النورمان، وينصحه بالحذر حتى لا تراق دماء المسيحيين، وهو ينتظر بفارغ الصبر وصول هذه القوة. وبعد استسلام النورمان، يأمل البابا بأن يتوجه هذا الجيش مع جميع المؤمنين الذين توحّدوا بفضل الإيمان، إلى القسطنطينية لإنقاذ المسيحيين الذين أصبحوا بعد ضعفهم، يتعرضون باستمرار للدغات المسلمين، (يسمى Saraceni أي Saraceni).¹

AD GUILIELMUM COMITEM BURGUNDIÆ.

(Anno 1074)

Monet ut una quibusdam aliis principibus (prout promissrat) Ecclesiæ auxilio veniat, ut, pacatis Normannis, auxilium Constantinopolitanis ferre possit.

GREGORIUS episcopus, servus servorum Dei, GUILIELMO Burgundionum comiti salutem et apostolicam benedictionem.

¹ أنجز هذا الملخص بالتعاون مع د. دريس سليم الذي يتقن اللغة اللاتينية، وهو أستاذ في قسم الآثار، بجامعة الجزائر -2-.

Meœinisse vale prudentia vestra quam larga affluentia dilectionis Romana Ecclesia valentiam vestram jamdudum recepit, et quam speciali charitate vestram familiaritatem dilexit. Neque enim se condecet oblivisci promissionis qua Deo se, ante corpus apostolorum principis Petri, præsente venerabili antecessore nostro Alexandro papa, et episcopis, abbatibus plurimis, atque diversarum gentium multitudine quarum non est numerus, obligavit ut, quacunque hora necesse fuisset, vestra manus ad dimicandum pro defensione rerum sancti Petri non deeset, si quidem requisita fuisset. Unde, memores nobilitatis vestræ fidei, rogamus et admonemus strenuitatis vestræ prudentiam quatenus præparetis vestræ militiæ fortitudinem ad succurrendum Romanæ Ecclesiæ, libertati scilicet [forte et] si necesse fuerit, veniatis huc cum exercitu vestro in servitio sancti Petri : et hoc idem rogamus vos monere comitem sancti Ægidii, et socerum Riccardi Capuani principis et Amedeum filium Adelettæ [Adelictæ], cæterosque quos cognoscitis sancti Petri esse fideles, et qui similiter manibus ad cælum extensis promiserunt. Si quid vero certæ responsionis prudentiæ vestræ nobis placet remittere, per eum nuntium nobis mandate, qui modis omnibus nos reddat indubios, et idem vester nuntius veniat per comitissam Beatricem, quæ cum filia et genere in hoc negotio laborare procuret. Hanc autem militum multitudinem non ideo coacervare curamus, ut ad effusionem sanguinis Christianorum intendamus, sed ut ipsi videntes expeditionem, dum confluere timuerint, facilius subdantur justitiæ. Speramus etiam quod forsitan alia inde utilitas oriatur, scilicet ut, pacatis Normannis, transeamus Constantinopolim in adiutorium Christianorum; qui nimium afflictis creberrimis morsibus Saracenorum, inhiante flagitant, ut sibi manum vestri [f., nostri, et sic in Mutin.] auxilii porrigamus. Nam contra eos Normannos qui nobis rebelles sunt, satis sufficiunt milites isti qui nobiscum sunt. Certus enim esto quoniam te, et omnes qui tecum in hac expeditione fuerint fatigati, duplici, imo multiplici remuneratione, ut credimus, Petrus et Paulus principes apostolorum donabunt.

Data Roma IV Nonas Februarii, indictione duodecima.¹

Migne Jacques-Paul : S. Gregorii VII Romani Pontificis Epistolæ et Diplomata pontificia, ¹
 tomus unicus, Apud Garnier Fratres Editores et J-P successores, Paris, 1878. Col. 325-326.

الملحق الثالث

رسالة البابا جريجوار السابع إلى كل المسيحيين

كما هو واضح من عنوان الرسالة : "إلى كل المسيحيين"، أنها غير موجهة إلى جهة معينة، بل يريد البابا من خلالها لفت انتباه المسيحيين إلى أوضاع إخوانهم في الشرق المسيحي. حيث تحدث فيها عن سفير جاءه من وراء البحار، للصلاة عند قبور الرسل، وقدم له معلومات عن الكارثة التي بات المسيحيون يعيشونها في الشرق. وجاءت هذه الرسالة بعد وصول الجثث لجريجوار الثاني فيكاياسر إلى روما، ولذلك، يرجح بأن المبعوث الذي يتحدث عنه البابا هو رئيس الكنيسة الأرمنية. والملاحظ، أنه يسمي الأتراك السلاجقة المسلمين، بالوثنيين (gentem)، وهي الصفة التي أطلقتها معظم المصادر المسيحية على الأتراك. إذ يقول : بأن آلاف المسيحيين ذهبوا ضحية توسعاتهم، وأنهم وصلوا إلى أسوار القسطنطينية. وفي هذا الصدد، إذا كان المسيح قد ضحى بحياته من أجلنا، فلا بد أن نضحى بحياتنا لإنقاذ المسيحيين من الشقاء، والتعاسة التي وقعوا فيها. ويجب علينا أخذ التدابير والاستعدادات اللازمة لتقديم المساعدة للأمة المسيحية. ويوجه خطابه للمسيحيين قائلا : يجب أن تتحملوا الأعمال الصعبة، والقاسية، لمساعدة إخوانكم، مهما كان القرار المتخذ في هذا الشأن، وسنعلن بدون تأخير عن تنفيذ مهمات خاصة.¹

AD OMNES CHRISTIANOS.

(Anno 1074.)

Monet ut Constantinopolitanis opem ferant, qui a Saracenis multis calamitatibus afficiebantur.

GREGORIUS episcopus, servus servorum Dei, omnibus Christianam fidem defendere volentibus salutem et apostolicam benedictionem.

Notu; vobis esse volu; usm hunc virum præsentium portitorem, dum de ultramarinis nuper reverteretur partibus, apostolorum limina et nostram præsentiam visitasse. A quo, sicut a plerisque aliis, cognovimus gentem paganorum contra Christianum fortiter invaluisse imperium, et miseranda

¹ أنجز هذا الملخص بالتعاون مع د. دريس سليم الذي يتقن اللغة اللاتينية، وهو أستاذ في قسم الآثار، بجامعة الجزائر -2-.

crudelitate jam fere uque ad muros Constantinopolitanæ civitatis omnia devastasse et tyrannica violentia occupasse, et multa millia Christianorum quasi pecudes occidisse. Qua de re, si Deum diligimus, et Christianos nos esse cognoscimus, pro miseranda fortuna tanti imperii et tanta Christianorum clade nobis valde dolendum est : et non solum dolere super hac re debitæ sollicitudini nostræ sufficit, sed animas pro liberatione fratrum ponere, exemplum Redemptoris nostri, et debitum fraternæ charitatis a nobis exigit : quia, sicut ipse pro nobis animam suam posuit, et nos debemus pro fratribus nostris animas ponere. Scitote igitur nos, in misericordia Dei et in potentia virtutis ejus confisos, omnibus modis id agere atque parare ut adjutorium Christiano imperio quam citius, Deo juvante, faciamus. Unde vos per fidem, in qua per Christum in adoptionem filiorum Dei uniti estis, obsecramus, et auctoritate beati Petri apostolorum principis admonemus, ut et vos vulnera et sanguis fratrum, et periculum præfati imperii digna compassione moveat, et vestra virtus pro Christi nomine non invitam fatigationem ad ferenda fratribus auxilia subeat. Quidquid autem super hac re divina pietas vestris animis indiderit, sine mora certis legationibus nobis renuntiare studete.

Data Romæ Kal. Martii, indictione duodecima.¹

Migne Jacques-Paul : op. cit., Col. 329.¹

الملحق الرابع

رسالة البابا جريجوار السابع إلى هنري الرابع ملك ألمانيا

هذه الرسالة، موجهة إلى هنري الثالث (Henri IV) (1054-1105)، ملك ألمانيا، وهي تحمل رقم 31، جاءت بعنوان "إلى نفس الشخص"، (Ad eumdem) لأن الرسالة التي سبقتها في الترتيب، التي تحمل رقم 30، عنوانها إلى الملك هنري (Ad Henricum Regem Romanorum). تحدث البابا فيها عن "كارثة حدثت في الشرق"، ويقصد بها انهزام الامبراطورية البيزنطية أمام الأتراك السلاجقة في معركة مناكرد في سنة 1071م. وأخبره بأن سفارة وصلت إلى روما من مسيحيي ما وراء البحر، طلبت منه تقديم المساعدة من المسيحيين في أوروبا لإخوانهم في الشرق. ويقول فيها إنه مستعد ليقود بنفسه جيشا يتكون من خمسين ألف جندي من مسيحيي الغرب، ليصل بهم إلى كنيسة القيامة. ويشير فيها إلى اختلاف وجهات النظر بين المسيحيين في مسائل دينية، وربما يشير بذلك إلى ضرورة عودة الكنيسة البيزنطية إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية التي يسمونها بـ "الكنيسة الجامعة"، ومما جاء في هذا الإطار قوله: "أنا مصمم على القيام بهذه المهمة أكثر من كنيسة القسطنطينية التي لها وجهة نظر تختلف عن نظرتنا للروح القدس، وهي في انتظار الاتفاق مع الكرسي الرسولي، وعلاوة على ذلك فإن كل الأرمن تقريبا انحرفوا عن الإيمان الكاثوليكي، وأن القسم الأكبر من المسيحيين الشرقيين ينتظرون أن يروا إيمان القديس بطرس، الذي يختلف عنهم، يدخل بين معتقداتهم". ومما لاشك فيه أن هذا الاهتمام بمسيحيي الشرق، يعود إلى التأثير الذي تركه الجثليق جريجور الثاني فيكياسر، على رئيس الكنيسة الكاثوليكية.¹

AD EUMDEM.

(Anno 1074.)

Summum in eum amorem testatur. Rogat ut avertat aures ab his qui discordiam inter se et illum seminant. Recenset Christianorum calamitates, qui in transmarinis partibus a paganis vexabantur : ad quos sublevandos se

¹ أنجز هذا الملخص بالتعاون مع د. دريس سليم الذي يتقن اللغة اللاتينية، وهو أستاذ في قسم الآثار، بجامعة الجزائر -2-.

Christianos omnes provocasse, seque paratum esse affirmat : tu mea causa eo contendere, tum ut orientalis Ecclesiæ cum Romana unio fieret.

GREGORIUS episcopus, servus servorum Dei, HENRICO glorioso regim salutem et apostolicam benedictionem.

Si Deus modo aliquo suæ pietatis concederet ut mens mea tibi pateret, indubitanter scio, sua largiente gratia, nullus te a mea dilectione posset separare. Attamen de illius confido misericordia, quia quandoque clarebit, quod te sincera charitate diligam. Ad hoc enim me commune præceptum omnium Christianorum dirigit, ad hoc etiam imperatoria majestas, et apostolicæ sedis mansueta potestas impellit; quia si te, ut oportet, non diligo in vanum de misericordia Dei, meritis beati Petri confido. Sed quia die nocteque in vinea Domini laborare, per multa pericula etiam usque ad mortem desidero, non solum tibi, quem Deus in summo culmine rerum posuit, per quem multi possunt aut a recto tramite aberrare, aut Christianam religionem observare, sed etiam minimo Christiano, adjuvante Deo, semper studebo sanctam et condignam charitatem custodire. Hac enim sine veste regales nuptias adire qui tentaverit, dedecus immane sustinebit. Heu,proh dolor ! hæc vigilantibus animis non attendunt, qui discordiam seminare inter nos quotidie disponunt, ut his retibus diabolico instinctu præparatis sua possint captare commoda, sua palliare vitia, quibus iram Dei et gladium sancti Petri contra se insana mente provocant. Moneo itaque te, et hortor, charissime fili, ab hi saures tuas averte, et eis auditum indubitanter præbe, qui non sua, sed quæ sunt Jesu Christi quærunt (I Cor. XIII), neque honorem suum vel lucrum justitiæ præponunt, ut eorum consilio hujus vitæ gloriam non amittas, sed eam quæ est in Christo Jesu fiducialiter acquiras. Præterea indico tuæ magnitudini, quia Christiani, ex partibus ultra marinis, quorum maxima pars a paganis inaudita clade destruitur, et more pecudum quotidie occiditur, gensque Christiana ad nihilum redigitur, ad me humiliter miserunt, nimia compulsi miseria implorantes, ut modis quibus possem eisdem fratribus nostris succurrerem, ne Christiana religio nostris temporibus, quod absit, omnino deperiret. Ego autem nimio dolore tactus, et usque ad mortis desiderium ductus, magis enim vellem prohis animam meam ponere quam eos negligens universo orbi ad libitum carnis imperare, procuravi Christianos quosque ad hoc provocare, ad hoc impellere, ut appetant, defendendo legem Christ, animam suam pro fratribus ponere (Joan.X) et nobilitatem filiorum Dei luce clarius ostentare. Quam admonitionem Italici et ultramontani, Deo inspirante, ut reor, imo etiam omnino affirmo, libenter acceperunt, et jam ultra quinquaginta millia ad hoc se præparant, ut si me possunt in expeditione pro duce ac pontifice

habere, armata manu contra inimicos Dei volunt insurgere, et usque ad sepulcrum Domini, ipso ducente, pervenire. Illud etiam me ad hoc opus permaxime instigat, quod Constantinopolitana Ecclesia de sancto Spiritu a nobis dissidens, concordiam apostolicæ sedis exspectat [expetat] Armeni etiam fere omnes a catholica fide aberrant, et pene universi orientales præstolantur quid fides apostoli Petri inter diversas opiniones eorum decernat. Instat enim nostro tempore ut impleatur quod pius Redemptor speciali gratia dignatus est apostolorum principi indicare ac præcipere dicens : *Ego pro te rogavi, Petre, ut non deficiat fides tua, et tu aliquando conversus confirma fratres tuos* (Luc. XXII). Et quia patres nostri, quorum vestigia licet indigni sequi optamus, partes illas pro fide catholica confirmanda sæpe adierunt, nos etiam adjuti precibus omnium Christianorum, si Christo duce via patuerit, quia non est via hominis in manu ejus, et a Domino gressus hominis diriguntur (Psal. XXXVI), illuc transire pro eadem fide et Christianorum defensione compellimur. Sed quia magna res magno indigent consilio et magnorum auxilio, si hoc Deus me permiserit incipere, a te quæro consilium et, ut tibi placet, auxilium, quia si illuc favente Deo ivero, post Deum tibi Romanam Ecclesiam relinquo, ut eam et sicut sanctam matrem custodias, et ejus honorem defendas. Quid tibi super his placeat, et quid prudentia tua divinitus aspirata decernat, mihi quantocius potes remittas. Nam si de te plusquam plurimi putent non sperarem, verba hæc frustra proferrem. Sed quia forsitan non est homo, cui de sinceritate dilectionis mæ adhuc indubitanter credas, Spiritui sancto, qui omnia potest, commito ut menti tuæ suo more indicet quid tibi cupiam, quantumve te diligam : et eodem modo circa me tuam mentem componat, ut impiorum desiderium depereat et bonorum accrescat. Hæc enim duo desideria circa nos duos, licet diverso modo, incessanter invigilant, et secundum voluntatem eorum, a quo prodeunt, decertant. Omnipotens Deus, a quo cuncta bona procedunt, meritis et auctoritate beatorum apostolorum Petri et Pauli, a cunctis peccatis te absolvat, et per viam mandatorum suorum incedere faciat, atque ad vitam mandatorum suorum incedere faciat, atque ad vitam æternam perducatur.

Data Romæ septimo Idus Decembris, indictione decima tertia.¹

Migne Jacques-Paul : op. cit., Col. 385-387. ¹

الملحق الخامس

رسالة فيروز الأرميني الزراد إلى بوهيموند

«اعلم يا أحسن الرجال، ويا من هو أغلى علي من الحياة ذاتها، أنني قد أحببتك حبا خالصا منذ اللحظة التي شاءت فيها إرادة الله أن تقوم بيننا هذه الرابطة من الصداقة المتبادلة، ودعني اذكرك أكثر من هذا أنني وجدت في كلماتك صادق العزم الذي لا يتوفر إلا في الرجل الصالح، ومن ثم فإن حبك أخذ يزداد رسوخا في فؤادي يوما بعد يوم ويعظم قدرك عندي. أما عن الأمر الذي كثر تذكيرك لي به فقد أمعنت فيه النظر مليا، وعينين ببحثه مرارا، وقلبته على شتى جوانبه، فأيقنت يقينا جازما أنني إذا استطعت أن أعيد بلدي إلى حريته السالفة، وطردت هذه الكلاب القذرة التي تعاني تحكمها فينا، وأحللت بدلا منها شعبا يعبد الله، فلن يضيع أجري يوم الحساب، وسوف أنعم بصحبة القديسين المباركين إلى الأبد.

ومن ناحية أخرى، فلو قمت أنا بهذه المهمة الشاقة الخطرة، ولم يكتب لي النجاح فيها، فلن يشك أحد في أن سيكون ذلك نهاية بيتي وانحيار سمعة عشيرتي الطيبة تمام الانحيار، ولن يجري على اللسان اسمنا أبدا، غير أن الأمل في النصر لا يزال يراود النفس في القيام بهذه المخاطرة، ومع ذلك فإنني مستعد للنهوض بهذا العمل إن وافق رفاقك على أن تؤول إليك أنت وحدك دون سواك هذه المدينة حين استسلامها بفضل جهودتي القوية، وبعون الرب الذي ربط بيننا برباط الصداقة الوثيق، وسأقوم بالمهمة مهما كانت صعوبتها، وسيكون قيامي بها بسبب حبي لصغاري الذين أرجو لهم ولك كل الخير.

وسأسلم إليك من غير عائق هذا البرج الشديد الحصانة، الذي تعرف أنه في حوزتي، وحينذاك تستطيع أنت ومن معك دخول المدينة آمنين سالمين.

أما إن رأيتم أنكم جميعاً متساوون فيما بينكم ورأيتم أنتم أن تقسم وإياهم المدينة حين تؤخذ على هذه الصورة فإنني لن أزج بنفسي في هذا المأزق الخطير، ومن أجل خاطر قوم ليس لي هوى فيهم.

وإنه ليتحتم عليك - من أجل الصالح العام وسلامة الجميع - أن تبذل قصارى جهدك للحصول على هذه الموافقة من القادة المرتبطين بك، وكن واثقاً كل الثقة أنني حالما أتسلم منك الخبر اليقين بأنكم وفيتم بهذا العهد، فلن أتوانى في فتح باب المدينة لكم لتدخلوها. وهذه هي الغاية التي تلح علي من أجلها.

وازيدك علماً بأنك إن لم تتحرك بأسرع ما يمكن، فلن تدخلوها بعد ذلك أبداً، لأن حكم هذه المدينة تصله الرسائل، وتتوالى عليه الكتب كل يوم، مشيرة إلى الامدادات التي تتجمع من كافة أرجاء الشرق لمساعدته قد عسكرت حول نهر الفرات، في قوة بلغت مائتي ألف فارس، فإذا وجدتكم هذه الجيوش لا زلتم خارج المدينة فلن تكونوا قادرين بعد ذلك أبداً على مقاومة قوة الأهالي وجيوش حلفائهم القادمة.¹

¹ وليم الصوري : مصدر سابق، ج 1، ص 336-337.

الملحق السادس

رسالة البابا كليمنت الثالث إلى رئيس الكنيسة الأرمنية

الرسالة التي أرسلها البابا كليمنت الثالث (Clément III) (1187-1191)، إلى جثليق الأرمن جريجوار الرابع، والرسالة الأصلية المكتوبة باللغة اللاتينية غير موجودة في المصادر، وقد وصلت إلينا مترجمة إلى اللغة الأرمنية عن طريق نرسييس اللمبروني (Nersès de Lampron) (1153-1198)، مطران مدينة طرسوس، ومن اللغة الأرمنية، ترجمت حديثاً إلى اللغة الفرنسية.

في هذه الرسالة يحث البابا نظيره الأرمني على تقديم المساعدة إلى رجال الحملة الصليبية الثالثة لاستعادة بيت المقدس وانتزاعها من أيدي المسلمين. ويذكره في البداية بأن المسيحي الحقيقي لا يستطيع الصبر على الآلام التي يعاني منها جميع المسيحيين بعد سقوط مملكة بيت المقدس، ويذكره بأن بلاده قريبة من البقاع المقدسة المسيحية وبذلك فهو أكثر إحساساً من الآخرين بهذه الآلام. ويقول له في الفقرة الثالثة من الرسالة، بأن الرب عهد إليك شعباً جاهلاً، ووضعك مثل ضوء وسط هذه البلاد لتنير لهم! ويطلب منه أن يتحرك بحماس حتى تستعد شعوب أرمينيا كلها (لتحرير) البقاع المقدسة، إما بتقديم الأسلحة، أو بالأموال، أو بالانضمام إلى الفرق العسكرية القادمة من الغرب لتحقيق الانتصار في المعركة وإنقاذ (ميراث الرب)، وهي فرصة ليتوب جميع من أخطأ ويكفر عن ذنوبه بالمشاركة في معركة (تحرير بيت المقدس).

وهذا نص الرسالة :

Clément, évêque, serviteur des serviteurs de Dieu, à notre vénérable frère Grégoire, Catholikos de toute l'Arménie, salut et bénédiction apostolique!

L'épreuve que, de nos jours, les pays d'Orient viennent de subir par la volonté juste de Dieu, a d'autant plus affligé ton cœur, nous en sommes persuadé, que tu es plus près des pays qui ont été éprouvés et que tu as pu être témoin des tortures et des peines qu'on leur fait endurer. Car toi qui, par la miséricorde de Dieu, es le chef de la foi catholique, tu ne peux supporter ces choses et tu sens les sanglots te gonfler le cœur et les larmes te venir aux yeux, à la vue de l'opprobre des Chrétiens. Qui même, parmi ceux qui ont le nom de

Chrétiens et qui sont véritablement chrétiens, peut supporter de voir la Sainte-Terre humiliée à ce point, telle que nous la voyons aujourd'hui, souillée par les plus infâmes et les plus honteuses abominations? Qui pourrait voir sans frémir le Saint Sacrement regardé comme une vile ordure et jeté sous les pieds, les fidèles de Jésus-Christ massacrés, exterminés par le glaive des musulmans. Toutes choses dont nous ne pouvons parler ici sans éprouver une profonde tristesse au fond de notre cœur ...

Oh! Ce furent des jours terribles que ceux pendant lesquels la terre de Jérusalem fut perdue, les fidèles massacrés et le Saint Sacrement foulé aux pieds. Les malheurs prédits par les prophètes se sont accomplis de nos jours : "O Dieu! Les Infidèles sont entrés dans ton héritage et ils ont souillé ton saint Temple!" Or, tout cela nous est connu et vous le voyez de vos yeux, car votre province est voisine de ce pays. Nous aussi, nous avons eu hâte de l'annoncer aux fidèles qui se sont préparés hardiment et accourent à l'aide de ce malheureux pays. Ils arrivent en personne, en biens, et en armes, pour s'exposer à tous les périls par amour pour Celui qui naquit en cette terre sainte et souffrit tant d'ignominies, et qui à la fin nous obtint le pardon de nos péchés sur l'instrument de honte, sur la croix, et nous délivra de la mort éternelle. Nous espérons qu'en voulant nous punir, il voudra nous corriger et nous consoler; et c'est par là que les siens sont reconnus, ceux qui font voir sur eux les mépris de Jésus-Christ. Nous espérons aussi que sa colère contre son peuple n'est pas implacable, car au plus fort de son indignation il appelle sa miséricorde et il fait retourner plein de joie celui qui s'en vient en pleurant.

Que Dieu t'épargne, toi, à qui il a confié un peuple ignorant, en te plaçant comme une lumière au milieu de ce pays afin que tu les éclaires! Observe ce douloureux et terrible évènement et viens-lui en aide chaque jour par ton énergie; reconforte le peuple qui t'a été confié, afin qu'en te voyant zélé, tous les peuples de l'Arménie qui sont placés sous ta tutelle se préparent à la délivrance des Lieux-saints, soit par l'aide de leurs armes, soit par des dons sur leurs biens, soit par l'appui de leurs personnes, pour vaincre et abaisser les fiers dans des batailles. A cette participation à la guerre de tes hommes, viendront s'adjoindre les troupes de l'Occident, par la grâce de Dieu, afin que l'héritage de Dieu soit sauvé ...

Nous qui sommes le vicaire de Jésus-Christ et qui avons le pouvoir de remettre les péchés à tous ceux qui font de bonnes œuvres, nous croyons que c'est Dieu qui fournit l'occasion à tous les Chrétiens de faire pénitence pour leurs péchés. Aussi pour ceux qui s'exposent à ces tribulations ou qui offrent leurs

biens pour cela, nous espérons en la miséricorde de Dieu et en les grâces des Saints Apôtres Pierre et Paul, que s'ils meurent dans cette guerre ou s'ils y survivent, comme ils auront accompli leur devoir, ils reçoivent la rémission de tous leurs péchés qu'ils auront confessés. Et que ceux qui viennent soit de votre province, soit d'autres pays, au secours de la Terre-Sainte reçoivent la rémission de leurs péchés selon la générosité de cœur que Dieu leur aura donnée et selon la valeur de leur offre.

Veille à cela, cher Frère, selon la lumière que la miséricorde de Dieu t'aura dispensée, afin que toi-même et tout le peuple d'Orient gouverné par toi, vous soyez zélés pour la délivrance des Saints-Lieux. Et 2cris-moi aussitôt le résultat que cette œuvre aura obtenu par tes efforts et par la grâce de Dieu. Sache aussi que, bien que tu sois loin de nos yeux corporels, nous te voyons toujours par nos yeux spirituels et nous t'embrassons de tout notre cœur et en toute affection et nous faisons de bonne grâce tout ce que tu nous demandes.¹

Alishan Leonce M. : Léon le magnifique, p. 163-164. ¹

الملحق السابع

رسالة جثليق الأرمن إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي

بعد موت الامبراطور الألماني فردريك بروسا وهو يستعد للدخول إلى أرمينيا الصغرى، أرسل جثليق الأرمن رسالة إلى صلاح الدين الأيوبي. وقد أورد هذه الرسالة بهاء الدين بن شداد، قاضي العسكر في عهد صلاح الدين، وكان مرافقا له في كثير من حروبه، وملازما له في مجالسه، وهو أيضا كاتب تاريخه وسيرته.

صورة كتاب الكاغيكوس الأرمني

ولقد وصل إلى السلطان -رحمه الله- كتاب من الكاغيكوس وهو مقدم الأرمن، وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات. هذه ترجمته :

كتاب الداعي المخلص الكاغيكوس : «مما أطلع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الناصر جامع كلمة الإيمان، رافع علم العدل والإحسان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، أدام الله إقباله، وضاعف جلاله، وصان مهجته وكماله، وبلغه نهاية آماله، بعظمته وجلاله : من أمر ملك الألمان وما جرى له عند ظهوره، وذلك : أنه أول ما خرج من دياره، ودخل بلاد الهنكر غصبا، وغضب ملك الهنكر بالإذعان والدخول تحت طاعته، وأخذ من ماله ورجاله ما اختار، ثم إنه دخل أرض مقدّم الروم، وفتح البلاد، ونهبها، وأقام بها وأخلاها، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه، وأخذ رهائنه : ولده وأخاه وأربعين نفرا من خلصائه، وأخذ منه خمسين قنطارا ذهباً وخمسين قنطارا فضة، وثياب أطلس مبلغا عظيما، واغتصب المراكب، وعاد بها إلى هذا الجانب، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد قليج أرسلان، وردّ الرهائن، وبقي سائرا ثلاثة أيام، وتركمان الأوج يلقونه بالأغنام والأبقار والخيل والبضائع، فتدخلهم الطمع، وجمعوا من جميع البلاد، ووقع القتال بين التركمان وبينه، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوما وهو سائر ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليد أرسلان العساكر وقصده وضرب معه مصافا عظيما، فظفر به ملك الألمان، وكسره كسرة عظيمة، وسار حتى أشرف على قونية، فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين، فردهم مكسورين، وهجم قونية بالسيف، وقتل منها عالما عظيما من المسلمين والفرس، وأقام بها خمسة أيام، فطلب قليج أرسلان منه الألمان، فأمنه الملك، واستقر بينهم قاعدة أكيدة، وأخذ منه الملك رهائن : وعشرين من أكابر دولته، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة، ففعل، وقبل منه. وقبل وصوله إلى هذه

البلاد نفذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصده، وما لقيه في طريقه، وأنه لابد مجتاز هذه الديار اختياراً أو كرهاً، فاقتضى الحال إنفاذ المملوك حاتم، وصحبته ما سأل، ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك في جواب كتابه. وكانت الوصية معهم أن يحرفوه على بلاد قليج أرسلان إن أمكن، فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب، وعرفوا الأحوال، أبي الانحراف، ثم كثر عليه العساكر والجموع، ونزل على شط بعض الأنهار، فأكل خبزاً ونام ساعة، وانتبه، فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد، فنكت أياً ما قلائل ومات. وأما لافون فكان سائراً يلقي الملك، فلما جرى هذا الجرى، هرب الرسل من العسكر، وتقدموا إليه، وأخبروه بالحال، فدخل في بعض حصونه واحتوى هناك.

وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه إلى قصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه وتوطدت قواعده وبلغه هرب رسل ابن ولان فانفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال : إن أبي كان شيخاً كبيراً وإنما قصد هذه الديار لأجل حج بيت المقدس، وأنا الذي دبرت الملك وعانيت المشاق في هذه الطريق فمن أطاعني وإلا بدأت بقصد دياره.

واستعطف ابن لاون واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة في الجملة هم في عدد كثير. ولقد عرض عسكره فكان اثنين وأربعين ألف مجحفاً وأما الرجالة فلا يحصى، عددهم وهم أجناس متفاوتة، وخلق غريبة، وهم على قصد عظيم وجد في أمرهم وسياسة هائلة حتى أن من جنى منهم جناية فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة.

ولقد بلغهم عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه، فاجتمعت القسوس للحكم فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه، وشفع إلى الملك منهم خلق عظيم. فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه وقد حرموا الملاذ على أنفسهم حتى أن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه كل ذلك كان حزناً على بيت المقدس.

ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة، وحرموها على أنفسهم ولم يلبسوا إلا الحديد، حتى أنكروا عليهم الأكابر ذلك، وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب في حال عظيم طالع المملوك بالحال وما يتجدد بعد يطالع به إن شاء الله تعالى».

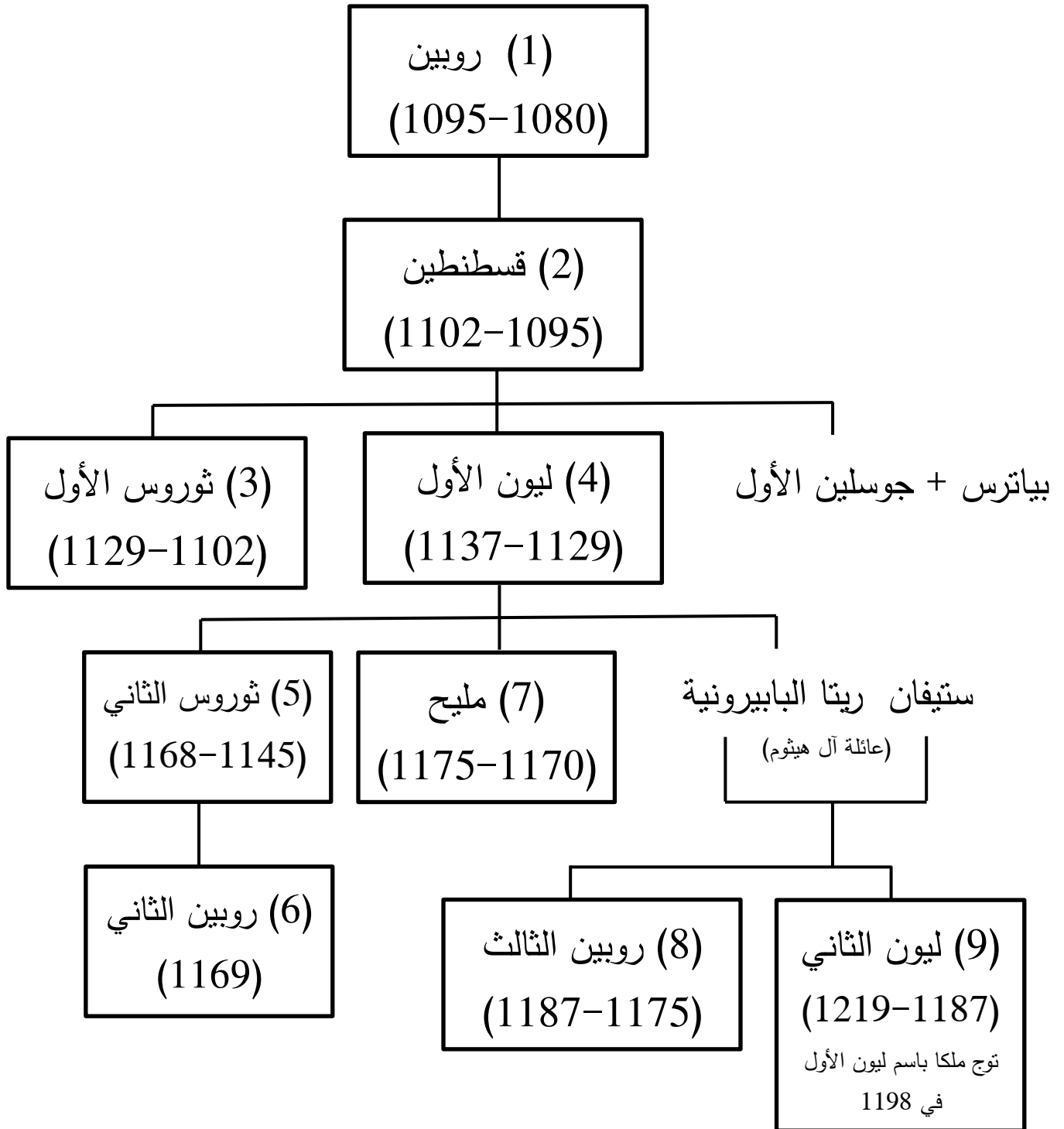
هذا كتاب الكاغيكوس ومعنى هذا اللفظ الخليفة واسمه بركرى كور ابن باسيل.¹

¹ ابن شداد (بهاء الدين) : مصدر سابق، ص 191-193.

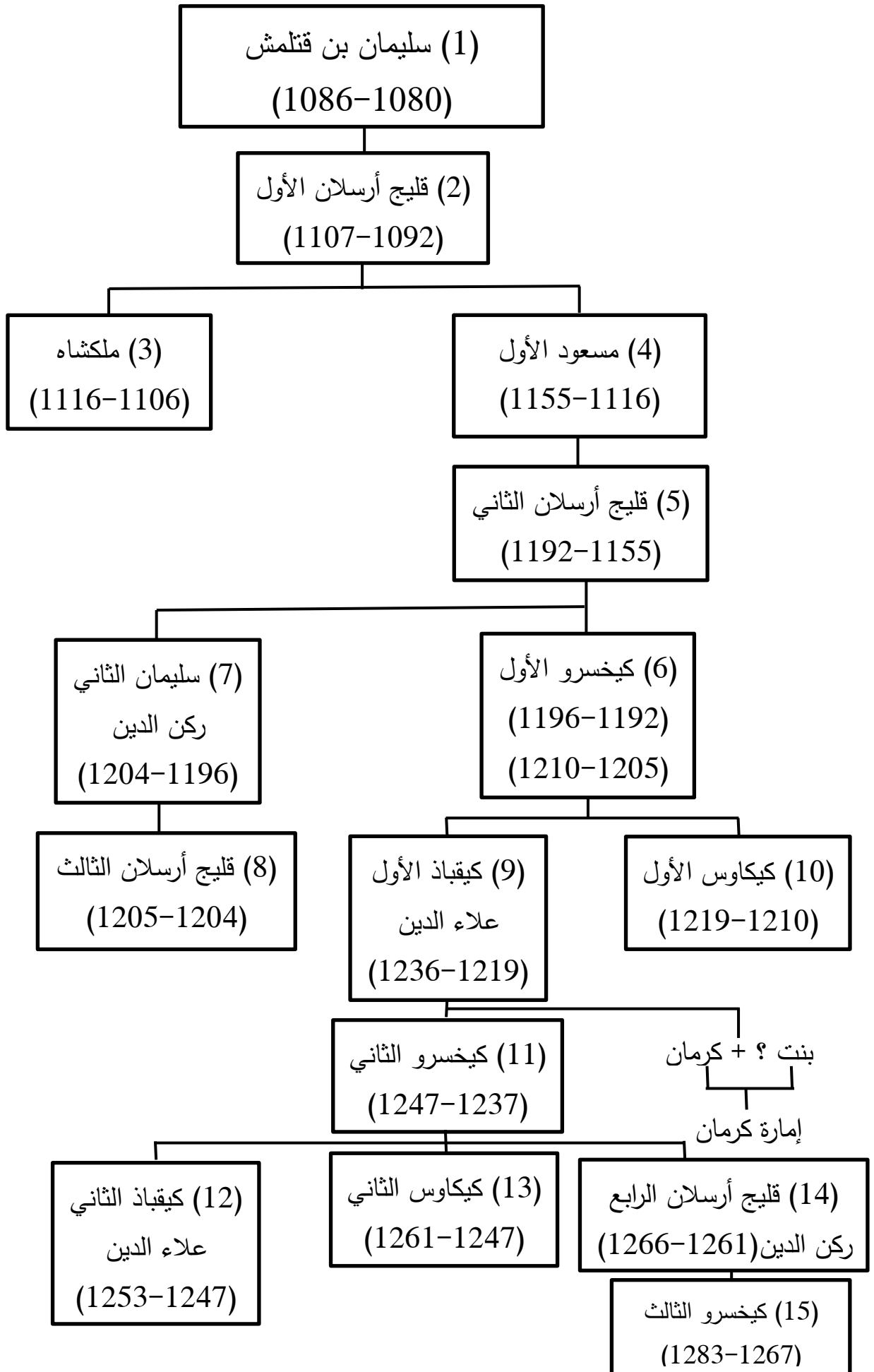
2. السلاطين والأمراء

الملحق الثامن

أمراء آل روبين في قيليقيا

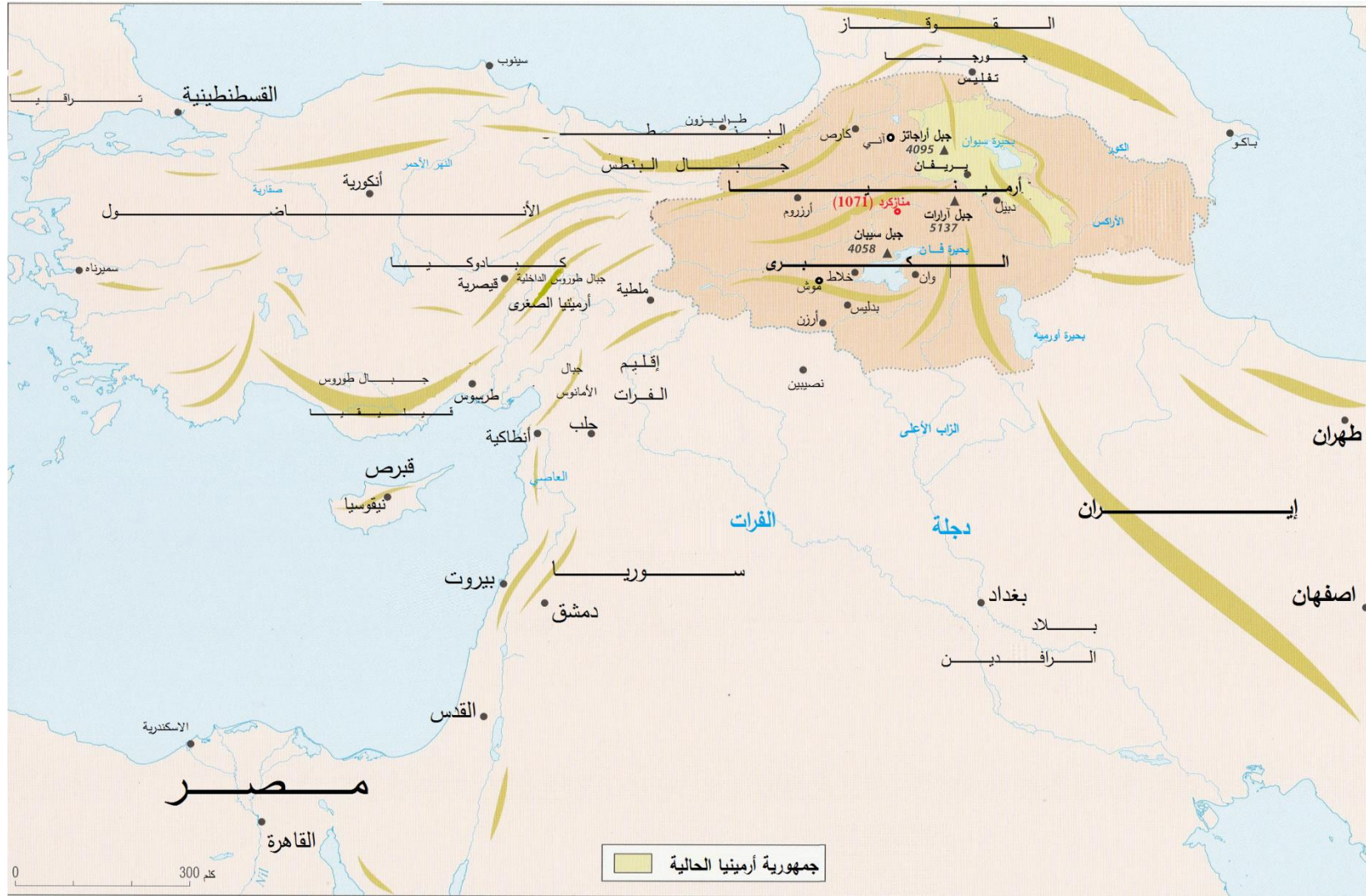


الملحق التاسع : سلاطين سلاجقة الروم في قونية



3. الخرائط

الملحق العاشر : خريطة أرمينيا الكبرى¹



¹ مترجمة للغة العربية وبتصرف، عن : Mutafian Claude : L'Arménie du Levant, t. II, carte n° 01

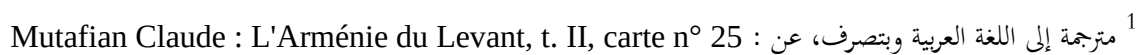
الملحق الحادي عشر : توسع السلاجقة حتى سنة 1095م¹



¹ مترجمة إلى اللغة العربية وبتصرف، عن : Riley-Smith Jonathan : Atlas des Croisades, traduit par Camille Cantoni, Editions Autrement, Paris. 1996. p. 27.

الملحق الثالث عشر : إمارة أرمينيا الصغرى بين 1072-1119م¹

¹ مترجمة إلى اللغة العربية وبتصرف، عن : Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs, t. II, p. 1539.



4. الصور

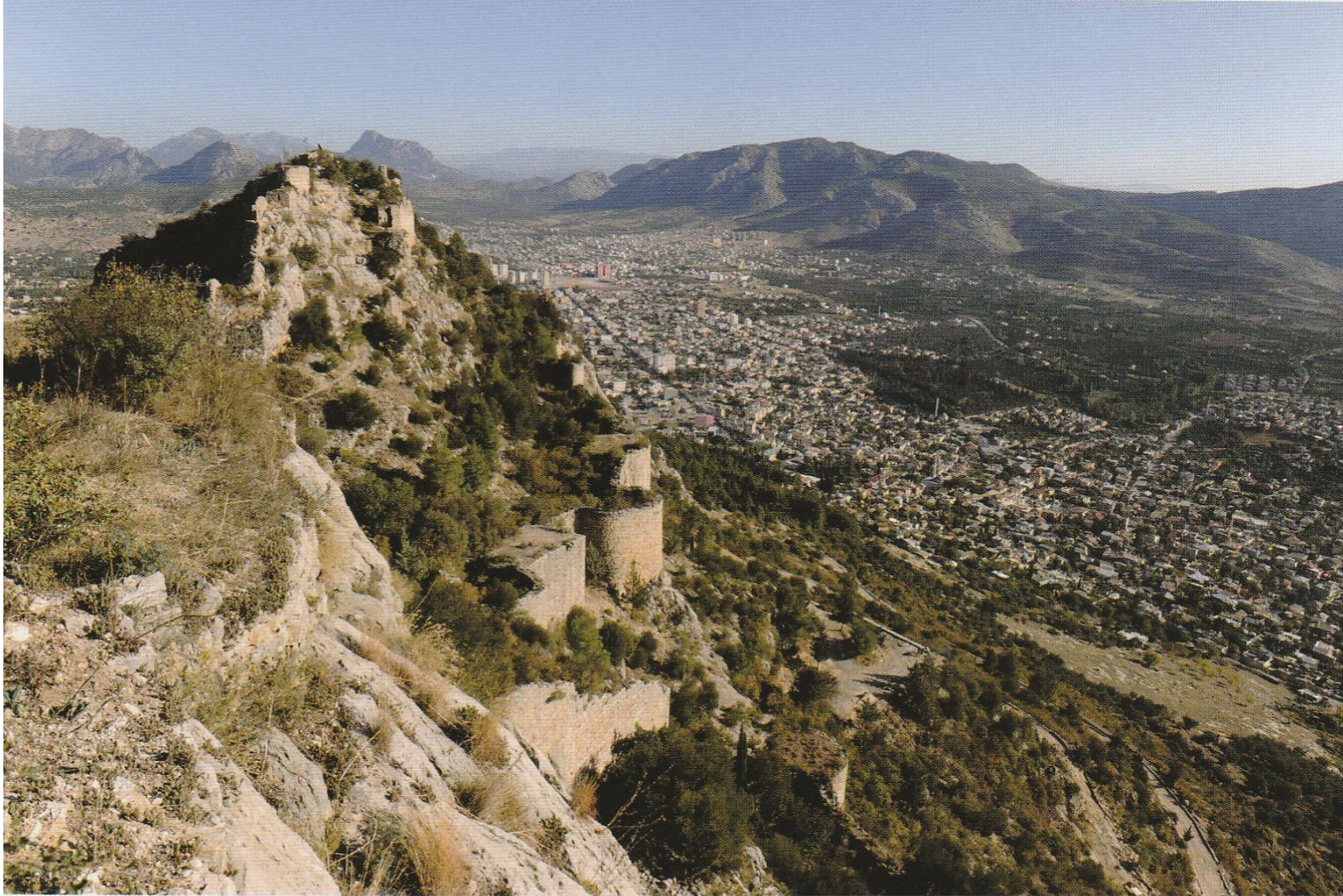
الملحق الخامس عشر : قلعة فاهكه¹





الملاحق

الملحق السابع عشر : مدينة سيس¹



Mutafian Claude : L'Arménie du Levant, t. II, fig. n° 60. ¹

فَائِزَةُ المَصَاوِر

والمُرَادِجِيعِ

ثانيا : المصادر العربية والمعرية

1. ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت 630 هـ)) : الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، ط 4، بيروت، 1983.
2. ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت 630 هـ)) : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1963.
3. الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (ت 559 هـ/1166 م)) : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.
4. الأصبهاني (أبو الفرج) : كتاب الأغاني، مطبعة التقدم، (د م)، (د ت).
5. الاصطخري (أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي (ت 346 هـ/957 م)) : مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1927.
6. الأصفهاني (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت 597 هـ/1201 م)) : تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار ابن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، شركة طبع الكتب العربية، القاهرة، 1900.
7. ألبرت فون آخن : تاريخ الحملة الصليبية الأولى ومملكة بيت المقدس (1095-1120 م)، ترجمة محمد حمدان أحمد، دار الاعصار العلمي للنشر والتوزيع، دمشق، 2016.
8. البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت 271 هـ)) : فتوح البلدان، حققه عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، 1987.
9. البنداري (الفتح بن علي) : سنا البرق الشامي 562 هـ/1166 م : 583 هـ/1187 م، إختصار الفتح بن علي البنداري، من كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب الأصفهاني، تحقيق فتحية النراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1979.

10. البيهقي (ابو الفضل محمد بن حسين (ت 470هـ/1077م)) : تاريخ البيهقي، ترجمه إلى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1956.
11. ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597 هـ)) : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.
12. الحسيني (صدر الدين أبو الحسن علي ناصر بن علي (ت بعد 622هـ/1125م)): أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق محمد إقبال، نشریات كلية فنجان، لاهور، 1933.
13. الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله) : معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2008.
14. ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت 367هـ/977م)) : صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979.
15. ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ت 280 هـ/893م)) : المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1889.
16. ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 1406م)) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، 1983.
17. ابن خلكان (ابو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681هـ)) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه د. إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1969.
18. خوريناتسي موسيس : تاريخ الأرمن من البداية حتى نهاية القرن الخامس الميلادي، نقله عن الأرمنية نزار خليلي، إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 1999.
19. الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ)) : دول الإسلام، حققه حسن إسماعيل مروة، دار صادر، بيروت، 1999.

20. الراوندي (محمد بن علي بن سليمان) (ت بعد 603هـ) : راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، نقله إلى العربية، ابراهيم أمين الشواربي وآخرون، دار القلم، القاهرة، 1960.
21. الرهاوي المجهول : تاريخ الرهاوي المجهول، ترجمة سهيل زكار، في : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1995.
22. ابن الساعي (علي بن أنجب البغدادي (ت 674هـ)) : مختصر أخبار الخلفاء، المطبعة الأميرية، بولاق، 1309هـ.
23. سبط ابن الجوزي (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت 654هـ)) : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق ودراسة مسفر بن سالم بن عريج الغامدي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1987.
24. السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ)) : تاريخ الخلفاء، تحقيق احمد ابراهيم زهوة و سعيد بن أحمد العيدروسي)، دار الكتاب العربي، ط4، بيروت 2003.
25. ابن الشحنة (أبو الفضل محمد (ت 890هـ/1485م)) : الدُرُّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العربي، دمشق، 1984.
26. أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي (ت 665هـ)) : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، وضع حواشيه وعلق عليه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002.
27. ابن شداد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف (ت 632هـ/1239م)) : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، ط 2، القاهرة، 1994.

28. ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم (ت 684هـ/1285م)) : الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، حققه يحيى زكرياء عباده، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1991.
29. الشهرستاني (ابو الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت 548هـ)) : الملل والنحل، دار الفكر، بيروت، 2008.
30. أبو صالح الأرمي : تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمي : تذكر فيه أخبار من نواحي مصر وإقطاعها، المطبعة المدرسية، أوكسفورد، 1895.
31. ابن الصيرفي (أمين الدين تاج الرياسة أبي القاسم علي بن منجب بن سليمان) : الإشارة إلى من نال الوزارة، عني بتحقيقه والتعليق عليه، عبد الله مخلص، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي الخاص بالعاديات الشرقية، القاهرة، 1923.
32. الطرسوسي (أبو عمرو عثمان بن عبد الله)، سِيرَ الثغور، تقديم ودراسة شاكر مصطفى، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1998.
33. ابن العبري (غرغوريوس أبو الفرج جمال الدين الملطي (ت 685هـ/1286م)) : تاريخ الزمان، نقله إلى العربية الأب إسحق أرملة، دار المشرق، ط 2، بيروت، 2005.
34. ابن العبري (غرغوريوس أبو الفرج جمال الدين الملطي (ت 685هـ/1286م)) : تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت، (د ت).
35. ابن العبري (جريجوريوس أبو الفرج) : مخطوطة تاريخ الأزمنة، ترجمة شادية توفيق حافظ، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2007.
36. ابن العديم (الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت 660هـ)) : بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1988.

37. ابن العديم (الصاحب كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن أحمد بن هبة الله (ت 660هـ)) : زبدة الحلب من تاريخ حلب، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996.
38. العظيمي (محمد بن علي الحلبي (ت 556هـ)) : تاريخ حلب، حققه وقدم له ابراهيم زعرور، (د ن)، دمشق، 1984.
39. الفارقي (أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق (ت بعد 577هـ/1181م)) : تاريخ الفارقي، حققه وقدم له بدوي عبد اللطيف عوض، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1959.
40. ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت 749 هـ)) : التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988.
41. ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت 749 هـ)) : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971.
42. ابن الفقيه (أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الهمداني (ت نحو 340 هـ)) : كتاب البلدان، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، 1996.
43. فوشيه الشارترى : الاستيطان الصليبي في فلسطين، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس (1095-1127)، ترجمة قاسم عبده قاسم، دار الشروق، 2001.
44. فيتالي أورديك : التاريخ الكنسي، ترجمة سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، 2008.
45. قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1981.
46. قسطنطين بروفيروجنيتوس : إدارة الإمبراطورية البيزنطية، عرض وتحليل وتعليق محمود سعيد عمران، دار النهضة العربية، بيروت، 1980.

47. ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة (ت 555هـ)) : ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908.
48. القلقشندي (أبو العباس أحمد (ت 821هـ/1418م)) : صبح الأعشى، دار الكتب السلطانية، القاهرة، 1915.
49. الكاشغري (محمود بن الحسين بن محمد) : ديوان لغات الترك، دار الخلافة العلية، (د م)، 1333 هـ.
50. ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل (ت 774هـ)) : البداية والنهاية، دار الغد الجديد، القاهرة، 2007.
51. كومينا أنثا : الألكسياد، في : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1995.
52. متى الرهاوي : تاريخ متى الرهاوي الإفرنج (الصليبيون) - المسلمون - الأرمن، ترجمة وتعليق محمود محمد الرويضي وعبد الرحيم مصطفى، دار اليازوري، عمان، 2012.
53. ابن مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (ت 421 هـ)) : تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
54. المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، 1906.
55. المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي) : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق د. محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1971.
56. المقرئ (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي (ت 845 هـ)) : السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.
57. المقرئ (تقي الدين (ت 845/1441)) : كتاب المقفى الكبير، تحقيق محمد العلاوي، دار الغرب الاسلامي، 1991.

58. ابن منقذ أسامة (مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيرزي ت 584هـ/1188م)) : كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (بدون تاريخ).
59. مؤلف مجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1958.
60. الواقدي (أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الأسلمي (ت 207 هـ)) : فتوح الشام، دار صادر، ط2، بيروت، 2010.
61. وليم الصوري : الحروب الصليبية، ترجمة د. حسن حبشي، مؤسسة الاسراء للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991.
62. وليم الصوري : في : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1995.
63. يحيى الأنطاكي (يحيى بن سعيد (ت 458هـ/1067م)) : تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتبخا، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس (لبنان)، 1990.
64. اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت سنة 284 هـ) : البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة ودار الكتب العلمية، بيروت، (د ت).

ثالثا : المصادر الأجنبية

1. Albert d'Aix : Histoire des faits et gestes dans les régions d'outre-mer, J.-L.-J. Brière Libraire, Paris, 1824.
2. Arisdaguès de Lasdiverd : Histoire d'Arménie, traduite par Evariste Prud'homme, Benjamin Duprat, Paris, 1863.

3. Asolik Etienne (de Tarôn) : Histoire universelle, traduite de l'arménien et annotée par Frédéric Macler, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1917.
4. Benedict of Peterborough : Gesta regis Henrici secundi benedicti qbbatis, edited by William Stubbs, Longmans, London, 1867.
5. Catholicos Jean : Histoire d'Arménie, traduit par M. J. Saint-Martin, Imprimerie royale, Paris, 1861.
6. Comnène Anne : Alexiade (règne de l'empereur Alexis I Comnène 1081-1118), traduit par Bernard Leib, Les Belles Lettres, Paris, 1937.
7. Dardel Jean : Chronique d'Arménie, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} éd., Paris, 1969.
8. Ernoul : Chronique d'Ernoul et de Bernard le trésorier, Librairie de la société de l'histoire de France, Paris, 1871.
9. Ghévond Léonce : Histoire des guerres et des conquêtes des Arabes en Arménie, traduit en français par Garabed V. Chahnazarian, Paris, 1856.
10. Grégoire le prêtre : Chronique de Grégoire le prêtre, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} éd., Paris, 1969.
11. Guibert de Nogent : Histoire des Croisades, chez J.-L.-J. Brière, Librairie, Paris, 1825.
12. Guiragos de Kantzag : L'Histoire d'Arménie de Guiragos de Kantzag, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} éd., Paris, 1969.
13. Héthoum (comte de Gorigos) : Table chronologique, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} éd., Paris, 1969.
14. Mardiros de Crimée : Liste rimée des souverains de la Petite Arménie, ds. R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} ed., Paris, 1969.
15. Matthieu d'Edesse : Chronique de Matthieu d'Edesse (962-1136), Traduit par Edouard Dulaurier, A. Durand Libraire, Paris, 1858.
16. Michel le Syrien : Chronique de Michel le Syrien, traduite par J.-B Chabot, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1901.
17. Michel Le Syrien : Extrait de la chronique de Michel le syrien, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} éd., Paris, 1969.

18. Migne Jacques-Paul : S. Gregorii VII Romani Pontificis Epistolae et Diplomata pontificia, tomus unicus, Apud Garnier Fratres Editores et J-P successores, Paris, 1878.
19. Nersès de Lampron : Lettre adressée au roi Léon II, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} éd., Paris, 1969.
20. Odon de Deuil : Histoire de la Croisade de Louis VII, J.-L.-J. libraire, Paris, 1825.
21. Raoul de Caen : Faits et gestes du prince Tancrède pendant l'expédition de Jérusalem, chez J.-L.-J. Brière, Librairie, Paris, 1852.
22. Saint Nersès Schnorhali (le gracieux) : Élégie sur la prise d'Edesse, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} éd., Paris, 1969.
23. Samuel d'Ani : Chronographie de Samuel d'Ani, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} éd., Paris, 1969.
24. Sébèos (L'Evêque) : Histoire d'Héraclius, Traduit en français par Frédéric Macler, Paris, 1904.
25. Sempad (le Connétable) : Chronique du royaume de la Petite Arménie, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} éd., Paris, 1969.
26. Smbat : La chronique attribuée au connétable Smbat, introduction, traduction et notes par Gérard Dédéyan, librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1980.
27. Vahram d'Edesse : Chronique rimée des rois de la petite Arménie, ds. R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} éd., Paris, 1969.
28. Vahram Rapoun : Chronique du royaume Arménien de la Cilicie à l'époque des croisades, traduit par Sahag Bedrosian, Benjamin Duprat, Paris, 1864.
29. Vartan le Grand : Extrait de l'histoire universelle, ds. R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{ème} ed., Paris, 1969.

رابعاً : المراجع العربية والمعربة

1. ابراهيم نعيمة محمد : آسيا الصغرى والحروب الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2014.
2. اسكندر فايز نجيب : أرمنية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة (1000-1071م/392-463هـ) في مصنف أريستاكتيس اللستيفرقي، المطبعة العصرية، الاسكندرية، 1983.
3. استراتيجان ك. ل. : تاريخ الأمة الأرمنية، مطبعة الاتحاد الجديدة، الموصل، 1951.
4. اسكندر فايز نجيب : الفتوحات الاسلامية لأرمنية، دار نشر الثقافة، الاسكندرية، 1983.
5. إميل بول : تاريخ أرمنيا، ترجمة شكري علاوي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (دت).
6. أوزطونا يلماز : المدخل إلى التاريخ التركي، ترجمة أرشد الهرمزي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2005م.
7. بارتولد فاسيلي فلاديميروفيتش : تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد سعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996.
8. براور يوشع : الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس اللاتينية، ترجمة عبد الحافظ عبد الخالق البناء، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001.
9. براور يوشع : عالم الصليبيين، ترجمة قاسم عبده قاسم و محمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 1999.
10. بروكلمان كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس و منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1981. تركماني أسامة أحمد : جولة سريعة في تاريخ الأتراك والتركمان ما قبل الإسلام وما بعده، دار الإرشاد للنشر، سوريا، 2007.
11. الجنزوري علية عبد السميع : إمارة الرها الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2001.
12. الحارثي عبد الله بن ناصر بن سليمان : الأوضاع الحضارية في إقليم الجزيرة الفراتية في القرنين السادس والسابع للهجرة/الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2007.
13. حافظ احمد غانم : الامبراطورية الرومانية من النشأة إلى الانهيار، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2007.

14. الحويري محمود محمد : الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، دار المعارف، القاهرة، 1979.
15. خانجي انطون : مختصر تواريخ الأرمن، دير الآباء الفرنسيين، أورشليم، 1868.
16. خطاب محمود شيت : قادة فتح بلاد الروم، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 2009.
17. خمّاش نجدة : الشام في صدر الإسلام من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية دراسة للأوضاع الاجتماعية والإدارية، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1987.
18. الدبس يوسف : تاريخ الشعوب المشرقية في الدين والسياسة والاجتماع، دار نظير عبود (بدون مكان)، 2000.
19. دروزة محمد عزة : العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي من القرن الثالث إلى الثلث الأول من القرن الرابع الهجري، منشورات المكتبة العصرية، ط 2، صيدا، 1981.
20. دياب صابر محمد : أرمنية من الفتح الإسلامي إلى مستهل القرن الخامس الهجري، دار النهضة العربية، القاهرة، 1978.
21. دياب صابر محمد : المسلمون وجهادهم ضد الروم في أرمنية والثغور الجزرية والشامية خلال القرن الرابع الهجري، مكتبة السلام العالمية، (دم)، 1984.
22. ربيع حسنين محمد : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1983.
23. رزقانة ابراهيم : الجغرافية الإقليمية للعالم الإسلامي القسم الثاني العالم الإسلامي غير العربي 1 تركيا، دار النهضة العربية، القاهرة، (دت).
24. رستم أسد : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، دار المكشوف، بيروت، 1955.
25. رنسيما ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية، السيد الباز العيني، دار الثقافة، بيروت، 1997.
26. رنسيما ستيفن : الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3، القاهرة، 2010.

27. الزقراطي إبراهيم موسى : أسس الأسماء الجغرافية، المركز الجغرافي الملكي الأردني، عمان، 1997.
28. أبو زيد علا عبد العزيز : الدولة الأموية دولة الفتوحات 41-132هـ/661-750م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996.
29. السرجاني راغب : قصة الحروب الصليبية من البداية إلى عهد عماد الدين زنكي، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ط 2، القاهرة، 2009.
30. أبو سعيد حامد غنيم : الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، 2007.
31. سيد أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر : تفسير جديد، الدار المصرية اللبنانية، ط 2، القاهرة، 2000.
32. السيد محمود : تاريخ الدولة البيزنطية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 2007.
33. شبارو عصام محمد : السلاطين في المشرق العربي، دار النهضة العربية، بيروت، 1994.
34. الشنقيطي محمد بن المختار : أثر الحروب الصليبية على العلاقات السنية الشيعية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2016.
35. شينيه جان-كلود : تاريخ بيزنطة، ترجمة جورج زيناقي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2008.
36. الصلابي علي محمد : دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، دار المعرفة، ط 2، بيروت، 2008.
37. طقوش محمد سهيل : تاريخ الحروب الصليبية، دار النفائس، بيروت، 2011.
38. طقوش محمد سهيل : تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، دار النفائس، بيروت، 2002.
39. طقوش محمد سهيل : تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، دار النفائس، ط 3، بيروت، 2009.

40. عاشور سعيد عبد الفتاح، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربية، بيروت، 1977.
41. عاشور سعيد عبد الفتاح : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1976
42. عاشور سعيد عبد الفتاح : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1976.
43. عاشور سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2010.
44. العبد الغني عبد الرحمن محمد : أرمنية وعلاقاتها السياسية بكل من البيزنطيين والمسلمين 653-1064م/33-457هـ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، 1989.
45. العريني السيد الباز : المغول، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.
46. عطا زبيدة : الترك في العصور الوسطى بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون، دار الفكر العربي، (د. م)، (د. ت.).
47. عطية حسين محمد : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون 1171-1268م/567-666هـ، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1989.
48. عطية عزيز سوريال : تاريخ المسيحية الشرقية، ترجمة إسحاق عبيد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005.
49. عمران محمود سعيد : الامبراطورية البيزنطية وحضارتها، دار النهضة العربية، بيروت، 2002.
50. عمران محمود سعيد : السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل الأول (1143-1180م)، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2010.
51. عوض محمد مؤنس : تاريخ الصليبيات الصراع العالمي في العصور الوسطى، دار العالم العربي، القاهرة، 2012.
52. الغزي (كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى البالي) : نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية، حلب، 1926.

53. قاسم قاسم عبده : الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، دراسة عن الحملة الأولى 1095-1099م، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 1999.
54. كاميللو ببيركا وآخرون : المجامع المسكونية، نقله إلى العربية السيد بولس عطا الله، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005.
55. لسترنج كي، بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوريكس عواد، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1985.
56. اللهبي فتحي سالم : مملكة جورجيا في العصور الوسطى، دار غيداء، عمان، 2015. المحيميد علي بن صالح : الدانشمنديون وجهادهم في الأناضول، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1994.
57. المدور عثمان، الأرمن عبر التاريخ، منشورات دار نوبل، ط 2، دمشق، (د ت).
58. ويلتر ج. : الهرطقة في المسيحية تاريخ البدع الدينية المسيحية، تعريب جمال سالم، التنوير، بيروت، 2010.
59. مقامي نبيلة ابراهيم : فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، القاهرة، 1994.
60. نافع أميرة محمد : المسيحيون المحليون في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية (491-691هـ/1097-1291م)، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 2016.
61. نبيل نيقولا جورج بوخاروف : المسيحية دين الله الذي أنزله على المسيح أم هي ديانة بولس، (بدون دار ومكان النشر) 2007.
62. يوسف أبو النصر محمد عبد العظيم : السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001.

خامسا : المراجع الأجنبية

1. Alain Ducellier, (et autres) : Le Moyen Âge en Orient : Byzance et l'Islam : Des Barbares aux Ottomans, Hachette, Paris, 2006.
2. Alishan Léonce : Sissouan ou l'Armino-Cilicie description géographique et historique, traduit par George Bayan, Pères Mekhitaristes, Venise, 1899.

3. Aslan Kévork : L'Arménie et les Arméniens depuis les origines jusqu'à nos jours, Librairie Weiss, Constantinople, 1914.
4. Augé Isabelle : Byzantins, Arméniens et Francs au temps de la croisade, Geuthner, 2007.
5. Augé Isabelle : Le dilemme de l'Eglise : ouverture ou défense de la tradition nationale, ds. : H.P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008.
6. Balard Michel : Croisades et Orient latin (11^e-14^e siècle), Armand Colin, Paris, 2003
7. Balard Michel : Les Latins en Orient XI^e-XV^e siècle, Presses universitaires de France, Paris, 2006.
8. Bréhier Louis : L'Eglise et l'Orient au moyen âge. Les croisades, J. Cabalda, éditeur, 4^{eme} éd., Paris 1921.
9. Bréhier Louis : Les institutions de l'empire byzantin, Editions Albin Michel, Paris, 1949.
10. Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance, Editions Albin Michel, Paris, 1969.
11. Cahen Claude : La Syrie du nord à l'époque des Croisades et la principauté franque d'Antioche, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1940.
12. Cahen Claude : Orient et Occident au temps des croisades, Aubier Montaigne, Paris, 1983.
13. Chalandon Ferdinand : Les Comnène étude sur l'empire Byzantin au XI^e et XII^e siècles, Burt Franklin, New York, 1925.
14. Chaumont Marie-Louise et Traina Giusto : Les arméniens entre l'Iran et le monde gréco-romain (V^e siècle av. J.-C.-vers 300 ap. J.-C.), ds. H.P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008.
15. Chevalier Marie-Anna : Les Ordres religieux-militaires en Arménie Cilicienne, Geuthner, Paris, 2009.
16. Cheynet Jean-Claude : Les Arméniens de l'Empire en Orient de Constantin X à Alexis Comnène (1059-1081), ds. L'Arménie et Byzance histoire et culture, Publications de la Sorbonne, Paris, 1996.
17. Cheynet Jean-Claude et Vannier Jean-François : Etudes prosopographiques, Publications de la Sorbonne, Paris, 1986.
18. Cheynet Jean-Claude: Les Arméniens dans l'armée byzantine au Xe siècle, ds. : Travaux et mémoires 18 Mélanges

- Jean-Pierre Mahé, Association des Amis du Centre d'Histoire et Civilisation de Byzance, Paris, 2014.
19. De Morgan Jacques : Histoire du peuple arménien, depuis les temps les plus reculés de ses annales jusqu'à nos jours, Berger-Levrault, Libraires-Editeurs, Paris, 1919.
20. Dédéyan Gérard : Le rayonnement de l'état arménien de Cilicie, ds. : H.P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008.
21. Dédéyan Gérard : Les Arméniens dans la France médiévale, ds. H.P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008.
22. Dédéyan Gérard : Les Arméniens entre Grecs Musulmans et Croises, étude sur les pouvoirs arméniens dans le Proche-Orient Méditerranéen (1068-1150), Fondation Calouste Gulbenkian, Lisbonne, 2003.
23. Dédéyan Gérard : Un émir arménien du Hawrân entre la principauté turque de Damas et le royaume latin de Jérusalem (1147), ds. : Dei gesta per Francos. Etudes sur les croisades dédiées à Jean Richard, ed. by Michel Balard, Ashgate, 2001.
24. Diehl Charles : Byzance grandeur et décadence, Ernest Flammarion éditeur, Paris 1920.
25. Diehl Charles : Histoire de l'Empire byzantin, Auguste Picard, éditeur, Paris, 1924.
26. Du Cange Charles : Les Familles d'Outre-Mer de Du cange, publiées par E.-G. Rey, bibliothèque S. J. Les Fontaines, Paris, 1869.
27. Dulaurier Édouard : Histoire Dogmes, Traditions et Liturgie de l'Église Arménienne orientale, A. Durand, Librairie, 3^{eme}. éd. Paris, 1859.
28. Dulaurier Edouard : Introduction, ds. : R.H.C.D. Arm., Imprimerie impériale, 2^{eme} ed., Paris. 1969.
29. Elisséeff Nikita : Nūr Ad-dīn un grand prince musulman de Syrie au temps des croisades (511-569h./1118-1174), Librairie d'Amérique et d'Orient, Damas, 1967.
30. Garsoïan Nina : Le royaume du nord, ds. H.P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008.
31. Grousset René : Histoire de l'Arménie des origines à 1071, Payot, Paris, 1984.

32. Grousset René : Histoire des croisades, Perrin, Paris, 1991.
33. Grousset René : L'Empire des steppes Attila, Gengis-Khan, Tamerlan, Payot, 4^{eme} ed., Paris, 1965.
34. Grousset René : L'Empire du Levant histoire de la question d'orient, Payot, Paris, 1949
35. Grousset René : Les Croisades : Presses universitaires de France, Paris, 1964.
36. Hewsen Robert H. : Géographie physique, ds. : H.P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008.
37. Hewsen Robert H. : Les hommes, ds. : H.P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008.
38. Hill Georges : A History of Cyprus, Cambridge university press, New York, 2010.
39. Iorga N. : Brève histoire de la petite Arménie, Librairie universitaire J. Gamber, Paris, 1930.
40. Jean-Pierre Alem : L'Arménie, Presses Universitaires de France, Paris, 1959.
41. Kherumian R. : Les Arméniens race -origines ethno-raciales, Vigot frères éditeurs, Paris, 1941.
42. Langlois Victor : Voyage dans la Cilicie et dans les montagnes de Taurus, Librairie de Benjamin Duprat, Paris, 1861.
43. Laurent J. : L'Arménie entre Byzance et l'Islam depuis la conquête arabe jusqu'en 886, Fontemoing et C^{ie}, Paris, 1919
44. Laurent J. Byzance et les Turcs Seldjoucides dans l'Asie occidentale jusqu'en 1081, Berger-Levurlta éditeurs, Paris, 1914.
45. Macler Frédéric : La France et L'Arménie à travers l'art et l'histoire, Imprimerie H. Turabian, Paris, 1917.
46. Mahé Annie et Mahé Jean-Pierre : Histoire de l'Arménie des origines à nos jours, Perrin, Paris, 2012.
47. Mahé Jean-Pierre : Affirmation de l'Arménie chrétienne (vers 301-590), ds. : H.P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008.
48. Martin-Hisard Bernadette : Domination arabe et libertés arméniennes (VII^e-IX^e siècle), ds. H.P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008.

49. Mouradian Claire, L'Arménie, Presse universitaire de France, 9^{ème} ed. Paris, 2009.
50. Mutaftian Claude : La Cilicie au carrefour des empires, Société d'édition «Les belles lettres», Paris, 1988.
51. Mutaftian Claude : L'Arménie du Levant, Les Belles Lettres, Paris, 2012.
52. Pasdermadjian H. : Histoire de l'Arménie depuis les origines jusqu'au traité de Lausanne, Librairie orientale H. Samuelian, 2^e éd. Paris, 1964.
53. Ramsay W. M. : The historical geography of Asia minor, John Murray, London, 1890.
54. Schlumberger Gustave : Un empereur byzantin au dixième siècle Nicéphore Phocas, Librairie de Firmin-Didot et Cie, Paris, 1890.
55. Schlumberger Gustave: L'épopée byzantine à la fin du dixième siècle, seconde partie, Basile II le tueur des bulgares, Hachette & C^{ie}., Paris, 1900.
56. Schlumberger Gustave: L'épopée byzantine à la fin du dixième siècle, troisième partie, les porphyrogénètes Zoé et Thhéodora (1025-1057), Hachette & C^{ie}., Paris, 1905.
57. Seydi Süleyman : Esquisse de 2000 ans d'histoire de la Turquie, Editions du ministère de la culture et du tourisme de la république de Turquie, Ankara, 2010.
58. Simon : The History of Armenia from the origins to the present, Palgrave Macmillan, New York, 2007.
59. Tariel Michel : Chronique des civilisations anciennes, Les Editions du Panthéon, Paris, 1997.
60. Texier Charles : Asie mineure description géographique, historique et archéologique, Firmin Didot frères fils et Cie Editeurs, Paris, 1862.
61. Thierry Nicole : L'éclosion artistique des XIII^e et XIV^e siècles, Ds. : H.P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008.
62. Thorossian H. : Histoire de L'Arménie et du peuple arménien, (S. E.), Paris, 1957.
63. Treadgold Warren : A History of the Byzantine state and society, Stanford university press, Stanford California, 1997.

64. Valognes Jean-Pierre : Vie et mort des chrétiens d'Orient des origines à nos jours, Fayard, Paris, 1999.
65. Vasiliev A. A. : Histoire de l'empire byzantin, traduit du russe par P. Brodin et A. Bourguina, Editions A. Picard, Paris, 1932.
66. Vernier Donat : Histoire du Patriarcat arménien Catholique, Delhomme et Briguet éditeurs, Paris, Lyon, 1891.
67. Zekian Levon B. : Les colonies arméniennes des origines à la fin du XVIIIe siècle, ds. H.P. Arm., sous la direction de Gérard Dédéyan, Éditions Privat, Toulouse, 2008.

سادسا : الرسائل والمذكرات الجامعية

1. اسكندر فايز نجيب : "مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى (1250-1375م/648-776هـ)", رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه في الآداب، إشراف أ. د جوزيف نسيم، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، السنة الجامعية 1979-1980.
2. باذياب نوره عبد الله : "قونية عاصمة سلطنة سلاجقة الروم دراسة تاريخية وحضارية"، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي، إشراف أ. د. أحمد السيد دراج، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، 1994.
3. البسام هيفاء عبد الله العلي : "الوزير السلجوقي نظام الملك"، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، إشراف د. حسام الدين السامرائي، الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز، السنة الجامعية 1979-1980.
4. بوعمامة فاطمة : "العلاقات الخارجية لمملكة أرمينيا الصغرى منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي حتى سنة 1375م"، رسالة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ العصور الوسطى، إشراف ابراهيم فحار، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1993-1994.

5. زرقوق محمد : "مملكة أرمينيا الصغرى بين المغول والمماليك (623-776هـ/1226-1375م)", مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف أ. د. بشاري لطيفة، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، 2011-2012.
6. ابن فرج لطفی : "الأسرى في العلاقات العباسية-البيزنطية من قيام الدولة العباسية إلى واقعة ملازكرد (132هـ/750م-463هـ/1071م)", مذكرة لنيل شهادة الكفاءة في البحث العلمي، المرحلة الثالثة، إشراف د. محمد الطاهر المنصوري، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، السنة الجامعية 1992-1993.
7. قمعون عاشوري : "العلاقات العسكرية بين الدولتين السلجوقية والبيزنطية (429-794هـ/1038-1391م)", مذكرة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، إشراف أ د محمد الأمين بلغيث، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية، 2008-2009.

سابعاً : المقالات العربية

1. باذيب نورة بنت عبد الله بن سعيد : سلطنة سلاجقة الروم ومملكة أرمينيا الصغرى في النصف الأول من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، ع 4، السنة الثانية، الجمعية التاريخية السعودية، الرياض. جويلية 2001.
2. الحيارى مصطفى علي : حياة الناس في مدن الثغور، مجلة دراسات تاريخية، مجلة دراسات تاريخية، ع 4، جامعة دمشق، افريل 1981م.
3. الحيارى مصطفى : مدينة بانياس في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، مجلة دراسات، ع 12، مج 13، الجامعة الأردنية، عمان، ديسمبر 1986.
4. الربيعي عبد الله بن عبد الرحمن : موقف الامبراطورية البيزنطية من قادة الحملات الصليبية، مجلة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، ع 36، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، الرياض، شوال 1422 هـ.

5. الرويضي محمود و الطاونة محمد سالم : دور الأرمن في تأسيس إمارتي الرها وأنطاكية الصليبيتين (490-491هـ/1097-1098م)، حوليات آداب عين شمس، مج 30، جويلية-سبتمبر 2003.
6. زعرور ابراهيم : تحرير الرها وأثرها على مجرى الحروب الصليبية، مجلة دراسات تاريخية، ع 59-60، جامعة دمشق، جانفي-أفريل 1997.
7. زيتون عادل : المجتمع الصليبي في مذكرات أمير عربي، مجلة العربي، ع 555، وزارة الاعلام، الكويت، فيفري 2005. ص 114-115.
8. الطائي سناء عبد الله عزيز : اقتصاديات الثغور في القرنين الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، مج 9، ع 3، جامعة الموصل، العراق، 2010.
9. العبد الغني عبد الرحمن محمد : الأرمن في الحرب الصليبية (1097-1099)، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع 03، المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر، ديسمبر 2008.
10. العميد طاهر مظفر : تحصينات الدولة العباسية المواجهة للبيزنطيين في عهد الرشيد، مجلة المؤرخ العربي، ع 44، السنة 16، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1991.
11. عودات أحمد عبد الله : التسلط السلجوقي على الخلافة العباسية وموقف الخلفاء من ذلك (429-590هـ/1037-1193م)، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، ع 9، السنة الخامسة، الجمعية التاريخية السعودية، الرياض، 1424هـ/2004م.
12. كنعان عاصم اسماعيل : نظام حماية الحدود في العصر الأموي، مجلة الفتح، مج 4، ع 32، جامعة ديالى، العراق، 2008.
13. ماهر سعاد : أثر الماوردي في الفن السلجوقي، المؤرخ العربي، العدد العاشر، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، (د. ت.).
14. محل طالب صبار : العلاقات السياسية للقبائل العربية في بلاد الشام والجزيرة الفراتية مع البيزنطيين في القرنين الرابع والخامس الهجريين، مجلة آداب الفراهيدي، مج 11، ع 2074-9554، جامعة تكريت، كلية الآداب، العراق، 2012.

15. محمد عمر يحيى : الفتح والتوسع السلجوقي في آسيا الصغرى في النصف الثاني من

القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، مجلة جامعة الملك عبد العزيز :

الآداب والعلوم الإنسانية، مج 14، جامعة الملك عبد العزيز، جدة،
2006م/1427هـ.

16. المزيني ابراهيم بن محمد بن حمد : سمات الحكم الزنكي في عهد نور الدين محمود

(541-569هـ/1146-1147م)، مجلة جامعة الامام محمد بن سعود

الإسلامية، ع 22، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، الرياض، ربيع الثاني
1419هـ.

ثامنا : المقالات الأجنبية

1. Adontz N. : Notes Arméno-Byzantines, ds. : **Byzantion**, t. IX, fasc. 1, Bruxelles, 1934.
2. Aryeh Graboïs : La cité de Baniyas et le château de Subeibeh pendant les croisades. Ds : **Cahiers de civilisation médiévale**, 13^e année (n°49), Janvier-mars 1970.
3. Augé Isabelle : Le catholicos arménien pendant la période cilicienne, ds : **Cahiers de civilisation médiévale X^e-XII^e siècles**, n° 52, centre d'études supérieures de civilisation médiévale, université de Potiers, 2009.
4. Cahen Claude : La campagne de Mantzikert d'après les sources Musulmanes, **Byzantion**, t. IX, fascicule 2, Bruxelles, 1934.
5. Cheynet Jean-Claude : De Tziliapert à Sébastè, ds. **Studies in Byzantine Sigillography**, vol. 9, Walter de Gruyter, Berlin, 2006.
6. Cheynet Jean-Claude : La perte de l'Asie Mineure au X^{ie} siècle a-t-elle laissé des traces dans l'anthroponymie familiale ?, ds. **Studies in Byzantine Sigillography**, vol. 12, Walter de Gruyter, Berlin, 2016.

7. Cheynet Jean-Claude : Mantzikert un désastre militaire, Byzantion, t. L, fascicule 2, organe de la Société belge d'Etudes byzantines, Bruxelles, 1980.
8. Cheynet Jean-Claude : Thathoul archonte des archontes, Revue des études byzantines, t. 48, n° 1, Institut français d'études byzantines, Paris, 1990.
9. Dédéyan Gérard : Les Arméniens sur la frontière sud-orientale de Byzance, fin IXe - fin XIe siècles, : La Frontière. Séminaire de recherche, vol. 21, n° 1, Maison de l'Orient Méditerranéen, Lyon, 1993.
10. Kapoïan-Kouymjian Angèle : Le Catholicos Grégoire II le Martyrophile (vkayaser) et ses peregrinations, ds. **Bazmavep**, vol. 132, n° 3-4, Venise, 1975.
11. Kiourtzian Georges : En attendant les Seldjouks : une inscription des remparts d'Alanya en Asie mineure de 1199, : Revue des études byzantines, t. 70, année 2012, De Boccard, Paris, 2012.
12. Laurent J. : Byzance et Antioche sous le curopalate Philarète, Revue des études Arméniennes, t. IX fasc. 1, Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1929.
13. Laurent J. : Des Grecs aux Croisés. Étude sur l'histoire d'Édesse entre 1071 et 1098, ds. : **Byzantion**, t. I, publié par, Paul Graindor et Henri Grégoire, Paris, 1924.
14. Tournebize F. : Histoire politique et religieuse de l'Arménie, ds. : **Revue de l'Orient Chrétien**, neuvième et dixième année, Librairie A. Picard et fils, Paris, 1904.

تاسعا : المؤتمرات والندوات العلمية

1. اسكندر فايز نجيب : تجارة مملكة أرمينية الصغرى مع المدن الإيطالية وسلطنة المماليك البحرية (1198-1375م/595-776هـ)، بحث مقدم في : الندوة العلمية الدولية عن الاقتصاد بين العرب والأرمن، 29 مارس 2010، منشورات مركز الدراسات الأرمنية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2010.

2. اسكندر فايز نجيب : سيبوس (Sébêos) - المؤرخ الأرمني المعاصر للفتح الاسلامي
لأرمنية- وصورة الآخر، بحث مقدم في : الندوة الدولية للعلاقات الثقافية العربية- الأرمنية، 16 مارس 2009، منشورات مركز الدراسات الأرمنية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2009.
3. بولاديان آرشاك : أرمنية في التاريخ العربي-الاسلامي، بحث مقدم في : الندوة الدولية للعلاقات الثقافية العربية-الأرمنية، 16 مارس 2009، منشورات مركز الدراسات الأرمنية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2009.
4. زهر الدين صالح : عُيُنات ثقافية في العلاقات العربية-الأرمنية، بحث مقدم في : الندوة الدولية للعلاقات الثقافية العربية-الأرمنية، 16 مارس 2009، منشورات مركز الدراسات الأرمنية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2009.
5. الغامدي علي محمد عودة : سياسة نور الدين محمود العسكرية إزاء الأرمن في قيليقيا 563-569هـ/1168-1147م، بحث منشور في : بحوث تاريخية، بحوث علمية محكمة حصيلة اللقاءين العلميين الأول والثاني، شوال 1409هـ و شوال 1410هـ، إصدار الجمعية التاريخية السعودية، الرياض، 1993/1413.
6. كجو غسّان : حركة المثاقفة الأرمنية العربية ودور الأرمن في حركة النهضة العربية، بحث مقدم في : الندوة الدولية للعلاقات الثقافية العربية-الأرمنية، 16 مارس 2009، منشورات مركز الدراسات الأرمنية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2009.
7. Dédéyan Gérard : Les Arméniens en Occident, fin du Xe siècle – début du XIe, ds. **Actes des congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public**, 9^e congrès, Dijon, 1978. Occident et Orient au Xe siècle.
8. Dédéyan Gérard : Les origines de l'état arménien de Cilicie, **Actes du XXIXe Congrès international des Orientalistes**, ds. Orient Chrétien, L'Asiathèque, 1975.
9. Dédayan Gérard : Reconquête territoriale et immigration arménienne dans l'aire cilicienne sous les empereurs macédoniens (de 867-1028), ds. : Migrations et diasporas méditerranéennes (X^e-XXI^e siècles), **Actes du colloque de Conques (octobre 1999)**, Publications de la Sorbonne, Paris, 2002.

عاشرا : الموسوعات والقواميس الأجنبية

1. Barber Malcolm : **Templar of Tyre**, in : The Crusades An Encyclopedia, ABC-Clio, California, 2006.
2. Barthold W. : **Turkistan**, in : The encyclopaedia of Islam, Brill, Leiden, 2000. vol. X.
3. Bosworth C.E. : **Ukaylids**, in : The encyclopaedia of Islam, Brill, Leiden, 2000. vol. X.
4. Cahen Claude : **Alp Arslan**, in : The encyclopaedia of Islam, E. J. Brill, Leiden, 1986. vol. I.
5. Cahen Claude : **Artukids**, in : The encyclopaedia of Islam, E. J. Brill, Leiden, 1986. vol. I.
6. Cahen Claude : **Kilidj Arslan II**, in : The encyclopaedia of Islam, E. J. Brill, Leiden, 1986. Vol. V.
7. Canard M. : **Arminiya**, in : The encyclopaedia of Islam, E. J. Brill, Leiden, 1986. vol. I.
8. Crawford Paul : **Poulains**, in : The Crusades An Encyclopedia, ABC-Clio, California, 2006.
9. Elisseefe N. : **Nur Al Din Mahmud b. Zanki**, in : The encyclopaedia of Islam, E.J. Brill, Leiden, 1995. Vol. VIII.
10. Feuillet Michel : Vocabulaire du Christianisme, Presses Universitaires de France, 2^e édition, Paris, 2004.
11. Gerish Deborah : **Amalric of Jerusalem (1136–1174)**, in : The Crusades An Encyclopedia, ABC-Clio, California, 2006.
12. Hillenbrand R. : **Saldjukids**, in : The encyclopaedia of Islam, E. J. Brill, Leiden, 1995. vol. VIII.
13. Kellner-Heinkele Barbara : **Turkman**, in. The encyclopaedia of Islam, Brill, Leiden, 2000. T. X.
14. Kennedy Hugh : **Saphet**, in : The Crusades An Encyclopedia, ABC-Clio, California, 2006.
15. Leiser G. : **Sulayman b. Kutulmish**, in : The encyclopaedia of Islam, Brill, Leiden, 1997. vol. IX,
16. Loud -G. A. : **Conrad III of Germany (1093-1152)**, in : The Crusades An Encyclopedia, ABC-Clio, California, 2006.
17. Loud -G. A. : **Roger II of Sicily**, in : The Crusades An Encyclopedia, ABC-Clio, California, 2006.

18. MacEvitt Christopher : **Bohemund III of Antioch (d. 1201)**, in : The Crusades An Encyclopedia, ABC-Clio, California, 2006.
19. Moure Michel : Dictionnaire encyclopédique d'histoire, Bordas, Paris, 1996.
20. Murray Alan V. : **Banyas**, in : The Crusades An Encyclopedia, ABC-Clio, California, 2006.
21. Murray Alan V. : **Franks**, in : The Crusades An Encyclopedia, ABC-Clio, California, 2006.
22. Richards D.S. : **Salah Al-Din**, in : The encyclopaedia of Islam, E.J. Brill, Leiden, 1995. pp. vol. VIII.
23. Riley-Smith Jonathan : Atlas des Croisades, traduit par Camille Cantoni, Editions Autrement, Paris. 1996.
24. Rosemary Morris : **Myriokephalon, Battle (1176)**, in : The Crusades An Encyclopedia, ABC-Clio, California, 2006.
25. Sayyid Ayman F. : **Samanids**, in : The encyclopaedia of Islam, E. J. Brill, Leiden, 1995. vol. VIII.
26. Sobernheim M. : **Muslim B. Kuraysh**, in : The encyclopaedia of Islam, E. J. Brill, Leiden, 1993. vol. VII.

إحدى عشر : القواميس العربية والموسوعات والأطالس

1. الجوهري (اسماعيل بن حماد)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط 2، بيروت، 1979.
2. ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1997.
3. موسوعة عالم الأديان، Nobilis، بيروت، 2004.
4. الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصرية، بيروت، 2010.

الفهارس

فهرس الأعلام

- أ
- ألب أرسلان، 90، 100، 110، 116، 117، 118،
121، 125، 126، 127، 129، 130، 131،
132، 133، 134، 135، 136، 142، 148،
155، 156، 175، 180، 181، 199، 204،
233
ألتونتاش، 451
ألكسيس الثالث أنجيلوس، 421
آليات الكبادوكي، 134
أليس، 345، 346، 349، 355، 391
امرؤ القيس، 43
اندرونيك دوكاس، 134
إنوسنت الثالث (البابا)، 440
أوريان الثاني (البابا)، 203، 209، 210، 228، 231
أوشين، 187، 193، 244، 247، 248، 285، 293،
296
- ب
- بارسوما، 181، 182
باسيل الأول، 64، 65
باسيل الثاني، 81، 82، 83، 84، 85، 110، 115،
123، 138، 141
باسيل بن أبوخاب، 172
باهان، 54
بدر الجمالي، 223، 224، 225، 226، 227، 403،
450
برتراند، 340
بركياروق، 156
برنارد الفلنسي، 296
بطرس، 203، 212، 229، 273، 320، 452، 465
بطرس (القديس)، 211، 219، 469
بطرس الناسك، 203، 229، 320
- إبراهيم الغزنوي، 117
إبراهيم ينال، 108
أبلغريب أزرروني، 187، 267، 302، 330
أتسز، 127، 199
آتوم، 129، 143
أثناسيوس، 57، 428، 429
أحمد دانشمند، 157، 233، 239، 256، 261، 298،
304، 305، 307، 308، 309، 310، 311،
312، 335
أدهيمار، 230، 243
آرام، 37
أردا، 269، 442
أرسيافي، 125، 126، 129
أرميني بن لنطى، 38
آريوس، 57، 78، 428، 430
إسرائيل بن سلحوق، 98
اسكندر الثاني (البابا)، 212
آشوط الثالث، 74، 81، 202، 459، 461
آشوط الرابع، 86، 87
أقسنقر، 183، 300
آل روين، 8، 13، 17، 18، 146، 187، 188،
194، 241، 277، 285، 301، 303، 314،
315، 316، 317، 318، 319، 325، 326،
328، 330، 336، 339، 343، 344، 347،
348، 349، 356، 361، 392، 424، 452،
459، 480
آل هيثوم، 13، 23، 189، 285، 317، 336، 340،
396، 404، 407، 424
الإسكندر المقدوني، 51
الأفشين، 126

ت	بقراط، 254، 253، 252، 249، 246، 244، 240، 255، 286، 287، 288، 290، 302
تاتيكوس، 280، 251، 250، 243، 232	بلاطيانوس، 303، 171
تانكرد، 7، 230، 231، 233، 243، 244، 245، 247، 248، 249، 256، 273، 283، 289	بلدوين (الأول) البولوني، 262، 244، 240، 230
290، 291، 292، 293، 294، 295، 297	268، 271، 272، 287، 288، 290، 291
298، 299، 300، 319، 323، 324، 328	301، 308، 309، 311، 329
330، 336، 340، 341	بلدوين الثالث، 384، 382، 380، 379، 378، 376
تنش، 305، 258، 181، 180، 176، 155	385، 397
تفروق، 271، 269	بلدوين (الثاني) دو بور، 7، 256، 286، 287، 289
تورنيك بن موشل، 215، 170	290، 291، 292، 293، 295، 296، 297
ث	298، 300، 301، 302، 303، 309، 310
ثاتول، 334، 322، 251، 194، 186	311، 329، 341، 345، 346، 377، 442
ثوروس (أمير الرها)، 258، 256، 241، 186، 170	بلق، 266، 261، 260
259، 260، 261، 262، 263، 264، 265	بندكت الرابع عشر (البابا)، 441
271، 287، 291، 301، 303، 305، 308	بنديكٹس السابع (البابا)، 212
322	بوتوميتس (القائد)، 336، 235، 234
ثوروس الأول، 8، 314، 323، 324، 325، 328	بوزان، 305، 304، 258، 183، 182
330، 332، 333، 335، 336، 337، 339	بولس (القديس)، 211
340، 343، 344، 376، 442	بومبيوس، 52
ثوروس الثاني، 8، 22، 24، 314، 362، 363، 364	بوهيموند، 27، 230، 232، 236، 243، 246
365، 366، 368، 369، 371، 372، 373	273، 274، 278، 279، 280، 281، 282
374، 375، 376، 377، 378، 381، 382	286، 288، 289، 290، 291، 292، 293
384، 385، 387، 388، 389، 403، 452	296، 299، 300، 307، 308، 309، 310
ج	311، 313، 320، 322، 325، 333، 335
جاجيك الأول، 82	336، 337، 338، 339، 342، 343، 344
جاجيك الثاني، 23، 86، 109، 143، 184، 189	345، 346، 348، 375، 397، 398، 404
190، 191، 192، 214، 216، 225، 316	406، 407، 409، 417، 424، 442، 450
324، 337، 353	459، 472
جاجيك بن عباس، 87	بوهيموند الثالث، 407، 397
جاولي، 330، 327	بوهيموند الثاني، 397، 344، 343
	بياتريس، 442، 390، 376
	بيغو، 117، 95
	بيل، 49

خ	جبريل، 171، 186، 256، 266، 289، 291، 303، 304، 305، 306، 307، 308، 309، 311
خاتشاتور، 162	445، 335، 322
خالد بن الوليد، 58	جرجوار أبيراد، 420
خَطَّاب، 132، 142	جرجوار (الأمير)، 54
د	جرجوار الثالث، 374
دارا، 66	جرجوار الرابع، 411، 414، 474
دارا الأول، 51	جرجوار السابع (البابا)، 12، 217، 218، 219، 220، 221، 222، 223، 228، 437، 459، 465، 467
دارا الثالث، 51	469
داوين (القديس)، 212	جرجوار السادس، 439، 440
درطاد الثالث، 426	جرجور الثاني (الخلق)، 6، 7، 11، 196، 213، 214، 215، 216، 217، 218، 219، 220، 221، 222، 223، 225، 226، 228، 253، 284
دغا فاسيل، 300، 301، 341	437، 434، 426
دقاق، 94، 95، 96، 274، 276، 320، 321	جرجور الرابع، 414
دقلديانوس، 158	جغري بك، 109، 116
ديكران الثاني، 52، 158	جكرمش أتابك الموصل، 293، 337
ر	جودفري، 222، 230، 233، 243، 246، 251، 263، 277، 286، 287، 288، 289، 290، 309، 319
الراضي بالله، 63	جورج الأول، 82، 84، 85
رستم، 56، 57، 200، 409، 416، 503	جوسلين الثاني، 346، 348، 349، 350، 353، 361، 370، 391، 443
رضوان (امير حلب)، 121، 274، 282، 283، 294	جوسلين دو كورتينا، 341
321، 329، 450	ح
ركن الدين مسعود (الأول)، 96، 98، 331، 360، 365	حازب، 171، 303
روبن الأول، 189، 192، 194، 315	الحاكم بأمر الله، 207
روبن الثالث، 8، 18، 24، 401، 402، 403، 404	الحتيتي، 181، 183
405، 406، 407، 408، 417	أبو الحسن الأشعري، 106
روبن الثاني، 389، 390	الحسن بن طاهر، 184
روجر دو سالرنو، 300، 341	حسين بن ملاعب، 276
روسيل بايلول، 130، 135	
رومانوس الرابع (الامبراطور)، 86، 90، 100، 123	
124، 125، 127، 131، 132، 133، 134	
135، 140، 142، 151، 162، 163، 166	
167، 168، 169، 204	
ريتشارد الأول قلب الأسد، 412، 415	

ش	ريشارد دو سالرنو، 293، 297، 308 ريمو، 170 ريموند بواتيه، 230، 231، 233، 236، 243، 278، 283، 340، 349، 350، 352، 355، 361، 364، 370، 376، 377، 391، 397 رينو دو شاتيون، 376، 377، 378، 381، 382، 384
ص	ز
صفرونيوس، 198 صلاح الدين الأيوبي، 8، 29، 334، 379، 397، 401، 404، 405، 406، 409، 410، 411، 412، 413، 414، 416، 417، 459، 477 صُنْدَاق، 132	زابيل، 424
ط	س
طغتكين، 276، 296 طغرل، 108 طغرل بك، 90، 99، 100، 101، 103، 108، 109، 110، 111، 113، 114، 115، 116، 121، 130، 148، 156، 251 طغرل بن أرسلان، 330، 332 طمعاج خان، 117، 148	سابق المرداسي، 175 ستيفن، 64، 150، 161، 166، 175، 198، 200، 229، 230، 231، 233، 234، 236، 237، 241، 243، 244، 245، 246، 248، 250، 251، 252، 254، 259، 260، 261، 263، 264، 265، 266، 270، 271، 272، 273، 275، 277، 278، 280، 281، 283، 285، 286، 287، 369، 396، 432، 503 سعيد بن صابوني، 305 سقممان بن أرتق، 266، 292، 337 سليستين الثالث (البابا)، 418، 439 سلوقس الأول، 52 سليمان بن قتلمش، 110، 149، 152، 153، 154، 155، 156، 157، 177، 178، 179، 181، 192، 238، 274، 325، 330 سمباد الثالث، 109، 448 سمباد الثاني، 82 سمباط، 172 سمعان، 212، 249 سمعان (القديس)، 184، 212 أبو سهل، 129، 143 سييف الدولة الحمداني، 44، 66، 68، 71
ظ	
الظاهر (الفاطمي)، 104	
ع	
عبد الرحمن الثالث، 67 عثمان بن عفان، 40، 58 عز الدين كيكافوس الأول، 423 علي بن أبي طالب، 58 عماد الدين زنكي، 20، 28، 53، 65، 345، 346، 354، 355، 358، 359، 360، 361، 364، 366، 370، 386، 397، 504	

ق

القائم بأمر الله، 101، 103، 117
 قتلّمش، 110، 117، 156، 176، 304
 قسطنطين الأول، 8، 18، 241، 244، 314، 315،
 316، 318، 319، 322، 323
 قسطنطين التاسع دوكاس، 88
 قسطنطين التاسع مونوماخوس، 86، 111، 112
 قسطنطين الثامن، 86
 قسطنطين العاشر دوقاس، 122، 123، 166، 169،
 214، 431
 قسطنطين أمير حصن كركر، 269
 قسطنطين أمير كركر، 261، 262
 قسطنطين -أمير لامبرون، 424
 قسطنطين مونوماخوس، 112، 113، 114، 115
 قلج أرسلان، 6، 146، 156، 157، 227، 233،
 236، 237، 238، 239، 241، 305، 307،
 310، 326، 327، 330، 331، 375، 381
 404، 405، 409، 412، 416، 417

ك

كبريانوس، 283
 كربوغا، 259، 277، 280، 283
 كليمنت الثالث، 411، 459، 474
 كليمنت الخامس، 377، 446
 كمشتكين أحمد الدانشمند، 289، 307
 كوسماس، 216
 كوغ فاسيل، 7، 186، 192، 194، 241، 256،
 284، 285، 286، 287، 288، 289، 290،
 291، 292، 294، 295، 296، 298، 299،
 300، 302، 310، 323، 325، 329، 335
 342
 كومنين إسحاق، 115، 122، 138، 173

عمر بن الخطاب، 43، 58، 74، 198، 199
 عموري الأول، 24، 385، 387، 396، 399

غ

غازي بن دانشمند، 331، 332، 333، 344، 347،
 351
 غازي بن كمشتكين، 331
 غريغور الثالث، 222
 غريغور ماجيستروس، 214

ف

فاساك باثلوثوني، 173
 فاسيلاك، 132، 142
 فاسيل دغا، 299، 301
 فالريان، 52
 فردريك السوابي، 414، 418
 فردريك ببروسا، 367، 412، 413، 414، 418، 477
 فولك (الملك)، 346، 348، 349، 350، 353، 354،
 355، 359، 361، 412
 فير، 253، 254
 فيروز، 7، 101، 256، 279، 280، 282، 450،
 459، 472
 فيلاريت، 6، 17، 18، 21، 125، 146، 155، 164،
 165، 166، 167، 168، 169، 170، 171،
 172، 173، 174، 175، 176، 177، 178،
 179، 181، 182، 183، 184، 185، 186،
 187، 189، 191، 192، 193، 214، 215،
 216، 225، 244، 249، 250، 251، 255،
 257، 258، 274، 284، 285، 303، 304،
 317، 391، 423، 434، 435، 441، 449
 456
 فيليب، 424
 فيليب الثاني أغسطس، 412

ليون دياباتينوس، 130	كومنين ألكسيس، 23، 153، 154، 156، 157،
ليون فوقاس، 66، 67، 70	175، 203، 209، 210، 211، 227، 229،
	230، 231، 235، 240، 243، 251، 258،
م	265، 275، 280، 285، 291، 292، 293،
المأمون (الخليفة)، 43، 61، 106	310، 313، 324، 328، 333، 335، 337،
المستنصر (الفاطمي)، 223	339
المسيح (عليه السلام)، 56، 57، 74، 78، 142، 200،	كومنين مانويل، 8، 22، 167، 314، 363، 364،
201، 206، 208، 231، 282، 306، 377،	365، 367، 369، 370، 371، 373، 375،
420، 427، 428، 429، 430، 438، 440،	376، 378، 381، 382، 383، 385، 393،
453، 461، 462، 464، 467، 506	397، 404، 407
المطيع لله، 72	كومنين يوحنا، 8، 22، 314، 332، 349، 350،
المقتدي، 117	352، 353، 355، 356، 357، 358، 359،
المهدي، 43، 61، 100، 165	360، 361، 362، 364، 369، 386، 391،
ماندالي (الإخوة)، 324	كونراد الثالث، 367
ابن المخلبان، 133	ل
محمد بن ملكشاه، 329	ابن لاون، 44، 46، 194، 424
محمود بن سبكتكين، 98	لويس السابع، 367، 376
محمود بن صالح المرداسي، 124	ليباريت، 111، 113
مريم، 429	ليباريت أوريليان، 111
مسلم بن قريش، 175، 176، 178، 179، 180،	ليو تورنيكيوس، 112
181، 423	ليون، 45، 47، 112، 317، 424
معاوية بن أبي سفيان، 59، 79	ليون الأول، 8، 13، 21، 22، 23، 29، 31، 194،
ملك غازي بن دانشمند، 298	314، 316، 343، 344، 347، 348، 349،
ملكشاه، 6، 105، 116، 117، 146، 148، 149،	350، 352، 353، 354، 355، 356، 357،
155، 156، 175، 177، 179، 180، 181،	358، 360، 362، 363، 388، 395، 420،
182، 183، 192، 193، 206، 215، 239،	422، 424، 442، 443، 452، 455، 459،
258، 267، 269، 274، 296، 300، 304،	487
321، 327، 328، 329، 330، 331، 345،	ليون الثاني، 8، 18، 24، 189، 344، 401، 402،
434، 449	408، 409، 410، 411، 412، 413، 414،
مليح، 8، 18، 24، 25، 158، 314، 356، 369،	415، 416، 417، 418، 419، 420، 421،
386، 388، 389، 390، 391، 392، 393،	422، 423، 424، 438، 439، 440، 444،
394، 395، 396، 397، 398، 399، 400،	445
402، 403، 449، 456	ليون تفادانوس، 172
مودود، 296، 300	

نيقولا، 430، 452، 506	مورفيا، 290، 311، 345
هـ	موشيل ماميكونيان، 54
هارون الرشيد، 43، 44، 46، 70، 100، 165، 211،	ميخائيل الأول كيولاريوس، 221
513، 497	ميخائيل السابع (الامبراطور)، 136، 151، 162، 163،
هايك، 37، 49	167، 168، 169، 171، 174، 208، 216،
هرقل، 53، 54، 55، 56، 57، 83، 200	220، 221، 226
هنري الرابع، 209، 219، 220، 459، 469	ميخائيل السادس، 115
هنري السادس، 419، 420	ميخائيل كيولاريوس، 88
هنري دو شامبانيا، 417، 418	ميكائيل، 97، 98، 109
هيثوم الأول، 13، 23، 31، 189، 424، 446، 448	ن
هيلانه، 208	نرسييس المبروني، 439، 444، 445، 474
و	نرسييس شنوراهالي، 322، 392
والتر المفلس، 229، 230	أبو نصر محمد، 133
ولف، 247	نظام الدولة نصر، 170
ي	نظام الملك (الوزير)، 105، 106، 107، 117، 149،
ياروقتش، 450	179، 181، 239، 511
ياغي سيان، 7، 184، 256، 274، 275، 277،	نقفور الثالث، 152، 153، 168، 174، 194، 220
450، 326، 321، 320، 281، 279	نقفور بريان، 128، 132، 134، 135
يافث بن نوح، 36، 37	نقفور بوتانياتس، 151، 173، 174، 220
يوحنا ترمسكس، 69، 74، 201، 459، 461	نقفور فوقاس، 64، 67، 68، 69، 70، 71، 72، 73،
يوحنا سمباد، 83، 85، 86	74، 75، 77، 81، 201
يوحنا سنحاريب، 83، 109	نقفور ميليسينوس، 152، 170
يوحنا كوركواز، 65	نوح، 37، 49
يوسف تراخانيوتس، 128، 130، 132	نور الدين، 6، 7، 8، 18، 22، 24، 25، 28، 68،
يونان بن يافث، 38	314، 334، 341، 370، 371، 376، 378،
	380، 381، 383، 385، 386، 388، 389،
	390، 391، 392، 393، 394، 395، 397،
	399، 400، 404، 405، 411، 451، 456،
	514، 516

فهرس الأماكن والبلدان

222، 229، 231، 235، 237، 254، 255،

258، 269، 295، 309، 310

أصفهان، 100، 148، 156

أفامية، 334

إفريقيا، 42

افريقية، 104

ألمانيا، 219، 459، 469

الأمانوس، 41، 46، 47، 68، 214، 242، 249،

277، 279، 280، 282، 335، 344، 348،

361، 373، 395، 397، 403، 406، 416،

450

الأناضول، 39، 42، 50، 54، 76، 100، 107،

122، 123، 124، 125، 136، 137، 149،

151، 157، 159، 210، 212، 233، 236،

237، 506

الأندلس، 202، 218

انجلترا، 212، 230

أنطاكية، 7، 8، 24، 26، 31، 41، 46، 52، 54،

67، 71، 73، 74، 124، 155، 158، 159،

162، 164، 167، 169، 171، 172، 173،

174، 176، 177، 178، 179، 180، 181،

183، 184، 192، 193، 195، 196، 199،

202، 227، 237، 239، 242، 244، 250،

251، 252، 256، 257، 259، 264، 270،

272، 273، 274، 275، 276، 277، 278،

279، 280، 282، 283، 285، 287، 288،

289، 290، 291، 292، 293، 294، 296،

299، 300، 304، 307، 310، 315، 319،

320، 321، 322، 328، 330، 333، 335،

336، 337، 338، 340، 341، 343، 344،

345، 346، 347، 348، 349، 350، 351،

352، 353، 354، 355، 356، 357، 358،

أ

أبخازيا، 82

أبلاستا، 294

أبُلُسْتَيْن، 44، 170

الأثارب، 345، 346

أدريانوبل، 112

أذربيجان، 38، 85، 100، 108، 115، 118، 132،

208

أذنة، 7، 45، 48، 53، 66، 69، 161، 196، 242،

246، 247، 293، 317، 319، 322، 360،

396، 397

أرارات، 37، 49، 82

أربل، 329

أرتاح، 124، 273، 293، 338، 385

أرجيش، 126

أرزن، 36، 100، 111، 115، 130، 135، 158،

الاسكندرونة، 53، 249، 317، 377، 378،

الاسكندرية، 30، 56، 65، 111، 162، 199، 223،

233، 280، 316، 353، 427، 428، 502،

504، 505، 506، 511

إسوس، 51

آسيا، 36، 42، 50، 53، 61، 67، 89، 92، 93،

94، 99، 100، 102، 107، 110، 115، 118،

120، 123، 126، 138، 148، 149، 150،

152، 153، 157، 161، 195، 196، 199،

233، 501، 502، 504، 513

آسيا الصغرى، 41، 50، 62، 76، 81، 89، 108،

109، 110، 111، 120، 121، 124، 125،

136، 143، 145، 147، 149، 151، 153،

156، 157، 159، 160، 162، 185، 195،

198، 200، 204، 207، 209، 212، 217،

البَرْدَان (نهر)، 48	359، 360، 361، 362، 364، 370، 376
برسريرت، 191، 324	377، 378، 380، 381، 384، 386، 390
البستان (أبلستين)، 44، 171، 294، 330، 337، 338	391، 392، 393، 394، 396، 397، 398
البسفور، 154	401، 404، 406، 407، 408، 409، 410
البصرة، 63	415، 417، 418، 422، 424، 426، 439
بعرين، 354	442، 445، 461، 464، 505
بغداد، 44، 46، 60، 62، 64، 71، 79، 88، 97، 99، 100، 101، 102، 103، 104، 105، 107، 117، 130، 201، 269، 304، 328، 462، 497، 513	آني، 36، 69، 81، 83، 85، 86، 87، 89، 109، 119، 120، 121، 135، 139، 143، 208، 225
بغراس، 58، 273، 357، 377، 396، 410، 417	أوربا، 42، 49، 50، 55، 57، 58، 112، 118، 120، 122، 197، 210، 213، 218، 220
بلاد الجوف، 47	221، 228، 231، 235، 246، 249، 292
بلاد الرافدين، 42، 200	293، 299، 504
بلاد الروم، 39، 40، 43، 44، 58، 60، 61، 67، 102، 108، 111، 127، 149، 151، 155، 157، 177، 183، 200، 239، 503	أبييريا، 109
بلاد الكُنج، 118	إيران، 38، 93، 100، 102، 103، 108، 132، 148
بلغاريا، 50، 81	إيطاليا، 112، 136، 154، 210، 212، 215، 217، 221، 228، 278، 292، 310، 343، 374
البلقان، 50، 123، 137، 292	419
بليكانوم، 234	ب
البوسفور، 87، 229	بابل، 49، 464
بولونيا، 122	البارة، 276، 320، 321
بومبيوبوليس، 52	باري، 136
بيرامس، 48، 170، 317، 344	بانياس، 379، 380، 512
بيلاي، 152	بحر الآرال، 93
البيرة، 267، 285، 302، 330	البحر الأسود، 83، 109، 115، 118، 122، 152، 233، 308، 331، 417
ت	بحر الخزر، 92
تبريز، 329	البحر المتوسط، 36، 40، 41، 48، 49، 52، 75، 102، 152، 161، 173، 184، 193، 202، 317، 318، 334، 347، 417، 421
تراقيا، 50	بحر مرمرة، 149، 152، 154
تركستان، 92، 94، 96، 97، 98، 108، 150، 195	بخارى، 92، 94، 98

جيجان (نهر)، 48، 170	تركيا، 38، 39، 40، 41، 43، 44، 47، 48، 50
جيجون (نهر)، 93، 96، 98، 148	52، 53، 70، 73، 83، 84، 87، 93، 100
	112، 120، 122، 152، 154، 165، 294
ح	301، 317، 331، 503
حازب، 171، 303	تساليا، 50
حارم، 8، 276، 314، 321، 322، 347، 385	تفليس، 36، 40، 82، 87، 118
386، 389، 391، 403	تل باشر، 249، 253، 259، 261، 263، 265
الحجاز، 226	277، 288، 296، 341، 361، 364، 405
الحدث، 43، 44، 45، 58، 59، 61	تل حمدون، 353، 373
حران، 269، 327، 337، 339، 340	تل قباسين، 276، 322
حصن ابن رحوان، 61	تيزين، 46، 61
حصن الحسينية، 61	ث
حصن الرض، 59	الثغور، 41، 43، 44، 45، 46، 48، 58، 59، 60
حصن القديس يوحنا، 261	61، 62، 63، 64، 66، 67، 70، 71، 74، 75
حصن المثقب، 59	100، 107، 154، 158، 165، 166، 175
حصن بني المؤمن، 61	176، 180، 195، 249، 268، 284، 294
حصن طبارجي، 61	303، 317، 496، 513
حصن منصور، 165، 285، 288، 295، 298	ج
حلب، 29، 30، 47، 51، 60، 66، 68، 69، 71	جاستون، 377
74، 116، 124، 127، 130، 149، 155	جالاتيا، 152
156، 161، 170، 175، 179، 180، 181	الجيل الأسود، 214
183، 193، 213، 253، 267، 269، 274	الجزيرة، 40، 45، 53، 60، 63، 66، 74، 76، 77
276، 282، 283، 294، 308، 320، 321	107، 127، 141، 175، 253، 261، 272
322، 328، 329، 334، 337، 341، 342	295، 298، 301
345، 346، 354، 359، 360، 370، 380	جزيرة ابن عمر، 37
381، 383، 384، 389، 390، 391، 392	جُسْطَرُون (قلعة)، 143
393، 394، 395، 397، 411، 417، 423	جند، 56، 97
446، 450، 495، 496، 497، 505	جنزاك، 187
حمص، 56، 276، 379، 461	جنوة، 277
خ	جورجيا، 38، 40، 82، 83، 109، 112، 118
الخابور (نهر)، 327	130، 506

ر	خراسان، 63، 97، 98، 99، 102، 108، 124، 133، 148، 155، 181، 183، 239، 252
ربعان، 46، 68، 170، 171، 187، 254، 285، 288، 296، 298، 300، 301، 302	خربت (قلعة)، 171 خروص، 389، 391، 392، 393
الراوندان، 240، 241، 244، 252، 265، 286، 288	خلائط، 36، 100، 130، 132، 133، 166، 167
الرس، 36	خلقدونية، 55، 56، 78، 152، 173، 430، 431
الرملة، 127، 199، 462	436، 437، 439
الرها، 7، 20، 21، 26، 53، 66، 126، 127، 131، 160، 172، 176، 178، 181، 182، 183، 184، 186، 192، 194، 195، 241، 246، 249، 253، 255، 256، 257، 258، 259، 260، 261، 262، 263، 264، 265، 266، 267، 268، 269، 270، 271، 272، 273، 275، 277، 283، 286، 287، 288، 289، 290، 291، 292، 293، 294، 295، 296، 297، 298، 299، 300، 301، 303، 304، 305، 308، 309، 310، 311، 313، 322، 326، 327، 329، 337، 341، 345، 346، 348، 354، 356، 359، 361، 364، 365، 366، 367، 368، 369، 376، 390، 391، 400، 426، 435، 442، 443، 445، 449، 457، 502، 512، 513	خوارزم، 99 خوروس، 302
الزوج، 276	د
رودس، 152	داندانقان، 99، 100
روسيا، 50، 92، 93، 94، 161	دبيل، 36
روما، 56، 196، 209، 211، 213، 214، 216، 217، 219، 220، 221، 223، 224، 226، 228، 253، 469	دجلة، 36، 37، 40
رومانوبوليس، 171	دراكون، 229
الري، 100، 117، 156	الدرب، 43
ز	درب الحدث، 43، 44
زبطرة، 61	دلوك، 46، 68، 161، 370
	دمشق، 27، 28، 29، 36، 37، 43، 47، 54، 55، 59، 60، 68، 74، 76، 79، 105، 125، 149، 155، 180، 199، 223، 229، 230، 232، 258، 267، 268، 274، 276، 305، 320، 370، 378، 379، 385، 397، 406، 416، 451، 462، 493، 494، 495، 496، 497، 498، 499، 503، 506، 512، 513
	دورازو، 292، 339
	دوريليوم، 236، 237، 238، 239
	دوين، 78، 430
	ديار بكر، 40، 66، 76، 261، 266، 269، 271، 321، 326، 329، 338
	ديار ربيعة، 63

60، 62، 63، 64، 66، 68، 70، 73، 74، 75،

76، 77، 79، 81، 91، 100، 102، 103،

105، 107، 114، 118، 127، 129، 130،

131، 136، 138، 147، 149، 154، 155،

156، 157، 160، 161، 174، 175،

180، 176، 188، 196، 197، 199، 201،

202، 203، 204، 205، 207، 218، 223،

224، 226، 227، 232، 238، 239، 257،

259، 267، 269، 273، 274، 277، 283،

292، 298، 301، 313، 315، 322، 329،

334، 337، 340، 342، 347، 351، 352،

355، 357، 358، 359، 360، 362، 364،

365، 367، 369، 370، 377، 378، 380،

381، 385، 386، 392، 393، 394، 395،

397، 398، 399، 400، 406، 410، 411،

412، 413، 415، 416، 417، 419، 420،

425، 427، 428، 435، 437، 442، 443،

447، 449، 451، 452، 453، 457، 461،

496، 499، 502، 503، 504، 506، 513،

541

شبه الجزيرة العربية، 53، 73

شيراز، 168، 170

شينزر، 329

شيمشاط، 170

ص

صَقْد، 379

صقلية، 202

الصين، 92، 102، 149

ط

الطارون، 80، 81، 170

طبرستان، 93، 100

س

سارديس، 150

سارس، 48

ساسون، 170، 215، 216

سامسون، 417

سبسطية، 307

سرفنتيكار، 348، 350

سرمين، 294

سروج، 266

سلوقية، 52، 353، 413

سميساط، 65، 176، 249، 253، 260، 261، 262،

264، 266، 267، 285، 287، 297، 302

سوريا، 38، 47، 52، 53، 55، 56، 57، 68، 72،

96، 124، 164، 167، 170، 172، 173،

175، 176، 185، 225، 241، 253، 257،

461، 502

السويدية، 73، 184، 193، 280

سيبيريا، 93

سيحان (نهر)، 48، 316

سيحون (نهر)، 94، 97

سيس، 42، 46، 68، 70، 190، 191، 213، 316،

317، 324، 354، 392، 399، 408، 409،

417، 418، 420، 423، 424، 439، 448،

491

سينوب، 417

سيواس، 84، 116، 124، 126، 129، 142، 150،

157، 158، 167، 233، 239، 289، 291،

298، 305، 307، 309، 310، 311، 312،

331، 332، 344، 434

ش

الشام، 6، 11، 12، 29، 31، 35، 39، 41، 42،

43، 44، 45، 48، 53، 54، 55، 56، 57، 58،

ف

- طرابلس، 73، 81، 223، 463، 499
طرايبزون، 83
طرسوس، 7، 43، 44، 45، 48، 51، 59، 61، 66، 67، 68، 69، 70، 71، 72، 154، 159، 176، 187، 193، 196، 199، 201، 242، 245، 246، 248، 293، 317، 319، 339، 353، 368، 371، 382، 383، 384، 413، 439، 474، 477
طرندة، 59
طليطلة، 202
الطوانة، 242
طوروس، 39، 40، 41، 43، 47، 48، 49، 58، 59، 60، 62، 65، 71، 121، 143، 144، 157، 160، 161، 164، 167، 170، 188، 189، 190، 191، 192، 194، 195، 241، 242، 248، 249، 277، 285، 301، 303، 316، 317
فارس، 54، 63، 94، 96، 98، 101، 105، 111، 156، 238، 252، 269، 296، 473، 502
فاسبوراكان، 83، 84، 85، 109، 110
فاهكه (قلعة)، 316، 459، 489
فايا، 61
الفرات، 36، 39، 40، 45، 59، 124، 130، 160، 164، 170، 171، 173، 187، 192، 215، 240، 241، 251، 252، 254، 257، 259، 260، 267، 275، 285، 286، 288، 294، 299، 302، 303، 307، 312، 473
فرنسا، 212، 215، 228، 230، 313
فريجيا، 150، 153
فلسطين، 8، 17، 25، 40، 53، 54، 55، 75، 199، 203، 207، 208، 211، 216، 226، 227، 232، 236، 261، 267، 282
الفولغا، 93

ق

- قارص، 36، 85، 87، 114، 121، 129، 143، 251
قالقلا، 111
القاهرة، 29، 37، 40، 47، 54، 55، 56، 57، 59، 64، 83، 92، 93، 98، 99، 103، 104، 110، 113، 112، 131، 156، 166، 172، 183، 196، 200، 211، 213، 223، 229، 245، 269، 493، 494، 495، 496، 497، 498، 499، 501، 502، 503، 504، 505، 506، 516
قبرص، 277، 280، 353، 378، 416، 419، 421، 442
العاصي، 73، 184، 320، 361
العراق، 38، 45، 46، 60، 62، 63، 66، 72، 91، 101، 102، 103، 108، 130، 149، 175، 226، 229، 252، 267، 269، 327، 337، 513
عزاز، 341
عسقلان، 127، 199
عكا، 223، 224
عمورية، 61، 126، 166
العواصم، 41، 46، 61، 124، 170
عين تاب، 68، 249، 267، 288
عين زربي، 68، 317، 318، 319، 324، 325، 330، 344، 353، 357، 373، 459، 490

ع

الفهارس

قيصرية، 40، 68، 70، 122، 124، 126، 143، 144، 150، 199، 242، 249، 294، 317، 324، 426، 463	القدس، 54، 74، 78، 141، 198، 199، 205، 212، 219، 222، 232، 235، 430، 463، 469
قيليقيا، 5، 6، 8، 11، 13، 16، 17، 18، 22، 23، 25، 27، 28، 29، 31، 32، 33، 34، 35، 40، 41، 42، 46، 47، 48، 49، 51، 52، 53، 54، 57، 59، 60، 61، 62، 65، 66، 67، 69، 70، 71، 72، 74، 75، 76، 88، 89، 125، 136، 144، 145، 146، 147، 154، 157، 158، 159، 160، 161، 162، 163، 164، 167، 168، 170، 171، 173، 174، 176، 184، 185، 186، 187، 188، 189، 190، 191، 192، 193، 194، 195، 197، 201، 207، 209، 213، 215، 217، 225، 228، 232، 238، 242، 243، 244، 245، 247، 249، 251، 253، 257، 265، 273، 275، 285، 286، 287، 289، 293، 298، 302، 312، 313، 314، 315، 316، 318، 319، 320، 322، 323، 324، 328، 330، 332، 333، 336، 339، 340، 344، 347، 348، 349، 350، 351، 352، 353، 355، 356، 358، 360، 361، 362، 363، 364، 365، 366، 368، 369، 371، 373، 377، 378، 381، 382، 383، 384، 386، 387، 389، 390، 391، 393، 394، 395، 396، 397، 399، 400، 404، 406، 407، 411، 413، 416، 417، 418، 421، 435، 438، 439، 444، 448، 449، 450، 452، 455، 456، 457، 458، 459، 480، 516، 541	قرطبة، 67 القرم، 122 قزوين، 36، 52، 63، 92، 93، 95، 109، 110، 112، 156 قسطموني، 331 القسطنطينية، 7، 12، 22، 23، 43، 44، 53، 54، 55، 56، 58، 62، 64، 65، 67، 69، 78، 79، 83، 86، 88، 104، 111، 112، 113، 116، 123، 125، 126، 128، 136، 137، 142، 151، 152، 154، 162، 163، 167، 169، 174، 175، 196، 203، 208، 209، 210، 213، 215، 216، 217، 218، 219، 220، 221، 224، 226، 229، 230، 232، 234، 235، 236، 237، 239، 240، 243، 265، 301، 322، 332، 333، 339، 349، 351، 356، 357، 358، 360، 361، 362، 364، 365، 367، 368، 371، 386، 391، 394، 396، 412، 428، 430، 431، 433، 436، 437، 438، 465، 467، 469 قطر غاش، 59 قلعة الروم، 285، 288، 390، 434، 477 قُورَس، 46 القوقاز، 16، 36، 38، 81، 82، 89، 118 قونية، 39، 122، 124، 125، 126، 147، 149، 153، 157، 167، 236، 241، 242، 295، 305، 310، 325، 326، 331، 332، 351، 360، 366، 372، 373، 376، 412، 417، 477، 481، 511 قيسارية، 40، 75، 463
ك كالنجر (قلعة)، 98 كاليكادنوس، 52، 413	

الفهارس

338، 329، 269،	كبادوكيا، 39، 40، 60، 70، 84، 87، 88، 116،
مُتراسون، 215	122، 123، 125، 126، 127، 143، 144،
مراغة، 329	158، 159، 160، 166، 173، 189، 192،
مرعش، 7، 43، 44، 45، 58، 59، 66، 68، 124،	217، 242، 243
144، 161، 167، 168، 169، 170، 172،	كرياخ، 38
183، 184، 186، 194، 196، 242، 244،	الكرك، 399، 403
249، 250، 251، 252، 254، 272، 285،	كركر، 171، 261، 262، 269، 302،
295، 322، 324، 325، 334، 337، 348،	كريت، 67، 201
349، 376، 386، 400، 409، 435، 450،	كريسوبوليس، 152
مرو، 99، 148	كوبيتار، 190، 192، 244
مصر، 25، 52، 53، 55، 56، 57، 62، 63، 68،	كودنس، 48
71، 101، 103، 104، 105، 106، 113،	كور، 36، 478
114، 118، 127، 138، 160، 199، 207،	كوروموزول (قلعة)، 191، 192
214، 223، 224، 225، 226، 227، 306،	كوس، 152
315، 317، 348، 370، 385، 397، 403،	كوكسن، 250
411، 450، 452، 464، 496، 504،	كومانانا، 250
مصريين، 294	كيزسترا، 324
المصيصة، 7، 45، 46، 48، 59، 67، 69، 70، 161،	كيسوم، 187، 256، 284، 285، 286، 291،
171، 190، 196، 242، 248، 251، 293،	298، 299، 300، 301، 302، 329، 335،
336، 340، 347، 348، 382، 383، 396،	كيسون، 171، 254، 288
408	
المعرة، 294	ل
معرة النعمان، 283	اللاذقية، 334، 336، 345
معرة مصريين، 276	اللكام، 41، 45، 47، 58، 68، 242، 344
المغرب، 104	لمبرون، 187، 188، 193، 244، 247، 285، 296،
ملاجينة، 366	319، 322، 336، 353، 371، 387، 396،
ملطية، 7، 26، 39، 45، 59، 65، 116، 125،	407، 439، 441
126، 132، 156، 166، 167، 170، 176،	لوري، 85، 181
183، 186، 194، 233، 249، 256، 257،	ليكيا، 212
258، 261، 264، 266، 285، 289، 290،	
291، 298، 303، 304، 305، 306، 307،	م
308، 309، 310، 311، 312، 322، 326،	ما وراء النهر، 92، 94، 96، 97، 109، 116، 148،
327، 330، 331، 332، 335، 345، 348،	199
360، 372، 405، 435، 442، 445، 450،	

هـ	منبج، 46، 61، 68، 124
	منغوليا، 92
الهارونية، 45، 46، 61	الموصل، 28، 37، 46، 63، 66، 131، 175، 179،
هاليس، 158	190، 259، 269، 277، 293، 296، 297،
هاستان، 37	300، 327، 329، 337، 345، 358، 411،
هرقلة، 61، 242، 244، 249	502، 513
همدان، 329	مولدافيا، 122
الهند، 37، 96، 98، 102	ميافارقين، 40، 66، 170، 329
	ميريو كينغالون، 404
و	ن
واسط، 63	نصيبين، 269
وان، 10، 37، 50، 53، 57، 62، 70، 77، 81،	نحر دراكو، 154
85، 96، 101، 103، 104، 111، 121، 126،	نيسابور، 148
132، 161، 231، 286، 292، 297	نيقوميديا، 152
وسطان، 208	نيقية، 57، 78، 115، 150، 152، 153، 154،
ي	156، 157، 195، 196، 229، 232، 233،
اليمن، 226	235، 236، 239، 240، 241، 243، 244،
	273، 275، 286، 302، 306، 307، 430،
	نيكسار، 308

1 – باللغة العربية

يسعى هذا البحث إلى دراسة تاريخ إمارة أرمينيا الصغرى التي نشأت في جنوب شرقي آسيا الصغرى، بين 463-623هـ/1071-1226م، والتركيز على علاقتها بكل من السلاجقة والصليبيين. مع التطرق إلى الصراع البيزنطي-الإسلامي، على إقليم قيليقيا بعد ضعف الخلافة العباسية. ثم بروز الأتراك السلاجقة في بلاد ما وراء النهر، واعتناقهم الاسلام، ثم اكتساحهم لأرمينيا الكبرى، وأجزاء كبيرة من أراضي الامبراطورية البيزنطية. أدت هذه الأحداث إلى نزوح الأرمن بأعداد ضخمة من موطنهم الأصلي والاستقرار في قيليقيا، وفي جبال طوروس. وبعدها بقليل، وصلت الحملة الصليبية الأولى إلى آسيا الصغرى في طريقها نحو بيت المقدس، مما أدى إلى تحالف الأرمن مع الصليبيين ضد المسلمين. وركز البحث على الدور الذي قام به الأرمن في أحداث المشرق الاسلامي، خاصة بلاد الشام، خلال حقبة من حقبة الحروب الصليبية، وينتهي في الأخير بالتطرق إلى أبرز المؤثرات التي تركها الصليبيون والمسلمون في المجتمع الأرمني.

2 – باللغة الفرنسية :

Cette recherche a pour but d'étudier l'histoire de la Principauté de la Petite Arménie, située au Sud-Est de l'Asie Mineure, entre 463-623 h/1071-1226, et se concentre sur sa relation avec les Seldjoukides et les Croisés. Elle aborde aussi le conflit byzantin-islamique, sur le territoire de Cilicie après le déclin du califat Abbasside. Après cela La montée des Turcs Seldjoukides dans la transoxiane, et leur conversion à l'Islam, puis leur conquête de la Grande Arménie et de grandes parties du territoire de l'Empire Byzantin. Ces événements ont conduit à l'exode massif des Arméniens de leur patrie d'origine et se stabilisent en Cilicie, et dans les montagnes du Taurus. Peu de temps après, la première croisade a atteint l'Asie Mineure en route vers Jérusalem, ce qui a conduit à une alliance des Arméniens avec les Croisés contre les Musulmans. La recherche a porté surtout sur le rôle joué par les Arméniens dans les événements de l'Orient islamique, pendant une ère des Croisades. Se termine en dernier, par les effets les plus importants laissés par les Croisés et les Musulmans dans la société Arménienne.